سلسلة الرسائل الجامعية ١٠

الصراع الحضاري

بين الشرق والغرب



تأليف
د/ رشدي أبو شبانة علي الرشيدي

دار اليقين للنشر والتوزيع



تعريف بالمؤلف

- أ.د/ رشدي أبو شبانه على الرشيدي .
- من مواليد قرية أويش الحجر - مركز المنصورة - دقهلية - ج . م . ع
عام ١٩٦٣م .
- حصل على الليسانس في الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير عام جيد جدًا ١٩٨٦م .
- حصل على درجة التخصص الماجستير في أصول الدين في الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير ممتاز في موضوع موقف الدعوة الإسلامية من التضامن الدولي .
- حصل على درجة الدكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير مرتبة الشرف الأولى في موضوع الصراع الحضاري بين الشرق والغرب وأثره على الدعوة الإسلامية في العصر الحديث عام ١٩٩٤م .
- حصل على درجة أستاذ مساعد في الدعوة والثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٠م .
- تقدم بأبحاث في مجالات الدعوة والثقافة للحصول على درجة الأستاذية .

* من مؤلفات وأبحاث متعددة منها :

١- المدخل إلى علم الدعوة .
٢- التبصير بمكائد التنصير .
٣- فتح القريب المجيب في فن الخطابة وإعداد الخطيب .
٤- قضية المرأة في ضوء النظم والثقافة الإسلامية دراسة مقارنة .
٥- الاستغراق في بيان مفاهيم وشبهات الاستشراق .
٦- الأصولية الإنجيلية الصهيونية وموقف الدعوة الإسلامية منها .
٧- منهج القرآن في الدعوة إلى الله .
٨- التطرف الديني وطرق مواجهته .
٩- الحوار ودوره في الدعوة والثقافة والتربية .
١٠- كشف اللثام عن حقيقة الإعلام في الإسلام .
١١- الروح القدس في المسيحية واليهودية والإسلام .
١٢- المرأة المسلمة ودورها في الدعوة إلى الله .
١٣- فقه الاختلاف في المنظور الدعوى .


الصراع الحضاري
بين الشرق والغرب

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الرشيدي ، رشدي أبو شبانة علي

الصراع الحضاري بين الشرق والغرب /

تأليف : رشدي أبو شبانة على الرشيدي .

ط ١ - المنصورة : دار اليقين ، ٢٠٠٨

٦٣٢ ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم تدمك : ٨ - ٢٦٩ - ٣٣٦ - ٩٧٧

١ - الصراع الثقافي

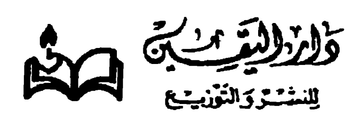
أ - العنوان

٣٠٦,٤

رقم الإيداع : ٥٦٦٥/ ٢٠٠٨



تأليف
الدكتور رشدي أبو شبانة علي الرشيدي





إهـــــــداء

إلى والـــديّ العـزيـزيـن

تعبيرًا عن الوفاء

وعجزًا عن الإيفاء

رشدي



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أحمده حمد الشاكرين، وأسأله الخير والفلاح إلى يوم الدين، لخدمة دينه القويم. وأعوذ بالله من شر نفسي، وسوء عملي، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع طريقه إلى يوم الدين. **وبعد:**

فإن قسم الدعوة الإسلامية بكليات أصول الدين بجامعة الأزهر له دور كبير في الدفاع عن الإسلام ضد هجمات المبشرين، والمستشرقين، والعلمانيين؛ ببيانه منهج الحق في سائر شبهاتهم. وهو يعتمد - في مجموع نشاطه العلمي - على الإبداع الفكري الذي يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية؛ وكتب التراث الإسلامي إذ إنه يعني برصد الأفكار الحديثة والمعاصرة، وتأليف البحوث التي تناقشها، ومن هذا القبيل موضوع الرسالة التي نحن بصددها، والذي يهدف في المقام الأول إلى إلقاء الضوء على الصراع بين الحق والباطل في أحلك فتراته، وبيان آثاره الخطيرة على الدعوة الإسلامية، ووضع المنهج الأصيل النابع من الكتاب والسنة لمواجهة هذا الصراع الحضاري في هذه الفترة التي نعيشها، والتي فقد الإسلام فيها الزمام، بسبب انحطاط المسلمين، وتخليهم عن القيادة التي يفرضها عليهم، والوصاية التي يكلفهم بها على البشرية. ومن ثم، فإن هذا البحث المتواضع يحتل مكانة مهمة، من حيث موضوعه، ومنهج معالجته في الدعوة الإسلامية، ذلك التخصص الذي شرفني الله عز وجل بالانتماء إليه. ففي أواخر هذا القرن الذي نعيش فيه تكشفت كلُّ الحيل والأكاذيب التي تستخدم من أجل الإطاحة بدول، وحكومات، وأفراد، في زمن أصبحت فيه الأحداث كاشفة، تتحدث عن نفسها، دون الحاجة إلى وثائق، ومستندات لإثباتها. لم يعد خافيًا على أحد أن القضية ليست مجرد صراع العالم

العربي ضد العالم الغربي فحسب؛ وإنما هي- بكل أسف- صراع التعصب ضد الإسلام؛ فهي قضية تعصب ديني سياسي بعيدة المدى، متعددة الاشكال، واستخدم فيها الغرب كل ما يمكن وما لا يمكن تصوره من وسائل؛ لتحقيق أغراضه لاحتواء الإسلام والمسلمين.

فمن المعلوم- لدى كل مسلم- أن الصراع بين الحق والباطل صراع أزلي، وسنة كونية، بدأت منذ خلق الله آدم عليه السلام، وموقف إبليس اللعين منه، وتحذير الله عز وجل آدم من إبليس وجنده فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(١)

وتتوالى حلقات الصراع الحضاري بين الحق والباطل عبر السنين والأزمان، تمثلت هذه الحلقات- كما بينها لنا تاريخ الدعوة الإسلامية- في مواقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم؛ لتبليغ رسالة الله عز وجل إلى الناس؛ حتى جاءت رسالة الله الخاتمة على فترة من الرسل، في وقت سيطرت فيه الجاهلية على العالم، فانحرفت بقيمه ومقاييسه، وأعملت فيه موجة من الظلم والكفر والضلال، على الرغم من الشرائع السماوية التي كان قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وبذلك أصبحت لا حياة فيها ولا روح.

جاء الإسلام فأعاد بناء العالم، وصحح مسيرة الحياة البشرية في مختلف نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وجعل الكلمة العليا لله عز وجل في ظل عقيدة قويمة، ومنهج سديد. أخرج أمة وقيادة عنت وجوهها لله عز وجل؛ فلم تر هدى غير هدى الله عز وجل؛ فأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، حتى ارتفعت الفتنة، وكان الدين لله، وظل العالم ينعم بثمار الحضارة الإسلامية حينًا من الزمان.

ولكن أعداء الإسلام لم يألوا جهدًا في سبيل مواجهة الدعوة الإسلامية، واستخدموا مختلف الوسائل والأساليب، للحيلولة دون انتشارها. ولكن قوة الإسلام في نفوس المسلمين حالت دون ذلك، إلى أن دب الانحطاط في حياة المسلمين بسبب تفريطهم في أمر دينهم ودنياهم. وتوالت الضربات المكثفة من أعداء الإسلام

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٧ .

الذين ظلوا يتحينون الفرص للانقضاض على الإسلام وأهله من يوم أن جاء إلى الوجود.

وقد تنوعت هذه الضربات في شدتها وحدتها، فبدأت بالمواجهة العسكرية من خارج الجزيرة العربية، وذلك بدءًا من غزوة مؤتة في حياة النبي ﷺ، واستمرت طيلة حياة الخلفاء الراشدين، واشتدت بامتداد الفتوحات الإسلامية في قلب العالم النصراني؛ وذلك بتكثيف الحملات الصليبية لبسط سلطانها على العالم الإسلامي، ولكن هذه الحملات ولت الأدبار أمام قوة الإسلام في نفوس المسلمين.

ولقد أدرك أعداء الإسلام هذه الحقيقة، فأعادوا حساباتهم، ونظموا أنفسهم على أساس محاربة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، فحولوا الحملات العسكرية إلى حملات سلمية، ولا فرق بين الحملتين إلا من حيث نوع السلاح.

وتحول الصراع من ميدان الحرب إلى ميدان السلم، وبدأت الخطة الجديدة لضرب المسلمين وهي إبعادهم عن الإسلام، وذلك عن طريق تفريغ محتواه العقدي، والجهادي، وتمزيق الوحدة الإسلامية التي تجمع شمل المسلمين. كلٌ ذلك من أجل تمكين الاستعمار من الهيمنة على بلاد المسلمين.

كما استحدث الغرب النظام الدولي المتمثل في منظمة الأمم المتحدة لفرض الفكر الاستعماري والحضارة الغربية على بلاد المسلمين تحت شعار «التضامن والسلام والأمن الدولي»، كما أنشؤوا المنظمات الدولية المتخصصة في كافة مجالات الحياة العامة لتشويه الإسلام ومناهجه في الحياة، وإحلال الفكر الغربي المادي محله.

وتقوم منظمات «اليونسكو، واليونيسيف» بهذا الدور في مجال الفكر والتربية. ويقوم «صندوق النقد الدولي» بنهب وضرب اقتصاد المسلمين، والترويج للنظام الرأسمالي الغربي، ويقوم «مجلس الأمن الدولي» بحملاته العسكرية لتنفيذ هذه المخططات إذا استعصى تنفيذها سلميًا عن طريق افتعال الأزمات، ونصب الشباك، والدخول في صورة المصلح والمنقذ، تحت شعار الشرعية الدولية.

ولا يخفى على كل ذي عقل ناضج دور الأمم المتحدة في تمكين اليهود من احتلال فلسطين، ودور الولايات المتحدة في افتعال حرب الخليج، وموقف الأمم المتحدة في الحرب الدائرة في البوسنة والهرسك .... الخ.

كل هذه الأحداث يقف فيها الغرب موقف المتعصب من الإسلام والمسلمين، وهي مواقف واضحة تغني عن أي تعليق! ويكفي أن أذكر كيف سارع الغرب بالتدخل لإيقاف الصراع فورا عندما كان يتعلق باستقلال كرواتيا - الدولة المسيحية وكيف أن الغرب- بكل ما تلوكه ألسنتهم من شعارات الحرية، والعدالة، والمساواة، والشرعية- التزم الصمت، والتواطؤ، عندما أصبح الاستقلال يتعلق بشعب البوسنة والهرسك المسلم. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

وتلك الشعارات الرنانة قد خدعت الكثير من أبناء المسلمين، فراحوا يشايعون الفكر المادي الغربي والحضارة الغربية، والدعوة إلى أن الإسلام لم يعد له مكان في القرن العشرين، غافلين عن الأيدي الخفية التي تعمل في الظلام لمحو الإسلام من الساحة العالمية.

لهذا كله استخرت الله تعالى أن يكون موضوع الصراع الحضاري هو الموضوع الذي أتقدم به إلى قسم الدعوة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، لنيل درجة العالمية «الدكتوراه» في الدعوة والثقافة الإسلامية. ووفقني الله عز وجل، فكان الموضوع بعنوان **«الصراع الحضاري بين الشرق والغرب وأثره على الدعوة الإسلامية في العصر الحديث»**.

ذلك لأن هذا الصراع أصبح يؤثر في حياة كل إنسان، وخاصة الإنسان المسلم. وهذا الموضوع يفرض على الداعية المسلم أن يبصر إخوانه به، وبأبعاده الخطيرة على الإسلام والمسلمين، انطلاقًا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر؛ وتلك هي مهمة المسلم في الحياة. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠ .

بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[١].

وكان من أسباب اختياري لهذا الموضوع- بالإضافة إلى ما سبق- ما يلي:

أولًا: بيان أن حال هذه الأمة لا ينصلح إلا بما انصلح به في الأمس؛ بالإيمان إيمانًا يخالط شغاف قلب كل مسلم، واستعذاب التضحية في سبيل الله بما يعتز به المسلم من مال ونفس، والاعتزاز بما جاء به الإسلام من تشاريع، ومبادئ، وتقاليد، لإنهاض العالم وإسعاده، والدعوة إليه بالعمل الصالح والقدوة الطيبة، ولإقامة الحياة كلها على مبادئ الإسلام، لأن المسلم- على حد تعبير محمد إقبال- «لم يخلق ليندفع مع التيار، بل خلق ليواجه العالم والمجتمع، ويصنع الحضارة، ويفرض على البشرية اتجاهه؛ لأنه صاحب الرسالة، والمسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه». فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، بل إن مقامه مقام الإمامة والقيادة؛ وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، بل عليه أن يجاهد ويظل في صراع معه وعراك حتى يقضي الله في أمره؛ لأن المؤمن القوي هو قضاء الله الغالب، وقدره الذي لا يرد[٢].

ثانيًا: أردت تصحيح أخطاء التاريخ الإسلامي الذي كتب من زاوية النظر الغربية التي تقوم على الثقافة والفلسفة المادية العنصرية المتعصبة، والتي استهدفت تشويه دولة الخلافة الإسلامية، وإغفال دور الإسلام والمسلمين في بناء الحضارة الإنسانية، التي نعم العالم في ظلها حينًا من الزمان.

ثالثًا: بيان حاجة البشرية للنظام الإسلامي الذي يبني الحضارة على أسس إلهية عادلة، تستهدف رقي الإنسانية إلى المكانة السامية التي أرادها الله عز وجل لها، وكفالة الأمن والسلام والاستقرار للإنسان مهما كانت عقيدته.

رابعًا: بيان الأساليب والوسائل الاستعمارية الخبيثة التي يمارسها الغرب للنيل من الإسلام والمسلمين لتنبيه المسلمين إلى حقيقة ما يراد بهم في ظل النظام الدولي المعاصر.

---

(١) سورة العصر .

(٢) من تقديم الدكتور محمد يوسف لكتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٣ .

وقد سرت في هذا البحث على منهج علمي دقيق ومنظم حسب ما وفقني الله تعالى، وهو يتمثل فيما يلي:

١- اعتمدت في صياغة هذا البحث على المنهج التاريخي الذي يقوم على جمع الوثائق والمعلومات التاريخية، وتحديد الحقائق من خلالها، ثم محاولة التأليف بين هذه الحقائق وتفسيرها من أجل فهم الماضي ومحاولة فهم الحاضر على ضوء الأحداث والتطورات الماضية.

٢- لم أعتمد على السرد التاريخي أو حشد الأحداث التاريخية، ولكني ركزت على المواد التي تتصل اتصالاً مباشرًا بقضايا الدعوة الإسلامية، وما ذكرت من أحداث تاريخية، كان الهدف من وراء سردها هو: تقويم الأحداث وربطها بأحداث أخرى للوصول إلى حكم عام على مسيرة الصراع الحضاري.

٣- أما أسلوب الكتابة وعرض أحداث البحث، فقد سرت على قاعدة هي: أن أقرأ كثيرًا وأكتب قليلاً معتمدًا على نقل نصوص كاملة لأهميتها في إثبات فكرة أو فرض معين.

٤- وركزت على الدراسة المقارنة في أغلب القضايا التي تناولها البحث، وذلك ببيان منهج الإسلام الصحيح في القضايا المعروضة ما أمكن ذلك.

٥- وبالنسبة لمصادر البحث ووثائقه، فإنني اتبعت فيه طريقة ميسرة، وهي ذكر المصدر بكامل بياناته في أول مرة يذكر فيها، فأذكر الاسم الحقيقي للمصدر ومؤلفه وتاريخ ومكان الطبعة مقدمًا التاريخ الهجري إن وجد؛ فإذا ورد المصدر مرة أخرى؛ أكتفي بذكر اسم الشهرة ورقم الصفحة مع الإشارة إلى أنه مرجع سبق ذكره.

وبالنسبة للدوريات، فإنني أذكر اسم الدورية، ورقم العدد، والصفحة التي ورد فيها موطن الاستشهاد، مع ذكر بيانات الدورية كاملة في المرة الأولى من الاستشهاد بها.

وفي تخريج أحاديث البحث، أذكر المصدر الذي ورد فيه الحديث باسمه الحقيقي ومؤلفه ذكرًا كاملاً مع ذكر الكتاب، واسم الباب الذي ورد فيه الحديث مع الإشارة إلى اسم الكتاب بحرف (ك)، والإشارة إلى الباب بحرف (ب)، وأشرت إلى رقم الحديث كلما كان المصدر الذي أخذت منه مرقمًا، وأشرت إلى ذلك بحرف (ح) ثم

ذكرت الرقم بعده.

٦- وأخيرًا التزمت الأمانة العلمية فيما نقلت من المصادر أيًا كان المصدر، وإذا حدث اختصار أو زيادة على النص، أشرت إلى ذلك بقولي: (انظر)، أما عندما أختصر في النقل من المصدر أشير إلى المصدر مع ذكر عبارة (باختصار).

وقد اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

١- المقدمة: وقد ضمنتها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث فيه، ومحتويات البحث.

٢- التمهيد: وقد تضمن عرضًا موجزًا للصراع الحضاري في تاريخ الدعوة إلى الله عز وجل، وذلك من خلال آيات القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وكتب التاريخ الإسلامي.

٣- **الباب الأول**: وقد جاء تحت عنوان «الحضارة في الإسلام والفكر الغربي» واشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: بعنوان «مقدات فى فهم الحضارة»، واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف اصطلاحي لألفاظ الموضوع.

المبحث الثاني: مقومات الحضارة ومعنى الدراسة الحضارية.

المبحث الثالث: الحضارة في القرآن الكريم.

الفصل الثاني بعنوان «الحضارة في الإسلام»، واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسس الحضارة الإسلامية.

المبحث الثاني: تصور الحضارة الإسلامية للكون، والإنسان، والحياة.

المبحث الثالث: آثار الحضارة الإسلامية.

الفصل الثالث بعنوان «الحضارة في الفكر الغربي»، واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسس الحضارة الغربية.

المبحث الثاني: تصور الحضارة الغربية للإنسان، والكون، والحياة.

المبحث الثالث: آثار الحضارة الغربية.

٤- الباب الثاني وعنوانه «محاور الصراع الحضاري بين الشرق والغرب وآثاره»، واشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول «الصراع العسكري وآثاره»، واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أساليب ووسائل الصراع بين الشرق الغرب.

المبحث الثاني: الصراع العسكرى.

الفصل الثاني «الصراع الاقتصادي وآثاره».

الفصل الثالث: «الصراع الاجتماعي وآثاره»، واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: فترة ما قبل إلغاء الخلافة الإسلامية.

المبحث الثاني: فترة إلغاء الخلافة الإسلامية.

المبحث الثالث: فترة ما بعد إلغاء الخلافة الإسلامية.

٥- الباب الثالث وعنوانه «منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الصراع الحضاري»، واشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول «إعادة البناء العقدي للأمة الإسلامية»، واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البناء الروحي.

المبحث الثاني: جمع الأمة على الرسالة الجامعة.

المبحث الثالث: تعميق معاني الولاء والنصرة.

الفصل الثاني: «توجيه المؤسسات التربوية لبناء الشخصية المسلمة»، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البيت والمسجد ودورهما في بناء شخصية المسلم.

المبحث الثاني: التعليم ودوره في بناء شخصية المسلم.

المبحث الثالث: الإعلام ودوره في تربية الأمة.

الفصل الثالث: «الدعوة إلى الاستفادة من نعم الله في الكون»، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مقومات التقدم العلمي في الأمة الإسلامية.

المبحث الثاني: منهج القرآن في الدعوة إلى الاستفادة من نعم الله في الكون.

المبحث الثالث: التفاعل بين الطاقات الإنسانية والمقومات الكونية لصنع الحضارة.

٦- **الخاتمة**: وقد ضمنتها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال البحث.

ولست أزعم أني قد وفيت الموضوع حقه، فهو طويل وواسع يحتاج إلى جهود كبيرة، وما قدمته بمثابة خطوة تتبعها خطوات كثيرة، أدعو الله أن يوفقني على إتمامه فيما بعد.

وقد بذلت أقصى جهدي حتى يخرج هذا الموضوع في الصورة المرجوة منه؛ فإن كنت قد أصبت، فذلك ما أردت، والفضل لله أولاً وأخيرًا، شاكرًا لله أنعمه أن هداني إلى ذلك؛ وإن قصرت في ذلك، فالخيرَ أردت، والكمال لله وحده، وأسأله سبحانه أن يوفقني لما فيه الخير والرشاد ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].



(١) سورة هود: الآية ٨٨ .

التمهيد
مدخل إلى البحث

إن الصراع بين الحق والباطل من المُسَلَّمات البدهية التي لا يجادل في حتمية وقوعها أحد، وهو سنة من سنن الله في الخلق وفي الكون، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

والقرآن الكريم تحدث عن الصراع بين الحق والباطل، وذكر أنه بدأ من يوم أن خلق الله آدم عليه السلام، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، تكريمًا له، وامتناع إبليس عن طاعة ربه تكبرًا وحسدًا. وتطور هذا الصراع بعد غواية إبليس لآدم وزوجته حتى أكلا من الشجرة، وأمرهما الله سبحانه وتعالى بالهبوط إلى الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

فمنذ خُلِق آدم عليه السلام برز الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر؛ الخير المتمثل في الإنسان، والشر المتمثل في إبليس لعنه الله، وكل ما يملك من أساليب الغواية، التي يُدَاهِمُ بها الإنسان من الخارج، أو من الداخل، عن طريق منافذ الحس فيه، كما قال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، فضيقوا عليه مجاريه بالصوم**»[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١ .

(٢) سورة البقرة: الآيات ٣٤ - ٣٦ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج٣ / ٦٤ . (ح) ٢٠٣٨، والإمام أحمد في المسند ج٣ /١٥٦، ٢٨٥ .

وقد ذكر القرآن الكريم أن هذا الصراع بين الشيطان والإنسان هو سنة الوجود حتى تتجدد الحياة البشرية وتعمر، فتنتقل من الكسل إلى النشاط لابتلاء الإنسان، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(١).

والله سبحانه لم يترك الإنسان وحيدًا في هذا الصراع الطويل، بل أمده سبحانه وتعالى بتعاليمه وشرائعه العادلة على لسان رسله لمواجهة هذا الصراع، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٤).

ولقد ميز الله عز وجل الإنسان عن بقية الخلق بالحرية والاختيار، فهو حر في الإيمان وعدمه؛ حيث لا إكراه في الدين، وهذا التميز أدى إلى عدم توحد البشرية في طريق واحد، بل اختارت فئة الحق، واختارت أخرى الباطل، بل أدى هذا إلى الاختلاف بين أصحاب المذهب والاتجاه الواحد، وهذه سنة كونية بينها الله في كتابه الكريم فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٦).

وفي تاريخ الدعوة الإسلامية - من لدن آدم عليه السلام حتى محمد ﷺ - حلقات متواصلة من الصراع بين الحق والباطل، الأنبياء ومن اتبعهم جانب الحق، والكفار أعداء الحق الذين اختاروا الضلال على الحق، وهذه اللقاءات، - من تاريخ الصراع الحضاري بين

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٧ .

(٣) سورة طه: الآيتات ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٧ .

(٥) سورة الشورى: الآية ٨ .

(٦) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩ .

الحق والباطل- بينت أن صراع المسلم في هذه الحياة ومع العالم يأخذ اتجاهين:

الاتجاه الأول: صراع بين المسلم ونفسه؛ وهذا سماه النبي ﷺ الجهاد الأكبر، وقد قال ﷺ بعد الرجوع من إحدى غزواته: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[(١)]. وهو يتطلب تربية مستمرة للحفاظ على مقومات شخصية المؤمن لمواجهة قوى الشر في نفسه والتغلب عليها.

والاتجاه الثاني: صراع الأمة الإسلامية مع أعوان الباطل أيًا كانوا وكيفما كانوا، وقد سماه القرآن الكريم الجهاد في سبيل الله عز وجل، وهو يضمن كل أشكال الصراع الخارجي، سواء أكان صراعًا مذهبيًا، أو سياسيًا، أو عسكريًا، أو أخلاقيًا، أو اقتصاديًا، يحول دون نشر الدعوة الإسلامية، وهو ماضٍ إلى يوم القيامة، وقد جمع الله الاتجاهين في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)]، وكما قال ﷺ: «**الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة**»[(٣)].

ولقد بين القرآن الكريم كيف أن الصراع الحضاري دائم بين معسكرين كبيرين، كل منهما ينتمي إلى فكرة ويعمل في سبيلها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[(٤)].

والقرآن الكريم سمى هؤلاء الكفار بأنهم يعملون تحت لواء الشيطان، عدو بني آدم، ومصدر الصراع الرئيسي في العالم، إلا أن كيدهم ضعيف غير قادر على الصمود أمام أي جماعة مؤمنة تؤثر الجهاد على الاستسلام، والحركة على القعود؛ لأنها تنتمي إلى الله الذي يملك كل شيء، ويقدر على كل شيء، والذي يدافع عن الذين آمنوا؛ بينما ينتمي أولياء الشيطان إلى قوة ضئيلة من خلق الله عز وجل، ومن ثم يجيء النصر دومًا لصالح المؤمنين المجاهدين، الذين يتحركون بأمر من الله

---

(١) تاريخ بغداد/ الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ج١٣ / ٤٩٣ط بيروت، بدون تاريخ.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨ .

(٣) رواه أبو داود في سننه (ك) الجهاد (ب) الغزو مع أئمة الجور ج٣ / ٤٠ (ح) ٢٥٣٢ بلفظ: «الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال . . .» الحديث، والإمام الزيلعي في نصب الراية ج٣ / ٣٧٧ بلفظه .

(٤) سورة النساء: الآية ٧٦ .

لمصارعة القوى المضادة والتغلب عليها، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(١)، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٢). وقد جعل الله سبحانه وتعالى النصر والغلبة لمن لا يغفل مسائل الإعداد، وأسباب القوة الحربية المعنوية منها والمادية؛ وهذا ما عاش عليه الأوائل، والذي يجب أن يعيش عليه الأواخر.

والمسلمون الأوائل- رضي الله عنهم- أدركوا هذه الحقائق، وسهروا على تنفيذ ما تمليه عليهم من واجبات، حتى استطاعوا أن يسطروا صفحات من نور في جهادهم ضد الباطل، إحقاقا للحق.

فقد كان للتحول - الذي أحدثه الإسلام في غرب الجزيرة العربية - أثر كبير في نفوس أعوان الشيطان، فبعد أن كانت أمة العرب قبائل متناحرة، تعيش على قوميات عرقية، حولها الإسلام إلى أمة غيرت وجه التاريخ الإنساني، وحطمت أممًا وحضارات قامت على أساس استعباد الإنسان للإنسان، وأقامت بالإسلام حضارة إنسانية هدفها الأول: نشر نور الحق، وتحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ونقلتهم من جور الأديان المحرفة إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وأمام هذا التحول - الذي أحدثه الإسلام بأيدي المسلمين - وقف أعداء الإسلام يتساءلون عن تلك القوة التي مكنت المسلمين من هذه الانتصارات المتوالية، فأدركوا- بعد دراسة واسعة- أن السبب الحقيقي وراء انتصارات المسلمين هو تمسكهم بالإسلام، وكان أول من طرح السؤال هو «هرقل» قيصر الروم الذي أذهلته الهزائم المتوالية لجيوشه على أيدي المسلمين. جمع قواده وراح يسألهم: من هؤلاء الذين تقاتلون؟ أليسوا بشرًا مثلكم؟ فقال قائد الجيوش: إنهم بشر، ولكنهم ليسوا كالبشر، إنهم رهبان بالليل، فرسان بالنهار، إنهم يصلون ويصومون ولا يزنون؛ ولو سرق ابن ملكهم، لقطعوا يده، وما منهم أحد إلا ويتمنى أن يموت قبل أخيه. فقال هرقل:

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٠ .

(٢) سورة الصافات: الآيات ١٧١ - ١٧٣ .

والله إن كانوا كما تقول، ليمكنوا من موضع قدميَّ هاتين. وكان المسلمون كما قال قائد الجيوش؛ فملكوا موضع قدمي هرقل، وخرج من بلاد العرب وهو يردد هذه العبارة الشهيرة: «سلام يا سوريا سلاما لا لقاء بعده»[١].

وتساءل الفرس عن نفس السؤال عقب هزائمهم، وأرسلوا إلى بلاد المسلمين من يبحث عن هذا السر حيث وصل إلى المدينة ابن «الدهقان الأكبر»، وأحد العاملين بمعبد النار المقدسة، «وبهرام» رئيس الجيوش الفارسية، دخلوا إلى المدينة فلم يجدوا أحدًا يتحدثون معه، وتساءلوا: أين ذهب المسلمون؟ وإذا بالجواب يأتيهم: ان المسلمين في المسجد يصلون في جماعة وقد تركوا ديارهم وتجارتهم. ثم عاشوا بين ألمسلمين فترة وشاهدوا أميرهم كواحد منهم نائمًا بجوار المسجد بلا حرس ولا حاشية، لقد عرفوا السر في انتصار المسلمين، وهو التزامهم بالإسلام وتعاليمه وتمسكهم به.

وبعد الحروب الصليبية كرر النصارى نفس السؤال، وكان الجواب هو الجواب، فالإسلام هو الذي وحَّد بين المسلمين، وأعطاهم القوة الحقيقية التي مكنتهم من الوقوف في ميدان الصراع مع الباطل الذي يتربص بالحق وأهله، ويتحفز لهزيمته متى واتته الفرصة، إلا أن تمسك المسلمين بدينهم، وعدم إغفالهم لمسائل الإعداد وأسباب القوة هو السر في ثباتهم ومقاومتهم لعدوهم الذي استعمل أساليب شتى، ووسائل متنوعة، في مختلف عصور الصراع الطويل الذي لم ولن ينتهي إلا بقيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾[٣].

والتاريخ خير شاهد على تلك الوقائع التي وقعت بين الإسلام وأعدائه، من يوم أن قامت الدولة الإسلامية بالمدينة، وإلى نهاية الحروب الصليبية التي غير أعداء الإسلام بعدها أسلوب المواجهة من حملات عسكرية إلى حملات سلمية أشد ضراوة، مع استمرار الحملات العسكرية. وكانت الخطة الجديدة هي الغزو الفكري، لتفريغ

---

(١) الكامل في التاريخ عز الدين أبو الحسن علي بن أبي محمد بن عبدالكريم الشيباني المعروف بابن الأثير ج ٢ / ٤٩٤ ط دار صادر/ بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٧ .

الإسلام من محتواه الجهادي، وقد سخَّر الغرب قدراته العلمية والتقنية لتغذية هذا الصراع الحضاري.

وقد ظهر ذلك واضحًا جليًا في رحلات الكشوف الاستعمارية التي سميت زورًا وبهتانًا بالكشوف الجغرافية؛ لأنها كانت حروبًا صليبية تحت ستار علمي استهدفت وقف المد الإسلامي في جنوب إفريقيا وجزر الهند.

وليس أدل على ذلك من قول «ماجلان» للسلطان «بولابو» حاكم جزر الفلبين حين انتهت رحلته إليها: «إنني باسم المسيح أطلب إليك التسليم، ونحن أصحاب العرق الأبيض؛ أصحاب الحضارة؛ أولى منكم بحكم هذه البلاد». وأيضًا ما جاء في خطاب البوكرك- الذي خلف فاسكو دي جاما في رحلته الصليبية إلى الهند عام ٩١٧هـ - قوله: «الأمر الأول: هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبدًا، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة. إذا استطعنا تخليص مالاقا من أيديهم فستنهار القاهرة، وبعدها مكة»[١].

ولكن الله عز وجل قيض للأمة الإسلامية الدولة العثمانية في وقت انقسم فيه المسلمون إلى دويلات يضرب بعضها البعض، واستطاعت مواجهة هذا الصراع النصراني بتوحيد البلاد الإسلامية باسم الإسلام الذي عظموه في نفوسهم، وطبقوه في بلادهم حتى استطاعوا الوصول إلى أسوار «فيينا» في النمسا، وحاربت أوروبا في عُقر دارها، وظلت هذه الدولة تتحكم في الصراع الدولي لصالح الإسلام. وقد أخذ المسلمون بوسائل الإعداد المادي والمعنوي الذي أشار إليه القرآن الكريم في قول الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٢].

واستطاعت الدولة العثمانية أن تنافس القوى الاستعمارية وتتحكم في علاقات المجتمع الدولي على مدى ثلاثة قرون، فلما تركوا الأخذ بالأسباب وقل اكتراثهم

---

(١) مجلة الأمة، مقال الكشوف ودوافعها / محمد ناصر الأحدب، عدد ٤٦/١٥ إصدار المحاكم الشرعية - قطر ١٤٠٢هـ - يناير ١٩٨٢م .

(٢) الأنفال: الآية ٦٠ .

للإسلام، إلى جانب دخولها عضوًا في المجتمع الدولي عام ١٨٥٦ - كل هذه الأسباب أفقدتها هويتها الإسلامية. والسبب الأهم أنها غفلت مسائل الإعداد، والاحتفاظ بالقوة، وركنت إلى السلبية واللامبالاة، فكان ولا بد أن ينتصر الباطل، واستطاعت الدول الاستعمارية كسب دفة الصراع لصالحها في هذه المرحلة التي هي أسوأ مرحلة، وأصعب مرحلة من مراحل الصراع الحضاري يمر بها المسلمون الآن.

وقع العالم الإسلامي فريسة للغزو النصراني الصليبي الذي لم ينس العداء للإسلام وأهله في يوم من الأيام. فالمحرك الأول لهذه المرحلة هو الثأر من الإسلام والمسلمين، لمحوه من الساحة العالمية، والتمهيد لفرض الحضارة الغربية على بلاد المسلمين. فهي هجمة صليبية بحتة، وليس أدل على ذلك من قول «اللورد اللنبى» قائد الجيوش النصرانية في الحرب العالمية الأولى حين دخل القدس: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»، بل إن «لويد جورج» وزير خارجية بريطانيا أطلق على الحرب العالمية الأولى اسم الحرب الصليبية الثانية. كما أن الجنرال «غورو» بعد تغلبه على الجيش العثماني في معركة «ميسلون» بالقرب من دمشق؛ توجه إلى قبر صلاح الدين وركله بقدمه وقال: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

فهذه الاعترافات تؤكد طبيعة هذه الحلقة من حلقات الصراع الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب بمختلف اتجاهاته وأيديولوجياته. فالغرب لم ينس عداوته للإسلام في يوم من الأيام. يقول المستشرق الكندي المعاصر «كانتول شميث»: «إن أوروبا لا تستطيع أن تنسى الفزع الذي ظلت تزاوله خمسة قرون متوالية، والإسلام يغزوها من الشرق والغرب والجنوب، ويقطع في كل يوم جزءًا من أجزاء الإمبراطورية الرومانية. ويكاد يستولى علي العاصمة ذاتها. ذلك الفزع الذي لا يدانيه شيء، ولا فزع أوروبا من استيلاء الشيوعيين على تشيكو سلوفاكيا». وقال «يوجين رستو» مستشار الرئيس الأمريكي «جونسون»: يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول وشعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية»[1].

---

(١) أعداء الإسلام يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله/ جلال العالم صـ ٢٣، ٢٤،ط دار المختار الإسلامي.

إن هذه المرحلة من أخطر مراحل الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، وعلى حد تعبير الشيخ محمد الغزالي: «إن الهجوم المعاصر على ديننا أخذ شكل مروحة، فهو شامل مستوعب يتناول كل شُعب الإيمان؛ من النطق بكلمة التوحيد إلى إزالة الأذى عن الطريق»(١). فقد صادفت هذه تأخرًا وجمودًا وبعدًا من المسلمين عن دينهم. قابله في الوقت نفسه حملات غزو فكري شامل استهدف إبعاد المسلمين عن دينهم، وتهيئتهم لفرض الحضارة الغربية عليهم، لخلق نوع من التبعية في كل مجالات الحياة لمحو الهوية الإسلامية من الوجود.

يقول المستشرق «هانوتوا» مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في أواخر القرن التاسع عشر: «لقد تركزت أهداف الحروب الصليبية قديمًا في استرداد بيت المقدس من المسلمين ولا يزال، مما يزعج الغرب المسيحي بقاء لواء الإسلام منتشرًا على مهد الإنسانية؛ ولذلك يجب أن نعمل على نقل المسلمين إلى الحضارة الأوروبية بقصد رفع الخطر الكامن في الوحدة الإسلامية، وأفضل طريق لتثبيت ولاية المستعمر الأوروبى على البلاد الإسلامية هو تشويه الدين الإسلامى»(٢).

ولتحقيق ذلك وقفت الحكومات والتكتلات الغربية وراء تنفيذ هذا المخطط الماكر. فالغرب كله من شيوعي ورأسمالي ونازي وفاشي وليبرالي، معادٍ للإسلام والمسلمين، والأدلة على ذلك كثيرة، منها ما يلي:

الرئيس السوفيتي السابق ميخائيل جوربا تشوف، عندما أراد أن يقدم أوراق اعتماده إلى أوروبا وأمريكا تكلم «عن وحدة المصير المسيحي» والحضارة المسيحية.

والرئيس الأمريكي السابق جورج بوش في إطار حملته الانتخابية لعام ١٩٩٢م، قال باللفظ الواحد: «إنني هنا أمثل أمريكا التي تمثل بدورها الحضارة اليهودية المسيحية التي تقود عالم اليوم بلا منافس»(٣).

ونائب الرئيس الأمريكي «دان كويل» يقول: «إن أخطر ثلاث حركات في القرن العشرين هي النازية والشيوعية والحركة الإسلامية»(٤). وإذا كانت النازية والشيوعية

---

(١) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر/ محمد الغزالي صـ ١١٥، دار ذات السلاسل ١٩٨٠ م.

(٢) الله أو الدمار/ سعد جمعة صـ ٦٦، ط دار الاعتصام بدون تاريخ.

(٣) الأهرام فى ٥ / ٩ / ١٩٩٢ م.

(٤) الأهرام فى ١ / ٩ / ١٩٩٢ .

قد انهزمت فلم يبق أمام دان كويل إلا تصفية الحركة الإسلامية.

والرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» يقول: «إن الإسلام سوف يصبح قوة متطرفة، وإنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي، ومما يرجح هذا الأمر: أن الإسلام والغرب متضادان، وعلى الغرب أن يتحد ليواجه الخطر الإسلامي الداهم»[١].

وتقول مارجريت تاتشر: «يجب المحافظة على حلف الأطلنطي لمواجهة الخطر الإسلامي»[٢].

وقال المعلق الروسي الشهير فاسيليف: «إن أمريكا الآن تنظر إلى العالم الإسلامي بوصفه إمبراطورية الشر الجديدة»[٣].

وقال وزير الإعلام الصربي: «إن القوات الصربية التي تذبح المسلمين وتبيدهم تؤدي دور فرسان الصليب الذين ذهبوا لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين إبان الحروب الصليبية»[٤].

إن هذا التحدي الحضاري المعاصر للإسلام والمسلمين هو أخطر هجوم تعرض له الإسلام والمسلمون في التاريخ الحديث، وقد نجمت عنه أخطار هددت وجود الإسلام والمسلمين أينما وجدوا، هذه الظاهرة الحضارية تحتاج إلى دراسة مستفيضة حتى نقف على حقيقة هذه الهجمة التي أتت على مقدرات الأمة. نتعرف في الباب الأول على الحضارة عند طرفي الصراع.

وفي الباب الثاني نتعرف على محاور الصراع بين الحضارتين.

وفي الباب الثالث نضع السبيل إلى الخروج من هذا المأزق الحضاري.

وأسأل الله العلي القدير التوفيق لما يحب ويرضى، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

---

(١) الفرصة السانحة/ ريتشارد نيكسون/ ص ٢٣٢، ترجمة أحمد صدقي مراد، ط دار الهلال/ ١٩٨٠ .

(٢) الإسلام وأمريكا/ محمد مورو/ ١٨، ط دار الروضة ١٩٩٢م.

(٣) السابق ص ٧٢ . مرجع سابق .

(٤) جريدة الشرق الأوسط، فى ٧/ ٩/ ١٩٩٢م .

الباب الأول
أسس ومفهوم الحضارة
في الإسلام والفكر الغربي

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: مقدمات فى فهم الحضارة.

الفصل الثاني: الحضارة في الإسلام.

الفصل الثالث: الحضارة في الفكر الغربي.

تمهيد

الدراسة العلمية لأي حضارة من الحضارات تهتم في المقام الأول بمجموع القيم الاجتماعية، والتصورات العقدية التي توجه نشاط المجتمع، وتكوّن شخصيته الحضارية، وكل ما يتصل بهذه الشخصية من مفاهيم عن الحياة والكون ومصير الإنسان. والدراسة الحضارية تميل إلى النظرة الكلية التي من شأنها أن تكشف عن ظواهر الحياة الإنسانية في كافة جوانبها لتخرج التاريخ الاجتماعي في صورة شاملة ثم متابعة جوانب النشاط الإنساني في اتجاهاته المختلفة.

ولا يختلف اثنان في أن الاتجاهات العلمية في النشاط الإنساني نابعة من القوى الفكرية، وهذه القوى الفكرية لا تتحرك إلا منفعلة بالعقيدة أو الفكرة المستولية على قلبه وذهنه، ولا تعمل أعضاؤه وجوارحه إلا تباعًا لهذه العقيدة وذلك الفكر، ومن المحال أن تحافظ أية حضارة على وجودها بغير عقيدة أو فكرة أساسية عن الكون والحياة والإنسان.

ولأجل دراسة الحضارة دراسة علمية مفيدة قسمت هذا الباب على النحو التالي:

الفصل الأول: مقدمات فى فهم الحضارة.

الفصل الثاني: الحضارة في الإسلام.

الفصل الثالث: الحضارة في الفكر الغربي.

الفصل الأول
مقدمات في فهم الحضارة

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف اصطلاحي لألفاظ الموضوع.

المبحث الثاني: الدراسة الحضارية ومقومات الحضارة.

المبحث الثالث: الحضارة في القرآن.

الفصل الأول
مقدمات في فهم الحضارة

تمهيد:

إن المعارك التي تدور على الأرض الإسلامية - في إطار الاستعمار الحديث، ومحاولات الاحتواء الثقافي والفكري- كثيرة ومتعددة، إلا أن هناك معركة هي أشد خطرًا في مجال الصراع الحضاري، وهي معركة المصطلحات، حيث يدخل مجتمعنا يوميًّا مصطلحات كثيرة سياسية وفكرية، عن طريق وسائل الإعلام المكتوبة، والمسموعة، والمرئية، مثل الديمقراطية، الليبرالية، العلمانية، اليمين، اليسار، والشرق الأوسط، والغرب... إلخ. هذه المصطلحات البديلة لما ألفناه وعرفناه، لتخرجنا عن مواقعنا الفكرية، وتستلب شخصيتنا الحضارية وتطارد مصطلحاتنا، وتحدد لها المعاني التي تريدها حتى، أصبح الكثير منا يخاف من طرحها أو من مجرد الانتساب إليها.

ومن هنا تبرز الأهمية الكبرى لتحديد معاني المصطلحات التي يستعملها الباحث؛ إذ إنه بدون تحديد المصطلحات سيدور في حلقة مفرغة مع الموافقين والمخالفين، ولا يستطيع أن ينطلق من مفاهيم واضحة للوصول إلى معالجة أي مشكلة معالجة علمية سليمة.

ولهذه الأهمية نبه عليها القرآن الكريم، وذلك عندما أرشد المسلمين إلى ضرورة استخدام مصطلح (انظرنا) ونهى عن مصطلح (راعنا) الذي كان يستعمله اليهود ليحققوا به أغراضًا خبيثة في نفوسهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. فإذا كان الله عز وجل نهى

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٤ . وراعنا من المراعاة؛ وهي الإنظار، والإمهال، وأصلها من الرعاية؛ وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا تلا عليهم شيئا من العلم: راعنا يا رسول الله - أي: راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا، واليهود كانت لهم كلمة بالعبرية تشبه كلمة راعنا ويعنون بها المسبة والشتيمة؛ وهي مشتقة من الرعونة والحمق، فلما سمعوا =

المؤمنين عن أن يتشبهوا باليهود في أقوالهم وأفعالهم، فإن طبيعة البحث تعرض ذلك حتى يكون للمسلم تميزه في مصطلحه، وفهمه لمضمونه النابع من عقيدته الإسلامية.

وعلى هذا يقسم هذا الفصل على النحو التالي:

المبحث الأول: تعريف اصطلاحي لألفاظ الموضوع.

المبحث الثاني: الدراسة الحضارية ومقومات الحضارة.

المبحث الثالث: الحضارة في القرآن الكريم.



= المؤمنين يقولونها للرسول قالوها أيضًا، وهم يعنون معناها عندهم، فنهى الله المؤمنين عنها وأمرهم بكلمة أخرى؛ وهي قوله: (انظرنا)؛ أي: انتظرنا وتأن بنا- انظر التفسير الكبير/ الرازي ج٢ / ٣٠٥ ، ط دار الغد العربي ٩١، وانظر: صفوة التفاسير/ «محمد علي» الصابوني ج١ / ٧١ ط دار القرآن/ ١٩٨١م.

المبحث الأول
تعريف اصطلاحي لألفاظ الموضوع

إن موضوع البحث والدراسة هو الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، وأثره على الدعوة الإسلامية في العصر الحديث. فالمفردات التي يتكون منها عنوان الموضوع هي: صراع، حضارة، شرق، غرب، الأثر، الدعوة الإسلامية، والعصر الحديث.

أولاً: الصراع:

الصراع[1] في اللغة العربية من صرع، والصرع: الطرح بالأرض، وخصه بالإنسان. صارعه مصارعة، وصرعًا: غالبه في المصارعة، واصطرع القوم: تصارعوا. وتصارع الرجلان: حاول كل منهما أن يصرع الآخر.

ومنه الحديث «**مثل المؤمن كالخامة من الزرع تصرعها الريح مرة، وتعدلها أخرى**»[2] أي: تميلها وترميها من جانب إلى جانب.

وهذا المعنى اللغوي هو المراد؛ لأن موضوع البحث يهدف إلى دراسة الصراع الحضاري بين مجتمعين مختلفين في الفكر والعقيدة، وكل مجتمع يحاول فرض فكره وعقيدته وحضارته على الآخر، فهما كرجلين تصارعا وحاول كل منهما أن يصرع الآخر[3] إما عن طريق الغلبة، أو بفرض الفكر عليه.

ثانيًا: الحضاري:

الحضاري نسبة إلى الحضارة. وكلمة حضارة قد حظت بالبحوث الواسعة،

---

(١) لسان العرب/ جمال الدين بن منظور، مادة «صرع» ص ٢٤٣٣، القاموس المحيط/ مجد الدين الفيروزابادى ج٣/ ١٤٩، ط دار المعرفة لبنان .

(٢) صحيح مسلم/ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ك) صفات المنافقين وأحكامهم(ب) مثل المؤمن كالزرع ج٤ / ٢١٦٣ .

(٣) المعجم الوسيط/ مجمع اللغة العربية ج١/ ٥١٢، ٥١٣/ ط الثانية بدون تاريخ.

والدراسات المستفيضة عبر التاريخ البشري.

وهي في اللغة العربية من الفعل حضر، يقال: حضر الغائب حضورًا، وحضرت الصلاة، فهي حاضرة، والحضر خلاف البدو. والنسبة إليه حضري، ومعناها أقام في الحضر.

والحضارة بفتح الحاء وكسرها: «الإقامة في الحضر، والحضر خلاف البادية، والحضارة ضد البداوة»[1].

فالمعاجم العربية مجمعة على أن كلمة حضارة تقابل بداوة، وأنها تعني مجرد الحياة في المدينة، على حين تكون البداوة مجرد الحياة في البادية، وظلت الكلمة بجميع مشتقاتها تكتسب دلالة جديدة، ومعنًى مغايرًا لمعناها القديم في معاجم اللغة، ولم تعد كلمة حضارة في العرف اللغوي المعاصر مقصورة على مدلولها القديم المقابل لمدلول البداوة، وإنما جاوزته إلى مدلول آخر هو التعبير عن ارتقاء المجتمع وارتفاعه عن المستويات البدائية. فقد جاء في المعجم الوسيط «أن الحضارة مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، ومظهر من مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر»[2].

ومن ذلك يقال: مجتمع متحضر، وغير متحضر، ويقصد بالمجتمع المتحضر ذلك الذي له قيمه الرفيعة، وأساليبه المتطورة في مواجهة الحياة الطبيعية، كما يقصد بالمجتمع غير المتحضر ذلك الذي لم يجاوز الطور البدائي في قيمه الروحية، وأساليب حياته المادية والعلمية. بل لقد اتسع العرف اللغوي الحديث في مدلول كلمة الحضارة، فلم يعد ذلك المدلول مقصورًا على وصف المجتمع، بل امتد إلى وصف الأفراد والأعمال، فيقال: إنسان متحضر، أو غير متحضر، كما يقال: سلوك

---

(١) لسان العرب، مادة حضر . مرجع سابق، والمعجم الوسيط ج١/ ١٨١ . مرجع سابق، ودائرة معارف القرن العشرين/ محمد فريد وجدي ج٣/ ٤٥٤ ط دار المعرفة ١٩٧١، ومعجم مقاييس اللغة/ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ج٢/ ٧٥ تحقيق عبدالسلام هارون ط ١٩٦٩، ومختار الصحاح صـ ١٥٩ ط الحلبي ١٩٥٠، ودائرة معارف البستاني/ بطرس البستاني ج٧/ ٩٦، ٩٧ ط بيروت، ودائرة معارف الأعلمي المسماة مقتبس الأثر ومجدد ما دثر/ حسن الشيخ سليمان الأعلمي ج١٦/ ٢٩٠ ط ١٩٦٦م، والقاموس المحيط ج٢ / ١٠ مرجع سابق .

(٢) المعجم الوسيط ج١/ ١٨١ مرجع سابق .

حضاري أو غير حضاري. وإشارات المجالس المحلية تملأ الميادين العامة مشيرة إلى النظافة، والأماكن العامة والمحافظة عليها من صفات الشعوب المتحضرة.

ومن هذا نجد أن مفهوم الحضارة والتحضر قد خرج عن معناه القديم في المعاجم العربية، وأصبح مرتبطًا من قريب أو بعيد بالصفات الخلقية، والمستويات الاجتماعية، واكتسبت الكلمة ومشتقاتها دلالة وصفية ذات معنى مستقل ومنفصل عن الأصل اللغوي[١].

وعن أصل الكلمة (الحضارة) ومدلولها في اللغات الأوروبية نجد أن هناك لفظين رئيسيين يستعملان للدلالة عن معنى الحضارة وهما **civilization culture** بمعنى حرث أو نمى، وكانت هذه الكلمة تطلق في العصور القديمة والوسطى على تنمية الأرض ومحصولاتها. وفي أوائل العصور الحديثة استعملت الكلمة بمدلولها المادي مع إضافة الشيء المقصود تنميته، سواء أكان فنًّا أو أدبًا أو اجتماعًا. إلى أن كان القرن الثامن عشر أطلقت الكلمة وأريد بها تنمية العقل والذوق[٢]، ولم تكتسب هذه الكلمة

---

(١) الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة/ عبد الغني عبود ص ٢١ ،ط دار الفكر العربي ١٩٨١، ودراسات في الحضارة الإسلامية / أحمد إبراهيم الشريف ص ٢١ دار الفكر ١٩٧٦م.

(٢) ولقد تحدث الشعر العربي عن الحضارة والبداوة، وذلك بوصف أخلاق أهل الحضر والبدو والتفوق بينهما وما تتميز به كل واحدة من طباع وأخلاق . من ذلك ما ذكره الشاعر القطامي/ عمير بن شييم النصراني التغلبي، وهو أموى:

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأي رجال بادية ترانا؟

وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا

أغرن من الضباب على حلول ... وضبة إنه من حان حانا

وأحيانًا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

ومن ذلك قول الشاعر المتنبي وقد عاش في القرن الرابع الهجري وهاله ما شاهد من زيف الحضارة وعيشها بالقيم ورسم صورة صادقة للحضارة:

من الجآذر في زي الأعاريب؟ ... حمر الحلى والمطايا والجلابيب

ما أوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمام مائلة ... أوراكهن صقيلات العراقيب

قيم حضارية في القرآن الكريم/ ص محمد توفيق سبيع/ ٢٤، ٢٥ . ط دار المنار/ ١٩٨٤م.

هذا المعنى المفهوم من كلمة حضارة إلا بعد ظهور الدراسات الإنسانية التي تهتم بالمجتمع من حيث هو وحدة كاملة، وأصبحت هذه الكلمة تطلق على حصيلة المكاسب العلمية والأدبية التي يعبر عنها بلفظ الثقافة(١).

(١) انظر دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٢١ . وقد وردت في معاجم اللغة مصطلحات لها مدلولها الاجتماعي والعلمي المشابه لكلمة الحضارة، من هذه المصطلحات كلمة مدنية، ثقافة .

فالمدنية تشير في استعمالاتها عند كثير من الباحثين إلى معنى مرادف للحضارة . وتشير في اللغة إلى ارتباط مكاني، والمدنية نسبة إلى المدينة، وهي على وزن فعيلة ومعناها المصر الجامع؛ لأنها من مدن، والجمع مدن ومدائن . ويقال: مدن بالمكان: أقام به لسان العرب مادة مدن - ورجل مدني منسوب إلى المدينة كحضري منسوب إلى الحاضرة وتطلق المدنية على التمدن والتحضر، فهما كلمتان مترادفتان - وهذا الإطلاق يتفق مع المدلول اللغوي للكلمة؛ فإذا كانت المدنية تطلق على ما يرادف الحضارة أحيانًا، فإن العرف قد خصصها في النهاية بالجانب المادي للحضارة، كتشييد المدارس وإقامة المؤسسات، وبذلك تكون المدنية جانبًا من جوانب الحضارة، وفرعًا من فروعها؛ لأن الحضارة بمعناها الدقيق ومفهومها العلمي أعم وأشمل من المدنية، فهي تشتمل على النشاط الاجتماعي من كافة جوانبه . انظر: دراسات في الحضارة الإسلامية/ بتصرف واختصار، قيم حضارية وفي القرآن / توفيق محمد سبيع ص ٣٨ .

وإذا كانت المدنية فرعًا من فروع الحضارة، فإن هناك فروقًا واضحة بين الحضارة والمدنية، من هذه الفروق أن للمدنية معايير دقيقة تقيس كل ما ينتمي إليها . باعتبار الأشياء وسائل كفايات يمكن قياس درجة كفايتها والتيقن من نجاحها في أداء مهمتها كالطيارة والثلاجة . أما المنجزات الحضارية مثل النظم التربوية أو الاجتماعية أو السياسية فتخرج عن المقاييس المعروفة للمدنية؛ لأن الأمر في المنجزات الحضارية يتعلق بقيمة هذه النظم للفرد والحياة وكذلك المدنية في تقدم مستمر، أما الحضارة فليست كذلك . كما أنه لا يصادف المدنية معوقات في نقلها من شعب . إلى شعب أما الحضارة فتصادفها معوقات كثيرة . انظر الحضارة أحمد حمدي . سلسلة كتابك ط دار المعارف ص ١٦ - ٢٦ بتصرف واختصار . وانظر القيم الحضارية في رسالة الإسلام محمد فتحي عثمان ط الدار السعودية ط التابعة ١٩٨٥» .

أما الثقافة فأصلها مأخوذ من تثقيف الرمح؛ أي: تهذيبه وتسويته، ثم انتقلت الكلمة إلى تثقيف العقل؛ أي: تذهيبه بالمعارف والعلوم المتنوعة، وبذلك تكون الكلمة قد تجاوزت الماديات إلى المعنويات . فهي (الثقافة) العلوم والمعارف والفنون التي يتطلب العلم بها والخدمة فيها . وعلاقة الثقافة بالحضارة ترجع إلى جانبي الحضارة المادي والمعنوي كما هي عند علماء الاجتماع؛ فإذا أريد بالحضارة جانبها المادي الملموس كالعمائر والمساجد، فهذا الجانب هو المدنية . وإذا أريد بالحضارة الجانب المعنوي والفكري، فهي الثقافة . فالمدنية والثقافة جناحا الحضارة . انظر: القيم الحضارية في رسالة الإسلام ص٣١، وقيم حضارية في القرآن/ ٤٠) . انتهى .

ولكننا كمسلمين لسنا ملزمين بهذه الاعتبارات والتفسيرات؛ لأنها وليدة تجربة بشرية؛ ذلك لأن الإسلام أوسع بكثير من أن يقتصر على جانب ما من دائرة الثقافة، بل أوسع بكثير حتى من دائرة الحضارة نفسها على امتدادها؛ لأن هذا التقسيم يحجم دور العقيدة والدين، ويجعله أسير مساحة ضيقة من الثقافة .

الحضارة في الاصطلاح:

مصطلح الحضارة من المصطلحات المعقدة التي تجمع المئات من التفاسير، وكل منها يعكس تصوراته الخاصة عن الوجود والحياة، وذلك لاختلاف العقائد والمذاهب والميولات الاجتماعية والبيئية. والحضارة عنوان على معطيات الأمم والشعوب.

وسوف أعرض ما أمكن من تلك التصورات والآراء بقدر ما يتصل بالبحث، وبقدر ما يعين على فهم هذا المصطلح فهما دقيقًا، ثم أعلق عليها لترجيح الرأي الذي أراه:

تعريف ابن خلدون: يقول: «إن الحضارة هي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف لصنائع التي تؤنق من أصنافه، وسائر فنونه، من الصنائع المهيئة للمطابخ والملابس، أو المباني أو الفرش أو الآنية لسائر أحوال المنزل»(١).

- **تعريف الدكتور محمد محمد حسين**: «هي كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه، عقلًا وخلقًا، مادة وروحا، دنيا ودينًا»(٢).

- **أحمد شلبي**: يقول: «إن الحضارة هي الإنجازات التي حققتها البشرية من خلق وسلوك ومعارف»(٣).

- **حسين مؤنس**: «الحضارة: هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أو غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية»(٤).

- **تعريف مالك ابن نبي**: «الحضارة: هي البحث الفكري والبحث الروحي»(٥).

- **تعريف أبي الأعلى المودودي**: «الحضارة: نظام متكامل يشمل كل ما

---

(١) المقدمة/ عبدالرحمن بن خلدون ص ٢٩٥، ط مصطفى البابي الحلبي .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية/ ص ١٦ مؤسسة الرسالة ط الخامسة ١٩٨٢م.

(٣) موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ج١/ ١٥، ط الخامسة، دار النهضة العربية ١٩٧٥م.

(٤) الحضارة ص ١٣ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- عالم المعرفة رقم: (١) .

(٥) شروط النهضة ص ٣٣، دار الفكر دمشق .

بالإنسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية العائلية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية»[١].

- **تعريف الدكتور/ عفت الشرقاوي**: «الحضارة: هي ذلك التراث التاريخي المتمثل في العقائد والقيم غاية مثلى، ومغزى روحيًا عميقًا، ومتعاليًا على متناقضات المكان والزمان»[٢].

- **الدكتور محمد البهي**: قال: «الحضارة: هي الإنتاج البشري الفكري، والوجداني، والإداري، لزيادة إمكانية الإنسان في سعيه في الحياة، وفي تغلبه على مشاق العيش فيها، ولرفع مستوى إنسانيته في تقدير ذاته، وفي علاقة الأفراد بعضهم ببعض»[٣].

- **تعريف الأستاذ سيد قطب**: «الحضارة هي: ما تعطيه للبشرية من تصورات، ومفاهيم، ومبادئ وقيم تصلح لقيادة البشرية، وتسمح بالرقي والنمو الحقيقين للعنصر الإنساني، وللقيم، والحياة الإنسانية»[٤].

ولقد تعرض العلماء والباحثون الغربيون لتعريف الحضارة، نذكر منها ما يلي:

١- **وول ديورانت**: قال: «إن الحضارة: هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، العقائد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون»[٥].

٢- **والعالم الإنجليزي تيولر**: قال: «إن الحضارة: هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعارف والعقيدة، والفن، والقيم الأخلاقية والقانون، والتقاليد الاجتماعية، وكل القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع»[٦].

---

(١) الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها ص ٢٨٨، دار الخلافة بدون تاريخ.

(٢) الحضارة الإسلامية ص ١٨، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١م.

(٣) الدين والحضارة الإنسانية ص ٥٢، ط الشركة الجزائرية بدون تاريخ.

(٤) المستقبل لهذا الدين ص ٤٨، دار الشروق ط السادسة ١٤٠٣هـ .

(٥) قصة الحضارة ج١ /٩ .

(٦) فلسفة الحضارة الإسلامية، مرجع سابق ص ١١ .

٣- **وعرفها لارف لنتون**: بأنها «مجموعة منظمة من الاستجابات التي تعلمها الأفراد، وأصبحت من مميزات المجتمع»[(١)].

٤- **وعرفها كلود ديلماس**: بقوله: «هي تربية الضمير واستعمال الثقافة والعقل في البحث عن الأفضل»[(٢)].

٥- **عرفها غستاف لوبون**: بقوله: «هي نضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات، وتغيير مشاعر الإنسان إلى الأفضل»[(٣)].

٦- **عرفها الكسيس كاريل**: فقال: «وجوب أن تتبع الأبحاث العقلية، والروحية، والعلوم الخادمة لسعادة الإنسان النفسية، والخلقية، والإنسانية»[(٤)].

٧- تعريف نتشه وأتباعه من أصحاب المذاهب الشيوعية «الحضارة: هي القضاء على العدل والأخلاق، وترك العنان لطبيعتنا الحرة لتفعل ما تشاء، ولو أدى ذلك إلى أن نسير على الجماجم في سبيل تحقيق ذلك»[(٥)].

تعقيب وتعليق:

عندما يلقي الباحث نظرة متأنية في هذه التعريفات المتباينة يجد أن هناك خلطًا واضحًا بين مفهوم الحضارة ووسائلها، ويجد أن كل مجموعة من هذه التعريفات أخذت جانبًا من جوانب النشاط البشري، وقصرت عليه معنى الحضارة.

فقد جاء تعريف ابن خلدون مقتصرًا على العمران وما يعرف بالمدنية، وهو تعريف قاصر لا يمكن استيعاب مصطلح الحضارة، وظواهره المتعددة. ثم يأتي تعريف الدكتور محمد محمد حسين ليشمل الحضارة وظواهرها، وأنها تتناول كل قدرات الإنسان عقلية كانت، أو نفسية، أو علمية التي تتجه إلى التقدم. بينما لم

(١) شجرة الحضارة/ ترجمة أحمد فخري ج١/ ٥،ط مكتبة الأنجلو .

(٢) تاريخ الحضارة الأوروبية/ كلود ديلماس، ترجمة كوليت حبيب ص٥ .

(٣) حضارة العرب/ ترجمة عادل زعيتر ص ١٧، ط دار النهضة العربية بدون تاريخ .

(٤) الإنسان ذلك المجهول/ ترجمة شفيق أسعد فريد ص ٥٧، ط مؤسسة المعارف بيروت .

(٥) المشكلة الأخلاقية أندرية كرشن ص ٣٢ تعريب د . عبدالحليم محمود، ط دار المعارف ١٩٧٩م .

يفرق بين المفاهيم عن الحياة، ولا بين الأشكال المادية التي تستعمل في شؤون الحياة، ولا يخفى على كل ذي لُب الفرق الشاسع بين المفاهيم والأشكال الناتجة عنها.

وتأتي تعاريف أحمد شلبي، وحسين مؤنس، ولارف لنتون، «وتيولر، وول ديورانت» للحضارة بأنها العلم المبني على الاكتشافات التي تساعد الإنسان على أن يحيا حياة أفضل مستفيدًا من البيئة التي حوله، فلا عبرة في مفهومهم هذا إلا للتكنولوجيا في الحضارة والعلم والمخترعات هما اللذان يمنحان الحضارة رقيها ومفاهيمها الصحيحة.

وتعريف سيد قطب ومالك ابن نبى وأبي الأعلى المودودي أكثر تحديدًا لمفهوم الحضارة حيث اقتصرت مفاهيمهم للحضارة على أنها المبادئ والأنظمة التي شرعها الله عز وجل، وأنزلها على رسوله ﷺ لتنظيم حياة الإنسان العامة لترقيته، وتأمين حياته. ولكنها أهملت العنصر الأساسي في الحضارة؛ وهو الإنسان.

والاتجاه الشيوعي الذي مثله نتشه وأتباعه اتجاه مدمر إباحي، لا يعرف خلقًا ولا دينًا، بل هو اتجاه معادٍ للإنسانية والفضيلة.

ومن خلال هذه المفاهيم والتصورات عن الحضارة تتضح الدوافع الأساسية الكامنة وراء هذه التعاريف، فكلٌ يسعى لإيجاد الصلة بين تصوره عن الكون والإنسان والحياة وبين ما يسمى بالحقيقة الحضارية؛ ليصل في النهاية إلى تأكيد حضارة كفره وممارساته مغلبًا عليها الطابع الذي يريد.

إن الحضارة كمصطلح ينبغي أن تحدد بمعزل عن الأطر الفكرية والاتجاهات العقدية؛ لأن تحديد مفهوم الحضارة بعيدًا عن تلك الأطر والاتجاهات - بغض النظر عن جانب الصواب والخطأ فيها - يساعد الباحث على فهم كثير من الأمور.

ولهذا لا بد أن نفرق بين المبادئ والحضارة: فالحضارة صورة لممارسة الإنسان نشاطه في هذا الكون، هذه الممارسة، وذلك النشاط مبنيان على مبادئه وأهدافه وقيمه، فالحضارة ليست المبادئ والأهداف بذاتها، وإنما المبادئ والقيم والتصورات هي التي توجه ممارسات الإنسان وأنشطته المختلفة على كل صعيد، والحضارة هي نتيجة تطبيق المفاهيم والقيم، وبمعنى أوضح: هي تفاعل الإنسان مع الكون والحياة عبر زمان محدد أو أزمنة متعاقبة.

ولنضرب مثالاً على ذلك: فالمبادئ في الإسلام مجموعة قيم ومفاهيم عن الحقيقة تتضمن عقيدة، وأمرًا، ونهيًا وتنظيمًا لشؤون الحياة المختلفة. فهذه المفاهيم إن لم تمارس واقعيًّا في حياة الإنسان تغدو تراثًا وكتبًا قيمة ليس إلا... والكلام المسطور لا يصح تسميته حضارة، بل يسمى باسمه مبادئ وأفكار.. حتى إذا ترجم إلى واقع موجود في عالم؛ ظهرت الحضارة حاملة صفات التفاعل والتطبيق.

وبقدر ما تكون المفاهيم صحيحة وسوية وملائمة للإنسان ومعينة له على الممارسة والانفتاح، بقدر ما تكون الحضارة مشرقة نافعة، والعكس صحيح.

وبعد هذا البيان تظهر حقيقة عامة؛ وهي: أن لكل جماعة إنسانية حضارة، مهما كان مستواها الثقافي أو العمراني، ومهما كانت أفكارها وعقائدها، ولكن الفارق الوحيد بين تلك الحضارات هو مستويات الأفكار والقيم ذاتها، ومدى قدرتها على تحقيق التوازن والسعادة في حياة الإنسان.

وبعد هذا يمكن وضع تعريف للحضارة فأقول: «إن الحضارة: هي تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما في مكان معين وزمن ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة».

ثالثًا: الشرق والغرب:

الشرق:

في اللغة العربية جهة شروق الشمس، والشرقي: الموضع الذي تشرق فيه الشمس من الأرض[1]، والمشرق جهة شروق الشمس، ويقال: شرق الرجل بريقيه يشرق شرقا وشرق: أخذ في ناحية الشرق، والشرق: الجهة منها التى تشرق الشمس وأطلقت على البلاد الإسلامية التي في جهة الشرق[2].

الغرب:

من غرب، والغرب خلاف الشرق، وهو المغرب. والمغرب في الأصل: موضع

---

(١) انظر: لسان العرب: مادة شرق ص ٢٢٤٦، والقاموس المحيط ج ٣/ ٢٤٩ .

(٢) المعجم الوسيط ج١/ ٤٨٢، ودائرة معارف القرن العشرين ج٥/ ٣٧٩ .

غروب الشمس[١]، والغرب: يطلق على البلاد التي تقع جهة الغرب كبلاد الإفرنج بالنسبة لبلاد الترك والعرب[٢].

وقولنا: الشرق والغرب لا يعني أن هناك حدًا فاصلًا بدقة يمكن أن نفصل به بين مجالين جغرافيين واضحين، وإنما هما مصطلحان سياسيان نشآ في الأواسط الاستعمارية الغربية منذ أن تمكن الغربيون من النهضة الصناعية المادية، وانتشار الميل إلى الاستعمار في قلوب أصحاب رؤوس الأموال الصناعية والتجارية من ذوي السلطة والمصلحة في التوسع على حساب الشعوب الأخرى الضعيفة والمتخلفة صناعيًا في العالم، فانطلقوا باحثين عن مصادر المواد الأولية لمصانعهم من جهة، وعن أسواق لترويج بضائعهم المنتجة في بلادهم وتصريفها من جهة أخرى.

وكانت المنافسة شديدة بين دول أوروبا، وعلى وجه الخصوص الغربية منها، فيما بينهما في المجال البحري على أوسع نطاق، وكان اتجاه هذه الدول جميعًا منصبًا بعد الكشوف الجغرافية على العالم الجديد في غرب المحيط الأطلسي ثم تحول النظر نحو الشرق إلى المناطق الشاسعة في إفريقيا وآسيا التي تتميز بالتخلف الاقتصادي والعسكري. فأطلق هؤلاء الغزاة الغربيون تسمية الشرق على هذه المناطق المنتشرة في القارتين. وكانت البلاد العربية الإسلامية واقعة ضمن نطاق هذا التحديد الجغرافي المفهوم من مصطلح الشرق، ولم يدخل العالم الجديد بقارتيه العظيمتين في نطاق هذا المصطلح، ولكنه دخل شيئًا فشيئًا في نطاق مصطلح الغرب الذي يشتمل على بلدان أوروبا[٣].

وهذا التقسيم إلى الشرق والغرب - وإن كان حديث الاصطلاح والاستعمال - فهو قديم الدلالة والمفهوم، حيث كان العالم في الزمن القديم قوتين تصطرعان، وتتنازعان لسيادة العالم؛ إحداها في الشرق، والأخرى في الغرب تمثل ذلك في الصراع بين الفرس والروم، ثم بين المسلمين والروم، ثم بين المسلمين والصليبيين ثم بين العثمانيين والأوروبيين، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة: الصراع بين الشرق ممثلًا في آسيا وإفريقيا، وبين الغرب ممثلًا في أوروبا وأمريكا، وهذا هو موضوع هذا البحث.

---

(١) لسان العرب مادة غرب ص ٢٢٢٥، والقاموس المحيط ج١ / ١٠٩ .

(٢) المعجم الوسيط ج٢/ ٦٤٧، ودائرة معارف القرن العشرين ج٧/ ٥١ .

(٣) انظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا/ د . محمود المقداد ص ١٥، عالم المعرفة رقم ١٦١ .

رابعًا: الأثر:

من أثر الهمزة والثاء، والراء له أصول ثلاثة: تقديم الشيء، ذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي، والأثر بقية ما يرى من كل شيء، وما لا يرى بعد أن تبقى علته[١].

وأثره: تبع أثره، وأثّر فيه: ترك فيه أثرًا، وتأثر الشيء: ظهر فيه الأثر[٢].

وهذا البحث- إن شاء الله- سيتناول دراسة الآثار التي نجمت عن الصراع الحضاري، وأثرت في الدعوة الإسلامية، وأدت إلى انحسارها وتأخر المسلمين، ووضع الأساليب لمواجهة هذا الصراع للنهوض بالدعوة الإسلامية وسط هذا المعترك.

خامسًا: الدعوة الإسلامية:

مصطلح الدعوة الإسلامية يشتمل على لفظين: الدعوة، ونسبتها للإسلام، وهذا يدفعنا إلى تعريف كلا اللفظين.

فالدعوة في اللغة كلمة تطلق ويراد بها عدة معان؛ منها الرغبة إلى الله. والفعل دعا ومصدره الدعاء، والدعوى.. والاسم الدعوة والدعاوة[٣].

والدعوة تصلح أن تكون في معنى الدعاء... والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة أو ضلالة، واحدهم داع، ورجل داعية، والنبي ﷺ داعٍ إلى الله تعالى. وكذلك المؤذن[٤] والمراد بها هنا الرغبة إلى الله تعالى.

وتطلق الدعوة على الدعوة الإسلامية، فهي ترغب إلى الله تعالى، وهي تشمل دعوة الأنبياء والمرسلين جميعًا؛ إذ إنهم كلهم يدعون إلى الله تعالى ويرغبون في الإسلام. أما الدعوة الإسلامية ذاتها، فركناها العقيدة، والشريعة. والعقيدة هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. والشريعة عبادات، ومعاملات مالية وأسرية وقضائية وسياسية.

---

(١) معجم مقاييس اللغة/ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ج١/ ٥٣، تحقيق عبدالسلام هارون، ط الثانية ١٩٦٩م.

(٢) المعجم الوسيط ج١ / ٥ .

(٣) القاموس المحيط مادة دعا .

(٤) لسان العرب، مادة دعا .

والدعوة بهذا المعنى هي المرادة في هذا البحث، حيث إن سبب الصراع القائم هو ما جاءت به الدعوة الإسلامية من مبادئ إنسانية، وقواعد خلقية تنظم حياة البشر في الدنيا والآخرة، لبناء الحضارة الإنسانية التي تقوم على الحق والعدل. وهذه المبادئ وتلك القواعد والنظم بمثابة الثورة على المبادئ والنظم الجاهلية والوثنية التي تدعو لها الحضارة المادية الحديثة، ومن هنا كان الصراع بين الحضارتين الإسلامية والمادية الغربية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

سادسًا: العصر الحديث:

إن تقسيم الزمان إلى عصور قديمة ووسطى وحديثة تقسيم لا ينطبق على الإسلام؛ وإنما هو تقسيم بشري غربي ينطبق على الفكر الأوروبي. أما الإسلام فله عصر واحد يمتد من ظهوره إلى يوم القيامة؛ لأن الإسلام طور الفكر البشري، وحضر الأمة الإسلامية ووضعها في مكان الريادة. إلا أن الأمة يأتي عليها فترات ازدهار وفترات ضعف.

وتقسيم العصور - في العرف البشري - قائم على أساس تطور الفكر وارتقائه وتقدمه، وهذا أمر لا ينطبق على الإسلام أيضًا؛ لأن الله عز وجل أنزل القرآن الكريم، وشرحته السنة النبوية ووضحته، والقرآن الكريم بتعاليمه ونظمه شامل لكل زمان ومكان لا ينطبق عليه ما ينطبق على الفكر البشري من مرحلة طفولة وشباب وشيخوخة؛ لأنه قادر على العطاء متى تفاعلت معه الأمة.

وإذا كان علماء الغرب تواضعوا على هذا التقسيم للتميز بين مراحل التطور الفكري والبشري، فإن الباحث يجاريهم في هذا التقسيم ويوافقهم على أساس التطور المدني للإنسان، فالتطور المدني يصح إطلاق هذا التقسيم عليه.

وتحديد بداية حقيقية للعصور الحديثة أمر بالغ الصعوبة؛ لأن الإنسان مثلاً في مراحل نموه لا يستطيع أن يحدد يومًا معينًا لانتقاله من مرحلة المراهقة مثلاً إلى مرحلة الشباب؛ لأن كل مرحلة تتداخل في نهايتها مع بداية المرحلة التي تليها، فإذا كان

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٣ .

هذا هو حال الإنسان، فكذلك الانتقال من عصر إلى عصر لا يحدث فجأة؛ وإنما هناك فترة انتقال بين كل عصر وآخر، وهذه الفترة قد تطول وقد تقصر حتى تستقر المفاهيم الجديدة. ومن هنا يأتي الخلاف بين المؤرخين في بداية كل عصر ونهايته.

ولقد اختلف المؤرخون حول بداية العصر الحديث إلى أقوال: منها أنه يبدأ من عام ١٥٠٠ وانتهاء العصور الوسطى كان عام ١٣٠٠، وهذه الفترة كانت فترة انتقال. والبعض الآخر يُرجع بداية العصر الحديث إلى عام ١٦٠٠ على أساس أن حركات الإصلاح الديني والصراع المذهبي في أوروبا هي التي أخذت بيد أوروبا من ظلم الكنيسة[١].

والبعض الآخر يرجع بداية العصر الحديث إلى قيام الثورة الصناعية والثورة الفرنسية يعني بين عامي ١٧٧٦، ١٧٨٩[٢]. والرآي الأخر هو الذي يسير عليه الباحث في هذه الدراسة، حيث إن المفاهيم الحالية للحضارة الغربية ترتبط بهذين الحدثين وهما الثورة الصناعية والثورة الفرنسية. والأخلاق الأوروبية اليوم كلها أخلاق مادية ليبرالية، مؤسسة على شعارات الثورة الفرنسية «دعه يفعل ما يشاء، دعه يمر من حيث شاء».

واعتبر المؤرخون أن مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ هو بداية الاحتكاك بين الشرق والغرب بعد فترة الحروب الصليبية، وعلى ذلك فإن البحث والدراسة تبدأ من مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر وإلى ما بعد الحرب العالمية الثانية وقيام منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م.



(١) أوروبا في مطلع العصور الحديثة/ عبدالعزيز الشناوي ص ٢١، ٢٢، ط مكتبة الأنجلو ١٩٧٥م.

(٢) قصة الحضارة/ وول ديورانت ج١٠/ ٣٩٣، ترجمة فؤاد أندراوس، ط جامعة الدول العربية.

المبحث الثاني
الدراسة الحضارية ومقومات الحضارة

لكي يكون الحديث عن حضارة أمة ما من الأمم حديثًا علميًّا، لا بد أن يبدأ الحديث ببيان معنى الدراسة الحضارية حتى يضع الأسس التي يدور عنها الحديث عن الحضارة، كذلك ينبغي أن يشتمل على مقومات الحضارة والعوامل المؤثرة في قيامها. حتى يكون انطلاق الدراسة من أساس سليم إلى غاية سليمة، وسوف يكون الحديث عن ذلك في مطلبين:

المطلب الأول: الدراسة الحضارية والفرق بينها وبين الدراسة التاريخية.

المطلب الثاني: مقومات الحضارة.

المطلب الأول
الدراسة الحضارية والفرق بينها وبين الدراسة التاريخية

لكي ندرس حضارة أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات دراسة علمية؛ فإنه ينبغي ألا يقف الدارس عند المدلول الدارج لكلمة حضارة، هذا المدلول الذي يشير إلى تقدم الأمة، وارتقاء المجتمع وتفوقه الروحي والمادي في تناول الحياة؛ وإنما تهتم الدراسة الحضارية في المقام الأول بمجموع القيم الاجتماعية والاسس الفكرية الثابتة التى تتكلم فى نشاط المجتمع وتكون له شخصيته الحضارية، وكل ما يتصل بها من مفاهيم عن الحياة والموت والطبيعة التاريخية، والعلاقات الاجتماعية ومصير الإنسان[1].

ولذلك، فإن الدراسة الحضارية - بالمفهوم العلمي الصحيح - تميل إلى النظرة الكلية التي تكشف عن ظواهر الحياة من كافة جوانبها، لتبعث التاريخ الاجتماعي في صورة

(١) دراسات في الحضارة الإسلامية / إبراهيم الشريف / ١١/ مرجع سابق .

شاملة، ولهذا فإنه توجد صلة وثيقة بين الدراسة التاريخية والدراسة الحضارية، من حيث اهتمام كل منهما بالحياة الإنسانية في ماضيها، والعناية الخاصة بواقع الأجيال السالفة في مختلف أحداثه وظواهره. ولكن الدراسة الحضارية - في اهتمامها بواقع الأجيال السابقة - تختلف عن الدراسة التاريخية وهذا الاختلاف يتمثل في منهج الدراسة.

«فدراسة التاريخ تقوم على المنهج التقليدي الذي يتسم باستقصاء الحقائق وتفاصيل الجزئيات، وأهم ما يتصف به هذا المنهج: أنه يميل إلى التخصص وتجزئة الوحدة الموضوعية في حياة المجتمع، فالمؤرخ يكتفي عادة بجانب واحد من النشاط الإنساني لذلك العصر، فمؤرخ السياسة لا يعنيه من حياة المجتمع سوى نمط الحكم، وما يتصل به من صراع مذهبي وسياسي، وما انتهى إليه ذلك الصراع في تطور الأحداث ومجرى الوقائع التاريخية والاجتماعية. وكذلك مؤرخ الاقتصاد لا يهتم من العصر الذي يؤرخ له بغير موارد الثروة ومصادرها، وما يدور حول هذا وذاك من نظم وأوضاع اقتصادية، وغير ذلك من سائر المؤرخين، فإن كل واحد منهم يتناول ظاهرة معينة من ظواهر المجتمع غير حافل لما بين هذه الظاهرة وسائر الظواهر الأخرى من تفاعل وتداخل»[١].

ولكن الدراسة التاريخية تقوم على دراسة الأنشطة المختلفة للمجتمع ككل، والمؤثرات التي تؤثر بين الأنشطة المختلفة، فمثلاً في الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات، نجد أن النشاط السياسي يتأثر بالنشاط الاقتصادي ويؤثر فيه؛ لأن كل اتجاه من اتجاهات النشاط الإنساني مكمل لسائر الاتجاهات[٢].

ومن هنا، فإن المؤرخ باكتفائه بظاهرة واحدة من مظاهر النشاط الإنساني لا تمكنه من تفسير المجتمع تفسيرًا شاملاً، وهو ما تقوم به الدراسات الحضارية حيث تهتم بدراسة الأفكار المختلفة، التي توجه الأنشطة الإنسانية لتفسير المجتمع تفسيرًا حضاريًا شاملاً.

---

(١) انظر: مختصر دراسه أرنولد توينبي/ ج١/ ١٠، ١١، ترجمة فؤاد شبل/ ط جامعة الدول العربية ١٩٦٦م.

(٢) دراسات في الحضارة الإسلامية / ١٣ مرجع سابق.

كذلك من وجوه الاختلاف بين الدراسة التاريخية والدراسة الحضارية هو «أن دراسة التاريخ قد تواضعت على تقسيم تاريخ الأمة الواحدة إلى طائفة من العصور؛ فهناك تاريخ قديم، تاريخ وسيط، تاريخ حديث، كما يقسم العصر الواحد إلى عهود ودول. بل إن الدراسة التاريخية تميل الآن إلى تضييق حدود التخصص بتقسيم العهد الواحد إلى فترات قصيرة في عدد السنين[١].

ولكن هذا التقسيم من وجهة نظر الدراسة الحضارية يفتقر إلى تعميق الظواهر التاريخية، إلى جانب قصوره عن إدراك السنن والتطورات الاجتماعية المستمرة في جميع العصور، والتي تسيطر سيطرة تامة على مجرى الوقائع والأحداث؛ فالعصر الوسيط لأي أمة من الأمم مثلاً لا يستطيع المؤرخ تصوره حضاريًا إذا هو تناوله باعتباره وحدة قائمة بذاتها، وتجاهل ما بينه وبين العصر السابق من تيارات اجتماعية، ومن دوافع إنسانية التي هي كامنة وراء تطور الحوادث، والتي هي مصدر لكل تحول تاريخي واجتماعي»[٢].

فالحضارة الإسلامية في كافة عصورها ومراحلها وحدة تاريخية متكاملة، كما أن الأصول الروحية والمادية التي قامت عليها هذه الحضارة ظلت في كيان المجتمع الإسلامي في كافة عصوره، ولا يمكن أن تتضح الشخصية الحضارية لأي عصر من هذه العصور الإسلامية إذا هو لم يدرس ما تضمنه عصر الرسول ﷺ وصحابته من أصول وقيم وأنماط اجتماعية، وبالأسس والمبادئ والتصورات التي كونت قاعدة الحضارة الإسلامية. وهذه القاعدة تتمثل في القرآن الكريم بكل ما تضمن من أفكار وتصورات حول الكون والحياة والإنسان.

وما يعاينه المجتمع الإسلامي الظاهر وسائر المجتمعات الأخرى من انفصال حضاري ليس غير نتيجة طبعية للصراع بين مفاهيم الحضارة الموروثة ومفاهيم المدنية العلمية.

وما يقال عن الحضارة الإسلامية يقال عن الحضارة المسيحية والحضارة الغربية المعاصرة.

---

(١) مختصر دراسة التاريخ /ج ١/ ١٧ بتصرف.

(٢) دراسات في الحضارة الإسلامية / ١٥.

فالفصل بين عصر تاريخي وآخر، أمر لا يتفق مع طبيعة الدراسة الحضارية لما يؤدي إليه ذلك الفصل من قطع الصلة بين معالم الشخصية الحضارية وبين أصولها ومصادرها. ومن هنا تختلف الدراسة الحضارية عن الدراسة التاريخية؛ فالدراسة الحضارية تعنى بالنظرة الكلية للقيم والأسس والمبادئ التي تتضح من خلالها الشخصية الحضارية للمجتمع ونشاطه الإنساني في كل اتجاه من اتجاهاته، ولذلك فإن البحث سيتناول الأسس والمبادئ والأفكار التي توضح الشخصية الحضارية لكلا المجتمعين - الإسلامي والغربي.

المطلب الثاني
مقومات الحضارة

المقومات التي تساعد على قيام الحضارة هي نفس عوامل قيام المجتمع، ولكي يوجد أي مجتمع لا بد من توافر بعض المقومات أو عوامل تساعد على تكوينه حتى يقوم هذا المجتمع وينشئ حضارته، وأهم هذه المقومات ما يلي:

أولاً: البيئة:

من أهم العوامل الأساسية في قيام الحضارات واستمرارها: وجود البيئة الطبيعية التي تمد المجتمع بمطالبه الضرورية من غذاء وملبس، ولذلك كانت نشأة الحضارات القديمة في أودية الأنهار والواحات، حيث يجد الإنسان مجالاً لمزاولة أسباب الحياة في حدود قدراته في ذلك الوقت بما ييسر له ممارسة الصيد والرعي والزراعة.

ولقد قال علماء الاجتماع: «إن مستوى الحضارة يتناسب تناسبًا طرديًا مع سهولة البيئة الطبيعية، بمعنى أنه كلما كانت البيئة الطبيعية أغنى وأيسر كلما ارتفع المستوى الحضاري للمجتمع، وكلما قل نصيب البيئة الطبيعية من الغنى واليسر يتضاءل المجتمع في مستواه الحضاري»[١].

---

(١) دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٤٨، مرجع سابق .

ويرى أرنولد توينبي رأيًا مخالفًا لدور البيئة في قيام الحضارة ورقيها فيقول: «إن المستوى الحضاري للمجتمع يتناسب تناسبًا عكسيًّا في سير البيئة وسهولتها؛ بمعنى أنه كلما كانت البيئة أغنى وأيسر؛ انخفض المستوى الحضاري للمجتمع، وكلما كانت البيئة الطبيعية أقل غنى ويسر؛ ارتفع المجتمع في مستواه الحضاري»[١].

فالبيئة الطبيعية تمثل العنصر المادي من الحضارة، وهي تؤثر في نشاط الإنسان الحضاري تأثيرًا مباشرًا؛ وذلك لأن الظروف الطبيعية لها أثر في حفز همته إلى العمل والابتكار أو العكس، فالبيئة المعتدلة الجو أعون للإنسان على التقدم من البيئة الحادة المناخ، والبيئة الباردة تحفزها على النشاط والسعي، ومع ذلك فإن الأمور مهما بلغت من السوء فإنها لا تقضي على النشاط الذهني، أو تقلل من قيمته عند أصحاب العزائم والهمم أو عند وجود الرغبة في عمل حضاري منظم وتربية أجيال قادرة على صنع شيء ذي قيمة معينة، ولهذا يرى الباحث أن البيئة ليست باعثة الحضارة أو تعوقها، وإنما هي عامل مادي أساسي في اكتشاف ماديات الحضارة. وليس للمناخ والحرارة أي أثر في صرف الإنسان عن تسخير البيئة كما يقول ول ديورانت[٢]، بدليل أن هناك حضارات كبرى ظهرت في وسط الصحراء العربية كما سنذكر ذلك في المبحث الثالث، مثل حضارة ثمود وعاد، وأصحاب هذه الحضارات قد سخروا له كل شيء في سبيل تحقيق الرفاه الاجتماعي، وما حصلته الحضارة الإسلامية في البلاد التي فتحها الإسلام، وهي التي نشأت من الصحراء العربية، وقد قال المؤرخ أرنولد توينبي» إنه لا الجنس ولا البيئة حتى الآن قد قدما أو ما يمكن أن يقدما أي دليل عن سبب حدوث هذا التحول العظيم في التاريخ البشري، لا في أماكن معينة فحسب بل أيضًا في تواريخ معينة»[٣].

فالبيئة عامل مساعد في قيام الحضارة، والمشكلة كلها في الإنسان نفسه كجنس أعطاه الله العقل وسخر له ما في السموات، وذلل له الأرض، ليسعى عليها، ويأكل من رزق ربه. قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٤].

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ص أرنولد توينبي ج١ / ٩٤، مرجع سابق.

(٢) قصة الحضارة / ول ديورانت ج ١/ ٣، ٤ مرجع سابق.

(٣) مختصر دراسة التاريخ / أرنولد تويني ج ١/ ١٠٠ مرجع سابق.

(٤) سورة سبأ: الآية ١٥.

ثانيًا البيئة الإنسانية:

الإنسان بمقوماته هو الأساس الأول في قيام الحضارات، ولا يمكن لأي حضارة أن تقوم بغير الإنسان، والبيئة الإنسانية بمقوماتها الاجتماعية هي التي تتكفل بتنظيم الحياة الاجتماعية، وترسم للجماعة الإنسانية مثاليتها الحضارية، وللأفراد منهج النشاط المادي والروحي، كما ترسم هذه المقومات حدود الواجبات والحقوق بين أفراد المجتمع من ناحية، وبين الفرد والمجتمع الذي ينتمي إليه من ناحية أخرى.

ومقومات البيئة الإنسانية تتمثل في أربعة مظاهر رئيسية، هي: المقوم الاقتصادي، والمقوم السياسي، والمقوم الأخلاقي، والمقوم الثقافي. وكل مقوم من هذه المقومات يعمل على تنظيم اتجاه معين من اتجاهات النشاط الإنساني التي تساهم جميعًا في قيام الحضارة. ويمكن إعطاء كل جانب نبذة مختصرة تحدد موقفه في بناء الحضارة وقيامها.

(أ) المقوم الاقتصادي:

يتمثل المقوم الاقتصادي في أنه ذلك النمط الاجتماعي الذي يتحكم في مصادر الثروة المادية وتوزيعها بين طبقات المجتمع وأفراده[1]. والمقوم الاقتصادي من أهم مقومات ارتقاء الحضارة؛ وذلك لأن كثيرًا من القيم الاجتماعية في حياة المجتمع تتصل بالجانب الاقتصادي، فهو يدخل في نطاق الملكية الفردية وما يدور حولها من قيم وأوضاع، وعلى قدر تنظيم المقوم الاقتصادي للملكية الفردية وما يتفرع عنها يكون الأمن الذي يهيئ الجو للعمل الحضاري، ومدى عودته بالخير على الإنسان والمجتمع.

ولقد أكد ذلك أرنولد توينبي حين قال: «إن انهيار الحضارات لا يتسبب عن تأثير قوى الكون الخارجة عن نطاق الإرادة البشرية، وإنما يعود في المقام الأول إلى الأسلوب التكنولوجي ومدى قابليته للتطبيق وتسيير الحياة»[2].

ولعل هذا القول يوضح السبب في انهيار الحضارة الغربية، فالتكنولوجيا فيها

(١) دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٥١، مرجع سابق.

(٢) مختصر دراسة التاريخ ج ١/ ٤٢٨، ٤٢٩ باختصار.

متقدمة ولكن أسلوب التعامل بها مع الإنسان هو الذي عجل بانهيار الحضارة، في حين أن الإسلام نظم أسلوب التعامل مع المادة، ووازن بينها وبين روحانية الإنسان كما سيأتي. ومن هنا تتضح أهمية المقوم الاقتصادي وملاءمته لتكوين الإنسان وعلاقة ذلك بالرقي الحضاري.

(ب) المقوم السياسي:

ويتمثل المقوم السياسي في السلطة التي تتكفل بحماية الحقوق وفرض الواجبات، وهذه السلطة - في مراحل التاريخ الأولى - كانت تستمد كيانها من العرف الاجتماعي، ومع التقدم الحضاري انتقلت هذه السلطة من نطاق العرف إلى نطاق الحكومة الدينية، واكتسب المقوم السياسي للحضارة وما يصدر عنه من تشريعات - صبغة روحية غيبية حتى كان العصر الحديث، وتحول الفكر إلى فصل المقوم السياسي للحضارة عن العقيدة الدينية، واعتبر أن تنظيم هذا الجانب أمر اجتماعي خالص يخضع لطبيعة التطور ومقتضيات الأحوال، وهو ما تقره الديمقراطية كما سنعرف فيما بعد.

فالمقوم السياسي له دور أساسي في قيام الحضارة على أساس صلاحيته وملاءمته للواقع البشري وانضباطه يكون التقدم الحضاري.

(ج) المقوم الثقافي:

الثقافة: هي النشاط الفكري والفني وما يصدر عنه من تصورات ومعرفة، ويدخل في نطاق المقوم الثقافي للحضارة جميع الفنون والفلسفات على اختلاف مذاهبها وألوانها.

ولكل مجتمع حضاري- مهما كانت درجة تخلفه- رصيده الثقافي من فن ومعرفة وفلسفة في طبيعة الحياة والموت، ونشأة الوجود، ومصير الإنسان وما إلى ذلك من سائر الظواهر المادية والكونية. يقول الدكتور حسين مؤنس: «يتمثل الجانب الفكري من النشاط الثقافي في المعرفة العقلية من فلسفة ومنطق ورياضيات، وما يتفرع عنها من دراسات. أما الجانب الفني من النشاط الثقافي، فيتمثل في التعبير الجمالي عن ظواهر الكون والنفس والطبيعة تعبيرًا من شأنه أن يعمق القيم الحضارية، ويجسم مواطن الجمال في الفكرة والمادة»[١].

---

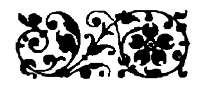
(١) الحضارة / ١١٧ بتصرف واختصار .

وسنرى- إن شاء الله- أن المقوم الثقافي للأمة الإسلامية هو القرآن بما يتضمن من عقائد وتفسيرات لطبيعة الأشياء والظواهر الكونية، وتصوراته للكون والعلاقات الاجتماعية ومصير الإنسان، وكذلك سنرى المقوم الثقافي للحضارة الغربية يتمثل في النظريات العلمية والفلسفية وبقايا الشرائع المحرفة.

(د) المقوم الأخلاقي:

المقوم الأخلاقي يتمثل في القيم التي ترسم للفرد وللمجتمع مثالية السلوك. وهو فرع عن المقوم الثقافي وأساسي في تكوين وقيام الحضارة؛ وذلك لأن الكيان الحضاري لا يمكن أن يدوم إلا إذا كانت قيمه الخلقية ثابتة مستقرة فوق مستوى العقل، ومن هنا تبدو أهميته في قيام الحضارة والمحافظة على كيانها.

فهذه المقومات ومصادر استمدادها أساس مهم في قيام الحضارة.



المبحث الثالث
الحضارة في القرآن الكريم

القرآن الكريم هو رسالة الله عز وجل إلى العالمين كافة، ذكر الله عز وجل فيه كل شيء، وفصل كل ما يهم الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[١].

ولقد حدثنا القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان بلا دين، وإنما جعل الدين من لوازم وجوده في كل مراحل حياته، حتى قبل أن تكون له مجتمعات، أو تقوم له حضارة. وقد قرر القرآن الكريم أنه سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان وأسكنه جنته، زوده سبحانه بشريعة واضحة، وحدد له مواطن الحلال، وحذره من مواطن الحرام بما يتناسب مع حياته. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[٢]، وفيها بالطبع أسماء الله وصفاته، وقال تعالى حين أسكنه الجنة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣] وحين أخطأ آدم - عليه السلام - وأهبط إلى الأرض، زوده الله سبحانه بمنهاج وشريعة بالقدر الذي يتناسب مع حياته، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٤].

ولقد قرر القرآن الكريم أن الإنسان حينما عاش على الأرض نشأ على منهج الله عز وجل الذي أنزله على سيدنا آدم، وضمنه معنى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥ .

(٤) سورة طه، الآيتان ١٢٣، ١٢٤ .

هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ علمه الله عز وجل كل شيء حيث لم تكن حضارة ولا صناعة ولا خبرة ولا تجارب في شؤون الحياة.

وفي قصة بني آدم - عليه السلام - دلالة واضحة على ما أقول، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[(١)].

فهذه الآيات تتحدث عن شريعة كاملة، ونظام كامل كان عليه الإنسان في ذلك الوقت، وهي تتضمن العبادة، وتتمثل في تقديم القربان، كما تضمنت العقيدة، وهي تتمثل في قول أحد الأبناء للآخر: يتقبل الله، إني أخاف الله رب العالمين، كما تتضمن الأخلاق وذلك في قوله تعالى على لسان أحد ابني آدم: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ إلى آخر الآيات، وهذه الشريعة وتلك العقيدة حين كان الإنسان متخلفًا حضاريًا حتى عن معرفة الدفن لجثة ميته، حتى تعلم ذلك من غراب أرسله الله عز وجل ليعلمه كيف يواري جثة أخيه. والآية الكريمة تعبر عن العجز تعبيرًا يدل على غاية القصور وانقطاع القدرة ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[(٢)].

ولما تشعبت البشرية وصارت أممًا وشعوبًا، وقبائل، ودولًا وممالك، لم يدعها الله عز وجل لأهوائها ونزواتها، وإنما أرسل إليها الرسل، وأنزل إليها الكتب التي تبين لها الحق من الباطل، وترشدها إلى طريق الله المستقيم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[(٣)]. وهكذا لم يترك

(١) سورة المائدة، الآيات ٢٧ - ٣١ .

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز / أبو السعود محمد بن محمد العمادي ج٢ / ٢١، ط ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨م .

الله عز وجل الفطرة البشرية لتعمل وحدها قط، وإنما أرسل الرسل بالإسلام مع اختلاف في بعض الشرائع حسب تطور المجتمعات البشرية، حتى جاءت الصورة الأخيرة لدين الله- الإسلام- كاملة شاملة لكل ما ظهر وما بطن حتى وصفها الله عز وجل أبلغ وصف، فقال في كتابه الكريم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

وبهذه المبادئ وتلك النظم وما انبثق عنها من أسس وقواعد عاشتها البشرية، نشأت حضارة إسلامية سعدت بها البشرية، وحققت في ظلها إنجازًا خدم الإنسانية ورقاها روحيًا وماديًا، وما كانت الحضارة وبالًا على الإنسان والحياة إلا من يوم أن تخلت عن الدين.

ولقد قص علينا القرآن الكريم قصص كثير من الحضارات، ومواقف أصحابها من رسل الله عز وجل، وعاقبة كل حضارة من هذه الحضارات التي اشتدت وامتدت واشتغلت وسادت ثم انحرفت؛ فبعث الله لها الرسل ليقوموا اعوجاجها، منها:

١- **حضارة العمالقة:** وهم عاد قوم هود عليه السلام، وكانت مساكنهم بالأحقاف في جنوبي الجزيرة العربية. وقد جعلهم الله تعالى خلفاء بعد قوم نوح عليهم السلام كما تذكر ذلك الآيات، وقد بلغوا من الحضارة مبلغًا عظيمًا أنساهم قدرة الله عز وجل عليهم[2] ويصور القرآن الكريم ذلك فيقول على لسان سيدنا هود عليه السلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[3].

ولكنهم تجبروا، وعتوا عن أمر ربهم، واستغنوا بمظاهر حضارتهم عن وحي الله وشريعته التي تضبط وتحافظ على مظاهر الحضارة، فما أغنى عنهم ذلك من الله من

(١) سورة الشورى: الآية ١٣ .

(٢) سورة المائدة: الآية ٣ .

(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٦٠٩ وقصص الأنبياء: عبدالوهاب النجار ص ٦٩ .

(٤) سورة الشعراء: الآيات ١٢٨، ١٣٤ . والرّيع. هو المكان المرتفع من الأرض، والبطش: الأخذ بالعنف والقسوة .



شيء، وجرى عليهم ناموس الله في القوم الكافرين، فقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾، وتلك سنة الله في خلقه ومن يتأبى على شريعته ويعيث فسادًا في الأرض.

٢- **حضارة ثمود:** قوم سيدنا صالح عليه السلام، وكانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ولا تزال آثارهم شاهدة على حضارتهم التي سجل القرآن الكريم كثيرًا من مظاهرها، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[(١)]. ويقول عنهم أيضا: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[(٢)].

٣- **الحضارة الفرعونية:** وهي إحدى الحضارات القديمة التي قامت على دولة وحكومة منظمة، ولم تكن على أساس قبلي محدود كما كانت الحضارات السابقة.

وقد سجل القرآن الكريم عنها الكثير وفي أكثر من موضع: قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾[(٤)]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾[(٥)].

هذه بعض الحضارات المادية التي ذكرها القرآن الكريم، والتي فرح أصحابها بما عندهم من العلم، فكفروا بالله عز وجل، وحاربوا رسله وكذبوهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٤٦ - ١٥٢ .

(٣) سورة الزخرف: الآية ٥١ .

(٤) سور ة غافر: الآيات ٣٦، ٣٧ .

(٥) سورة القصص: الآية ٣٨ .

يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١] وقال: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٢]. فلما استكبروا وعتوا وأفسدوا في البر والبحر حقت عليهم كلمة الله عز وجل، فما كان لهم من الله من واقٍ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝﴾ إلى قوله: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٣].

وهذه سنة عامة في الحضارات التي تترك المنهج الإلهي وتترك هدى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤].

وقد ذكر القرآن الكريم كثيرًا من الحضارات التي قامت في ظل الإيمان وعمرت الدنيا مدنية وثقافة ووصلت الإنسان بالله عز وجل ومن هذه الحضارات:

١- **حضارة سيدنا سليمان عليه السلام**: الذي سخر الله له الجن والإنس والطير، وسخر له الريح عاصفة تجري بأمره، وعلمه منطق الطير، وأسال له عين القطر (النحاس المذاب) ليشكل منها الصناعات التي يريد، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[٦]، وقد سخر سيدنا سليمان كل هذه الحضارة ومظاهرها في الدعوة إلى الله عز وجل، ونشر الحق، وإقامة العدل. وكان عليه السلام في غاية الإنابة والإخبات لرب العالمين، حتى قال فيه الله عز

---

(١) سورة غافر: الآية ٨٣ .

(٢) سورة غافر: الآية ٥ .

(٣) سورة الفجر: الآيات ٦ - ١٤ .

(٤) سورة الروم: الآية ٩ .

(٥) سورة سبأ: الآية ١٢ .

(٦) سور ة النمل: الآية ١٧ .

وجل: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١) يرجع كل شيء من النعم إلى الله عز وجل: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٢)، ولقد بلغ به الأمر في سماع الحق والرجوع إليه أن قال له هدهد ضعيف هو أحد رعاياه: ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(٣)، وكانت نتيجة ذلك هداية أمة إلى الإسلام، وعم الأرض الخير.

٢- **حضارة ذي القرنين**: وهو ملك من الملوك، مكن الله عز وجل له في الأرض، ويسر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب العمران. وقد سجل القرآن الكريم له ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان السدين، وقد أعلن دستوره في معاملة البلاد المفتوحة التي دان له أهلها وسلطه الله عليها، قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾(٤)، وقد سخر كل ما مكنه الله عز وجل فيه لتحقيق العدل، ومساعدة المستخدمين، ودرء العدوان عنهم، واستخدام القوة التي سيرها الله له في التعمير والإصلاح. ثم أرجع كل خير حققه الله على يديه إلى رحمة الله عز وجل وجبروته، وأنه راجع إلى الله عز وجل: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(٥).

هذا هو حديث القرآن الكريم عن الحضارة ونماذج من الحضارات الوثنية ومعالمها وعاقبتها، ونماذج من الحضارات المؤمنة ومعالمها، وسنة الله عز وجل في كل حضارة. أما الأسس التي تقوم عليها كل حضارة، وتصوراتها لمقومات الحضارة، وإنجازات كل منها، فهي موضوع الحديث في الفصلين القادمين إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة ص/ ٣٠ .

(٢) سورة النمل: الآية ٤٠ .

(٣) سورة النمل: الآية ٢٢ .

(٤) سورة الكهف: الآيات ٨٧، ٨٨ .

(٥) سورة الكهف: الآية ٩٨ .

الفصل الثاني
الحضارة في الإسلام

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسس الحضارة الإسلامية.

المبحث الثاني: تصور الحضارة الإسلامية للإنسان والكون والحياة.

المبحث الثالث: مظاهر الحضارة الإسلامية.



الفصل الثاني
الحضارة في الإسلام

تمهيد:

لقد بينت فيما سبق: أن مقومات الحضارة تتركز حول أربعة عناصر أساسية، أول هذه العناصر الإنسان فهو العنصر الأساسي في قيام الحضارات؛ لأنه صاحب التفاعل بما يملك من أنشطة وقدرات عقلية وجسدية وروحية؛ وثاني هذه العناصر: البيئة، فهي الساحة التي يتم فيها التفاعل لإنتاج الحضارة، ثم يأتي الزمن، وهو عنصر أساسي لحساب تفاعل الأنشطة الإنسانية، والإحساس بالوجود الحضاري، ولكي تؤدي هذه العناصر دورها الحضاري، لا بد أن تحكمها ضوابط وتصورات عقدية شاملة، متجانسة، تكون قادرة على حل مشكلات الحضارة، والمحافظة على سيرها وتقدمها، ولا يمكن أن تكون متجانسة إلا إذا خرجت من مصدر واحد بحيث تخلو من التناقض والاختلاف.

والإسلام وحده هو الذي امتلك ذاتية الضوابط ووحدتها؛ لاتصاله بخالق الكون ومدبره، ولقد وضح الله سبحانه وتعالى معنى الحضارة الإسلامية في مفاهيمها وعناصرها في سورة العصر، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[١].

فهذه السورة الكريمة حوت عناصر الحضارة: **الإنسان**، والمجتمع، والزمن، كما تضمنت التفاعل الحضاري الدائم: العمل، والتطبيق، والتنفيذ للمبادئ والمفاهيم، ويرتكز هذا كله على الإيمان بالله وهذا إجمال يحتاج إلى بيان وتفصيل، ويأتي ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تصور الحضارة الإسلامية للإنسان والكون والحياة.

المبحث الثاني: مفاهيم الحضارة الإسلامية.

المبحث الثالث: مظاهر الحضارة الإسلامية.

---

(١) سورة العصر.

المبحث الأول
أسس الحضارة الإسلامية

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: العقيدة الإسلامية ومعطياتها الفكرية والروحية والأخلاقية.

المطلب الثاني: المبادئ والنظم الإسلامية خصائصها وأسسها.

المطلب الثالث: الدولة ودورها في صنع الحضارة.

المطلب الأول
العقيدة الإسلامية ومعطياتها الفكرية والروحية والأخلاقية

أهمية العقيدة الإسلامية في بناء الحضارة:

من الأمور البدهية المعلومة لكل عاقل: أن ذهن الإنسان هو المصدر لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال في حياته، واختيار الإنسان نظامًا محكمًا في حياته جديرا بأن يعتمد عليه ويطمئن إليه. ويتوقف ذلك الاختيار على أن يخرج الإنسان ذهنه من حالة تشتت الأفكار وتفرق الخواطر إلى حالة استقرار أفكار معروفة المعالم، واضحة الحدود. وعلى قدر ما تكون هذه الأفكار متأصلة بجذور قوية في ذهن الإنسان، يكون قويًا في سيرته منظمًا في حياته. والعكس صحيح، فبقدر ما تكون الأفكار واهية، يكون الإنسان ضعيفًا في سيرته، ولا يكون لحياته العملية أي نظام جدير بالاعتماد عليه.

فهذا الأساس الفكري لسيرة الإنسان وحياته هو الذي يعرف في اللغة العربية بكلمة الإيمان، وهو في اللغة: من أمن أمنًا وأمنة: اطمأن ولم يخف، فهو آمن. والأمن ضد الخوف، ومعناه الطمأنينة وسكون القلب، وإيمان الإنسان بشيء يعنى أنه استقر في ذهنه تصديقًا ويقينًا[1].

(١) المعجم الوسيط ج١ / ٢٨، ٢٩، وانظر: المعجم الوجيز ص ٢٥، ٢٦ . مراجعان سابقان .

فإذا استقر الإيمان بفكرة مشتركة في أذهان جمع من الأفراد على سبيل الإيمان، فإن من الطبعي أن ننشئ، هذه الفكرة منهم أمة أو جماعة منظمة قوية يحدث فيها التعاون والتكامل اللذان يكفلان لها رسالة الرقي والتقدم والحضارة. فاستقرار الفكرة في الذهن لها أثر عظيم في بناء الحضارة، وتختلف الحضارة في كل جماعة إنسانية عن الأخرى تبعًا للفكرة التي آمنت بها الجماعة، فهناك إيمان[1] بفكرة دنيوية، وفكرة دينية، فالإيمان بالفكرة الدينية يكون أساسًا لحضارة قائمة على الدين، هذه الفكرة لا تقوم إلا على أساس روحي خلقي بوحي أو رسالتها، وتلك الأسس هي التي تعد الإنسان لإحراز التقدم والسعادة في الدنيا والآخرة.

وأما الإيمان بالفكرة الدنيوية، فهي الفكرة التي ليس فيها أساس لعنصر من عناصر الفكرة الدينية، وإنما عناصرها: القومية، والقانون، والهوى، وهي عناصر خالية من الروحانية أو الأخلاق، بل مليئة بمفاسد ومعايب كثيرة، فهذه المعايب قد أفضت بأرقى حضارة في العالم إلى شفا جرف هار من الهلاك والدمار[2].

فانفصال الحضارة عن الدين، وتحررها من سلطانه يفضي إلى انحلالها وانحطاطها عاجلاً أو آجلا. وهذا يرجع بالطبع إلى ضعف الإنسان وعجزه عن التشريع لنفسه. ومن هنا تظهر أهمية الإيمان في سيرة الإنسان والجماعة ومنزلته في بناء الحضارة والمحافظة عليها وتقدمها، وهذا يدفعنا إلى البحث في أمور العقيدة التي دعا الإسلام إلى الإيمان بها، ودورها في بناء الحضارة.

العقيدة الإسلامية

إذا كان لكل حضارة هويتها الخاصة التي تنطلق منها وتعبر عن رموزها وطاقتها، وتلك الهوية هي التي توجه نتاج الحضارة من فكر وأدب وعلم، فإن العلم بذاتية الحضارة الإسلامية وجوهرها هو المكون الحقيقي لشخصية الحضارة الإسلامية، والمقوم

(١) هذا التقسيم قائم على أساس المعنى اللغوي للإيمان .

(٢) سيظهر ذلك- إن شاء الله- في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

الأساسي للكيان الاجتماعي الإسلامي. وإن كل دراسة حول المفهوم الإسلامي للحضارة لا تأخذ هذا الفهم في الاعتبار تكون قد تجاهلت المكون الحقيقي للبنية الحضارية في الإسلام. فجوهر الحضارة الإسلامية وهويتها هو الإيمان الذي يربط بين أجزائها، ويعطيها طابعها الخاص في مكوناتها وعناصرها، ويزنها بميزان الحق سبحانه، فتخرج العقيدة الإسلامية متجانسة مع كل ما حولها، فما هي طبيعة هذه العقيدة؟

العقيدة من مادة عقد، ويقال: عقد الحبل والبيع، والعهد فانعقد واعتقد بقلبه(١).

فالعقيدة من العقد الذي هو جمع أطراف الشيء كعقد الحبل، فهو من الأمور المادية غير المعنوية، لكنه يستعمل للمعاني كعقد العهد الذي هو رباط بين اثنين أو أكثر، أو بين طرفين، والعقيدة: هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وهي في الدين: ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كاعتقاد وجود الله وبعثه الرسل(٢). ومما لا ريب فيه أن العقيدة رباط بين العبد وربه حيث يؤمن العبد بالله تعالى ويربط قلبه بهذا الإيمان. والعقيدة في اصطلاح الشرع: هي الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه، ورسله واليوم الآخر.

والإيمان في اصطلاح الشرع: هو التصديق بالنبي ﷺ في كل ما جاء به مما علم من الدين بالضرورة.

ولقد بين القرآن الكريم العقيدة الإسلامية وعناصرها في كثير من آياته، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(٤).

---

(١) مختار الصحاح / محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ص ١٨٦، ط مكتبة لبنان ١٩٨٧م .

(٢) المعجم الوسيط / مادة عقد ص ٦٣٧ . مرجع سابق .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٥ .

(٤) سورة النساء: الآية ١٣٦ .

وفي حديث جبريل عليه السلام حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان، فقال ﷺ: عن الإيمان «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[١]. فأركان الإيمان بالله سبحانه وتعالى كما بينتها الآيات، ستة وهي: الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر، ثم الإيمان بالقدر، وهذه هي الأصول التي جاء بها الرسل ونزلت بها الكتب، ولا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا. وقد فرق الرسول ﷺ في الحديث بين مسمى الإيمان ومسمى الإسلام وكلاهما يجتمع فيهما الدين على حد قول الإمام ابن تيمية: «اعلم أن الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين؛ ذلك لأن الدين إما عقيدة ترجع إلى الإيمان، وإما عمل يدخل في الإسلام»[٢].

والإيمان بالله عز وجل معناه: الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء وخالقه، وأنه الذي يستحق وحده أن يفرد بالعبادة من صلاة وصيام ودعاء ورجاء وخوف وذل وخضوع، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المتنزه عن كل نقص[٣].

فالركن الأول من أركان العقيدة الإسلامية هو: الإيمان بالله عز وجل، والإيمان بالله سبحانه وتعالى يتضمن توحيده في ربوبيته[٤] وتوحيده في ألوهيته[٥]، وتوحيده

---

(١) صحيح البخاري / أبو عبدالله بن إسماعيل بن المغيره الجعفري البخاري / في الإيمان باب سؤال جبريل عن الإيمان، فتح الباري شرح صحيح البخاري / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج١ / ١١٤ (٥٠)، ط دار المعرفة بدون تاريخ ومسلم في الإيمان/ باب تعريف الإسلام والإيمان/ مسلم بشرح النووي/ محيي الدين بن شرف النووي ج١ / ١٥٧ .

(٢) انظر: الإيمان / أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية ص ٧ ، المكتبة السلفية، بدون تاريخ .

(٣) فتح الباري ج١ / ١١٥ . مرجع سابق .

(٤) معنى توحيد الربوبية: الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومالكه ومدبره وربوبية الله على خلقه تعني تفرده في خلقهم وملكهم وتدبير شؤونهم من حياتهم وموتهم ونفعهم وضرهم، وإجابة دعائهم والقادر عليهم ومعطيهم ومانعهم وله الخلق والأمر، كما قال عن نفسه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالله هو الفاعل المطلق في الكون بالخلق، والتدبير والتغيير والتسيير، والزيادة وغير ذلك من الأفعال لا يشاركه فيها أحد في فعله، فهو وحده الجدير بصفات الجلال والكمال، انظر: شرح العقيدة الطحاوية/ محمد بن علي بن محمد أبو العز الحنفي ص ٧٦، - ٧٧ط المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ .

(٥) توحيد الألوهية معناه الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو الإله الحق لا إله غيره وإفرادة سبحانه بالعبادة .

في أسمائه وصفاته[١] وقد وضح القرآن الكريم النوع الأول من هذا التوحيد وذلك في مقام الحمد لله وعبادته والانقياد له، وفي مقام بيان صفاته الجليلة. ففي مقام الحمد قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]. يقول سيد قطب في معنى هذه الآية: إنها تمثل قاعدة التصور الإسلامي.

فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤]. وفي مقام الاستسلام لله والانقياد له: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥]. وفي مقام الدعاء قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾[٦]. ومن أقر بتوحيد الربوبية ولم يقر بتوحيد الألوهية لا يكون مؤمنًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى حكى عن المشركين أنهم كانوا مقرين بأن الله وحده هو خالق كل شيء ومع ذلك ظلوا مشركين[٧]؛ لأنهم لم يوحدوا الله في ألوهيته، فعبدوا غيره قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٨].

وتوحيد الألوهية ذكره القرآن في معرض إفراد الله تعالى في الدعاء والتوكل والرجاء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٩]

---

(١) توحيد الأسماء والصفات معناه: الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل متصف بصفات الكمال، ومتنزه عن جميع صفات النقص، وأنه متفرد عن جميع الكائنات، وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة من غير تحريف ألفاظها أو معانيها أو تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله عز وجل، ولا تكييفها بتحديد كنهها أو إثبات كيفية معينة لها، انظر: فتح المجيد، وشرح العقيدة الطحاوية، تعريف عام بدين الإسلام، الإيمان حقيقية وأركانه .

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٢ .

(٣) في ظلال القرآن الكريم/ سيد قطب، ج١ / ٢٢، دار الشروق، ط السادسة .

(٤) سورة الجاثية: الآية ٣٦ .

(٥) سورة الأنعام: الآية ٧١ .

(٦) سورة الأعراف: الآيتان ٥٤، ٥٥ .

(٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٩، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / عبدالرحمن آل الشيخ ص ١٧،ط دار الحديث . بدون .

(٨) الزخرف: الآية ٨٧ .

(٩) يونس: الآية ١٠٦ .

وذكره القرآن في معرض إفراد الله عز وجل بالخوف منه، فمن اعتقد أن بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقوتها فقد أشرك، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]، وفي توحيد الأسماء والصفات ذكره القرآن في عرض تنزيه الله عن أن يشبه شيئًا في صفاته المخلوقين، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

يقول الإمام القرطبي: والذي يعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعلى صفاته لا يشبه شيئًا من مخلوقاته ولا يشبه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق، فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوقين[3].

وأدلة هذا النوع كثيرة لا تخلو منها سورة من سور القرآن من ذكر صفات الله وأسمائه، يذكرها ويذكر بها في مختلف موضوعاته من توحيد وعبادة وتشريع وأمر ونهى وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[5]، فهذه الآية العظيمة تضمنت قواعد التوحيد بأنواعه الثلاثة، فقد اشتملت على صفات وأسماء كل منها يمثل قواعد العقيدة الإسلامية.

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قرر قاعدة الألوهية التي هي أساس التوحيد، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها، وهي تستلزم الاتجاه إلى

---

(١) سورة يونس: الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الشورى: ١١ .

(٣) الجامع الأحكام القرآن/ أبو عبدالله بن أحمد بن أبي بكر القرطبي / ج٩ / ٦٠٥١ط دار الغد العربي.

(٤) سورة الإخلاص.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٥ .

الله وحده بالعبودية والعبادة، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله عز وجل ولا يحتكم إلا إليه سبحانه[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ أثبت لذاته العلية اسمين عظيمين: الحي: وهو الذي له الحياة القائمة والبقاء الذي لا أول له ولا آخر[٢]، فالحياة التي يوصف بها الله هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر، ولا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية[٣]. القيوم هو القائم بأمور الخلق، ومدبر العالم في جميع أحواله، فهو القيم على كل شيء يرزقه ويحفظه ويرعاه ويدبره بما يريد جل وعلا[٤].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء وقيام كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ تقرير ملكيته سبحانه الشاملة لكل شيء، المطلقة من كل قيد المنزه عن أية شركة[٥].

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ توضيح لمقام الألوهية ومقام العبودية، فكل مخلوق عبدالله لا يتجاوز حد العبودية ولا يتعداه، وليس له الشفاعة عند الله إلا بإذنه.

وبهذا تضع العقيدة فاصلًا بين حقيقة العبودية وحقيقة الربوبية، فلا يختلطان ولا يتشاركان في شيء من الصفات أو الخصائص[٦]

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ إثبات لإحاطة علمه وشموله للزمان والمكان والأشياء وبيان لعجز المخلوقات ونقص عِلْمِهِمْ إلا ما شاء الله أن يعلمهم[٧].

---

(١) في ظلال القرآن ج١ / ٢٨٦، مرجع سابق .

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن/ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ج٣ / ٤،ط دار المعرفة لبنان ١٤٠٦، ١٩٨٦م .

(٣) في ظلال القرآن ج١ / ٢٨٦ .

(٤) تفسير الطبري ج٣ / ٥، مرجع سابق .

(٥) في ظلال القرآن ج١ / ٢٨٧ .

(٦) المرجع السابق ج١ / ٢٨٧ .

(٧) تفسير الطبري ج٢ / ٧، مرجع سابق .

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ دليل كمال قدرته وتمامها ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذو العلو والارتفاع على خلقه وذو العظمة على كل شيء.

ولو استرسلنا الآيات التي تتحدث عن الألوهية والربوبية وربطهما بالعبودية لله لخرج بنا البحث عن غايته.

ويأتي الركن الثاني من أركان الإيمان في العقيدة الإسلامية وهو الإيمان بالملائكة كما وضحت ذلك الآيات والأحاديث التي ذكرت آنفًا.

والمقصود بالإيمان بالملائكة: الاعتقاد بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها، وليس هذا هو المقصود عن الحديث عن الإيمان بالملائكة، وإنما المقصود من الحديث عنهم: فهم منزلتهم في نظام الكون وعلاقتهم بالإنسان.

وقد تحدث القرآن الكريم عن الملائكة فيما يتعلق بمنزلتهم في الكون وعلاقتهم به وعلاقتهم بالإنسان، ولم يتحدث عن حقيقة الملائكة وكيفية خلقهم وتفصيلات أحوالهم؛ لأن الحديث في هذا الأمر لا يستوعبه عقل الإنسان؛ لأن هذه الأمور فوق طاقاته ولا يحتاجها الإنسان، وهذا من خصائص العقيدة الإسلامية في تناولها للحقائق الكونية، فهي تتحدث عن حقائق الغيب في حدود ما يحتاج إليه البشر ويصلح أحوالهم في المعاش والمعاد وتطيقه عقولهم[١].

فالملائكة عباد الله، لا ينتسبون إليه إلا بهذه النسبة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وأما عن علاقتهم بالكون والإنسان، فهي فرع عن عبوديتهم لله عز وجل؛ ذلك أن عبادتهم لله عز وجل تشتمل على تنفيذ إرادته بتدبير شؤون الكون ورعايته بكل ما

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية/ أبو الأعلى المودودي ص ١٦٠، ط دار الخلافة، بدون تاريخ والإيمان/ محمد نعيم ياسين / ٣٠، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية . بدون تاريخ.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٦، ٢٧ .

فيه من مخلوقات، وما فيه من حركة ونشاط، وما فيه من قوانين ونواميس وهي شؤون فوضهم الله فيها تحت أمره وإرادته[١]، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[٢]، وقوله: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[٣]. ولهم أعمال أخرى في حياة الإنسان الإدارية منها هداية البشر وإسعادهم ومساعدتهم على عبادة الله واختبار الهدى والصلاح وهم يلازمون الإنسان في حياته كلها لإسعاده وهدايته.

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«في القلب لمتان: لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم»** ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[٤].

وقد ذكر الإمام ابن القيم كلمة جامعة عن علاقة الملائكة بالإنسان وأثرهم في أعماله والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم، وله شأن آخر: فهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات، وكتابة رزقه وعمله وأجله وشقاوته وسعادته وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته وعرضها على خالقه. وهم الذين يذكرونه إذا نسي، وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته، فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر[٥].

ولهذا الركن من أركان الإيمان أثره في حياة الإنسان، حيث إن الله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على شيء من غيبه، إلا وفيه نعمة عظيمة وتتجلى هذه النعمة في «أن

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ج٢ / ٢٠،ط المكتبة السلفية، بدون تاريخ ولا طباعة .

(٢) سورة النازعات: الآية ٥ .

(٣) سورة الذاريات: الآية ٤ .

(٤) سنن الترمذي/ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة / (ك) التفسير (ب) من سورة البقرة ج٥ / ٢٠٤ (ح) ٢٩٨٨ . ط دار الحديث . بدون تاريخ.

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ج٢ / ١٢٥، ١٢٦ بتصرف واختصار، مرجع سابق .

الله بتعريفه لنا هذه المخلوقات قد جنبنا الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها الماديون الذين لا يؤمنون بالغيب، فقد اعتقد هؤلاء في الملائكة اعتقادات شتى؛ منهم من اتخذها آلهة من دون الله يرأس كل واحد منهم قسمًا من أقسام الكون، ومنهم من اعتقد أنهم بنات الله وذريته، إلى غير ذلك من العقائد التي شتتت الفكر الإنساني على امتداده. ولكن هذا الركن بما فصل الله فيه من قول أراح العقل المسلم وفرغه للبحث في أمور أخرى تعينه على التقدم الحضاري»(١).

بعد ذلك يأتي الركنان الثالث والرابع وهما: الإيمان بالرسل، والإيمان بالكتب، ومعنى الإيمان بهما: الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله وأنبيائه، والإيمان بأن الله أرسل رسلاً سواهم وأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله. كذلك الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله وهي: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والصحف، هذا من حيث الإيمان، أما من حيث الاتباع فلا يتبع إلا القرآن؛ لأنه المهيمن.

والإيمان بالرسل والكتب ينبثق من الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله وصدق كل الرسل الذين بعثهم الله، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم.

ويأتي دور هذين الركنين في تأسيس الحضارة الإسلامية: أن الإيمان بالرسل هو العامل الذي يستطيع أن يجمع بين بني البشر ويؤسس كلمتهم على عقيدة واحدة؛ أصولها واحدة، أهدافها واحدة، ختمها رسول الله ﷺ وحملتها الأمة الإسلامية. واتباع رسول واحد وكتاب واحد في العقائد والأخلاق والأعمال والقوانين المدنية الحديثة، كل ذلك يجعل من الرسالة الإسلامية حضارة عالمية خالدة، ويجعل من المسلمين كلهم أمة واحدة، على الرغم مما بينهم من فوارق على أساس اللون أو الجنس أو اللغة فوحدة الرسول ووحدة الكتاب، أو بمعنى آخر وحدة القيادة ووحدة الدستور من شأنها أن تؤسس الحضارة(٢).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ج١ / ٣٤١ بتصرف واختصار كثير.

(٢) يراجع: الحضارة الإسلامية: المودوردي ص ١٧٢، ص ٢١٧ بتصرف كثير. مرجع سابق.

ويأتي الركن الأخير من أركان الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر وما فيه من الموت والقبر والبعث والحشر والحساب والميزان والجنة والنار وكل ما أخبر الله في كتابه وأخبر به رسوله ﷺ.

والإيمان باليوم الآخر أحد مقتضيات الإيمان بالله. هذا الإيمان يقوم على أساس أنه خلق الإنسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط، ويتناول الاستخلاف كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض، وسبحانه وتعالى استخلفه ليبتليه في حياته الدنيا، ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء. فالإيمان باليوم الآخر حتمية من حتميات التصور الإسلامي. والإيمان باليوم الآخر له أثره العظيم في حياة الإنسان عماد الحضارة؛ ذلك أن للإيمان به وبما جاء فيه من جنة ونار وحساب وعقاب، وثواب وفوز وخسران أشد الأثر في توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله عز وجل. كذلك الإيمان باليوم الآخر هو الذي يكيف ضمير المسلم وسلوكه وتقديره للقيم والنتائج في هذه الحياة، فهو يمضي في طريق الطاعة والقيام على الحق سواء كانت ثمرة ذلك في الأرض راحة أو تعبًا كسبًا أو خسارة، حياة له أو استشهادًا؛ لأن جزاءه في الدار الآخرة بعد نجاحه في الابتلاء لا يزحزحه عن الحق شيء، فهو يتعامل مع الله، ينفذ عهده وشرطه وينتظر الجزاء في الآخرة، فلا يعمل إلا ما يرضى الله وينفع الناس ويعود عليهم بالخير. هذه أركان مكونات العقيدة الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم ليعلمها للناس، يعلمهم من هو الله، وكيف يتصلون به.

ولقد ظل القرآن الكريم في مرحلة الدعوة المكية يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا يحدثه فيها عن هذه القضية وهي العقيدة الإسلامية متمثلة في قاعدتها الأساسية الألوهية والعبودية. «ذلك لأنها قضية وجود الإنسان ومصيره وعلاقته بالله والكون والأحياء من حوله، فالقاعدة الأساسية التي يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري هي قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله؛ أي: إفراده سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، إفراده بها اعتقادًا في الضمير، وعبادة من الشعائر، وشريعة في الحياة»[1].

ولقد ذكر القرآن الكريم تركيزًا شديدًا على تقرير عقيدة التوحيد وتعميقها في

---

(١) معالم في الطريق / سيد قطب ص ٥٤، ٥٥، ط دار الشروق، الحادية عشرة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

الضمير الإنساني، وسلك بها إلى هذا الضمير كل مسالك الكينونة البشرية، واتبع شتى أساليب الاستحسان والتأثير، ليقر في النفس حقيقة العبودية لله وحده بلا شريك والدينونه له وحده دون منازع(١).

كل ذلك لأن العقيدة الإسلامية تؤثر تأثيرًا كبيرًا في حياة الإنسان المسلم، يمتد هذا التأثير إلى الشعور والخلق والسلوك، كما يمتد إلى الحياة الواقعية بما فيها من أنظمة وأوضاع، ومن سياسة واقتصاد، واجتماع وثقافة وعلم وفن، إلى جانب أنها - أي العقيدة - تحدد قواعد التعامل مع شتى الآفاق التي يتعامل معها الإنسان، سواء في تعامله مع ربه أو مع الكون من حوله أو مع بني جنسه. فمن العقيدة تنبع كل قواعد التعامل وعلى أساسها تقوم.

ولهذا تميزت العقيدة الإسلامية بمزايا جعلتها أساسًا لبناء حضارة إنسانية، أول مزايا هذه العقيدة «أنها عقيدة ربانية مستقاة من كلام الله- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها، ووضع معالمها ومن صحيح السنة المبينة للقرآن، وليست هذه العقيدة من وضع مجمع من المجامع، ولا من إضافة هيئة من الهيئات، ولا من إملاء بابا من البابوات، ليس لأحد أن يغير أو يبدل فيها شيئًا بالزيادة أو النقص أو التحوير، كما فعل بولس والمجامع في المسيحية، وإنما هي قضايا وحقائق عن الوجود ورب الوجود. وهي من قبيل الخبر عن تلك القضايا الكبرى في هذا الوجود عن الله وأسمائه وصفاته، وعن عوالم الغيب، ومستقبل الحياة الإنسانية، وغير ذلك مما وراء الطبيعة مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى»(٢).

«ووظيفة الرسول ﷺ هي التلقي عن الله ثم التبليغ الأمين، ووظيفة البشر هي التلقي والإدراك والتكيف والتطبيق في واقع الحياة»(٣)؛ ذلك لأن الإنسان بحكم طبيعته البشرية عاجز عن الإحاطة بكثير من مسائل الوجود كمسألة كنه الذات الإلهية،

---

(١) مقومات التصور الإسلامي / سيد قطب ص ٧٢ بتصرف واختصار، ط الرابعة دار الشروق ١٩٨٠م .

(٢) الخصائص العامة للإسلام / د . يوسف القرضاوي / ٣٥، ٣٦ باختصار، مكتبة وهبة ط الرابعة ١٩٨٩، ١٤٠٩ .

(٣) خصائص التصور الإسلامي ص سيد قطب/ ٤٤، ٤٥ بتصرف واختصار، ط دار الشروق الثامنة ١٩٨٣م .

ومسألة الروح وعالم الغيب المحجوب عن العلم البشري الذي بينته العقيدة الإسلامية بالقدر الذي يتلاءم مع طبيعة الإنسان. وفيما عدا ذلك، فقد ترك الإسلام المجال للفكر البشرى للتفكر والتدبر، للتكيف والتطبيق. كما تميزت العقيدة الإسلامية بأنها شاملة، لأنها تفسر كل قضايا الوجود التي شغلت فكر الإنسان وأوقعته في متاهات فلسفية استهلكت طاقته العقلية، وأوقفته عن الإنتاج في مجالات الحضارة المتعددة.

وتتجلى شمولية العقيدة الإسلامية في رد كل ما في الكون إلى الله عز وجل وشمول إرادته وتدبيره وهيمنته وسلطانه لكل شيء، انطلاقًا من قول الله عز وجل: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١]، كذلك تتجلى شمولية العقيدة الإسلامية في بيان أن علاقة كل ما في الكون بالله هي علاقة العبودية له سبحانه كأثر من آثار ألوهية الله عز وجل لكل ما في الكون، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[٢].

وجاءت العقيدة الإسلامية عقيدة واقعية، وذلك في مراعاتها واقع الكون من حيث هو وجود، ومشاهد، وواقع الحياة من حيث إنها مرحلة حافلة بالخير والشر تنتهي بالموت، وكذلك مراعاتها واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة روح ومادة[٣].

هذه النظرة الواقعية للكون والحياة والإنسان تدفع الإنسان للانطلاق بكل طاقاته، يعمر هذه الأرض، وينمي موجوداتها ويطور، ويبدع في عالم المادة ما شاء الله له أن يبدع. لا يقف في وجهه حاجز من التصور الاعتقادي ولا من المنهج العملي؛ لأن كلاهما واقعي مطابق لواقعية الكينونة الإنسانية والظروف المحيطة بها في الكون من حولها. وكلاهما صادر من الجهة التي صدر منها الإنسان والتي زودته بطاقاته واستعداداته[٤].

ومن هذا الفهم لهذه العقيدة الإسلامية يتسنى للإنسان المؤمن بها أن ينشئ آبارًا في الأرض، وأن يحقق الإبداع فيها مع ما ينشئه من الصلاح الأخلاقي، يتسنى له أن ينشئ حضارة مؤمنة تخدم بني الإنسان. ولقد كان الربط بين الإيمان والعمل في عقيدة الإسلام وشريعته من أكبر الحوافز على صنع الحضارة والتقدم؛ ذلك أن

---

(١) سورة طه: الآية ٥٠ .

(٢) سورة الرعد: الآية ١٥، انظر: الخصائص العامة ص ١٠٣، وخصائص التصور الإسلامي ص ٩٦ .

(٣) الخصائص العامة للإسلام ص ١٤٤، مرجع سابق .

(٤) خصائص التصور الإسلامي / مرجع سابق ص ١٨١ .

الإيمان في الإسلام ليس قولًا باللسان، وإنما هو تصديق يستقر في قلب يترجم عنه العمل بمقتضاه، قال رسول الله ﷺ فيما يرويه علي بن أبي طالب: **«الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»**(١).

وما من آية في كتاب الله تدعو إلى الإيمان إلا وتجدها مقرونة بالدعوة إلى العمل، ذلك لأن الإيمان لا بد أن يصبح منهج حياة لا ينفصل عن عمل المسلم وحركته في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وغير ذلك كثير من آيات القرآن، ومجموعها يهدف إلى أن يلقي في روع المؤمن أن الإيمان بالله يشمل كيان الإنسان كله، وهو ما وضحه الرسول ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قوله: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»**(٣).

وهذه الشعب- كما يقول ابن حجر- تتفرع من أعمال القلب، واللسان وأعمال السنن(٤) وعلى ذلك فالإيمان «بالله في حقيقة نفسه عمل نفس، يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان، ولا بد أن يبلغ هذا الإدراك العقلي حد الجزم الموقن واليقين الجازم الذي لا يزلزله شك ولا شبهة، ولا بد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إزعان قلبي، وانقياد إرادي، يتمثل في الخضوع لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم»(٥).

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٦)، وقوله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه / عبدالله بن محمد بن يزيد المعروف بابن ماجه القزويني / في المقدمة (ب) في الإيمان ج١ / ٢٦، ط دار إحياء الكتب العربية . بدون تاريخ. وأيضا تاريخ بغداد / أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي ج١ / ٢٥٥ط بيروت . بدون .

(٢) سورة المائدة: الآية ٩ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري- ك الإيمان- ب دعاؤكم إيمانكم- فتح ج١ / ٥١ / ح ٨ .

(٤) فتح الباري ج١ / ٥٢ مرجع وسابق .

(٥) أسس مفهوم الحضارة في الإسلام/ سليمان الخطيب/ ١٢٧ ج١ الزهراء للإعلام الإسلامي ج١ الأولى ١٤٠٦، ١٩١٦ .

(٦) سورة النساء: آية ٦٥ .

تـعـالـى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١)، فهذه الآية الأخيرة عامة في جميع الأمور وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأى ولا قول(٢).

ولكي تكون هذه الحقائق الإيمانية حية في النفوس وتكون حقيقة في المنظور، وبحيث تكون قوة دافعة لحركة الإنسان الحضارية، كانت العبادات الإسلامية التي شرعها الله تتسع لتشمل كل أنواع النشاط الإنساني وذلك أخذ من قول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣) ومدلول العبادة المذكورة من الآية أوسع من إقامة الشعائر لأن الإنسان لا يقضي حياته في إقامة الشعائر، ولكنه يكلف بألوان أخرى من العبادات تستغرق كل لحظة من لحظات حياته تعرف فى قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٤). فالخلافة هي عمل الإنسان في هذه الأرض، وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض والتعرف على قواها وطاقاتها وتحقيق إرادة الله عز وجل فيها.

يقول ابن تيمية: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كما تشمل الأخذ بالأسباب ومراعاة السنن»(٥) وأن يكيف الإنسان حياته وسلوكه وقتا لهداية الله وشرعه(٦).

فالعبادة تمتد لكي تشمل كل الأماكن والأزمان، واتصال دائم بالله عز وجل في كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال باطنة أو ظاهرة، إذا كانت وراءها نية مؤمنة تسعى إلى أن تجعل من كل فاعليه في الحياة وسيلة يتقرب بها الإنسان من الله ويتعبد إليه، وهذه العبادة لا تنصب على الجانب الروحي فحسب، بل تمتد إلى كل جوانب النشاط الإنساني الحركي جسدا وعاطفة وروحا وعقلا ووجداناسورة بشرط

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم/ الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ج٣/ ٤٩٠، ط دار إحياء الكتب العربية - بدون تاريخ.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٦ .

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٠ .

(٥) العبودية: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية/ باختصار ط المكتبة السلفية .

(٦) العبادة في الإسلام/ د . يوسف القرضاوي ص ٥٣ ط مؤسسة الرسالة، ط الثانية عشرة ١٩٨٥م .

أن يكون النشاط مشروعا في نظر الإسلام دون أن يصرفه ذلك عن واجباته الدينيةسورة فإذا راعى المسلم ذلك في نشاطه أيا كان في سعيه عابدا وإن لم يكن في محراب[١].

وليس أدل على مما رواه ابن عجرة قال: مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله. (أي: الجهاد) فقال: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا، فهو في سبيل الله. وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله. وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان**»[٢].

فالإسلام في بنائه العقدي والعبادي يرسم لأتباعه برنامجًا للصعود والترقي في سلم الحضارة إلى نهاية آفاقها، في الوقت نفسه لا يمارس عملاً من أعمال الحياة إلا وهو يستشعر وجود الله الذي يراه، ويطلع عليه.

وقيام العبادات في الإسلام على الوضوح والتعقل والتدبر في خلق السموات والأرض والإنسان، ورفض الدجل والخرافة والأساطير، فإنها تحافظ على انسجامها مع العقل البشري، فهي بذلك دعوة إلى العمل والحركة والتأمل والبحث في خلق الله للوصول إلى سنته في الكون، وهذا من شأنه أن يساهم في بناء الحضارة وتآلفها مع ربط أصحابها بالله عز وجل.

كما أن العبادات الإسلامية تساهم في تحرير الإنسان في اتجاهات شتى: أولها الاتجاه الديني، حيث تتيح للمسلم أن يمارس حريته المطلقة في الاتصال بالله وعبادته من غير واسطة من رجال دين أو هيئات، كما تتيح له حرية العودة إلى الله، والتوبة إليه مباشرة من غير صكوك للغفران، وعن طريق هذه الحرية يستطيع المسلم أن يتجاوز القيود التي تحول بينه وبين الوصول إلى الله تعالى.

---

(١) انظر: مع القرآن في عالمه الرحيب: عماد الدين خليل ص ١٢٤ ط دار العلم للملايين. بدون تاريخ.

(٢) المعجم الكبير/ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني/ ج١٩ / ١٢٩ ط بغداد/ تحقيق حمدي السلفي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٤/ ٣٢٥: «أخرجه الطبراني في الثلاثة، ورجاله رجال الصحيح». ط دار الكتاب العربي بدون تاريخ.

كما تحرر العبادة الإنسان في الاتجاه السياسي والاجتماعي، حيث تشحذ العبادة قدرة الفرد على التحرر من الخضوع لأية قوة في الأرض؛ وذلك لأن هذه الشعائر تعلم المسلم في لحظة أن لا إله إلا الله، وأنه أكبر من أي قوة، فهو أحق بالطاعة واللجوء إليه، وهو خير حماية يمكن أن يستخدمها المسلم في صراعه ضد الطواغيت. وفي الحالتين يزداد المسلم إحساسًا بالحرية وهو يقف أمام الله. هذه الحرية تمنح الإنسان قوة ذاتية وقدرة على مصارعة القوة المادية.

كما أن العبادات الإسلامية حافز يقود المسلم إلى يقظة الضمير الدائمة، وتحمل المسؤولية الكاملة في إنجاز أي عمل يمارسه، واستغلال طاقاته جميعًا في سبيل مزيد من العطاء وفق قدراته الذاتية، وإمكاناته التي صاغتها ظروفه الوراثية والبيئية. وهذا يمثل دفعًا حضاريًا؛ لأنه يحفز الإنسان على الاستفادة من كل طاقاته في العمل وبناء الحضارة على أحسن صورة وأكملها، حيث إن المسلم- وهو يتصل بالله عز وجل- يتذكر رقابته سبحانه وتعالى في نفسه، ووعده العظيم بمن يحسنون أعمالهم، ويسارعون في أدائها، يجد نفسه أمام أحد أمرين: إما الاستجابة لنداء الضمير من الفوز بالسعادة والثواب، وهذا أساس يقوده إلى المسؤولية والعمل الدائب، وإما يتغاضى عن نداء الضمير ورفضه المسؤولية وإساءة العمل، الأمر الذي يؤدي به إلى التعاسة بأنه كمسلم يتلقى كل يوم وكل ساعة مئات النذر والتحذيرات عن الذين لا يكون لعبادتهم أثر إيجابي على واقع حياتهم اليومي، ومن ثم يصف القرآن المؤمنين الصادقين بأنهم يسارعون في الخيرات، وأنهم لها سابقون. وهذا يعني أن حياة المسلم المحددة سباق مع الزمن في التعبير عن طاقاته، وتحويلها إلى أفعال ومنجزات حضارية، قبل أن تمضي الأيام، ويفقد القدرة والصحة والعافية[1].

فلو أن مجتمعًا إسلاميًا بعث الإيمان في غالبية أفراده، وهذا الحافز لاستغلال معظم وحدات طاقاته على أحسن وجه، فإن بإمكان هذا المجتمع أن يسابق الزمن، ويصنع ما يبدو مستحيلاً، ولا يمكن أن يفهم المسلم منجزات جيل الصحابة على

---

(١) انظر: مع القرآن في عالمه الرحيب/ د. عماد الدين خليل ص ١٣١ - ١٣٥ بتصرف واختصار عن الآصرة ما عطفك على غيرك من غير رحم. المعجم الوسيط ص ٢٠ .

صفحات التاريخ إلا بالرجوع إلى هذا الفهم الحقيقي للعقيدة الإسلامية، فقد دفعتهم حقيقة الإيمان الذي تقويه العبادة المنظمة الدائمة البحر المستمر لصنع تلك الحضارة.

لقد حولت العقيدة الإسلامية تاريخ الإنسانية من يوم أن أعلنها رسول الله ﷺ، فحررت العقل، ووضعته في مكانه الصحيح، وجعلته قادرًا على الحركة والعمل؛ فأنتج أعظم حضارة على حد تعبير سيد قطب: «لقد كان من النتائج الواقعية للمنهج الإسلامي في إقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها، وإبراز خصائص الإنسان، في هذا التجمع وتنميتها- أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعًا مفتوحًا لكل الأجناس والأقوام والألوان بلا عائق من عوائق الأرض وإن صب في بوتقة المجتمع الإسلامي. خصائص الأجناس البشرية كفاياتها، وضعت هذه المجموعة البشرية حضارة ضخمة، حوت خلاصة الطاقة البشرية في زمانها. لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي العربي، والفارسي، والشامي، والمغربي، والتركي وغيرها من أجناس البشر تجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. لقد اجتمعوا على قدم المساواة والحب، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة، فبذلوا أقصى كفاياتهم، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد، وهذا لم يجتمع قط لأي مجتمع بشري»[1].

وتبدو أهمية العقيدة الإسلامية كأساس في الحضارة الإسلامية أنها أساس البنيان الفكري للفرد المسلم والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، حيث إنها تؤسس حياة الفرد والمجتمع والدولة على مجموعة من القواعد والمبادئ ذات منشأ واحد، وكلها مستقاة من قواعد الدين، وقيمه ومبادئه، وفي هذا استقرار نفسي تقوم عليه حياة آمنة تعين الفرد والمجتمع على الابتكار وصنع الحضارة. وغيبة العقيدة عن التوجيه يؤدي إلى اختلال الضوابط وتمزق الذات؛ وذلك لتعدد مصادر المبادئ والقيم التي تبنى عليها الذات الإنسانية وتحدد على أساسها الضوابط.

ومن هنا يعلم الإنسان المسلم أن ما يعانيه الإنسان المعاصر من أزمات فكرية

(١) معالم في الطريق/ سيد قطب ٥٨، ٥٩ بتصرف.

ونفسية وخلقية وعاطفية بسبب غيبة العقيدة السليمة، وتبدو أهميته في بناء الحضارة في أن الإيمان بالله عز وجل يحتم أمورًا لها أثرها في السياسة والاجتماع والاقتصاد: من هذه الأمور الإيمان بالقضاء والقدر، فإنه يدفع الأمة لخوض غمار النواميس الكونية اعتمادًا على الله، وتوكلاً عليه، وأخذًا بأسبابه للوصول إلى مراد الله في الكون، وتحقيق مهام الخلافة وإنتاج الحضارة.

وتتجلى أهمية العقيدة الإسلامية في المجال السياسي بإفراد الله بالحاكمية ورفض حكم الهوى والطاغوت، ومخافة اليوم الآخر، في تعريف السلطة والولاية ومجاهدة القوى الباطلة.

وتتجلى العقيدة في المجال الاقتصادي إقرارًا في شأن المال بملكية الله وخلافة البشر، وتوجيهًا للسعي في الرزق نحو مقاصد العبادة، وعزوفًا عن العبودية للشهوة والمتاع، وقيامها في علاقات المعاش بمقتضى تقوى الله عز وجل وطاعته.

وتتجلى العقيدة في المجال العلمي، توحيدًا لصريح العقل وصريح النقل في سبيل الأزدياد من معرفة الله وكشف حقيقة الوحدة في الكون، وحدة الله الإله المعبود، ووحدة النظم والنواميس، ووحدة المنشأ والمصير، وعلى أساس الإيمان بهذه الوحدة يصبح العلم من أعظم الوسائل التي تتسع بها آفاق عبادة الله عز وجل.

بل تتجلى العقيدة في كل وجوه الحياة، وتتكشف العبادة كلما تشعبت تلك الوجوه.

فإذا صحت العقيدة في النفوس ووقرت في القلوب فاضت في واقع الحياة تنشر العلم، لتصنع الحضارة، وهكذا فإن العقيدة الإسلامية التي عني القرآن الكريم بترسيخها في ذهن الإنسان وعقله ووجدانه هي القوة المنفذة لكل ما جاء به الإسلام من حدود الحلال والحرام والأحكام والمعاملات، وكل هذه الحدود والأحكام حين توجهها العقيدة تؤهل الإنسان لبناء الحضارة الإنسانية.



المطلب الثاني
المبادئ والنظم الإسلامية
خصائصها وأسسها

لقد جاء الإسلام لينظم الحياة الإنسانية في مختلف ميادينها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهو في هذا ينطلق من قاعدة أساسية هي العقيدة الإسلامية التي ينبع منها التصور الكلي للكون والحياة والإنسان، وإليها يرد كافة نظرياته وتشريعاته بمختلف أنواعها.

يتبين ذلك حين يقف الإنسان على طبيعة النظرة الإسلامية إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق، وطبيعة العلاقة بين الكون والحياة، والإنسان والجماعة، والدولة والجماعات الإنسانية كافة.

فالإسلام- وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية - في مختلف اتجاهاتها- يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله سبحانه وتعالى، أوجده وأودعه نواميسه التي يتحرك بها، وتتناسق بها حركة أجزائه. وهذا الوجود بجميع كائناته مستسلم لمشيئة الله التي تدبره، وقدره الذي يحركه، والنواميس[١] التي تنظم حركته، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

قال ابن كثير في هذه: «إن جميع الخلق تحت قهره وتسخيره ومشيئته، فله الملك والتصرف[٣]، والإنسان من خلق الله عز وجل، والنواميس[٤] التي تحكم فطرته جزء

---

(١) القانون أو الشريعة التي تنظم أمور الكون/ انظر: المعجم الوجيز / مجمع اللغة العربية ص ٦٣٥ بدون تاريخ.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٤ .

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢ / ٢٢١، مرجع سابق .

(٤) المراد بهذه النواميس هي الأفعال الاضطرارية التي خلقها الله في الإنسان ولا دخل له فيها كحكم وحمله ووضعه وتنفسه وكل ذلك يسير وفق ناموس الكون في الخلق والتدبير .

من ناموس هذا الكون كله، فهو يعيش وفق نظام الله في الكون، شأنه في ذلك شأن بقية الموجودات في الخضوع لمشيئة الله، والله الذي خلق الوجود، وخلق الإنسان، وأخضعهما لناموس واحد هو سبحانه الذي سن الشريعة الإسلامية التي تنظم حياة الإنسان الإرادية تنظيمًا متوافقًا مع حياته الطبيعية، فالشريعة ما هي إلا جزء من القانون الإلهي الذي يحكم الإنسان والوجود.

فالكون وحدة مركبة من ظاهر معلوم، وغيب مجهول، والحياة مركبة من طاقات مادية، وطاقات روحية، والإنسان وحدة مركبة من روحانية تطلع إلى السماء، ونزعات لاصقة بالأرض، ولا انفصام بين السماء والأرض، أو بين المعلوم والمجهول في طبيعة الكون، ولا عزلة بين الدنيا والآخرة أو السلوك والعبادة أو العقيدة والشريعة في طبيعة هذا الدين، ووراء هذا كله قوة الله التى تسيطر على الكون والحياة والناس، والفرد يملك أن يتصل بالله وهو في المحراب يصلي، كما يملك أن يتصل به وهو في الأرض يعمل مشغولاً بمعاشه، والحياة الدنيا بما فيها من صلاة وعمل وبما فيها من متاع وحرمان هي وحدها الطريق إلى الآخرة. إنها الوحدة بين أجزاء الكون وقواه، والوحدة بين كل طاقات الحياة، والأحياء، والجماعة والفرد، بين أشواق الفرد ونزعاته، وفي النهاية بين الدنيا والدين، وهذه الوحدة لا تعقد على حساب الجسد ولا على حساب الروح، بل تطلق لكل منهما نشاطه، لتوحيد هذا النشاط، وتتجه به إلى الخير والصلاح والنماء[1].

فعلى أساس هذه المبادئ الثابتة - في طبيعة الكون والإنسان - جاءت النظم الإسلامية لضبط حياة الإنسان في مبادئ متفقة مع ذلك التصور، ومنسجمة مع خصائص الإنسان، لينطلق نشاط الفرد، ونشاط الجماعة دون تعارض، وأن يعملا وتعمل الأجيال لبناء الحضارة على أمر واحد ومنهج واحد.

خصائص النظم الإسلامية:

لقد تفردت النظم الإسلامية بخصائص تميزها عن سائر النظم الوضعية؛ ذلك أنها

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام / سيد قطب ص ٢٥، ط دار الشروق، ط التاسعة ١٩٨٣م.

من لدن حكيم عليم، وجاءت لتعالج نواحي الحياة الإنسانية للناس كافة، في كل مكان وزمان، أرسل الله بها رسوله ﷺ إلى العالم لهدايته وسعادته؛ لذلك جاءت النظم الإسلامية مبنية على أسس عامة ومبادئ جعلتها صالحة لكل زمان ومكان، غايتها إقامة مجتمع عالمي يساهم كل أفراده في بناء الحضارة الإنسانية.

والخصائص التي تميزت بها النظم الإسلامية متنوعة؛ فأما من حيث مصدرها، فهي من عند الله. هذه واحدة. وأما من حيث نوع العلاقات التي تنظمها والأفعال التي تحكمها، فهي شاملة، وهذه ثانية. وأما من حيث نوع الأشخاص الذين تحكمهم تلك النظم، فهي عامة لجميع البشر، وهذه خاصة ثالثة، ومن حيث مراعاتها لعوامل التغير والتطور في المجتمعات جاءت جامعة من حيث الثبات والمرونة، وهذه رابعة. ومن حيث تعاملها مع الحقائق، فهي واقعية، وتلك خاصية خامسة. فهذه خمس خصائص مجملة. وحتى يتضح للباحث كيف أن هذه النظم جاءت لتهيئ المجتمع المسلم لصنع الحضارة الإسلامية ينبغي أن أفصل إجمالها، وهو على النحو التالي:

الخاصية الأولى: الربانية:

الربانية في اللغة العربية مصدر منسوب إلى الرب، ومعناها: الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى[١]، ويطلق على الإنسان أنه رباني، إذا كان وثيق الصلة بالله، والمراد بالربانية في النظم الإسلامية هنا أمران:

الأمر الأول: ربانية المصدر والمنهج.

والأمر الثاني: ربانية الغاية والوجهة. فالأول وهو ربانية مصدر النظم الإسلامية وسائر الشريعة هو الله سبحانه وتعالى، وهي وحي أوحاه الله عز وجل إلى خاتم رسله محمد ﷺ جاء نتيجة إرادة الله عز وجل وهبة منه للإنسان، لم يشارك فيه أحد. ووظيفة الرسول ﷺ هي النقل والتبليغ والبيان، قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

---

(١) انظر المعجم الوجيز ص ٢٥٠، مرجع سابق.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[(1)]، فهذه الآيات- كما يقول المفسرون- تبين أن هذا الدستور الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى مديرًا للكون، وخلق الإنسان، وهو أعلم بما يصلحه، ليس لأحد أن يبدل أو يغير، وما الرسول إلا متبعًا للوحي الذي يأتيه من عند الله عز وجل مأمورًا بتبليغه، وهذا القرآن ما تلاه علينا إلا بمشيئة الله عز وجل[(2)].

وربانية الشريعة الإسلامية أعطتها ميزة على سائر المناهج والمذاهب الوضعية، هذه الميزة هي سلامتها من التحريف والتبديل؛ ذلك أن الله عز وجل هو الذي تولى حفظ كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[(3)]، وهذا ضمن لها السلامة من التناقص والتطرف والاختلاف الذي تعاني منه الأنظمة والمناهج البشرية المحرفة من إفراط وتفريط في مواقفها من الروحية والمادية، أو من الفردية والجماعية حتى شتتت الفكر الإنساني، وعاش في صراع مع نفسه[(4)].

فمصدر هذه الشريعة عن الله سبحانه وتعالى جعلتها وحدها هي مناط الثقة في أنها مبرأة من النقص والجهل والهوى؛ ذلك أنها قامت على العدل المطلق[(5)] دون تفرقة بين الناس. كذلك ربانية هذه الشريعة أعطتها قدرًا كبيرًا من الهيبة والاحترام من قبل المؤمنين بها، ويكفي تدليلاً على ذلك مواقف المؤمنين بشأن تحريم الخمر والتبرج والربا في أول الإسلام كيف كانت استجابتهم لله عز وجل حين نزلت الآيات التي وضعت الحدود في ذلك[(6)] وإذا كان الله عز وجل هو مصدر الشريعة

---

(١) سورة يونس: الآيتان ١٥، ١٦ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ج٤ / ١٢١، وفي ظلال القرآن ج٣ / ١٧٧١، وصفوة التفاسير ج٥ / ٦١، مرجع سابق .

(٣) سورة الحجر: الآية ٩ .

(٤) الخصائص العامة للإسلام/ د. يوسف القرضاوي ص ٤٤ باختصار وتصرف، ط مكتبة وهبة ١٩٨٩م .

(٥) انظر: مقومات التصور الإسلامي / سيد قطب / ٤٥ مرجع سابق .

(٦) انظر: أصول الدعوة / عبدالكريم زيدان / ٤٧، ط دار عمر بن الخطاب، ط ص ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

ومقننها، ومفصل أحكامها وأهدافها، فإن عمل الإنسان فيها التلقي والفهم والتطبيق في واقع الحياة، وهي الميزان الذي يرجع إليه في كل شيء من أمور حياته، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[١]؛ ذلك لأن الله عز وجل يبين في هذه الشريعة للإنسان كل ما يهمه في حياته، ووضح له المجالات التي لا يستطيع عقله إدراكها من مسائل الغيب والروح وما إلى ذلك من علم الساعة مما لا يستطيع الإنسان إدراكه بعقله البشري، فيما عدا هذه الأمور دعاه للتدبر والتفكر والنظر والاعتبار والتكيف والتطبيق في عالم الحياة[٢].

وهكذا نظم التصور الإسلامي الرباني الحياة البشرية بما يحقق التناسق والوئام والسلام بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والكون، وبين الإنسان والحياة. وبذلك التشريع الرباني الذي يحقق له الحماية والأمن، هيأت النظم الإنسان لصنع الحضارة الإسلامية والانطلاق لعمارة الأرض دونما صراع أو تشتت.

والأمر الثاني الذي تعنيه خاصة ربانية هو بمعايشة الغاية والوجهة:

ومعناها أن الإسلام يهدف من وراء تلك الشريعة الربانية حسن الصلة بالله عز وجل، والحصول على مرضاته في كل أعمال الحياة. وبهذا يعرف الإنسان غايته في الحياة ورسالته فيها، فيهتدي إليهما دونما تمزق أو صراع، متحررًا من رغبات نفسه، وشهوات تلك الأمور التي وجهت الحضارة الغربية وجهة استعمارية لإذلال البشر المخالفين لها في العقيدة، فدمرت نفسها قبل أن تدمر غيرها.

الخاصية الثانية: الشمول والتوازن:

إن ما تمتاز به النظم الإسلامية عن غيرها من سائر النظم البشرية: أنها نظم شاملة شمولاً تستوعب كيان الإنسان كله، والزمان والحياة كلها. فهي- على حد تعبير الإمام حسن البنا- رسالة امتدت طويلاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقًا حتى استوعبت الدنيا والآخرة «فالشريعة الإسلامية رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست موقوتة بعصر معين أو زمن

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩ .

(٢) انظر: مقومات التصور الإسلامي ص ٤٩، مرجع سابق .

مخصوص ينتهي أثرها بانتهائه، ولكنها لكل الأمم والأجناس والشعوب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

فهي رسالة للإنسان كله من حيث هو إنسان متكامل، الإنسان من حيث هو روح وعقل وجسم وضمير وإرادة ووجدان»[٢].

وشمول النظم الإسلامية شمولاً ينظر فيه إلى كل جوانب الكينونة البشرية وتوازنها وتناسقها كما ينظر فيه إلى جميع أطوار الجنس البشري وإلى توازن هذه الأطوار جميعًا[٣]، وهذا الشمول في الشريعة الإسلامية يشمل الفرد في تعبده وصلته بربه، ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام، وهو ما يسمى بالحلال والحرام، ويشمل ما يتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق، ونفقات ورضاع، وميراث، وهو ما يسمى بالأحوال الشخصية، ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأمور والمنافع وسائر التعاملات الاقتصادية، كما يشمل ما يتصل بالجرائم وعقوباتها مما يعرف بالتشريع الجنائي[٤].

فالشريعة الإسلامية بنظمها المختلفة «منهج حياة بشرية، واقعية بكل مقوماتها، منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يقر طبيعة الوجود، وتحدد مكان الإنسان فيه، كما يحدد غاية الوجود الإنساني، ويشمل النظم الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه وتجعل له صورة واقعية في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي الذي تنبثق منه الأسس التي يقوم عليها والسلطة التي يستمد منها، والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨ .

(٢) انظر: الخصائص العامة ص ٩٨ .

(٣) انظر: معالم الثقافة الإسلامية/ د. عبدالكريم عثمان ص ٨٩ مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ .

(٤) الخصائص العامة ص ١١١ .

(٥) المستقبل لهذا الدين/ سيد قطب ص ٥، ط دار الشروق ط السادسة ص ٨٣ .

يتبع هذا الشمول في التعاليم الشمول في الالتزام حيث لا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه وطرح جانب آخر أو جوانب أخرى قصدًا أو إهمالاً، فقد عاب الله على بنى إسرائيل تجزئتهم أحكام دينهم تبعًا لأهوائهم، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١]. قال المفسرون: كانوا يأخذون بعض الأحكام ويتركون بعضها، فسماها كفرًا؛ لأن الكفر ببعض آيات الله كفر بالكتاب كله[٢].

والشمول في النظم الإسلامية شمول قائم على التوازن والاعتدال، فهو يراعي فطرة الإنسان وحاجة الجماعة الإنسانية بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، يكلف بالواجبات في حدود وسعة، ويقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته، ويلبي حاجاته، ويحفظ كرامته ويصون إنسانيته، فالتوازن في التصور الإسلامي يعني أن الإسلام لا يسمح بتحكيم وطغيان بعض قيمه على حساب القيم الأخرى، الأمر الذي يجر الإنسان إلى مساوئ قد تلحق بوحدة الإنسان أو نشاطه الحضاري، كأن تطغى اهتمامات الإنسان الروحية على نشاطه المادي، أو تسيطر على ذهنه ونفسه فكرة الإسراف في إشباع حاجاته ودوافعه الغريزية. ومن ثم لا يستطيع أن يوازن بين الإمكانات المتعددة التي جاء بها الإسلام ليمد مطامحه إليها[٣].

والإسلام الذي تناول في نظمه المختلفة أمور الكون والحياة والإنسان على هذا النحو من الشمول والتوازن يرد الكيان الإنساني بكل جوانبه وأشواقه واتجاهاته إلى الله عز وجل، يطلب منه كل شيء، يرجوه ويخشاه، كذلك يرد الإنسان إلى مصدر واحد يتلقى منه التصورات والمفاهيم، والقيم والموازين وهو يواجه الحياة والكون، وعند ذلك تتجمع الطاقات الإنسانية شعورًا وسلوكًا وتصورًا واستجابة في كافة الشؤون الدينية والدنيوية إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني، وهي العبادة بمعناها الذي أراده الله من خلافة الإنسان على هذه الأرض. عندئذ تصبح الإنسانية في خير حالاتها وقوتها الذاتية التي تتيح لها القدرة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٥ .

(٢) صفوة التفاسير ج١ / ٦١، مرجع سابق .

(٣) تهافت العلمانية/ د. عماد الدين خليل ص ٦٥، ط مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

على أداء دور الإنسان الحضاري في هذا العالم. وحينما بلغت هذه الحقيقة غايتها في السلف الصالح؛ صنع الله بهم أعظم حضارة في التاريخ الإنساني.

الخاصية الثالثة: الجمع بين الثبات والمرونة:

إن من أجل مظاهر التوازن في النظم الإسلامية: جمعها بين الثبات والمرونة أو الثبات والتطور. جمعًا متناسقًا مبدعًا. والثبات كخاصية من خصائص الشريعة الإسلامية يعني ثبات ودوام القيم والمقومات الأساسية التي يستمد منها النظام الإسلامي وجوده.

والمرونة والتطور تعنيان مراعاة عوامل التغير والتطور في ظواهر الحياة الواقعية، وأشكال الأوضاع العملية فيها ضمن فهم دقيق وشامل لمجريات الأنشطة الإنسانية؛ ذلك لأن الأنظمة الإسلامية التي سادت الأنشطة الإنسانية وضعت بناء على معرفة أصلية بحاجات الإنسان، وإمكانية تطور هذه الحاجات عبر الزمن، وهذا لا يعني أن أنظمة الإسلام متطورة فتتكثف مع الواقع أيًا كان دونما اعتبار لأصل ثابت. إن الأنظمة الإسلامية بوجه عام ثابتة تتضمن الأسس التي لا حيدة عنها ولا خروج إلا أنها مرنة فيما تبقى وذلك في القضايا القابلة للتطور والتغير في الأشكال التي من المفترض أن تتكيف في الواقع أو ظرف معين[١].

«ومجال الثبات والمرونة في الشريعة الإسلامية يظهر في الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب، والثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات، والثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشؤون الدنيوية والعلمية[٢].

فمن مظاهر الثبات والمرونة في الشريعة الإسلامية ما بينه القرآن الكريم من أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله والعبودية له، وهذه حقيقة ثابتة غير قابلة للتغير والتطور.

---

(١) مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية/ محمد علي صناوي ص ٣١، ط مؤسسة الرسالة ط الأولى ١٩٨٠م.

(٢) الخصائص العامة ص ٢٠٠، ومقومات التصور الإسلامي ص ٧٢ .

فالشريعة تتمثل في كل نشاط يتجه به الإنسان إلى الله في كل شؤون الحياة. كذلك ما قرره القرآن الكريم من أن الشورى أصل ومبدأ في جميع شؤون الحياة الإسلامية حيث يقول: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[(١)] فهو أي - مبدأ الشورى - طابع الحياة الإسلامية، والالتزام به أمر ثابت للحاكم والمجتمع، لا يجوز لأي منهم أن يتخطاه تحت أي مسمى. أما الشكل الذي يتم به الشورى تركه الإسلام للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان[(٢)].

ومن مظاهر الثبات والمرونة في هدي النبي ﷺ من خلال سيرته ﷺ في نظام الحدود والعقوبات، من ذلك موقفه ﷺ من المرأة المخزومية التي سرقت ومحاولة قريش إسقاط العقوبة عنها عن طريق الشفاعة إلى رسول الله ﷺ عن طريق أسامة بن زيد، وغضب رسول الله ﷺ لذلك، وقال: «**إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**»[(٣)].

فإقامة الحد «أمر ثابت إذا توافرت الأدلة وثبتت الواقعة، أما المرونة فهي في إسقاط الحد إذا وجدت شبهة، وذلك أخذ من قول الرسول ﷺ: «**ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم، ومن وجدتم له مخرجًا فخلوا سبيله، ولأن يخطئ الإمام في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة**»[(٤)].

ومجمل القول. أن الثبات والمرونة في عقيدة الإسلام وشريعته وفي أحكامه ينقسم إلى قسمين بارزين: قسم يمثل الثبات والخلود، وقسم يمثل المرونة والتطور، نجد الثبات يتمثل في العقائد السياسية الخمس، كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ج٥ / ٣١٦٥ بتصرف.

(٣) أخرجه مسلم (ك) الحدود باب النهي عن الشفاعة في الحدود، ج١ / ٧١٧، نووي، (١٦٨٨)، والمصنف/ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني/ ج١٠ / ٢٠١ - ٢٠٢ ج(١٨٨٣) ط المكتب الإسلامي ط الأولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(٤) أخرجه الترمذي في ك الحدود، ب ما جاء في درء الحدود ج٤ / ٣٣، والسنن الكبرى/ أبو بكر أحمد بن الحسين البيرقي ج٩/ ١٢٣ط دار الوفاء بدون تاريخ، والسنن/ أبو الحسن علي بن عمر المعروف بالدارقطني ج٣/ ٨٤، والحاكم ج٤ / ٣٨٣ وصححه.

وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾(١).

وفي الأركان العملية الخمسة من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وهي التي صح عن الرسول ﷺ أن الإسلام بني عليها، وفي المحرمات اليقينية أن السحر وقتل النفس والزنا والسرقة وغيرها مما يثبت بقطعي القرآن والسنة، وفي أمهات الفضائل: من الصدق، والأمان والعفة، والصبر والوفاء وغيرها من مكارم الأخلاق التي يميزها الإسلام من شعب الإيمان، وفي شرائع الإسلام القطعية في شؤون الأسرة: من الزواج، والطلاق، والميراث، والحدود، والقصاص وغيرها من نظم الإسلام التي تثبت بنصوص قطعية الثبوت والدلالة، فهذه الأمور ثابتة نزل بها القرآن وتواردت بها الأحاديث وأجمعت عليها الأمة، فليس من حق خليفة أو رئيس أن يلغي أو يعطل منها شيئًا؛ لأنها كليات أبدية وضعت عليها الدنيا، وبها قامت مصالحها في الخلق، وعلى وفاق ذلك جاءت الشريعة أيضًا، فذلك الحكم باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والقسم الذي يمثل فيه المرونة فقد بينه الإمام ابن القيم فقال: «والنوع الثاني ما يعتبر بحسب اقتضاء المصلحة له زمانًا ومكانًا كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة. فشرع التعزير بالقتل لمدمن الخمر للمرة الرابعة. وذلك لما روي عن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في شارب الخمر: **«إذا شرب فاجلدوه، ثم إذا شرب فاجلدوه، ثم إذا شرب فاجلدوه، ثم إذا شرب الرابعة فاضربوا عنقه»**(٢).

وكذلك فعل عمر بن الخطاب فكان له - رضي الله عنه - في التعزير اجتهاد وافقه عليه الصحابة لم يكن مثلها على عهد رسول الله ﷺ، من ذلك أنهم لما زادوا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧ .

(٢) أخرجه أبو داود، (ك) الحدود، (ب) إذا تتابع في شرب الخمر، والترمذي،ك الحدود، (ب) ما جاء فيمن شرب الخمر ج٤ / ٢٤٨، وابن ماجه في (ك) الحدود، (ب) من شرب الخمر مرارًا ج٢ / ٨٥٩ .

في شرب الخمر وتتابعوا فيه، وكان قليلاً على عهد رسول الله ﷺ. جعله عمر - رضي الله عنه- ثمانين ونفى فيه. ومن ذلك اتخاذه - رضي الله عنه - دارًا للسجن»[١].

وهكذا جاءت الشريعة الإسلامية ملائمة لفطرة الإنسان والوجود، حيث إنها جمعت بين الثبات في الأسس والمرونة في التكيف، وبهذا يستطيع المسلم أن يعيش ويرتقي في ظل القيم الثابتة التي تحافظ على قيمه الحضارية والتي تعينه على دوام العطاء والتقدم.

الخاصية الرابعة: الجمع بين الواقعية والإيجابية والمثالية:

لقد جاءت الشريعة الإسلامية شاملة تمد الإنسان بصورة دائمة بأسباب الحضارة المثلى؛ ذلك لأنها جمعت بين الواقعية والمثالية والإيجابية، وبيان ذلك «أنها قد حرصت على البلوغ بالإنسان أعلى مستوى من الكمال. وهذا معنى المثالية، وهي مع هذا تراعي طبيعة الإنسان والكون والحياة، اللذين هما مجال عمل الإنسان، وهذا معنى الواقعية»[٢].

كما أنها ربطت علاقة الإنسان بالله، وبالكون والحياة من حوله في خط مترابط متكامل، يدفع بالإنسان إلى العمل والإبداع، وهذا معنى الإيجابية، وتتمثل الواقعية في شريعة الإسلام في العبادات الإسلامية، حيث راعى الإسلام واقع الحياة وتركيب الإنسان وطاقته المحدودة، ولم يكلفه ما يعنته ويحرجه، فقد راعى الإسلام واقع الحياة وظروفها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية، وما يفترضه على الإنسان من طلب المعيشة والسعي في مناكب الأرض، فلم يطلب من المسلم الانقطاع للعبادة، وإنما كلفه بعبادات محدودة تصله بربه، ولا تعوله عن مجتمعه، يعمر بها آخرته ولا تخرب دنياه[٣].

كذلك يتعامل الإسلام مع الإنسان تعاملا واقعيًا «فهو ينظر إليه على أنه مخلوق

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان/ الإمام أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ج١ ٣٣١، ٣٣٣ .

(٢) انظر: أصول الدعوة/ ٦٨ .

(٣) الخصائص العامة ص ١٥١ .

من لحم ودم وعقل ونفس وروح، ذي نوازع وأشواق ورغائب، هذا الإنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. يحيا ويموت، يبدأ وينتهي، ويؤثر ويتأثر، ويحب ويكره، يرجو ويخاف، يطمع وييأس.

ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية مناسبة لطبيعة هذا الكائن واستعداداته وفضائله ورذائله وقوته وضعفه. فلم تحتقره ولم تهدر قيمته في صورة من صور حياته»[(١)].

من هذه الصور: أن الإسلام لم يوجب على من يريد الدخول في الإسلام أن يتخلى عن ثروته، بل راعت الطبيعة الإنسانية حاجة الفرد وحاجة المجتمع، فاعتبر المال قوامًا للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه، فقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[(٢)].

وقال ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[(٣)].

كذلك راعت الشريعة الإسلامية حالات الحرج والظروف الطارئة للإنسان، فشرعت الرخص للتخفيف عن الإنسان وذلك في العبادات مثل: صلاة المريض والمسافر وصومهما، وفطر الحامل والمرضع، وغير ذلك من هذه الرخص التي في كتب الفقه الإسلامي.

وبذلك كانت الشريعة الإسلامية واقعية مثالية، تتعامل مع الإنسان والكون والحياة بحقائق واقعية، تتناسب مع طبيعة خلق الإنسان، وتهدف من وراء ذلك كله رفاهية الإنسان وتقدمه. لهذه النظرية الواقعية من الإسلام لطبيعة الكون والحياة والإنسان وملاءمة الشريعة لطبائع هذه الأشياء، نتج عن ذلك الإيجابية الفاعلة في علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى من جهة وعلاقته بالكون والحياة من جهة أخرى.

فالإيجابية في علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى «تبدو في تصور الإنسان للخالق سبحانه القادر الفعال لما يريد، وإليه يرجع كل شيء، وبه قيام كل شيء، وصدق الله إذ يقول عن

---

(١) انظر: مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٣، ١٧٥ بتصرف واختصار.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج٤/ ٢٠٢، ط دار صادر بيروت، والحاكم في المستدرك ج٢/ ٢٣٦ وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي، ط المكتبة السلفية - الهند. بدون تاريخ.

نفسه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(١)، تمثلت هذه الإيجابية في تدخل العناية الإلهية في شأن المؤمنين وفي حياتهم اليومية، لتقرر حكم الله في قضية بين امرأة وزوجها حين لم يجد الرسول ﷺ فيها رأيًا كما في سورة المجادلة، وكما في سورة عبس، وشأن عبدالله ابن ام مكتوم مع رسول الله ﷺ، كما تمثلت هذه الإيجابية في تسيير أمر الكون من إمساك السموات والأرض، وتوزيع الرزق، وإنبات الزرع وإنزال المطر.

وتتمثل الإيجابية في الإنسان في شعوره بدوره في هذا الكون ذلك «أن الله سبحانه وتعالى وهب للإنسان الكون بما فيه من قوى وسخر هذه القوى الكونية لمساعدة الإنسان وأعطى الإنسان، من القوى والاستعدادات لتسخير هذه القوى ليستعين بها على طاعة الله عز وجل، ولتحقيق منهجه في هذه الحياة حتى ينجو من عذاب الله».

والله عز وجل يمده بدوافع الحركة الإيجابية، إذ يعلمه أن قدر الله ينفذ فيه وفي الكون من حوله عن طريق حركته هو في الحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢). وشعور الإنسان أنه مكلف بعمل في هذه الحياة، وأن الله أعانه على هذا العمل بما وفر له من القوى والاستعدادات- ينفي عنه الشعور بالسلبية، وهذا يهيئه للحركة والتأثر والفاعلية وإنتاج الحضارة، فهذه الخاصية- وهي الجمع بين الواقعية والمثالية والإيجابية- ناتجة من أن مبادئ الإسلام لا تتمثل في أنها مجرد مجموعة من القيود والضوابط الرادعة، وإنما هي في صميمها قوة بناء وحركة دافعة إلى النمو المطرد، وانطلاق إلى الحركة وتحقيق الذات في هذه الحركة، ولكن في أسلوب نظيف ألأن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في هذا المنهج. والتبطل والسلبية صورة غير أخلاقية تنافي غاية الوجود الإنساني كما يصورها وهي الخلافة في الأرض واستخدام ما سخره الله للإنسان من قواها وطاقاتها في التعمير والبناء(٣).

فالإسلام دين الواقع والحياة والحركة والعمل والإنتاج والنماء، دين تطابق

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤ .

(٢) سورة الرعد: الآية ١١ .

(٣) هذا الدين/ سيد قطب ص ٢٩، ٣٠، ط اتحاد طلاب جامعة القاهرة . بدون تاريخ.

تكاليفه فطرة الإنسان بحيث تعمل جميع طاقات الإنسان عملها التي خلقت له وفق منهج الإسلام وشريعته. ومن هنا ينطلق الإنسان بكل طاقاته يعمر الأرض وينمي موجوداتها، ويبدع في عالم المادة ما شاء الله له أن يبدع، لا يقف في وجهه حاجز من الاعتقاد ولا من منهج الإسلام؛ لأن كلاهما واقعي مثالي لفطرة الإنسان وظروفها في هذا الكون. ومن ثم يتسنى للإنسان المؤمن بهذه العقيدة والشريعة المدرك لحقيقة الإسلام ومنهجه أن ينشئ الحضارة التي تخدم الإنسانية في كل زمان ومكان.



الأسس التي تقوم عليها النظم الإسلامية

تمثل الأسس التي تقوم عليها نظرية الإسلام في الحياة - المنطلقات الأولى لبناء تلك النظرية أو الخلفية الفكرية للنظرية الإسلامية في كافة شؤون الحياة. وهذه الأسس لا تتناول التصرف السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي للإنسان المسلم، وإنما تتناول العوامل المؤثرة في ذلك التصرف والمبادئ الكلية التي تحكم ما يصدر عن الفرد من تصرفات ذات آثار على المجتمع.

الأساس الأول: الإيمان:

أول هذه الأسس هو الإيمان، ذلك الجانب الذي يؤثر في نفسية الفرد وسلوكه، وقد تحدثنا عنه في الأساس الأول من الأسس التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية، وثالثها العدالة، ورابعها الحرية، وخامسها تحقيق مصالح الناس ورفع الحرج والمشقة عنهم. والحديث الآن عن تفصيل هذه الأسس ودورها في بناء الحضارة.

الأساس الثاني: مراعاة الأخلاق:

تقوم النظرية الإسلامية في مختلف نواحي الحياة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية على أساس الأخلاق، والربط بينهما وبين التشريع سواء من حيث الوسائل، أو من حيث المقاصد والأهداف. وفي هذا تختلف الشريعة الإسلامية عن التشريعات الوضعية، حيث إن الأخيرة تفصل بين هذا وذاك، فهي تسير على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» وقد بنى الإسلام تشريعه في جميع النظم على أساس الأخلاق، لما لها من تأثير كبير في سلوك الإنسان وما يصدر عنه. فسلوك الإنسان موافق لما هو مستقر في نفسه من معان وصفات، وقد قال الإمام الغزالي: فإن كل صفة تظهر في القلب يظهر أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة[1].

ولهذا كان للأخلاق أهميتها ومكانتها في النظم الإسلامية، حيث إنها تنمي القيم

---

(١) إحياء علوم الدين/ أبو حامد بن محمد الغزالي ج١ / ٢٦، ط المكتبة التجارية . بدون تاريخ.

الاجتماعية وتسمو بها، لكي تكون معبرة عن التطلعات المثالية التي يتطلع إليها الإنسان[١].

ومن هنا نجد حرص القرآن الكريم على تأكيد الأخلاق وترسيخها في المجتمع سواء في مجال السلوك، أو في مجال التعامل. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٤].

فقد بينت هذه النصوص القرآنية وغيرها[٥] ما يجب التحلي به من الأخلاق بعد الإيمان بالله، وما يجب التخلي عنه من الأخلاق الرديئة، فمن الأول: الوفاء بالعهد والالتزام بالكلمة ،والعفة، والأمانة، والصدق، والرحمة، والتسامح، والرفق، والشجاعة، وغير ذلك مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية. ومن الثاني الغدر، والخيانة، والنفاق، والكذب، والظلم، وغيرها من الصفات الذميمة التي نهانا القرآن الكريم والسنة النبوية عن قربها.

ولقد حث النبي ﷺ على الأخلاق والالتزام بها حيث جعلها ﷺ الغاية من بعثته فقال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[٦]، وقال: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع**

---

(١) أبحاث في الاقتصاد الإسلامي/ محمد فاروق النبهان / ٢٣ط مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٩٨٦م.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧ .

(٣) سورة النور: الآية ١٩ .

(٤) سورة النساء: الآية ٣٦ .

(٥) آيات النساء: ٥٨، ١٤٤، والفرقان ٦٣، ٧٢، ولقمان ١٧، ١٨، والأنعام ١٥٢ وغيرها كثير .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٧٣ ص ١٠٤، أحمد في المسند ج٢ / ٣٩٨، والحاكم ج٢ / ٦١٣، وقال: «صحيح على شرط مسلم» والقضاعي في مسند الشهاب ج٢ / ١٩٢ط مؤسسة الرسالة . بدون تاريخ.

السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١]، وقال ﷺ: «**البر: حسن الخلق والإثم: ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[٢]، وقوله ﷺ: «**من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا؛ فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا؛ ستره الله في الدنيا والآخرة**»[٣].

وقوله ﷺ: «**إياكم والجلوس على الطرقات**» قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد سواها، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «**فإن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه**». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «**غض البصر، وإماطة الأذى، ورد السلام**»[٤].

ومن استقراء النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يجد الباحث أن الدعوة إلى الأخلاق في الإسلام جاءت دعوة عامة بطلب الفعل الحسن والقول الطيب المطلوب من الإنسان، مثل قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾[٥] وعلى الجانب الآخر دعوة عامة للابتعاد عن رذائل الأخلاق، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٦] وجاء ذلك أيضًا في السنة النبوية وذلك في قوله ﷺ: «**إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[٧].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج٥ / ١٥٣، ٢٣٦ عن أبي ذر، والترمذي في سننه، (ك) البر والصلة والآداب عن أبي ذر، وقال: «صحيح حسن».

(٢) مسلم (ك) البر والصلة (ب) تفسير البر والإثم ج٤ / ١٩٨٠ والترمذي (ك) الزهد (ب) ما جاء في البر والإثم ج٤ / ٥٩٧ عن النواس بن سمعان.

(٣) مسلم من حديث أبي هريرة (ك) الذكر (ب) فضل الاجتماع على تلاوة القرآن - والترمذي (ك) الحدود (ب) الستر على المسلم، وأبو داود (ك) الأدب (ب) المعونة للمسلم ج٥ / ٢٣٥، أحمد ج٢ / ٢٥٢.

(٤) البخاري (ك) المظالم (ب) أفنية الدور والجلوس فيها ج٥ / ١١٢، مسلم (ك) اللباس والزينة (ب) النهي عن الجلوس في الطرقات ج٣ / ١٦٧٥.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٥٣.

(٦) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٧) الحديث أخرجه أحمد في المسند عن عائشة ج٦ / ٦٤، أبو داود ك الأدب - باب في حسن الخلق ج٥ / ١٤٩، وابن حيان (موارد الظمآن/ ٤٧٥).

ولم يكتف القرآن الكريم بالدعوة العامة إلى التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الأخلاق الرديئة، ولكن فصل القول في الصنفين، فبين أنواع كل صنف؛ لئلا يختلف الناس فيها وتتدخل الأهواء في تحديد المراد منها.

والأمر بالأخلاق في الإسلام يتميز بالشمول، فهي تشمل كل ما يتعلق بحياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمعاملات. فهي تشمل أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره وهي- أي الأخلاق- دعوة لصالح الفرد والمجتمع، فلا يجوز للفرد ولا المجتمع تخطي الحدود الأخلاقية التزامًا بقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[١].

ففي النظام الاجتماعي تبدو مراعاة الأخلاق في حرص الإسلام على طهارة المجتمع ونظافته من القبائح والرذائل، فحرم الزنا والقذف والسباب والشتائم والقمار بأنواعه وشهادة الزور والتجسس والغيبة والنميمة، وكل ما يوقع العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع منكرات لا يقبلها النظام الاجتماعي في الإسلام، وفي النظام الاقتصادي يجد الباحث أنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأخلاق الإسلامية بحيث لو تزعزعت أركان الأخلاق لأدى إلى فوضى اقتصادية تنعكس آثارها على المجتمع واستقراره، من ذلك قول الرسول ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»[٢] كما نهى عن الاحتكار والربا وإسراف المال، قال ﷺ: «**لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه**»[٣].

وفي نظام الحكم والسياسة والنظام الدولي - سواء أكان التعامل فردًا أو دولة يلزم الإسلام كلا منهما مراعاة الأخلاق في جميع الظروف والأحوال وإن كلف الالتزام بالأخلاق تضحيات.

والأصل في ذلك ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة وأقوال الفقهاء، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة المائدة ٢ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم (ك) الإيمان (ب) قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» ج١ / ٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم (ك) المساقاة (ب) لعن آكل الربا وموكله ج٣ / ١٢١٨، ١٢١٩ .

(٤) سورة الأنفال: الآية ٥٨ .

«أي إذا ظهرت الخيانة من قوم بينكم وبينهم عهد، فلا تحاربهم حتى تعلمهم أنك ناقض لعهدهم حتى ولو كانت الخيانة في حق الكفار لا يحبها الله»[١].

وفي السنة النبوية ما حدث في صلح الحديبية، وكان من شرطه: أن من يأت من قريش النبي ﷺ مسلمًا يرده النبي ﷺ ولا يأويه. في أثناء الكتابة جاء أبو جندل بن سهيل يستصرخ المسلمين أن يؤوه ويحموه من المشركين، فقال سهيل ممثل قريش:

هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال النبي ﷺ: **«إنا لم نقض الكتاب بعد»**. فقال سهيل: لا أقاضيك على شيء، فقال النبي ﷺ لأبي جندل: **«اصبر واحتسب، إنا قد عقدنا مع القوم عقدًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم»**[٢].

وبهذا قال الفقهاء: لا يجوز للمسلم أن يخون أهل دار الحرب إذا دخل دارهم بأمان منهم؛ لأن خيانتهم غدر ولا يصلح في ديننا الغدر[٣].

ولقد ربط الإسلام بين الأخلاق ومسؤولية الإنسان عما يصدر عنه من أفعال برباط يثير في نفوس المؤمنين شدة الخوف من أي خروج على أحكام الفضيلة والأخلاق، كما أمر بها الله عز وجل، ويدفع في الوقت نفسه عن المجتمع الشرور التي قد تحدث نتيجة هذا الخروج[٤] وقد سلك الإسلام عند تحديده للمسؤولية مسلكين:

الأول: وهو ربط الفعل المنهي عنه برادع ديني يتمثل في التحذير بتوقيع العقوبة الأخروية على مرتكبيه. والتصرفات التي من هذا القبيل هي الرذائل التي لا يمكن ضبطها بمظاهرة محدودة، كالغيبة والحسد وغيرها من الرذائل التي تتصل بالجانب الخلقي ولم تأخذ صورة السلوك الإجرامي. مثل هذه التصرفات اقتصرت فيها الشريعة الإسلامية على التحذير بالعقوبة الأخروية التي ترجع إلى الله العليم بما

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٢ / ٣٢٠ .

(٢) الرحيق المختوم/ صفي الرحمن المباركفورى/ ٣٨٥ ط دار الوفاء، وانظر هذا الموضوع بتوسع في رسالة الماجستير الخاصة بالباحث وهي موقف الدعوة الإسلامية من التضامن الدولي/ مكتبة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة .

(٣) المغني/ ابن قدامة ج٨ / ٤٥٨، ط مكتبة زهران . بدون تاريخ.

(٤) انظر: الثقافة الإسلامية/ عبد الواحد الفار ص ١٥٦، ١٥٧ جدة، بدون تاريخ.

تنطوي عليه جوانح النفس ويكون الضمير الإنساني هو المنوط وحده بتحديد مسؤوليته عن هذه الآثام في الدنيا»[١].

ولقد أبرز الإسلام الجزاء الأخروي المترتب على المسؤولية الأخلاقية فأكد أن كل عمل من أعمال الإنسان محسوب عليه في الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٣].

وقد جعل الله تعالى العبادات اليومية والسنوية لربط الفرد بالله سبحانه وتعالى وتحمله على الخشية وتقوى الله.

والمسلك الثاني الذي سلكه الإسلام للربط بين الأخلاق والمسؤولية، هو وضع عقوبات دنيوية لمن ارتكب فعلًا أو تصرفًا يتصل بالحياة العامة وله آثاره السيئة في الأفراد والجماعات[٤]، ووضع هذه العقوبات والحدود لكبح جماح تلك النفوس الشريرة وصيانة المجتمع من شيوع الفساد والفوضى التي تعرقل المسيرة الحضارية.

والأفعال التي وضع لها الإسلام عقوبات هي الأفعال التي يترتب على إتيانها أو تركها ضرر بنظام المجتمع الإسلامي أو عقيدته أو بحياة الأفراد، أو بأقوالهم أو بأعراضهم أو بمشاعرهم أو بغير ذلك من شتى الاعتبارات التي تستوجب ضمان بقاء المجتمع قويًا متضامنًا متخلقًا بالأخلاق الفاضلة[٥].

والأفعال المستوجبة لتوقيع عقوبات الحدود- وهي العقوبات التي جاء النص عليها صراحة في القرآن والسنة- هي الزنا، والقذف، وشرب الخمر والمسكرات، والسرقة، والردة، والحرابة، والبغي[٦]، فإذا ثبت ارتكاب أحد هذه الأفعال من أفراد

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة/ شلتوت ص ١٧٩ ببعض التصرف.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٣) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.

(٤) انظر السابق ص ١٧٩.

(٥) التشريع الجنائي في الإسلام/ عبدالقادر عودة ١/ ٦٨، ط مؤسسة الرسالة ط السادسة ١٩٠٨م.

(٦) تفاصيل هذه العقوبات ينظر إليها في كتب الفقه، مثل: المغني لابن قدامة، وبدائع الصنائع للدكساني وغيرها.

المجتمع مهما كان وضعه، فإن العقوبة الشرعية توقع بما بينه الله عز وجل في كتابه وسنة رسوله، ولا تسمح الشريعة الإسلامية للقاضي أن ينقص من العقوبة أو يستبدل بها غيرها؛ لأن ذلك يؤدي إلى شيوع الفوضى، وانتشار الفساد، والتعدي على الحواس، ينتج عن ذلك توقف الابتكار والاختراع، والقضاء على الحضارة؛ لذلك كانت للأخلاق أهميتها في المحافظة على البناء الحضاري للأمة الإسلامية.

الأساس الثالث: مراعاة العدالة:

العدل من الأمور الضرورية لإقامة الحق، ونشر الأمن، وتوثيق علاقة الأفراد بعضهم ببعض، وبإقامة العدل تقوم العلاقات بين الأفراد على التوازن والانسجام، وهذه الأمور كلها تعين على التقدم وبناء الحضارة.

ولذلك كان العدل من أسس الشريعة الإسلامية، فهو صفة الله، وميزانه في الأرض، ويرتكز العدل على توحيد الله عز وجل، وجاءت به الرسل الكرام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[١].

«فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانًا ثابتًا ترجع إليه البشرية لتقويم الأعمال والأحداث، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطرابات الأهواء واختلاف الأمزجة وتصادم المصالح، ميزانًا لا يحابي أحدًا؛ لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد؛ لأن الله رب الجميع»[٢].

وجاءت الرسالة الخاتمة، فجعلت العدل ركنًا ركينًا عليه تربى الأمة، وتؤسس الدولة، ففي القرآن المجيد وردت كلمة العدل فعلاً ومصدرًا في ثمانٍ وعشرين موضعًا، وجاء مرادفها القسط خمسًا وعشرين مرة[٣]، إذا ألقى الباحث نظرة متأنية في تلك المواضع، لوجد أن العدل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمختلف جوانب الشريعة

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥ .

(٢) في ظلال القرآن ج٦ / ٣٤٩٤ مرجع سابق .

(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٤٨، ٥٣٩، ط مؤسسة مناهل العرفان بدون تاريخ.

وأمور الحياة العامة، سواء بالبحث عليها والأمر بها، أو الوعد بالإثابة عليها؛ ذلك لأن الشريعة الإسلامية إلهية المصدر، جاءت محققة لفكرة العدالة المطلقة في كل ما تنطوي عليه من أحكام خاصة بحقوق الفرد والجماعة أيًا كان ذلك الفرد وهذه الجماعة، ثم إنها صورت العدالة على حقيقتها كمصلحة عليا ذات صلة وثيقة بالأخلاق[(١)].

تلمس هذه الحقيقة في حرص القرآن الكريم على ترسيخ هذا المبدأ وعدم التقصير فيه، حتى ولو شهد الإنسان على نفسه أو أقرب الناس إليه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[(٢)].

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا في معنى قوله تعالى: ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وهذه العبارة أبلغ ما يمكن أن يقال في تأكيد أمر العدل والعناية به، فالأمر بالعدل والقسط مطلقًا بعبارات مختلفة بعضها آكد من بعض، تقول: اعدلوا، وأقسطوا. وتقول: كونوا عادلين أو مقسطين، وهذه أبلغ، لأنها أمر بتحصيل الصفة لا بمجرد الإتيان بالقسط، وأبلغ من هذا وذاك كونوا قوامين بالقسط؛ أي: لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم، بأن تتحروه بالدقة التامة حتى يكون ملكة راسخة في نفوسكم، والقسط يكون في العلم كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجين والأولاد، ويكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم»[(٣)].

وإذا كانت الآية السابقة دعت إلى العدل دعوة عامة مع القريب والصديق والغريب والعدو، فقد جاءت بعض الآيات تأمر بتحري العدل في مواقف معينة، من ذلك الأمر بالعدل في القول، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا

---

(١) الثقافة الإسلامية ص ٩٤، ٩٥ .

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٥ .

(٣) تفسير القرآن الحكيم/ محمد رشيد رضا ج٥/ ٤٥٦، والجامع لأحكام القرآن/ القرطبي ج٥/ ٤١، ط دار الكتب العربية .

قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

قال ابن كثير: «يأمر الله تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت، وفي كل حال»[٢].

كذلك أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل في الأمور الشخصية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾[٣]. فهذه الآية للدلالة على النهي عن نكاح ما خاف الناكح الجور فيه من عدد النساء[٤].

كما أمر الله عز وجل بالعدل في الفتن؛ لأنه ضابط الأمن والمحافظة على كيان الأمة وحمايتها من الشقاق. قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٥].

فهذه الآية دعوة إلى إقامة العدل وتقرير حكم الله عز وجل، وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله[٦]، والعدل مأمور به في النظام السياسي والحكم من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾[٧].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٢ .

(٢) ابن كثير ج٢ / ١٩٠، مرجع سابق .

(٣) سورة النساء: الآية ٣ .

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن/ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ج٤ / ١٦٠، ط دار المعرفة - بيروت، ط الرابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

(٥) سورة الحجرات: الآية ٩ .

(٦) في ظلال القرآن ج٦ / ٢٣٤٣، مرجع سابق .

(٧) سورة النساء: الآية ٥٨ .

فهذه الآية من أمهات آيات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع، والآية عامة في جميع الناس من أمراء وولاة ونحوهم، يأمرهم الله عز وجل أن يؤدوا أمانات رعيتهم، وأن يحكموا بينهم بالعدل والإنصاف[١].

فهو الأساس الذي لا قيام للدولة إلا به؛ ولهذا كان من صفة عقد البيعة للإمام أن يقال فيها بايعناك بيعة على إقامة العدل والإنصاف، والقيام بفروض الإمامة[٢].

والعدل في النظام الاجتماعي والاقتصادي يكون بإقامة الحدود، وضبط الكيل والميزان، وكذلك العدل في كتابة الوثائق التي تحفظ أمانات الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، والعدل في الوثيقة قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وفي ضبط الكيل والميزان قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وكذلك العدل في إقامة الحدود دون تفرقة بين غني وفقير؛ لأن هذا يؤدي إلى الانحراف والفساد ونشر الظلم. وهذه الأمور السلبية كلها لعدم العدل توقف المسيرة الحضارية للإنسانية. والعدل مطلوب والظلم ممنوع من المسلم في جميع الأحوال لأي إنسان أو جماعة أو دولة مسلمة أو غير مسلمة؛ لأن كون الإنسان غير مسلم لا يعطي مبررًا لأحد لظلمه، قال ابن تيمية في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾. فلهذا كان العدل واجبًا في كل شيء وعلى كل أحد، والظلم محرم في كل شيء ولكل أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلاً سواء أكان مسلمًا أو كافرًا[٣].

وبتحقيق العدل يرتفع الظلم، وتتحقق مقاصد الإسلام من حفظ الضروريات: العقل، والمال، والنسل، والنفس، والدين. وتلك هي الأركان التي تقوم عليها الحضارة الإنسانية التي جاء الإسلام لوضع أصولها وقيمها.

وانتشار الظلم يؤدي إلى الاعتداء على الأموال والأنفس والنسل والدين، وهذا بدوره يؤدي إلى اختلاف أمر الجماعة، وبالتالي إلى التخلف الحضاري.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج٥ / ٢٥٥، ٢٥٦، الطبري ج٥ / ٩٣ .

(٢) الأحكام السلطانية لأبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ص ٢٥، ط دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

(٣) فتاوى ابن تيمية الكبرى ج١ / ٣٤١ ط، دار التقوى، بدون تاريخ .

الأساس الرابع: الحرية:

لقد ميز الله بني آدم وكرمهم على سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١].

ومن مظاهر تكريم الله عز وجل للإنسان: أن منحه الحرية الكاملة في عبوديته له سبحانه وتعالى، وبيان ذلك أن الخلق جميعًا يعبدون الله سبحانه وتعالى عبادة تسخير؛ أما الإنسان فحر، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢]، فالحرية صفة الإنسان في هذا الوجود، وهذه الحرية الممنوحة للإنسان من الله عز وجل ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بمقتضيات الخلافة ولوازم الوكالة الممنوحة للإنسان في عمارة هذه الأرض؛ لأن الإنسان لا يعيش فردًا، وإنما يعيش في مجتمع، وهذه الحياة تقتضي قيام علاقات بين أفراد المجتمع، ووجود هذا المجتمع يؤدي إلى قيام علاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى، وعلى ذلك «فحرية الإنسان مقيدة بنوعين من القيود:

الأول: لضبط سلوكه حتى لا تنحط ذاته، فيفقد كرامته ويفقد تفضيله.

الثاني: لضبط علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في المجتمع الواحد والمجتمعات بعضها ببعض.

ولقد أقام الإسلام هذه القيود على قاعدة من التوازن؛ ذلك لأن القيود التي حواها النوع الأول - وهي أمور الحلال والحرام - لا يمكن أن تؤدي إلى كبت وخنق طاقات الإنسان الفكرية وميوله الغريزية، وإنما هي السبيل الوحيد لدفع هذه الطاقات إلى الأكمل والأفضل، وأما القيود التي حواها النوع الثاني وهي حرمة الدماء والأعراض والأموال، فإنها تحول دون طغيان فرد على فرد، واستغلال الفرد للمجتمع والمصلحة العامة»[٣].

فهذه القيود تحقق العدل، وتقيم جميع العلاقات على التعاون واحترام الحقوق، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠ .

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩ .

(٣) دراسة في منهاج الإسلام السياسي/ سعدي أبو حبيب ص ٦٨٧، ٦٨٨ بتصرف واختصار ط مؤسسة الرسالة، ط الأولى سنة ١٤٠٦ هـ.

وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[١].

وإذا كانت الحرية تطلق في اللغة على الخلوص من الشوائب أو الرق والخلوص من كل شيء دخيل[٢]، «فإن هدف الإسلام هو تحرير الإنسان من تبعيته واستجابته المطلقة لما تدفع إليه ميول النفس وغرائزها؛ فإذا تحرر الإنسان من هذه التبعية يكون قد تحرر بالفعل ويكون صاحب حرية. وعلى هذا، فالحرية هي الاختبار في الفعل والتميز في الحكم على الأشياء وتقديرها»[٣].

ولقد كفل الإسلام جميع مظاهر الحرية، الحرية في الاعتقاد، وحرية الفكر، وحرية التملك، وحرية التعامل مع الغير، وهذه الحريات مطلقة لا ضابط لها إلا إبعاد الأذى عن نفس الإنسان، وعن غيره ممن يعيش معه في الوجود والمجتمع في إطار المصلحة العامة، وما يمكنه من أن يكون متعاونًا مع غيره محبًا له.

فقد أعطى الإسلام للإنسان حرية اختيار العقيدة دون جبر أو إكراه، يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[٤]، وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحدًا على الدخول فيه»[٥].

وهذه الحرية لا تتنافي مع مشروعية الحرب في الإسلام لنشر الدعوة؛ ذلك لأن الحرب مشروعة لرفع سلطان المتأهبين على الناس، ثم يترك الناس أحرارًا في الاختيار، إما أن يدخلوا الإسلام، وإما أن يظلوا على عقائدهم، ويعاملوا معاملة أهل الذمة، وبهذا العقد يحصلون على كامل حرياتهم[٦]، ولقد عمل الفقهاء بذلك ونقل على لسان الإمام علي: «إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا»[٧].

وقد جاء في السنة المطهرة تطبيق عملي لحرية الاعتقاد، فقد ورد في الكتاب

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥ .

(٢) انظر: المعجم الوجيز ص ١٤٤، مرجع سابق .

(٣) الدين والحضارة الإنسانية/ محمد البهي ص ١٦٦ط دار الهلال، بدون تاريخ.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦ .

(٥) تفسير ابن كثير ج١ / ٣١١، مرجع سابق .

(٦) انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي/ د. يوسف القرضاوي ص ٣٨، ٣٩، ط مؤسسة الرسالة، ط الثانية ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م.

(٧) بدائع الصنائع/ الكاساني ج٧ / ١١١، والمغني ج ٨ / ٤٤٥ .

الذي أقام به رسول الله ﷺ النظام الاجتماعي في دولة الإسلام في الأيام الأولى للهجرة قوله ﷺ «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»[(١)].

كما قرر الإسلام الحرية السياسية وحرية الفكر والرأي. هذه الحريات نابعة من أصول الدعوة الإسلامية التي حضت المسلمين على التأمل والتفكير، وإذكاء العقل بالتأمل والبحث، لاستجلاء الحقائق والنظر إلى ما وراء الأشياء وغايتها.

وقد أباح الإسلام هذه الحرية - حرية الفكر - في كل ما ينفع الإنسان والصالح العام للمجتمع الإنساني لا يقيد هذه الحرية إلا إذا كانت في محرم يؤدي إلى هلاك الإنسان والجماعة تحت قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، كما أنه منع الإنسان من التفكير في ذات الله سبحانه وتعالى، لأن ذاته تعالى لا تحيطها العقول، وأي توجيه للطاقة الفكرية نحو هذا الموضوع يعتبر مضيعة للطاقة الإنسانية[(٢)].

وترتب على حرية الفكر حرية التعبير بالرأي، سواء كان باللسان أو بالرقم، وأن يسلك المسلم في ذلك مسالك الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(٣)]، أي: قولًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، والآية أوجبت التقوى قبل القول حتى لا يكون هناك مجال للفتن والأغراض الشخصية. ولقد حض الإسلام على حرية الرأي فقال ﷺ «لا يحقرن أحدكم نفسه «قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى عليه مقالًا ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل: ما منعك أن تقول فيّ كذا وكذا؟ فيقول الله عز وجل: فإياي كنت أحق أن تخشى»[(٤)] ويتفرع عن حرية الرأي الحرية السياسية وهي تتضمن المشاركة في الحكم واختيار الحاكم، وهذه نتيجة طبعية لتقرير قاعدة الشورى كأساس للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، فالفرد يشارك في اختيار الحاكم عن طريق البيعة وإقرار أهل الحل والعقد، أو عن طريق الانتخاب، كما تتضمن الحرية السياسية مراقبة أعمال الحاكم

(١) سيرة ابن هشام ج٢/ ٢٤١ - ٢٤٢، ط المؤسسة العربية الحديثة ١٩٩٤م.

(٢) أنظر: اشتراكية الإسلام/ د. مصطفى السباعي ص ٩٠، ٩١، ط دمشق ١٩٥٩م والدين والحضارة الإنسانية ١٧٤، ١٧٥، ومعالم الثقافة الإسلامية/ عبدالكريم عثمان ص ٦٤، مؤسسة الرسالة.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (ك) الفتن (ب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج٢/ ١٣٢٨ وقال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائده: إسناده صحيح ج٣ / ٢٤٢ط المكتبة الإسلامية مصر.

ونقدها، وإبداء الرأي فيها، وذلك في حدود الأدب الإسلامي، والمصلحة العامة، فلكل فرد في الدولة الإسلامية مزاوله الحق كما حدث في عهد سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام[١] وتتضمن هذه الحرية أيضًا حرية الفرد في التظلم إلى الحاكم من ولاته، كما فعل سيدنا عمر حينما كان ينادي على الناس في مواسم الحج: من كانت له مظلمة على أحد الولاة فليتقدم بالشكوى منه»[٢].

والحرية المدنية تعني حرية الإنسان في الرواح والمجيء وحماية شخصه من أي اعتداء، وحرية التنقل والتجارة، واختيار عمله الذي يريده لكسب معيشته، وكذلك المرأة ملتزمة فالحرية مكفولة لها من طبيعتها الإنسانية بالتصرف كل ما تملك بما يشاء ملتزمًا في ذلك بالحلال والحرام اللذان يحافظان على مصلحة الجماعة الإنسانية[٣].

والإسلام وضع الضوابط التي بها تؤدي هذه الحرية غايتها في الحياة الإنسانية، محددًا لها طريق العمل ومجال السلوك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾[٥] وفي جانب آخر يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾[٦]، فهذه الآيات تنهى عن السلوك الذي يؤذي الغير، وتوصي بالسلوك الذي يشعر الغير بكرامته الإنسانية. وهذا ليس قيدًا لهذه الحرية، وإنما المحافظة عليها حتى تكون بمثابة الدفع للإنسان في بناء حضارته الإنسانية.

إن مشروعية الحرية على اختلاف أنواعها - كأساس من أسس النظم الإسلامية- تفتح المجال أمام قدرات الجماعة الإنسانية للانطلاق والكشف في مجالات الحياة

---

(١) انظر: معالم الثقافة الإسلامية ٦٦، ٦٧ واشتراكية الإسلام ص ٩٤/ ٩٥ مراجع سابقة.

(٢) العدالة العمرية ومبادئ الإسلام/ عبدالعزيز حافظ دنيا ص ١٤٠ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٤٠٨هـ.

(٣) الدين والحضارة الإنسانية ص ١٧٧، واشتراكية الإسلام ص ٩٦، ومعالم الثقافة ص ٦٩.

(٤) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٥) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٦) سورة النساء: الآية ٨٦.

العامة، ولمصلحة الجماعة الإنسانية، ودون إجحاف لحق أحد لبناء الحضارة، وهو ما حدث في تاريخ الإسلام والمسلمين في العصور الذهبية للإسلام كما سنذكر في المبحث الثالث إن شاء الله، فلا يمكن لفرد أن يساهم في بناء حضارة مجتمع أو مدنية إلا إذا جعل لحرية الإنسان دائرة تدور فيها، يرى حدود هذه الدائرة في تجنب الإيذاء وفي فعل الخير ما أمكن، ورسالة الإسلام ما هي إلا تنوير الإنسان بمعالم هذه الحدود، ودفعه إلى بناء حضارته الإنسانية.

الأساس الخامس: تحقيق المصالح ورفع الحرج عن العباد:

لقد أقام الله تعالى الشريعة الإسلامية لتحقيق مصالح العباد ورفع المشقة عنهم والرحمة بهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[١]، وإنما كانت رسالته رحمة؛ لأنها تتضمن تحقيق مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم، وتدرأ عنهم المفاسد والأضرار، يقول الإمام ابن القيم: «الشريعة الإسلامية مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وكلها عدل ورحمة، ومصالح كلها، وحكمة كلها»[٢]. وقال الإمام الشاطبي: «تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصد الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو أن تكون ضرورية أو حاجية؛ فأما الضرورية، فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة. وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين، ومجموع الضروريات خمسة، وهي: حفظ الدين والنفس والمال، والعقل، والنسل»[٣].

ولقد حرصت الشريعة الإسلامية على تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم؛ ذلك أن الشريعة الإسلامية ما جاءت إلا لتحقيق وحفظ الضروريات التي تحقق مصالح العباد وسعادتهم، وهذه الضروريات هي: حفظ، الدين، والنفس، والنسل،

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧ .

(٢) إعلام الموقعين ج٣ / ٣ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، المعروف بابن القيم، ط مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٠م.

(٣) الموافقات في أصول الشريعة/ إبراهيم بن موسى اللخمي المعروف بأبي إسحاق الشاطبي (ج٢/٨)، ١٠ط .

والعقل، والمال، وهي أمور ضرورية لحفظ توازن المجتمع الذي يرسمه الإسلام لبناء الحضارة الإنسانية.

وقد شرع الإسلام لحفظ هذه الضروريات أحكامًا تنظمها وتهدف إلى تأدية غايتها في الحياة، ووضع حدود تمنع من الاعتداء عليها وتعطيلها، فمثلًا لحفظ الدين شرع الإسلام الجهاد والتضحية فيه بالنفس والمال، وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

ولحماية النفس أعطى لكل فرد من أفراد المجتمع حق الحياة، وأعطى حق انتزاع الحياة من الأفراد للدولة فقط وفق قانون العقوبات لمصلحة المجتمع وحماية الأفراد، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢]، والعدوان على حياة فرد عدوان على المجتمع كله. والقصاص من الجاني إحياء للمجتمع كله، ومعنى الحياة في الآية «الأمن والاستقرار، وحفظ الدماء بزجر من تسول له نفسه الاعتداء على أرواح الناس»[٣].

وأعلن الإسلام صيانة الحياة من كل ما يقضي عليها أو يتلفها أو يضعفها، فشرع وجوب العناية بالصحة العامة ودفع الأمراض والأوبئة عن المجتمع، ففي قصة الوباء (طاعون عمواس) في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه منع دخول الجيش إلى الأرض الموبوءة عملاً بقول الرسول ﷺ: «**إذا كان الوباء بأرض ولست فيها؛ فلا تدخلها؛ وإن كان بأرض وأنت بها، فلا تخرج منها**»[٤].

كذلك أمر الأفراد برعاية الصحة، ونهاهم عن كل ما يضعفها، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[٥]، فالإسراف منشأ العلل. ونهى أيضًا عن إرهاق

(١) سورة التوبة: الآية ٤١ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٩ .

(٣) انظر: في ظلال القرآن ج١ / ١٦٥، وأصول الدعوة ص ٥٦، مرجع سابق .

(٤) البخاري (ك) الطب (باب) ما يذكر في الطاعون، فتح ج١٠/ ١٧٩ عن ابن عباس، ومسلم (ك) السلام (ب) الطاعون ج٤/ ١٧٤١ .

(٥) سورة الأعراف: الآية ٣١ .

الجسم ولو بالعبادة، فقال ﷺ لبعض أصحابه: «**ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ولا تأتي أهلك؟**» قال: بلى يا رسول الله. قال: **لا تفعل، ولكن صم وأفطر، وقم، ونم وأت أهلك، فإن لجسمك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا» ولزوجك عليك حقًّا»**[١].

ولقد شرع الإسلام أحكامًا لحفظ النفس والنسل والعقل والمال وما يتعلق بها لمصالح الناس وانضباط الحياة، فحرم الانتحار مهما كان السبب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[٢]، وقال ﷺ: «**من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة**»[٣]. ونهى عن المخاطرة بالنفس، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٤]، وأعطى للإنسان حق الدفاع عن نفسه إذا احتال عليه إنسان ليقتله أو يأخذ ماله غصبًا، قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي. قال: «**لا تعطه مالك**». قال: أرأيت إن قاتلني. قال: «**قاتله**». قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «**فأنت شهيد**». قال: أرأيت إن قتلته. قال: «**هو في النار**»[٥].

كذلك حرم الاعتداء على العقل بشرب مسكر أو مخدر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[٦]، كذلك حرم الزنا والفواحش الجنسية؛ لما لها من آثار ضارة على صحة الفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[٧].

وقد علل الله سبحانه وتعالى هذه الأحكام وغيرها بدفع الضرر ودرء المفسد عن

---

(١) أخرجه البخاري (ك) الصوم (ب) حق الجسم في الصوم، عن عبدالله بن عمرو بن العاص (فتح ج٤ / ١٢٨).

(٢) سورة النساء: الآية ٢٩ .

(٣) أخرجه البخاري (ك) الأدب (ب) ما ينهى عن السباب واللعن، فتح ج١٠/ ٤٦٥، ومسلم (ك) االإيمان (ب) غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ج١/ ١٠٤ .

(٤) سورة البقرة: الآية ١٧٨ .

(٥) أخرجه مسلم (ك) الإيمان (ب) هدر دم من قصد أخذ مال غيره بغير حق . وشرح الترمذي ج٢/ ١٦٣ .

(٦) سورة المائدة: الآية ٩٠ .

(٧) سورة المائدة: الآية ٣ .

الناس، ولإعلامهم بأن تحقيق المصالح هو مقصود الإسلام، فمثلاً قال في الخمر: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[١]، وعلل ذلك بفعل الشيطان ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٢].

فالمصلحة في الشريعة الإسلامية لها وجه إيجابي؛ وهو جلب النفع، ووجه سلبي؛ وهو دفع ضرر أو مفسدة، وهكذا بقية الأحكام الشرعية بلا استثناء، لا يخرج منها أي حكم، سواء أكان من أحكام الاعتقاد أو العبادات أو غير ذلك، والمصلحة المقصودة في التشريع الإسلامي لا تقتصر على مصالح الدنيا، وإنما تتجاوزها إلى المصلحة في الآخرة للظفر بالسعادة الدائمة[٣].

ولرفع الحرج عن العباد جاءت الشريعة الإسلامية بإسقاط بعض الواجبات عند الخطر أو تعرض الصحة للسوء، وهو ما يعرف بالقواعد الاستثنائية التي شرعت للتخفيف عن الناس، وقد شملت هذه الرخص جميع النظم الإسلامية العقدية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

فمثلاً في الجانب العقدي: أباح الإسلام للمكلف النطق بكلمة الكفر عند الإكراه أو القتل ونحو هذه الأمور، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٤].

قال ابن كثير: هذه الآية استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما ناله من الأذي أو الضرب، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله»[٥].

كذلك إباحة أكل الميتة للمضطر عند التعرض للهلاك جوعًا، وكذلك في رمضان للمريض والمسافر ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[٦].

وهكذا في كل الأمور التي تسبب حرجًا، وتكون فوق الطاقة البشرية المعتادة،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠ .

(٢) سورة المائدة: الآية ٩١ .

(٣) انظر أصول الدعوة/ ٥٦ .

(٤) سورة النحل: الآية ١٠٦ .

(٥) ابن كثير ج٢ / ٥٨٧، مفاتيح الغيب ج٩ / ٦٤٤ط دار الغد العربي ١٩٩٣ .

(٦) سورة البقرة: ١٨٤ .

وفوق الأصول التي تنظمها الشريعة الإسلامية؛ وذلك لأن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية حاجية أو تحسينية، فالضروريات هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها، وهي: الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وإذا فاتت؛ عم الفساد وعمت الفوضى، واختل نظام الحياة، وهي تتعلق بالغرائز التي لا يجوز تعديلها؛ ولذلك فأحكامها تتسم بالثبات ولا تقبل التطور.

فشرع العبادات لإقامة الدين وتحقيقه، وشرع الجهاد لحفظه وعقوبة المرتد، وشرع النكاح لإيجاد النفس، وشرع القصاص لحفظها، ولحفظ العقل شرع تحريم الخمر والمسكرات وحدودها، وشرع الزواج لإيجاد النسل، ولحفظ عقوبة الزنا، والقذف وحرمة إجهاض المرأة الحامل والمال شرع لتحصيله وأنواع المعاملات من بيع وشراء، ولحفظه شرع حرمة أكل أموال الناس بالباطل وتحريم الربا والسرقة.

وبالنسبة للأمور الحاجية، فهي الأمور التي تطلب لاستكمال الرفاهية والتحسين، مثل: محاسن العادات ومكارم الأخلاق؛ وإن فاتت هذه الأمور؛ خرجت بحياة الناس عن المنهج القويم الذي تقضي به الفطرة السليمة؛ ولهذه الأمور شرعت الطهارة للبدن والثوب، وستر العورة، وأخذ الزينة عند كل مسجد، والنهي عن قتل الأطفال والنساء في الحرب[(١)].

ومن هنا، فإن الشريعة الإسلامية بمراعاتها مصالح الناس وحاجتهم ورفع الحرج عنهم، قد فتحت الطريق السليم لبناء الحضارة الإنسانية المعتدلة التي تحافظ على مقومات الإنسان، وتمده بالقيم الروحية، تلك الأمور التي تحافظ على نماء الحضارة وتميزها لصالح البشرية كافة، ونأَتْ بها عن المنزلق الخطير التي تردت فيه الحضارة الغربية التي أصبحت عدوًا لدودًا للإنسان وقيمه، كما سنرى في الفصل الثالث إن شاء الله.

الأساس السادس: المساواة الإنسانية:

المساواة الإنسانية مبدأ أساسي من المبادئ التي قامت عليها النظم الإسلامية، وهو يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمبدأ العدالة؛ ذلك لأن العلاقات الإنسانية في الإسلام قائمة على العدالة واعتبار الناس جميعًا سواء، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم،

---

(١) مصنفة النظم الإسلامية/ مصطفى كمال وصفي ص ٥٤، ٥٥، مرجع سابق .

وكبير وصغير. ولا تفاضل بينهم في الأحساب والأنساب. بل إن كل أفراد الجنس البشري من نفس واحدة وأصل واحد. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[١].

ومن لوازم وحدة الأصل والنسب بين البشر: أن يتصلوا برحم واحدة ووشيجة واحدة. وجاءت آية أخرى تبين أصل الخلقة وميزان التفاضل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢]، وهذه الوحدة في الأصل أدعى للتعاون والتعارف، وإن اختلاف الألسنة والألوان والطباع والأخلاق والمواهب والاستعدادات تنوع لا يقتضي النزاع، بل يقتضي التعاون للنهوض بتكاليف وحاجات المجتمع الإنساني، وليس لهذه الأشياء حساب في ميزان الله، إنما الميزان هو التقوى[٣].

أعلن الإسلام هذه المبادئ الإنسانية في ظل المجتمعات التي لم تكن تعرف هذه المبادئ، بل كانت قائمة على التفرقة العنصرية «فقد كان اليهود والنصارى يرفعون أنفسهم فوق البشر ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه» وكان الرومان يزعمون أنهم سادة العالم وحكامه، والآخرون ما هم إلا برابرة وخدم لهم، وبعض المجتمعات يعتقد أن الدماء التي تجرى في عروقهم ليست من دماء العامة إنما هو الدم الأزرق الملوكي النبيل، والبراهمة يعتقدون أن الله خلقهم من أشرف جنس فيه، وخلق المنبوذين من أدنى أجزائه، وشتان ما بين الرأس والقدم. وعلى هذا النحو كان التفاضل والامتياز بين الأقوام والشعوب والمال[٤].

وظلت الشعوب على تلك الموازين حتى جاء الإسلام بتلك المبادئ الإنسانية التي تقرر المساواة بين البشر مهما كانوا تكريمًا للإنسان بما هو إنسان. قال رسول الله

---

(١) سورة النساء: الآية ١ .

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣ .

(٣) انظر: ظلال القرآن ج٦ / ٣٣٤٨ .

(٤) انظر في ذلك: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه/ محمد يوسف ص٥٩، والعدالة الاجتماعية/ سيد قطب ص ٤٤، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٥٨، ٦٠، الإسلام وأثره في الحضارة/ الندوي ص ٣٤ - ٣٨، روح الدين الإسلامي/ عفيف طباره ص ٢٩٦، ٢٩٧ .

ﷺ: **«الناس سواسية كأسنان المشط»**[(١)]، وقوله: **«لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»**[(٢)].

ومن هذا المنطلق جاءت المساواة الإنسانية كأساس من أسس النظم الإسلامية، تجد مظاهره في العبادات والمعاملات، وفي نظام الحكم والقضاء «لقد جاء الإسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير، وفي المحيا والممات، وفي الحقوق والواجبات، وأمام الله وأمام القانون، وفي الدنيا والآخرة، لا فضل إلا للعمل الصالح ولا كرامة إلا للتقوى»[(٣)].

ولقد قطع الإسلام مظان التفاوت والتفاضل في كل صوره، ويذكر الإنسان بأن محمدًا ﷺ بشر، كسائر البشر قال ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله»**[(٤)].

أما بالنسبة للمساواة بين الرجل والمرأة، فقد كفل الإسلام للمرأة المساواة التامة مع الرجل من حيث الحقوق الإنسانية والواجبات، فهي كالرجل سواء بسواء لم يفرق بينهما إلا للمحافظة على خصائص كل منهما ولحفظ توازن المجتمع الإنساني[(٥)].

---

(١) مسند الفردوس / الإمام الديلمي ج٤ / ٣٠٠، ٣٠١، ط دار الكتب العلمية .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ج٥ / ٤١١ من حديث أبي نضرة عن رجال من أصحاب النبي، ورواه البزار بنحوه، ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ الهيثمي ج٨ / ٨٤ .

(٣) العدالة الاجتماعية / سيد قطب ص ٤٥، مرجع سابق .

(٤) البخاري (ك) الأنبياء (ب) قول الله تعالى (واذكر في الكتاب مريم) عن عمر بن الخطاب فتح (ج٦ / ٤٧٨)، أحمد في المسند ج١/ ٢٣، والبيهقي في دلائل النبوة ج١ / ٢٩٧ .

(٥) أما تفضيل الرجل بضعف نصيب المرأة في الميراث، فإن الله عز وجل قدر التبعة التي يقوم بها الرجل في الحياة، فهو يتزوج المرأة يكلف إعالتها وأبناءها وتجهيزها قبل الزواج، كما أن عليه تبعة الديات والتعويضات، كل هذه التبعات يكلف بها الرجل . أما المرأة فهي مكفولة الرزق إن تزوجت وإن عنست أو ترملت بما ورثت من مال أو بكفالة قرابتها من الرجال، فالمسألة هنا مسألة تفاوت في التكاليف الملقاة على عاتق كل منهما . أما قوامة الرجل على المرأة فهي ليست تفضيلًا، وإنما هي أعباء وأولوية قيام بالواجب حسب الاستعداد، فهي تحتاج إلى تفكير طويل وجهاد شاق لا تستطيعه المرأة . وأما مسألة أن شهادة الرجل تعادل شهادة امرأتين، فالآية ذكرت العلة وقالت: «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى» فالمرأة بطبيعتها ينمو فيها جانب العاطفة والانفعال، فإذا نسيت أو جرفها الانفعال كانت الثانية مذكرة لها، فالأمر ليس تفضيل جنس على جنس (انظر: محاضرات في النظم الإسلامية / د . عمارة نجيب ص ١٢٠، والعدالة الاجتماعية سيد قطب) .

فالإسلام يهدف من التفرقة بين الرجل والمرأة في النفقة والحماية كحق للمرأة على الرجل، والقوامة والتعدد كحق للرجل على المرأة، يهدف من ذلك إلى المحافظة على خصائص الذكورة في الرجل والأنوثة في المرأة حتى لا يختل النظام في المجتمع فتصبح المرأة بممارسة أعمال الرجال رجلاً، ويصبح الرجل بممارسة أعمال النساء أنثى، فيحدث الشذوذ الجنسي من عدم الألفة بين الرجل والمرأة، فيكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء فتتعطل الحضارة.

ولقد كرم الإسلام الإنسانية جميعًا، والكرامة للجميع على سبيل المساواة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[١]، ولقد تعهدت كاتبة هندية هذه المساواة الإنسانية فقالت: «إن الدين الإسلامي كان الدين الأول الذي دعا إلى الديمقراطية، وعمل بمبادئها، فلا يرتفع صوت الآذان من مناداة مسجد إلا ويجتمع من يريد أن يعبد، فيجتمع في صفه خمس مرات، في اليوم، ويركعون أمام الله على أصوات التكبير، وتتجلى المساواة الإسلامية في أروع أشكالها»[٢].

والمساواة في الجانب السياسي مبدأ أساسي بين الحاكم والمحكوم، وبين أفراد المجتمع سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو أجانب. فأما عن المساواة بين الحاكم والمحكوم فقد وضع الإسلام قاعدتها بعيدًا عن التصورات القديمة للحاكم من أنه على صلة إلهية أو نسل الإله... وإنما أقامها الإسلام على اعتبار أن الحاكم مجرد فرد من أفراد المسلمين وثقت الأمة في كفايته لحراسة الدين وسياسة الدنيا، فبايعوه على أن يقوم برعاية مصالحها وفقًا لما أنزل الله، وله عليهم حق السمع والطاعة، وسلطانه مستمد من بيعتهم له وثقتهم فيه، فليس هناك سيطرة ولا تحكم من جانب الحاكم، فالكل متعاون للقيام بالأمانة، وتحقيق الغاية التي وجدت لها الأمة الإسلامية. وقد خاطب الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٣]، فهذه الآية تنفي أن يكون للرسول ﷺ سلطة ولا إجبار أحد على

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠ .

(٢) الإسلام وأثره في الحضارة / أبو الحسن الندوي ص ٤٤، ط دار المنارة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٣) سورة الغاشية: الآيتان ٢١، ٢٢ .

الإيمان؛ لأن هذا ليس مما كلف به ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(١)، وقد قال ﷺ لرجل أرعد حينما رآه، قال: «**هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**»(٢). فليس للحاكم أي تميز على الرعية في شؤونهم الدينية، كما هو قائم بالنسبة لسلطة البابا في الكنيسة الذي له صلاحية التشريع في المسائل المتصلة بالعقيدة، وليس في الإسلام مجمع كرادلة، أو مجمع مقدس، أو كهنوت للتوسط بين الخالق والمخلوق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٣).

كذلك في مجال الشؤون الدنيوية الحاكم فرد من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، فالرسول ﷺ بين هذا الأمر، فيخرج في مرضه الذي مات فيه وجلس على المنبر ويقول: «**يا أيها الناس من كنت جلدت له ظهرًا فهذا هو ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت منه مالًا فهذا هو مالي فليأخذ منه ولا يخش الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقًا أن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس**»(٤).

كذلك قرر الإسلام المساواة بين أفراد المجتمع وهو مبدأ من مبادئ الحكم، فقد حرص الإسلام على المساواة بين أفراد المجتمع وعدم التميز بينهم في الحقوق والواجبات. وأمر الحاكم أن يقيم دعائم حكمه على هذا المبدأ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾(٥).

وبهذا قضى الإسلام على أشكال التفرقة العنصرية التي تعاني منها معظم شعوب العالم، حتى لو كان هناك اختلاف في العقيدة فالمساواة مكفولة لأفراد المجتمع أيًا

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج ٣ عند تفسيره للآية، في ظلال القرآن ج ٦/ ٣٣٩٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه ج٢ / ١١٠١(ك) الأطعمة (ب) القديد عن عبدالله بن مسعود، والحاكم في المستدرك ج٢ / ٤٦٦، وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبي .

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٦ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير عن الفضل بن العباس - رضي الله عنه - ١٨ / ٢٨٠، مرجع سابق .

(٥) سورة النساء: الآية ١٣٤ .

كانوا مسلمين أو غير مسلمين، الكل يتمتع بكافة الحقوق المدنية والدينية، وليس أدل على ذلك من قول أبي يوسف: «وينبغي- يا أمير المؤمنين- أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك، والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقاتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم»[١]، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «**من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه**»[٢].

ومن مظاهر هذا المبدأ في الإسلام، التسوية بين الناس أمام القانون والقضاء، وفي إنزال العقوبة دون محاباة أو تفرقة. فقد قرر الإسلام التكافؤ بين الناس جميعًا في الدماء، ولم يجعل لدم أحد فضلاً عن دم أحد[٣]، لعموم الآيات والأخبار.

فالقصاص يجري بين الولاة والعمال وبين رعيتهم، فقد ثبت عن أبي بكر أنه قال لرجل شكا إليه عاملاً أنه قطع يده ظلمًا: لئن كنت صادقًا لأقيدنك منه. وقال عمر: إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي أقصه منه. فقال عمرو بن العاص: لو أن رجلاً أدب بعض رعيته وتقصه منه. قال: أي والذي نفسي بيده أقصه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه[٤]، وقد قال القرطبي: «أجمع العلماء على أن للسلطان أن يقتص من نفسه على أحد من الرعية إذ هو واحد منهم وإنما له مزية النظر لهم كالموصى والوكيل. وذلك لا يمنع القصاص وليس بينه وبين العامة فرق في أحكام الله عز وجل».

ويتشريع هذا المبدأ العام في الشريعة الإسلامية يتيح لأفراد الدولة الإسلامية أن ينتفع بكل ما لديه من إمكانيات وخبرات للمساهمة في بناء حياته وترقيتها في مختلف الميادين. وبتطبيقه يشيع في نفوس المواطنين داخل الدولة الإسلامية الأمن والرضا والاطمئنان على حقوقهم، ويجعلهم يحسون بضرورة بقاء دولتهم، فيحرصون على

---

(١) الخراج / القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ص ٧٥، ط دار المعرفة بيروت . بدون تاريخ.

(٢) رواه السيوطي في الجامع الكبير ج١ / ٨٠، وأيضًا في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ص ١٥١، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة/ محمود شلتوت ص ٣١٢ط دار الشروق ١٩٨٤ م.

(٤) مسند الفاروق/ الحافظ ابن كثير ج٢ / ٥٤٤ ط دار الوفاء ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.

تقدمها ورقيها، والمداومة على المحافظة على حضارتها، والدفاع عن مقوماتها، فإقرار المساواة بين الأفراد والمجتمعات يدفعهم إلى التعاون والتحاب والعطاء وتقديم مصلحة الدولة على المصلحة الخاصة، وهذه الأمور كلها تساعد على المحافظة على الحضارة.

أما إذا خرق هذا المبدأ وطبق القانون على الضعيف دون القوي، وعلى الرعية دون الراعي، فإن النفوس تشعر بفقدان الأمن والخيبة، ومن هنا يضعف ولاء الأفراد للدولة ولا يهمهم بقاؤها أو هلاكها، ويشيع الظلم في المجتمع؛ لأن الحق للأقوى لا للحق.

وإذا صار رجال الدولة إلى هذا الحد يسودها الاضطراب والفساد وبالتالي تنهدم حضارته، ولكن الإسلام بنظمه - في السياسة والاقتصاد والاجتماع وقيام تلك النظم على هذه الأسس - ضمنت الوحدة وعدم الفصام بينهما، وهذان الأمران هما الضابطان الأساسيان من ضوابط الحضارة لاستمرارها في عطاء لا ينضب، ومن هنا تشتد الحاجة لمعرفة الدولة الإسلامية التي تحافظ على ذلك البناء الحضاري.

المطلب الثالث
الدولة ودورها في صنع الحضارة

الدولة ترعى الإنسان وتكفل تجمعه، وتسهل له معايشه، وتفسح له المجال لتحقيق التفاعل المستمر بين الإنسان والمجتمع والكون، محققة الأمن والعمل والسعادة والاستقرار والكفاية، وهذه أسس نهوض أي حضارة من الحضارات.

وللدولة في الإسلام مفهوم خاص يميزها عن الدولة السياسية في سبب[1] نشأتها ومبادئها وأهدافها وخصائص حكمها. فلا هي دولة ثيوقراطية يستمد فيها الحاكم

---

(١) لقد تنوعت الآراء والنظريات في سبب قيام الدولة، وأولى هذه النظريات:

أ- **النظرية الحتمية**: وهي التي تقوم على القول بوجود قوة جبرية عليا تصير البشر وتجبرهم على سن قوانينهم وفقًا لقوانينها، ويجب على المشرع الوضعي أن يتقيد بها ويترسمها، وأهم نظرياتهم: النظم الدينية السماوية فهذه النظرية تسند شرعية سلطة الدولة وقواعدها التشريعية إلى حتميات عليا، وتبرر السبب الذي يجعل الناس يخضعون للقوانين والنظم التي يصدرها الحكام بسبب أنهم ينفذون قوانين ونظم القوة العليا .مصنفة النظم الإسلامية ص ٩٠ .

ب- **النظرية الإدارية**: وهذه النظرية تجعل الدولة وليدة للإرادة البشرية حسبما تبدو في كل مكان وزمان،=

سلطانه من الله، وأوامره لا تراجع بحكم أنها إلهية، وما ترتب على ذلك من الاستبداد. ولا هي دولة ديمقراطية تعطي الحرية لأفراد الشعب أو ممثليه في التشريع والتقنين والسيادة المطلقة.

ولكن الدولة في الإسلام نشأت بموجب الإيمان بالله عز وجل، فهي نشأت بعقد بين الفرد وربه، وليست بعقد اجتماعي بين الأفراد، «فالإنسان بدخوله الإسلام وإيمانه بالله عز وجل قد ارتبط بعقد له شروط وموجبات، ومواصفات، وله بدل تكفل الله به الدنيا والآخرة، ومن شروط هذا العقد وموجباته: أن يأتي الله مؤمنًا من أعماقه، معترفًا بألوهيته وحاكميته، خاضعًا لكل أمر أو نهي يصدر عنه، وبدل هذا العقد الذي تعهده به الله سبحانه وتعالى أن يمنح هذا الإنسان المستسلم لمشيئته منهج حياة يضيء له الطريق، ويوصله بطمأنينة وهناء إلى الآخرة، وليس بين الفرد والدولة عقد مباشر، وإنما العقد بين الله والفرد، والدولة شخص ثالث»[١].

فأساس الدولة في الإسلام أساس ضروري أوجبه الإيمان بالله وشريعته التي جعلها نظامًا للحياة، فهي خطاب الله تعالى المالك المتصرف في العباد، وهذا الأساس يجعلها ملزمة للناس ويصبغ الشرعية على ما تخاطب به، والمؤمنون لا يستطيعون تحقيق الشرعية على الوجه الأكمل إلا من خلال الدولة، ومن هنا تحتل الدولة دور الوسيط بين الله وبين الناس، ومن أجل ذلك كانت الدولة لله وللناس، ومن هنا تغدو الدولة في الإسلام ضرورة لا مفر منها ولا تستقيم الحياة بدونها.

«وإرادة البشر حرة بشرط الالتزام بالشريعة الإسلامية، مثل الالتزام بنظام الوظيفة العامة بالتعيين، فإن من شروط صحته: أن يتقدم الفرد بطلب للتعيين، فإن صدر

= وهذه النظرية تقول بالعقد الاجتماعي، وهذه نظرية قال بها «روسول» ومفادها: أن الحاكم يتولى سلطته من الأمة نائبا عنها نتيجة لتعاقد حر بينهما، وانبنى على هذه النظرية إسناد السلطة التشريعية إلى ممثلين منتخبين عن الشعب، وإعطاء هذه السلطة حق إصدار القوانين. والفرق بين النظريتين أن الأولى تقول: إن الحتميات هي التي تنشئ النظم ومهمة المشرع الوضعي تنفيذها فقط، أما الثانية فتقول إن إرادة الإنسان هي المنشئة للنظم، وأن المشرع الوضعي له حق ذاتي في التشريع، وهذا ما يعرف بالنظم الليبرالية الحرة. مصنفة / ٩١.

ج- **النظرية الواقعية**: وأساسها قهر الإنسان للإنسان، من ملك كان له الحق في القهر والغلبة، ومن كتب عليه الغلبة عليه الطاعة؛ لأنه لا يملك غيرها. والدولة إذا قامت فهي حرة في اتحاد النظام الذي تراه انظر في ذلك: مصنفة النظم الإسلامية ص ٩٠ - ٩٤، ونظرية الدولة / د. مجدي النهري من ص٣٨ - ٥٩، ط المكتبة العالمية ١٩٩١م.

(١) الطريق إلى حكم إسلامي / د. محمد علي ضناوي ص ٥٢، ط مؤسسة الرسالة ط/ الأولى.

القرار بالتعيين التزم الفرد بالنظام الوظيفي التزامًا كاملًا، فذلك الالتزام بأحكام الإسلام يتطلب أولًا الرضا بالإسلام حيث لا إكراه في الدين، فمن أسلم التزم أحكامه حتى أنه يقتل إذا ارتد عن دينه»[١].

ولقد اتضحت هذه الإرادة الحرة في مواضع كثيرة من السيرة النبوية عند تأسيس الدولة الإسلامية، وفي البيعة على إقامة الدولة نجد ذلك في بيعة العقبة الأولى: بايع النبي ﷺ أهل المدينة من الأوس والخزرج، وهي بيعة تتضمن العناصر الأساسية اللازمة لإقامة الحكم، وميثاق اجتماعي للنظام المزمع إقامته.

فعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: بايعنا رسول الله ﷺ «على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا، وأرجلنا ولا نعصيه في معروف»[٢].

فهذه البيعة تضع الأصول الأساسية اللازمة لإقامة الدولة الإسلامية، فهذا الحديث ينص على الأساس الفكري للدولة الإسلامية، وهو الإيمان بالله وتوحيده، ومن هذا الإيمان تستمد الدولة الإسلامية نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، كما تضمنت هذه البيعة الحقوق الأساسية للإنسان وهي: عصمة المال والعرض، والدم، بقوله ﷺ: «لا تشركوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم»، وعلى مدار هذه الأمور الثلاثة تقوم حقوق الإنسان، كما تضمنت عنصر الأمن والثقة في قوله ﷺ: **«ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم»**. **كما** تضمنت عنصر السلطة والطاعة اللازمة لسير النظام الإسلامي بقوله ﷺ: **«ولا تعصوا في معروف»**[٣].

ومن هذا المنطق تتميز الدولة الإسلامية في مبادئها وخصائصها وأهدافها، وهي بذلك تأتي ضمن مفاهيم أصلية ترعى الإنسان وتكفل تجمعه وتسهل له معايشه، وتفسح المجال لتحقيق التفاعل المستمر بين الإنسان والبيئة والأكوان لتحقيق الحضارة المثلى.

---

(١) انظر: مصنفة النظم الإسلامية /د. مصطفى كمال وصفي ص ٩٨، ٩٩ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في (ك) مناقب الأنصار (ب) وفود الأنصار إلى النبي بمكة، ج ٧ /١٢٩، ومسلم ج٣ / ١٣٣٣

(٣) انظر: مصنفة النظم الإسلامية ص ١٠٠، المنهج الحركي للسيرة النبوية /د. محمد منير الغضبان ج ١ / ١٥٨، ط مكتبة المنار، ط الرابعة ١٩٨٩م.

رسالة الدولة الإسلامية:

إن المتأمل في نظم الشريعة الإسلامية يجد أن كل نظام من تلك الأنظمة يحمل هدفًا ويؤدي رسالة. والدولة في الإسلام - بكل ما تتمتع به من حقوق وسلطة - لم تكن إلا لتحقيق غاية، وأداء رسالة، ومجمل رسالة الدولة الإسلامية تتضح من آيات القرآن وأقوال الرسول ﷺ وأقوال الفقهاء:

مما جاء في (ك) القرآن لبيان رسالة الدولة الإسلامية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[١].

فهذه الآية تبين صفات يمكن الله لهم بها في الأرض، وقد جاء في تفسير ابن كثير: أن الصباح ابن سوارة الكندي قال: سمعت عمر بن عبدالعزيز يخطب وهو يقول: (الذين إن مكناهم في الأرض)... الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي ولكنها على الوالي والمولى عليه[٢]، ومن السنة قوله ﷺ في الكتاب الذي أرسله لعمرو بن حزم وجاء فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ **عهد من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر بالخير ويأمر به، ويعلم الناس القرآن، ويفقههم فيه، وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم، والذي عليهم. ويلين للناس في الحق، ويشتد عيهم في الظلم، ويبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويستأنف الناس حتى يفقهوا في الدين**»[٣].

فهذا الكتاب يبين دور الوالي ولي أمور المسلمين. وهو ما أكده سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في كتابه إلى أهل البصرة: «أما بعد، فإني قد بعثت أبا موسى أميرًا عليكم، ليأخذ لضعيفكم من قويكم، وليقاتل عدوكم، وليدفع عن ذمتكم، وليحض لكم فيكم، ثم ليقسم بينكم، ولينقي لكم طرقكم»[٤].

وقال الفقهاء: «الإقامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج٣ / ٢٢٦ . مرجع سابق .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢١٨/٤، ٢١٩، وتاريخ الطبري ج٣ / ١٢٨، ١٢٩ .

(٤) انظر: تاريخ الطبري ج ٤/ ٧١ .

الدنيا»[١] فهذه النصوص تظهر بجلاء ووضوح رسالة الدولة الإسلامية وغايتها.

ومن خلال هذه النصوص يمكن بيان أهداف الدولة الإسلامية وهي كما يلي:

الهدف الأول: حراسة الدين وتطبيق أحكامه:

لقد جعل الإسلام وظيفة الدولة الإسلامية حفظ الدين وتنفيذه، وحفظ الدين يعني إبقاء حقائقه ومعانيه ونشرها بين الناس كما بلغها رسول الله ﷺ وسار عليها صحابته الكرام ونقلوها إلى الناس من بعده، حيث إن «القرآن الكريم افترض في الحكومة الإسلامية أن تقضي على الشرك، وتمكن للإسلام وتقيم الصلاة وتأخذ الزكاة، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتسوس الناس حدود ما أنزل الله»[٢]، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[٣] والآية السابقة أوردتها آية الحج.

وعلى ذلك لا يجوز تبديل أو تحريف في هذه الحقائق والمعاني تحت أي مسمى. وواجب الإمام ونائبه: إقامة الدين بموجب الآية السابقة، وقد قال الفقهاء في ذلك: إن للإمام حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، فإن زاغ ذو شبهة عنه بين له الحجة، وأوضح له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من الخلل، والأمة ممنوعة من الزلل[٤]، كذلك من لوازم حفظ الدين «تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا تظهر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرمًا، ويسفكون فيها لمسلم أو مجاهد دمًا»[٥].

والمظهر الثاني لحراسة الدين تنفيذه وتطبيق أحكامه في سائر معاملات الناس وعلاقاتهم فيما بينهم، وفي علاقاتهم مع الدولة وفي علاقة الدولة مع غيرها من الدول، كما يتضمن حمل الناس على الوقوف عند حدود الله وطاعة أوامره ومعاقبة المخالفين، وإزالة المنكرات من المجتمع، والهدف من كل ذلك: جعل الشريعة الإسلامية نظامًا

---

(١) الأحكام السلطانية/ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ص ٣ط مكتبة السعادة ١٩٠٩م.

(٢) انظر: المال والحكم في الإسلام/ عبدالقادر عودة ص ٩٥، ٩٦، ط المنار الإسلامي.

(٣) سورة النور: الآية ٥٥.

(٤) الأحكام السلطانية/ لأبو يعلى ص ٢٧.

(٥) الأحكام السلطانية / الماوردي/ ١٣. مرجع سابق.

قانونيًا متكاملًا يهيمن على شؤون الحياة داخل المجتمع الإسلامي وخارجه.

الهدف الثاني: الحرص على نشر العلم والتربية:

العلم يمثل مقومًا مهمًا من مقومات البناء الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات؛ لما يترتب على مفاهيمه وتطبيقاته من آثار واضحة على سيرة الإنسان الحضارية. والإسلام جعل للعلم والعلماء مكانة عظيمة حيث قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[(١)] ولذلك دعا إلى استخدام العقل والانتفاع به، وإلى التفكير وربط الأسباب بالمسببات والنتائج بالمقدمات. والناظر المتأمل في القرآن يجد أن القرآن الكريم حث على طلب العلم في أول ما نزل منه، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: «من كرم الله تعال:ى أن علم الإنسان ما لم يعلم/ فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان»[(٣)].

وهنا تبرز حقيقة العلم وتعلمه مصدر تعليم الله للإنسان بالقلم «لأن القلم كان ولا يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرًا في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضع الذي نلمسه ونعرفه في حياة البشرية، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يعلم قيمة العلم فأشار إليه هذه الإشارة في أول لحظة من الرسالة الأخيرة وفي أول سورة من سور القرآن، هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبًا بالقلم، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن، لولا أنه الوحي والرسالة. ثم تبرز الآيات مصدر العلم وهو الله، منه يستمد الإنسان كل ما علم وكل ما يعلم، وكل ما يفتح من أسرار الوجود والحياة»[(٤)].

وبهذه الآية وغيرها أكد القرآن الكريم في بداية التنزيل على أهمية هذه الأدوات: القلم والكتاب، والقراءة بالنسبة للشخصية المسلمة، وهو قسم له دلالة وأهمية في

---

(١) سورة المجادلة: آية ١١ .

(٢) سورة العلق: الآيات ١-٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٤/ ٥٢٨ .

(٤) في ظلال القرآن ج٦/ ٣٩٣٩ .

اكتساب المعارف والعلوم لما يؤدي إليه من تأسيس القاعدة الحضارية على خير ما يمكنها من إقامة حضارة قوية تعتمد القلم والكتابة كوسائل للمعرفة الحضارية.

ولهذه الأهمية الحضارية للعلم سعى الإسلام إلى نشر العلم، والقضاء على الأمية التي انتشرت بين العرب الذين كانوا يعرفون بين الأمم بالأميين، «فقد جاء الإسلام، وليس في الحجاز غير سبعة عشر رجلاً تعلموا الكتابة من الحيرة، وليس في اليمن من يقرأ ويكتب. وكان النبي ﷺ بأمر من الله قد عمل على نشر العلم، ومحو الأمية بكل سبيل. فعندما وقع أسرى من المشركين في بدر في أيدي المسلمين جعل الرسول ﷺ فداء الواحد من الأسرى أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة»(١).

وقد باشر الرسول ﷺ بنفسه مهام نشر العلم باعتبار هذا الأمر من مهام الدولة الإسلامية حتى في تعليم النساء «وذلك بما فعله مع السيدة حفصة - رضي الله عنها - وتعليمها على يد أم الشفعاء العدوية، فقد طلبها لتعليم السيدة حفصة تحسين الخط وتزيينه»(٢).

ونشر العلم أهم هدف من أهداف الأمة الإسلامية؛ ذلك لأن الله تعالى جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وجهها إلى الدعامة الأساسية لنهضة الأمم وريادتها، وهي العلم بكل آفاقه.

ولقد قام الصحابة - رضوان الله عليهم - بهذه المهمة خير قيام، فرحلوا إلى الآفاق في سبيل تبليغ الرسالة، ونشر العلم، واهتم الخلفاء الراشدون بإرسال العلماء إلى الأمصار لنشر العلم.

فقد جاء في كتاب سيدنا عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة: «أما بعد، فإني بعثت إليكم عمارًا أميرًا، وعبدالله معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب النبي؛ فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما»(٣).

ولقد أصدر سيدنا عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - قانون التفرغ للبحث

---

(١) الطبقات الكبرى/ محمد بن سعد بن منيع البصري ج٢/ ١١٥ ط دار صادر بيروت بدون تاريخ.

(٢) فتوح البلدان/ أبو الحسن البلازري ص ٤٥٤، ط بيروت ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م .

(٣) حياة الصحابة/ محمد يوسف الكاندهلوي ج٣/ ١٧٩، ط دار التراث العربي .

العلمي، وقرر كفالة الدولة لكل العلماء والمفكرين والباحثين، فكتب إلى جميع الولاة: «انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المساجد عن طلب الدنيا، فأعطوا كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين» كما أمر بإعانة طلبة العلم، فكتب منشورًا دوريًّا: «أن أجروا على طلبة العلم الرزق، وفرغوهم للطلب، وقد أرسل يزيد بن أبي مالك، وطارق بن محمد إلى البادية ليعلما الناس العلم»(١).

الهدف الثالث: رعاية مصلحة الأمة ونشر الألفة والمحبة:

تقوم الدولة من أجل تحقيق الصالح العام للأفراد وتهيئة الجو لتفاعل أفراد الأمة وممارسة تعاليم الإسلام وتسيير أمور الدنيا؛ ذلك لأن الأمة لم تعط رئيس الدولة ومن حوله من أهل الحكم ما ينعمون به من حقوق إلا مقابل ما يقدم من جهد في سبيل رعاية مصلحة الأمة والسهر على ما فيه سعادتها ورخاؤها، يقول صاحب العقد الفريد: «فحق على من ولاه الله أزمة حكمه، وملكه أمور خلقه، واختصه بإحسانه، ومكن له في سلطانه، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته، والاعتناء بمرافقة أهل طاعته، بحيث وصفه الله من الكرامة وأجرى عليه من أسباب السعادة»(٢).

وتشمل المصلحة كل ما فيه خير المجتمع ورقيه حاضرًا ومستقبلاً؛ لأن كل ذلك مصالح أمر الشرع رعايتها والعمل على تحقيقها. وتتمثل في جانب منها إشاعة الأمن والاستقرار حتى يأمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم حتى يستطيعوا التنقل في دار الإسلام آمنين مطمئنين، وهذا يتحقق بتطبيق القانون الإسلامي على العابثين بالأمن بشرط العدالة المطلقة؛ فإذا طبقت الأحكام الشرعية؛ أمن الناس، وخاف المجرم، وتحقق الاطمئنان، وتهيأ الجو لصنع الحضارة، وقد أشار الفقهاء إلى ذلك فقالوا: «وعلى الخليفة: إقامة الحدود، لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق العباد من الإتلاف والاستهلاك»(٣).

---

(١) الإسلام والحضارة العربية/ محمد كرد علي ج١/ ١٨٤، ط دار التأليف .

(٢) العقد الفريد/ لابن عبدربه/ ج١/ ٧، ط دار الكتاب العربي ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥م.

(٣) الأحكام السلطانية/ الماوردي ص ١٣، مرجع سابق .

ومن رعاية مصلحة الأمة: قيام الدولة بتهيئة ما يحتاجه الناس من مختلف الصناعات والحرف والعلوم، وقد قال الفقهاء بذلك، يقول ابن عابدين: «ومن فروض الكفاية الصنائع المحتاج إليها»[(١)].

حيث يترتب على اعتبار تحصيل الصناعات والحرف المحتاج إليها من فروض الكفايات لحوق الإثم بالأمة والحكام إذا قصروا في تحصيلها، بل ذهب الفقهاء إلى أن من حق الحاكم: إجبار أصحاب الصناعات على القيام بها إذا امتنعوا عنها، يقول ابن القيم: «إن لولي الأمر إجبار أصحاب الحرف والصناعات على العمل بأجر المثل إذا امتنعوا عن القيام بها، وكان الناس في حاجة إلى صناعتهم»[(٢)].

كذلك أشار الفقهاء إلى أن من واجب الخليفة: استثمار خيرات البلاد بما يحقق للرعية الرفاه الاقتصادي والعيش الكريم، فقد قال أبو يوسف: «إن على الخليفة: أن يأمر بحفر الأنهار وإجراء الماء فيها، وتحميل بيت المال نفقات ذلك، ونص كلامه: «فإذا اجتمعوا (أهل الخبرة) على أن ذلك (أي: حفر الآبار) صلاح وزيادة في الخراج، أمرت بحفر تلك الأنهار، وجعلت النفقة من بيت المال، ولا تحمل النفقة على أهل البلد. وكل ما فيه مصلحة لأهل الخراج في أرضهم وأنهارهم وطلبوا صلاح ذلك لهم، أجيبوا إليه إذا لم يكن فيه ضرر على غيرهم»[(٣)].

وقياس على هذا: أن جميع الأعمال اللازمة لاستغلال ثروات البلاد وخيراتها على وجه يعود بالنفع على الجميع، ويجب على الدولة الإسلامية القيام بها حتى تنهض الأمة بوظيفتها الحضارية.

ولقد ضرب الخلفاء الراشدون المثل الأعلى في رعاية مصلحة الأمة والسهر عليها. فقد كان أول كتاب أرسله سيدنا عثمان إلى ولاته يقول فيه: «أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم ليكونوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن

---

(١) رد المحتار على الدر المختار/ محمد أمين الشهير بابن عابدين ج٣/ ٢٣، ط دار الفكر بيروت ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م .

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ابن قيم الجوزية ص ٣٢٨، المدني بدون تاريخ.

(٣) الخراج ص ١٠٩ مرجع سابق .

يكونوا جباة ولا يكونوا رعاة، فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء»(١).

فرعاية مصلحة الأمة وتوفير حاجات الناس دون تفرقة من شأنها أن توحد الألفة والمحبة بين الناس، ومن هنا يوجد التعاون الإنساني على أسس سليمة، وهذه الأمور من شأنها أن تنشئ حضارة عالمية لخير الإنسان جميعًا.

الهدف الرابع: نشر الدعوة الإسلامية:

الأمة الإسلامية ذات رسالة عالمية، وهذه الرسالة هي نشر الدعوة الإسلامية، وهذه الرسالة جاءت كتشريف للأمة الإسلامية، وليس أدل على ذلك من النصوص التي تخاطب الأمة الإسلامية في ذلك، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢).

قال صاحب محاسن التأويل: «جعلناكم أمة خيارًا لتكونوا شهداء على الناس. أي: رقباء عليهم، بدعائهم إلى الحق، وإرشادهم إلى الهدى، وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضلال كما كان الرسول شهيدًا عليكم بما بلغكم به.

فمعنى الآية: شهداء لمحمد ﷺ على الأمم؛ أي: شهيد على حقيقة رسالته، وذلك بالدعوة إليها، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي هو قطب الدعوة وروحها»(٣).

وإذا كان الله عز وجل أوجب على رسوله القيام بالدعوة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾(٤)، فإن هذه المهمة واجبة على العلماء والحكام بأمر القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾(٥).

---

(١) تاريخ الطبري ج٥/ ٤٤، مرجع سابق.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٣) محاسن التأويل/ محمد جمال الدين القاسمي ج٢ / ٢٨٢، ٢٨٣، ط دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية «كان ينطلق حي من العرب عصابة، فيأتون النبي فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون للنبي: ما تأمرنا أن نفعله، وأخبرنا بما تأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم. قال: فيأمرهم بطاعة الله ورسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، فإذا رجعوا إلى قومهم يدعونهم للإسلام»[١].

وقال الزمخشري: «ليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في النفقة، وإنذار قومهم وإرشادهم، والنصيحة لهم»[٢].

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الصفة التي فضلت بها الأمة الإسلامية على الأمم، فإن من واجب الدولة الإسلامية إرسال العلماء لأداء هذه الرسالة، وقد بين الرسول ﷺ ذلك بأفعاله. ما روى أن الرسول ﷺ بعث معاذا وأبا موسى - رضي الله عنهما - إلى اليمن وأمرهما أن يعلما الناس القرآن[٣]، وقد فعل ذلك الخلفاء الراشدون، فقد قال عمر لأحد ولاته: «ألا وإني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم أمور دينكم وسننكم، فمن فعل به شيء غير ذلك فليرفعه إليّ، فو الذي نفسي بيده لأقصه»[٤].

فإرسال الرسول ﷺ وصحابته الرسل لنشر الدعوة يدلنا على دور الدولة الإسلامية وسلطانها في هذا الشأن. وقد خاطب الله أفراد الأمة على أن يخصصوا مجموعة من أفراد الأمة للقيام بهذه المهمة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥].

يقول ابن كثير في معنى هذه الآية: «أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا

---

(١) الطبري ج١١ / ٥٠، وتفسير ابن كثير ج٢ / ٤٠١ .

(٢) الكشاف ج٢ / ٢٢١ ط دار المعرفة بيروت، ط دار الكتاب الولجا ١٣٨٧هـ - ١٩٧٧م.

(٣) حلية الأولياء / أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ج١ / ٢٥٦ .

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٤ .

الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من أفراد الأمة»[١].

وقد جعل الفقهاء هذا الأمر من اختصاص رئيس الدولة، فقد قال الإمام الماوردي: «في الأمور التي تلزم سلطان الأمة: حفظ الدين من التبديل فيه، والحث على العمل به من غير إهمال له»[٢].

فهذه وظيفة الدولة ورسالتها في الإسلام، وهي لم تقم أصلاً إلا لحراسة الدين وسياسة الدنيا على ضوء مصلحة الأمة التي تقوم على أساس شريعة الله، بغية الوصول بالأمة إلى خير الدنيا والآخرة.

وهذه الأهداف كلها لا قيام لها إلا في ظل دولة إسلامية؛ لأن الحياة لا تستقيم إلا بمثل هذه الأمور التي تمد الناس بأسباب الحياة، هذه الأسباب التي يتفاعل معها الإنسان لبناء الحضارة، ومن هنا تصبح الدولة الإسلامية ضرورة كبرى لا بد منها لقيام الحضارة الإسلامية. هذه الدولة بناها المسلمون على مبادئ الإسلام، فحافظوا على البناء الحضاري للعالم عبر القرون الماضية. والحديث الآن عن المبادئ التي تقوم عليها الدولة الإسلامية:



(١) تفسير ابن كثير ج١/ ٣٩٠ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٣، مرجع سابق .

المبادئ التي تقوم عليها الدولة الإسلامية

تقوم الدولة الإسلامية على المبادئ التي تقوم عليها النظم الإسلامية، والتي ذكرت في المطلب الثاني من هذا البحث، ونزيد هنا مبدأ واحدًا؛ وهو الشورى.

الشورى:

مبدأ الشورى من أهم مقومات الدولة الإسلامية أو نظام الحكم في الإسلام، بل وفي الحياة الإسلامية كلها، جاء النص عليه في القرآن الكريم، وجاءت به السنة النبوية وأعمال الخلفاء الراشدين، وأجمع عليها الفقهاء.

ففي القرآن الكريم وردت كلمة الشورى في ثلاثة مواطن:

الموطن الأول: في سورة البقرة، وهو في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ﴾[1].

الموطن الثاني: في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[2].

الموطن الثالث: في سورة الشورى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3].

وبالنظر في الترتيب التاريخي لنزول هذه الآيات يجد الباحث أن آيتا سورة الشورى أسبق في النزول من آيتي البقرة وآل عمران، فهي سورة مكية، وآيات البقرة وآل عمران مدنية. وفي ترتيب المصحف سر قرآني معجز في التربية الإسلامية؛ وذلك لأن سورة البقرة تحدثت عن الشورى في أمر يتعلق بالأسرة، وهي الأساس الأول في بناء المجتمع، وتخضع لزعامة الأب، وهو يحتل فيها مقام رئيس الدولة في

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٣ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩ .

(٣) سورة الشورى: الآية ٣٩ .

الأمة؛ فإذا صادفته مسألة فطام الرضيع- وهو واحد من رعيته- أرشد القرآن إلى الشورى مع الأم حتى يصلا معًا إلى حل موفق، وهذا الدرس ترسيخ لمعنى الشورى في عقل ونفس كل مسلم حتى تصير الشورى أمرًا أساسيًا في حياة المسلم.

وعظم الله هذا الأمر حتى يأمر به في أمر الطفل الرضيع، وهي مسألة تكاد تكون صغيرة، ولكنها كبيرة عند الله؛ لما لها من أثر عظيم في تنشئة الطفل المسلم.

وفي سورة آل عمران يقول الإمام الطبري في معنى الآية: «إنما أمر الله نبيه ﷺ بمشاورتهم فيه تعريفًا منه لأمته، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم فيتشاور فيما بينهم»[١].

وقال الإمام الرازي عن الحسن وسفيان بن عيينة: «إنما أمر بذلك ليقتدي به غيره في المشاورة، وتصير سنة في أمته»[٢].

وفي الآية الثالثة من الشورى يقول القاسمي في تفسيره: «معنى أمرهم شورى بينهم؛ أي: لا ينفردون بالأمر حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه وذلك من فرط تدبيرهم وتيقظهم وصدق تآخيهم»[٣].

وبهذه النصوص يقرر القرآن الكريم هذا المبدأ الكريم في نظام الحكم، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم الإسلام على أساس سواه.

وفي السنة النبوية جاءت وقائع تطبيقية للشورى في حياة النبي ﷺ وذلك حين خرج إلى قافلة قريش ونجاتها وكانت غزوة بدر بعدها،[٤] وكذلك في نزوله أدنى ماء في بدر[٥]، وفي مسألة الأسرى[٦]، وفي حصار الطائف الذي استمر خمسة عشر

---

(١) الطبري ج٤/ ٩٤، مرجع سابق.

(٢) مفاتيح الغيب ج٤ / ٥٣١، ط دار الغد العربي.

(٣) محاسن التأويل ج١٤ / ٣١٧، وابن كثير ج٤ / ٤٣٠.

(٤) القصة كاملة في سيرة ابن هشام ج٣ / ٣٣، ٣٤.

(٥) انظر: تاريخ الطبري ج٢ / ٤٤٠، وزاد المعاد ج٢ / ٢١٩.

(٦) السابق ج٢ / ٤٧٤، ٤٧٥.

يومًا ومشاورته نوفل بن معاوية الدِّيلي والاستمرار في الحصار[١]، وفي حادثة الإفك، واستشارة أصحابه في فراق أهله[٢].

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ قدوة في التزام مبدأ الشورى. ففي سيرة سيدنا أبي بكر- رضي الله عنه- توليته الخلافة كانت بالتشاور بين المسلمين في سقيفة بني ساعدة وفي حروب الردة، وفي جمع القرآن. وكذلك كان الخلفاء - رضي الله عنهم أجمعين - ومن خلال تلك الوقائع والأحداث في حياة النبي ﷺ والخلافة الراشدة، برزت القواعد التي يقوم عليها مبدأ الشورى في نظام الإسلام، ومن هذه القواعد.

١- إن الشورى من أهم الواجبات والفروض الإسلامية؛ وذلك لأن الله تعالى ذكرها في آية الشورى بين فرضين الزكاة والصلاة فقال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣] قال الإمام الجصاص: «قوله تعالى هذا يدل على جلالة موقع الشورى لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة، وتدل على أننا مأمورون بها»[٤].

وقال صاحب تفسير المنار: «إذا كان القرآن يرشدنا إلى المشاورة في أدنى أعمال تربية الولد، ولا يبيح لأحد والديه الاستبداد بذلك دون الآخر، فهل يبيح لرجل واحد أن يستبد في الأمة كلها»[٥].

بل لقد ذهب بعض العلماء الأجلاء إلى أن ترك الشورى موجب لعزل رئيس الدولة. فقد نقل القرطبي عن ابن عطية قوله: «الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين، فعزله واجب»[٦].

٢- إن استشارة المسلمين واجبة في جميع المسائل والمصالح، ولا تتقيد إلا بقيدين: أنها لا تكون فيما ورد فيه نص إلا في حدود التنفيذ والتنظيم فيما بينه النص القرآني أو السنة النبوية[٧].

---

(١) السابق ج٣ / ٨٤ .

(٢) البخاري ج٦ / ١٧٧ .

(٣) سورة الشوري: الآية ٣٩ .

(٤) أحكام القرآن ج٣ / ٣٨٦ .

(٥) تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار/ محمد رشيد رضا ج٢ / ٤١١ .

(٦) القرطبي ج٤ / ٢٤٩ مرجع سابق .

(٧) معالم الثقافة الإسلامية/ عبدالكريم عثمان ص ٨٤، والمال والحكم في الإسلام/ عبدالقادر عودة ص ٨٠، ٨١ .

قال ميمون بن مهران: «كان أبو بكر إذا ورد عليه أمر، نظر في كتاب الله؛ فإذا وجد فيه ما يقضي به، قضي به؛ وإذا لم يجد، نظر في سنة رسول الله؛ فإن وجد ما يقضي به، قضي به؛ وإذا أعياه ذلك، سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله قضى فيها بقضاء. فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا؛ فإن لم يجد سنة سنها رسول الله ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم؛ فإذا اجتمع رأيهم على شيء، قضي به. وكان عمر يفعل ذلك. فإذا أعياه أن يجد في كتاب الله وسنة رسوله، سأل: هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء؛ فإن كان لأبي بكر قضاء، قضى به؛ وإلا جمع الناس واستشارهم؛ فإذا اجتمع رأيهم على شيء، قضى به»[١].

كذلك لا يصح أن تنتهي الشورى إلى ما يخالف نصًا، أو ما يخرج على روح الشريعة الإسلامية وقواعدها العامة.

٣- إن الإسلام لم يضع أسلوبًا وشكلاً معينًا للشورى يجب على المسلمين اتباعه؛ «لأن الإسلام لم يتعرض لتفاصيل التشريعات الدنيوية الخاصة التي تتغير مع الزمان والمكان، إنما ترك هذه الأمور الشكلية لمطلق حرية الجماعة بما يحقق المصلحة في كل مكان وأي زمان»[٢].

٤- القاعدة الرابعة في أهل الشورى وصفاتهم، فقد جاء في صحيح البخاري قوله: «وكانت الأئمة بعد النبي يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها»[٣].

فأهل الشورى يكونون من أهل الاختيار وكبار أهل السلطة من أهل الحل والعقد، وأن يكونوا من أهل العلم والخير والفطنة، ومن أهل الأمانة، وأن يسلموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة والشحناء[٤].

وقال ابن حجر: «أما تقييده بالأمناء، فهي صفة موضحة؛ لأن غير المؤمن لا يستشار ولا يلتفت لقوله»[٥].

---

(١) الكشاف ج١ / ٤٧٤، ٤٧٥، انظر: فتح الباري ج١٣ / ٣٤٢ .

(٢) معالم الثقافة الإسلامية ص ٩٠ .

(٣) فتح الباري ج١٣ (ك) الاعتصام (ب) قول الله: وأمرهم شورى بينهم .

(٤) الأحكام السلطانية/ لأبي يعلى ص ٤٠ مرجع سابق .

(٥) انظر: فتح الباري ج١٣ / ٣٤١ .

٥- والقاعدة الخامسة في قرار الشورى: إذا اختلف أهل الشورى مع رئيس الدولة أو فيما بينهم ولم يجتمعوا على أمر أيأخذ الحاكم برأي الأغلبية، أم يأخذ لقوة منطقه وغلبة مصلحته؟

لقد وضع القرآن الكريم ضابطًا يرد إليه التنازع في أي أمر من الأمور إلى الله تعالى ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[١]. قال المفسرون: يجب رد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله[٢].

وقال ابن تيمية: «إذا وجد الحكم صريحًا في الكتاب والسنة؛ وجب اتباعه، ولا طاعة لأحد في مخالفته؛ وإن لم يوجد الحكم صريحًا، فأي الآراء أشبه بكتاب الله وسنة رسوله، عمل به»[٣].

ومبدأ الأغلبية والأكثرية في الرأي ليس مقياسًا ليكون الرأي مجالاً للأخذ به، وإنما المقياس في قبول الرأي ورفضه إنما يكون بمدى قربه من روح الشريعة وقواعدها العامة. والرأي الأخير في مثل هذا إنما يكون لرئيس الدولة؛ فإن شاء أخذ برأي الأغلبية، وإن شاء أخذ برأي الأقلية، وإن شاء أخذ برأيه هو على أن يكون ذلك كله مقيدًا بحدود الشريعة وروحها وقواعدها العامة، ومصلحة الأمة الإسلامية.

والسوابق التاريخية تؤكد ذلك مثل ما فعله الرسول ﷺ في صلح الحديبية حيث كان لعمر موقف ورأي يؤيده فيه المسلمون، ولكن رسول الله كان يرى غير ذلك، وبقي على رأيه في إمضاء الصلح. وكذلك: موقف أبي بكر في حرب المرتدين ومخالفته اتفاق الصحابة على قبول الصلاة منهم دون الزكاة، وكان يقول: والله، لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. وعمل برأيه دون رأي الصحابة، كل هذه الأدلة دليل على أن الآراء لا توزن بكثرة مؤيديها أو قلتهم.

فالأخذ برأي رئيس الدولة- وإن خالف رأي الأكثرية- ثابت بقول الله عز

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩ .

(٢) انظر: القرطبي ج٥/ ٢١٦، والطبري ج٥/ ٨٧، الجصاص ج٢/ ٢١٢ .

(٣) السياسة الشرعية ص ١٧٠، ط دار الأنصار .

وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[١].

قال قتادة: «أمر الله نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله لا على مشاورتهم»[٢].

ومن هذا العرض يتبين بوضوح: أن الشورى في نظام الحكم الإسلامي ذات أهمية في بناء الحضارة الإسلامية؛ ذلك لأن الحكمة من إقرار مبدأ الشورى في الشريعة الإسلامية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالغاية من قيام الدولة الإسلامية؛ وهي إيجاد السلطة المسؤلة عن تطبيق الشريعة الإسلامية، ومنع خروج أي فرد عليها. وهذه المهمة هي مهمة الحاكم بما له من سلطة الأمر والنهي.

والحاكم مهما أوتي من قوة وحكمة لا يستطيع تحقيق ذلك على الوجه المطلوب دون مشورة؛ لأن الشورى هي السبيل لمعرفة الرأي الصواب، كما أنها استفادة من خبرات الآخرين وتجاربهم، كما أن فيها عصمة لولي الأمر من الإقدام على أمور تضر الأمة، وتنفيذُ أمر الشورى، والنهوض بالأمة الإسلامية، لتأخذ مكانتها اللائقة بها بين الأمم- يحتاج إلى مجهود مشترك بين أفراد المجتمع والحاكم والمحكومين. هذا التعاون أشار إليه القرآن فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٣]، وهو أمر يشعر بمسؤولية كل فرد للنهوض بأعباء الأمة لتحقيق رسالتها، وهي أمانة ثقيلة تقع على كاهل رئيس الدولة والأفراد.

وهذا ما صرح به عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين خاطب من دعاهم للفصل بينه وبين من عارضه من الصحابة في قسمة الأراضي المفتوحة، فقد قال لهم: «إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم»[٤].

إن إدراك القيادة لمسؤوليتها يدفعها لتوسيع قاعدة الشورى، وهذا من شأنه أن يعين على تفتح الكفاءات وتدريبها، وتجنيب الأمة من الانزلاق في مهاوي الخطر، مما يعين على استمرار العطاء الفكري والمادي اللذين يساهمان في بناء الحضارة.

وانتقاء أهل الشورى حسبما قرره العلماء من شروط، واختيار الحاكم الصالح

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩ .

(٢) القرطبي ج٤/ ٢٥٧ .

(٣) سورة المائدة: الآية ٢ .

(٤) الخراج/ لأبي يوسف ص ٢٥ ومرجع سابق .

الذي يقدر عظيم المسؤولية.

وحين يوجد التجاوب وتدارك المسؤولية وتبعاتها بين القيادة والحاكم يمكن أن تترجم تطلعاتها إلى واقع ملموس يساهم في بناء الحضارة.

والإسلام اعتنى بتربية القيادة على المسؤولية وأنها أكثر الناس عبئًا، وقد عبر الرسول ﷺ عند ذلك في قوله لأبي ذر: **«إنها لأمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه منها»**(١).

وربي عليها أبو بكر فقال في أول خطاب لتوليته الخلافة: «وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فمنزلتي فيكم كولي مال اليتيم»(٢).

وقول عمر: «إني خشيت أن أسأل عن دآبة في أقصى العراق لِمَ لَمْ أعبِّد لها الطريق»(٣).

وهو قول يعبر عن المسؤولية الحضارية الملقاة على عنق الحاكم، وبهذا الفهم وأمثاله في جو الشورى وأدب الإسلام قامت الحضارة الإسلامية واتسعت أرضها.

ومن هذا الفهم للدولة ومبادئها وأهدافها، تميزت هذه الدولة بخصائص جعلتها محافظة على الحضارة الإسلامية ما دام المسلمون يتمسكون بتلك المبادئ والأهداف التي قامت عليها.

إن الدولة ورعاياها يخضعون لسلطان الله عز وجل وحكمه، وقد جاءت النصوص القرآنية تبين ذلك فما جاء في حق الإمام قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤) ومعنى الآية: أن الله يأمر رسوله أن يتبع ما أوحي إليه من ربه، ويصوغ حياته كلها على أساسه، ونفوس أصحابه كذلك(٥).

---

(١) انظر: مسلم بشرح النووي ج١٢ / ٢٠٩، ٢١٠ .

(٢) أخرجه المنذرى في الترغيب والترهيب ج١ / ٣٠٤ عن محمد بن عبدالرحمن بن عوف، ط بيروت.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان- باب طاعة أولي الأمر- فصل نصيحة الولاة ج٦ / ٣١ (ج) (٧٤١٥) بلفظ: لو ماتت نخلة على شاطئ الفرات، لخفت أن أسأل عنها. ط دار الكتب العلمية .

(٤) سورة الأنعام: الآية: ١٠٦ .

(٥) في ظلال القرآن ج٢ / ١١٦٨ .

ومما جاء في حق الأمة قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[١].

وهو توجيه الخطاب للأمة بأمرهم فيه باتباع ما أنزل الله، وهو الإسلام لله والاعتراف له بالربوبية وإفراده بالحاكمية، وتعني التغير الكامل لأفكار الجاهلية وقيمها، وربطها بالله عز وجل[٢].

فالله عز وجل يريد أن تكون حياة الأفراد داخل الدولة الإسلامية قائمة على الفضائل حتى يحيوا حياة فاضلة تسودها العدالة والمساواة والحب والتضامن وغير ذلك من المبادئ الإنسانية التي جاء بها الإسلام، تلك المبادئ التي تتوقف عليها المحافظة على العمل الحضاري بعيدًا عن اصطدام المصالح والشهوات الفردية التي أدت إلى تعويض بنيان الحضارة الغربية التي تخضع للهوى والشهوات كما سيذكر في حينه.

إن الشرط الوحيد لضمان معطيات الحضارة هو استقرار المجتمع والدولة على منهج الله عز وجل وعدم الانحراف عنه. والدولة هي قائدة الحضارة، وذلك أنها تقود الإنسان والمجتمع إلى رعاية منهج الله عز وجل، وفي ظل هذا المنهج يتوفر العدل والأمن والكفاية، وبتوفر هذه الأمور الثلاثة يأتي تفاعل الإنسان والمجتمع مع المفاهيم الإسلامية في الكون والحياة، ومن هنا تأتي البركات التي قال عنها الله في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣].

ومن يوم أن وقع الانحراف عن منهج الله في الأرض في الأمة الإسلامية؛ انتكست الأمة، وتدهورت الحضارة الإسلامية على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس: «إن الإطار السياسي السليم هو ضمان كل تقدم، وبدونه لا يمكن اضطراب مسيرة الحضارة، ولو أن المسلمين التزموا بالنظام السياسي المستقى من شريعتهم وسنة رسولهم؛ لما انتكست حضارتهم؛ ولا تدهور مجتمعهم قط»[٤].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣ .

(٢) في ظلال القرآن ج٣ / ١٢٥٣ بتصرف .

(٣) سورة الأعراف: ٥٨ .

(٤) الحضارة ص ١١، ط المجلس الوطني للثقافة والآداب / الكويت، عالم المعرفة رقم ١ .

المبحث الثاني
تصور الحضارة الإسلامية
للإنسان والكون والحياة

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التصور الإسلامي للإنسان.

المطلب الثاني: التصور الإسلامي للكون.

المطلب الثالث: التصور الإسلامي للحياة وغايتها.

لقد ذكرت في التمهيد لهذا الفصل عن أركان الحضارة، وقلت: إن أركان الحضارة هي: الإنسان، والطبيعة، والمجتمع والزمن أو الحياة.

ولا بد من دراسة مفهوم هذه الأركان وفهم طبيعة العلاقة بين الإنسان والكون من جهة، ثم العلاقة بين هذه الأركان جميعًا وبين الله سبحانه وتعالى من جهة أخرى؛ لأنه بفهم هذه العلاقات وتحديد أبعادها؛ يعرف الإنسان كيف يتفاعل تفاعلاً سويًا مع عناصر الكون، وكيف يتمكن من السيطرة عليها، وإخضاعها لمشيئته بقوانين العلم. وينشأ عن ذلك تفاعل الحضارات. وبتلقي الإنسان منهجه عن ربه فإنه لا يضل، وبهذا التلقي عن الله تتحدد علاقته بالطبيعة من حوله. وهو بما منح من عقل وتفكير وقدرة على الهدم والبناء قادر على أن يبتكر ويخترع وينشئ المصانع والآلات.

ومن هنا، فإن هذا البحث يأتي في موقعه من هذه الدراسة لتلك العوامل السابقة. ولعامل آخر أهم، وهو أن يرتبط الإنسان بربه مصيرًا وقدرًا.

وإليك بيان هذه المطالب:

المطلب الأول
التصور الإسلامي للإنسان

الإنسان هو أساس الحضارة، فهو الذي يستطيع توجيه الوقت، وعليه الإفادة من الكون، ولولاه لما وجدت الحضارة. فالحضارة كلها للإنسان، ولإسعاده ولتحقيق غايته في الوجود، وتحديد وضعه ومكانته هو منطلق الحضارة.

والإنسان في رسالة الإسلام مخلوق متميز، فضله الله على كثير من خلقه، فهو ليس مادة صماء يسير آليًا وفق قوانينها، ولا هو حيوان تحكمه الغريزة وتوجهه إرادته، كما أنه ليس ملاكًا معصومًا، كما تصور ذلك المذاهب الوضعية(١) التي جانبت الصواب في نظرتها إلى طبيعة، الإنسان فضلت وأضلت عن سواء السبيل، وعطلت المسيرة الحضارية.

ولكن النظرية الإسلامية التي جعلها الله رسالة للعالمين أهم ما تتميز به: أنها في تناولها لأي أمر من الأمور تأخذه على طبيعته فهي «تأخذ الإنسان على ما هو عليه، ولم تحاول أن تقسى على ما ليس من طبيعته، وتعمد إلى تهذيب هذه الطبيعة دون أن تكبت شيئًا من النوازع الفطرية، أو تمزق الفرد بين الضغط الواقع عليه من هذه النوازع، وبين المثل العليا التي يرسمها له»(٢).

ومن هذه القاعدة جاءت النظرة الإسلامية إلى الإنسان «من حيث هو جوهر أصيل له رغبات ذاتية فطرية لا بد أن تشبع، وأن تحل مشاكلها في ظل مذهبية ربانية تنظر إلى الإنسان نظرة أصيلة لا عرضية»(٣).

ذلك لأن إبراز دور الإنسان في التغيير أصبح من الضرورات الملحة؛ لأن النظرة

---

(١) انظر الفصل الثالث: مبحث الإنسان في الحضارة الغربية .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب ص ٦٩، دار الشروق .

(٣) المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري/ د . محسن عبدالحميد ص ٨٢، سلسلة كتاب الأمة رقم ٦ .

الإسلامية جعلت الإنسان مدار الحركة الحضارية، وأوكلت إليه مهمة التغيير والبناء، وكلفته بتحقيق الخلافة الإلهية على هذه الأرض، وإدارة الصراعات المختلفة التي تجري فوقها، واستغلال ما على ظاهرها، واستخراج ما في باطنها، مستفيدًا من الزمن لإنتاج الحضارة[١].

ولقد خصص القرآن الكريم جانبًا كبيرًا من آياته للحديث عن الإنسان وخلقه واستعداداته وطبيعته ومهمته، وعن المجتمع الإنساني وخصائصه وأهدافه.

وتبين مجموع هذه الآيات[٢] القيمة الكبرى التي يعطيها الإسلام للإنسان، ولدوره في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها، ولحقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه، كما تتبين تلك القيمة الكبرى التي يعطيها الإسلام للإنسان في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلى الكريم أنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض، كما تتبدى في أمر الملائكة بالسجود له، وفي طرد إبليس لامتناعه عن السجود له، وفي رعاية الله تعالى الدائمة له[٣].

لقد أعلى الإسلام كرامة الإنسان، فجعله خليفة الله في أرضه، ومنحه القدرة العقلية على التعلم والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، ومنحه الإرادة الحرة لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية[٤].

ولكي يقدر الإنسان عظم مسؤوليته ودوره في العالم؛ رفعت مكانته إلى مصاف الملائكة، وطلب منهم أن يسجدوا له، تلك أسس تقود إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة مفكرة مريدة مسؤولة، وهذه ركائز لا بد منها لأي تقدم حضاري.

والإنسان مزدوج الطبيعة فهو مكون من روح وجسد هما ملاك الذات الإنسانية تتم بهما الحياة ولا تنكر لأحدهما في سبيل الآخر[٥]. فالجسد هو وشائج اللحم والدم،

---

(١) السابق ٦١ .

(٢) سورة البقرة الآيات من ٣٠ - ٣٩، الأعراف من ٦ - ١٢، الحجر من ٣٨ - ٣٤، الإسراء من ١٣ - ١٧، الحج من ٥ - ٧، المؤمنون من ١٢ - ١٦ وغيرها من آيات القرآن .

(٣) انظر: في ظلال القرآن/ ج١/ ٦٠، انظر: دراسات في الحضارة الإسلامية ص ١١٠-١١٣ .

(٤) التفسير الإسلامي للتاريخ/ عماد الدين خليل ص ٩٢ ط دار العلم للملايين .

(٥) الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد/ ٢٣ط دار نهضة مصر .

وهو المطالب بحفظ الحياة على الأرض بالمحافظة على ذاته، والمحافظة على نوعه.

والهدف الأول: وسيلته الطعام والشراب، والثاني: وسيلته النسل والإكثار. وأما الروح، فهي من أمر الله، وهي وسيلة تساعد الإنسان على ترقية الحياة والارتفاع بها ليتصل الإنسان بالله تعالى «وهذه الطبيعة لتركيب الإنسان واستعداداته، فهو مخلوق ضعيف مستعد لأن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة، أو يهبط فيصبح أسوأ من الحيوان، وكلا الاستعدادين تتلقى استجابة طبيعية من الفرد»[١].

والله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لهذا الضعف، ولكن أكمل عليه النعمة وتولى رعاية الإنسان على طبيعته هذه، فهو سبحانه وتعالى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. والإنسان جاهل بأمر نفسه ومستقبله ومصيره بحيث لا يصلح أن يتولى وضع منهج لحياته، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[٢].

ولهذا تولى الله سبحانه وتعالى رعايته، ورسم له المنهج الذي يحافظ على ازدواجية طبيعته؛ لأن الغاية العليا للإسلام هي «إيجاد التوازن في نفس الفرد، فيؤدي ذلك إلى التوازن في المجتمع والإنسانية كلها بعد ذلك، ووسيلته في ذلك أنه يمسك بالإنسان من خيط الصعود ليساعده على موازنة الثقل الذي يجذبه إلى الأرض»[٣].

ومن هنا يتضح أن الإسلام يسعى إلى التوفيق الدائم بين أهداف الحياة وضرورات المجتمع ونوازع الفرد دون أن يطغى هدف على هدف.

ومن هنا نجد أن الإسلام يتدخل بتوجيه الإنسان في جميع جوانب الحياة الإنسانية. يتدخل في نظافة الإنسان، فيحمله على غسل بعض أجزاء جسمه عدة مرات في اليوم، وعلى غسل جميع جسمه في مناسبات خاصة. ويتدخل في غذائه وشرابه فيحرم عليه بعضها، فحرم الميتة وشرب الخمر وغيرها من الأرجاس، بل إنه

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٧٠/ ، ٧١، وانظر: مقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٢، ودراسات في الحضارة الإسلامية ص١١٣ .

(٢) سورة الروم: الآيتان ٦، ٧ .

(٣) الإنسان بين المادية والإسلام، ٧١ .

ينصح الإنسان ألا يتناول طعامًا أو شرابًا إلا إذا شعر بالحاجة إليه وبالمقدار الذي يسد به حاجته. قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. وقوله ﷺ: «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع**»[١].

ويتدخل الإسلام في ملبس الإنسان، فيحرم على الرجل لبس الحرير أو أن يتختم بالذهب، ويحرم على المرأة أن تثير الفتنة في ملبسها. قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[٢].

بل يتدخل الإسلام فيما يتسلى به الإنسان، فيحرم عليه ما يثير أعصابه أو يتلفها كالقمار في صوره المختلفة، بينما ينصحه بما ينشط عقله ويزيل عنه السآمة كمباشرة الرمي والعَدْو.

كذلك نظم الإسلام العلاقات للإنسان ومعاملاته سواء أكان في هذه العلاقة أو المعاملة أبًا أو ابنًا أو زوجًا أو ذا قرابة أو جوار، أو صاحب مسؤولية، تدخل الإسلام وحدد له الحدود والواجبات المتعلقة بكل إنسان أيًا كانت صفته، آمرًا إياه بالتمسك بالأخلاق الإسلامية في كل فعل وكل حركة انطلاقًا من قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[٣]، وقول الرسول ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[٤].

وفوق ذلك كله يتدخل الإسلام فينظم العبادة للإنسان لترقية جانب الروح فيه، فيوجهه إلى أن المعبود إله واحد يفرده بالعبادة ويتوجه إليه في سرائه وضرائه في كل كبيرة وصغيرة من الأعمال لتحقيق معنى الخلافة في الأرض.

ومن هنا فإن الإسلام قد حفظ للإنسان إرادته وطاقاته وإمكانياته بالإيمان بالله ومتطلباته. حفظ هذه الطاقات من أن يستنزفها الوقت والتواكل والسلبية، فتتعطل

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣١

(٢) سورة النور: الآية ٣١ .

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣ .

(٤) تقدم تخريجه.

الحضارة بتعطيل هذه الإمكانيات، أو تصرف هذه الطاقات في غير ما خلقت له.

ففي جانب حفظ هذه الطاقات من اليأس أو التواكل دعاه الله إلى عدم اليأس فقال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٢].

وفي جانب التحذير من صرف طاقاته في غير ما خلقت له. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

وفي مقابل هذا كله «يحذر الإنسان من أي عمل أو نشاط محرم من أنه يؤول إلى الفساد في الأرض وإلى هدم وتدمير الإنجازات التي يصنعها الإيمان والعمل الصالح، والإسلام من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية ووقف كل ما يعوق حضارته... ونحوها، وملاحقة أي محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار»[٥].

ولقد نظم الإسلام بشريعته السمحة بين متطلبات الروح والجسد دون بخس أي منهما لحق الآخر، كذلك نظم غرائز الإنسان بما يدفع التخبط والاضطراب في حياة الإنسان وعلاقاته بمن حوله.

«لقد خلق الله الإنسان مزودًا بأجهزة عديدة تنفسية وهضمية وتناسلية وعصبية، وهذا الجهاز الأخير من أخطر الأجهزة؛ إذ هو الذي تخضع له كلها، ومن بين ما يحتويه الجهاز العصبي الغرائز البشرية كحب الذات، وحب التملك والخوف، وحب الظهور والاستعلاء... إلخ، هذه الغرائز التي هي منفذ الشيطان لإغواء

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧ .

(٢) سورة لقمان: الآية ١٧ .

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٧ .

(٤) سورة القصص: الآية ٨٣ .

(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ: ١٩٥ .

الإنسان... ومن حقائق علم النفس أن هذه الغرائز لا يمكن أخمادها والقضاء عليها؛ لأنها أمر ضروري لبقاء الحياة ونمائها، كذلك لا يجوز إطلاق العنان لهذه الغرائز فيستشري أمرها وتأتي بالضرر على الفرد والمجتمع، وتحول إلى فوضى خلقية وهمجية واجتماعية. كما لا يجوز كبتها؛ لأن ذلك يؤدي إلى ثورات داخلية في العقل الباطن، ويترتب على ذلك العقد النفسية والأمراض العصبية»[١]. والنتيجة من ذلك هو التخلف الحضاري.

ولقد جاء التشريع الإلهي منظمًا لهذه الغرائز، فحفظها من الإفراط والتفريط، وضمن لها التوسط والاعتدال، وجعلها مصدر خير وهداية للفرد والأسرة والمجتمع.

وبيان ذلك أن الإسلام أباح للناس نشاطهم الحيوي بغرائزه المختلفة. أباح لهم شهوة الطعام والجنس والاستمتاع بطيبات الحياة، بل دعاهم إلى ذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٣] وليس معنى هذا: أن الإنسان يحق له أن ينطلق مع هذه الشهوات والغرائز إلى آخر المدى حتى تستعبده وتخرج به عن إنسانيته، وإنما وضع الحدود الشرعية التي تنظم مدى القيام بالنشاط الحيوي، وتحدد له ميادين معينة يكون فيها مأمون العاقبة، وهذه الحدود راعى الإسلام فيها مصلحة الفرد والمجتمع والضرر الذي يعود عليهما ويؤثر على المسيرة الحضارية[٤].

فمثلاً القرآن يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[٥]، فهو يبيح المبدأ، ويضع القيود في التنفيذ، وتلك القيود تهدف إلى سلامة الفرد ورفعته ولصالح المجتمع. فإذا

---

(١) من أساليب الدعوة في القرآن والسنة/ د. أبو المجد السيد نوفل ص ١٢٩، ١٣٠، ط مكتبة حسان ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

(٣) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٤) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام ص ٧٤ - ٧٩ بتصرف واختصار وزيادة.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

كان الإسراف في الطعام يحط من إنسانية الإنسان ويحد من نشاطه. كذلك فإن الإسراف يخل بتوازن المجتمع، خللاً يؤدي إلى الفوضى إذ يجعل بعض الأفراد يستهلكون أكثر مما ينبغي، ويترتب على ذلك وجود أفراد لا يجدون القدر اللازم لهم من الطعام، وينشأ عن ذلك تغير القلوب وتغلغل الحقد، وهذا يؤدي إلى الثورة على الواجدين المترفين فتضطرب الأمور، ويتحول نشاط المجتمع من الخير إلى الشر.

وهكذا جاء التشريع الإسلامي حتى يحول دون طغيان الإنسان على روحه، أو روحه على جسده، فتتعطل المسيرة الحضارية.

والإسلام يتولى رعاية هذه الحدود بالتشريع وسن القوانين التي تكفل عدم الاعتداء ويتيح لكل فرد أن يعمل ويوجه نشاطه الحيوي في كل جهة ممكنة بحيث لا يؤذي أحدًا غيره من الأحياء.

ووسيلة الإسلام في ذلك تربية الإنسان عن طريق العبادة والالتزام الخلقي، وتربية الضمير حتى يكون الإنسان رقيبًا على نفسه وعلى أعماله يزجِره ضميره عن إيذاء غيره أو الاعتداء على حق من حقوقه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

والإسلام حين يصنع ذلك، فإنه يعترف بالواقع البشري كما هو لا يعسره على ما تأباه طباعه، ويقيم داخل نفسه إرادة واعية يكل إليها ضبط الشهوات وتنظيم منصرفاتها، وينشئ معها ضميرًا حيًا يلتزم بمكارم الأخلاق، وترتفع بالنفس عن مهاوي الفتن والشر إلى آفاق مشرقة لصنع الحضارة، وبذلك يكون قد استجاب لكل رغبات الإنسان، وقدم لها جميع ما تطلبه من غذاء فأشبع الجسد وأتاح للعقل أن ينشط، وقدم للروح غذاءها.

وبذلك هيأ الإسلام للإنسان الجو الذي يمكنه من استغلال كل المواهب البشرية التي تساهم في استغلال طاقات الكون لبناء الحضارة الإنسانية. والإنسان المخاطب

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨ .

بهذا كله الإنسان بنوعيه - الذكر والأنثى - كل في مجاله وحسب إمكانياته وطبيعته. وبهذا التوجيه وذلك الخطاب يتضامن أفراد المجتمع رجالاً ونساءً لتشييد الصرح الحضاري الذي أراده الإسلام من وجود الإنسان في الحياة، ولا يكون شطر الإنسان سلبيًا أو معطلاً أو مضيعًا لما ينهض به الرجال[(١)].

وقد بين الإسلام للإنسان الثواب المترتب على تنفيذ تعاليمه، فجعل الجنة الجزاء الإلهي للإنسان على إصلاح الحياة وإحسان القيام بالخلافة. وإصلاح الحياة الدنيا يبدأ بإصلاح النفس، وينتهي بإصلاح حال المجتمع كله وإقامة أمره على منهج الله، وإحسان القيام بالخلافة يبدأ من كشف النواميس التي أودعها الله في الأرض يوم خلقها، وينتهي إلى تسخير هذا كله في تنمية الحياة وترقيتها، وتوزيعه بالعدل الذي قرره الله. وحين يقرر الله ذلك الجزاء للإنسان يصبح هو الضمان والحافز العميق للترقي في الحضارة المادية، واستخدام الطاقات والقوى والأرزاق والمدخرات الكونية في نطاق المنهج الرباني[(٢)].

وفي مجال البحث والمعرفة: زود الله الإنسان بالطاقات التي تحقق له الخلافة على أكمل وجه. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[(٤)] وهذه السمع، والبصر، والفؤاد، أدوات التفكير ومجال عملها وإبداعها الأرض وما يتعلق بها من القوانين المادية التي حولها[(٥)].

وقد أمد الله الإنسان بمصادر المعرفة التي تعينه على إدراك السنن والقوانين التي يسير عليها نظام الكون، «والإسلام يعتبر الوحي هو المصدر الصادق للمعرفة وأعلاها، ولكنه لا يلغي العقل ولا المؤثرات والمعارف التي يتلقاها الإنسان مما حوله

---

(١) انظر القيم الحضارية ٥٩ ص ٦٠ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٣، ٣٦٤ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٣١ .

(٤) سورة النحل: الآية ٧٨ .

(٥) المذهبية الإسلامية ص ٨٧ .

في الكون مع فارق واحد هو أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان بمداركه من الكون قابلة للخطأ والصواب، أما ما يتلقاها من الوحي فهو الحق اليقين»(١).

ومن أجل ألا يضل الإنسان في عوالم الغيب، وضع الله تعالى في كتابه الكريم الحقائق النهائية التي يحتاجها كي لا يتعب نفسه وفكره في هذا المجال دون جني أية ثمرة؛ ليتفرغ إلى التفاعل مع الأرض، والاستفادة من الزمن لإنجاح عملية الخلافة الإلهية(٢).

من هذه الحقائق: تلك الأمور التي تعرف في كتب التوحيد بالسمعيات والبحث في ذات الله، فقد بينها القرآن الكريم ووضع حقائقها، وأوجب الإيمان بها على ما جاءت عليه؛ لأنها فوق قدرة العقل، فالمسلم يؤمن بها وتفصيلاتها الغيبية طالما أنه آمن بإله الكون وأدرك غاية وجوده، وحقيقة عبادته. فلا فائدة في أن يذهل وراء خيالاته المادية لمحاولة تصوير ماهية الإله وصفاته، أو حقيقة البعث والملائكة، فهي من أمور الغيب التي دعا الله المؤمن للإيمان بها، وجعل ذلك من أمارات صدق الإيمان(٣). قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٤).

ولقد بين القرآن الكريم أن أي تحرك خيالي للعقل في مجال الغيب لا يكون مجديًا، ولن يصل إلى المراد، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٥)؛ فإذا حاد العقل عن هذا المنهج، وحمل نفسه البحث في قضايا ما وراء الطبيعة، ضل وتاه ولم يصل إلى الأمان وليس أدل على ذلك من آراء الفلاسفة والمفكرين في تلك القضايا الغيبية منذ أقدم العصور إلى اليوم، فهي عبارة عن مجموعة من الأفكار المضطربة المتصارعة، فكلما ادعى العقل الإنساني المعرفة في حل أسرار عالم الغيب، ضل وتاه، وانتهى إلى الإلحاد، ولقد انطلقت الحضارة الإسلامية من هذا

(١) خصائص التصور الإسلامي ص ١٣٨ .

(٢) المذهبية الإسلامية ص ٨٨ .

(٣) المذهبية الإسلامية ص ٨٨ .

(٤) سورة البقرة: الآيتان ٢، ٣ .

(٥) سورة الشورى: الآية ١١ .

المنطلق الإسلامي، فاتجهت اتجاهًا تجريبيًا محضًا، كان من نتيجته ذلك التقدم الكبير في مختلف العلوم كما سنرى ذلك في المبحث الثالث.

وبهذا المنهج الإسلامي في مصادر المعرفة، حفظ الإسلام للإنسان طاقاته، ووضعها موضعها الصحيح للإنتاج والإبداع. ولقد نظم الإسلام علاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه تنظيمًا متينًا يحافظ على المسار الحضاري للمجتمع المسلم، حيث إن الإسلام رفع أصول العلاقات الاجتماعية والحقوق والواجبات بين الأفراد إلى نطاق غيب ينظر الإسلام إلى علاقة الفرد بالمجتمع، فيرى أن الفرد في ذاته كائن جدير بالاحترام؛ لأنه نعمة الله كرمه بها وبمجرد الإسلام يعطي المسلم حصانة من الاعتداء، تصون له كرامته الإنسانية وحقوقه البشرية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(١) وقوله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**»(٢).

وهذا التكرم يشمل المجتمع كله بأفراده؛ لأنهم سواء في نظر الإسلام، ووسيلته في ذلك تكوين الفرد المتوازن.

وقد قرر الإسلام مسؤوليته الفردية، فمنح الفرد شخصيته المستقلة، وأعطاه كل ما يتعلق بذاته من الحقوق والحريات، في الوقت نفسه فرض عليه واجبات نحو الجماعة كما أشرك المجتمع في مسؤوليته عن الفردية(٣).

ومن هنا جاءت آيات القرآن الكريم حافلة بالدعوة إلى التعاون والعمل المشترك، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(٥) وقوله ﷺ: «**ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل**

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٩ .

(٢) أخرجه مسلم في (ك) البر والصلة والآداب (ب) ظلم المسلم ج٣ / ١٩٨٦ (ج) ٢٥٦٤ .

(٣) معالم الثقافة الإسلامية ص ٢٧٨ .

(٤) سورة العصر.

(٥) سورة المائدة: الآية ٢ .

الجسد الواحد؛ إذا اشتكي منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١].

كذلك أمر الفرد والمجتمع وحملهم مسؤولية انتشار الفساد وعواقبه، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢] وقد قال ﷺ: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا طلبوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا؛ فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم، نجوا ونجوا جميعًا»**[٣].

ومن هنا نجد أن الخصائص التي تميز بها مفهوم الإسلام للمجتمع أن المجتمع الذي ينشده الإسلام مجتمع فكري خلقي سيستند إلى مبدأ وغاية، «فالوحدة الحضارية التي يتكون فيها المجتمع ترتكز على العقيدة الروحية قبل أي اعتبار آخر، فالله خلق الناس جميعًا من نفس واحدة ثم جعل الشعوب والقبائل لتتعارف وتصطلح على العرف الحسن والمعرفة الرشيدة فتجمعها أسرة واحدة لا تفاضل بين أبنائها إلا بالتقوى، وأتقى الناس أنفعهم للناس، وبهذا أصبح المجتمع الإسلامي مجتمعًا مفتوحًا يستطيع أن ينظم أفراد البشر جميعًا في سياقه الحضاري على أساس من المساواة والعدالة العامة»[٤].

وفي هذا الجو من الترابط أو التعايش السلمي- إن صح التعبير- توفرت الحرية والعدالة لكل فرد في المجتمع، كما كان من النتائج الواقعية لتكوين هذا المجتمع المفتوح: أن ذابت في بوتقة المجتمع الإسلامي وخصائصه الأجناس البشرية وكفاياتها، وتمازجت في هذه البوتقة، وأنشأت مركبًا عضويًا فائقًا هو المجتمع الإسلامي الذي أنتج حضارة رائعة ضخمة حوت خلاصة الطاقة البشرية في زمانها بفضل العيش في ظل هذه التعاليم الإلهية التي نظمت الإنسان والمجتمع.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (ك) الأدب (باب) الناس والبهائم (فتح ج ١٠ / ٤٣٨) عن النعمان بن بشير.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٥ .

(٣) أخرجه البخاري (ك) الشركة (باب) هل يقرع في القسمة (فتح ج ٥ / ١٣٢) (ح) ٢٤٩٣ .

(٤) انظر: دراسات في الحضارة الإسلامية ص ١٢٣ .

المطلب الثاني
التصور الإسلامي للكون

الكون هو ساحة النشاط الحضاري، ومجال حركة الإنسان وميدان حضارته؛ ولذلك فإن معرفة حقيقة الكون، وعلاقته بالله وبالإنسان- أمر أساسي في بناء الحضارة.

ولقد تنوعت الآراء الفلسفية في تقرير حقيقة الكون، فتذهبت كل حضارة مذهبها في تفسير الكون وتصوير مظاهره، وكان من نتيجة هذا الاختلاف في تصور الكون هذا التراث الحافل من المعتقدات والمفاهيم عن طبيعة الكون، تتمثل هذه المفاهيم عند بعض المجتمعات في عبادة الكواكب، وعند بعضها الآخر في اتخاذ لكل ظاهرة طبيعية وغير ذلك مما هو معروف: تاريخ الأديان[١].

وحينما يستعرض الباحث التصور الإسلامي للكون، يجد أن القرآن الكريم قد خصص جانبًا كبيرًا من آياته للحديث عن خلق السموات والأرض وما بينهما من كائنات، وعن كل ما يقع عليه حس الإنسان وإدراكه في هذا الكون، فآيات القرآن تقرر أن هذا الكون وما فيه من مخلوقات، خلقه الله عز وجل وأنشأه من عدم، سواء في ذلك مادته الأساسية أو الصورة التي ظهرت فيها، ولم يشارك الله سبحانه وتعالى أحد في خلق الكون ولا في شيء منه. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢] ومعنى الآية كما يقول ابن كثير «إن الله يخبر عن خلقه العالم العلوي؛ وهو السموات، والعالم السفلي؛ وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق، والله هو المستقل بالخلق وحده»[٣] والآيات غير ذلك كثيرة منها، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[٤].

---

(١) انظر: الله / عباس العقاد ص ١٥، ط بيروت .

(٢) سورة النحل: الآية ٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٢ / ٥١٦ وانظر أيضًا: مفاتيح الغيب ج٩ / ٤٧٢ .

(٤) سورة الزمر: الآية ٦٢ .

والنصوص التي تحدثت عن نشأة الكون جاء فيها بعض التفصيلات عن تركيب الكون، ومراحل نشأته، وجاء فيها عدد السموات وعدد الأرضين، وذكر أيام الخلق ومادة الكون في بعض مراحل خلقه، وذكر لبعض الأطوار والتحولات التي تمت فيه. من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[١].

فهذه الآيات «تقرر خلق الأرض والمُدَّة التى خلقها الله فيها وخلق فيها بقية مصالحها من خلق الجبال والخيرات الحاصلة فيها من تقدير أقوات أهلها ومعايشهم، وجعل في باطنها من الخير والبركة مثل المعادن وما إلى ذلك مما يكون فيه الزراعة والحراثة والحرف والمصانع، فكلها من البركة. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾: «يريد شق الأنهار». وخلق الجبال وخلق الأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج إليه من الخيرات، ثم خلق السموات، وخلق في كل سماء ما يصلحها، كما يقول قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وما فيها من الملائكة، وما فيها من البحار وجبال البرد»[٢].

ولو أراد الباحث أن يجمع الآيات المتعلقة بجزء واحد من أجزاء الكون كالشمس والقمر أو الأرض أو الجبال أو البحار أو الينابيع أو الأنهار أو مشاهد الليل والنهار والظلام والنور، أو السحاب أو النبات والمزروعات أو الحيوان أو الإنسان، لاحتاج في ذلك إلى مباحث واسعة؛ «لأن الصورة التي يعرضها القرآن الكريم عن الكون شاملة لآفاقه كلها، جامعة لأجزائه، تضع الإنسان أمام آفاق الوجود. فهو يعرضها أحيانًا مفصلة الأجزاء من السماء بشمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها... إلخ مظاهر الكون، وأحيانًا يعرضها بإيجاز شامل وتعبير جامع»[٣].

---

(١) سورة فصلت الآيات ٩ - ١٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١٣ / ٦٠٩ - ٦١٣ بتصرف واختصار .

(٣) دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٨٦ .

ويذكر القرآن الكريم أن هذا الكون له نهاية يهلك فيها وينتهي؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلقه لأجلٍ مُسمًّى؛ فإذا انتهى أجله هلك وانتهى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(١). قال ابن كثير: «يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة، فيعلمون أنها ما خلقت سدًى ولا باطلاً، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى؛ وهو يوم القيامة»(٢).

وقد جاءت نصوص أخرى تفصل أحداث نهاية الكون وتغيره وتبدل نظامه، وهي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾(٤) وهذا التغير كله إنما يحدث بقدر الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا الكون إنما يمضي وفق سنة تجري بمشيئة الله وتتحقق بقدره، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٥).

ويخبر القرآن الكريم أن هذا الكون - بما فيه من مخلوقات - يسير وفق قدرة الله وتدبيره، وأن كل شيء فيه يسير بمقدار ومخلوق بحكمة وحساب ليؤدي وظيفته والغاية من خلقه، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٧)، وقال ابن كثير: «قدر القدر وجبل الخليقة على ما

---

(١) سورة الروم: الآية ٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٣ / ٤٢٧ .

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٨ .

(٤) سورة التكوير: الآية ١ - ١١ .

(٥) سورة يس: الآية ٨٢ .

(٦) سورة الفرقان: الآية ٢ .

(٧) سورة القمر: الآية ٤٩ .

أراد»[١]. والليل والنهار والرعد والبرق، والسحاب والمطر وجميع الظواهر الكونية مسيرة مسخرة تؤدي وظيفتها حسبما أراد الله، فتقديره سبحانه شامل غير متقيد بزمان ولا مكان.

وهذا الكون كما بينت آيات القرآن أعده الله لاستقبال الحياة، أودع الله فيه كل خير للإنسان، وهيأه ليكون صالحًا للانتفاع بخيره وعناصره، أودع الله في الأرض قوت الإنسان وكل ما يدب على الأرض، والآيات في ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[٣]، وغيرها كثير.

وهذه الآيات - وهي تعرض هذه النعم التي أوجدها الله في الكون، وسخرها لخدمة الإنسان- تدعو الإنسان للاستفادة من تلك النعم، وذلك: «دعوة الإنسان إلى التبصر بحقيقة وجوده، والناس من حوله، وارتباطاتهم الكونية عن طريق النظر الحسي إلى ما حولهم، ابتداء من موقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب»[٤]، والله تعالى يقول في ذلك: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٥].

وقد دعا الله الإنسان إلى التأمل في هذا الكون والنظر فيه، وأمره بالنظر إلى خلقه، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[٦]، لينظر إلى طعامه ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ

(١) تفسير ابن كثير ج٣ / ١٥٥ .

(٢) سورة النبأ: الآيات ٦ - ١٥ .

(٣) سورة نوح ١٥ - ٢٠، وانظر كذلك إبراهيم ٣٢ - ٤٣، النحل ١٠ - ١٦ .

(٤) حول إعادة تشكيل العقل المسلم/ عماد الدين خليل ص ٥٦ - كتاب الأمة رقم: ٤ .

(٥) سورة الإسراء: الآية ٣٦ .

(٦) سورة الطارق: الآية ٥ .

طَعَامِهِۦ﴾[١]، إلى الملكوت ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]، النظر إلى خلائق الله في الكون ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٣]، النظر إلى الطبيعة ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾[٤]، النظر إلى الثمار وهي تتدلى ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾[٥].

«وانتقل القرآن خطوة أخرى، فدعا الناس إلى تحريك بصائرهم، تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية وبصرية لا حصر لها، ثم تتحمل مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة النواميس الكونية والخلقية»[٦].

ولقد بين القرآن الكريم المنهج الذي يعتمد عليه الإنسان في التعرف على الكون، والوصول إلى غاية الله تعالى من خلقه، هذا المنهج يقوم على الأسلوب الذي يعتمد على البرهان والحجة والجدال الحسن للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة، والموازنة والتمحيص استنادًا إلى المعطيات الحسية والقدرات العقلية التي تعرف كيف تتعامل مع هذه المعطيات[٧]، والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٨].

ومن هذا العرض لحقيقة الكون ودعوة القرآن الإنسان لاستقلال هذا الكون لبناء حضارته، تظهر العلاقة بين الإنسان والكون، فهي علاقة سلام وطمأنينة، وليست

(١) سورة عبس: الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الغاشية : الآيات ١٧ - ٢١ .

(٤) سورة الروم: الآية ٥ .

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٩ .

(٦) مؤثرات حول الحضارة الإسلامية/ عماد الدين خليل ص ١٥، وانظر: قيم حضارية في القرآن/ د. توفيق محمد سبيع ج١/ ١٣٣ وما بعدها، ط مجمع البحوث الإسلامية .

(٧) حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص ٦٠ .

(٨) سورة البقرة: الآية ١٣٣ .

صراعًا كما تقول المذاهب الوضعية، وبهذا الشعور يستطيع الإنسان أن يمضي في طريقه مطمئنًا لكشف سنن هذا الكون بروح التعرف عليه، والقيام بأمر الخلافة والعبادة كما أرادها الله، فكلما كشف سنة من سنن الكون جعلها للخير، وهكذا يتعامل المسلم مع الكون بروح العبادة والحب.

فقد كان رسول الله ﷺ عندما يرى الهلال يستقبله بفرح ويقول: «**الله أكبر.. الله أكبر. اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى. ربي وربك الله**»[١].

وكان يقف على جبل أُحُد ويقول: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»[٢]، وكان ﷺ يستقبل قطرات المطر بفرح ويقول: «إنها قريبة عهد بالله»[٣]. فالكون والإنسان كلاهما عبدالله عز وجل طائع له لا يتألى عليه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[٤].

فالكون والإنسان كلاهما عبدالله عز وجل، يقوم كل منهما بأداء وظيفته التي خلق لها، يأخذ الإنسان بالأسباب التي تعينه على اكتشاف أسرار الكون، والكون يعطيه بقدرة الله عز وجل. إن هذه العلاقة بين الإنسان والكون وبين كل منهما والله عز وجل تدفع الإنسان إلى بذل الجهد من أجل التنقيب عن السنن والنواميس لتحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض، ولتحقيق قدر كبير من التقدم المادي، والنتيجة التي تمخضت عن تلك المفاهيم الإسلامية عقديًا ومنهجيًا أن شكلت عقلاً إسلاميًا استطاع الاستيعاب والفعل والإبداع، وكان له الأثر في ذلك التاريخ الحضاري الذي صنعه المسلمون عبر الزمان.

---

(١) الترمذي (ك) الدعوات (ب) ما يقول إذا رأى الهلال ج٥ / ٥٠٤، وأحمد ج١ / ١٦٢، وابن حبان ج٢/ ١٧١ .

(٢) البخاري/ المغازي/ (ب) أحد جبل يحبنا ونحبه ج٧ / ٣٧٧، مسلم(ك) الحج (ب) فضل الحديبية ج٢/ ٩٩٣ .

(٣) أخرجه مسلم (ك) الاستسقاء (ب) الدعاء في الاستسقاء ج٢ / ٦١٥ .

(٤) سورة الحج: الآية ١٨ .

المطلب الثالث
التصور الإسلامي للحياة وغايتها

الحياة هي الزمن الذي تتفاعل فيه الأنشطة الإنسانية لصنع الحضارة، فهي عنصر أساسي لقيام الحضارة؛ ولذلك فإن لها في المنهج الإسلامي مفهومًا خاصًا، فهي في نظر الإسلام خلق من خلق الله عز وجل أنشأها بقدر وتمضي وفق قدرة الله ومشيئته، أودعها الله سبحانه خصائصها التي تفرقها عن الموت، كما أعطى سبحانه كل شيء خلقه وهداه إليه كما أنه سبحانه هو الذي يغير وتبذل ويطور ويعدل في الكائنات وفي الأحياء، وهو الذي يمسك ويحفظ هذه الحياة، وهو الذي يميت ويهلك، كما أنه هو الذي يحيي ويبعث كما يشاء سبحانه. وكل حادث يحدث في الحياة إنما يحدثه الله سبحانه بقدر خاص وفق مشيئته سبحانه التي تحكم هذا الكون وما فيه ومن فيه.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾. الى قوله وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

(١) سورة الأنعام: الآيات ١ - ٦ .

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٩٥ - ٩٨ .

فالآيات تنفي أن تكون الحياة قد أوجدت نفسها، أو أن الطبيعة هي التي أعطتها الحياة، أو أنها وجدت مصادفة، وصدق الله العظيم ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وهذه الحياة خلقها الله عز وجل من أصل واحد هو الماء، فهو أصل كل حي، كما أن الله تعالى قدر أقوات الأحياء في الأرض والكون، فهي بقدر الله تفي احتياجات الأحياء مهما كانوا؛ لأنها قدرت من لدن حكيم عليم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[2]، وكل ما ينبت على الأرض من أحياء وكل حركة في هذه الحياة كلها من أصل واحد، وكلها تخضع لناموس الله، وأعطى سبحانه لكل أمة من الأمم ضوابطها.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[3]، وقد قال المفسرون: إنه ما من حيوان يدب على الأرض ولا طائر يطير بجناحه في السماء إلا طوائف مخلوقة خلقها الله وقدر أقواتها وأحوالها وآجالها[4]، والأحياء كلهم يعبدون الله عز وجل، وكلهم مكفولون برزق الله، محاطون برعايته، خاضعون لسلطانه ولله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[5].

وعبادة هذه الأشياء معناها الانقياد لله عز وجل، والسير على نواميسه ونظامه في الكون. وقال تعالى في حق رزقهم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[7]، والإنسان دابة من الدواب كرمه الله

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠ .

(٢) سورة النور: الآية ٤٥ .

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٨ .

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ج٢ / ١٣١، ومفاتيح الغيب ج٢ / ٢٩٧، والبيضاوي ص ١٧٠ .

(٥) سورة النحل: الآية ٤٩ .

(٦) سورة هود: الآية ٦ .

(٧) سورة الأنعام: الآية ٥٩ .

عز وجل، وفضله على كل هذه الدواب وسخرها لخدمته وهيأها لكي تعينه على أداء رسالته. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[(١)]، وفي تسخير كل شيء في هذه الحياة للإنسان قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[(٢)]، ولقد قال الإمام الرازي: «بعد أن ذكر الله نعمة الحياة بعد الموت ذكر النعمة الثانية وهي خلق كل ما في السموات والأرض لأجل انتفاعنا في الدين والدنيا، أما في الدنيا فلإصلاح أبداننا ولتتقوى به على الطاعات؛ وأما في الدين للاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها وقوله: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يشمل جميع المنافع، منها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها ما يتصل بجميع الحرف والأمور التي استنبطها العقلاء وبين الله أن كل ذلك خلق للانتفاع بها»[(٣)].

فهذه الحياة بما فيها خلقها الله عز وجل وسخرها للإنسان لكي يستعين بها على تحقيق الخلافة وذلك وفق منهج الله عز وجل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾،[(٤)] ومعنى الآية إطلاق الانتفاع بطيبات الحياة بشرط واحد أن يتلقى الإنسان ما يحل له وما يحرم عليه من الله تعالى.

والإنسان حينما يقوم بعمارة الحياة والانتفاع بها - وفق منهج الله - إنما يقوم بجانب مهم من جوانب الخلافة وهو عبادة الله عز وجل في تسخير طاقات الحياة بصنع الحضارة، وقد كان لشمولية مفهوم العبادة آثار عظمية وفي حركة المسلم الواقعية بإزاء عمارة الكون والحياة؛ ذلك لأن المنهج الإسلامي لم يجد نفسه في مشكلة أمام الاستمتاع بالتيسيرات الحضارية التي تتيحها الحضارة المادية وفنونها المتعددة للإنسان؛ ذلك لأن التصور الإسلامي لا يجمد الإبداع المادي في الأرض، ومن ثم لا يُجمِّد وسائل المتاع بهذا الإبداع، بل أكثر من هذا: هو بعد ذلك جزء من وظيفة الإنسان في هذه الأرض. فالخلافة معناها: القيام على شؤون هذه الأرض

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧ .

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٩ .

(٣) مفاتيح الغيب ج٢/ ٥٦٤ .

(٤) سورة البقرة: الآية ١٦٨ .

واستثمار خيراتها واكتشاف كنوزها والاستمتاع بطيباتها في حدود منهج الله مع التوجيه بالعبادة والشكر والاعتراف على ما سخره الله للإنسان من طاقات في نفسه ومن مدخرات الأرض[١].

فالإسلام هو التصور الوحيد الذي يتفق مع الفطرة الإنسانية في النظر إلى الدنيا من بين سائر التصورات المختلفة، حيث إنه هو التصور الوحيد الذي روعي فيه ما بين الإنسان والدنيا من العلاقة. فالحياة ليست بشيء يستحق النبذ والازدراء ولا بشيء يستحق أن يولع به الإنسان وينسى نفسه في ملذاته ومباهجه فلا هي شر كلها ولا هي خير كلها، ولا يصح اجتنابها والانغماس في مفاتنها؛ ذلك «لأن الإسلام دين الروح والمادة، دين الدنيا والآخرة ينظر إلى الحياة نظرة شاملة تتناول شطريها المادي والروحي بالإصلاح، دون أن يطغى ركن على آخر، وإنما هو توسط واعتدال بينهما»[٢] قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[٣].

قال المفسرون: «استعمل ما وهبك الله من هذا في تمتعك بالحلال وطلبك إياه»[٤]، وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفًا كي لا يزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها، فالله سبحانه وتعالى خلق الطيبات ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها فتنمو الحياة وتتجدد، ولتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة فلا تنحرف عن طريقها، وهكذا يحقق المنهج الإلهي التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعة المتعادلة[٥]. من هنا كانت الدعوة الشاملة في كل مجالات الحياة قال تعالى

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة/ سيد قطب ص ١٨٠، ط دار الشروق، ط ١٩٨٢م.

(٢) الدعوة إلى الله تعالى / أبو المجد سيد نوفل ص ٩٧ .

(٣) سورة القصص: الآية ٧٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج٣ / ٣٩٩ .

(٥) في ظلال القرآن ج٥ / ٢٧١١ .

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

والرسول ﷺ يدعو إلى العمل لعمارة الحياة حتى ولو كانت تقوم القيامة. قال ﷺ: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر**»[٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٣].

فهذه النصوص تبين أن الحياة الإسلامية إنما هي عمل وإبداع مستمر منذ لحظة وعي الإنسان وإدراكه وحتى ساعة الحساب، فالمحور الأساسي لوجود الإنسان فردًا أو جماعة على الأرض هو العمل الذي يصبح مقياسًا لتحديد مصير الإنسان في الدنيا والآخرة.

كما أن القرآن الكريم بين أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران والتأخر بمجرد افتقاد الإيمان والعمل، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٤]، والإسلام لم يدع جانبًا من جوانب الحياة إلا رسم له السلوك العملي المتوازن في ظل أخلاقيات الإسلام وقيمه الإيمانية، وليس للإنسان أن يترك الحياة الدنيا منغمسًا في الراحة والسكون ظنًّا منه بأنها شيء يجب الاحتراز منه، وليس له أن يحرم على نفسه زينتها وطيباتها؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق الحياة الدنيا لينتفع بها الإنسان ويستخدمها لخيره ورخائه وتقدمه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[٥].

«إن الإسلام دعوة لتحرير رغبات الإنسان وأشواقه الجسدية، وفتح الطريق أمام دوافعه وحاجاته ونوازعه، فهذه الآية تتحدث بصراحة عن الزينة آمرة بني آدم أن يمارسوها عند كل مسجد حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الدنيا ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ تعقب ذلك دعوة صحيحة إلى

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥ .

(٢) البخاري في الأدب المفرد ص ١٦٨، ١٦٩ عن أنس، أحمد ج٣ / ١٨٤، ١٩١ .

(٣) سورة الجمعة: الآية ١٠ .

(٤) سورة العصر.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٣٢ .

الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حد الإسراف﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[1] ثم ما تليت الآي التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾[2] فالمحرم والمرفوض في الإسلام هو الفواحش أيًا كان مصدرها الجسد أو الروح، وليس في الآية رفض أو تحريم أو احتقار موجه إلى الجسد بما أنه جسد وإلى غرائزه وحاجاته بما أنها تقف في طريق الروح كما هو واضح من الآيات[3].

فما أكثر الآيات التي تدعو إلى استغلال الطيبات التي أحلها الله دون إفراط أو تفريط، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[4] وما أكثر الآيات التي استنكرت على بعض أتباع الأديان تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلها الله عز وجل وجعل هذا التحريم قرين الشرك، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾[5].

إن الأصل في الأشياء التي أوجدها الله عز وجل في الدنيا الإباحة ما لم يرد نص فيها بتحريم، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يطلق يد الإنسان في هذه الحياة لتحقيق متطلباته التي تعينه على صنع الحضارة وتحقيق إرادة الله عز وجل في هذه الحياة، فالإسلام وهو يحض المؤمنين على التاريخ الحضاري - عملاً وإنجازًا وإبداعا - يعلن رفضه للكسل والقعود، وأن تنتهي حياة الإنسان نهاية سلبية دون تغيير أو إعجاز قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣١ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٢ .

(٣) حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص ١٢٦، ١٣٠ .

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٤١ .

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٤٨ .

(٦) سورة النساء: الآية ١٩٧ .

فالآية الكريمة وإن كانت نزلت في شأن المؤمنين الذين آمنوا ولم يهاجروا، وظلوا في مكة تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، واختاروا القعود عن مواجهة متاعب الهجرة، فإنها تدعو إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة في نفوس المسلمين، وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والقعود عن العمل والحركة، حتى جاءتهم الملائكة تتوفاهم وتنكر عليهم الكسل والقعود، وتبين مصيرهم بعد هذا القعود.

إن هذه الآية الكريمة وغيرها تؤكد حقيقة «هي الفارق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الوضعية، هذه الحقيقة هي: أن حياة الإنسان في الأرض - فردًا وجماعة- ليست أبدية دائمة إنما هي عابرة موقوتة، ومعطيات الإنسان فيها ليست خالدة باقية، وإنما هي معرضة للزوال في أي لحظة بناء على طبيعة الحياة في التغير والتنوع، والميلاد والموت. وإن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، ومن ثم فإن ما يقدمه الإنسان في هذه الحياة الفانية من أعمال ومنجزات ليس هدفًا في ذاته، وإنما هو وسيلة لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله عز وجل وإيجاد المناخ المناسب لتحقيق الاستخلاف»[١].

ومن هذا تغدو الحياة الدنيا في الإسلام وسيلة لتحقيق الإنجاز الحضاري الذي يعين على تحقيق الخلافة، هذه الوسيلة شريفة تقوم على الأخلاق التي توجه الحضارة لخدمة البشرية لا لإفنائها، وليس هذا معناه: أن الإسلام يدعو إلى الزهد وترك الدنيا والفرار منها؛ لأن هذا الفهم يتناقض مع الآيات التي وردت آنفًا، والتي تحض على العمل والإبداع في هذه الحياة، إن ما ورد في القرآن الكريم في ذم الدنيا أو تصويرها باللهو واللعب إنما هو عرض مقارن العالم الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وأن الحياة الحقيقة هي الأخرى على حد تعبير صاحب الظلال: «يصنع الإنسان الميزان الدقيق للقيم كلها، فإذا الحياة، الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تقاس بالحياة في الدار الآخرة. فالحياة الدنيا لعب ولهو حين لا ينظر فيها إلى الدار الأخرى، حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة والإسلام لا يحض على الزهد والفرار من الدنيا، وإنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع والوقوف فيه عند

(١) حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص ١٣٥ بتصرف واختصار .

حدود الله»[1] يذم القرآن الدنيا حين يستمتع الإنسان بخيرات الأرض كما يستمتع الحيوان، وأن يكون عبدًا للذائذ مقهورًا عليها ولا يملك معها إرادة حتى يصبح كالبهيمة، وصدق الله العظيم إذ يصور الذين كفروا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[2]، وبذلك يسود الظلم والطغيان الذي يفسد المجتمعات ويحول دون قيام الحضارة.

فالحياة الدنيا في نظر الإسلام هي ميدان الخير وتحصيله للآخرة، فيها الكون ميدان لتأملات الصنع الإلهي وفيها جمال الخلق والإبداع الناطق بعظمة السموات والأرض، وفيها عاش الرسل وأكلوا من طيباتها، وفيها متعة العبادات والصفاء الروحى، وفيها المتعة الحلال من المال والزواج الطيب الذي يثمر من يعبدون الله ويوحدونه، وفيها عرف العارفون ربهم، ففاضت من معرفتهم جلائل الأعمال، وعظيم الفضائل التي امتلأت بها الإنسانية نورًا ورحمة وحضارة. هذا التوازن في النظرة الإسلامية أنتج حضارة عمرت أرجاء الدنيا، نفعت المسلم وغير المسلم، وسوف نعيش مع إنجازات الحضارة في المبحث الثالث إن شاء الله.



(١) في ظلال القرآن ج ٥ / ٢٧٥١ .

(٢) سورة محمد: الآية ١٢ .

المبحث الثالث
مظاهر الحضارة الإسلامية

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في ميدان العقيدة والأخلاق.

المطلب الثاني: في ميدان النشاط الثقافي.

المطلب الثالث: في ميدان النشاط الاقتصادي.



المبحث الثالث
مظاهر الحضارة الإسلامية

إذا أراد الباحث معرفة الدور الحضاري الذي قام به المسلمون في العالم، فلينظر إلى الأسس والمفاهيم التي جاء بها الإسلام لتنيظيم الحياة في مختلف جوانبها كما سبق الحديث عنها في المبحثين الأول والثاني، كانت هذه الأسس والمفاهيم بمثابة رجّات كهربائية متلاحقة بعقل ونفس الإنسان المسلم، أسقطت عنه ظلمات الجاهلية، وأزاحت ران القلوب، ودفعت بهذا الإنسان إلى العالم قادرًا على الفعل والتحقيق والإبداع بعد تحقيق الاستجابة لهذه الأسس وتلك المفاهيم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

وتعبير النص بالإحياء في الاستجابة للقرآن يبين: «أن القرآن بما فيه دعوة إلى الحياة بكل صورها ومعانيها، وإنما سمي القرآن حياة؛ لأنه سبب العلم، والعلم حياة»[2].

فالإسلام في الحقيقة دعوة لإحياء القلوب والعقول وإطلاقها من أوهام الجهل والخرافة. كما أنه دعوة لتحرير الإنسان وتكريمه في ظل أخوة عامة وشريعة ربانية كريمة، ولقد أدرك المسلمون الأوائل حقيقة هذه الدعوة فاستجابوا لها، وحملوا هذه التعاليم الربانية، فأحيوا بها أنفسهم من موات الجاهلية وتلقوها باوراحهم وعقولهم. وحثهم الإسلام على النظر والتدبر والعلم والفهم والاستفادة من كل نافع وطلب كل مفيد، فانطلقوا ينظرون في كل شيء، ويبحثون في كل حكمة نافعة إنطلاقًا من قول الرسول ﷺ: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها**»[3]

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤ .

(٢) التفسير الكبير ج٧ / ٤٧٣، وجامع البيان ج١٣ / ٤٦٨ .

(٣) أخرجه الترمذي (ك) العلم (ب) ما جاء في فضل الفقه على العبارة ج٥ / ٤٩ (ح) ٢٦٨٧، وابن ماجه في ك الزهد (ب) الحكمة ج٢ / ١٣٩٥ (ح) ٤١٦٩ .

فكانت لهم آثار في كل ناحية من نواحي الحياة: في العلم وفي الحكمة والأخلاق والفلسفة والطب والهندسة والجغرافيا... إلخ علوم وفنون الحياة. كما بحث المسلمون في تراث الأمم السابقة وعلومها المختلفة، وقاموا بتنقيحها وتهذيبها للاستفادة منها ولإفادة الشعوب منها، حتى كانوا حلقة الوصل للعالم في تراثه القديم والجديد، حتى قالت الدكتوره زيفريد هونكه: «لقد عرفت أوروبا تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط، فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية والشروح التي وضعوها عليها والكتب التي ألفوها كل هذه كانت العامل القوي في النهضة العقلية وفي دفعها إلى الحركة العلمية دفعًا»[١].

ولهذا الأثر تدفعنا طبيعة البحث لتقديم بعض الشواهد دلالة على تلك الجهود العلمية التي صنعتها الحضارة الإسلامية في مختلف ميادين المعرفة، ويمكن إجمال هذه الجهود في ميادين ثلاثة رئيسية تأتي في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: في ميدان العقيدة والأخلاق.

المطلب الثاني: في ميدان النشاط الثقافي.

المطلب الثالث: في ميدان النشاط الاقتصادي.

المطلب الأول
في ميدان العقيدة والأخلاق

لقد أنشأ المسلمون بتعاليم الإسلام السمحة حضارة عاش في ظلها أصحاب الشرائع الأخرى دون تعصب لرأى أو مذهب؛ ذلك لأن العقيدة الإسلامية تقوم على التسامح الديني الذي يكفل لأصحاب الشرائع الأخرى العيش في سلام في ظل المجتمع الإسلامي. وهذا انطلاق من مبدأ أن الشرائع كلها تستقي من معين واحد، وأن الأنبياء أخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة، وأن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها، وأن اختلاف الناس في الدين لا ينبغي أن يؤدي إلى أن يقتل بعضهم بعضًا أو

(١) شمس العرب تسطع على الغرب/ د زيفريد هونكه ص ٢٢١، ط دار الآفاق. بدون تاريخ.

يعتدي بعضهم على بعض، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[١] والتفاضل بين الناس في الحياة وعند الله بمقدار ما يقدم أحدهم لنفسه والناس من خير، قال ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله**»[٢] وكذلك فإن الاختلاف في الدين لا يحول دون البر والصلة والضيافة ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[٣].

من هذه المبادئ السامية أقامت الحضارة الإسلامية مجتمعًا إنساني النزعة يقوم على المساواة العنصرية، يمقت التعصب الديني. تجلت مظاهر تلك المبادئ في واقع المجتمع المسلم. لقد حولت العقيدة الإسلامية الإنسانية من أجواء الحقد والتفرقة والعصبية إلى أجواء الحب والتسامح أمام الله عز وجل تساويًا لا أثر فيه لاستعلاء عرق على عرق أو فئة على أخرى، تجلت مبادئ هذه النزعة الإنسانية تشريعًا واقعًا في الحياة الإسلامية. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٥] وفي التشريع الإسلامي كانت النزعة الإنسانية هي الأساس في التشريع في الصلاة والصوم والحج مساواة دون تفضيل لمال أو عالم أو غني الكل يقفون موقفًا واحدًا ويؤدون مناسك واحدة.

لقد كانت هذه المبادئ حقائق في تصرفات الأمة الإسلامية حكامًا ومحكومين، أول ما تطالعنا هذه الحقائق في عهد النبي ﷺ حين تغاضب أبو ذر وهو عربي مع بلال بن رباح الأسود الحبشي وكلاهما صحابيان، تطور النزاع بينهما إلى أن قال أبو ذر لبلال: يا بن السوداء، فشكاه بلال إلى النبي، فقال لأبي ذر: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»[٦].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان/ باب طاعة أولي الأمر/ فصل في نصيحة الولاة ج٦ / ٤٣ (ح) ٧٤٤٤، وأبو نعيم في الحلية ج٢ / ١٠٢، ج٤ / ٢٣٧ مرجع سابق .

(٣) سورة المائدة: الآية ٥ .

(٤) سورة النساء: الآية ١ .

(٥) سورة الحجرات: الآية ١٣ .

(٦) الحديث أخرجه البخاري في (ك) الإيمان (ب) المعاصي من أمر الجاهلية ج١ / ١٠٦ (ح) ٣٠ .

وفي عهد أبي بكر كان- رضي الله عنه- مثال الرئيس المتواضع، فإذا هو خليفة يأتي بنات الحي ممن فقدن آباءهن في الحروب فيحلب لهن غنمهن، ويقول: أرجو ألا تغيرني الخلافة عن خلق كنت أعتاده من قبل.

وفي حياة عمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز وصلاح الدين وغيرهم(١)، أمثال خالدة على سمو النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية. ولقد كان تقرير المساواة حقًا بين الناس من غير نظر إلى ألوانهم أو أجناسهم، والمثال على ذلك: في فتح المسلمين لمصر عندما طلب المقوقس المفاوضة مع المسلمين فأرسل إليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عبادة بن الصامت، وكان أسود شديد السواد طويلًا، وكان عمرو بن العاص قد أمره أن يتولى الكلام، فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة فهابه المقوقس لسواده، وقال لهم: نحوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني، فقال رجال الوفد جميعًا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله. فقال لهم: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما نبغي أن يكون هو دونكم؟!

قالوا: كلا! إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعًا، وأفضلنا سابقة وعقلًا ورأيًا، وليس ينكر السواد فينا، فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لك هيبة، فقال عبادة وقد رأى فزع المقوقس من السواد: إن في جيشنا ألفًا سوادهم أشد سوادًا مني.

هكذا كانت حضارتنا الإسلامية تقدم الأسود على الأبيض حين يقدمه علمه ورأيه وشجاعته، وقد كان عطاء بن أبي رباح إمام أهل مكة وعالمها وكان أسود أعور أفطس أشل أعرج مفلفل الشعر، كان إذا جلس بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غراب أسود في حقل من القطن، هذا الأسود كان عبدالملك يأمر المنادي أن ينادي في موسم الحج أن لا يفتي الناس أحد غيره(٢).

---

(١) انظر: وجاء أبو بكر/ خالد محمد خالد ص ١٤٠ ط دار المعارف، والحضارة العربية/ محمد كرد علي ج١ / ٢٨٠ .

(٢) انظر صور من حياة التابعين/ عبدالرحمن رأفت الباشا ص ١١ط وزارة المعارف السعودية ١٩٩٩م.، من دوائع حضارتنا/ مصطفى السباعي / ٦٠ .

وفي مجال التسامح الديني مع أهل الشرائع الأخرى نجد حقائق واقعية كثيرة، من ذلك أن الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة وفيها اليهود كان من أول ما حمله من شؤون الدولة أن أقام بينه وبينهم ميثاقًا يحترم فيه عقائدهم، وتلتزم الدولة فيه بدفعه الأذى عنهم ويكونون مع المسلمين يدًا واحدة على من يريد الإغارة على المدينة(١).

وفي عهد عمر بن الخطاب، شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرها عنها، فسأل عَمْرًا عن ذلك، فيخبره أن المسلمين كثروا وأصبح المسجد يضيق بهم، وفي جواره دار هذه المرأة، وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترضي، مما اضطر عَمْرًا إلى هدم دارها وإدخالها في المسجد، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت، فأمر عمر عَمْرًا أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها(٢).

هذه بعض مظاهر الأخلاق والتسامح الديني في الحضارة الإسلامية وقت السلم، وكانت وقت الحرب أكثر أخلاقًا وإنسانية في وقت كان العالم كله يسير على سنة الغاب؛ القوي يقتل الضعيف. فالإسلام يحرم الحرب والغزو والنهب وإذلال كرامة الشعوب؛ وإنما شرع الإسلام الحرب لغايتين اثنتين: الأولى: الدفاع عن عقيدة الأمة الإسلامية، الثانية: نشر الدعوة الإسلامية وذلك بمحاربة المتألهين لرفع سلطانهم عن الشعوب، ثم ترك الشعوب أحرارًا؛ إما البقاء على دينهم مع دفع الجزية أو الدخول في الإسلام. ومع ذلك فإن هذه الحرب مقيدة بقيود أخلاقية تبعدها عن الحروب الاستعمارية.

كان الرسول ﷺ يبين لقادة الجهاد قواعد الحرب ليكون جهادهم منهاجًا للدعوة إلى الله. كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: **اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم**

---

(١) انظر: الرحيق المختوم/ عبدالرحمن المباركفوري/ ٢١٣ ط دار الوفاء .

(٢) من روائع حضارتنا/ ٧٩ .

ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم الذي يجري على المسلمين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء؛ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن، هم أبوا فسلهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم[1].

وقوله ﷺ عن أنس أن النبي ﷺ أوصى أصحابه فقال: «**انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**»[2].

ولقد كانت سيرة الرسول ﷺ نبراسًا شاهدًا على تطبيق هذه القواعد، فقد رأى في حروبه امرأة من الأعداء مقتولة فغضب وأنكر ذلك، وقال: «ألم أنهكم عن قتل النساء؟! ما كانت كهذه لتقاتل». وقد كان على ذلك أبو بكر - رضي الله عنه - والخلفاء من بعده، وأروع هذه الأمثلة ما رواه البلاذري أنه لما ولي الخلافة عمر بن عبدالعزيز، وفد إليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدرًا بغير حق، فكتب عمر إلى عامله هناك أن ينصب لهم قاضيًا ينظر في شكواهم، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا، فنصب لهم الوالي (جميع بن حاضر الناجي) قاضيًا ينظر في شكواهم. فحكم القاضي بإخراج المسلمين على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك وينابذهم وفقًا لمبادئ الحرب الإسلامية حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين فلا يؤخذوا بغتة. فلما رأى أهل سمرقند ذلك رضوا ببقاء الجيش الإسلامي بين ظهرانيهم[3].

لقد بلغت أخلاقيات الحضارة الإسلامية إلى ما هو أسمى من ذلك في عهد سيدنا عمر بن الخطاب لما فتحت الجيوش الإسلامية دمشق وحمص وبقية من سوريا، وأخذوا من أهلها أموالاً بعقد الصلح لقاء حمايتهم، وبعد أن جمع هرقل الجموع لصد

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (ك) الجهاد والسير (ب) تأمير الإمام على البعوث ج٣ / ١٣٥٧ .

(٢) أبو داود في سننه (ك) الجهاد (ب) في دعائه المشركين ج٣ / ٣٧ (ح) ٢٦١٤ .

(٣) فتوح البلدان/ ٤٠٧ط الكتب العلمية .

قوات المسلمين كان لزامًا على المسلمين نتيجة لما حدث من هذا المجتمع الرومي، أن يركزوا على نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم، فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب المسلمين كتب إلى عمال المدن المفتوحة أن يردوا الأموال لأهلها، واكتبوا إلى الناس: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم. وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين، وقالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم[١].

لقد كان لهذه المبادئ السامية التي كانت عليها الحضارة الإسلامية وتعاملها مع رعايا الدول التي فتحتها أثر كبير في إقامة وحدة عالمية بين البشر - بغض النظر عن معتقداتهم وأجناسهم، هذه الوحدة جمعت رعايا الدولة الإسلامية.

يقول غوستاف لوبون: «إن التسامح الديني كان مطلقًا في عصر ازدهار الحضارة العربية كله، ولزامًا أن نشير إلى ما ذكره مسيودوزي عن أحد علماء الكلام العرب، وكان يحضر في بغداد دروسًا كثيرة في الفلسفة يشترك فيها يهود وزنادقة ومجوس ومسلمون كان يسمع إلى كل منهم باحترام عظيم، ولم يكن ينبغي على أيهم إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل لا على الأدلة المأخوذة من أي كتب (كتاب مقدس)، وسمح لليهود بأن يتقلدوا مناصب الدولة كالمسلمين، وكانت أسبانيا الدولة الوحيدة في أوروبا التي تمتع فيها اليهود بحماية الدولة ورعايتها[٢]. وما فعله صلاح الدين الأيوبي مع الصليبيين بعد فتح بيت المقدس، وما فعله السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطنية مع رعاياها، كل هذه الشواهد تبين إلى أي مدى كانت أخلاقيات الحضارة الإسلامية إنسانية.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام / توماس أرنولدج ١/ ٧ ترجمة حسن إبراهيم حسن، دار النهضة ١٩٧٠م.

(٢) حضارة العرب / غوستاف لوبون ص ٦٢٠، ترجمة عادل زعيتر.

المطلب الثاني
في ميدان النشاط الثقافي

لقد كان توجه الحضارة الإسلامية في هذا الميدان انطلاقًا من أسس هذه الحضارة التي بينت قيمة طاقة الإنسان العقلية، وقدراته العملية، فقد اعتبر الإسلام أن هذه الطاقات والقدرات من بين ما كرم الله الإنسان به واختصه به على سائر خلقه، كما أن الإسلام حمل الإنسان مسؤولياته العقلية في التفكير وطلب المعرفة واستيعاب ثمراتها وهو يخاطب أولي الألباب والذين يعقلون ويتفكرون، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١).

وكذلك قول الرسول ﷺ: **«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»**(٢).

وقد بعث النبي ﷺ والقليل من العرب من يعرف القراءة، فلم يجد الرسول ﷺ سبيلا لتعليم الناس القراءة والكتابة إلا أن يكثر فيهم من يقرأ ويكتب؛ فكان إذا أسر جماعة من العرب، ووجد فيهم أناسًا يقرؤون ويكتبون ولم يكن لأحد منهم مال يفتدي به نفسه، يأمره أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة، وبهذه الطريقة فشت الكتابة(٣).

وكان المسجد هو مجمع المسلمين الذي يهيئ لكل فرد سبيلًا إلى تلقي العلم، فلم يكن مكان عبادة فحسب، بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلوم المختلفة. ثم أقيم بجانب المسجد الكتاب، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة(٤).

---

(١) سورة العلق: الآيات ١ - ٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في (ك) لمقدمة (ب) فضل العلماء ج١ / ٨١ (ح) ٢٢٤ . وقال النووي عنه: حديث ضعيف سندًا، صحيح معنى .

(٣) الإسلام والحضارة العربية/ محمد كرد علي ج١ / ١٦٩، ط لجنة التأليف والترجمة ط ١٩٦٨م.

(٤) من روائع حضارتنا/ مصطفى السباعي/ ١٣١ ط دار الإرشاد ١٩٦٨ .

وقد أمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية والفارسية والحبشية فتعلمها، وانتشر العلم بين الصحابة، فقد كانت أول بعثة علمية أرسلت من الحجاز إلى الشام في عهد عمر بن الخطاب، فقد كتب إليه يزيد: أن أهل الشام قد كثروا وملؤوا المدائن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأرسل إليه معاذًا وعبادة وأبا الدرداء(١). ولقد توسع معاوية في طلب العلم، فقال يومًا: وددت أن يكون عندنا من يحدثنا عما مضى من الزمن. فقيل له: إن بحضرموت رجلاً معمرًا اسمه أمد بن أبد الحضرمي، فأتى به وورد عليه من اليمن عبيد بن شربة، وكان آية باهرة في معرفة تاريخ اليمن وملوك العجم يرويها مشفوعة بالقصائد، فأمر معاوية كتابة أن يدوِّنوا ما يتحدث به(٢).

وقد أمر عمر بن عبدالعزيز- رضي الله عنه- بنقل كتاب أهرق بن أعين في الطب إلى اللغة العربية(٣).

ولقد استغلت المدارس بأبنيتها الخاصة، وكانت مجاورة للمساجد في أغلب الأحيان، واشتمل جامع القيروان على جناحين للتعليم، أحدهما للرجال والآخر للنساء(٤) ولقد ازدهرت مؤسسات التعليم، ونشط البحث العلمي في مختلف المجالات في رحاب حضارة الإسلام؛ وذلك لأن الإسلام أطلق طاقة الإنسان وقدراته العقلية ينميها الإيمان ويزكيها ويرشدها، وكان في كبار المساجد الجامعة مكتبات يوقف العلماء كتبهم عليها، كما كان خلفاء المسلمين وحكامهم يفاخرون في جمع الكتب، فكان بيت الحكمة في بغداد- أثناء خلافة العباسيين وخاصة أيام المأمون- من أكبر خزائن الكتب، حتى استولى المغول على بغداد فأحرقوه وخربوه(٥).

وكان للأفراد المسلمين الأثرياء والعلماء مكتباتهم الخاصة، فيروى أن أحد علماء أصفهان توفي عام ٢٨٢هـ وقد أنفق ثلاثمائة ألف درهم في شراء الكتب، وكانت

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ١٧٠ .

(٢) السابق ج١ / ١٧٢ .

(٣) السابق ج١ / ١٧٢ .

(٤) القيم الحضارية في رسالة الإسلام ص ٧٠، مرجع سابق .

(٥) السابق/ ٧١ .

الكتب في خزانة أبي الفضل بن العميد بالري من الكثرة بحيث ضمت في كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب ما يحمل على مائة وقر. ويحكى عن أحد فقهاء الشافعية (أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي) أنه أقام دارًا للعلم في بلده، جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفًا على كل طالب للعلم لا يمنع منها أحد. وإذا جاءها غريب معسر قدم له ورقًا. كذلك أقام القاضي بن حبان المتوفى سنة ٣٥٤ في نيسابور دارًا للعلم وخزانة للكتب ومساكن للغرباء من طلاب العلم وأجرى عليهم الأرزاق[(١)].

وما شهدته الأندلس من الحضارة الإسلامية وازدهارها، وخاصة الجانب الثقافي، نذكر منها بعضًا مما ذكره الأستاذ/ محمد عبدالله عنان، قال: «لم تمضِ أعوام قلائل على سقوط غرناطة (١٤٩٢م) حتى ارتكبت جريمتها الشائنة بتدمير تراث التاريخ الإسلامي، ففي سنة ١٤٩٩م أمر الكردينال خميس مطران طليطلة بجمع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة، ونظمها أكداسًا في ميدان الرملة، وكان فيها آلافٌ مؤلفة من كتب العلوم والآداب، واحتفل بحرقها، واعتبر ذلك من أعمال الإيمان، ولم يستثنِ منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت الجامعة الكالا، وهلك في تلك المحنة معظم تراث الأندلس الفكري. وقدر بعض المؤرخين عن المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة بأكثر من «مليون» كتاب، ولقد بلغت المجموعة العربية التي في مكتب الأسكوريا وهي قريبة من مدريد في أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد من أنفس المخطوطات الأندلسية والعربية أكلتها النار في حريق شبَّ في تلك المدينة لم يبق منها إلا القليل»[(٢)].

ولو تتبع الباحث منارات الحضارة الإسلامية في كل مكان فتحه المسلمون، لاحتاج إلى الكثير من المجلدات يكتب فيها هذا الإنجاز العظيم لهذه الحضارة الإسلامية.

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ آدم ميتر . ج١ ص ٣٢٥ - ٣٢٩ تاريخ الإسلام العام حسن إبراهيم ج٢ / ٣٤٨ .

(٢) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام / محمد عبدالله عنان ص ٣٢٦، ٣٢٩ السابق ج١ / ١٧٢، ط دار المعارف ط الرابعة ١٩٦٦م.

ولكن أذكر على سبيل المثال والإيجاز:

في الرياضيات، وعلم الفلك.

لقد أنجز المسلمون في الرياضيات والفلك إنجازًا عظيمًا، وهذا نابع من النظرة الكلية في البحث في العوالم، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٢]، والبحث في العلاقة بين الأجرام السماوية والكواكب بعضها ببعض كما تشير إليه الآيات ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣].

وفي الرياضيات ما ذكره القرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾[٤].

وذكر القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بالزمن والحساب وقيمته في حياة الإنسان وبناء الحضارة، من هذا المنطلق وتلك النظرة الفاحصة التي حثهم عليها خالق السموات والأرض عمل المسلمون جاهدين على النظر والكشف والبحث في تلك العوالم واكتشاف أسرارها، وعملت العقلية الإسلامية لسد حاجات الدولة الإسلامية التي تطلبت تقديرات حسابية لتنفيذ أحكام الزكاة والجزية والخراج وتقسيم الإرث، فكان لهم السبق في هذه المجالات، فلم يعرف العالم الحديث علم الجبر إلا عن طريق الباحث المسلم محمد بن موسى الخوازمي في (٧٨٠ - ٨٥٠م)، فقد تناول مبادئ علم الجبر التي وضعها «ديوفانيش» اليوناني وهذبها وأضاف إليها إضافات كثيرة

---

(١) سورة يونس: الآية ١٠١ .

(٢) سورة ق: الآية ٥ .

(٣) سورة يس: الآيات ٧٨ - ٨٠ .

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٢ .

حتى استحق أن يلقب بأعظم علماء الرياضيات. وكتابه «الجبر والمقابلة» من أعظم المراجع العلمية في هذا المجال، ولم يقتصر علمه على الجبر، وإنما كتب في علوم الفلك، وألف تقاويم فلكية، ووضع أكبر موسوعة جغرافية للمأمون، وصاغ أقدم جداول حساب (الثلثان)، وقد ترجمه «جيرا راف كريمونا» في القرن الثاني عشر، وكتبه باللاتينية، وقامت على أساسها الجامعات الأوروبية[١] كما كان من علماء المسلمين في الرياضيات أيضًا ثابت بن قرة (توفي ٩٠١) والبناني، وفي الغرب الإسلامي مسلمة المجريطي إمام المسلمين في الرياضيات بالأندلس، ومات (١٠٠٧) وكان من تلاميذه ابن السمح المتوفى (١٠٣٤) وابن الصفار والكرماني وغيرهم[٢].

كما اشتهر أولاد موسى بن شاكر (محمد، أحمد، حسن)، ومؤلفاتهم عن قياس السطوح الكروية والمستوية، كما كتبوا في الميكانيكا، وقد ترجمت هذه الكتب واستفادت منهم الجامعات الأوروبية، وهي موجودة الآن محفوظة في مكتبة الفاتيكان[٣].

وفي علم الفلك من أهم العلوم التي يحتاجها المسلم لتحديد المواقف واتجاه القبلة، ولأهميته - برز عدد من العلماء في هذا العلم، منهم الغزاري (توفي ٧٧٧م) الذي أنشأ الاصطرلاب، ثم النباني (٩٢٩) الذي قام ببعض الأرصاد الفلكية والمقاييس، وتبعه عمر الخيام الذي توفي (١١٥٣م) وقد صمم تقويمًا جديدًا هو التقويم الجلالي، وأبو معشر توفي (٨٨٦) فقد بحث العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر، وأهم إنجازات المسلمين في علم الفلك: هو تصميم المرصد، وذلك في العصر العباسي[٤].

وفي علم الكيمياء لم يستطع الأقدمون التميز بينها وبين الصيدلة سنوات طويلة، فقد أجريت تجارب متقدمة أكبر مما فعله الإغريق، وبرز عدد من الكيماويين، كان

---

(١) انظر: قصة الحضارة اوول ديورانت ج٤ / ٢٤٢، أوروبا العصور الوسطى عبدالفتاح عاشور ج ٢/ ٥٠٣ الأنجلو سنة ١٩٨٣ أثر العرب على الحضارة الأوروبية.

(٢) ظهر الإسلام / أحمد حسن / ٢٧٠ - ٢٧١ للمزيد انظر بتوسع قصة الحضارة مجلد/ ٤/ ١٨١.

(٣) مآثر العرب على الحضارة الأوروبية سنة ١١٦.

(٤) مؤشرات حول الحضارة الإسلامية ص ٣٧ ط دار الأنصار.

أبرزهم جابر بن حيان (٨١٥م)، الذي أجرى عددًا من التجارب على المواد العضوية النباتية والحيوانية، وسجل ملاحظاته وتجاربه التي أدت إلى تحضير حامض الأزون لأول مرة في التاريخ، وقدم وصفًا كاملاً لعملية تحضير الفولاذ وتصفية المعادن والصباغة، والدباغة، والدهان وكيفية حماية الحديد من الصدأ. وكذلك اشتهر أبو منصور موفق أول كيماوي ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم، وقد دأب المسلمون على تجاربهم الكيماوية بكل حرية إلى أن توصلوا إلى الكشوف العلمية التي أدت بدورها إلى تطور الكيمياء بشكلها المعاصر[١].

وفي علم النبات نلتقي بعالم الطبيعة القرطبي أبي جعفر الغافقي حيث ألف كتابا أسماه الأدوية المفرزة، كما نلتقي بعالم الصيدلة والنبات ابن البيطار (١٢٤٨) وقد زاعت شهرته في كتابه الجامع في الأدوية المفردة حيث تحدث فيه عن الحيوان، النبات، المواد المعدنية وكتابه المفتى في الأدوية المفردة حيث تحدث عن المواد الطبية وأضاف ثلاثمائة مادة جديدة على المواد المتكشفة سابقًا[٢].

وفي عالم الطب اقتبس الأطباء المسلمون عن الإغريق النظريات الطبية التي لا تشكل قاعدة ثابتة ومرضية لعلاج المرضى، إلا أن الأطباء المسلمين ركزوا على الأمور العلمية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي، وقاموا بكثير من الاكتشافات الطبية، وأحرزوا تقدمًا كبيرًا في الاستطباب، وكان من أشهر هؤلاء الزهراوي (١٠١٣) الذي يضم كتابه التعريف بمن عجز عن التأليف قسمًا عن الجراحة يعتبر أعظم إسهام في هذا الموضوع، والإمام الرازي (٦٢٥م) الذي كان أول من ميز بين مرض الجدري والحصبة، وذلك في كتابه في «الحصبة والجدري». أما كتابه الحاوي، فيعتبر موسوعة لخص فيه معارف الإغريق والفرس والهند، ثم يذكر ملاحظاته الشخصية[٣].

---

(١) انظر: قصة الحضارة ج١ / ٤٤٤، والمسلمون تاريخ الحضارة ص ستافودكب / ٩٤ وأوروبا في العصور الوسطي ج٢/ ٥١٧، ٥١٨ حضارة العرب ص ٥١٣ .

(٢) مؤشرات حول الحضارة الإسلامية/ ٣٨ ط دار الأنصار .

(٣) انظر: حضارة العرب / ترجمة عادل زعيترط الملبى ص ٤٨٨، قصة الحضارة ج١ / ٤٢٦، ٢٤٧، والمسلمون تاريخ الحضارة/ ٩٠ أوروبا في العصور الوسطى ص ٥٢٠ .

وفي طب العيون نجد علي بن عيسى وعمارًا الموصلي، وقد ألف كل منهما الكتب حول الطب ووسعا دائرة المعرفة الطبية اليونانية، وأضافا التعليمات حول إجراء العمليات إلى الطب الإسلامي يعود الفضل في اختراع أدوات الجراحة ونظام فحص المريض، وكذلك اشتهر ابن سينا وكتابه «القانون» ويعتبر من أهم المراجع العلمية الآن في أوروبا حتى قال وول ديورانت إذا دخلت كلية الطب في جامعة باريس وجدت صورة ابن سينا والرازي معلقتين هناك[١].

وفي علم الجغرافيا صحح المسلمون معطيات الجغرافيا الإغريقية بعد قيامهم بكشوفهم الجديدة في الأصقاع البعيدة، وساعد العرب على ذلك ما هو معروف عندهم من حبهم للسياحة والرحلات، فجابوا البلاد من شرق آسيا إلى مجاهل إفريقيا، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوروبيون عنها في العصور الوسطى، ولقد كان الرحالون المسلمون كثيرين منهم على سبيل المثال المسعودي وابن حوقل والبيروني وابن بطوطة والإدريسي والنضر البصري، والإصطخري والمقديسي والقزويني وياقوت الحموي، وكل واحد من هؤلاء أسهم بنصيب وافر في بناء هذا العلم، ويظهر تقدم المسلمين العرب في ذلك العلم بالمقارنة بين أماكن المدن التي عينها اليونان والتي عينها العرب، ففي الوقت الذي نجد فيه تقدير العرب يطابق الحقيقة أو يقرب منها إذا يبلغ في تقدير اليونان درجات كبيرة[٢].

وقد ظلت كتب العرب في الجغرافيا أساسًا لدراسة ذلك العلم في أوروبا عدة قرون منها كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الإدريسي المتوفى (١١٦٦)، وقد اعتمد كولمبس في رحلاته على كتب العرب[٣].

وفي مجال العلوم التطبيقية نجد دور العلماء المسلمين في تطوير استخدام الري والميكانيكا، وتحسين صناعة الورق، وتكرير السكر، واختراع البارود[٤].

(١) قصة الحضارة ج١ / ٤٢٥ .

(٢) انظر أوروبا في العصور الوسطى ج٢ / ٥١٢، ٥١٣ .

(٣) حضارة العرب ص ٤٧٠، ٤٧١ .

(٤) المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٩٩، ١٠٠، وانظر: آثار العرب على الحضارة الأوروبية/ ١٧٤ .

المراكز العلمية والجامعات:

في ختام الحديث عن النشاط الثقافي للحضارة الإسلامية لا بد من ذكر بعض مراكز التربية والتعليم وكيف أنه في المنظور الإسلامي يلتقي ما هو ديني بما هو ديني، الإيمان والعلم، الروح، الجسد والطبيعة الكل واحد يتماسك، فقد كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن الكريم والحديث والفقه وغيره من العلوم، ويجد الباحث أن كثيرًا من المساجد مراكز مهمة للحركة العلمية، تبدأ هذه المساجد من إنشاء مسجد الرسول ﷺ في المدينة وطيلة القرون الثلاثة الأولى، ونحن في الأزهر الشريف نرى كيف أصبح المسجد جامعًا وجامعة يدرس فيها مختلف أنواع العلوم من دينيه ودنيوية، كما أصبح مسجد الفردوس في فاس بالمغرب مركزًا هامًا للثقافة الإسلامية، وأصبحت هذه الجامعات شاهدة على حرية التعليم، وطرق التدريس، وتخصيص كراسي الأستاذية وما إلى ذلك من الدرجات العلمية.

وقد أنشئت الزوايا بجوار المساجد لعقد حلقات العلم والدراسة فيها، وكانت تشبه المدارس الثانوية، وقد استقلت المدارس عن المساجد لما كثر إنشاؤها في العصر السلجوقي (٤٦٥ - ٤٨٥هـ)، وأنشأ الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي مدرستين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، تعرف كل منها باسم المدرسة النظامية، وفي عصري نور الدين محمود وخلفه الناصر صلاح الدين انتشرت المدارس في فلسطين والشام، ومن هذه المدارس المدرسة النورية التي أنشأها نور الدين في سوريا، واهتم المسلمون بنشر العلوم الطبية، فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية.

وقد عرف العرب المسلمون مدرسة يساجور الطبية التي أنشأها كسرى في منتصف القرن السادس الميلادي، تخرج منها بعض أطبائهم كالحارث بن كلدة الذي عاش في عهد النبي ﷺ، وكان يشير على أصحابه بالتداوي عنده. وفي عهد الوليد بن عبد الملك أنشئ أول مستشفى في الإسلام، وهو خاص بالمجذومين، وجعل فيها الأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وكانت تعرف باسم البيمارستانات؛ أي: دور المرضى. وكانت المستشفيات نوعين: نوعًا متنقلاً، ونوعًا ثابتًا؛ أما المتنقل أول ما عرف في الإسلام في حياة النبي ﷺ في غزوة الخندق. أما المستشفيات الثانية، فقد

كانت كثيرة وتفيض بها المدن والعواصم على اختلاف انواعها، فهناك مستشفيات للجيش وللمساجين، وكانت المستشفيات ملحقة بالمساجد حيث بناها أحمد بن طولون في مصر، وكان يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدى امتحان أمام كبير أطباء الدولة ليقدم اليه برسالة فى الفن الذى يريد الحصول عليه، فسأله كبير الأطباء عن كل ما يتعلق بالفن الذي يريد؛ فإن كان حسن الإجابة أجازه، وكان نظام دخول المستشفيات مجانًا للجميع يفحص المرضى أولاً بالقاعة الخارجية؛ فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى؛ ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخول المستشفى، كان يقيد اسمه ويدخل إلى الحمام فيخلع ملابسه فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى ثيابًا خاصًا من المستشفى، ويدخل القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ثم يعطى الدواء ويتابع حتى يتم شفاؤه؛ فإذا تم شفاؤه أعطي بدله من الثياب جديدة ومبلغًا من المال يكفيه حتى يكون قادرًا على العمل، هذا هو نظام المستشفيات في حضارة الإسلام، من هذه المستشفيات المستشفى العضدي ببغداد بناه عضد الدين بن بويه عام ٣٧ .

وكان مكان المستشفى يختار على أساس علمي، كما فعل الرازي الطبيب عند إنشاء هذا المستشفى، فقد قام بوضع أربع قطع من اللحم في أربعة أنحاء من بغداد فلما أصبح نظر في أحسنها رائحة فأقام في مكانها المستشفى[١].

وفي دمشق أسس السلطان نور الدين محمود من مال أخذه فدية من أحد ملوك الفرنج - المستشفى النوري الكبير[٢].

هذا عن إنجاز الحضارة الإسلامية في المجال الثقافي.

---

(١) من روائع حضارتنا/ ١٣٢ .

(٢) السابق/ ١٤٣، ١٤٦ .

المطلب الثالث
في ميدان النشاط الاقتصادي

لقد علمت رسالة الإسلام المؤمنين أن مهامهم في الحياة هي العبادة بمعناها الكبير الذي منه عمارة الأرض، والعمل لاستخراج طاقاتها التي أوجدها الله عز وجل في باطنها؛ لأن هذه من الأمور التي تعين على العبادة، وجاءت الدعوة صريحة في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[١].

والآية صريحة في الدعوة إلى العمل والحركة لعمارة الأرض في كافة نواحي الحياة زراعة او صناعة أو إنتاجًا حيوانيًا، تلك هي الأمور التي يستعين بها المسلم على طاعة الله عز وجل وهي التي تشيد صرح الحضارة.

عبادة الله عز وجل شاملة لكل فكر مخلص، والعلم بالكون، والعمل فيه ابتغاء وجه الله عز وجل من العبادة، حتى إن الإسلام ليأمر بالانتشار والحركة والسعي في الأرض لتحسين الوضع الاقتصادي.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٢]، وقد جعل الله تعالى تبادل المنافع والعمل إلى جانب العبادة في الحج؛ قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[٣]، ومن هذا الأساس الإيماني انطلق المسلمون في الأرض لتنمية الأنشطة الاقتصادية، فزرعوا وصنعوا وتاجروا، يتبين ذلك فيما يلي:

في المجال الزراعي والثروة الحيوانية:

لقد كانت تعاليم الإسلام في هذا المجال الحيوي حافزًا قويًا للإبداع. فقد حث

---

(١) سورة الملك: الآية ١٥ .

(٢) سورة الجمعة: الآية ١٠ .

(٣) سورة الحج: الآية ٢٨ .

الإسلام المسلمين على استصلاح الأرض الميتة وإحيائها وزراعتها وجعلها ملكًا لمن أحياها، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»[1]. وقال عمر بن الخطاب: «من عطل أرضًا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له»[2].

كما حث النبي ﷺ على الزراعة حتى يصل الأمر بها حين قيام الساعة قال ﷺ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو حيوان إلا كان له به صدقة**»[3]. وقوله ﷺ: «**إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**»[4].

ولقد شهد التاريخ: أن المسلمين زرعوا وجدوا في استصلاح الأرض، وتنظيم الري وأساليب الزراعة وتنويع مزروعاتهم، «ففي العهد الأموي وفي عهد معاوية بن أبي سفيان حيث دأب على استصلاح الأراضي الزراعية ومنها البطائح المغمورة بالمياه في أدنى نهر دجلة، وعني ولاة الأمويين على العراق، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وعمر بن هبيرة، ثم خالد بن عبدالله القسرى بحفر الأنهار وإقامة القناطر والسدود وإصلاح الجسور، والعناية بالثروة الحيوانية»[5]. ولقد كان من توجيه القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة للخليفة العباسي الرشيد في كتابه الخراج» «وعلى الإمام كري النهر الأعظم الذي لعامة المسلمين إن احتاج إلى كري، وعليه أن يصلح مسناته (السد يبنى في وجه الماء) وإن احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام دجلة والفرات كريت ملهم، ولا يحمل ذلك قله على أهل الخراج، فأما البثوق (البثق - ما يخرقه الماء في جانب النهر) والمسنيات والبريدات تعني (مفاتيح الماء) التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال؛ لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة؛ لأنه أمر عام الجميع المسلمين، فالنفقة عليه من بيت المال»[6].

(١) أخرجه البخاري في (ك) الحرث والمزارعة (ب) من أحيا أرضًا مواتًا فتح الباري ج٥ / ١٨ (ح) ٢٣٣٥ .

(٢) أخرجه يحيى بن آدم القرشي في (ك) الخراج (ب) التحجير ص ٩٠ حديث رقم: ٢٨٧ .

(٣) أخرجه مسلم في (ك) المزارعة والمساقاة (ب) فضل الغرس والزرع ج١٠ / ٢١٥ (ح) ١٥٥٣ .

(٤) سبق تخريجه.

(٥) فتوح البلدان / البلاذري ص ٢٨٥، ٢٩٠ .

(٦) الخراج ص ١١٠ مرجع سابق .

وهكذا نظم المسلمون شبكة شاملة محكمة للري، وكانت القاعدة في ذلك كله أن الماء حق للجماعة لا يحل لفرد بيعه وشراؤه، ولقد وصف ذلك الوضع «آدم ميتز» بقوله: «وعلى هذا فلم يكن يجوز للدولة ولا للأفراد أن يجعلوا مسألة الري وحدها سبيلاً للكسب والتجارة وأن الجزء الأكبر من التشريع الأوروبي الخاص بالماء مقتبس من تشريع الشرق»[١]. وقد ذهب أبو يوسف إلى تخصيص سهم من مصارف الزكاة في إصلاح طرق المسلمين، فهي السبيل إلى الزراعة والتجارة والصناعة[٢].

«وقد كان في مدينة مرو شرقي فارس جهاز متخصص للري، يسمى «ديوان الماء» يرأس صاحبه عشرة آلاف عامل، وكان للماء مقاييس على مواضع متعددة من كل نهر من الأنهار الكبرى وعند السدود في دار الإسلام مثلما كان عليه الحال في مصر وفيما وراء النهر، وكان على السد الذي أقيم جنوب مرو أربعمائة غواص يراعونه في ليلهم ونهارهم، وربما احتاجوا دخول الماء في «البرد» الشديد فيطلون أنفسهم بالشمع»[٣].

وانتشرت شبكة من القنوات في جوف الأرض في شرقي فارس وعقدت عليها القناطر، وفي نيسابور كان يهبط المرء سبعين مرقاة ليصل إلى تلك القنوات الجوفية، وهي تسقي ضياع البلد، وتدور في محلاتها، وتمد أهلها بماء الشرب[٤].

وقد علق آدم ميتز على هذا نظام الري هذا بقوله: «كان هذا التنظيم يحتاج إلى مهارة كبيرة إذا كان لا بد للقائمين به أن يعالجوا الطبقات الأرضية التي يجري عليها الماء في المواضع التي يجدون فيها أرضًا لا يخترقها الماء، كما كان لا بد لهم من أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلاً يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده، وكان يستعمل من الآلات المائية لرفع الماء إلى سطح الأرض الدولاب والدالية القرافة والناعورة»[٥].

---

(١) الحضارة الإسلامية ج٢ / ٣٣٥ .

(٢) الخراج ص ٨٦ .

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ المقدسي ص ٣٣٠، ٣٣١، ط ليدن .

(٤) السابق ص ٣٢٩ .

(٥) الحضارة الإسلامية ج٢ / ٣٣٨ .

ولا شك أن هذا يدل على عظم تقدم العلوم عند العرب إلى هذا المدى من علوم الأرض، ولقد بنيت السدود على الأنهار من الخشب والحجر، وكان سد الشاذوران الحجري جنوب «تستر» عرضه ألف ذراع، وكان يفصل نهر «مشرقان» عن نهر دجلة، وقد بنى عصر الدولة البويهي واحدًا على نهر الكربين شيراز وإصطخر فتبخر الماء خلفه وارتفع فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب، تحت كل دولاب رحى، وأجرى ماءه في قنوات تسقي ثلاثمائة قرية[١]، وقد أفرد المقريزي في كتابه «الخطط» قسمًا مفردًا لتعداد القناطر المقابلة على النيل والمجاري الفرعية التي تأخذ منه[٢].

وقد زرع المسلمون الحبوب والخضر والفواكه بأنواعها المختلفة، كما زرعوا أشجار الزيتون واستخرجوا الزيت منه ومن غيره من الحبوب الزيتية، واستخرجوا السكر من القصب حتى انتقل لفظه العربي إلى أوروبا، واعتنوا بتربية الأزهار واستخراج العطور، وكان خراج فارس يتضمن ثلاثين ألف قنينه من عطر الورد الأحمر، ترسل إلى بيت مال الخلافة في بغداد، واستعمل المسلمون العطور المستخرجة من البنفسج والنرجس والزنبق والقرنفل[٣].

في مجال التعدين والإنتاج الصناعي:

وجه القرآن الكريم إلى أهمية الصناعة وضرورتها في الحضارة بما ذكر في آياته الكريمة من الخامات التي أوجدها الله في باطن الأرض، وامتن الله سبحانه وتعالى على خلقه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾[٤] وذكر القرآن الكريم ما أفاضه الله على نبيه داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٤٤ .

(٢) الخطط والآثار/ أحمد بن علي المقريزي ج٣ / ٢٣٧ - ٢٤٦ط النيل ١٣٢٥هـ .

(٣) الحضارة الإسلامية ص ج٢/ ٣٠٢، ٣١٠ .

(٤) سورة الحديد: الآية ٢٠ .

(٥) سورة سبأ: الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٨٠ .

تَحَارِيبَ﴾[١] ويلفت القرآن الكريم النظر إلى ما أودعه الله في البحر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[٢].

وأشار القرآن الكريم إلى عدة صناعات: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[٤].

وانطلاقًا من هذه الدعوة القرآنية لهذه الصناعات - التي تتطلب عقولاً تفكر وآياد تعمل - عمل المسلمون في استخراج المعادن والأملاح والمعادن والجواهر وقطع الأحجار والأشجار، واستغل المسلمون استخراج وصناعة الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والفحم والزئبق ومواد الصباغة[٥].

قد ذكر ابن النديم في الفهرست كثيرًا من علماء المسلمين الذين برعوا في مختلف الصناعات، فذكر أن ابن خلف المروزي تخصص في صناعة آلات الرصد، ومحمد الحسن الشلوي ألف كتابًا في كيفية صناعة البنادق[٦]، والحسين بن علي ألف كتابًا في عمل الساعات[٧].

وفي المعادن والأحجار نجد ابن زهر الأندلس ألف كتابًا في خواصّ الأشياء[٨].

وكذلك أبو سعيد بن مضر بن يعقوب الدينوري، وكتب البيروني كتابًا في المحاجر أسماه: «المحاجر في معرفة الجواهر»، والرازي وكتابه: علل المعادن والجواهر والخواص، والكندي وكتابه: الأحجار والمعادن. وقد أورد البلاذري خبر

(١) سورة سبأ: الآية ١٢ .

(٢) سورة النحل: الآية ١٤ .

(٣) سورة النحل: الآية ٨١ .

(٤) سورة النحل: الآية ٨٠ .

(٥) الحضارة الإسلامية ج٢/ ٣٥٠ - ٣٦٨ بتصرف واختصرر.

(٦) الفهرست/ محمد بن إسحاق بن النديم ج٨/ ٤١٠ .

(٧) السابق ٩/ ٤٠ .

(٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب/ ابن العماد الحنبلي ج٢ / ٧٤ .

جباية ما فرض على النفاطات وهي موارد النفط في أرض شروان قرب بحر قزوين، وكان في جيوش المسلمين فرق النفاطين التي تستخدم النفط في حرق تحصينات العدو من مجانيق ودبابات وغيرها[١].

وتفنن المسلمون في صناعة أنواع النسيج المختلفة من حرير وكتان وصوف وقطن، واشتهر الدمقسى والدبيقي (نسبة إلى ديبق بمصر) وأن مسلمي الأندلس وصقلية علموا نصارى تلك البلاد خبراتهم في النسيج، كما علموهم تربية دود القز لأجل إتباج الحرير[٢].

وبالنسبة للقوى المحركة لم يفت المسلمين الاستفادة من حركة الماء، فقد ذكر المقديسي: أن أهل البصرة أقاموا أرحية على أفواه الأنهار ليديرها الماء داخلاً - خارجًا[٣]. ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا حيث لا توجد الأنهار، كما انتفع من الريح في إدارة الأرجاء، وكذلك حقق المسلمون تقدمًا في صناعة الأجهزة العلمية للكيمياء والرصد والجراحة وغيرها[٤].

إن هذا العطاء الحضاري الذي أفرزته العقلية الإسلامية والذي عاشت البشرية في ظله قرونا من الزمان، إنما جاء كنتيجة للاستجابة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٥] وكذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٦]. إن هذه الأمة قبل نزول القرآن لم يكن لها ذكر في العالم، وكانوا أحط الأمم على وجه الأرض، ولكن جاءهم الرسول ﷺ بوحي السماء، فأنزلوه منزلة في نفوسهم، وتحركت به جوارحهم فحولهم إلى أرقى الأمم وأعزها، وأصبحوا سادة البشرية، قضوا به على سلطان كسرى وقيصر، وصنعوا أعظم حضارة

---

(١) فتوح البلدان/ ٢٠٧ - ٢٠٨ مرجع سابق .

(٢) المسلمون في تاريخ الحضارة/ ١٠٢ .

(٣) أحسن التقاسيم/ ١٢٥ .

(٤) انظر: الحضارة الإسلامية/ ج٢/ ٢٥٧، ٢٧٠ .

(٥) سورة الإسراء: الآية ٩ .

(٦) سورة الأنفال: الآية ٢٤ .

اتخذت الله غايتها، والرسول قدوتها والقرآن دستورها والجهاد سبيلها، فتحقق الخير للعالم وللإنسان أيًّا كان لونه وعقيدته.

ولكن خلفاء الشيطان وأعداء البشرية يحاولون طمس نور هذه الحضارة، فحاربوها في عقر دارها بشتى السبل للقضاء عليها.



الفصل الثالث
المفهوم الحضاري في الفكر الغربي

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسس الحضارة الغربية.

المبحث الثاني: مفاهيم الحضارة الغربية للإنسان والكون والحياة.

المبحث الثالث: آثار الحضارة الغربية.



الفصل الثالث
المفهوم الحضاري في الفكر الغربي

تمهيد:

الفكر الغربي الذي يكون الحضارة الغربية ترجع جذوره إلى عهود قديمة تبدأ من العهد اليوناني إلى عصر النهضة الأوروبية التي بدأت مطلع العصرالحديث، ولكن الخطوط العريضة لتلك الحضارة كانت تتجمع منذ القرن الأول الميلادي، واكتملت في القرن الرابع، ولبيان ذلك لا بد أن نذكر شيئًا عن المجتمع الإنساني في ظل الإمبراطورية الرومانية.

في القرن الثاني (ق.م) أخضع الرومانيون الدولة اليونانية لسلطانهم، وأصبحت ولاية تابعة لهم، والدولة اليونانية كانت دولة وثنية، أخذت معتقداتها من الديانات المصرية القديمة على تعبير «وول ديورانت» من أن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة، وأن الشرق عرض عليهم الدين. وكانت الغلبة للدين؛ لأن الفلسفة كانت ترفًا يقدم للأقلية الضئيلة، أما الدين فكان سلوى الكثيرين[(١)].

ولقد تميزت الحضارة اليونانية بنزعتها المادية؛ وذلك لأنها لا تؤمن إلا بالمحسوس ولا تعطي تقديرًا لما لا يقع تحت الحس، كما أنها شديدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها مع غلبة النزعة الوطنية عليها. وهذه النزعة المادية برزت من الثقافة اليونانية، من فلسفة وشعر ودين. ومن هذه النزعة جاء تصورهم لله وصفاته وقدرته في شكل آلهة شتى نحتوا إليها التماثيل وبنوا لها المعابد والهياكل. ولقد عبر الفيلسوف «ديمقريطس» عن هذه المادية في تصوره للوجود في قوله: «لا يوجد شيء في الحقيقة سوى الذرات والفراغ»[(٢)].

وإلى جانب هذه المادية قامت أفكار تهدف إلى تمحيص حقيقة الدين وتدعو إلى

---

(١) قصة الحضارة ٣/ ٤٧ .

(٢) قصة الفلسفة / وول ديورانت ص ٧، ط مكتبة المعارف، ط الرابعة . بدون تاريخ.

التوحيد. فقد كان «أفلاطون» ومن بعده تلميذه أرسطو يدعوان إلى ذلك حيث قالا: «إن السبب الأول الأزلي المبدأ لكل حركة وتغير ليس هو المادة، بل روح عاقل مدبر متصرف»[١]. إلا أن هذه الأفكار لم تجد صدى لها في مجتمع لا يفرق بين الدولة والدين، وهما في نظره شيء واحد.

يقول وول ديورانت: «لم يكن للدولة دين أسمي يتمسك به جميع أفرادها، أو عقائد ثابتة مقررة، ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة، بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية، وكان في وسع أي إنسان أن يؤمن بما شاء من العقائد»[٢]. ولذلك كان لكل أسرة أو جماعة أو مدينة إلهها الخاص بها، ولكل مهنة أو فن إله خاص به، يوقدون له النار، ويقدمون له القربان، وكانوا يعتقدون أن للرزق إلهًا وللرحمة إلهًا، ونسبوا إلى تلك الآلهة كل ما يختص بالجسم المادي، ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات وصور المعاني المجردة في أجسام وأشكال، فللحب إله وللجمال إله. وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة في فلسفة «أرسطاطاليس» إلا رشحة من رشحات هذه المادية لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية[٣].

وكانت القوانين اليونانية ترى أن الامتناع عن عبادة آلهتها جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام، ولذلك حكم على سقراط بشرب السم حتى الموت حين قال بوجود إله واحد وأن هناك بعثًا بعد الموت. وقال بوجود شريعة أخلاقية، ولم يقدم الأضاحي لآلهتهم[٤].

هذه هي الحضارة اليونانية في الجانب العقدي. ولم يختلف الجانب الأخلاقي عنه في شيء فقد كان مذهب «أبيقور» يقول «بأن الشعور بالألم واللذة هو معيار الخير والشر، ومقياس الفضيلة وما يعرف بالأخلاق هو من اختراع الضعفاء ولتقييد الأقوياء»[٥]. وقالت المدرسة الرواقية بوحدة الوجود، وفسروا ذلك بقولهم بوجود

---

(١) الدين/ محمد عبدالله دراز ص ٥، مطبعة السعادة ١٩٦٢م .

(٢) قصة الحضارة ٢/٣٤٨، ٣٤٩، مرجع سابق .

(٣) انظر: السابق ٢ / ٣١٧، ٣١٩، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٧ .

(٤) قصة الفلسفة ص ١٥، مرجع سابق .

(٥) السابق ص ٨، والدين/٨ .

روح يدير العالم، وأن هذه الروح ما هي إلا من العالم يسري في مادته سريان الماء في العود، غير شاعر بنفسه وأنه خاضع لقانون طبيعي، وأن لكل عنصر من العناصر روحًا ساريًا فيه هو إلهه الخاص به وقالوا بأن مبدأ الفضيلة هو التحرر من اللذائذ والآلام، وذلك بمكافحة العاطفة الإنسانية، والوجدان الطبيعي، والبلوغ بهما من الجمود والتحجر إلى حد الجسارة على الافتخار وعدم المبالاة بأكل لحم الآدمي(١).

هذه بعض السمات العامة للحضارة اليونانية التي استولى عليها الرومان، فأصبحت دولة اليونان ولاية تابعة لهم. وهذا الفتح كان سببًا في نقل الأفكار والمعتقدات إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية؛ لأن الشعب الروماني لم يكن شعبًا مبتكرًا بقدر ما كان مميزًا في القوة والتنظيم وصفات الجندية.

يذكر «ليكي» في كتابه «تاريخ أخلاق أوروبا» أن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة بما أنتجوها وزادوا فيها على مر العصور. وكانت روما لا تزال في طورها الجندي لا تملك أثرًا من الآثار الأدبية، بل كانت لغتها قاصرة في التعبير عن الأفكار والمعاني العالية، فغلب الروم بتخلفهم وقصورهم في العلم، وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية، ولم يزالوا مأخوذين بسحرهم في كل قسم من أقسام العلم. وكان المؤرخون الأقدمون من الروم يؤلفون كتبهم باليونانية(٢).

وتأثر الرومانيين بحضارة اليونان لم يقف عند حد التأليف، بل شمل الأخلاق والعادات والعواطف والنزعات، وفي كل ناحية من نواحي الحياة العامة والدين والاعتزاز بالقومية والتعصب لها، حتى اشتهر أن اليونان المغلوبة هي التي أثرت قاهرتها روما، وذلك لغزو الثقافة اليونانية للإمبراطورية الرومانية، يذكر «ليكي» أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ في دينهم، وإني أعذرهم في ذلك؛ فإن النظام الديني الوقتي الخرافي الذي كان سائدًا في رومية يقتضي بطبيعة الشك والاضطراب وضعف الإيمان، فكلما تقدموا في العلم وتنورت أفكارهم، ازدادوا استخفافًا به، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لا دخل لها في السياسة وأمور الدنيا، وقد كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزؤون بها في دور التمثيل، وبرزت العاطفة الدينية في

(١) الدين ص٩ مرجع سابق .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨١ .

قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها لما غرق أسطول للإمبراطور أغسطس استشاط الناس غضبًا وحطموا تمثال «نبيتون» إله البحر[١].

ونظرًا لهذا الكساد الديني في نفوس الرومان احتلت الأثرة والأنانية قلوبهم، وسيطر على أفكارهم احتكار الأمم الأخرى واستغلالها لمصلحة وطنهم فقط. يقول العالم الألماني «محمد أسد»: «كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية: الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الرومي فقط، في سبيل الترفيه عن فئة ممتازة، ولم ير الرومانيون في عنفهم سوءًا ولا في ظلمهم احطاطًا، وأن العدل الروماني الشهير كان عدلًا للرومانيين وحدهم فقط، ومن البين أن اتجاهًا كهذا كان ممكنًا فقط على أساس إدراك مادي محض للحياة والحضارة. وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق فكري ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية.

إن الرومانيين لم يعرفوا الدين، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة لأساطير وخرافات اليونان. وقد آمنوا بها حفاظًا على العرف الاجتماعي الذي كان يوحدهم، ولم يكن يسمح لها بالتدخل في أمور الخياة العملية، بل كان لها أن تتكهن بالغيب على ألسنة عرافيها إذا سئلت عن مثل ذلك، ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية[٢].

ولهذه التصورات الفاسدة للإله وللكون والحياة والإنسان عن الانحطاط الخلقي والفساد الاجتماعي في نواحي الحياة المختلفة، حتى كاد البناء الاجتماعي أن ينهدم، وفي ظل هذه الظروف أرسل الله رسوله سيدنا عيسى عليه السلام ليعدل الملة اليهودية التي طمست الوثنية معالمها، وبلدت المادية روحها، فكانت رسالته ﷺ دعوة إلى التطهر من أرجاس المادة والتسامح الروحي وحب الغير للسمو بالروح إلى خالقها سبحانه وتعالى.

وكانت دعوته عليه السلام إلى بني إسرائيل خاصة كما نطق القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٣]، ولكن اليهود وقفوا منه موقفًا عدائيًا

---

(١) السابق ص ١٨٢ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٨، ترجمة عمر فروخ ط ١٩٧٧م، دار العلم للملايين .

(٣) سورة الصف: الآية ٦ .

وكذبوا عليه، ووشوا به إلى الحاكم الروماني بيلاطس، واستصدروا أمرا منه بالقبض عليه والحكم بإعدامه صلبًا، ولكن الله سبحانه وتعالى نجاه من غدرهم وتآمرهم وتوفاه ورفعه إليه قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(١)].

وبعد رفع المسيح عليه السلام وقيام اليهود بصلب من ألقى الله شبهه عليه[(٢)] نزلت الشدائد بالمسيحيين قتلا وحرقًا وتشريدًا وإرهابًا، استمرت عدة قرون أشدها عصر «نيرون» وعصر «دقلديانوس» حيث أصبح اعتناق المسيحية جريمة يعاقب عليها القانون، واستمر هذا الاضطهاد إلى القرن الثالث الميلادي[(٣)].

وعلى اثر هذه الاضطهادات انتشر العداء بين اليهود والنصارى، وانتهى بانفصال أتباع المسيح عن اليهود وانفصال - النصرانية عن اليهودية. لقد جاءت النصرانية في الأصل لتكون تجديدًا لليهودية وتعديلاً لبعض أحكامها، ولم يعد للنصرانية شريعة مفصلة - بعد هذا الانفصال تنظم الحياة، كما ترتب على الاضطهادات أن تخفى تلاميذ المسيح وأتباعهم واضطروا إلى التنقل والعمل سرًا في فترة الاضطهاد، وهذا الخطر المفروض عليهم جعلهم يتناقلون نصوص الإنجيل وتاريخ عيسى عليه السلام وأحداث تلك الفترة أحدث تناولاً خاطئًا في ظروف لا تسمح بالتواتر ولا بالدقة المطلوبة مما انتهى إلى رواية نصوص الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام في ثنايا روايات عن حياته وأعماله، يختلف بعضها عن بعض فيما سمي بالأناجيل، وهي كلام هؤلاء التلاميذ ورواياتهم عن حياة السيد المسيح، متضمنة في ثناياها بعض ما يروى من كلام المسيح عليه السلام، وقد كتب أقدم هذه الأناجيل بعد المسيح عليه السلام بجيل كامل، مما جعل المؤرخين للنصرانية يختلفون اختلافا كبيرًا في تحديد تاريخها واللغة التي كتبت بها حيث لم توجد عبارات تشير إلى وجود أناجيل قبل عام ٢٠٩م[(٤)].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٥ .

(٢) يراجع التفاصيل في كتاب: النصرانية لأبي زهرة . ولا أريد التعرض له حتى لا يخرج الحديث عن موضوع البحث .

(٣) راجع تفاصيل الاضطهادات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج١/ ٣٧، ٣٨، والمسيحية/ أحمد شلبي ٨٣ - ٨٥، والنصرانية، لأبي زهرة ص ٢٩ - ٣٢ .

(٤) انظر النصرانية/ لأبي زهرة/ ٣٣، ٤٦ ط دار الفكر العربي .

وقد دخل كثير من الرومانيين المسيحية وفي رأسهم تعاليم الوثنية المنتشرة في الإمبراطورية، ومن كان يعمل بالتقية من المسيحيين فيظهر الوثنية ويبطن النصرانية خوفًا من الاضطهاد، وقد أدى هذا الوضع إلى اختلاط الوثنية بتعاليم سيدنا عيسى عليه السلام. ومن هؤلاء الوثنيين بولس اليهودي الذي تولى نشر النصرانية في أوروبا مختلطة بما ترسب في ذهنه من الوثنية الرومانية والفلسفة الإغريقية وقام بكتابة رسائله في النصرانية، وهي كلها تشهد على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة وخاصة الحلول والاتحاد والدعوة بأن المسيح عليه السلام إله[1].

ولقد بلغت دعوته الأنحاء وخاصة بعد إعلان ميلان الذي أصدره الإمبراطور «قسطنطين» عام ٣١٣م، حيث اعترف بالديانة المسيحية كإحدي الشرائع المعترف بها في الإمبراطورية[2]، وهذا الاعتراف جعل كثيرًا ممن لا يدينون بالمسيحية أن يدخلوها لاعتلاء مذهب الدولة وخاصة بعد مؤتمر «نيقيه» سنة ٣٢٥، الذي انعقد بسبب اختلاف المسيحيين أنفسهم حول شخص المسيح عليه السلام من أنه رسول فقط أو أنه ابن الله وكل يدعي أن نحلته هي المسيحية الصحيحة، وتدخل الإمبراطور الوثني وحكم للقائلين بألوهية المسيح وأنه ابن الله، وأمر باضطهاد وقتل من يقول بخلاف ذلك[3].

يذكر درابر الأمريكي هذا الحادث وآثاره على النصرانية فيقول: «دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يومًا من الأيام، وكذلك كان قسطنطين عبدًا للدنيا والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئًا رأى لمصلحته ولمصلحة الحزبين المتنافسين النصراني والوثني أن يوحدهما ويؤلف بينهما، وظلت الوثنية والأساطير تتلبس بالنصرانية حتى أصبحت جزءًا منها، ثم زادت الطين بلة أن أصبحت العقيدة تغير وتنقح لتحقيق أهداف سياسية والتوفيق بين المتنازعين في الخلافات العنصرية[4].

---

(١) الله/ عباس العقاد ص ١٦٦ . دار الكتاب اللبناني . ط بيروت . بدون تاريخ.

(٢) أوروبا في العصور الوسطى ج١/ ٣٩ . مرجع سابق .

(٣) النصرانية ص ٢١٢ . مرجع سابق .

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٥ ببعض التصرف والاختصار .

كان للخلافات السياسية والعنصرية آثار في الابتداعات والإضافات والتعديلات في النصرانية. يذكر «توماس أرنولد» ذلك فيقول: «ولقد أفلح «جستيان» قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهرًا من مظاهر الوحدة، ولكن سرعان ما تصدعت بعد موته، أما هرقل فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحًا في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية ولكن ما اتخذ من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه، ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية، فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرًا يستعين به على أن يوقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية[١]، فتفسير الدين والعقيدة لم يكن لأجلها ولكنها محاولات سياسية لتوحيد الإمبراطورية الممزقة. وتوالت المجامع بعد ذلك بسبب الخلافات في العقيدة لحسم هذه الخلافات لصالح سياسة الإمبراطور[٢]. مما عظم التحريفات والتعديلات في العقيدة النصرانية كل ذلك قد عمل على دخول عناصر غريبة وثنية على العقيدة والدين الإلهي كله.

ولما بلغت الدولة الرومانية أوَج عظمتها في الناحية الحربية، كانت قد وصلت من الناحية الأخلاقية إلى أقصى درجات الانحطاط، وفي الناحية الدينية إلى أسفل الدركات، عند ذلك أرادت الكنيسة أن تقف في وجه الترف والشهوات التي نجمت عن تلك الحضارة، فابتدعت الرهبانية من عند نفسها وما أنزل الله بها من سلطان. وهذه الرهبانية المبتدعة قامت على تعذيب الجسد وحرمانه من طيبات الحياة، واعتبار النظافة والتطهر من الإثم الذي يعاقب عليه الإنسان، وقد روى المؤرخون عن الراهب «مكاريوس» أنه نام في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام. والراهب يوسيبس قد أقام ثلاثة أعوام في بئر نُزِح، وكان بعض الرهبان لا يكتسون، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار والمقابر، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٥٢، ٥٣ باختصار.

(٢) انظر التفاصيل في/ المسيحية الرابعة/ د. رؤوف شلبي ص ١٢٨، ١٣٣، ط مكتبة الأزهر.

الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء[١]، وغير ذلك من أمور تخالف فطرة الإنسان. وهذا الاعتقاد الباطل ما أنزل الله به من سلطان، اخترعه الناس من عند أنفسهم؛ لأن الله سبحانه خلق الإنسان وزوده بغرائز ليحصل بها أسباب الحياة وتساعد على نمائها. وقد قال ابن تيمية - رضي الله عنه -: إن النفوس لا تترك شيئًا إلا بشيء، وإنها قد خلقت لتعمل لا لتترك[٢].

وهذا ما حدث نتيجة لمصادمة الفطرة، فقد انتشرت الدعارة والفجور والتساقط على الشهوات بين الرهبان والراهبات في الأديرة، وتسرب الضعف والانحلال إلى المراكز الدينية، وانحطت أخلاق البابوات انحطاطًا عظيمًا، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال، حتى إنهم كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع، حتى كان تجرؤهم على الله بإصدارهم صكوك الغفران زعمًا منهم بأنهم يملكون المغفرة وتوريث الجنة لمن يريدون، ويمنحون أجازات حل المحرمات والمحظورات لمن يريدون.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، «بل نازعت الكنيسة الأباطرة والملوك على السلطة والنفوذ في القرن الحادي عشر، وكان الصراع حول من له الحق في تعيين من يشغلون وظائف الأساقفة، وبدأ من البابا «جريجوري» السابع، والإمبراطور «هنري الرابع» واستمر من عام ١٠٧٦م إلى عام ١١١٩م وانتهى بغلبة البابا، ووقوف الإمبراطور حافيًا أمام مقر البابوية في كانوسا ثلاثة أيام وسط الثلوج يلتمس عفو البابا وتوبته عليه»[٣].

وبعد هذا الموقف أعطى رجال الدين لأنفسهم سلطات مطلقة فوق سلطة الحكام المدنيين، وتدخلوا في شؤون الحكم، وافتعلوا من أنفسهم حكومة إلهية تباشر سلطتها على أفراد المجتمع الذي تباشره الحكومة السياسية، واستغلوا سلطتهم أبشع استغلال في فرض الإتاوات المالية، مما جعل الناس يئنون تحت هذا الإرهاق، مما دفع الحكام إلى استغلال هذا السخط في إثارة الرأي العام على الكنيسة ورجالها.

ومن هنا ظهرت مشكلة الفصل بين الدين والدولة. وتطور الأمر بالجناية العظمى التي

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٧ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم ص ١٤٣ ط المكتبة السلفية .

(٣) أوروبا في العصور الوسطى ج١/ ٣٣٩ .

جناها رجال الكنيسة على الدين النصراني وعلى الدين كله، هذه الجناية تتمثل في أن الكنيسة احتجزت لنفسها حق فهم الكتاب المقدس وتفسيره، وحظرت على أي عقل من خارج رجالها أن يحاول فهمه أو تفسيره، وأدخلت أمورًا في العقيدة والشعائر لا سبيل لفهمها أو إدراكها بالعقل، مثل: أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وأمر التثليث إلى آخر هذه الأمور، ثم أدخلتها أيضًا في الشعائر التعبدية، مثل: مسألة العشاء الرباني(١)، وفرضت الكنيسة على الناس قبول هذه الأمور المنافية للعقل(٢).

ولم تكتف الكنيسة بهذه الخرافات في العقيدة والشعائر، وإنما تعدت حدودها، فألف رجالها في العلوم الطبيعية والجغرافية والتاريخ، ووضعوا في ذلك نظريات، وصبغوها بصبغة دينية، وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها، ونبذ كل ما يعارضها، وسموا ما ألفوه الجغرافيا المسيحية، وغير ذلك من العلوم، وكفَّرُوا كل من لا يدين بها أو يقول بغيرها(٣).

وكان ذلك في عصر تأثرت فيه العقلية الأوروبية بمناهج البحث العلمي التي نشأت في الأندلس إبان الحكم الإسلامي وانفجار بركان العقلية في أوروبا، فزيفوا هذه النظريات التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها، فقد أعلن «كوبرينكي» نظرية دوران الأرض حول الشمس، في مواجهة نظرية الكنيسة في ثبات الأرض ودوران الشمس، وأعلن برنو نظرية الأفلاك المتعددة والتي تقول بأن الفضاء غير محدود، وأن الشمس وكواكبها ليست إلا واحدة من عدة مجموعات مشابهة(٤) وغيرها من النظريات.

ولهذه الآراء الجديدة التي خالفت النظريات التي قال بها رجال الكنيسة، قامت قيامة رجال الدين، فكفروا العلماء، وحرموا نظرياتهم، وصادروا كتبهم، وأنشؤوا

---

(١) مسألة العشاء الرباني مسألة استحدثتها الكنيسة، ومفادها أن النصارى يأكلون في عيد الفصح خبزًا ويشربون خمرًا، ويسمون ذلك العشاء الرباني، ويزعمون أن الخبز يتحول إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه، فمن فعل ذلك فقط أدخل المسيح في جسده .

(٢) النصرانية/ لأبي زهرة ص ١١٤/ ١١٥ .

(٣) انظر في ذلك أوروبا في العصور الوسطى ج١/ ٥٠٤ .

(٤) حقيقة العثمانية ص ١٤ .

محاكم التفتيش، وارتكبوا من الجرائم ما يندى له جبين الإنسانية. فقد عاقبت هذه المحاكم ثلاثمائة ألف، وأحرقت اثنين وثلاثين ألفًا أحياء، وكان معهم العالم «برنو» الذي حكمت عليه الكنيسة بالقتل دون أن تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حيًا[١].

ولذلك ثار العلماء على رجال الكنيسة وعلى الدين ككل، ورفضوا كل ما يتصل بالدين ورجاله من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب. وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا يمكن أن يتصالحا؛ فمن آمن بالأول كفر بالثاني، وانتقل ميزان القوى من الكنيسة إلى رجال الدولة والسياسة والعلم، وانتهى هذا الصراع بالفصل بين الدين والدولة، أو ما يعرف بالعلمانية، واتفق على تحديد الاختصاص حيث تختص الدولة بشؤون السياسة والاقتصاد والتعليم والتشريع، وتختص الكنيسة بشؤون الأسرة ومراسم الزواج وطقوس العبادات والوفاة فقط.

فهذه هي التربة التي نشأت منها الحضارة الغربية، فارتدت إلى وثنيتها الرومانية، وقامت على أساسها. وفي ضوء هذا التمهيد يمكن أن يبين الباحث المفهوم الحضاري في الفكر الغربي في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسس الحضارة الغربية.

المبحث الثاني: تصور الحضارة الغربية للإنسان والكون والحياة.

المبحث الثالث: آثار الحضارة الغربية.



(١) أوروبا مطلع العصور الحديثة/ عبدالعزيز الشناوي ج١/ ٤٧٢، ٤٧٦، ط الأنجلو ١٩٧٥م.

المبحث الأول
أسس الحضارة الغربية

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المادية.

المطلب الثاني: والقومية والنصرية.

المطلب الثالث: الديمقراطية.

المطلب الأول
المادية

لقد تقدم: أن العقيدة الإسلامية هي أداة التوجيه الكبرى للحياة الإسلامية، وهي الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية التي حققت نموذجًا حضاريًا لم يعهده التاريخ. وإذا انتقل الحديث إلى التصور العقدي للحضارة الغربية يظهر أن هذا التصور خلاصة الأفكار والتصورات الأوروبية القديمة اليونانية والرومانية، مضافًا إلى ذلك نتاج العلوم والفلسفة في العصور الحديثة وخرافات رجال الكنيسة.

وبسبب طغيان رجال الدين كانت الثورة على الكنيسة وعلى كل ما هو دين، حيث قام المفكرون بتحريض الناس على نبذ الدين الكنسي، ومجافاته وفصله عن الحياة، والبحث عن أسلوب آخر للحياة بعيدًا عن الدين ورجاله، ثم انتهى هذا التحريض بثورة في القرن الثامن عشر على الدين المسيحي وعقائده وكل ما هو دين[١].

(١) أوروبا في مطلع العصور الحديثة/ عبدالعزيز الشناوي ج١/ ٣٠٤ ط مكتبة الأنجلو ١٩٧٥م.

وكانت الفرصة مهيأة أمام الأوروبيين للدخول في الإسلام، ولكن الكنيسة كانت قد سدت الطريق بين أوروبا والإسلام بما كتبته عنه بصورة مشوهة، مما دفع الأروبيين للرجوع إلى معتقداتهم القديمة اليونانية والرومانية وبناء حضارتهم على تلك المعتقدات، وقامت بحوثهم في الإله والكون والدين عامة في ضوء العلم التجريبي الذي أخذوه عن المسلمين إبان حكمهم للأندلس في القرن الرابع عشر، والخامس عشر. يقول «بريفولت»: «لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد الحياة إلى أوروبا، بل إن هناك مؤثرات إسلامية أخرى بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية»[١].

وقد أدى التحرر من سلطة الكنيسة إلى النزعة الفردية، والاتجاه إلى تشكيل الحياة وتطويرها بعيدا عن منهج الله.

يقول المودودي: «بعد التحرر من سلطة الدين والكنيسة قرر أصحاب الحركة العلمية أن يحاولوا حل لغز الكون بدون أن يفرضوا وجود إله أو ذات قوة طبيعية، وأن يعدوا كل طريقة تبحث في مسائل الكون بفرض وجود الإله طريقة رجعية غير علمية، وبذلك نشأ في قلوب أهل الحكمة والفلسفة في هذا العصر الجديد تعصب على الوجود الإلهي والروح وكل ما فوق الطبيعة، لم يكن آتيًا من ناحية العقل والاستدلال، بل كانت نتيجة لثورة العواطف وغليانها، فكان هؤلاء الحكماء والفلاسفة لا يتبرؤون من ذات الله بحجة أنه قد ثبت لهم عدم وجوده بالأدلة والبراهين، بل كانوا ينفرون منه لكونه معبود خصومهم وإله المخالفين لحرية فكرهم، ومن ثم كان كل ما أتت به عقولهم وأفكارهم وأنتجته مساعيهم العلمية ثابتًا من جذور هذه النزعة غير المنطقية»[٢].

واتسعت دائرة هذا النزاع، ودخل العلم ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع، ووضع علماء النهضة صرحًا لنظام الحياة الجديدة بعد سقوط الكنيسة، ونتج عن ذلك أمران لهما الأثر البالغ في الحضارة المعاصرة.

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة/ سيد قطب/ ٣٥ دراسات الفلسفة الحديثة/ محمد زقزوق ص١٦ط دار الطباعة المحمدية . بدون .

(٢) نحن والحضارة الغربية للمودودي ص ١٤، ١٥ دار الفكر . بدون تاريخ.

الأمر الأول: اتجاه الغرب إلى تراثهم اليوناني والروماني القديم، واتخاذه نموذجًا للحياة.

الأمر الثاني: عزل الدين عن الحياة بمختلف نواحيها، وتغلغل الإلحاد والشك في كل ما يأتي به الدين، وبالعكس ما يأتي به العلم والعلماء.

واتجه الفكر الغربي إلى المادية بكل معانيها، وقام علماء الفلسفة والعلوم بالبحث والنظر في الكون نظرًا مؤسسًا على إلغاء فكرة الألوهية، أو أن هناك قوة وراء الطبيعة تتصرف في هذا العالم. وصاروا يفسرون هذا العالم ويعللون ظواهره وآثاره بطريقة ميكانيكية بحتة، وسموا هذا نظرًا علميًا مجردًا. وانتهى بهم هذا الطريق إلى أنهم جحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة. والأمور لم تصل إلى هذا الحد دفعة واحدة؛ لأن طبائع النفوس بطيئة التحول، وخاصة في شؤون العقيدة، وتحتاج إلى زمن طويل يمتد إلى أجيال، فقد ظل اتجاه الفلسفة والعلوم التجريبية هو الجمع بين النظر في المادية والطقوس الدينية بالتقليد أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقضي الإبقاء ولو بالاسم على نظام ديني يؤلف بين أفراد الأمة ويحفظها من الفوضى، ولكنه كلما تقدم في الزمان؛ ظل المذهب المادي يتغلب على الإيمان حتى خلت العلوم من تصور وجود الإله وكل ما وراء الطبيعة.

ويشهد بذلك تاريخ الفلسفة والعلوم الغربية، فمثلاً «ديكارت» الذي يعد أبًا للفلسفة «يؤمن بوجود الله عز وجل وبالروح مستقلة عن المادة، وفي نفس الوقت يؤمن بأن آثار العالم الطبيعي تسير وحدها من غير تدخل الله عز وجل فيها، على حد تعبيره تسير بطريقة ميكانيكية، ومعناها: أن الأحداث في العالم لا ترتبط فيما بينها إلا برباط العلية والسببية[1]، ومن بعد «توماس هوبس ١٥٨٨ - ١٦٧٩» جعل من الحس وحده مصدرًا للمعرفة، وينكر ما فوق الطبيعة علنًا، يقول إنه لا توجد قوة عقلية ولا روحية تملك التصرف في الدنيا المادية، ومع ذلك يعتقد بالله؛ لأن الاعتقاد

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا: أ .م بوسنكس، ترجمة عزت قرني (٢٣) عالم المعرفة ص ١٦٥، دراسات في الفلسفة الحديثة) محمود زقزوق/ ١١٦ . مرجعه سابق .

يمثل هذه العلة للعلل ضرورة يستلزمها العقل[١]، ويقول «اسبنوزا ١٦٧٧» بإعلان المادية البحتة؛ وهي أن الله والطبيعة شيء واحد[٢].

وظل الفكر الغربي السائد في القرن السابع عشر يتماشي فيه الإيمان بالله مع المذهب المادي جنبًا إلى جنب، حتى كان القرن الثاني عشر وفيه تقدمت العلوم الطبيعية، واخترعت الآلة، وقامت الثورة الصناعية مما أدى إلى تعزيز المذهب المادي وافتتن الأوروبيون بالتقدم المادي، واغتر الإنسان بآلته، فأدعى لنفسه ما ليس لها، فنسب إليها القهر والحكمة والعلم والإبداع، وظهرت المؤلفات التي تمجد الإنسان وترفعه فوق مرتبة الألوهية. وساعد على تثبيت تلك النزعة في المجتمعات الأوروبية كبار الفلاسفة والمثقفين من أمثال «فولتير»، «جان جاك روسو» حيث قالوا: إن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة وأغراض طارئة على البشرية. حتى قال فولتير: إن الإنسانية لا بد أن تكون قد عاشت قرونًا متطاولة في حياة مادية خالصة، قوامها الحرث، والبحث والبناء، والحدادة، قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات، وأن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاما ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء»[٣].

هذه النظرة الساخرة إلى للدين مجانبة للصواب، ومخالفة للفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهي أن الإنسان عابد بطبعه الذي فطره الله عليه، والبداية الأولى للبشرية كانت على الدين والعبودية لله عز وجل، وكان ذلك متمثلاً في سيدنا آدم عليه السلام كما قص علينا القرآن ذلك في سور كثيرة، ثم بعد ذلك أرسل الله عز وجل لكل أمة رسولاً قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[٥]، وطبيعة الأمم: أن يوجد فيها من يؤمن

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة/ يوسف كرم ص ٥٤، ٥٥ بتصرف، دار المعارف، بدون تاريخ.

(٢) قصة الفلسفة ص ٢٠٤ مرجع سابق .

(٣) الدين/ د . محمد عبدالله دراز ص ٨١، ٨٢، مرجع سابق .

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٤ .

(٥) سورة النحل: الآية ٣٦ .

ومن يكفر، ولكن في النهاية إن الإنسان لا بد أن يكون عابدًا لمعبود ما، وهي الفطرة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه**»[١]. فهذا الحديث يضع قاعدة عامة في كل الأجناس البشرية؛ وهي اشتراكهم جميعًا في الغريزة الدينية. وقد قال الفلاسفة الملحدون بذلك، منهم «برجسون»: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة»[٢].

والحضارة المادية المعاصرة تؤكد الحقيقة الثابتة للتدين، فهذه الشعوب لم تعبد الله، وإنما اتخذت من دونه آلهة أخرى تمثلت في الدولة والحزب والمصلحة أو العلم وغيرها، فكلها آلهة تعبد من دون الله عز وجل، كلها سماها الله عز وجل آلهة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٣] قال الإمام الرازي: «كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدًا منها»[٤] ولقد عبر العالم الألماني محمد أسد عن هذه الحقيقة القرآنية في قوله: «لا ريب في أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذ. أما الأوروبي العادي ديمقراطيًا كان أو فاشيًا رأسماليًا كان أو اشتراكيًا، عاملًا باليد أو رجلًا فكريًا إنما يعرف دينًا واحدًا وهو عبادة الرقي المادي والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة سوى تحرير الحياة من قيود الطبيعة، وأن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما وباحات الرقص، وكهنة هذه الديانة الصيارفة، والمهندسون ونجوم السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران. وأما على الجانب الثقافي، فهو ظهور نوع بشري تنحصر الفضيلة في نظره في مسائل الفائدة العلمية، وأسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (ك) الجنائز (ب) ما قيل في أولاد المشركين ج٣ / ٢٩٠ (ح) ١٣٨٥، ومسلم ج٤/ ٢٠٤٧ (ح) ٢٢ .

(٢) الدين/ ٨٥ .

(٣) الجاثية: الآية ٢٣ .

(٤) مفاتيح الغيب ج١٤/ ١٨١، ط دار الغد العربي ١٩٩٣م.

(٥) الإسلام على مفترق الطرق/ ٤٧، ٤٨ .

والسخرية من الشرائع من ميراث الفكر اليوناني القديم الذي أخذت منه الحضارة المعاصرة أسسها، فقد زعمت السوفسطائية أن الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ولا وازع من خلق، وأنه كان لا يخضع إلا للقوة الباطشة، ثم وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة، فهنالك فكَّر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترعى كل شيء، وتسمع كل شيء، وتهيمن بحكمتها على كل شيء[١].

وبلغت المادية غايتها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وذلك لاتجاه الفكر الغربي إلى سيادة الطبيعة، واستقلال الحس كمصدر للمعرفة، وهذا المذهب كما يقول الدكتور: «يقدر الطبيعة، ويجعلها المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية، فهي التي تكون عقل الإنسان، وأن ما يأتي من وراء الطبيعة خداع وليس حقيقة، وعلى، ذلك فالدين - وهو وحي ما بعد الطبيعة - خداع، وأن فكرة وجود الله خرافة[٢]. وقد تمخض عن هذا الاتجاه للمعرفة ثلاث نظريات شكلت دعائم الفكر الغربي الحديث في كل ميادين الحياة - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - هذه النظريات هي:

١- نظرية المادية التاريخية الماركسية.

٢- نظرية العدم أو الوجودية.

٣- مادية السلوك والتربية.

٤- نظرية الجنس.

والنظرية المادية التاريخية التي نادى بها ماركس نشأت أساسًا على المادية الغربية، فهي تقوم على أن المادة أصل الأشياء كلها، وهي سابقة على الفكر[٣]، ومظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية[٤]؛ ولهذا يقول ماركس بعدم

---

(١) الدين ص ٨٢، مرجع سابق.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي/ محمد البهي ص ٢٥٠، ط وهبه/ ١٩٩١م.

(٣) معالم التربية/ د. عجيل جاسم النشمي ص ١٠٤، ط دار المنار الإسلامية الكويت/ ١٩٨٠م.

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٠٤.

وجود إله، وأن الدين أفيون الشعوب، والناس يقبلون على الدين لأنه يحذرهم ويلهيهم عن شقاء الحياة(١)، وعلى هذا الأساس المادي فسر الحياة الإنسانية، وأغفل القيم الأخلاقية وأثرها في توجيه سلوك الناس واعتبارها قيمًا متطورة لاثبات لها.(٢) أما الوجودية التي نادى بها «سارتر»، فهي نظرية تجعل الحياة الإنسانية ممكنة، وتعتبر أن كل حقيقة لا تكون إلا بفعل عاملين هما البيئة وعامل الذاتية الإنسانية، ومعنى ذلك كما يقول العقاد: أن يهتدي الإنسان إلى وجوده بنفسه بدون إله(٣)، وخلاصتها أنها مذهب مادي بدايته إلحاد وانحلال وأنانية وذوبان للشخصية، ونهايته العدم والضياع والحرية المطلقة القاتلة.

والنظرية الثالثة هي مادية السلوك، وهذه المادية تسمى بالفلسفة البرجماتزمية، ويقصد منها أن البقاء للأصلح والحق للقوة، وأنه ليس هناك ما يمنع من انتهاك حرمة العدل والإنصاف والفضيلة من أجل هذا الهدف. وهذه الفلسفة لا تؤمن بمساواة الضعيف العاجز في الحقوق التي للقوي المتمكن. ويرى شارل بيرنز أحد مؤسسي هذه الفلسفة «أن القضاء على الضعيف وسيلة جوهرية من وسائل التقدم والرقي، وأن احترام الوالدين لا تقره هذه الفلسفة ولا يؤمن بالروحانيات. والقياس الوحيد للمستوى والمكانة الاجتماعية بالدخل المادي، وهذه الفلسفة هي المسؤولة عن رواج أدب اللذة والمجون في أمريكا، وسيطرته على عناصر الغذاء الفكري(٤). وبلغت المادية منتهاها بنظرية فرويد التي تقول: «إن الكيان الحقيقي للإنسان هو طاقته الجنسية، فهي التي تحرك وتتحكم في قيمه وأخلاقه». وإن القيم الدينية التي أقرتها الإنسانية عبر القرون إنما هي عقد نفسية لاهم لها إلا تحطيم الكيان الإنساني. فالإنسان يعيش للذة ويعمل للجنس ويصارع من أجله(٥) وعلى أساس هذه النظريات المادية تشكل الفكر الغربي في السياسة والاقتصاد والاجتماع.

---

(١) معالم التربية ص ١٠٤ مرجع سابق .

(٢) السابق ص ١٠٥ .

(٣) أفيون الشعوب ص ٩٢ مكتبة الحياة بيروت . بدون .

(٤) معالم التربية ص ١٠٨ مرجع سابق .

(٥) السابق/ ١١٠ .

فالنظام السياسي قد وضعت أصوله وأخلاقه النظرية الميكافيلية التي تقول: «أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد وضعها ميكافيلي، وقد عاش بين عامي (١٤٦٦ - ١٥٢٧) وهو على حد تعبير يوسف كرم أشهر أشياع الوثنية في عصره[١]، فقد وضع نظريته في كتابه الأمير وبين فيه دراسة مستفيضة عن أصول الحكم ومن السياسة، وشرح الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق الأماني القومية، وهذه الوسائل تتعارض تعارضًا صارخًا مع المبادئ الخلقية، فقال: إن أول شرط لكي ينشئ أمير دولة جديدة هو مقدرته على إيجاد الوحدة السياسية بأنه وسيلة سواء بالعنف أو بالاقتناع أو بالمسالمة، وأنه لا ضير على الأمير أن يستخدم الرجال أدوات لتحقيق مخططه السياسي، ثم ينبذهم إذا تطلبت المصلحة ذلك؛ لأن الغاية تبرر الوسيلة القذرة التي يلجأ إليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة. إن القوانين الخلقية وضعت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الأفراد فحسب؛ أما السياسية فلا مكان فيها للأخلاق ينبغى فبإمكان الحاكم خلف الوعود والخيانة واستعمال المكر والدهاء، كما أنه ينعى على الحاكم اتصافه بالكرم والسخاء بحجة أن هذا يكون عبئًا ثقيلاً على الدولة»[٢].

وعلى أساس هذه النظرية المادية طبعت الأخلاق الأوروبية في الداخل والخارج، في الداخل اتبع الملوك والإشراف ورجال الدين أخس الوسائل للمحافظة على ما لهم من سلطان. فقد كان نظام الإقطاع الذي انعدمت فيه كل المعاني الإنسانية والأخلاقية، حيث كان إرادة السيد صاحب الأرض هي القانون الذي يشرع لرعايتها ويحدد علاقتهم بالأرض[٣].

والنظام الرأسمالي يقوم على أساس الحرية المطلقة للفرد ونشاطه من غير قيد ولا شرط، ومصلحة الفرد هي المصلحة العليا دون اعتبار الحريات وكرامة الآخرين، وخاصة بعد قيام الثورة الصناعية التي أتت على الأخلاق من القواعد.

يقول ول ديورانت: غيرت الثورة الصناعية من القواعد الأخلاقية، وأعطت

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٥، مرجع سابق.

(٢) أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ٧١ - ٧٣ باختصار مرجع سابق.

(٣) أوروبا في العصور الوسطى ج٢ / ٢٧١، مرجع سابق.

فرصًا جديدة للغرائز المادية، وأكدت حافز الكسب إلى حد بدا فيه مشجعًا لأنانية الإنسان. لقد كانت الغرائز تجد كابحًا لجماحها في سلطة الوالدين، وفي التعليم الأخلاقي في المدارس، ولكن الثورة الصناعية أضعفت هذه الكوابح كلها وتحررت المرأة من هموم الأمومة بانتشار تحديد النسل، واستغلت لمغالبة الرجل في الأجر ولإرضاء شهواته، وقهرت المرأة على بيع عرضها لقاء لقمة الخبز[١].

أما في الخارج فقد شكلت هذه المادية الأخلاق الاستعمارية، «فقد كان الاستعمار الغربي- على حد تعبير محمد قطب- يتوسل بكل سفالات الأرض ودناءتها ليوطد سلطانه، ويمتص دماء الناس، ولا يرى في ذلك انحرافًا، فالغاية تبرر الوسيلة، ولا يهم أن تكون الغاية ذاتها نظيفة، ففي عالم المثل توجد النظافة لا في عالم الواقع»[٢]. وكان الانحطاط الخلقي في مختلف جوانب الحياة الغربية، فلم تعرف الفضيلة مقياسًا سوى مقياس اللذة والشهوة البهيمية، ولم تعرف للإنسانية حقًّا ولا كرامة إلا لمن كان من جنسهم وطبقتهم، وسأذكر الآثار المترتبة على المادية في المبحث الثالث إن شاء الله. أما الآن فالحديث عن الأساس الثاني من أسس الحضارة الغربية.

المطلب الثاني
القومية والعنصرية

القومية: صلة اجتماعية وجدانية تنشأ من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والمنافع[٣]، وهذا الاصطلاح يعبر عن ظاهرة برزت أصولها في المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر، تصور وعيًا جديدًا يمجد جماعة من الناس، يضمها إطار جغرافي ثابت ويجمعها تراث مشترك، وتنتمي إلى أصول عرقية واحدة حسبما اصطلح عليه علماء الأجناس. والقومية بهذا المعنى تدعو أصحابها إلى العمل على

(١) قصة الحضارة ص ١٠/ ٣٢، مرجع سابق.

(٢) جاهلية القرن العشرين ص ١٥٣. ط الشروق ١٩٧٧م.

(٣) المعجم الوسيط/ ٧٩٨، الوجيز ص ٥٢١.

تعزيز ثقافتهم الموحدة، وتدعيم تراثهم المشترك، وتنمية مصالحها الخاصة، مع حصر جهودهم في هذا النطاق دون النظر إلى الاعتبارات التي كانت تجمعهم قبل ذلك مع غيرهم في رباط مشترك[١].

والعنصرية: هي تعصب المرء أو الجماعة للجنس، وعلى الرغم من حداثة القومية والعنصرية، فقد ظهرت أصولها الأساسية في المدنيات التي شكلت الحضارة الغربية القديمة منها والحديثة، هذه المدنيات هي اليونانية والرومانية، ومدنيات الألمان والسلت والسلاف وبقية مقاطعات أوروبا الشمالية، ويعبر عن هذه المدنيات (بالتوتونية).

ففي الحضارة اليونانية كانت العنصرية تسيطر على عقول اليونانيين وأقوالهم وأفعالهم، فالمدرسة الأفلاطونية نظرت إلى الإنسان من زاوية عنصرية كريهة، فقسمت البشر إلى صفين يونان عاقلين، وبرابرة متوحشين، كما تذهب إلى أن الطبيعة وهبت اليونانيين عقلًا ممتازًا، أما غيرهم فهم مجردون من العقول والأفهام، وعليهم خدمة هذا الصنف الممتاز ثم أوصت بالشدة مع هؤلاء الأصناف من الخدم والعبيد وينعي على العهد الديمقراطي تسامحهم معهم[٢]. وقد سار أرسطو على سنن أفلاطون في تقسيم الأجناس، فيقول: إن الله خلق فصيلتين من الناس: فصيلة زودها بالعقل والإرادة، وهي فصيلة اليونان وقد فطرها على هذا التكوين لتكون خليفة في أرضه وسيدة على سائر خلقه، وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل به وهؤلاء هم البرابرة[٣] (ماعدا اليونان من بني آدم).

وقد فطرهم الله على هذا التقويم الناقض، ليكونوا عبيدًا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة، فمن واجب اليونان أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزلة التي خلقوا لها وهي منزلة الرق، وكل حرب شبتها اليونان لتحقيق

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ١٩٥ .

(٢) جمهورية أفلاطون/ ترجمة فؤاد زكريا ص ٤٣٣، ٤٣٤، ط عالم المعرفة .

(٣) لفظ برابرة يقصد به: مرحلة من التنظيم الاجتماعي القبلي الذي لم يرق بعد إلى مرحلة الاستقرار المدني وإقامة الدول ذات الحدود القائمة، والمجتمع البربري يعتمد أساسًا على رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفراده، وتطورت الكلمة فاستخدمت في العرف الأوروبي بمعنى عبد؛ وذلك لأن الظروف القاسية في المناطق المجاورة لحدود الإمبراطورية اضطرت بعض القبائل إلى القيام بغارات للسلب والنهب لأطراف الإمبراطورية على تلك الشعوب . لفظ برابرة أي المتخلفون - أوروبا في العصور الوسطى ج١ / ٦٠ .

هذه الغاية حرب مشروعة تنبعث من طبائع الأشياء ولا تستقيم الحياة الاجتماعية وشؤون العمل في نظر أرسطو باسترقاق هؤلاء البرابرة. فبفضل هذا الاسترقاق يتحقق توزيع الأعمال على الوجه الذي يتفق مع طبائع الأشياء[١].

وقد أخذ الرومان أخلاق وفلسفة اليونانيين في الحياة وجرت منهم مجرى الروح والدم، وقد عمق اليهود هذه المفاهيم القومية والعنصرية في نفوس الرومان، فاليهود يدعون أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله، وعلى هذا فهم يستبيحون كل الشعوب دماءً وأموالًا. وقد صرح القرآن بذلك حاكيًا قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[٢]، ثم يقولون بما أن اليهود جزء من الله وذلك لقولهم عزيز ابن الله، وكما أن الابن جزء من أبيه فنحن أبناء الله وأحباؤه. ولذلك إذا ضرب أممي إسرائيلًا فالأممي يستحق الموت، وقد صور التلمود غير اليهود بأنهم حيوانات في صور إنسان هم حمير وكلاب وخنازير بل الكلب أفضل منهم، وهم لا يعترفون بالأمي إلا للخدمة والاستعداد[٣].

وقد ورثت الحضارة الرومانية التي هي أساس الحضارة الغربية هذا الركام من الحضارات السابقة، وما عرف من العدل الروماني إنما هو عدل خاص بالرومانيين دون سائر الشعوب الأخرى، فالاعتداد بالشعب والأرض من خصائص المجتمع الأوروبي. أما النصرانية فقد حاولت محو الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان بدعوتها إلى المساواة بين الناس، ومعاملة الناس بمثل ما يعاملون به أنفسهم لتصحيح العنصرية اليهودية، واستطاعت النصرانية جمع الأمم الأوروبية تحت لوائها مدة طويلة، وغلبت العصبية القومية والنعرة الوظيفية فترة من الزمن بسبب الخلافات الدينية التي كانت موجودة بين المذاهب النصرانية[٤].

ولم ينس الأوروبيون طبيعتهم القومية العنصرية؛ لأنها كانت فوق كل أنانية؛ لذلك لما قام مارتن لوثر بحركته الإصلاحية عام (١٤٨٣) لإصلاح الكنيسة اللاتينية

---

(١) المجتمع الإسلامي/ علي عبدالواحد وافي ص ٧١، ط الأولى . الكويت .

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٥ .

(٣) انظر: الكنز الموصود في قواعد التلمود ص ٣٠ وما بعدها بتصرف .

(٤) القومية معناها وتاريخها/ هانش كهن/ ٩ط نهضة مصر .

استفاد بالألمان بني جنسه من الأمراء كي يتزعموا حركته ونجح في عمله نجاحًا كبيرًا، وبهذا أحيا الشعور القومي في ألمانيا، وهذا الشعور ساعد على هزيمة الكنيسة اللاتينية واستقلال الأمم عنها، واضمحلت الرابطة الدينية وقويت العصبية القومية والوطنية. وانقسمت القارة الأوروبية على إمارات مختلفة الاتجاهات القومية»[١].

وكان من نتائج حركة لوثر القضاء على وحدة أوروبا الثقافية والدينية، وترتب على ذلك انحطاط الدين والأخلاق ورجحان كفة الوطنية والقومية. وكان من نتيجة الانحطاط الديني: أن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات، وآمن أن الرقي المادي هو الغاية العليا والوطر الأكبر، ولا يزال هذا الأمر يزيد في مشاكل الحياة، وكان من نتائج ذلك أيضًا أنه صعب على أوروبا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقًا ينقذها من القومية العنصرية داهية هذا العصر الكبرى[٢].

وارتدت أوروبا إلى أصولها الوثنية من تراث اليونان والرومان ضاربة بالدين عرض الحائط «لأن الدين لم يكن عاملاً قوميًا لهم، وإنما كان لتحقيق أغراض الأباطرة والقساوسة»[٣].

وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية استقل ولاة الأقاليم بالحكم في مقاطعاتهم، وانتشر نظام الإقطاع وهو أسوأ ما عرفته أوروبا من نظم التفرقة العنصرية، وقامت القبائل المجاورة لحدود الإمبراطورية فاحتلت ممتلكاتها، وهي شعوب تحمل ثقافات قومية عنصرية قبلية كان لها أثر في تعميق مفهوم القومية في أوروبا. ذلك لأن الحروب التي قامت بين رعايا الإمبراطورية وتلك القبائل نتج عنها قيام الدول القومية المستقلة التي وحدت ولاء شعوبها لها، ولا ترى العالم خارج الخطوط التي خطتها الطبيعة أو خطتها بيدها لغاية سياسية واستعمارية، ولا تعترف بوجود الإنسان في غير منطقتها ولا تحترمه، واتخذت نفسها إلهًا تدين له بكل ما يدين به العباد

(١) أوروبا مطلع العصور الحديثة ص ٣١٨ مرجع سابق.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢١٤، مرجع سابق.

(٣) أوروبا في العصور الوسطى ج١/ ٤٢٨ مرجع سابق، القومية، ٨ مرجع سابق.

المخلصون من عبادة وتقديس، والأضاحي هي دماء لآخرين ونفوسهم وأموالهم وبلادهم، وهذه الشعوب كانت تعتقد بأن الشعب فوق كل شيء، وأفضل من كل شيء، وأن الله لم يخلق أفضل من هذه الأمة ولا أنجب ولا أذكى منها، وهي أحق بالحكم والسيادة والولاية على الأمم»[١].

ولقد ذكر «كافين رايلي» عن أحوال هذه الشعوب وتعصبها لقوميتها عن مواطن روماني قوله إنه يؤثر أن يواجه الإملاق أو الحرق أو السيف والوباء على الخضوع للقوط الفربيين، هذا عن اعتزاز المواطن الروماني صاحب الأرض الأصلي بنفسه وجنسيته وعصبيته لشعبه. وكذلك كانت نفسية المحتل لا تحمل رحمة ولا شفقة، فذكر نصيحة أم أحد هؤلاء الملوك لولدها: «إذا أردت عملاً يرفع ذكرك، فعليك بهدم كل ما شيده غيرك، والفتك بكل من ظفرت به»[٢]، ولقد تشكلت العقلية الأوروبية الحاضرة من هذه الثقافات العنصرية؛ وساعد على نموها العلم والفلسفة والأدب، هذه العلوم التي دونها رواد النهضة العلمية في أوروبا. وكذلك ظهور النظريات العلمية التي تحدثت عن الجنس البشري وتميزه البعض على البعض الآخر، هذه النظريات غريبة المنبع نشأت من التعصب العنصري الأعمى والخواء الروحي.

فقد ألف أرفورد غوبينو كتابه: «بحث في تفاوت العروق البشرية» عام ١٨٥٥م حاول أن يشرح فيه أسباب رقي المجتمعات وتأخرها، وانتهى بحثه إلى أن الشعوب متفاوتة غير متساوية، وبعضها أعلى من بعض. وبنى هذه النظرية على فرض خيالي هو أن البشر لم ينشؤوا من أصل واحد أو أب واحد، بل من آباء وأصول مختلفة، وتنحصر تلك الأصول في الأبيض والأصفر والأسود، ثم اختلطت تلك الأصول بعد ذلك. ثم يقول إن الجنس الأبيض هو أعلى العروق وأرفعها وأكثرها مزايا وأقدرها على الإبداع والتقدم الحضاري، والعناصر المنحطة لا يمكن أن تبلغ مستوى الثقافة التي تصل إليها العناصر الراقية[٣].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٢٣ .

(٢) الغرب والعالم/ ترجمة عبدالوهاب المسيري ج١/ ١٧٦ط عالم المعرفة رقم ٩٠ .

(٣) أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ج٢/ ٣٦٢، القومية/ ١١٠، ١١١ .

وانتقلت هذه الآراء إلى «تشمبرلن» الإنجليزي وأيد آراء «غوبينو» وتابعها «فيخته» الفيلسوف الألماني، وزاد على ذلك قوله: «يسمو الجنس الألماني وأنه شعب الله المختار لزعامة العالم»[١]. وهذه الأفكار كانت المفتاح الرئيسي في ظهور القوميات الحديثة التي ظهرت في أوروبا كالغازية التي استهدفت قيادة شعوب العالم تحت رئاسة «هتلر» الذي أعلن «أن الجنس الآري هو أنقى الأجناس البشرية جميعًا ومن حقه بل من واجبه تجاه الإنسانية أن يسوق ويقود البشرية ليحمي الحضارة وموروثات المدنية»[٢].

وقد وجدت هذه القوميات العنصرية آذانًا صاغية لا ترى إلا بعين المصلحة والأثرة والأنانية، وأمراء ذوي أطماع سياسية تحركهم الأصابع اليهودية المتربصة لأي فرصة تسمح لها بالنيل من النصارى وتفريق كتلتهم، وليس أدل على ذلك من أن اليهود كانوا وراء الحركة البروتستانتية وخروج أوروبا من حركات الإصلاح الديني بلا دين واستبدلت به هذه القوميات العنصرية التي لا صلة لها بالدين، بل طاردته وكفرت بكل ما جاء من خارج الوطن من أفكار تحمل اسمًا أجنبيًا حتى لو كان دينًا.

والنتيجة التي ترتبت على ذلك: أن نظرت الشعوب الأوروبية إلى الدين المسيحي ورسوله ﷺ كأمر طارئ ونزيل لا بد أن ينفى من بلادهم، وليس أدل على ذلك مما قاله أحد المعلمين في ألمانيا وهو البروفسور «أترني»: «لأي شيء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية؟ ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحاق؟ ينبغي أن يكون «إلهنا» أيضًا ألمانيا». ونشأت في ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لكونه من بني إسرائيل، والذين يدينون لي بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية. وظهرت في ألمانيا نزعة تدعو إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التي كان يعبدها الشعب الألماني في عهده القديم [٣]، ولم يقتصر الأمر على ألمانيا بل تتابعت القوميات الوطنية والعنصرية، فكانت الفاشية في إيطاليا تحت قيادة «موسوليني» من (عام ١٨٨٣)، وقد تطلع إلى إعادة أمجاد روما القديمة حيث قال في خطاب له: «إن إيطاليا الفاشية ستتزعم العالم. إني أقول وأنا مطمئن الضمير: إن القرن العشرين

---

(١) القومية ص ١١١، مرجع سابق.

(٢) أبحاث في المجتمع العربي/ طعيمة الجرف ص ٧٦، مكتبة القاهرة ١٩٦٥م.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢١٥، مرجع سابق.

سيكون قرن الفاشية القرن الذي ستصبح فيه إيطاليا للمرة الثالثة زعيمة الجنس البشري»[١].

وهذه الوطنيات العنصرية لم تكن مجرد نظريات، بل كانت هي التي تحرك المجتمع الأوروبي، وتمثل هذا التحرك في الحروب التي قامت بين القوميات المختلفة، وبإلقاء نظرة سريعة على تاريخ أوروبا يبين ما كان من صراعات عنيفة بين هذه القوميات، وتعصبها للعنصر على مدى التاريخ يذكر الدكتور عبدالعزيز الشناوي أن الحروب الإيطالية التي نشبت بين فرنسا وأسبانيا في الفترة ما بين (١٤٩٤ - ١٥٥٩) كانت بسبب التنافس بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ، ورغبة في التوسع الإقليمي داخل القارة الأوروبية لفرض القومية الفرنسية على القوميات الأخرى، واتسعت هذه الحرب حتى شملت أوروبا كلها[٢].

وقد أحدثت هذه الحروب دوامة من الصراعات العرقية بسبب التنافسات القومية ورغبة كل طرف من أطراف الصراع توسيع قومياته على حساب القوميات الأخرى، وتكفي حروب نابليون الشهيرة دليلًا على تلك الروح الشريرة التي اجتاحت أوروبا منذ ظهرت فيها حمى القومية. وزاد من حدة الصراع القومي العنصري في أوروبا قيام الثورة الصناعية التي صبغت الأخلاق الأوروبية بصبغة مادية، هدفها السعي إلى الربح بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة.

وقد كانت القوميات تتجه أساسًا إلى تحقيق مصالحها بصرف النظر عن المصالح الإنسانية والمصالح القومية مادية بالدرجة الأولى، مما أدى ذلك إلى زيادة حدة الصراع المادي بين القوميات. وكانت الفلسفة التي قام عليها الصراع فلسفة رأسمالية شعارها: البقاء للأصلح، وكانت كل قومية تزعم لنفسها أنها هي الأجدر بالبقاء وتريد إثبات ذلك بالفعل. وهذا أدى إلى زيادة عنف الصراع بين القوميات المختلفة

---

(١) القومية/ هانش كهن ص ١٢١، مرجع سابق .

(٢) أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ١٣٦ .

إلى حد الوحشية، وبالطبع تموت كل المعاني الإنسانية في دوامة هذا الصراع، ويسمى هذا تقدمًا حسب التفسير المادي للحياة.

ومع الثورة الصناعية اتسعت رقعة الاستعمار الذي كان ولا زال صليبي النزعة. وانتقل التنافس بين القوميات الأوروبية إلى استعمار العالم الإسلامي للبحث عن المواد الأولية التي تستخدم في تشغيل المصانع الأوروبية[(١)]. ولقد كان لهذه النزعات العنصرية أثرها في قيام الحروب العالمية التي أتت على الأخضر واليابس، واستذلت الشعوب الضعيفة، وتوسلت القوى الاستعمارية بكل الوسائل اللاإنسانية لفرض قوميتها وتقويتها على حساب الغير مما كان له الأثر السيئ على الشعوب الضعيفة والأقليات العرقية، واليوم نسمع ونرى الحروب التي تقوم بين القوميات المختلفة تعصبًا للعنصر والمذهب، ولكن القوميات الأوروبية تتناسى ما بينها من الخلافات القومية وتتوحد بالعنصرية البغيضة لإبادة الإسلام والمسلمين في كل مكان، وليس أدل على ذلك من الحرب البوسنيه التي غالبًا ما يطلق عليها الغرب نزعات عرقية، وإنما هي عنصرية تعصبية للقومية الأوروبية التي تعتقد أن العنصر الأبيض هو الأرقى وهو صاحب الحضارة، وبالتالي لا بد أن يكون هو السيد.

هذه هي القومية الوطنية التي قامت على أساسها الحضارة الأوروبية المعاصرة، فهي التي تحكم توجهاتها السياسية والاقتصادية، وعلى أساسها تتخذ القرارات التي تحدد مصير الدول الإسلامية وغيرها. مما كان لهذا الاتجاه العنصري آثاره السيئة على الشعوب والمجتمعات غير الأوروبيين سوف أذكرها إن شاء الله في المبحث الثالث. والحديث الآن عن الأساس الثالث من الأسس التي تقوم عليه الحضارة الغربية وهو الديمقراطية.

---

(١) انظر أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ج٢/ ١٩٠ - ١٠١، ومذاهب معاصرة/ محمد قطب ٥٧٠ - ٥٧٣ بتصرف واختصار.

المطلب الثالث
الديمقراطية

الديمقراطية: هي الأساس الثالث من الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية المعاصرة، وهي بمثابة المجلس التشريعي الذي ينظم الحياة، ويحدد العلاقات بين الأفراد. ولمعرفة هذا الأساس لا بد من توضيح مفهومه وتاريخه ومعالمه التي يقوم عليها.

فالديمقراطية هي إحدى صور الحكم التي تكون السيادة فيها للشعب[١]، وهي مشتقة من لفظتين يونانيتين هما: الشعب والسلطة.

وأول من مارس الديمقراطية هم اليونان، حيث كانت تقوم في «أثينا وإسبرطه» حكومتان يطلق على الواحدة منها اسم حكومة المريغة، أي الحكومة التي تقوم في مدينة واحدة مفردة[٢]، وكان الشعب يجتمع بصفة دورية للبث في الأمور الهامة التي تخص المجتمع كله، ولم يكن الشعب كله يقوم بمباشرة السلطات، وإنما الشعب المقصود هو طبقة المواطنين الأحرار، حيث كان الشعب ينقسم إلى ثلاث طبقات: طبقة العبيد، وطبقة الأجانب وهم التجار، وطبقة الأحرار وهي وحدها التي لها حق ممارسة الحكم بنفسها[٣]، وهذه الطبقة هي التي كانت تصدر القوانين، وتنتخب الحاكم وتضع العقوبات، وتشرف على تنفيذها، وقد عبر «بركليز» حاكم «إسبرطه» في خطاب له: «أن كل إنسان عليه أن يبذل ما استطاع من جهد في الاهتمام بالحياة العامة لوطنه، وألا يغلب على مجرد حياته الخاصة، وأن الوطن الذي يكثر فيه مثل هذا النصف الأخير لا يضر بنفسه فقط بل بوطنه»[٤].

---

(١) المعجم الوجيز ص ٢٣١ .

(٢) حرية الرأي في الميدان السياسى أحمد جلال حماد ص ٥١، ط دار الوفاء ١٩٨٧م.

(٣) النظم السياسية/ جورج شفيق ص ٥٥ المكتبة العالمية ١٩٩٠م.

(٤) حرية الرأي في الميدان السياسي ص ٥٣، مرجع سابق .

ولما قامت الإمبراطورية الرومانية، ورثت اليونان في كل شيء وخاصة بعد قيام النهضة الأوروبية بالثورة على الكنيسة ورجال الدين. وقد تميزت فترة العصور الوسطى باشتداد حدة التنافس والصراع بين الإمبراطور والبابا بشأن اختصاصات كل منهما[١]، كما تميزت بقيام النظام الإقطاعي على نطاق واسع. وقد أدى هذا النظام إلى قيام أشكال التدرج الطبقي الذى يتربع على قمته الإمبراطور والبابا، يليهما حكام الإقليم ثم الحكام المحليون، ثم الفلاحون الذين تحولوا إلى رقيق الأرض، وكان الفرد تقيده سلسلة من القيود: الإمبراطور من ناحية، والكنيسة من ناحية أخرى، والحكام الأقليميون والمحليون من أمراء الإقطاع وسادة الأرض، مما تعذر معه قيام أية حقوق أو حرية للفرد، خصوصًا وأن تلك الجهات لم تكن تخضع لقانون يقيدها أو ضابط يحدد اختصاصاتها في ممارستها لسلطتها[٢].

وحين دب النزاع بين الكنيسة والأباطرة لم يكن النزاع بسبب إلزام البابوات الإمبراطور بتطبيق المسيحية، وإنما كان من أجل إلزامهم بالخضوع لهواها وسلطانها الشخصي، وحق كل منهما في إدارة روما وتعيين الأساقفة كما سبق ذكر ذلك. وتمسك البابا بحقه في ذلك مستدلاً عليه بأنه خليفة السيد المسيح ووريث القديس بطرس في الغرب[٣]. في حين تمسك الإمبراطور بالقانون الروماني ونظرية الحق الإلهي، ومعناها يتضح من قول الإمبراطور «فردريك»: «إننا نتسلم الإمبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء. إن شريعة الله تقضي بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفي الإمبراطورية والبابوية، كما قضت تعاليم «بطرس» بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك»[٤]. ومع أن الكنيسة هي التي قالت بنظرية التفويض الإلهي ونادت بها تبريرًا لسلطات الملوك المطلقة؛ ولكنها غيرت رأيها حين بدأ الصراع بزعامة القديس أوغسطين واتخذت الكنيسة من عبارات الإنجيل التي وردت على لسان

---

(١) راجع: التمهيد ص ١٣٩ .

(٢) النظم السياسية/ ثروت بدوي ص ١٥٢، ط دار النهضة العربية ١٩٧٢م.

(٣) أوروبا في العصور الوسطى ج١ / ٣٦٠، مرجع سابق .

(٤) السابق ص ٣٦٣ .

المسيح، والتي تقول: أجبروهم على الدخول في حظيرتكم سندًا لفرض الرأي على الملك ورعيته[(١)].

واستطاعت الكنيسة كسب الصراع لصالحها، واتخذت من السيف والطغيان وسيلة لمواجهة خصومها، وتدخلت في الحجر على العقول، وذلك بعرضها قوالب جامدة ومحددة للفكر ونظرياته، وأنشأت محاكم التفتيش لفرض الفكر الكنسي بالقوة. وبذلك وقفت الكنيسة موقفًا معاديا لحرية الفكر والعلم والرأي، وليس أدل على ذلك من تشريعات «فريدريك الثاني» في ألمانيا، والتي نص فيها على تخصيص الخازوق باعتباره أداة مناسبة لعقاب الملحدين ومن يجاهرون بالرأي ضد المسيحية[(٢)]. إلى جانب هذه القيود التي صادرت الحريات وأهدرت الكرامة الإنسانية تحت ستار الدين للوصول إلى أغراض شخصية كان النظام الإقطاعي[(٣)]

---

(١) حرية الرأي في الميدان السياسي ص ٥٨، النظم السياسية ص ١٠٨، ١٠٩ .

(٢) السابق ص ٦٤، ٦٥ بتصرف واختصار .

(٣) نشأ النظام الإقطاعي في أوروبا بسبب الصراع بين الكنيسة والأباطرة والملوك . في ظل هذا الصراع استعان كل منهم على الآخر بالقبائل الالمانية وغيرها المتاخمة لحدود الإمبراطورية الرومانية لتكوين الجيوش، وكانت موارد الدولة لا تكفي للإنفاق على الجيوش؛ فلجأ الملوك إلى تسجيل أسماء المحاربين، ثم أعطوا كلًا منهم اقطاعًا يكفي لسد مطالب معيشته على أن يقسم له يمين الولاء ويبقى هذا الإقطاع في حوزته ما دام يقوم بالخدمة العسكرية، ونما هذا النظام واتسع بسبب المنازعات بين أبناء لويس التقي، وأصبحت الكلمة العليا فيه لقوة السلاح وحدها، ثم كانت الأخطار الخارجية على غرب أوروبا من قبائل الفيكنج والمسلمين والمجرين، هذه الأخطار أفقدت الأهالي الأمن إلا في ظل القوة المسلحة، وهذه الأوضاع فرضت على الرجل العادي الحر أن يختار أحد طريقين؛ إما أن يصبح جنديًا أو يصبح عبدًا لأنه لا يستطيع البقاء بمفرده دون سيد يحميه، فلجأ كل من يملك أرضًا أكثر من حاجته إلى منح هذه الزيادة على هيئة إقطاعيات لأتباع له من الجنود . وصغار ملاك الأراضي دفعتهم هذه الفوضى إلى الدخول في حماية من هم أقوى منهم، فيسلم المالك تابعًا إقطاعيًا . وتكونت في القرن التاسع طبقة من الإقطاعيين عرفوا باسم النبلاء أو الإشراف، وتكون نظامًا إقطاعيًا يشمل الملك في القمة ثم السيد أو الشريف ثم الفصل ثم الفارس «أوروبا في العصور الوسطي ج٢/ ٢٦٠».

وكان الأفراد يعيشون على الأرض الإقطاعية تابعين لها كوضع الآلات والحيوانات حيث يحرم عليهم الانتقال من حرفة إلى أخرى أو من حرفة مستقلة بعينة عن عمله في الضيعة (وهي القرية أو المكان الذي يعيش فيه التابعون للسيد الإقطاعي)، والوضع الاجتماعي للأفراد كان في غاية البؤس والشقاء، فقد كانوا يحكمون بنظام عرف باسم «السينوري» وهو يحد الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعمال والفلاحين، وقد كانت هذه الطبقة في مكان أشبه بالقرية يطلق عليها اسم الضعيف يمتلكها السيد الإقطاعي، وكانت عليهم قيود تجعلهم في حكم العبيد، فقد كان على الفرد في الضيعة أن يحلق =

الظالم ينظر إلى البشر على أنها قطعان حيوانية لا إرادة لها ولا كرامة ولا حقوق. في الوقت نفسه أوجد هذا النظام نوعًا من عدم التوازن الاجتماعي، فقد وجدت طبقة مترفة تملك المال والسلطان، وأغلبية مسترقة محرومة من أدنى الحقوق الآدمية، وعليها كل الواجبات لخدمة الطبقة المترفه، وليس هناك من وضع أحط من أن يكون الإنسان خاضعًا لنظام هو مجرد إرادة إنسان مثله.

وفي تلك الفترة حدث احتكاك بين المجتمع الأوروبي والمجتمع الإسلامي في الحروب الصليبية والمبعوثين من أوروبا لتلقي العلم في بلاد الإسلام؛ هذا الاحتكاك أتاح فرصة رؤية أوضاع المجتمع الإسلامي وما ينعم به أفراده من الحرية والمساواة. ورأوا نظامًا غير نظامهم الذي فرضه عليهم القساوسة والملوك. ولكن كتاب التاريخ يتجاهلون الآثار الإسلامية في توجيه الحياة الأوروبية حيث يرجعون أسباب الحرية والتنوير الذي حدث في أوروبا إلى حضارة اليونان. اللهم إلا القليل منهم من يعترف بالحقيقة. وكان قيام الثورة الصناعية وانتشار الآلة ونداءات الفلاسفة الذين قادوا الثورة الفرنسية، كل هذه المؤثرات مع المظالم الواقعة على عامة

= شعر رأسه؛ لأن الشعر الطويل أو القصير من مميزات الأحرار، كما كان الفرد ممنوعًا من اختيار زوجته إلا بعد موافقة صاحب الضيعة، وكان هذا السيد هو القاضي والمشرع والمنفذ في القضايا التي تحدث، وكانت هذه السلطات تعود بفوائد كثيرة على السيد الإقطاعي، فقد كان يفرضها غرامات مالية على المذنبين في كثير من القضايا، وكان يستولي على جميع ممتلكات الشخص الذي يحكم عليه بالإعدام (الإقطاع في العصور الوسطى/ أحمد مصطفى زيادة ص ٢٩/ ٣٢).

إلى جانب هذه القوانين اللاإنسانية كان محظورًا عليهم التنقل بين المدينة والقرية إلا بقيود كثيرة، وكانت الشرطة تطاردهم لمجرد خروجهم إلى المدينة وتتهمهم بالتشرد، وتطالبهم بإثبات أنهم ليسوا مجرمين، وإيجاد مبرر لوجودهم حيث كانوا موجودين. وكانت سلطة الكنيسة واستعبادها مع هذا الظلم، فقد كان رجال الدين يتمتعون بمكانة عالية في المجتمع، الأمر الذي أحاط أشخاصهم وممتلكاتهم بمسحة قدسية، وكان الملوك يمنحونهم إقطاعيات لكسب تأييدهم وعطفهم، وهذه الإقطاعيات كانت معفاة من الضرائب ومن الواجبات الإقطاعية التي كان يفرضها الملوك على الشريف، وكان الوفاء بهذه الواجبات الإقطاعية يقع على الشعب حيث كان الأفصال (الفصل أو الفصيل هو الذي يأخذ أقطاعًا من السيد الشريف مقابل ضرائب وإتاوات) يوجهون الشعب للخدمة في أرض الكنيسة بالمجان ودون رفع الإتاوات العشور المفروضة عليهم، إلى جانب تجنيدهم في جيش الكنيسة لتأديب الخارجين على سلطانها من الملوك والأباطرة (أوروبا في العصور الوسطى ج٢ / ٢٦٢).

هذا هو الوضع في المجتمع الأوربي والذي بسببه قامت الديمقراطية مطالبة بحقوقه وحرياته .

الشعب من الإقطاعيين ورجال الدين فجرت الثورة الفرنسية التي قامت سخطًا على الإقطاع والملكية. وارتدت أوروبا إلى تراثها الإغريقي الروماني تبحث عن حلول لأوضاعها التي قام عليها النظام الإقطاعي والملكية وتركت الإسلام؛ لأن الكنيسة قامت ولا تزال- بحملات التنفير من الإسلام- ووقع اختيار أوروبا على الديمقراطية بديلًا من الإقطاع. وقد كانت هناك عوامل كثيرة ترشح هذا الاختيار كما يقول محمد قطب: «فطبقة الشعب هي الطبقة المكبوتة وهي الطبقة الثائرة التي تسعى إلى المشاركة في السلطان، والطبقة الرأسمالية هي الطبقة التي صار المال في يدها بدلًا من طبقة الإقطاعيين بسبب انتقال الإنتاج تدريجيًا من إنتاج زراعي إلى إنتاج صناعي بعد اختراع الآلة. وطبقة الرأسمالية تريد انتزاع السلطان من طبقة الإقطاع؛ لذلك كانت الديمقراطية هي اللعبة المناسبة التي توفق بين رغبة الطبقتين الساعيتين إلى السلطة. إلى جانب إحياء الفكر الإغريقي القديم وتأثيره على المفكرين منذ عصر النهضة، وهو فكر يحمل صورة تذكارية للديمقراطية من أيام أثينا وإسبرطه»[١].

وبعد كفاح طويل استمر قرابة قرن من الزمان استقرت الديمقراطية في صورتها الحالية، وأصبحت الديمقراطية هي النظام الذي يقوم عليه نظام الحكم في المجتمع الأوروبي، وهو يقوم على اختيار ممثلين عن الشعب يمارسون الصلاحيات التي تحدد علاقة الفرد بالدولة والمجتمع وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتعريف أمور المجتمع، ويعودون للحصول على موافقة الشعب[٢].

كما أنه يشتمل على مؤسسات تعرف باسم المجالس النيابية يجتمع فيها نواب الشعب لرسم سياسة المجتمع على أساس مقاييس معينة[٣]. والمقاييس التي قام عليها النظام الديمقراطي مقاييس عقلية قائمة على أساس الفلسفة المادية التي تعتمد على النظريات والمذاهب الفكرية في مجال التشريع وغايته، واستبعدت الجانب

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ١٨١ .

(٢) الحضارة الغربية والبديل الإسلامي/ عبدالقادر طاش ص ١٥ ، ط المختار الإسلامي . بدون تاريخ.

(٣) النظم السياسية/ ٦١، مرجع سابق .

الإلهي من حساباتها ونزلت بها إلى المستوى البشري ليكون الرأي والتشريع للأغلبية المنتخبة من الشعب حسبما، يرونه صالحًا دون أي أساس فكري عام تسير التشريعات في نطاقه، وإنما النظام الديمقراطي يعطي حق التشريع لأي حزب وأي اتجاه يختاره الشعب(١).

وقد أدى الفصل بين المصدر الإلهي والتشريع إلى خلق أزمة في وضع مقياس العدالة وقيمها، وهذا هو السبب المباشر في أزمة الحضارة الغربية كما أحسها الروائي «مسولجين» حيث يقول: «لقد عشت طول عمري تحت نظام حكم يفتقر إلى العدالة الموضوعية، وأعرف كم هو فظيع، ذلك لأن المجتمع لا يملك أي معايير أو مقاييس أخرى غير القانون الوضعي، ولا يردعه عن الشر سوى يد القانون الباطشة وحدها. وبنفس القدر مجتمع تحتقر فيه قيمة الإنسان.

إن يد القانون مهما كانت طائلة فهي باردة ذات طابع رسمي جامد، لا يمكن أن يكون لها تأثير حقيقي في مناهضة الجريمة والشر، ومتى كانت علاقات الناس فيها لا تربطه إلا خيوط قانونية تولد من الانحطاط الأدبي والخلقي ما يشمل أنبل ما في الإنسان»(٢).

هذا هو تاريخ وأسس الديمقراطية التي تقوم عليها الحياة في الحضارة الغربية، وقد نجحت في تحقيق بعض المكاسب للشعوب الأوروبية. لقد منحت الإنسان الغربي حقوقه المغتصبة في ظل الإقطاع، تلك الحقوق المسماة بالحقوق الاجتماعية مثل الحقوق الشخصية، والحريات الفكرية وحرية التجمع وجميع الحقوق السياسية والاقتصادية بعد أن كانت مقتصرة على طائفة النبلاء(٣)، وإن كانت الديمقراطية قد منحت الأفراد حقوقًا وضمانات، إلا أن الجانب التطبيقي للديمقراطية استغلته الرأسمالية لمصالحها الخاصة بتوجيه الرأي والتشريع لحسابها الخاص «وذلك عن طريق تشكيل الرأي العام بواسطة وسائل الإعلام من صحافة وسينما وتلفزيون، وكلها وسائل تملكها الرأسمالية. مثلًا الصحافة من أشد وسائل التأثير لا تستطيع أن تعيش بلا معونة خارجية، فهي تتكلف أضعاف الثمن الذي تباع به للجمهور، وهو

---

(١) انظر: الإسلام يتحدى/ وحيد الدين خان ص ٢١٦، ٢١٩ ط دار المختار الإسلامي.

(٢) مجلة الدوحة القطرية/ ١٣، عدد أغسطس ١٩٧٨م.

(٣) النظم السياسية ص ٤١٣، مرجع سابق.

لا يصل كله إلى أصحاب الصحيفة، فهناك الوسطاء للتوزيع، إلى جانب المرجوع، فكيف تغطي تكاليفها ثم تربح؟ إنها تعتمد على الإعلانات، وهي بطبيعة الحال في يد الشركات والمؤسسات الصناعية التي تملكها الطبقة الرأسمالية، ومن ثم فإنه يكفي لوقف أي صحيفة تتجرأ على مصالح الرأسمالية أن تمنع عنها الإعلانات فتسقط في هاوية الإفلاس، فإذا كانت الصحافة التي تشكل الرأي العام في قبضة الرأسمالية، أو على الأقل لا تتعارض مع المصالح الرأسمالية... ومثل الصحافة بقية وسائل الإعلام[1].

والمثال على ذلك: أن الرأسمالية عملت على تشكيل الرأي العام للقيام بالحرب العالمية الثانية لتحقيق مصلحتها؛ وهي بيع السلاح، فبدأت صحافة الحلفاء تتكلم عن هتلر واستعداداته الحربية، والأزمات التي يثيرها، ثم بدأت تكتب عن النازية والنظم الدكتاتورية وعدواتها للديمقراطية وحقوق الإنسان، وأن على الديمقراطيات أن تؤدب الطاغية الذي ينذر بالشر للبشرية، وكتبت الصحف عن «هتلر» ووحشيته وتعذيبه لليهود، حتى شحنت الرأي العام ضد هتلر. وهدف الرأسمالية من ذلك تحقيق مصلحتين في وقت واحد هو: بيع السلاح، وإنشاء دولة إسرائيل، وشيئًا فشيئًا أصبح حديث الحرب أمرًا عاديًا، وتحمس الناس للحرب، وضغطوا على حكوماتهم أن تدخل الحرب لتأديب الطاغية، حتى دخلت كل دول الغرب في الحرب وحققت الرأسمالية ما أرادت على حساب دماء البشر الذين ماتوا في الحرب تحت ستار الديمقراطية[2].

ومن يملك هو الذي يوجه لما يريد؛ لأن الحكم ليس له ضابط ولا مقياس. وهذا الوضع كان له آثاره الخطيرة في توجيه الحضارة الغربية المادية إلى طريق مسدود، سوف أذكر هذه الآثار في المبحث الثالث من هذا الفصل. يبقى أن أذكر موقف الإسلام من الديمقراطية:

إن الإسلام يرفض الديمقراطية بهذا المعنى الغربي؛ لأنها تختلف معه في الأساس الذي تقوم عليه؛ فالديمقراطية ترفض الإيمان بالله عز وجل وتخرجه من حسابها؛

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٠٦ بتصرف واختصار.

(٢) السابق ص ٢٠٨ بتصرف واختصار.

وإن اعترفت به، فإنها تعطي حق التشريع للبشر، وهذا من أخص خصائص الألوهية، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، فالديمقراطية تجعل الشعب هو مصدر السلطات، سواء كانت تشريعية أو قانونية أو تنفيذية وإعطاء الشعب حق التشريع، ولكن الإسلام قرر أن الشرع مصدر السلطة وليس الشعب، وإنما دور الشعب يتمثل في تنظيم الأشكال التي يتم بها تحقيق الشرع، فالشعب أو ممثلوه في نظام الإسلام ليسوا أحرارًا في التشريع والتقنين، لكن الديمقراطية تعطي الحرية للشعب وممثليه في كل شيء؛ ولهذا فإن الديمقراطية على النقيض من الإسلام. كما أنها تتناقض مع مبدأ الشورى في الإسلام؛ لأن الشورى مقيدة بأصول الشرع، فهي لا تنفصل عن الدين الإسلامي، ومجالها فيما لا نص فيه. أما الديمقراطية، فهي تخضع لرأي الأغلبية دون أي قيد يقيد الآراء، أو ضابط تنتهي عنده ليحفظها من الزلل ومن مطامع ونزوات البشر؛ ولهذا فالإسلام يرفض الديمقراطية بهذا المعنى؛ لأنها تختلف عن نظام الإسلام اختلافًا جذريًا.

يبقى القول أن هذه الأسس الثلاثة التي تقوم عليها الحضارة الغربية التي شكلت مفاهيمها عن الإنسان والكون والحياة، هذه التصورات هي موضوع البحث في المبحث الثاني.



---

(١) سورة الرعد: الآية ٤١ .

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠ .

المبحث الثاني
تصور الحضارة الغربية للإنسان، والكون، والحياة

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تصور الحضارة الغربية للإنسان.

المطلب الثاني: تصور الحضارة الغربية للكون والحياة.



المبحث الثاني
تصور الحضارة الغربية للإنسان والكون والحياة

تقدم أن الحضارة لا تنهض إلا على أركان ثلاثة قوامها الإنسان، هذه الأركان تتمثل في الكون حيث إنه هو الساحة الحضارية وميدانها الذي يعمل الإنسان في إطاره وتظهر فيه دلالات الحضارة، والحياة هي الزمن الذي ينجز الإنسان فيه الفعل الحضاري، فكل ما يحيط هذه الأركان من عقائد وتصورات صحيحة إيجابية تعطي الإنسان القدرة على صنع الحضارة، والحديث في هذا المبحث عن تصورات الفكر الغربي لأركان الحضارة، وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: عن الإنسان.

المطلب الثاني: عن الكون والحياة.

المطلب الأول
تصور الفكر الغربي للإنسان

لقد تبين أن الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية هي خلاصة التصورات الأوروبية القديمة، فهي رواسب من التصورات اليونانية والرومانية، ومسيحية القرون الوسطى المحرفة، مضافًا إلى كل ذلك ما جاءت به القرون الحديثة على يد الفلاسفة والعلماء؛ ولذلك اضطرب تصور الحضارة الغربية للإنسان ولكنها تنبع من منبع واحد هو النظرة المادية للإنسان وخصائصه.

ولقد مر بنا الحديث عن نظرة الإسلام إلى الإنسان ووضعه الكريم الذي وضعه الله فيه، ومكانته بين الكائنات التي خلقها الله في الكون، وغايته التي يؤديها في هذا الكون، هذه النظرة الإسلامية التي ضمنت للإنسان أن يزاول نشاطه على الأرض

وفق طاقاته لصنع العقل الحضاري الذي يحقق له السعادة في الحياتين.

وإذا انتقلنا إلى تصور الفكر الغربي للإنسان نجد أن الأساطير الإغريقية تعلي من شأنه حتى صيرته ندًّا للآلهة ينازعها السلطان والمعرفة وإن كانت هي تبطش به وتقسو عليه وهو لا يستسلم لها[(١)].

ثم جاء العهد الروماني فانغمس الناس في الشهوات، وضعف الاعتقاد في الآلهة، وبقي الإنسان يعبد ذاته وشهواته، لم يكن يسمح أن تتدخل في تصريف حياته الأرضية، وإن كان يسمح بالتكهن على ألسنة الكهان، ويستبقيها كعرف اجتماعي لا ضرر منه[(٢)].

ولما جاء المسيح عليه السلام واجه المادية التي كانت شائعة في بني إسرائيل والعالم الروماني، فكانت تعاليمه عليه السلام دعوة للتطهر والروحانية، للارتفاع بالإنسان عن أرجاس المادية ووصله بالآفاق العليا التي تسمو عن الجسد والمادة. إلا أن هذه التعاليم التي كرمت الإنسان، تحولت إلى قيود متزمته تتشدد بها الكنيسة ورجال الدين، فحولوا هذه النظرة الربانية الكريمة للإنسان إلى رهبانية تنعزل به عن الحياة، وتقهر النوازع الفطرية بحجة أن هذه النوازع دنس ينبغي أن يتطهر منه الأتقياء الذين يخشون ربهم[(٣)].

وكانت الرهبانية التي عطلت الحياة الإنسانية قد أفقدت الإنسان توازنه، وحمَّلته ما لا يحتمل، وحاولت قتل غرائزه بسبب هذا التحريف للدين الإلهي، بل «إن رجال الكنيسة لم يقفوا عند هذا الأمر، وذهبوا إلى تحقير الإنسان ورميه بالخطيئة، فقالوا: إن خطيئة آدم عليه السلام قد عمت الجنس البشري كله بالإثم حتى جاء المخلص فكفر عن هذه الخطيئة؛ ولذلك كان لزامًا على الإنسان أن يكفر عن ذلك للمسيح بالذل والهوان والتقشف والعذاب طوال حياته حتى يلحق بالمسيح ويتحد فيه وينال غفرانه»[(٤)].

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

(٣) الإنسان بين المادية والإسلام/ ١١ بتصرف واختصار.

(٤) المسيحية/د. أحمد شلبي ص ١٦٠ط دار النهضة العربية ١٩٨٤ بتصرف واختصار.

ولقد جنت هذه التعاليم المحرفة على الإنسان والبشرية؛ لأنها لما رفضت نوازع الإنسان الفطرية والملكات التي كرمه الله بها مما كان لها الأثر في اتجاه الإنسان إلى المادية الصرفة بعد هذا الكبت والذل والهوان. يقول الدكتور محسن عبدالحميد: «إن التربية الكنسية الروحية هذه، وزرعها اللاشعوري بأن مملكة الإنسان- هي في عالم المثل والروح والسماء - قد فجرت الإنسان تفجيرًا رهيبًا بعد كبت القرون المتطاولة، فالتصق بالأرض، وأنشأ مملكته الحضارية الحديثة فوقها على أساس من المادية البحتة والقيادة الإنسانية المؤلهة بمعزل عن مملكة الروح وقيمها وأخلاقياتها، فأنتجت للإنسان الفلسفات التعبيرية التي جزأته بدورها وأفقدته شموليته الإنسانية»(١).

وتمثل الاتجاه الجديد في النظرة إلى الإنسان نظرة مادية متأرجحة، فمرة تجعل الإنسان إلهًا من دون الله، وأخرى تجعله حيوانًا متطورًا، وثالثة جعلته لا يفترق عن البهيمية في شيء. ولقد تمثل الاتجاه الأول في جعل عقل الإنسان إلهًا، وأن هذا العالم الخارجي إنما هو خلق العقل وصنعه، وللعقل حق السيطرة على كل جوانب الحياة والقطع فيها برأيه الذي يراه، الإنسان حر في العمل حرية تامة، لا يشوبها تحديد من غير رأي الإنسان نفسه(٢).

كانت هذه النظرة في عصر الخروج على الكنيسة في منتصف القرن الثامن عشر، ومع بداية القرن التاسع عشر جاءت الفلسفة الوضعية التي نادى بها «أوجست كونت» لتحط من شأن الإنسان وعقله، تعلن أن المادة هي الإله، وهي التي تنشئ العقل وتطبع في حسه ما تراه، فقد قالوا: إن الموضوع الوحيد للتجربة هو الحس، ولا حاجة للإنسان إلى الأديان والقيم القديمة(٣).

ثم كانت الماركسية التي جردت الإنسان من شموليته وجعلته سلوكًا متغيرًا في ضوء تغير أدوات الإنتاج مجبرًا على ذلك السلوك مسلوب الإرادة. وهذا التفسير لحقيقة الإنسان قائم على أساس التفسير المادي للتاريخ، «وهو يقوم على أساس أن

(١) المذهبية والتغيير الحضاري ص ٧٢ سلسلة كتاب الأمة/ ٧٦ .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٥٥ مرجع سابق .

(٣) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ص ١٠١ مرجع سابق .

وجود الناس هو الذي يعين مشاعرهم، ووجودهم متغير على الدوام، بحكم التطور في أدوات الإنتاج تبعًا لما يجد من كشوف واختراعات الإنتاج، وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل مقام اجتماعي، وعلى هذا فالأسباب النهائية لكافة التغيرات والتحويلات يجب البحث عنها في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل»[١].

وعلى ضوء هذا التفسير المادي للتاريخ قال الماركسيون: «إن الإنسان هو حصيلة الظروف المادية والاقتصادية، وهو انعكاس التطور الاقتصادي الذي يعيش فيه، وما دامت هذه الأطوار دائمة التغير» فالإنسان حصيلتها وانعكاسها ليس له كيان ثابت، وإنما هو في تطور مستمر تبعًا لهذه التغيرات، والتطور يشمل كيانه كله - أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه الفردي والجماعي وكل شيء فيه»[٢].

ولا شك في بطلان هذه النظرية وبعدها عن الحقيقة الإنسانية، حيث إنها تصور الإنسان مسلوب الإرادة مجبرًا على ذلك السلوك، إلى جانب أنها تعتمد على جانب واحد في تفسير سلوك الإنسان، وهذا ما ترفضه النظريات العلمية؛ لأن تغير سلوك الإنسان بعامل واحد يعني فصمه عن كيانه الإنساني الشامل، وفي ذلك انحرافه وأزماته وشقاؤه. وبعد ذلك كان داورن الذي قرر في كتابه أصل الأنواع أن الإنسان حيوان انطلاقًا من التشابه الظاهري في القانون الواحد الذي خلق الله تعالى به الإنسان وسائر الحيوانات متجاهلاً مظاهر الاختلاف والتنافر لا التي تجسدها شمولية شخصيته الإنسان جانبه الحيواني البحت وجانبه الفكري والشعوري[٣].

وهذه النظرة أفقدت الإنسان كل تكريم أسبغه الله عليه وتفرد وخصوصية، كما فقد كل ما كانت الفلسفة قد أحاطته به من إيجابية واستقلال وسيطرة، وعاد حيوانًا اجتماعيًّا متطورًا. وجاء فرويد ليعثر على الأساس السابق أن الجنس هو أساس حركة الإنسان وسلوكه، ولا بد أن يطلق هذا الدافع حتى يأخذ مجراه الطبيعي[٤]، وهو

(١) التطور والثبات في حياة البشرية ص محمد قطب ص ٧٦، ٧٧، ط دار الشروق ١٩٩١م.

(٢) السابق ص ٧٧ .

(٣) المذهبية الإسلامية ص ٧٣ مرجع سابق .

(٤) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٣٨ مرجع سابق .

بهذا يدعو إلى نبذ الدين والأخلاق؛ لأنهما العقبة أمام إشباع غرائز الإنسان، وقد وَجدت هذه النظرية رواجًا في المجتمع الأوروبي بعد قيام الحرب العالمية الأولى. وكانت وراء تحطيم الأسرة والأخلاق، وانتشار فوضى الجنس التي انتقلت منها إلى أنحاء العالم. وأخيرا كانت الفلسفة النفعية التي فسرت الإنسان من خلال غريزته الذاتية المصلحية التي تحقق له أكبر نفع ممكن، ومقياس الحق عند جيمس وديوي مرهون بمدى تحقق المصلحة بمعزل عن القيم الروحية ومبادئ الحق والعدل المجردين في تاريخ الفكر الإنساني[١].

هذه هي خلاصة المذاهب المادية الغربية التي حاولت توجيه الإنسان بعيدًا عن العناية الإلهية، فلم تستطع أن تعدل من تخبط الحضارة الغربية، ولم تقد الإنسان إلى السعادة والتوازن؛ لأن نظرتها إلى الإنسان نظرة جزئية، ولم تنظر نظرة شمولية إلى جانب جهلها بحقيقة الإنسان، ومن ثم عدم استطاعتها أن تصنع نظامًا شاملاً لجوانب حياته يتناسب مع طبيعته وخصائصه. وتنظيم هذا الجانب من خصائص خالق الإنسان سبحانه وتعالى الذي يعلم من خلق، فالمنهج الغربي في البحث عن حقيقة الإنسان منهج خاطئ بعيد عن الحقيقة كما قال الكسيس كارليل؛ إذ كيف يمكن تطبيق العلم التجريبي على الإنسان، وكيف يمكن تفسير الأمور النفسية والأخلاقية تفسيرًا ماديًا؛ ولذلك لم تستقر هذه النظرة المادية في يوم من الأيام، وكان لها من الآثار التي أحدثت التخبط والاضطراب في الأنظمة والأوضاع في الغرب، وفي السلوك الفردي والسلوك العام مما سأذكره في المبحث الثالث. وكما حدث هذا التخبط في نظرة الحضارة الغربية إلى الإنسان، كان أيضًا في نظرتها إلى المرأة وعلاقتها بالرجل. فقد تأرجحت هذه النظرة بين اعتبارها كائنًا منحطًا أشبه بالأشياء منه بالأحياء، إلى اعتبارها شيطانًا يوسوس بالشر والخطيئة، إلى اعتبارها سيدة المجتمع المتحكمة في أقداره، إلى اعتبارها عاملة، عليها أن تكافح لتعيش.

فقد كانت في الحضارة اليونانية هملاً لا يحسب لها حساب، وظل العلماء والفلاسفة يختلفون في أمرها: هل هي روح أم ليس لها روح؟ وإذا كان لها روح،

---

(١) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص محمود عثمان/ ٣٨٧ ط الدار الإسلامية ١٩٨٥ .

فهل هي روح إنسانية أم حيوانية؟ وعلى فرض أنها ذات روح إنسانية، فهل وضعها الاجتماعي بالنسبة للرجل هو وضع الرقيق أم شيء أرفع من الرقيق؟

وفي عهد الرومان كان الرجل له مكانة كبيرة في الأسرة تصل إلى مكانة الملك، حتى إن الشرع الروماني يجيز للرجل الحق في قتل زوجته بعض الأحيان. وبعد تدرجهم في الحضارة تبدلت نظرتهم إلى النساء ونظام الأسرة وعقد الزواج، ولم يبق لعقد الزواج سوى أنه عقد مدني ينحصر بقاؤه ومضيه على رضا المتعاقدين، وانعدم الاهتمام بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلاً، وسهلوا أمر الطلاق تسهيلاً جعله شيئًا عاديًا يلجأ إليه لأتفه الأسباب، حتى قال الفيلسوف الروماني «سيتكا»: إنه لم يعد الطلاق شيئًا يندم عليه أو يستحيى منه في بلاد الرومان، وقد بلغ من كثرة وشيوع أمره أن النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن، ويذكر شارل مارشل عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات، ويذكر «القدمي جروم» أن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها، وكانت هي الحادية والعشرين له[١].

ثم جاءت الكنيسة لتقاوم هذا الإفراط، فنظرت إلى المرأة على أنه ينبوع المعاصي، وأصل السيئة والفجور، وأنها باب من أبواب جهنم للرجل من حيث إنها هي التي دعته إلى الآثام، ومنها تحدث مصائب الإنسانية جمعاء[٢]. ولقد بالغت الكنيسة تطرفها في النظرة إلى العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها نجس يجب أن يتجنبه الإنسان ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع، وجعلوا يعدون العزوبة وتجنب الزواج من أمارات التقوى والورع وذكاء الأخلاق، وما آلوا جهدًا في أن يثبتوا في قلوب الناس الشعور ببشاعة العلاقة الزوجية ونجاستها، فقد كان شائعًا بينهم أن الزوجين اللذين اتفق لهما أن يبيتا معًا ليلة عيد من الأعياد لا يجوز لهما أن يشتركا مع القوم في مراسمهم وفرحهم.

وقد بلغ من تأثير هذا التصور الرهبني أن تكدر صفو ما بين أفراد الأسرة والعائلة من الأواصر، وحتى ما بين الأم وولدها. إذ أمسي كل قرابة وكل سبب ناتج عن عقد الزواج يعد إثمًا سيئًا نجسًا[٣]. وهاتان النظرتان للمرأة وعلاقتها بالرجل لم تحط من مكانة

---

(١) الحجاب/ أبو الأعلى المودودي ص ١٧/ ١٩، بتصرف واختصار، ودار الفكر بدون تاريخ.

(٢) أوروبا في العصور الوسطى ج٢/ ٢٩٩ مرجع سابق .

(٣) الحجاب/ المودودي/ ٢١ .

المرأة فحسب، بل أصبح ينظر للحياة الزوجية على أنها مبعث حرج وضيق للجنسين معًا. وما أشيع في أوروبا عن تبجيل المرأة واحترامها ما كان ذلك إلا للطبقة الأرستقراطية والطبقة البرجوازية فقط، وكان تدليلها تدليل الترف والشهوة فقط[١].

فلما كانت الثورة على الكنيسة وصراعها مع العلم، تحررت أوروبا من الدين كله، وتزامن هذا كله مع قيام الثورة الصناعية وظهور نظريات دارون وفرويد وماركس»، وكانت نظرياتهم كلها منصبة على تحقير الإنسان بشتى الطرق، مرة بحيوانيته المطلقة على يد دارون، ومرة بوحله الجنس المطلق على يد «فرويد»، ومرة بسلبيته تجاه المادة على يد ماركس. وهذه النظريات- كما أثرت في النظرة إلى الإنسان- أثرت كذلك في النظرة إلى المرأة وإلى العلاقات بين الجنسين بصفة خاصة، كما حطمت قواعد الأخلاق، وأطلقت للرجل والمرأة عِنان الشهوة واللذة يمارسانها كالحيوانين في القطيع، وساعدت ظروف وأوضاع المجتمع الجديدة على انطلاق السُعَار الحيواني على أوسع نطاق، «فقد حطمت الثورة الصناعية كيان الأسرة، وحلت روابطها بتشغيل النساء في المصانع، ودفعت المرأة الثمن من جهدها وكرامتها وحاجاتها النفسية والمادية، فقد نكل الرجل عن إعالتها، وفرض عليها أن تعمل لتعول نفسها حتى لو كانت زوجة أو أُمًا. واستغلتها المصانع أسوأ استغلال، فشغلتها ساعات طويلة في العمل، وأعطتها نصف أجر الرجل الذي يعمل معها نفس العمل مع اتحاد الإنتاج والجهد، وسارت المرأة تبذل نفسها للراغبين بسبب نكول الرجل عن إعالتها ورفضه الزواج بسبب وجود البديل الحرام لإشباع رغباته، واستمرت هذه المعاملة الظالمة حتى كانت ثورة النساء على هذا الظلم للمطالبة بحقوقهن الطبيعية، والتساوي مع الرجل في سائر الحقوق الأخرى»[٢].

وحصلت المرأة على كل شيء حتى قضى كل من الرجل والمرأة في أوروبا على الأخلاق والقيود، وأصبحوا يمارسون الزنا جهارًا بدعوى الحرية والانطلاق من القيود.

هذا هو تصور الحضارة الغربية للإنسان بنوعيه - الرجل والمرأة - والعلاقات بينهما، وهي نظرة مادية نابعة من الأساس الذي قامت عليه تلك الحضارة، وهذه النظرة الرافضة لمنهج الله عز وجل قد هوت بالمجتمع الأوروبي إلى مكان سحيق،

---

(١) أوروبا في العصور الوسطى ج٢/ ٣٠٠ .

(٢) الحجاب ص ٢٥، ٢٦ بتصرف واختصار، مرجع سابق .

سوف أتحدث عن آثاره في المبحث الثالث من هذا الفصل. أما الحديث الآن، فعن تصور الحضارة الغربية للكون والحياة.

المطلب الثاني
تصور الحضارة الغربية للكون والحياة

ينبثق التصور الغربي للكون والحياة من الأساس العقدي الأول الذي تقوم على أساسه الحضارة الغربية، وهو المادية إلى جانب المنهج التجريبي الذي أخذوه عن المسلمين، واستخدموه في الكشف عن حقائق الكون والحياة. وكانت الكنيسة قد وضعت بعض التصورات عن بعض مظاهر الكون، لتكون حقائق يؤمن بها الناس ولا يتعدونها إلى غيرها. فمثلًا أعلن القديس «فيلا سطوريوس» أن الله يجلب الأجرام السماوية من خزائنه كل ليلة ليعلقها في السماء. وقال غيره: إن في الأجرام السماوية محلات تسكنها الملائكة، وإن الملائكة تحركها. أما البناء السماوي عامة، فهو قبة صلبة القوام، ركبت فوق الأرض، وإن الأجرام السماوية أضواء معلقة فيها[1].

وجاءت الكشوف العلمية فكذبت هذه النظريات التي لم تقم على أساس علمي، مما كان سببًا في تسلط الكنيسة ورجالها ومحاربتهم لرجال العلم. وانتهى هذا الصراع إلى اتجاه الفكر الغربي إلى المادية، والبحث في الكون والحياة على أساس أنه لا خالق لهما، وكفروا بكل ما وراء الطبيعة، ولم يؤمنوا إلا بما ثبت وجوده تحت حس الإنسان وبصره.

وعلى هذا الأساس قام المفكرون والفلاسفة بوضع تصوراتهم عن الكون والحياة، وارتدُّوا إلى التراث الإغريقي والروماني، ورددوا النظريات القديمة التي تقول لا إن الكون والحياة حدثا بدون خالق، وهذه الحياة ظهرت من تلقاء نفسها دون أي أمر من إله، وإنما المادة متى ارتفعت في نظمها وتركيبها، وقعت فيها الروح من نفسها، وأن النمو والحركة التابعة للإرادة والإحساس والشعور والفكر خصائص لتلك المادة، وكل من الحيوان والإنسان آلات تجري بحسب قوانين الطبيعة»[2].

---

(١) بين الدين والعلم/ جلال مظهر ص ٣٢ ط عيسى الحلبي .

(٢) نحن والحضارة الغربية ص ٢٠، وقصة الفلسفة ص ٢١٦، مرجع سابق .

وبعد هذا جاءت نظرية «دارون» التي نفت أي تدخل في هذا الكون من جانب الإله، وقال «دارون»: إن نظام الكون يمكن أن يجري بدون الإله، وإن ارتقاء الموجودات من أبسط مراحل الحياة إلى أعلاها وأقصاها نتيجة عمل تدريجي لقوة طبيعية مجردة من صفات الحكمة، وليس خالق سائر الأنواع الحيوانية في الكون بصانع حكيم، بل الأمر أن تلك الخلية الحية - التي كانت في بداية أمرها دودًا يدب- قد أصبحت بفعل العوامل المختلفة تتنازع البقاء وبقاء الأصلح، والنتيجة الطبيعية إنسانا ناطقا ذا إحساس وشعور(١).

وشاعت النظريات الفلسفية حول نشأة الكون وعلاقته بالله عز وجل، وكلها تجمع على إنكار علاقة الله عز وجل بالكون، أو أن يكون له دخل في وجوده أو حركته- تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا- وجاءت هذه النظريات لتؤكد وتثبت في نفوس الناس أن هذا الكون قد حدث من نفسه وليس له خالق ولا ربٌّ، وهذا الكون وهذه الحياة ظهرت إلى الوجود مصادفة، وهذا الكون لا غاية له ولا مصلحة من وراء وجوده، وأنه صائر إلى الانقراض لا محالة له.

لقد أراد دعاة النهضة في أوروبا التحرر من الدين نكاية في رجال الكنيسة؛ فأشاعوا أن فكرة التأليه مخترعة من قبل الكهنة والقساوسة، ووجدوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء، وأرادوا من وراء ذلك: الفرار من فكرة الألوهية وسيطرتها على الكون والحياة، وقالوا لا أن الإنسان كان يخضع لله؛ لأنه كان جاهلًا وعاجزًا أمام الطبيعة، واليوم بعد أن تعلم وسيطر على الطبيعة، فقد أن له آن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله(٢).

وعلى هذا أصبحت الطبيعة هي الإله المدبر، أنشأت نفسها وفق إرادتها المستغلة، ونظمت الحياة بإرادتها. وعلى هذا الأساس فسرت الحياة تفسيرًا ماديًا بعيدًا عن عالم الروح، وأصبح ينظر إلى الإنسان على أنه مجموعة من الغرائز، يسعى لتحقيقها في الحياة ولا ينطلق في طريق الروح إلا إذا وقف في طريقه عائق

(١) الفكر المادي الحديث/ محمود عثمان ص ١٤١، ١٤٢/ ١٩٨٠م بتصرف واختصار، ومقومات التصور الإسلامي/ سيد قطب ص ٢٤٨ .

(٢) الإنسان في العالم الحديث/ جوليان هكسلى/ ترجمة حسن خطاب ص ٩٩٩ بيروت، بدون تاريخ.

مادي. ونعت هذه النظريةُ المادية على التقاليد والأخلاق والآداب، ونظرت إليها على أنها سخف ينبغي أن يزول زمن هذا الاعتقاد، انطلق الناس لتحقيق ما يبدو لهم أنه حق ولو خالف كل ما اصطلح عليه الناس، ونظر الغربي إلى الدنيا فلم يجد فيها إلا اللذة والمتعة، وساعد على بروز هذه النظرة ما قرره دهاقنة هذه الحضارة: أن الإنسان لا حياة له بعد حياته في الدنيا، وعليه أن يستنفذ كل جهده ليتمتع في هذه الحياة بأكبر ما يمكن من فرص اللذة والنعيم.

وكان لانتشار المذاهب اللاأخلاقية والتقدم - في كشف الكثير من أسرار الكون والمخترعات- أثره في زعزعة المعنويات وضياعها، وخاصة بعد أن خالفت الحقائق المادية المكتشفة الحقائق الكنسية الدينية؛ ولهذا خلت الحياة الغربية من كل معنى أو هدف. المهم في الحياة هو إشباع الحاجات المادية للفرد، وهذا هو معنى الحياة عند الإنسان الغربي.

يقول سيد قطب: «إن الحياة المادية عند الأمريكي مقدسة، والضعف أيًا كانت أسبابه جريمة لا يغفرها شيء ولا تستحق عطفًا ولا عونًا، وحكاية المبادئ والحقوق خرافة في الضمير الأمريكي لا يتذوق لها طعمًا. كن قويًا ولك كل شيء، أو كن ضعيفًا فلا يسعفك مبدأ ولا يكون لك مكان في الحياة، أما الذي يموت فيرتكب بالطبع جريمة الموت، ويفقد كل حق له في الاهتمام والاحترام»[(١)].

لقد بلد الاتجاه المادي الإحساس النفسي في الرجل الأوروبي حتى أصبح لا يكترث بألم حتى لو كان الموت. يذكر سيد قطب في دراسته عن المجتمع الأمريكي عن زميل له كان في مأتم حينما عرضت جثة رب البيت محنطة في صندوق زجاجي على العادة الأمريكية كما يمر أصدقاء الفقيد بجثمانه، ليودعوه الوداع الأخير واحدًا بعد الآخر في صف طويل، حتى إذا انتهى المطاف وتجمعوا في حجرة الاستقبال، ما راعه إلا أن يأخذ القوم في دعابات وفكاهات حول الفقيد العزيز ... تشترك فيها زوجه وأهله وتعقبها الضحكات المجلجلة في سكون الموت البارد وحول الجسد المسجّى في الأكفان[(٢)].

ومن هذا أيضًا ما يصور الحياة وتقديسها فوق كل موقف عظيم حتى الموت، يذكر سيد قطب أن مدير البعثات المصرية بواشنطن كان مدعوًا هو والسيدة حرمه

(١) أمريكا من الداخل/ صلاح عبدالفتاح الخالدي ص ١٠٥، ط دار المنارة، جدة ١٩٨٩م.

(٢) السابق ص ١٠٦ .

إلى إحدى الحفلات، وقبيل الموعد مرضت السيدة حرمه فأمسك التلفون ليعتذر عن الحفلة بسبب هذه الطارئ، ولكن الداعين أجابوه بأنه لا ضرورة للاعتذار، فإنه يملك أن يحضر منفردًا وستكون هذه فرصة طيبة؛ لأن إحدى المدعوات قد توفي زوجها فجأة قبيل الحفلة وستكون وحيدة، ومن حسن الحظ أن يكون لها رفيق[١].

هذه هي الحياة عند الأوروبي ليس فيها قيمة ولا هدف سوى اللهو والعربدة لما تمليه غرائز النفس البشرية، والذي أدى بها إلى هذا المنزلق: هو أن الحضارة الغربية بالغت في تقدير حرية الفرد، وترى أن كيانه الذاتي يجب أن يتحقق دون أن تقف في سبيله العراقيل، بل إنها تذهب إلى أكثر من ذلك فترى أن المجتمع هو المسئول عن جرائم إفراده بما يفرض عليهم من الكوابت والقيود، وترى أن المجرم مجني عليه وهو أحق بأن يعوض عن جريمته ألا يعاقب عليها[٢].

وهذا التصور للحرية الفردية أدى إلى تجريد الحياة في ظل الحضارة الغربية من كل حياء أو آداب، بل أتت الحضارة على كل عرف خلقي فحطمته، يقول سيد قطب: «إن كل ما تعبت الحياة البشرية الطويلة في خلقه وصيانته من آداب الجنس، وكل ما حول هذه العلاقات من عواطف ومشاعر، وكل الروابط الوثيقة حول تلك العلاقات في شعور الفرد، وفي حياة الأسرة في محيط الجماعة... أن هذا كله قد تجردت منه الحياة في أمريكا مرة واحدة، وتجلت عارية عاطلة من كل تجمل ذكرًا أو أنثى كما خلقهم أول مرة جسدًا لجسد وأنثى لذكر، وعلى أثاث مطالب الجسد ودوافعه تقوم العلاقات وتتحدد الصلات، ومنها تستمد قواعد السلوك وآداب المجتمع وروابط الأسر والأفراد بفتنة الجسد وحدها عارية من كل ستار، مجردة من كل حياء تلقى الفتى والفتاة، ومن قوة الجسد وعضلاته يستمد إعجاب الفتاة ويستمد الزوج حقوقه، هذه الحقوق التي تسقط جميعها في عرف الجميع، يوم يعجز الرجال عنها بسبب من الأسباب»[٣].

وهكذا تستولي المادية على الأفكار والاتجاهات، ولم تقدس الحياة الغربية شيئًا

---

(١) السابق ص ١٠٦ .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام ص ١٤١، مرجع سابق .

(٣) أمريكا من الداخل ص ١١٢، مرجع سابق .

سوى العمل واللذة والمتعة، ولهذا يعيش الأوروبي وينظم حياته على هذا الأساس، فانطلقت الحياة من كل قيم غير قيم العمل، وتجردت العلاقات الجنسية من كل قيد ونظمت على طريقة الغاب، وفلسفها الإنسان الأوروبي بقوله: «إن مسألة الجنسين ليست مسألة أخلاقية، بل إنها مجرد مسألة بيولوجية، وحين ينظر إليها من هذه الزاوية نتبين أن استخدام الرذيلة والفضيلة والخير والشر إقحام لها في غير مواضعها وهو يبدو لنا نحن الأمريكان غريبًا بل مضحكًا»[١].

هذا هو تصور الحضارة الغربية للكون والحياة، فالكون إلههم والحياة غايتهم. الأساس الذي يعيشون له هو المادة، لا يعرفون شيئًا بعدها. الخير والشر لا يقاس إلا بالنفع المادي. وهذا الاتجاه مضاد للفطرة الإنسانية التي خلقها الله عز وجل من روح ومادة، ولكلٍ غذاؤه حتى تستقيم الفطرة وتستمر في العطاء لنفع الإنسان وتحضره، ولكن لقيام هذه الحضارة على ناحية واحدة من فطرة الإنسان، ومن الناحية المادية أدت إلى آثار سيئة في الحياة الغربية سوف أتحدث عنها في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى.



(١) السابق/ ١١٤ .

المبحث الثالث
آثار الحضارة الغربية

تمهيد:

إن قيام الحضارة الغربية على أساس الفكر المادي ورفضها هداية السماء قد ترتب عليه آثار خطيرة أتت على الأخضر واليابس في حياة الإنسان، والمجتمع وكان لبعدها عن الدين جناية على فطرة الإنسان فلوثتها، وعلى طبيعته فأفسدتها، وأهلكت الحرث والنسل، وجردت الضمير من الإحساس، وغدا الإنسان في ظلها كالفيل يدوس الضعيف، وسارت المجتمعات الغربية في بحر لجي لا تعرف له قرارًا ولا نهاية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

وسوف أتحدث عن هذه الآثار من خلال ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: آثار المادية.

المطلب الثاني: آثار الديمقراطية.

المطلب الثالث: آثار العنصرية الوطنية.



(١) سورة الحج: الآية ٣١ .

المطلب الأول
آثار المادية

من الأمور البدهية: أن العقيدة الصحيحة هي التي تحدد للإنسان مكانه الصحيح في الكون وتسدد خطاه في الزمان والمكان. حيث ترسم طريقه الصحيح ليستقيم وجدانه وسلوكه، ويصبح وحدة متماسكة، تنشر الخير، وتهدي إلى الطريق المستقيم، وعلى العكس من ذلك حين تنحرف العقيدة، فإنها تحدث الخلل والاضطراب في الإنسان والكون. والحضارة الغربية المعاصرة انحرفت عن الطريق السوي الذي اختاره الله لها، وتحاكمت إلى نظريات بشرية واتخذتها آلهة من دون الله فما استعبدتها تلك الآلهة؛ فعبدت شهواتها، وحكمت المادة في كل شيء؛ مما كان سببًا في الشقاء الذي يعاني منه إنسان تلك الحضارة. يشهد لهذه الحقيقة أحد علماء الحضارة الغربية الذين وقفوا على سوآتها هذا العالم هو «الكسيس كارليل» يقول:

«إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب؛ لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا؛ إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامه ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا، ذلك لأن العلم يتطور اعتباطًا ولا يتطور تبعًا للرغبة في تحسين حالة بني الإنسان، ودون إدراك سابق لنتائجه، وعدم مراعاة المصالح الإنسانية العليا. لقد رضي الإنسان عن المنازل التي تستخدم التدفئة بالبخار والإضاءة الكهربية لسبب واحد هو: أن هذه المخترعات والاكتشافات مقبولة ومريحة دون أي حساب لتأثيرها المحتمل على البشرية»[1].

ويقول في موضع آخر: «إن الماديات البربرية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلي فحسب، بل إنها تسحق أيضًا الشخص العاطفي واللطيف والضعيف والوحيد، وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال»[2]. ويتحدث عن إهمال الحضارة المادية لخصائص الإنسان بقوله: «يجب أن يكون

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٣٧ ترجمة شفيق أسعد فريد، ط مكتبة المعارف .

(٢) السابق ص ٣٥٥ .

الإنسان مقياسًا لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه؛ لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية. إننا قوم تعساء؛ لأننا ننحط أخلاقيًا وعقليًا. إن الجماعات التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة: الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك؛ إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها»[(١)].

ثم يختم الرجل هذه التقريرات بخطر هذه الحضارة على الإنسان ومقوماته الذاتية وخصائصه الإنسانية بهذا التقرير الذي يحمل طابع الإنذار، يقول: «الإنسان نتيجة، الوراثة، والبيئة، وعادات الحياة، والتفكير التي يفرضها المجتمع العصري، لقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها التكنولوجيا، وأن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله، وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة، وإنما نحن المسؤولون؛ لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع، لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائمًا، إن مبادئ الدين والعلم والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية، والحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في ارتياد الأرض المحرمة هي إضعاف السائل؛ ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار؛ لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض لبست لنا فقبلنا هداياها جميعًا بلا تمييز ولا تبصر، ولقد أصبح الفرد ضعيفًا فاجرًا غبيًا غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته»[(٢)].

إن هذه التقارير - من ذلك العالم المتخصص - تكفي للدلالة على أن هذه الحضارة متناقضة مع طبيعة وتكوين الإنسان النفسي والمعنوي، فقد أهدرت خصائصه كجنس وكفرد في سبيل توفير إنتاج مادي ضخم لا يساوي قيمة ما أهدر من إنسانية

---

(١) السابق ص ٤١، ٤٢ .

(٢) السابق ص ٣٠٩، ٣١٠ .

الإنسان وخصائصه من رجل وامرأة وأسرة وطفل، وكل ذلك بسبب رفضها الدين كمنهج للحياة، واصطناعها مناهج بشرية واتخاذها آلهة من دون الله عز وجل، هذه الآلهة اعتبرت الإنسان حيوانًا وقد أراده الله إنسانًا، وجعلته آلة وقد أراده الله مهندسًا، بل جعل الآلة إلهًا يحكم فيه ما يريد، ورفض تكريم الله عز وجل له لينجو من ظلم الكنيسة، فلا بد أن تحل به سنن الله في الكون التي جعلها ضريبة لمن يشرد عن منهجه، وقد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]

فسنة الله في خلقه أن ينزل العقاب إذا بدلت البشرية نعمة الله، وها هي الحضارة الغربية تعاني العقاب الشديد لاعتدائها على قوانين الفطرة. يذكر ل. ر. «هانكوف» أن النسبة المئوية المعتمدة لحالات الانتحار في الولايات المتحدة الأمريكية هي بين ١٠-١٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة، وبذلك تكون الولايات المتحدة في منتصف الخط بين الأمم الأوروبية في مجال الانتحار، وفي النمسا وألمانيا الغربية، وبلغاريا واليابان وتشيكوسلوفاكيا، والدنمارك ترتفع إلى نسبة ٢٥ لكل ١٠٠ ألف نسمة، ويضيف التقرير بأن الانتحار يعتبر في المرتبة الأولى ضمن خمسة أسباب رئيسية لحالات الموت في صفوف الذكور البيض من سن ١٠ - ٥٥، وفي المرتبة الثانية لدى الذكور البيض في سن ١٥ - ١٨، ويذكر هانكوف: «أن نسبة الانتحار تقل كثيرًا في البلدان التي تعتبر الانتحار إثمًا أخلاقيًا مثل مصر»[3].

لقد كان للاتجاه المادي الذي اتخذته الحضارة الغربية أساسًا لقيام حضارتها آثار سيئة مزمنة تهدد النمو العقلي والبدني في الأجيال المقبلة. يذكر «الكسيس كارليل»: «أن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي، وترجع القيمة

(١) سورة البقرة: الآية ٢١١ .

(٢) سورة الأعراف/ ١٧٥، ١٧٦ .

(٣) الحضارة الغربية والبديل الإسلامي ص ١٢، ١٣ مرجع سابق .

العقلية والروحية المنحطة لأغلب بني الإنسان إلى النقائص الموجودة في جوهم السيكلوجي؛ إذ إن تفوق المادة وميادين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق، كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التي لها شخصيتها وتقاليدها الخاصة تحطمت بفعل التغيرات التي طرأت على عادتها، وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشارًا واسع المدى كذا الأدب الرخيص، والراديو ودور السينما، ومن ثم فإن ازدراء الطبقة الغبية آخذ في الازدياد أكثر فأكثر بالرغم من كمال المناهج التي تدرس في المدارس والكليات والجامعات. إن أطفال وطلبة المدارس يكونون عقلهم من البرامج السخيفة التي توضع لوسائل التسلية العامة، ومن ثم فإن البيئة الاجتماعية تناهض نحو العقل بكل قوتها»[(١)].

ويذكر في مكان آخر: «أن الشذوذ الجنسي أخذ في الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية، فأصبح المحللون النفسيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية. ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب والعدل والظلم، فالمجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان، وليس هناك من يبدي اعتراضًا على وجودهم... ولقد جعل القساوسة لهم شبيهًا بالتموين، لكل فرد منه قسط معين وحطموا الأسس الغامضة، ولكنهم لم ينجحوا في اجتذاب القوم العصريين. إنهم قانعون بدور رجل البوليس الذي يؤدونه، فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم لكي يحفظوا إطار المجتمع الحالي، أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة»[(٢)].

ولانتشار الإباحية والشذوذ الجنسي كنتيجة لنظريات «فرويد، ودارون، ودوركايم» انتشرت الأمراض العقلية انتشارًا رهيبًا بسبب حمى الجنس، يذكر «س. وبيرس» أن شخصًا من كل ٢٢ شخصًا من سكان نيويورك يجب إدخاله إحدى مستشفيات الأمراض العقلية»، وفي الولايات المتحدة يدخل المصحات العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة، وإذا استمر عدد المجانين في السير على هذا المعدل فإن حوالي مليون من الأطفال والشباب يذهبون الآن إلى المدارس والكليات وسوف يذهبون إلى المصحات عاجلًا أو آجلًا. ففي

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٧٦ .

(٢) السابق ص ١٧٧ .

عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠٠٠٠ مجنون، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين في المصحات الخاصة ٨١٥٨٠، وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠٩٣٠، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة، وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها ٥٠٠٠٠٠ شخص ضعاف العقول. وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري»[١].

لقد بلغت النظرة المادية مداها في العقل الأوروبي متى قضت على كل معاني الشرف والفضيلة واعتبار مسألة العفة مسألة مستبعدة من الوجدان الأوروبي. تقول إحدى الفتيات الأمريكيات في معهد المعلمين (بولاية جريلي كولورادو) في أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية في أمريكا»: إن مسألة العلاقات الجنسية مسألة بيولوجية بحتة، وأنتم الشرقيين تعقدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقي فيها. فالحصان والفرس، الثور والبقرة لا يفكر أحد منهما في حكاية الأخلاق هذه، وهو يزاول الاتصال الجنسي ولذلك تمضي حياتهما سهلة مريحة»[٢].

ويبلغ التبجح مداه في إحدى المدارس لتعليم اللغات بواشنطن: قامت المدرسة في نهاية الدرس وسألت طالبًا من جواتيمالا عن ملاحظاته عن المجتمع الأمريكي؟ فقال لها: لقد لاحظت أن فتيات صغيرات في سن الرابعة عشرة وفتيانًا صغارًا في سن الخامسة عشرة يزاولون علاقات جنسية كاملة، وهذا في وقت مبكر جدًّا لمزاولة هذه العلاقات. وكان رد المدرسة في حماس: وإن حياتنا على الأرض جد قصيرة، وليس هناك وقت نضيعه أكثر من الرابعة عشرة»[٣]. ولم تسلم دور العبادة من آثار هذه المادية الطاغية، فقد عادت الكنيسة - بعد شرود الناس عنها وهجرها منذ عصر

(١) السابق ص ١٧٨، ١٧٩ .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٧٧ .

(٣) السابق ص ٧٨ .

التنوير- لا لتقود الناس إلى الدين، ولكن لتجري وراء المجتمع ولتلبي شهوات الناس، وتقيم بعد القداس حفلات مختلطة للجنسين يشرب فيها النبيذ والخمور وتدور حلقات الرقص.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن هذه الحقيقة: «ديانة أوروبا اليوم المادية لا النصرانية. فمما لا شك فيه أن دين أوروبا اليوم الذي يملك عليها القلب والمشاعر ويحكم على الروح هو المادية، لا النصرانية، «كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوروبية، ولم ينخدع بالمظاهر المادية التي تزيد أبهة الدولة والتي يجد فيها الشعب ترويحًا للنفس وتنوعًا، ولم ينخدع لزيارتهم للكنائس، وحضورهم في تقاليدها»(١).

ويذكر سيد قطب قوله: «ليس أكثر من الأمريكان تشييدًا للكنائس، حتى لقد أحصيت في بلدة واحدة - لا يزيد سكانها على عشرة آلاف - أكثر من عشرين كنيسة، وليس أكثر منهم ذهابًا إلى الكنائس في ليلات الأحد وأيامه. ومع ذلك ليس هناك أبعد من الدين عن التفكير الأمريكي وشعوره وسلوكه، فإذا كانت الكنيسة مكانًا للعبادة في العالم النصراني، فإنها في أمريكا مكان كل شيء إلا العبادة. وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أي مكان آخر معد للهو والتسلية، فلمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين - شبانًا وشواب- ويجتهد راعي الكنيسة في أن يلحق أكبر عدد ممكن وبخاصة أن هناك تنافسًا كبيرًا بين الكنائس المختلفة المذاهب والنحل، ولهذا تتسابق جميعًا في الإعلان عن نفسها للفت الأنظار، بتقديم البرامج اللذيذة المشوقة لجلب الجماهير. وهذا إعلان عن حفلة كنيسة لجذب طلبة الكلية وطالباتها يوم الأحد أول أكتوبر ١٩٥٠ في الساعة السادسة مساءً: عشاء (خفيف، ألعاب سحرية، ألغاز، مسابقة تسلية، رقص»(٢).

ويقول سيد قطب في مكان آخر قوله: «كنت ليلة في إحدى الكنائس ببلدة «جريلي» بولاية «كولورادو»، فقد كنت عضوًا في ناديها، إذ كانت هذه ناحية مهمة من نواحي المجتمع تستحق الدراسة عن كثب، وكنت معنيًا بدراسة المجتمع الأمريكي وبعد أن انتهت الخدمة الدينية بالكنيسة، واشترك في التريفل فتية وفتيات من

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٥٤ .

(٢) أمريكا من الداخل/ صلاح عبدالفتاح الخالدي ص ١٠٨، ١٠٩، مرجع سابق.

الأعضاء، وأدى الآخرون الصلاة، دلفنا من باب جانبي إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة الصلاة يصل بينهما باب، وصعد الأب إلى مكتبه، وأخذ كل فتى بيد فتاة وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتي كانوا وكن يقومون بالترتيل، وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء وحمي الرقص على أنغام «الجرامفون» وسالت الساحة بالأقدام والسيقان، والتفت الأذرع بالخصور، والتقت الشفاه والصدور، وهبط الأب من مكتبه وألقى نظرة على المكان ومن في المكان، وشجع الجالسين والجالسات أن يشتركوا، وكأنما لاحظ أن المصابيح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو فراح يطفئها واحدًا واحدًا، واختار أسطوانة للرقص تناسب الجو، وانتظر حتى يرى خطوات بناته وبنيه تنساب على موسيقى الأغاني، وانصرف إلى داره تاركًا لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة البريئة على أن يسلم مفتاح الكنيسة في داره آخر زوج ينصرف»[١].

ولقد أثر الاتجاه المادي للحضارة الغربة في الأخلاق تأثيرًا كبيرًا، فمن يوم أن تخلت الأخلاق عن العقيدة والدين، فقدت المعين الصحيح الذي يوجهها، واعتمد نتائج العلم والفلسفة، وتصور الأوروبيون أنه من الممكن أن تقوم المثل الأخلاقية بعيدًا عن الدين، وذلك في عالم المثل، فالغرب يتحدث عن الأخلاق في مجال التعامل الفردي، يتحدث عن الصدق والإخلاص والأمانة، ولكنها لبعدها عن منهج الله تحولت إلى فصائل نفعية؛ لأنها مقيدة في التعامل، أما حين تفقد رصيدها وتصبح في نظره حقيقة مثالية لا تستحق الاتباع[٢].

والمذاهب الاقتصادية القائمة على الربا في المجتمعات الأوروبية لم تزد هذه المجتمعات إلا شقاء وقلقًا. يقول الأستاذ سيد قطب مصورًا ذلك عند شرحه لقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾[٣] قال: إنها الشقوة البائسة المنكودة التي لا تزيلها الحضارة المادية والرخاء المادي ولا يسر الحياة المادية ولينها في بقاع كثيرة، وما قيمة هذا إذا لم ينشئ في

---

(١) السابق ص ١١٠ .

(٢) جاهلية القرن العشرين ص ١٥٠ مرجع سابق .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧٥ .

النفوس السعادة والرضا والاستقرار والطمأنينة. إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى، حقيقة أن الناس في أكثر بلاد الأرض رخاء عامًا في أمريكا وفي السويد وفي غيرها من الأقطار التي تفيض رخاء ماديًا. إن الناس ليسوا سعداء وإنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء، وإن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج أو إنهم يغرقون هذا الملل في العربدة والصخب تارة وفي التقاليع الشاذة وفي الشذوذ الجنسي والنفسي تارة أخرى، ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب، الهرب من أنفسهم ومن الخواء الذي يعشش فيها، ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من واقع الحياة وجريانها، فيهربون بالانتحار والجنون والشذوذ، ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ الذي لا يدعهم يستريحون أبدًا[1].

تؤكد هذه الحقيقة جريدة الأخبار المصرية التي نشرت تحقيقًا صحفيًا بعنوان «شباب العالم في طريق الضياع، جعلت مقدمته: إلى أين يتجه شباب العالم؟ في أمريكا يرتفع ترمومتر الانحراف» بين الشباب، وفي بريطانيا تتألف عصابات من المراهقين للسطو وتدخين الحشيش... وفي سويسرا يتزايد الانحراف وفي روسيا يجتمع المجلس الأعلى للسوفيت ليبحث مشكلة انحراف الشباب الروسي. لقد أرسلت أخبار اليوم إلى مندوبيها ومراسليها في عواصم العالم، وطلبت منهم صورة كاملة عن الانحراف الذي يهدد شباب العالم، فكتب زغلول السيد: أن جرائم من كل نوع يرتكبها الشباب في بريطانيا كل لحظة، والصحف البريطانية تنشر كل يوم جرائم تقع في مختلف أنحاء العالم، وتصور لنا هذه الصحف تلك الجريمة التي وقعت أخيرًا عندما دخل بعض الشباب السينما ولم يعجبهم الفيلم فانهالوا على مقاعد السينما يمزقونها بالسكاكين، ثم مزقوا الشاشة بأيديهم وكان هذا الحادث هو الثالث من نوعه... وذكر أيضًا أنه في الأسبوع الماضي وقف خمسة شباب أمام القاضي الإنجليزي «سيمور كولينزي» وسط لندن بتهمة الانحراف والبطالة وبعد عرضهم على القاضي قال أحدهم «فمالكولم دريك» (٢٣ سنة): «كنت في منتصف مرحلتي الجامعية وتفكرت ما الذي سأكونه في المستقبل. ورأيت نفسي مساعد صيدلي أجلس طوال اليوم وراء البنك. وعندما تمعنت في هذه الحياة لم أجد فيها

(١) في ظلال القرآن ج١/ ٣٢٦ باختصار .

كثيرًا من السعادة، كل ما فيها مرض وأدوية وحبوب مهدئة ولذلك تركت الكلية، وقررت أن أحيا طليقًا في شوارع لندن وباريس».

وقال آخر منهم يشرح للقاضي كيف يحصلون على النقود: «إن دخلنا الأسبوعي يتراوح ما بين ٣٠: ٤٠ شلنًا، ونحن نحصل على المال من الفتيات اللاتي يشفقن علينا، أو الفتيات اللاتي يشعرن بالسرور معنا، كما نحصل على المال من السياح الذين يريدون التقاط صور لنا، أو من زائري لندن الذين يريدون الاطلاع على خبايا الليل في المدينة، أو من المثقفين الذين يقضون الليل في مناقشتنا، أو من الناس الذين يشعرون بالوحدة ويريدون رفيقًا، أو من أي مشروع، ولكن بلا مجهود أو عمل»[1].

إن هذا هو أثر من آثار التطور المادي بعيدًا عن الدين، فليس تطورًا، وإنما هو انحراف أدى لدمار؛ لأنه لم يتلاءم وفطرة الإنسان التي تتأذى من كل شيء لا يلائم طبيعتها، وفطرة الإنسان ثابتة، ما كان يؤذيها ويدمرها قبل ألفى سنة يؤذيها ويدمرها الآن، وتلك سنة من سنن الله في الكون.

وتبقى كلمة أخيرة لا بد منها؛ وهي أن الإبداع المادي والنفسي الذي أحدثته الحضارة الغربية في ميدان العلوم التطبيقية - أمر لا ينكر أحد فضله ونفعه الذي عم البشرية في شتى مجالات حياتها.

والإبداع المادي أمر لا ينكره الإسلام الذي دعا إلى البحث والتنقيب في الأرض، والنظر في الكون، وتحقيق غاية الله عز وجل من خلق الكون، ولتحقيق الرفاهية والأمن للإنسان. ولكن هذا الإبداع المادي يجب أن يكون في خدمة الإنسان وتنمية خصائصه كجنس يفترق عن المادة ويتميز عن الحيوان، وألا يكون في طرائق هذا الإبداع المادي ما يتناقض مع هذه الخصائص أو يعوق نموها.

ولكن الإبداع المادي للحضارة الغربية تجاهل الإنسان وخصائصه، ولم تضع له قيمة ولا ميزان في نظمه الاجتماعية والاقتصادية، مما سبب هذا الخلل وذلك القلق والفراغ في حياة الإنسان الغربي، الذي غالبًا ما ينهي حياته انتحارًا لفراغه الروحي، وهذا من آثار الاتجاه المادي الصرف لهذه الحضارة.

والحديث الآن عن الآثار التي نجمت عن الديمقراطية في المطلب الثاني إن شاء الله.

---

(١) التطور والثبات ص ١٦٤ - ١٦٦ .

المطلب الثاني
آثار الديمقراطية

لقد تحدثت عن الديمقراطية وتاريخها وموقف الإسلام منها، والآن أتحدث عن الآثار السيئة التي أحدثتها الديمقراطية في المجتمع الأوروبي، وهي تتمثل في إبعاد التشريع عن مصدره الإلهي والنزول به إلى المستوى البشري، وهذا الفصل بين المصدر الإلهي وبين التشريع قد خلق أزمات عديدة في المجتمع الأوروبي، وذلك لافتقار التشريع الديمقراطي إلى العدالة، وتحديد القيم التي ترتبط بها العدالة، كما أن الحرية التي أتاحتها الديمقراطية والتي شرعت من أجلها هي الحرية الشخصية، وحرية الفساد الخلقي. و«الديمقراطية الليبرالية أو ديمقراطية الفكر الحر كما يسمونها تقيد الحرية، حيث ينبغي أن توسع أو توسعها حيث ينبغي أن تضيق، فحين تمس مصالح الرأسمالية فلا حرية على الإطلاق. وليس أدل على ذلك من حادث مقتل «كنيدي» رئيس الولايات المتحدة الذي وقف في طريق مصلحة من مصالح الرأسمالية. فقد كانت الرأسمالية هي وضع العالم على حافة الحرب لتنشيط صناعة السلاح وبيعه، وكانت سياسة كنيدي تقوم على تهدئة الأحوال حتى لا تنشب الحرب وتحول نفقاتها إلى رفاهية الشعب الأمريكي، ولذلك سعى إلى مصالحة الاتحاد السوفيتي لإشاعة السلام وتهدئة الأحوال، وفتح باب المحادثات لتوطيد السلام مع خرشوف الرئيس السوفيتي، ولكن الرأسمالية (أو قل. اليهودية) لم توافق على ذلك؛ لأنه ضد مصالحها الذاتية، فقامت بإضراب في مصانع الحديد والصلب للضغط على «كنيدى»، ولكنه لم يأبه لذلك؛ فلما أصر على السياسة التي رآها، قرروا التخلص منه، وقتلوه وهو رئيس الجمهورية الذي اختير برضا الشعب، ومضت القضية كأنها حادث عادي لا يثير الانتباه، وطوى التحقيق ولم تصل العدالة إلى غايتها حتى اليوم، وقد مضى أكثر من عشرين عامًا على الحادث»[١].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢١٤ مرجع سابق .

فهذه هي الديمقراطية حين تمس مصالح الرأسماليين، وفي سبيلها تلقى كل ضمانات الديمقراطية والحريات التي يتغنى بها الديمقراطيون. أما حين يكون الأمر مختصًا بالفساد، فالحرية بلا ضابط ولا حساب، فالإلحاد مكفول بالقانون. وكل مسالك الشذوذ والجنس مسائل شخصية يحرسها القانون، فتحت شعار الحرية وجد الإنسان الأوروبي التشجيع المستمر على التحلل من دينه وعقيدته بوصف أن هذه الأمور خاصة يتصرف فيها الإنسان على مزاجه الخاص.

ولقد ساعد القائمون على لواء الإصلاح - في القرن الثامن عشر - على رواج نظرية متطرفة في الحرية الشخصية ترمي إلى إعطاء للفرد الحرية التامة والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع، «فأصبحوا يتنادون بأنه يجب أن يكون الفرد الحق المطلق في عمل ما يشاء، والحرية الكاملة في ترك ما يشاء، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية. وأما الحكومة فواجبها أن تحافظ على هذه الحرية التي يتمتع بها الفرد في تصرفاته. وأما المؤسسات الاجتماعية، فينبغي ألَّا تكون غايتها سوى إعانة الفرد على تحقيق مقاصده»[(١)].

وهذا التصور المتطرف للحرية الفردية قد هدم كثيرًا من القواعد المدنية والدينية وشكك فيها وفيما تشتمل عليه من الآداب والضوابط، وفي هذا العصر قامت الثورة الصناعية، وأعقبتها تغيرات مهمة في الحياة الاقتصادية كان من آثارها ما ساعد على تحرك المجتمع إلى ما يريد دعاة التحرر ذلك، «وأن تصور الحرية الشخصية الذي نشأ عليه النظام الرأسمالي، جاءت الاختراعات الميكانيكية وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعي تحكمه وتقويه، فقد أقامت الرأسمالية مؤسسات صناعية كبرى تحولت إلى مدن عامرة يذهب إليها من القرى والأرياف آلاف الملايين من النفوس، وغلت تكاليف الحياة غلَاء فاحشًا، إلى جانب حاجات الحياة المتجددة. والنظام الرأسمالي لم يوزع الثروة بين الناس مما يكفل للمجتمع وسائل الحصول على تلك الحاجيات من المتع واللذات، بل لم يهيئ للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة وهي السكنى، والطعام، واللباس، في تلك المدن التي زج بهم إليها، وكان من نتائج: ذلك أن أصبحت المرأة كلًا على زوجها، والولد عبئًا على أبيه، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه، فضلًا عن أن يعول غيره من

(١) الحجاب ص ٥١، مرجع سابق.

المتعلقين به، فاضطر النساء أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق، وكثر بذلك اختلاط الصنفين واحتكاك الذكور والإناث، وأخذت عواقبه الطبيعية تظهر في المجتمع، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق، فهدأ من قلق الآباء والبنات والإخوة والأخوات، واطمئنت نفوسهم إلى أن الذي يقع أمام أعينهم ليس هبوطًا، وإنما هو نهضة وارتقاء، وليس فسادًا خلقيًا»[(١)].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أباح التشريع الديمقراطي للفرد حقًا مطلقًا من كل قيد أو شرط في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق، وتبعته فلسفة الأخلاق، فأباحت له كل وسيلة، يمكن أن تتخذ لجمع الأموال، وبذلك قام نظام الحياة الديمقراطية عى إيثار الفرد على الجماعة من كل وجهه دون اعتبار لمصالح الجماعة، فانفتحت السبل أمام الرأسماليين للاعتداء على المجتمع كيف يشاؤون بهدف الثراء «فعمد هؤلاء إلى صناعات تافهة لا يحتاج إليها الإنسان الجاد الذي يعيش لأهداف جادة، بل هي تفسد الأخلاق، وتميع الطباع، وتشغل الناس بالتفاهات، وكل ذلك لأنها أكثر ربحًا، كصناعة السينما وأدوات الزينة والخمر، وألعاب القمار وبيوت الأزياء»[(٢)]،

ولم تبق ناحية من نواحي التجارة خالصة من عنصر الإغراء، واستخدمت المرأة في كل مجال لتغذية هذا الاتجاه نراه اليوم من صور عارية وآداب مكشوف، وقصص غرامية ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم لتصدير فلسفتهم إلينا[(٣)]، كل ذلك بذريعة أن هذا حرية شخصية لا ينبغي أن تقيد، ونتيجة لذلك انتشر الزنا والشذوذ الجنسي والدعارة وغيرها من الموبقات التي أتت على بنيان المجتمع من القواعد، وقننت القوانين التي تخدم هذه الحريات بل المفسدات، ولنتتبع الشواهد على ذلك وهي كثيرة أذكر منها بعض الأمثلة: السلوك الجنسي في النظام الديمقراطي مسألة خاصة إلى أبعد حدود الخصوصية لا يتدخل القانون بشأنها إلا في حالة واحدة هي جريمة الاغتصاب؛ لأنها تقع بالإكراه لا بالاتفاق.

أما أي علاقة تقع بالاتفاق فلا دخل للقانون بها، ولا دخل للمجتمع ولا دخل

---

(١) السابق ص ٦٨، ٦٩ .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٠٣ .

(٣) سوف أذكر ذلك في الباب الثاني الفصل الثالث .

لأحد من الناس، فسواء كانت هذه العلاقة سوية أو شاذة، وسواء كانت مع فتاة لم تتزوج أو مع امرأة متزوجة، فهذا شأن الأطراف أصحاب العلاقة، وليس شأن أحد آخر، والغابات والحدائق العامة مسرح لكل ألوان السلوك الجنسي فضلًا عن النوادي، والبيوت كلها ماخور كبير يبيح بالفساد الذي يحميه القانون - قانون الديمقراطية[1].

تذكر مجلة المجتمع الكويتية - ما يؤيد ذلك عن جريدة «أفدى ورلد» تحت عنوان نادى تبادل الزوجات أفجع أمريكا على لسان مندوب الصحيفة أن نادى (دع الزوجات يتبادلن) الذي اكتشفته الشرطة في (ساكرا منتو) عاصمة كاليفورنيا أفجع أمريكا هذا الأسبوع، ولكن لم يزل مع ذلك في نمو متزايد، وعضويته تضم في الوقت الحاضر/ ٤٨/ زوجًا وزوجه. وقد أعلن مكتب النائب العام بمناسبة قيام هذا الناي بنشاطه أن تبادل الزوجات ليس خروجًا على القانون ولا مخالفًا لمادة من مواد العقوبات[2].

ويذكر «مصطفى فوزي غزل» في كتابه «أفول شمس الحضارة الغربية» تجتاح أمريكا الآن حركة نشطة اسمها تحرير المرأة، وقد برزت أخبارها هذا الأسبوع في الصحف الأمريكية والعالمية عندما قامت رئيسات الجمعية بالتظاهر أمام محكمة نيويورك احتجاجًا على قرار المحكمة القاضي باعتقال مومسات المدينة اللاتي استشرى نشاطهن وزاد عددهن في الشوارع لدرجة سببت حرجًا شديدًا لحكومة الولايات. والدفاع عن المومسات ليس أغرب ما جاء عن في هذه الجمعية، ولكنها عندما بدأت نشاطها في العام الماضي ثارت الأعضاء والمؤيدات من النساء والفتيات في الشوارع في مظاهرة كبيرة، وعند أول نصب تذكاري توقف بعضهن وخلعن شدات صدورهن وأحرقنها[3].

ولكي ندرك مدى انتشار الإباحية في المجتمعات الغربية يكفي أن أذكر شيئًا عن انتشار الزنا بين الرهبان ورجال الكنيسة في مقال في مجلة «المجتمع» يذكر الدكتور ««محمد علي» الباز قوله في تحقيقات بارعة نشرتها الديلى ميل عام ١٩٧٠م ذكرت

---

(١) السابق ص ٢١٦ .

(٢) مجلة المجتمع ممدد ٢٥ ص ١٢٨ ، ١٩٧٨ .

(٣) الكتاب الخامس من تأخذه الإباحة ص ٦٠، ط دار السلام ١٩٨٦م.

أن الإحصائيات تدل على أن ما يقرب من ٨٠% من الرهبان والراهبات ورجال الكنيسة يمارسون الزنا، وأن ما يقرب من ٤٠% منهم يمارسون الشذوذ الجنسي أيضًا. وتذكر النيوزيك في عددها الصادر في ١/٧/١٩٧٤م: أن أحد كبار كرادلة فرنسا مات وهو فى أحضانه إحدى العاهرات فى «باريس» وق نشرت مذكرات إحدى العاهرات فى فرنسا، فجاء فيها أسماء ثلاثة بابوات وأحد عشر كاردنيالاً»[1].

ولقد بلغ الشذوذ الجنسي بلوغًا لا حدَّ له حتى أقرته الكنائس، ليس أدل على ذلك أنه منذ سنوات عقد في الكنيسة الهولندية عقد شرعي: بين فتى وفتى على يد القسيس، واجتمع البرلمان الإنجليزى لينظر في أمر العلاقات الجنسية الشاذة، ثم قرر أنها علاقات حرة لا ينبغي التدخل في شأنها، كما أعلن أسقف نتربرى وهو رئيس الأساقفة في بريطانيا أنها علاقة مشروعة[2]. وتسبب هذا الانحلال في انتشار الفواحش والأمراض الخبيثة، وكثرت وقائع الزنا التي نتج عنها أولاد الشوارع. يذكر مؤتمر «ديواسيزان» أن واحدًا من كل ثمانية أطفال ولدوا سنة ١٩٤٦م كان من الزنا، وأنه قد حملت هذه السنة أكثر من مائة ألف امرأة خارج دائرة الزواج[3]. ويقول الدكتور «أزوالد شوارز» أنه نحو ٨٠ ألف امرأة في انكلترا يلدن أولاد الحرام كل سنة حسب المعدل العادي؛ أي: ثلث مجموع المواليد تقريبًا، وأن امرأة من كل عشر نساء بالتقدير العادي مزاولة للعلاقة الجنسية خارج دائرة الزواج، وأن النساء اللاتي تشملهن هذه الإحصائية كانت سن ٤٠% منهن عند الولادة غير الشرعية أقل من ٢٠ سنة، وكانت سن ٣٠% منهن ٢٠ سنة، وكانت ٢٠% منهن ٢١ سنة[4].

وهذه الإحصائية إنما هي لوقائع الزنا التي وقع فيها الحمل على رغم كل ما اتخذ من التدابير لمنعه، فما بالك بغير ذلك.

هذا إلى جانب الأمراض الخبيثة التي انتشرت من جراء هذه الفواحش، فقد جاء في عدد أغسطس آب ١٩٦١م لمجلة ريدرز «دايجت» (مختار الغراء) الأمريكية مقال

---

(١) السابق ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢١٦ .

(٣) انظر: حركة تحديد النسل/ أبو الأعلى المودودي ص ٣٣، ط الدار السعودية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

(٤) السابق ص ٣٣ .

«لجورج كينت، ولفريد جريتوراكس» يصرحان فيه بأنه قد عادت الأمراض الخبيثة تنتشر من جديد في مدن بريطانيا - مراكزها الكبيرة: لندن وبرمنجهام، وليفربول - بسرعة لا نظير لها، فقد ازداد عدد المصابين بهذه الأمراض خلال السنوات الأربع منذ ١٩٥٥ - ١٩٥٩ بمعدل ٢٠%، فقد كان المصابون بمرض السيلان مثلاً ٣١ ألف شخص عام ١٩٥٩ أي قد ازداد عددهم بمعدل ٧٠% منذ ١٩٥٥، وهذه الإحصائية إنما هي لأولئك الأشخاص الذين دخلوا المراكز المخصصة لمعالجة الأمراض الخبيثة، وهي غير متضمنة لمن يعالجون على انفراد عند طبيب خاص. ثم يقولان: إن هذا المرض الماحق منتشر على نطاق واسع بين الشعب الإنجليزي كله[1].

هذه هي الآثار السيئة التي أحدثها النظام التشريعي والحربى في النظام الديمقراطي الذي تقوم على أساسه الحياة في الغرب، وهذه عقوبة الله عز وجل للمتمردين على الفطرة.

يبقى أن أتحدث عن آثار العنصرية والوطنية في الحضارة الغربية، وهو موضوع المطلب الثالث الأخير من هذا المبحث.

المطلب الثالث
آثار العنصرية والوطنية

العنصرية والوطنية من الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، وقد أحدث هذا الاعتقاد اتجاهًا عنصريًا للحضارة الغربية، وهو التعصب للرجل الأبيض، وانتهاب ما سواه من الأجناس البشرية؛ لأنه كما يعتقدون صاحب الحضارة. وقد توجهت سياسات الدول الغربية إلى إذلال وعداوة الشعوب الأخرى وخاصة بلاد المسلمين ونهب خيراتها انطلاقًا من هذه العقيدة، هذا إلى جانب القتل والتضييق على من سواهم من الأجناس الأخرى. أذكر أولا أمثلة لهذه العنصرية البغيضة تجاه الجنس البشري.

يذكر الدكتور مصطفى السباعي قوله: «من بدهيات الأمور أن التفريق بين

(١) السابق/ ٣٩ .

البيض والسود عمل همجي لا تلجأ إليه حضارة راقية، ولكنها منذ قيام هيئة الأمم وإعلان ميثاق حقوق الإنسان نجد أن هناك حوادث مفجعة عن التمييز العنصري وجرائم، الاستعمار المروعة التي تحدث من دول راقية من أكبر الدولة في هيئة الأمم مثل أمريكا وإنجلترا وغيرها من دول أوروبا، وهذه الدول هي التي تقوم بأبشع جريمة إنسانية عرفها التاريخ جريمة اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان، لا لضعفه ولا لجهله، بل للون بشرته، ففي أمريكا نجد تمثال الحرية يستقبل في ميناء نيويورك كل قادم إليها، وقد كتب تحته: «أعطونا جماهيركم المتعبة الفقيرة التواقه إلى أن تتنفس في حرية، ابعثوا إليَّ بنفاية شاطئكم المزدحم، أولئك الذين لا مأوى لهم ولا وطن فها أنا أرفع مشعلي قرب الباب الذهبي». في هذه البلاد تجرى مأساة اضطهاد الزنوج، وهي أبشع جريمة إنسانية عرفها التاريخ، وذلك باعترافهم بهذه الحقيقة. يقول جيمس بيزنز عضو مجلس الشيوخ الأمريكي: ليس لأيما رجل ملون تعمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية عمل ما في ولايات الجنوب. إن هذه البلاد ملك للرجل الأبيض، ويجب أن تظل كذلك»[١].

ومظاهر اضطهاد الزنوج في أمريكا متنوعة متعددة، ففي الميدان الثقافي لا يسمح في عشرين ولاية من الولايات الأمريكية للزنوج أن يتعلموا في مدرسة واحدة مع البيض، وتنص الفقرة ٢٠٧ من دستور ولاية ميسيسبي على ما يلي: يراعى في هذا الحفل - حفل التربية والتعليم - أن يفصل أطفال البيض عن أطفال الزنوج؛ فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة. وفي ولاية فلوريدا نقضي قوانينها بأن تفصل الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج في معزل عن الكتب الخاصة للطلاب البيض، وفي ميدان الزواج يمتنع في كل الولايات تقريبًا زواج بيضاء بزنجي أو أبيض بزنجية، وتقضي دساتير بعض الولايات كولاية ميسيسيبي على بطلان مثل هذا الزواج، بل على بطلان زواج الأبيض بشخص يكون ثمن الدم الذي يجري في عروقه دمًا زنجيًا[٢].

وفي ميدان العمل تقضي قوانين الولايات بأنه لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع

---

(١) من روائع حضارتنا ص ٦٨، مرجع سابق.

(٢) سابق ص٦٩.

العمال البيض على صعيد واحد في المصانع، ولا يجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب عينها التي يدخل منها البيض ويخرجون، وفي ميدان الشؤون الاجتماعية تقضي قوانين أربع عشرة ولاية بعزل الركاب البيض في القطر الحديدية عن السود، وتفرض بإقامة عربات خاصة للسود في القطارات والأتوبيس حتى في مستشفيات الأمراض العقلية. وأغرب من هذا: أن صاحب مقبرة للكلاب في واشنطن أعلن ١٩٤٧ أنه لا يقبل جثث الكلاب التي يملكها زنوج؛ لأن زبائنه البيض قد ساءهم أن تعامل كلابهم المدللة هذه المعاملة المنكرة بعد الوفاة - أي مساواتها بكلاب الزنوج[(١)].

ولقد بلغت هذه العنصرية مداها حتى في أماكن العبادة، فقد دخل زنجي من جمهورية بنما كنيسة كاثوليكية في واشنطن، وفيما هو مستغرق في صلاته سعى إليه أحد القسس، وقدم له قصاصة من ورق قد كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية، وحين سئل القس عن سر هذا التصرف أجاب أن في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه[(٢)].

إلى هذا الحد يتغلغل التمييز العنصري في أرقى بلاد العالم، هذا إلى جانب الأماكن المزرية التي يعيش فيها الزنوج. يقول هاري هايوودن: «لقد انتشرت سموم التعصب العرقي في طول البلاد وعرضها، وتسربت إلى مجاري الحياة الأمريكية جميعًا فإذا بجماهير الشعب تتعود اصطناع تعابير الاستخفاف والاحتقار في معرض الإشارة إلى الشعب الزنجي والأقليات الأخرى[(٣)].

ولقد أفرزت العنصرية تعصبًا دينيًا بين أتباع الحضارة الغربية بعضهم مع البعض، وبينهم جميعًا وبين المسلمين، يذكر التاريخ المذابح التي وقعت بين الكاثوليك والبروتستانت، وخاصة مذبحة «سانت بارتلمي»[(٤)] والحروب الدينية التي شنتها البابوية على مخالفيها من شعوب أوروبا، ومآسي محاكم التفتيش في القرون الوسطى.

---

(١) السابق ص ٩٦ .

(٢) السابق ص ٧٠ .

(٣) السابق ص ٧١ .

(٤) نبذة عنها .

وهذا يدل على أن أتباع الحضارة الغربية من أشد الناس تعصبًا وحقدًا على مخالفيهم في الرأي والعقيدة ولو كانوا من أبناء جلدتهم، ولا يزالون حتى اليوم يتحكم فيهم هذا التعصب الديني ضد المسلمين تحت ستار من السياسة والاستعمار، وليس أدل على ذلك من الحروب الصليبية ومآسيها في الأندلس، حيث حرم على المسلمين الإسلام وفرض عليهم تركه وكذلك اللغة العربية والأسماء العربية، ومن يخالف ذلك يقتل حرقًا بعد أن يعذب أشد العذاب(١).

والمتتبع لتاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب يلاحظ حقدًا يملأ صدور الغرب حتى درجة الجنون، وليس أدل على هذا التعصب العنصري من أنهم يشوهون صورة الإسلام في نفوس أبنائهم حتى ينشؤوا على هذا التعصب، فقد كان الجنود الفاشيون هم يلبسون بذة الحرب قادمون إلى ليبيا لاستعمارها يقولون أنشودة مطلعها أماه.. لا تبكي.. أتمي صلاتك.. لا تبكي بل اضحكي وتأملي.. أنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، سأحارب الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن(٢)..

وفي البوسنة تبدو آثار التعصب الغربي واضحة لكل من يرى ويسمع، وصدرت القوانين التي تشرع ذبح المسلمين في البوسنة. يقول الدكتور «سليمان أوغليانين»: إن البرنامج القومي العربي الذي تم إعلانه عام ١٨٤٤ تجدد مؤخرًا في برلمان صربيا، حيث صدر يدعو إلى تطهير سنجاق والبوسنة والهرسك وكوسوفو من المسلمين»(٣). ولذلك فإن الادعاء بأن المعارك التي تدور في البوسنة والهرسك، هي معارك بين طوائف متطرفة، ادعاء غير صحيح؛ لأن الهجمات العربية تجد سندًا قانونيًا يدفعها من الهيئة التشريعية لصربيا.

وفي المدارس الصربية الابتدائية تدرس ملحمة شعرية باسم «إكليل الجبل» كتبها أرثوذكسي متعصب. تقول هذه الملحمة: «سلك المسلمون طريق الشيطان، دنسوا الأرض، ملؤوها رجسًا، فلتعد للأرض خصوبتها، ولنطهرها من تلك الأوساخ، ولنبصق على القرآن، وليطير رأس كل من يؤمن بدين الكلاب، ويتبع محمدًا

---

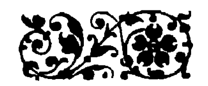
(١) قادة الغرب يقولون ص ١٠ .

(٢) القومية والغزو الفكري/ على عبدالحليم ص ٢٠٨ط دار الفكر .

(٣) رسالة المهندس ص ١٠ .

فليذهب غير مأسوف عليه»[١]. كل من يرتكب المذابح الآن درس تلك الملحمة وهو طفل، وتم إشباعه بمنطق الذبح وهو شاب من خلال قساوسة الكنائس الغربية، فقد ألقوا في روعهم أن الذبح فرض إلهي وفاء للذين عذبهم الأتراك العثمانيون وانتقام لهم[٢].

هذه هي حضارة القرن العشرين التي صارعت حضارة النور، وفرضت نفسها على بلاد المسلمين، تريد تحويلهم إليها أو على الأقل إبقاءهم ضعافًا بإبعادهم عن الإسلام، ولكن كيف تم ذلك؟ هذا هو موضوع الحديث في الباب الثاني.



(١) السابق نفس الصفحة .

(٢) السابق/ ١١ .

الباب الثاني
محاور الصراع الحضاري
بين الشرق والغرب وآثاره

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: الصراع السياسي والعسكري.

الفصل الثاني: الصراع الاقتصادي.

الفصل الثالث: الصراع الاجتماعي.

الباب الثاني
محاور الصراع الحضاري
بين الشرق والغرب آثاره

تمهيد:

بعد أن بينت أسس ومفاهيم الحضارة في التصور الإسلامي والتصور الغربي تستلزم طبيعة البحث أن يكون الحديث في هذا الباب عن الصراع بين هذين الفكرين - وحي السماء وفكر البشر - كامتداد للصراع بين الحق والباطل الذي جعله الله عز وجل سنة كونية لا تنتهي إلا بانتهاء الكون والحياة.

فمنذ أن أمر النبي ﷺ بتبليغ وحي الله عز وجل إلى الناس، وقف أعوان الباطل في وجه الدعوة الإسلامية أمام دعوة الحق والعدل والحرية والمساواة، وقفوا بوثنيتهم واستبدادهم وعنصريتهم، يريدون أن يطفئوا نور الله عز وجل ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره رغم أنف الكافرين.

فما أن مضت سنوات قلائل بعد هجرة النبي ﷺ إلا وقد انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية، التي كان يحدها وقتئذ من الشمال أعظم إمبراطورية تمثل الحضارة الغربية وهي الإمبراطورية الرومانية، ويحوطها من الشمال الشرقي الإمبراطورية الفارسية، وكانت هاتان الإمبراطوريتان تتنازعان سيادة العالم في ذلك الوقت، فبالنسبة لبلاد الشام، فقد كانت الميدان الأول للصراع بين الإسلام والغرب المتمثل في الدولة الرومانية، فقد قامت قبائل عربية في بادية الشام، كانت قد نزحت من اليمن واعتنقت المسيحية فيما بعد، وهي التي تعرف باسم الغساسنة، وأصبحت تحت نفوذ الدولة الرومانية الشرقية ومتحالفة معها.

وكانت كل من الدولتين الرومانية والفارسية قد عمدت إلى إقامة حاجز بينهما وبين القبائل العربية التي كانت تغير عليهما من قلب الجزيرة العربية، وتمثل هذا الحاجز في تكوين دويلات عربية متحالفة معها تزودها بالمال والسلاح، فتكونت

مملكة الحيرة على حدود فارس وتكونت مملكة الغساسنة على حدود الرومان. وكانت عاصمتهم (جلق) دمشق الآن، ومن أشهر ملوكهم الحارث بن جبلة والمنذران والحارث، وجبلة بن الأيهم.

ولما تم انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وصلت أنباء انتصارات الرسول ﷺ على اليهود والوثنيين على تلك القبائل، وكان لهذا التحول الذي أحدثه الإسلام في الجزيرة العربية أثره في تنبيه أباطرة الرومان إلى هذا الخطر الذي يتهددهم، ولكنهم اعتقدوا أن هذا الخطر يمكن القضاء عليه بإشارة منهم إلى خلفائهم من القبائل العربية، وكان ذلك هو السبب في غزوة دومة الجندل(١)، فقد قامت القبائل القاطنة في تلك المنطقة- والتي يتزعمها الكيدر بن عبدالملك الكندي الذي يدين بالنصرانية ويخضع لهرقل- بالتجمع والتهيؤ للزحف على المدينة لضرب المسلمين، وقاموا بقطع الطريق إلى الشام، ونهب ما يمر بهم من القوافل، فخرج إليهم الرسول ﷺ في الخامس من ربيع الأول في السنة الخامسة من الهجرة، ولكنه لم يجد أحدًا منهم لأنهم قد فروا حين علموا بخروج الرسول ﷺ(٢).

فكانت هذه الواقعة أول حلقة من حلقات الصراع الحربي بين الإسلام والغرب المتمثل آنذاك في النصرانية، ويؤكد ذلك ما ذكره الواقدي من أنه قيل للرسول ﷺ وهو بصدد مهاجمة دومة الجندل إنها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت منها لكان ذلك مما يفزع قيصر(٣). وكانت هذه الغزوة بمثابة إنذار إلى ملوك القبائل التي أبلغت بدورها قادة الروم، فكفوا عن مطاردة الرسول ﷺ فترة من الزمن، وبعد رجوع النبي ﷺ من الحديبية، قام بإرسال السرايا والكتب لنشر الدعوة خارج الجزيرة العربية تحقيقًا لعالمية الدعوة الإسلامية، فأرسل إلى رؤساء الدول الكبرى، وإلى أمراء الولايات في الجزيرة العربية وخارجها يدعوهم إلى الإسلام، ففي غرة المحرم من السنة السابعة للهجرة خرج ستة من الصحابة في يوم واحد: توجه عمرو بن أمية

---

(١) دومة - بالضم: موضع بمشارف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة.

(٢) انظر: تاريخ الأمم والملوك/ محمد بن جرير الطبري ج٢/ ٥٦٤، والطبقات/ لابن سعد ج١/ ٤٤، والبداية والنهاية لابن كثير ج٤/ ٩٢، ط دار الغد العربي.

(٣) المغازي: محمد بن عمر الواقدي ج١/ ٤٠٣، ط مؤسسة الأعلمي. بدون تاريخ.

الضمري إلى الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر، وعبدالله بن حذافة إلى كسرى ملك فارس، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق، وأرسل الحارث بن عمير الأزدي إلى شرحبيل بن عمرو الغساني عظيم بصرى من قبل الروم(١).

وكانت استجابة هؤلاء الرؤساء والأمراء مختلفة، ولكن ما يخصنا في هذا الموضوع هو رد الغساسنة وكسرى وقيصر.

فقد كانت استجابتهم استجابات عدائية، فقد ألقى الحارث بن أبي شمر الغساني بالكتاب في وجه شجاع بن وهب وتوعد بالسير إلى محاربة الرسول ﷺ. وقام شرحبيل بن عمرو الغساني بقتل الحارث بن عمير الأزدي، وكان ذلك الحادث هو الذي فجر الصراع بين الإسلام والدولة الرومانية، فكان أول لقاء في غزوة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة من الهجرة الموافق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩م(٢)، وانتهى اللقاء بانسحاب المسلمين بخطة حربية محكمة ظن الأعداء أنهم قد جاءهم مدد ولم يتبعوهم خوفًا من أن المسلمين يخدعونهم. ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم في الصحراء. وبعد ذلك بشهر في نفس السنة علم الرسول ﷺ أن جمعًا من قبيلة قضاعة الموالية للروم قد تجمعوا يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فأرسل إليهم عمرو بن العاص ولكنهم هربوا وتفرقوا في البلاد وعرفت هذه السرية بذات السلاسل.

وفي العام التاسع من الهجرة علم الرسول ﷺ بأن الروم قد جمعوا جموعًا كبيرة بالشام يريدون أن يستأصلوا شأفة المسلمين، فجهز الرسول ﷺ جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا، وخرج بهم قاصدًا الشام، ونزل بتبوك، فلما علم الرومان بزحف الرسول ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم، بل تفرقوا في البلاد داخل حدودهم. وبذلك كسر الرسول ﷺ الحاجز النفسي الذي صنعته هزيمة غزوة مؤتة في نفوس المسلمين، وأيضًا انكسر تحدي الروم لدولة الإسلام بعد هذه الغزوة، ولم يستطيعوا ولا

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك ج٣/ ٩٩، مرجع سابق، والوثائق السياسية للعهد النبوي وللخلافة الراشدة/ محمد حميد الله/ ١٠٣ - ١١٢ باختصار، ط دار النفائس ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

(٢) الرحيق المختوم/ صفي الرحمن المباركفوري ص ٤٩٥ ط دار الوفاء .

حلفاؤهم من نصارى العرب أن يتحركوا أو أن يقوموا بأي عمل عسكري، فكان هذا النصر مقدمة لحركة الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء.

وقد قام النبي ﷺ بعقد عقود صلح وتحالف مع بعض القبائل النصرانية الحليفة للرومان.

وفي العام التاسع من الهجرة استقبل الرسول ﷺ الوفود، وكان من بينهم وفد نصارى «نجران»، وقد جرى بينهم وبين الرسول ﷺ حوار فكريٌّ[1]، ومناقشات عقلية أرادوا أن يضيعوا معالم الحق الذي جاء به القرآن، فلم يجد الرسول ﷺ بدًّا من مناقشتهم إلا أن يوقف هذا الجدل، ويدعوهم إلى المباهلة كما حددتها آيات القرآن في سورة آل عمران[2].

ولكن رجال الوفد خافوا عاقبة أمرهم وسلموا الحكم فيهم لرسول الله ﷺ، فكتب لهم عهدًا، وفرض عليهم جزية سنوية، وبتلك المعاهدة قطع الإسلام الصلة بين العرب المتنصرين وبين دولة الروم التي كانت ندًّا له.

وفي السنة الحادية عشرة من الهجرة قامت دولة الروم بقتل أتباعها وحلفائها من العرب الذين دخلوا الإسلام، وقد فعلت ذلك بعروة بن عمرو الجذامي، ولهذا أمر الرسول ﷺ بتجهيز جيش في صفر في السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية، وأمر عليه أسامة بن زيد، ولكن توقف سير هذا الجيش لمرض الرسول ﷺ، وكان الرسول ﷺ كلما أفاق من مرضه يوصي بإنفاذ جيش أسامة، وقد وفى أبو بكر- رضي الله عنه- ونفذ هذه الوصية.

ولعل اهتمام الرسول ﷺ بأمر جيش أسامة يعطي الدلالة على إدراكه النبوي بخطورة الصراع ٱلمستقبلي مع الحضارة العربية، وهذا الأمر هو الذي جعل أبا بكر الصديق رضي الله عنه يصمم على إنفاذ جيش أسامة حين عارضه بعض الصحابة بحجة ردة العرب

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في الرحيق المختوم ٥٠٦، ٥٠٧ .

(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: الآيات ٥٩ - ٦١]، والمباهلة تقضي بأن يجتمع الطرفان على صعيد واحد ويستنزلا لعنة الله وغضبه على الفئة الكاذبة .

وتجمع الأعداء، فقال قولته المشهورة: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت بعثة أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته[١]، ورغم ذلك كله أرسل أبو بكر الصديق عددًا من الجيوش إلى الشام مثل: جيش خالد بن سعيد بن العاص، وجيش ذي الكلاع الحميرى، وعكرمة بن أبي جهل، ثم جيش الوليد بن عتبة، ثم أعد أربعة جيوش في وقت واحد كلها إلى الشام، الأول: تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح وتوجه إلى حمص، والثاني تحت قيادة عمرو بن العاص إلى فلسطين، والثالث: تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان على دمشق، والرابع: تحت قيادة شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وتوحدت هذه الجيوش كلها أمام الجيوش الرومانية ووقعت معركتان كبيرتان وهي: أجنادين (وهي بلدة تقع بين الرمل وبين جبرين من أرض فلسطين)، والثانية هي: موقعة اليرموك (واد في طريق العوريضة في نهر الأردن) في عام ١٣هـ الموافق ٦٣٦م - وبعد هاتين المعركتين خرج الروم من الشام نهائيًا وانهارت سلطة البيزنطيين، ورحل هرقل إلى القسطنطينية، وعندما جاوز بلاد الشام قال: عليك يا سوريا السلام، سلام لالقاء بعده[٢].

وبعد ذلك تم فتح البلاد صلحًا من حمص يافا إلى بيت المقدس، وفتحها عمر بن الخطاب عام ١٦هـ، وعقد مع أهلها صلحًا، وقضى بذلك على أوروبا المتمثلة في الدولة الرومانية الشرقية، ووصل المسلمون إلى البحر المتوسط[٣].

وبعد ذلك تم فتح مصر (سنة ١٩هـ-٦٤٠م) والإسكندرية عام (٢١هـ- ٦٤٢م) بعد رفض هرقل الروم تسليمها صلحًا لاتهامه المقوقس بالخيانة، وتم فتح ليبيا وبرقة وطرابلس وشمال إفريقيا، وفي عهد سيدنا عثمان على يد عبدالله بن سعد بن أبي السرح عام (٢٧هـ - ٣٥هـ، ٦٤٧ - ٦٥٥م) وقد تم فتح قبرص على يد معاوية عام (٢٨هـ، ٦٤٩م) وفتح ردوس في نفس العام وكان هذا أول غزو للمسلمين في

---

(١) البداية والنهاية ج٣/ ٨٤٦، وتمام الوفاء في سيرة الخلفاء/ محمد الخضري ص ٢١، ط المكتبة التجارية .

(٢) فتوح البلدان/ أبو الحسن البلاذري ص ١٣٦، ١٦٢، ط بيروت، والكامل في التاريخ/ ابن الأثير ج٢/ ٤٩٤ مرجع سابق .

(٣) فتوح الشام ج١ / ١٦٥ .

البحر، وقد وافق سيدنا عثمان معاوية عليه بشرط أن يأخذ زوجته فأخذها وأخذ عبادة بن الصامت زوجته أم حرام بنت ملحان[1]، وكان هذا الفتح تصديقًا لرؤيا رسول الله ﷺ.

وبعد هذا الفتح قام الإمبراطور قسطنطين بن هرقل عام (٣٤هـ - ٦٥٥م) بالدعوة إلى التعاون البحري بين آسيا الصغري وبلاد اليونان، وقصد الشام لمواجهة الجيوش الإسلامية وكان جمعا كبيرا مؤلفا من خمسمائة سفينة بحرية مزودة بآلات الحرب حتى راع منظرها المسلمين، ولقد وصفها أحدهم حين تقابلا بقوله: التقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، واجتمع الجيش الإسلامي في مصر بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي السرح، مع جيش الشام بقيادة معاوية ووثبوا على الروم، وربطوا السفن بعضها ببعض، وقاتلوا قتالا شديدًا، ووثب الرجال على الرجال يضربون على السفن حتى رجعت الدماء إلى الساجل تضربها الأمواج وطرحت الأمواج جثث الرجال[2] وهرب «قسطنطين» على ظهر مركب إلى صقليه، وانتهت تلك المعركة التاريخية التي عرفت باسم موقعة «ذات الصواري» البحرية وسميت بذات الصواري، لكثرة السفن التي اشتركت في المعركة وحطمت فى هذه المعركة القوى البيزنطية تحطيما تاما كما قال ذلك فليب متى[3].

وتوالت الفتوحات الإسلامية بعد توقف دام سبع سنوات بسبب الفتن في عهد

---

(١) فقد روى أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، ثم جلست تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت ما يضحكك يا رسول الله قال: **«ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج البحر ملوكًا على الأسرة»**، قالت: قلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، فوضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: **ناس من أمتي عرضوا في سبيل الله». ثم قال مثلما قال في الأولى: قالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين** . الحديث رواه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد، (ب) فضل الغزو في البحر . شرح النووي ج١٣/ ٥٧، ٥٨ (١٩١٢) .

(٢) تاريخ الأمم والملوك/ الطبري ج٢/ ٦٩، ٧٠، والكامل/ لابن الأثير ج٣/ ١١٧، ١١٨ مرجعان سابقان .

(٣) تاريخ العرب/ فليب متى . ترجمة: محمد نافع مبروك ص ١٢٥ .

سيدنا عثمان وسيدنا على، ولم تستأنف إلا في عهد الدولة الأموية والعباسية، فقد كان قيام الدولة الأموية في عام (٤١هـ) بداية مرحلة جديدة وخطيرة في الصراع بين الإسلام وأوروبا؛ ذلك لأن خلفاء الدولة الأموية كانوا قد تفهموا الخطر الذي تمثله أوروبا بالإسلام والمسلمين، ففي شمال إفريقيا كانت الفتوح قد توقفت بعد حملة عبدالله بن سعد بن أبي السرح على برقة، وتواصلت بعد ذلك على يد رافع بن خديج سنة (٥٤هـ)، ثم عقبة بن نافع (٥٠ - ٥٥هـ) ثم أبو المهاجر بن دينار من عام (٥٥-٦٢هـ)[١].

ثم بعد ذلك عقبة بن نافع مرة أخرى الذي استطاع أن يصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي، ويطهر الشمال الإفريقي من الحكم الروماني حتى اقتحم بفرسه أمواج المحيط وهتف قائلاً: «اللهم لولا هذا البحر المحيط لمضيت مدافعًا عن دينك ومقاتلاً من كفر بك وعبد غيرك»[٢].

وفي أثناء عودة عقبة إلى مدينة القيروان كان الروم قد تحالفوا مع البربر وحاصروا جيشه وقضوا عليه وكان ذلك عام (٦٣هـ) واحتلوا شمال إفريقيا، ولم يرجع هذا الجزء إلى أحضان المسلمين إلا في عام (٦٩هـ) في خلافة عبدالملك بن مروان بقيادة قيس بن زهير، ثم بعده حساب بن نعمان الغساني، ثم جاء موسى بن نصير فأكمل الفتح وثبت دعائمه من عام (٨٦هـ/ ٧٠٧م)، وقضى على المقاومة الأوروبية المنتشرة في البحر الأبيض المتوسط قبل قلعته «وسردينيا، وقورستقيا»، ثم أرسل جيشًا بقيادة طارق بن زياد (من قبائل البربر التي امتنعت على الإسلام) إلى «طنجة» فاجتازوا المضيق الذي عرف باسمه، ووصلوا إلى «أسبانيا» وهزموا ملك القوط عام (٧١١-٧١٣)، وأسسوا الحكم الإسلامي في الأندلس الذي استمر ثمانية قرون[٣].

وبهذا الفتح تحول شمال إفريقيا من الحضارة اللاتينية إلى الحضارة الإسلامية حتى

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٣/ ٤٦١ - ٤٧١ باختصار.

(٢) قادة فتح المغرب العربي/ محمود شيت خطاب ج١/ ١١٠، ط دار الفكر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٣) أوروبا في العصور الوسطي ص ١٢٥ - ١٣٠ باختصار، مرجع سابق، الحركة الصليبية نفس المؤلف ج١/ ٤٠.

البربر سرعان ما نجوا في الإسلام، وقام الإسلام في أكنافهم في الأندلس حيث وصلوا إلى جنوب فرنسا بقيادة «سجيم الكلبي»، وواصلوا زحفهم حتى نهر «الرون» وفتح مدينة «ليون» الفرنسية، واستمر هذا الغزو فيما بعد على يد عبدالرحمن الغافقي الذي واصل الزحف حتى احتل مدينة «بوردو» على مصب نهر الجارون، إلى أن توقف عقب معركة بلاط الشهداء عام (١١٤هـ - ٧٣٢م) وهي السنة التي استشهد فيها عبدالرحمن الغافقي.

وعقب ذلك هجوم أوروبي، وكان المسلمون في نزاع وشقاق بسبب السياسة الطائفية لبعض ولاة الأمويين وتفضيلهم الجنس العربي على غيره من أجناس المسلمين، وبسببها قامت ثورات البربر على الحكم الإسلامي في الغرب وامتدت إلى الأندلس، حيث قسمت إلى طوائف قبلية استمرت طيلة ٨٠ عامًا إلى أن قيض الله للأندلس من يحميها، فجاء المرابطون فأعادوا توحيد الأندلس وأوقعوا الهزيمة بالأسباب في موقعة الزلاقة (١٠٨٦م).

وظلوا محافظين على الحكم الإسلامي في الأندلس ضد غارات الأسبان، حتى أوقع الموحدون الهزيمة بالأسبان في معركة الأرك عام (١١٩٥م).

وبعدها تجددت النزاعات والفتن وحكم الطوائف عام (١٢١٤م) - إلى أن سقطت الأندلس عام (١٤٩٢م) واستمر بقايا المسلمين في الأندلس يقاومون بعد ذلك قرنًا من الزمان وينظمون الثورات ضد الأسبان إلا أنهم عمدوا إلى المذابح ومحاكم التفتيش وأبادوا المسلمين من الأندلس حتى لم يبقوا قبرًا لمسلم[١].

ومن خلال استعراض هذا التاريخ يجد الباحث أن شمال إفريقيا - قبل فتح الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي لها، وبعد سقوطها في حالة صراع مستمر مع أوروبا فقد تم فتح كريت (٢١٢هـ - ٨٢٦م) على يد الأندلسيين وتعاون معهم الأغالبة في تونس، ثم جزيرة صقلية على يد الأغالبة التونسيين (٨٢٧ - ٩٠٨م)، ثم غزو جنوبي إيطاليا ثم مالطة عام (٨٦٩)، ثم دقوا أبواب روما نفسها عام (٨٤٦)، ثم حاصروها سنة (٨٧٠م)، ولم يجد البابا يوحنا الثامن بدًا من التفاوض مع المسلمين

(١) انظر: التفاصيل الأخيرة: (حضارتنا) د/ عبدالحليم عويس ص، ١٢ - ١٨،ط دار المنار الإسلامي ١٩٧٥م .

لرفع الحصار عن روما مقابل أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة.

ومع بداية القرن الخامس عشر تعرضت بلاد المغرب للمزيد من الحملات الصليبية الأوروبية وخاصة بعد سقوط غرناطة سنة (١٤٩٢) ولولا وصول الإمداد العثماني لتلك البلاد عام (١٥١٠)، لكان لتاريخ هذه البلاد وجهة أخرى، فقد قام خير الدين بربروس القائد العثماني بتوحيد المغرب وأنشأ قاعدة بحرية سيطر فيها على الملاحة في البحر المتوسط وخافته جميع دول أوروبا، ومع ذلك استمرت الحملات الصليبية على بلاد العرب، وقد بلغت أكثر من مائة حملة منها ما هو ألماني وإنجليزي وإيطالي وبلجيكي، حتى كان عهد الاستعمار الحديث واحتلال البلاد العربية بعد ضعف الدولة العثمانية[1].

وفي المشرق الإسلامي لم ينقطع الصراع بين الإسلام وأوروبا، فبعد فتح جزيرتي «قبرص، ورودس» على يد معاوية وفي خلافة سيدنا عثمان استمرت المناورات البيزنطية في البحر المتوسط في عهد معاوية الذي تولى الخلافة عام (٤١هـ - ٦٦١م)، ففي العام الثاني من توليه الحكم أرسل حملة بقيادة بسر بن أبي أرطاه التقت مع الروم عند قاليقا وأنزلت بهم الهزيمة. واستمر معاوية في تنظيم الحملات على آسيا الصغرى التي عرفت باسم الصوائف والشواف نسبة إلى الصيف والشتاء، استمرت من عام (٤١هـ - ٦٠هـ)، ثم حاولوا فتح القسطنطينية عام (٦٦٩ - ٦٧٠)، ثم انصرفوا عنها وحاصروها مرة أخرى فيما يسمى بحزب السبع سنوات (٥٤، ٦٠هـ) - ٦٧٤م، ثم حاصروها مرة ثالثة في عهد سليمان بن عبدالملك واستمر هذا عام (٩٩، ١٠٠هـ - ٧١٧ - ٧١٨) في عهد عمر بن عبدالعزيز وقيادة مسلم بن عبدالملك.

وفي أواخر العهد الأموي حدثت خلافات وفتن داخل الدولة الأموية، مما أعطى الصراع طابع المد والجزر ما بين نصر وهزيمة، وانتهى الأمر باحتلال البيزنطيين

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها/ عبدالعزيز الشناوي ج٢/ ٩٦٦ - ٩٧٥ باختصار.

قبرص عام ١٢٩هـ/ ٧٤٧م - ودحروا الأسطول الإسلامي، فكان هذا الاحتلال خاتمة أليمة للتاريخ المجيد الذي عاشه المسلمون في العهد الأموي[١].

واستمر الصراع بين الشرق والغرب في العصر العباسي في عهد أبي جعفر المنصور، الذي أعاد تحصين الثغور وبنى قلاع ملطية، والمعمورة وغيرها من الحصون بين عامي ١٣٩ - ١٤١، وفي عهد المهدي (١٥٨هـ/ ٧٧٥م)، توجه الحسن بن قحطبة عام (١٦٢هـ)إلى البيزنطيين على أثر هجومهم على الحدود الإسلامية فألقى الرعب في قلوبهم حتى أسماه الرومان التنين، وخرج المهدي بنفسه عام (١٦٥هـ)على رأس إحدى الحملات ومعه ابنه هارون الرشيد حتى بلغ مضيق البوسفور مما اضطر الملكة إيرين التي كانت تحكم باسم ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) إلى توقيع معاهدة تقضي بدفع جزية سنوية للخليفة مقدارها تسعون ألف دينار، وكان ذلك عام (١٦٥هـ)[٢].

وفي عام (٨٠٢م) استولى «نقفوروس» على عرش الروم، فنقض المعاهدة التي عقدتها الملكة إيرين مع هارون الرشيد وطلب منه رد الجزية التي دفعتها «إيرين» في خطاب يفيض تحديًا قال فيه: من نقفوروس ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق[٣]، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا السيف بيننا وبينك. فرد عليه هارون الرشيد برسالة يقول فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم» من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه «والسلام». وكان ما رآه جيشًا توغل في أراضي الدولة البيزنطية وحاصر مدينة «هرقلة» واستولى عليها فعاد

---

(١) انظر الحدود الإسلامية البيزنطية/ فتحي عثمان ج٢/ ٥٣ - ٨٠ بتصرف واختصار ط دار الكتاب العربي .

(٢) التاريخ الإسلامي/ محمود شاكر ج٥/ ١٤٢ط المكتب الإسلامي ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

(٣) الرخ القطعة من قطع الشطرنج، والبيدق: وهو زهر الشطرنج . وانظر: تاريخ الأمم والملوك ج١٠/ ٩٢، والتاريخ الاسلامى ج٥/ ١٧١ .

ملك الروم وأعلن توبته واستعداده لدفع الجزية من جديد.

واستمر الصراع بين الإسلام والرومان على هذا النحو من القوة والشدة من جانب المسلمين والذل والهوان للجانب الروماني طول فترة الخلافة العباسية، فالخليفة المأمون ابتدأ حملاته العسكرية على الروم من عام (٨٣٠م)/ (٢١٥هـ) وإلى عام (٢١٨هـ / ٨٣٣)، وفي عهد المعتصم من ٨٣٣/ ٢٢٣هـ، ثم فتح عمورية الروم يوم ١٧ من رمضان.

ولم ينقطع الصراع بين الإسلام وأوروبا حتى نهاية القرن الحادي عشر وكان فيما مضى هجومًا وانتصارًا إسلاميًا، وبدءًا من سنة (١٠٩٥م) شهد هذا الصراع طابعًا آخر حيث قام بابا روما بتحريض أوروبا للهجوم على العالم الإسلامي زاعمًا أن ذلك واجب ديني مسيحي لتحرير بيت المقدس من المسلمين، وبدءًا من عام (١٠٩٥م) إلى عام (١٢٩١م) شهدت المنطقة الإسلامية حملات في الشام ومصر وتونس، وسجلت الجيوش الإسلامية انتصارات عديدة في «حطين، ودمياط»، وانتهت تلك الحملات بهزيمة الصليبيين ورجوعهم إلى أوروبا، وبعد ذلك تعرض العالم الإسلامي لفتن وصراعات داخلية بسبب تركهم الجهاد وظهور الدويلات والحكومات التي استقلت عن الخلافة الإسلامية إلى أن قيض الله للأمة الإسلامية الدولة العثمانية التي تولت توجيه الصراع لصالح الإسلام والمسلمين بفتح القسطنطينية في عام (١٤٥٣م) على يد محمد الفاتح، وانتهت بذلك الدولة البيزنطية وأصبحت القسطنطينية تسمى «أسلامبول» أي دار الإسلام، وواصل العثمانيون جهادهم في قلب أوروبا.

ووصلوا إلى أسوار فينا وجنوب «روما» واستولوا على العديد من الدول الأوروبية، بفضلهم ظلت أوروبا في حالة دفاع فترة طويلة، بل ودخل الكثير من الأوروبيين أنفسهم في الإسلام مثل البوسنة والهرسك وألبانيا وكوسوفو وأقليات في بلغاريا ورومانيا واليونان وفرنسا وإيطاليا وغيرها، وكان من الطبعي أن تتآمر الصليبية على الدولة العثمانية حتى استطاعت أن تضعفها، ثم تسقطها، ومنذ ذلك الحين اتخذ الصراع طابعًا حضاريًا جديدًا لا يتوقف عند حد الصراع العسكري، وإنما كان صراعًا شاملاً فكريًا وثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

وهذه الفترة الممتدة من فتح القسطنطينية إلى الآن ستكون هي موضوع الدراسة

والبحث؛ لأن ما نعانيه الآن من تخلف وتمزق وتراجع حضاري هو نتيجة لهزيمتنا في المرحلة الأخيرة من هذا الصراع الطويل.

وإذا أمعن الباحث النظر في تاريخ وأحوال هذا الصراع بين الحضارتين - الإسلامية، والغربية - يجد أن هناك الكثير من الحقائق التي لا ينبغي تجاهلها:

أولًا: خلال تلك القرون نجد أن الغرب كان هو الجاني والبادي لهذا الصراع، فقد كانت الشرارة الأولى لهذا الصراع من أيام الرسول ﷺ ألا وهي قتل رسول رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي الذي حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام والإيمان، وترك الناس أحرارًا فيما يختارون من دين، فكان الرد واضحًا في قتلهم الحارث الأزدي، وهذا يتفق وعنصرية الحضارة الغربية، وتعصب للجنس الأبيض كما وضح ذلك من الحديث عن أسس الحضارة الغربية.

ثانيًا: أن رسول الله ﷺ قد أرشدنا من خلال إصراره على إنفاذ بعث أسامة إلى أن الصراع الرئيسي للمسلمين سيكون مع الحضارة الغربية، ولم يكن عبثًا أن تكون إحدى وصاياه في مرضه: أن انقذوا بعث أسامة وأن الهجوم خير وسائل الدفاع.

ثالثًا: أن الجهاد بمعنى أداء الواجب الإسلامي في تحرير البشر من الطغيان والحكام الظالمين هو السبيل الوحيد لعزة المسلمين، وأن غيبة الجهاد كانت سببًا في التفرقة والتجزئة والضعف والتفكك.

هذا والحديث في الباب يشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الصراع السياسي والعسكري.

الفصل الثاني: الصراع الاقتصادي.

الفصل الثالث: الصراع الاجتماعي.



الفصل الأول
الصراع السياسي والعسكري

ويشتمل على تمهيد ومبحثين:

الأول: المبحث وسائل الصراع العسكري والسياسي.

الثاني: المبحث أهداف الصراع العسكري والسياسي.



الفصل الأول
الصراع السياسي والعسكري

تمهيد:

في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر - وبالتحديد بين عامي (١٧٥٦ - ١٧٨٠) كان عصر النهضة الصناعية في أوروبا قد عم كل قطاعات الحياة العلمية والتطبيقية والاقتصادية، وكان من آثار ذلك: تعاظم نفوذ كثير من الدول الغربية وتطلعها إلى بسط نفوذها عن طريق الغزو الحربي والتوسع الاستعماري، وبمقدار ما كانت الدول الغربية آخذة في التقدم، كانت الدول الإسلامية وفي مقدمتها الدولة العثمانية آخذة في التدهور والانحلال، وكان لاكتشاف القوى المحركة أثر كبير في توسيع الهوة بين قوة الغرب وضعف البلاد الإسلامية، في خلال ذلك القرن احتل الهولنديون أندونسيا، واحتلت إنجلترا الهند، واحتلت روسيا أواسط آسيا الإسلامية، واحتلت فرنسا شمال إفريقيا، وكانت تركيا مقر الخلافة العثمانية مهددة بروسيا التي تطمع في الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق الدردنيل والبسفور. وكانت البلاد العربية موضع طمع الاستعمار الإنجليزي والفرنسي اللذين ينتظران انحلال الدولة العثمانية لينقضا عليها ويقتسماها بينهما.

وأمام هذا التقدم العلمي الأوروبي بدأ الإحساس بالخطر من جانب البلاد الإسلامية، وتبين ضرورة تعزيز الجيوش فيها، ومن هنا تطلعوا إلى الأخذ بأساليب البلاد الغربية في تنظيم جيوشها وتسليحها، ووجدوا أن الهدف الحربي لا بد أن تصاحبه نهضة علمية، وأدركت الدول الإسلامية أن الغرب قد سبقهم بآماد بعيدة، وأن الأمر ليس بالسهولة التي يتصورونها. فقد كانت الجيوش الغربية تعتمد على خبرات علمية في مختلف العلوم الحربية، وتختلف اختلافًا كليًا عن الوضع في البلاد الإسلامية التي اقتصر التعليم فيها على العلوم الشرعية والعلوم الموصلة لفهمها، عند ذلك تطلع المسلمون إلى نقل العلوم الغربية لتحقيق الأهداف الحربية، ولكن الغرب لم

ينس الهزائم التي لحقت به على مر سنوات الصراع السابقة؛ فكان يعد العدة لتطويق العالم الإسلامي - منذ القرن الرابع عشر والخامس عشر - بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الإسلامية عرضًا عن مقابلتها وجهًا لوجه، كما فعل خلال الحروب الصليبية التي كانت نتائجها وخيمة عليه على حد تعبير أرنولد توينبي[١] فقد وصل البحارة «تغاليون» إلى شواطئ الهند، وحقق الأسبانيون ربط المحيطين الأطلسي والهادي، واستطاع الغرب أن يطوف البلاد الإسلامية في نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار، ولكنه لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر؛ لأن بسالة المسلمين العسكرية فرضت الحذر على الغربيين، حتى كانت الهزائم التي منيت بها الإمبراطورية العثمانية في الحرب الروسية (١٧٦٨ - ١٧٧٤) وقد كبدتهم هذه الهزائم خصم مجهز بأسلحة غربية، يملك العلم والتكتيك اللذين تقوم عليهما الحرب الحديثة[٢]. فعندما تطلع المسلمون إلى نقل العلوم الغربية لتحقيق هدفهم الحربي، استغل الغرب هذا الاحتياج، وبدأ بتحويل الصراع لصالحه للقضاء على الإمبراطورية العثمانية والعالم الإسلامي.

وسوف أتحدث عن هذا الصراع من خلال مبحثين:

المبحث الأول: وسائل الصراع العسكري والسياسي وأهدافه.

المبحث الثاني: اهداف الصراع العسكري والسياسي.



(١) العالم والغرب/ أرنولد توينبي، ترجمة نجدة هاجر ص ٢٨، ط بيروت ١٩٦٠م.

(٢) السابق ص ٢٩ .

المبحث الأول

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: وسائل الصراع العسكري والسياسي.

المطلب الثاني: أهداف الصراع العسكري والسياسي.

المطلب الأول
وسائل الصراع العسكري والسياسي

لقد لجأ الاستعمار إلى وسائل عديدة مهدت له القيام بعمليات الغزو العسكري والسياسي للبلاد العربية الإسلامية؛ وذلك لأنه أدرك أن الغزو العسكري وحده - بدون أسباب محفوف بالمخاطر التي تكلف الاستعمار كثيرًا من الدماء والأموال؛ لذلك افتعل وسائل من شأنها أن تفتت الوحدة الإسلامية قبل مواجهتها حتى يسهل القضاء عليها، وهذه الوسائل تتلخص فيما يلي:

أولاً: إثارة الأقليات لإحداث فتن طائفية:

لقد استخدم الاستعمار الأقليات اليهودية والنصرانية الموجودة داخل أراضي الدولة الإسلامية كسلاح يطعن به الإسلام والمسلمين، لفتح باب الصراعات الداخلية التي من شأنها أن تحدث الفتن والخلل داخل الدولة الإسلامية، ولقد كان اصطناع هذه الوسيلة من توجيه القائد الفرنسي لويس التاسع عشر الذي قال: «لا بد من استغلال نصارى الشرق في تنفيذ مخططات الغرب» كما أكد المؤتمر الأوروبي الذي انعقد في«برلين ١٨٧٨» على هذا الأسلوب، فكان من مقرراته الأساسية «تحطيم الدولة العثمانية، وتمزيق البلاد الإسلامية إلى دويلات تقام بينها حدود مصطنعة، ومساندة وتشجيع المذاهب المناهضة للإسلام، ودعم الأقليات النصرانية

الموجودة في البلاد الإسلامية واستغلالها في إثارة الفتن»[(١)].

وقد قام الغرب بتنفيذ هذه الوسيلة كسبيل لاحتلال الولايات التابعة لدولة الخلافة العثمانية، «فقد كانت الدولة العثمانية تحكم شعوبًا اختلفت جنسياتها، ودياناتها، ولغاتها، وثقافتها، وعاداتها، وتقاليدها، وتميزت بتنوع بشري تناول الجوانب العنصرية واللغوية والدينية. فمن الناحية الدينية كان من بين رعاياها المسلمون، والسنيون، وطوائف من الشيعة، مثل العلويين[(٢)]، والإسماعيليين[(٣)]، ثم الدروز[(٤)]، ومن الطوائف المسيحية الروم الأرثوذكس والكاثوليك، والسريان واليعاقبة والأرمن والأقباط، والموازنة، والبروتستانت، واليهود»[(٥)].

وكانت هذه الطوائف والأقليات يعيش أتباعها في ظل تعايش سلمي وحرية دينية يأمنون على أرواحهم وعبادتهم وبيوتهم وأموالهم بما يأمر به الإسلام وتقضي به شريعته السمحة وفقا للقاعدة القرآنية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٦)] والقاعدة الشرعية التي رتبها العلماء على هذه الآية «لهم مالنا وعليهم ما علينا»[(٧)].

على هذا الأساس الإسلامي عاشت الأقليات في المجتمع الإسلامي وقد قرر

---

(١) ما يجب أن يفهمه المسلم عن النصرانية والتبشير/ محمد سليمان الجهان ص ٣٧، ط العامة للبحوث العلمية بالسعودية، بدون تاريخ.

(٢) ويطلق عليهم أيضًا اسم النصيرية، بلغ عدد أفرادها مائة وثلاثين ألفًا، سكنوا في منطقة جبلية في شمال بلاد الشام تحمل اسمهم.

(٣) الإسماعيليون: أقدم الطوائف الشيعية في بلاد الشام، ومركزهم الرئيسي السليمية، ومن مراكزهم مصياف والحصن.

(٤) الدروز: طائفة يدين أفرادها بعقيدة وشريعة خاصة بهم، فهم ينكرون الألوهية، ويؤمنون بألوهية الحاكم بأمر الله، وينكرون الأنبياء، وينكرون أصول الإسلام والنصرانية، وهم يتنسبون إلى الإسلام ظاهرًا، ويعتقدون في تناسخ الأرواح ويقولون: إن القرآن من صنع سلمان الفارسي، وهم ينكرون الشريعة عامة. طائفة الدروز تاريخها وعقائدها/ محمد كامل حسين ص٨٩ - ١٠٠/ ط دار المعارف ١٩٦٨م.

(٥) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها/ عبدالعزيز الشناوي/ ج١ ط مكتبة الأنجلو المصرية.

(٦) سورة الممتحنة: الآيتان ٨، ٩.

(٧) انظر تفصيل هذا الموضوع في غير المسلمين في المجتمع الإسلامي/ د. يوسف القرضاوي ص ٣٨/ ٣٩، ط مؤسسة الرسالة.

الإسلام ذلك منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان في الوقت الذي كانت الغالبية العظمى من الدولة الأوروبية الكاثوليكية لا تطيق وجود البروتستانت داخل حدودها، وكان هؤلاء البروتستانت يعيشون على أعصابهم مهددين في أي وقت بعمليات انتقامية تستهدف إبادتهم على أمل حملهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي.

ولكن عز على أعداء الإسلام أمن المجتمع الإسلامي؛ فاتخذوا من الأقليات سبيلًا لزعزعة هذا الأمن، وقد خططت الدول الأوروبية لثورة اليونان على الدولة العثمانية عام (١٨٢١) فاستغلوا الأقليات المسيحية، وبدؤوا بتكوين الجمعيات السرية التي كان هدفها إعادة بعث الدولة البيزنطية من جديد، وقامت هذه الجمعيات بعمل مذابح جماعية للمسلمين، ومما كان سببًا في إرسال الجيش العثماني لإخماد هذه الفتن وتدخلت الدول الأروبية بحجة حماية الأقليات، وأعلنت استقلال اليونان عن الدول العثمانية[١] كما قامت بإثارة الأقليات المسيحية الأرثوذكسية في بلغاريا في وجه الدولة العثمانية عام (١٨٠٧)، وقد خططت روسيا لهذه الثورة، ووقفت من ورائها، وكان من أسباب هذه الثورة: أن الحكومة العثمانية أنزلت في بلغاريا عائلات من الشراكسة المسلمين الذين هربوا من حكومة روسيا طلبًا للاحتماء بالدولة، وانتهز الروس فرصة هذه الهجرات الإسلامية التي تمت تحت إشراف السلطات العثمانية، فأدخلوا في روع البلغاريين أن الدولة تبغي إقطاع أراضيهم لهؤلاء الشراكسة، واستبعاد المسيحيين أصحاب البلاد الأصليين، فعلت روسيا ذلك على الرغم من أن السلطان عبدالعزيز أصدر فرمانا عام (١٨٠٧) يقضي بإنشاء كنيسة خاصة بالبلغاريين الأرثوذكس لتحريرهم من نفوذ البطريرك اليوناني في إستانبول الذي كانت له زعامة دينية على جميع الصقالبة المسيحيين في بلاد البلقان؛ لأن هؤلاء لهم قومية متميزة على الرغم من وحدة الدين والمذهب. وقامت بينهم حرب عصابات استخدمت فيها شتى الأسلحة؛ لأن كل فريق منهم يريد إثبات صحة مذهبه، فكان فرمان السلطان بإنشاء كنيسة خاصة بالبلغاريين لتهدئة هذا الصراع الكنسي بين أتباع الدين الواحد. إلا أنهم بعد ذلك قاموا بمذابح ضد المسلمين بإيعاز من روسيا، مما كان ذلك سببًا في الحرب الروسية التي منحتهم الاستقلال عن الدولة العثمانية[٢].

---

(١) سيأتي تفاصيل ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٢) ستأتي التفاصيل في المبحث الثاني عن الحرب الروسية.

وكذلك افتعلت فرنسا مذابح لبنان بين الموازنة والدروز[١]، وتدخلت إنجلترا بحجة إخماد الفتن، فمنحت لبنان استقلالًا ذاتيًا، وأيضًا المذابح التي افتعلتها روسيا، وكان الأرمن[٢] يدينون بالمذهب الأرثوذكي، ودخلتها المذاهب المسيحية الأخرى تباعًا، وقد تسامحت الحكومة العثمانية مع الأرمن على اختلاف مذاهبهم في كل الحريات، وكان لنشاط الحملات التنصيرية بين المذاهب المسيحية أثره في قيام الصراعات والانقسامات بين أتباع الدين الواحد، وكانت روسيا واليونان تناصران الأرثوذكس، وفرنسا والبابا يناصران الكاثوليك، وبريطانيا تناصر البروتستانت، ولكل مذهب عملاؤه المتنكرون في زي البعثات التنصيرية، إلى جانب الصراع المذهبي بين الأرمن والمسيحيين كان يجاورهم الأكراد والشراكسة والألبانيون.

وقد تعرضت القوى الأرمينية لأعمال الفتن من جانب هؤلاء، وقد تطلع الأرمن إلى الاستقلال، عن الدولة العثمانية بتأثير الدعاية التي قام بها عملاء روسيا بمساعدتهم على الاستقلال، وانضم الأرمن إلى جانب روسيا في الحرب التي دارت بينهما وبين الدولة العثمانية كما سيأتي (١٨٧٧، ١٨٧٨)، وبعد الحرب طلب الأرمن من الروس تنفيذ الوعود التي كانت بذلتها لهم على خدماتهم لهم أثناء الحرب، ولكن روسيا نكثت بوعودها حفاظًا على أمنها فقط، وحتى لا يكون تحريرهم باعثًا لعناصر الأرمن الخاضعين لروسيا على المطالبة بالاستقلال، ولكن بعد فشل روسيا في إنشاء دولة بلغاريا - بعد الحرب الروسية الأولى - عادت فشجعت الأرمن على إثارة

---

(١) ستأتي التفاصيل في المبحث الثاني عن الحرب الروسية .

(٢) تقع أرمينية في غربي آسيا، وهي بلاد جليلة، يحدها من الغرب آسيا الصغرى، ومن الشرق هضبة أذربيجان، ومن الشمال البلاد الواقعة على سواحل بحر قزوين وبلاد القوقاز، ومن الجنوب السهل الشمالي الغربي من البلاد والجزيرة الواقعة في حوض دجلة الأعلى، فهي تقع بين خطي طول ٣٧، ٤٩ شرقًا، وخطي عرض ٣٧، ٤١ شمالًا، وأتم العثمانيون فتحها عام (١٥١٢ - ١٥٢٠) على يد السلطان سليم الأول»، ولما فتحها العثمانيون استدعوا أسقفها بروسه الأرمني واسمه «بواقيم»، وأقامه في استانبول، ومنحهم السلطان العثماني حكمًا ذاتيًا محدودًا؛ أي: جعل مسائلها من اختصاص مجلس وطني برئاسة البطريرك، ومجلسين أحدهما للمسائل الدينية، والآخر للمسائل المدنية، على أن يؤدوا ضريبة سنوية للسلطان العثماني، وقد اعتنق خلق كثير منهم الإسلام، وتقلدوا وظائف في الدولة العثمانية، وكان الأرمينيون يدينون بالمذهب الأرثوذكسي، ودخل المذهب الكاثوليكي إليها بتحول أحدهم وهو مكهتيار عام ١٧٢٧ وأنشأ مقرًا لطائفته في جزيرة سان لازار بمساعدة بابا روما التي كانت تؤيده فرنسا، ودخل المذهب البروتستاني إلى أرمينية في حماية بريطانيا عام ١٨٥٠ .

المتاعب في وجه الدولة العثمانية للمطالبة بالاستقلال، وفي عام (١٨٩١م) تعرض الأرمن لمذبحة على يد الأكراد في مدينة «ساسون» في الأناضول، وبسبب تعامل الأرمن مع الروس أثيرت الشكوك حول ولائهم للدولة العثمانية، وأصبحوا في نظرها عملاء للروس والفرنسيين والبريطانيين، والسبب في ذلك: هو تحول غالبيتهم إلى مذاهب تلك الدول الاستعمارية، والتي أغرتهم بالامتناع عن دفع الضرائب، فقامت الدولة العثمانية بترحيل الأرمن من شرقي الأناضول إلى العراق، «وأرمن أخنه» إلى وسط الشام، وذلك للقضاء على تآمر الأرمن مع الروس وغيرهم من الدول الاستعمارية، ولما رأى الأرمن أن الدول الاستعمارية التي أعطوها ولاءهم لم تُعِرْ قضيتهم اهتمامًا فاعلاً، قاموا بحركات إرهابية ضد المسلمين من رعايا الدول العثمانية، وأنشؤوا الجمعيات السرية في بعض مدن أوروبا، مثل: جمعية الناقوس في جنيف، وجماعة واشناكس في روسيا عام (١٨٩٠) التي كانت ترسل لهم الخناجر والمسدسات، وانتشرت المذاهب التي أعدها الأرمن للمسلمين.

وتدخل الجيش العثماني للقضاء على تلك المذابح والسيطرة على الموقف، فهربوا إلى الجبال، ولما رأى قائد الجيش العثماني ما حل بالمسلمين في قرى ساسون، قام بتدمير القرية وقتل من بقي فيها من الأرمن، واستمرت هذه المجازر بين الجانبين على امتداد ثلاثة أسابيع في أواخر عام (١٨٩٤)، ولقد اتخذ الأرمن هذا الرد الإسلامي بالمثل سبيلاً لنشر الدعاية في أوروبا ضد المسلمين والعثمانيين، وشكلت لجنة دولية لتقصي الحقائق من الدول الاستعمارية، وقررت اللجنة أن الأرمن هم السبب في إشعال نار الفتنة عن طريق الجمعيات السرية، وتطورت الأوضاع بمظاهرة قام بها الأرمن عام (١٨٩٥) في إستانبول، وقد حال سفراء الدول بين السلطان عبدالحميد وبين اتخاذ الإجراءات الكفيلة بوأد المذبحة، ووقعت مذابح في شوارع العاصمة بين المسلمين والأرمن، وأحرق المسلمون كتدرائية الأرمن، وانتهز الصهاينة الفرصة وعرضوا على السلطان مساعدته على حل هذه القضية مقابل حل قضية فلسطين، وكان موقفه عدم التخلي عن فلسطين.

وأوغرت الدول الاستعمارية إلى السلطان إعلان الأحكام العرفية، ودخل الجيش العثماني العاصمة للقضاء على الثورة والانتقام من الأرمن عام (١٨٩٦)،

ظلت الثورات حتى خلع السلطان عبدالحميد وتولى حكومة الاتحاديين حيث حصلوا على استقلالهم، وكان ذلك بانقضاء الدولة والخلافة العثمانية[١].

وهكذا تتخذ الدول الاستعمارية من دعم الأقليات في الدول الإسلامية للقضاء على وحدتها وإثارة الفتن فيها، وقد حدث ذلك في كثير من بلدان العالم الإسلامي في لبنان والحبشة والفلبين ونيجيريا، وفلسطين ومصر، فقد أثارت الصليبية في هذه البلاد نيران الحروب الطائفية بين المسلمين والنصارى، وتقوم بمساعدة الأقليات النصرانية بكل ما تستطيع - من أجل إضعاف المسلمين وزيادة نفوذ النصارى بحيث تتولى الأقليات النصرانية زمام الحكم والتوجيه في هذه البلاد[٢].

وهذا المخطط يسير إلى اليوم، فقد ألقى «غولد مان خطابًا» في مؤتمر المثقفين اليهود قال فيه: «إذا أردنا لإسرائيل البقاء والاستمرار في الشرق الأوسط، فعلينا أن نفسخ الشعوب المحيطة بها إلى أقليات متنافرة، تلعب إسرائيل من خلالها دورًا طليعيًا، وذلك بتشجيع قيام دولة علوية في سوريا، ودويلة مارونية في لبنان، ودويلة صليبية في الأردن، ودويلة كردية في العراق، ودويلة قبطية في مصر»[٣].

وما أمر البوسنة والهرسك اليوم ببعيد عنا، ففيه تفسير واقعي لتلك الحرب الشرسة التي يقصد من ورائها إبادة المسلمين ومحو الإسلام من أوروبا.

ثانيًا: إثارة النعرات القومية والعرقية داخل الدولة الإسلامية:

لقد أنشأ الإسلام مجتمعًا بشريًا تجمعت فيه روابط الوحدة الإنسانية بنداء القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[٤].

وبشعار «لا إله إلا الله محمد رسول» الله «خاطبهم جميعا ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٥]. فهذه قومية الإسلام التي جعلها أساسًا لكل

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ج٣ / ١٥٣٢ - ١٥٦٠ بتصرف واختصار.

(٢) انظر وثيقة رقم (١) في ملاحق البحث عن خطاب الأنبا شنودة في كنيسة الإسكندرية عام ١٩٧٣م.

(٣) ما يجب أن يعرفه المسلم عن النصرانية والتبشير ص ٣٠.

(٤) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

عمل إيجابي يربط بين المؤمنين، فتلاشت بذلك القوميات الجاهلية التي كانت تحكم مجتمعات الجاهلية؛ فجعلتهم في حالة تمزق وصراع، فكان المؤمنون بالإسلام وحدة واحدة، وانطلقوا بهذه الوحدة ينشرون الإسلام في بقاع الأرض، حتى دان لهم ملك كسرى وقيصر، فكانت روح الوحدة الإسلامية والاعتصام بحبل الله العامل الأول الذي أصاب أعداءهم بالفزع.

«فقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطانية «أورمس غو» لرئيس حكومة في الوثيقة رقم (٧٧١ / ٥٥٩٥) بالمركز العام للوثائق بلندن، وقد نشرت في جريدة العلم نقلاً عن مجلة درع الوطن الإماراتية يقول ذلك الوزير: إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية، هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه وليست إنجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك، بل فرنسا أيضًا، ومن دواعي فرحنا: أن الخلافة الإسلامية زالت، لقد ذهبت، ونتمنى أن يكون ذلك على غير رجعة. إن سياستنا تهدف دائمًا وأبدًا إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك. إننا في السودان ومصر ودول إسلامية شجعنا نمو القوميات المحلية، فهي أقل خطرًا من الوحدة الإسلامية. ثم قال في آخر الوثيقة: أن الوحدة العربية قد تكون حركة تمهيدية لإقامة وحدة إسلامية، وعلينا أن نأخذ الحذر من هذا الاتجاه حتى لا نواجه خطر عودة الإسلام»[١].

لهذا الإحساس بالخطر عمل أعداء الإسلام على تشتيت شمل الأمة الإسلامية وفرض الحضارة الغربية عليها حتى تسير الأمة في نفس الطريق الذي سار فيه المجتمع العربي إلى القومية[٢]. ومن هنا نقل أعداء الإسلام النزعات القومية والعرقية إلى العالم الإسلامي؛ لإضعاف ارتباطه بالإسلام من ناحية، وتقطيع أواصر الوحدة من ناحية أخرى، فنادوا بإحياء الحضارات القديمة التي قضى عليها الإسلام، مثل: الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا ولبنان، والآشورية في العراق، وفي آسيا حاولوا إحياء العادات البوذية والدرزية والنصيرية في الشام[٣].

---

(١) هموم داعية/ محمد الغزالي ص ٩٤، ٩٥، ط دار البيان العربي، ط الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) راجع الفصل الأول من الباب الثالث/ أسس الحضارة الغربية .

(٣) سأتناولها بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا الباب إن شاء الله.

يقول جب في كتابه «وجه الإسلام»: «وكان من أهم مظاهر فرنجة العالم الإسلامي: تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وأندونيسيا والعراق وإيران، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دورًا في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها»[١].

وقد نجح الاستعمار في بث القومية بين الشعوب العربية ودولة الخلافة قبيل الحرب العالمية الأولى، وذلك بتقديم الوعود إلى الحسين بن علي أمير مكة بإقامة خلافة عربية تحت إمرته في مقابل إعلانه الثورة على الدولة العثمانية، وبعد الحرب تحقق مراد الاستعمار من تفتيت الشعوب الإسلامية، ونكثت في وعودها للشريف حسين[٢]. وقد قضت على الخلافة العثمانية.

وبهذا فقد ظهر بوضوح: أن الحركات القومية ترمي إلى إضعاف الشعور الإسلامي خاصة بين البلاد الإسلامية وإلى قصر الصلات بين بلادنا على العنصر القومي وحده، فالصلة بين سوريا ولبنان ومصر والجزائر ومراكش تقوم في رأي الأحزاب القومية على العروبة أو على اللغة العربية وعلى شيء من التاريخ العربي مجردًا من كل صلة بالإسلام. وأما تركيا وإيران وباكستان وأندونيسيا، فهي عندهم كالأرجنتين والمكسيك وفرنسا سواء بسواء، وبعض الأحزاب القومية كالحزب القومي السوري وحزب الكتائب اللبنانية، وتنظر إلى اليمن ومصر وتونس كما تنظر إلى فلندة، أما البرازيل والولايات المتحدة وفرنسا، فهي أقرب إلى هذين الحزبين من اليمن وطرابلس الغرب[٣].

وبهذه الصبغة القومية ينظر غالبية المسلمين اليوم إلى قضية البوسنة والهرسك على أنها مسألة أوروبية وليست إسلامية كما قال أحد رؤساء العالم الإسلامي.

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية/ أبو الحسن الندوي ص ١٨٩ ط دار القلم الخاصة ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م.

(٢) انظر التفاصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٣) التبشير والاستعمار في البلاد العربية/ عمر مصطفى الخالدي ص ١٧٦، ط دار الكتاب اللبناني.

ثالثًا: تشجيع الحركات الانفصالية:

من الوسائل الممهدة للغزو العسكري والسياسي، تشجيع الدول الاستعمارية حركات الانفصال الهدامة بين بعض الشعوب التي كانت تخضع لدولة الخلافة والتي أطلق عليها الحركات الوطنية، فقد تبنت دول الاستعمار مثل فرنسا مثلاً أعضاء الجمعيات السرية التي شكلت من اليونانيين والبلغاريين وبعض الأرمن والأتراك[١] الذين ناوءوا السلطان العثماني عبدالعزيز، ونفذوا المؤامرة التي انتهت بخلع السلطان عبدالحميد عن طريق تشكيل حزب تركيا الفتاة الذي غير وجه تركيا الإسلامي إلى العلمانية ولأن يتبنى الاستعمار نشر المذاهب الهدامة التي تقوم على نقيض مبادئ الإسلام الزعزعته في نفوس المسلمين.

المطلب الثاني
أهداف الصراع العسكري والسياسي

إن هدف الاستعمار من الإسلام لا يقف عند حد الاحتلال العسكري؛ لأن هذا الاحتلال وسيلة لها لما بعدها من الأهداف الحقيقية للاستعمار من بلاد الإسلام، فبعد التمكين يفعل المقتحم ما يريد، ويمكن إجمال أهداف الغزو العسكري والسياسي فيما يلي:

تغيير نظام الحكم في الدول الإسلامية بتعطيل الشريعة:

يهدف الاستعمار - بعد تثبيت أقدامه في أي بلد إسلامي - إلى تغيير نظام الحكم، ويبدأ ذلك بإبعاد الشريعة الإسلامية وعزلها عن حياة المسلمين، ففي الهند اتجه الإنجليز عقب السيطرة عليها بكل قواهم لمصارعة المسلمين بوجه خاص، فالمسلمون ينتمون إلى هذا الدين الذي تحركت أوروبا كلها لمصارعته فيما يسمى بالحروب الصليبية، وكان لإنجلترا وملكها ريتشارد قلب الأسد دورهم الكبير في هذا الصراع. وإذا كانت أوروبا قد فشلت في الحروب الصليبية في مصر وسوريا، فإن

---

(١) مثل حركة على بك الكبير في مصر،/ طاهر العمر في فلسطين وغيرها من الحركات التي انفصلت عن الدولة العثمانية .

الروح الصليبية كانت متأججة في نفوسهم، وكانوا ينتهزون الفرص كلما حانت ليشفوا ما بهم من غيظ، وكان دخول الإنجليز الهند فرصة للإيقاع بمسلمي الهند، فذلك امتداد لما يتطلعون إليه من محاولات للصراع ضد الدين الإسلامي الحنيف، ويستلزم استقرار الأحوال للإنجليز أن يقضوا على بقايا الحكام المسلمين الذين امتد حكمهم فيها طيلة ثمانية قرون؛ فاستعانوا بالهندوس الذين كان الحكم قد أفلت من أيديهم بالزحف الإسلامي، ومن أجل هذا اتخذ الإنجليز كل الوسائل التي تضعف المسلمين، فوضعوا قوانين جديدة لحكم البلاد، وعينوا قضاة للحكم بها من الإنجليز والهندوس، وأقامت المدارس وأبعدت الإسلام من مناهجها واستبعدت المسلمين من الجيش والإدارة والمناصب الكبرى.

وقد صور كاتب إنجليزي هذه السياسة الاستعمارية ضد المسلمين بقوله: إنه لن يجدينا نفعًا أن نصم آذاننا عن هذه الحقيقة الماثلة من أن المسلمين الهنود قد ارتكبنا ضدهم أمورًا خطيرة لم ترتكبها حكومة من الحكومات. إنهم يستطيعون مقاضاتنا عن هذه الأمور، يقاضوننا عن إغلاق كل حياة كريمة في وجوههم، ويقاضوننا عن نظام التعليم الذي دفعهم إلى الجهل، وعن نظام الاقتصاد الذي حكم عليهم بالفقر. لقد عاش ملايين المسلمين بعد سقوط دولة المغول في تعاسة وشقاء بعد أن فقدوا كبرياءهم وأملاكهم وقوتهم[(١)].

وفي مصر أدخل الخديوي إسماعيل القانون الفرنسي بدلاً من الشريعة الإسلامية عام (١٨٨٣) أي بعد فرض النفوذ الإنجليزي بعام واحد، وقام بهذا العمل رفاعة الطهطاوي وتلاميذه[(٢)] وحدث هذا أيضًا في تونس عام (١٩٠٦م) في الجزائر عام (١٨٠٣)، وفي المغرب (١٩١٣)، وفي تركيا (١٩٢٤م)، وما من بلد إسلامي كان للاستعمار وجود فيه إلا وعمل فيه على إلغاء الشريعة أو تفريغها من محتواها الجهادي الحركي، وفي دول إسلامية قام الاستعمار بتسليم القيادة فيها للأقليات النصراينة بعد

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي في الحضارة الإسلامية/ د. أحمد شلبي ج٨/ ٣٢٣، ط مكتبة النهضة المصرية، ط الأولى ١٩٨٣م.

(٢) عصر إسماعيل/ عبدالرحمن الرافعي ج٢/ ٢١٦، ط دار المعارف الثالثة ١٩٨٢م.

رحيله منها، مثل: تشاد، والنيجر، والحبشة[1].

أما الدول العربية الإسلامية، فلم يرحل الاستعمار البريطاني والفرنسي عنها إلا بعد أن سلمها للاستعمار الأمريكي عام (١٩٤٧)، وقد قام الأخير باصطناع سياسة صناعة الزعماء الذين تربوا في بلاده وعلى حضارته، ومفاهيمه وسلمهم مقاليد الحكم في البلاد العربية. يذكر مايلزكوبلاند مستشار لجنة تخطيط السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الأمريكية والمخابرات المركزية في شهر شباط فبراير (١٩٤٧م) اتصل السكرتير شيشل السكرتير الأول في السفارة البريطانية في واشنطن بـ«لورهندرس» مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وافريقيا، وسلمه رسالتين تشير أخبارهما إلى اعتزام بريطانيا على إنهاء وصايتها على أرجاء العالم؛ لأن حكومتها تواجه أزمة مالية، وأنها لم تتمكن من تحمل أعباء مقاومة المد الشيوعي، فكان على الولايات المتحدة أن تبادر إلى سد الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفيتي لتصبح هي دولة ذات تأثير في شؤون العالم، ووافقت أمريكا على الفور، ولكنها غيرت صورة الاستعمار، وبدأت الهيمنة عن طريق التدخل الخفي في أنظمة الحكم في العالم الإسلامي، وإعداد طبقة من أبناء هذه البلاد، يعدونهم ويسلمونهم مقاليد الحكم في بلادهم على أن يكونوا مجرد أدوات في يد الغرب النصراني، يقومون بخدمة مصالحه، وينفذون مخططاته؛ إذ إنهم يختارون بدقة وإمعان، فلا بد أن يكونوا من المعجبين بالحضارة الغربية، الراضعين للبنها، والمتربين على موائدها، ولا بد أن يكونوا من أصحاب الاتجاهات المعادية للإسلام إن لم يكونوا من المرتدين عن الإسلام[2].

ويتابع كوبلاند حديثه فيقول: ونتيجة لذلك، فقد بدأ تركيزنا على فسح المجال أمام وصول «النوع الملائم» من القيادات إلى السلطة وتسلمها مقاليد في داخل أوطانها، بينما نكون قد أنجزنا دراسة مخططاتنا، وحددنا أهدافنا في المنطقة بكل دقة ووضوح[3].

ويقول في نفس الصفحة: ومذكرات الحكومة الأمريكية عام (١٩٤٧) أشارت

(١) أوروبا في مواجهة الإسلام/ عبدالعظيم المطعني ص ٦٤، ط مكتبة وهبه.

(٢) انظر: لعبة الأمم ص ٥٨، ٥٩ بتصرف واختصار، ط بيروت.

(٣) السابق/ ٦٣.

بوضوح وتأكيد إلى أن أجهزة المخابرات والسلك الدبلوماسي كانت على وشك القيام بتغييرات في بعض قيادات الشرق الأوسط(١).

وقد بدأت لعبة التدخل في نظم الحكم في العالم العربي بسوريا، وكان يحكمها آنذاك «شكري القوتلي» والذي حاولت المخابرات الأمريكية استقطابه ولم تستطع، فعقدت العزم على اختيار شخصية أخرى لحكم سوريا تعمل تحت ستار المخابرات الأمريكية، فاختارت قائدًا من قواد الجيش هو حسنى الزعيم، ورتبت له انقلابًا وصل به إلى الحكم، وحددت السفارة الأمريكية أسماء الوزراء والسفراء كما يقول «مايلزكوبلاند» إلا أن «حسنى الزعيم» قد غيرَّ سياسته مع المخابرات الأمريكية مما دفعهم إلى التفكير في غيره، ودبروا مؤامرة لقتله، فدبروا انقلابًا أسفر عن قتله، وتولى أديب الشيشكلي»(٢)».

وهكذا يقوم الاستعمار الجديد بصناعة الزعماء الذين يديرون بسياسته، ويحققون أهدافه في القضاء على المسلمين والإسلام، ووقائع التاريخ في مصر خير شاهد على ذلك وإلى اليوم فقضايا الإرهاب والتطرف كلها أحسن سبكها للقضاء على الحركات الإسلامية وإفساح المجال لأصحاب التنوير للقضاء على البقية الباقية.

ثانيًا: القضاء على الأقليات الإسلامية في البلاد العلمانية:

لقد استهدف الغرب في صراعه مع الإسلام إيقاف المد الإسلامي في العالم؛ ولذلك فهو يعمل على القضاء على الأقليات المسلمة في العالم، فما من أقلية مسلمة في بلد غير إسلامي إلا وتتعرض لأنواع من الاضطهاد والتصفية الجسدية. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل تحرق المصاحف، وتهدم المساجد في كل منطقة على خريطة العالم تجرى دماء مسلمة وتراق، ففي الفلبين يتعرض المسلمون لحرب إبادة شاملة لم يشهد لها التاريخ سواء أثناء الاستعمار الأمريكي لها (١٨٩٨) أو بعده، فهم يجلون عن أرضهم، فإن رفضوا تعرضوا للإبادة من قوات الجيش الفلبيني الذي يستعمل كل وسائل الإبادة المحرمة دوليًا ثم تمثل بالجثث(٣).

وفي تايلاند هدمت المساجد، في ولاية «بنار»، ومنع المسلمون من إقامة

---

(١) السابق ص٦٣ .

(٢) السابق ٧٣، ٧٦ .

(٣) محنة الأقليات المسلمة/ محمد عبدالله السمان ص ١١٠ ط الأمانة العامة للدعوة بالأزهر .

شعائر دينهم، وتقوم السلطات بتشجيع البوذيين لطقوسهم أمام المساجد، وبناء الأصنام في كل المدن بالولايات الإسلامية الأربع، وقامت العصابات التايلاندية بحرق قرى المسلمين في محافظة جاها بولاية «جالا»[١].

ولماذا يبحث الإنسان في التاريخ والبوسنة والهرسك خير شاهد على ذلك، فهي حرب صليبية المقصود منها إبادة المسلمين لمنع الوجود الإسلامي من أوروبا تحت ستار النزعات العرقية، فأوروبا عز عليها وجود الإسلام في أوروبا خوفًا من ظهور جمهورية إسلامية أصولية على حد تعبير جريدة «الصنداي تلغراف»[٢].

وهذا الخوف دفعهم إلى إرضاع أطفالهم البغض للإسلام والمسلمين وبثوا فيهم عقيدة ذبح المسلمين، إذ تدرس في المدارس الصربية الابتدائية كملحمة «إكليل الجبل»، كتبها أرثوذكسي متعصب تقول: سلك المسلمون طريق الشيطان، دنسوا الأرض وملؤوها رجسًا، فلنعد للأرض خصوبتها، ولنطهرها من الأوساخ، ولنبصق على القرآن، ليطر رأس كل من يؤمن بدين الكلاب ويتبع محمدًا، فليذهب غير مأسوف عليه[٣].

إلى جانب ذلك يقوم الصربيون بالعمل على نزع الهوية الإسلامية عن طريق - تدمير المساجد، والآثار الإسلامية، ونشر الثقافة المسيحية[٤].

وقد استمرت هذه المذبحة إلى اليوم، ودون تدخل الأمم المتحدة والشرعية الدولية المزعومة. إنها تقود الحرب الصليبية الجديدة باسم «السلام» كما سنذكر ذلك في حينه - مستهدفة من ذلك إذلال المسلمين.

ثالثًا: القضاء على الحركات الإسلامية:

يهدف الاستعمار من الغزو العسكري: القضاء على الحركات الإسلامية التي تعمل على إحياء الإسلام وبعثه في النفوس بعد القضاء على الخلافة الإسلامية. فالله سبحانه وتعالى يقيض لهذه الأمة من يجدد لها دينها، فكانت الدعوة الوهابية أول

---

(١) أساليب الغزو الفكري/ علي جريشة ص ٩٥ .

(٢) انظر: الصربيون خنازير أوروبا يحاولون إبادة الوجود الإسلامي في البلقان/ عبد الحي الفرماوي ص ٧٩ دار الاعتصام ١٩٩١ .

(٣) السابق/ ٨٠ .

(٤) انظر: السابق ص ٩٠ - ١٢٠ باختصار.

حركة إسلامية في العصر الحديث التي أحيت الروح الإسلامية في نفوس المسلمين، وكانت الدعوة السنوسية في ليبيا، والتي وقفت في وجه الاستعمار الإيطالي والفرنسي والبريطاني، وكذلك الدعوة المهدية في السودان، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مصر، ثم كان الشيخ حسن البنا الذي أسس أول حركة إسلامية جامعة في مصر، وفي زمن الاحتلال، وقد دعا الشيخ حسن البنا إلى إحياء الإسلام كدين ودولة، وخلق المجتمع المسلم الذي يحكم الإسلام في كل حركة من حركات حياته، ودعا إلى إلغاء القوانين الوضعية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وإلى تحرير العالم الإسلامي من الاستعمار الأجنبي، ولم تمض على هذه الدعوة سنوات قلائل حتى أحدثت حركة ثقافية إسلامية في العالم الإسلامي، كذلك اشتركت في حرب تحرير فلسطين عام ١٩٤٨م حتى قال بن جوريون: «إنه لا سبيل إلى استقرار إسرائيل إلا بالقضاء على الرجعية في العالم العربي والمتعصبين من رجال الدين والإخوان»[١].

وقال في مناسبة أخرى: «نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا القوميات ولا الملكيات في المنطقة، إنما نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلًا وبدأ يتململ في المنطقة. إني أخشى أن يظهر محمد جديد في المنطقة»[٢].

من أجل ذلك اجتمع السفير البريطاني مع وزير الخارجية الأمريكي والسفير الفرنسي في فايد[٣] (نوفمبر ١٩٤٨)، وقرروا القضاء على الحركات الإسلامية، والتركيز على الإخوان المسلمين ووضعوا الخطط اللازمة لذلك[٤]، وعلى إثر إنعقاد هذا الاجتماع تعرضت الحركات الإسلامية في العالم للإباده، وصدر قرار بحل جماعة الإخوان واعتقال أفرادها وقتل مرشدها، وكذلك حدث لكل جماعة في العالم الأوروبي، ففي الهند قضى الإنجليز على حركة المجاهد أحمد عرفان، وفي إيران على جماعة نواب صفوي الإسلامية، وإلى الآن، فأخشى ما يخشاه المسلم من أن يأتي يوم يعتبر فيه الانتماء للإسلام جريمة يعاقب عليها القانون.

---

(١) لماذا اغتيل الإمام الشهيد/ عبدالمتعال الجبري/ ١٢٢ .

(٢) الإسلام مستقبل البشرية/ عبدالله عزام/ ٦١ .

(٣) مدينة خليج السويس، تابعة لمحافظة الإسماعيلية، مصر.

(٤) للتفاصيل والوثائق يرجع إلى كتاب دعاة لاقضاة ص ١٦٠ وما بعدها وفيها الأسماء العربية والأجنبية التي وضعت هذا المخطط .

المبحث الثاني
أهداف الصراع العسكري والسياسي

ظل العالم الإسلامي أدهرًا طويلة وهو في مكان السيادة وأوج الحضارة متمتعًا بقوته، معتزًّا بجاهه، غنيًّا بموارده، محتفظًا ليس باستقلاله فقط لكن بسيادته وسطوته، وذلك منذ بعثة النبي ﷺ إلى قيام الدولة العثمانية[١] عام (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) هذه الدولة التي استطاعت في أقل من قرن من الزمن أن تمد سلطانها شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، وتدق أبواب «فيينا» باسطة لواء الإسلام على دول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا، كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من شمال القوقاز شمالاً حتى الصحراء الإفريقية جنوبًا وحدود المغرب الأقصى، كما أنها امتدت حتى بلاد فارس، وجبال كردستان، شاغلة مساحة من الأرض قدرت بأكثر من عشرة ملايين ميل مربع، فكانت أقوى دولة في العالم آنذاك[٢].

وفي أثناء القرن الخامس عشر والسادس عشر - وبعد فتح القسطنطينية بالذات - حدث تغيرات في أوروبا، فقد كان من نتائج ظهور حركتي: «الإحياء العلمي،

(١) نشات الدولة العثمانية في الوقت الذي كان فيه المسلمون بقيادة السلاجقة يقاتلون جحافل الصليبيين التي خرجت من أوروبا باتجاه الشرق الإسلامي للسيطرة على القدس، كانت موجة أخرى من قبائل المغول تتجمع في أواسط آسيا وتتجه نحو البلاد الإسلامية بقيادة «جنكيز خان»، وقامت بغزو الدولة الخوارزمية عام (٦١٧)، وخرجت إحدى قبائل الأهواز من بلاد تركستان فرارًا من موجة الاضطهاد المغولي، وكان زعيمهم يدعى سليمان، وقد وصل بهم إلى الاستقرار على هضبات آسيا الصغرى، وفي أثناء تجولهم ليلًا للرزق قرب أنقرة شاهدوا جيشين يتقاتلان قتالًا غير متكافئ، فقام زعيمهم أرطغول بالانضمام إلى الجيش الضعيف حتى حقق له النصر، وتبين أن الجيش الضعيف كان لدولة السلاجقة ضد جيش المغول، فقام سلطانهم علاء الدين السلجوقي بمكافأة «أرطغول» بمنحه جزءًا من أملاكه استقر فيها، وفيها ولد ابنه عثمان الذي نسبت إليه الدولة الناشئة . انظر التاريخ الإسلامي بين الماضي والحاضر/ محمود محمد زيادة ص ٥١٥، ٥١٦ .

(٢) انظر: في ذلك: تاريخ الدولة العثمانية/ علي حسون ص ١٤ط المكتب الإسلامي ط الثالثة، ١٩٨٣م، والدولة العثمانية/ عبدالعزيز الشناوي ج١/ ٦، ط مكتبة الأنجلو، ١٩٨٤ .

والإصلاح الديني» أن تكون[١] في أوروبا الوعي الجديد الذي أخذ ينمو ويزداد، وكان الأساس لكل ما تلاهُ من حركات النهوض والتقدم، وانضم إليه في ذات الوقت عوامل أخرى كانت هي الأثر المباشر في تحول أوروبا من عصور الضعف والفقر إلى العصر الحديث الذي أخذت تمتلك في أسباب القوة، وفي مقدمة هذه العوامل: نشاط حركة الكشوف الجغرافية[٢].

(١) انظر الباب الأول من هذا الكتاب.

(٢) حركة الكشوف الجغرافية حركة صليبية بحتة، هدفها القضاء على المد الإسلامي وتنصير المسلمين وقد بدأت هذه الحركة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أيام ضعف المسلمين في الأندلس واستطاعوا الانتصار على المسلمين في الأندلس، وفي هذه الفترة ظهرت الدولة العثمانية وامتدت فتوحاتها حتى سيطرت على البحر المتوسط فيه، فكانت بذلك حجر عثرة أمام أطماع الأمير «بينم»، ووجدت أوروبا نفسها تقاتل على جبهتين الأولى في الشرق ضد العثمانيين، والثانية في الغرب ضد الأندلسيين، وقد رأى البرتغاليون خطوة تطويق المسلمين لإمكان إحراز النصر، فقام ملك البرتغال «حنا الأول» بحملة على المسلمين في مراكش واحتل ستين، ولم يستطيعوا المحافظة عليها لمقاومة المسلمين لهم، فانتقلوا إلى السواحل الإفريقية الغربية المطلة على المحيط الأطلسي حتى وصلوا إلى السواحل الشرقية لإفريقيا المطلة على المحيط الهادي، وسمي هذا الطريق برأس الرجاء الصالح، وكان الهدف من هذا كله محاولة التخلص من الرسوم الجمركية التي كان يفرضها المسلمون على السلع الشرقية عند مرورها في أراضي مصر والشام (قبل حفر قناة السويس) . والهدف الثاني؛ وهو الأهم: نشر المسلمين في البلاد التي يدخلونها، والاتصال بنصارى الشرق الذين ضمهم الحكم العثماني للعمل معًا على اجتثاب جذور الإسلام، وقامت البرتغال بسرق هذا - نظر الملاحة من مصر عن طريق يهود يجيدون العربية وقاموا بتجهيز جيشا بقيادة فاسكودي جاما عام ٩٠٣هـ حتى دخل زنجبار ٩٠٥هـ»، وقام بتهديم أكثر من ٣٠٠ مسجد، وحاول دخول «كالكوتا»، ولم يستطع دخولها بسبب جهاد المسلمين ولكنه عاد إليها وأغرق سفينة عليها مائة طبع في خليج عمان، واستطاع البرتغاليون هزيمة المماليك في معركة ديو البحرية، وأعلنوا أنهم سيهدمون الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وأنهم سيدكون معها آخر آثار الإسلام، وقد قال البوكرك خليفة دي جاماما: لا بد من هدم المدينة ونسبة قبر الرسول للاستيلاء كما يزعم على الجواهر، وقد جاء في خطابه الذي ألقاه سنة (٩١٧هـ) قبل هجومه على مدينة «مالاقا» في شبه الجزيرة الملايو: الأمر الأول هو الخلافة التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد ونخمد نار هذه الفتنة المحمدية حتى لا تعود إلى الظهور أبدًا، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة، إذا استطعنا تخليص (مالاقا) من أيديهم فستنهار القاهرة وستنهار بعدها مكة . ويقول «ماجلان» للحاكم المسلم «الابولابو» حاكم جزيرة سيبو في الفلبين: إنني باسم المسيح أطلب إليك التسليم، وعندى العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد . وذلك عام ١٥٢٢/ ٩٢٩هـ .

انظر: أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ١٠٠ - ١٣٢، ومجلة الأمة، السنة الثانية عدد (١٥)ص ٤٦ .

والعامل الثاني هو تكون دولة إقليمية تعمل لرفع شأن شعوبها، وقد دفعت هذه العوامل إلى زيادة حدة التنافس الاستعماري بين هذه الدول الغربية، وكان ميدان التنافس هو الأقاليم التي اكتشفت وراء البحار. وقد دفعت هذه الأوضاع كثيرًا من الدول إلى إنشاء أساطيل بحرية باعتبارها الوسيلة الأولى للاحتفاظ بأقطار ما وراء البحار، ونشأت في قواميس السياسة العالمية نظريات جديدة تنادي بسيطرة الرجل الأبيض[١]، وتقر التفرقة العنصرية، وتبيح تملك الأراضي التي تسكنها شعوب غير أوربية، وغير مسيحية، وتبيح استغلال هذه الشعوب، وجعل إرادتها وحياتها مسخرة لإرادة الشعب المالك، وللسياسة التي يريد إنتاجها[٢].

ومن هنا كانت الدولة العثمانية قوة رهيبة تنظر إليها أوروبا وجلة مذعورة لا سيما بعد فتح القسطنطينية، ووقوف جيشها على أسوار فيينا، وهددت بفتحها عام (١٥٢٩م) خوفًا من أن تلحق بأختها القسطنطينية. وظل العالم الإسلامي محتفظًا بمركزه هذا طوال القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن عشر، حيث كانت الدولة العثمانية كما يقول المؤرخون الأوروبيون: كان العالم الإسلامي في تمثله إمبراطوريات ظاهرة القوة: الدولة العثمانية في الشرق الأدنى والأوسط، والدولة الفارسية الصفوية في إيران، والمغول في الهند. وكانت الدولة العثمانية تتحكم في توجيه السياسة الدولية لصالحها، «فقد أجرت روسيا الحديثة التي نظمها بطرس الأكبر - بعد أن أنزلت بها هزائم فادحة - على عقد معاهدة بلجراد في ١٤ جمادى الآخر عام (١١٥٢هـ الموافق ١٨ أيلول ١٧٣٩) والتي قضت بتنازل النمسا عن بلجراد وتعهد القيصر ضد الروسية بهدم قلاع ميناء آزاق وعدم تجديده، وأن ترد للدولة العثمانية كل ما احتلته من أقاليم وبلدان»[٣]، كما طلب ملك فرنسا «فرانسوا الأول» من السلطان العثماني «سليمان القانوني» أن يمنحه بعض الضمانات التي تحمي رعاياه التجار الذين كانوا لا يستطيعون عبور حدود الدولة العثمانية، فعقد معه معاهدة (لا

(١) انظر: الفصل الثالث من الباب الأول من هذا الكتاب.

(٢) انظر: الشرق الأوسط في التاريخ الحديث/ محمد ضياء الدين ص ٢٣، ٢٤، ط دار الأنصار/ ١٤٠١هـ وراجع أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ١٣٢ .

(٣) العثمانيون والروس/ علي حسون ص ٧٩ ط المكتب الإسلامي. سنة ١٩٨٢م.

فورية) منحت فرنسا بموجبها حق التجارة والملاحة في جميع أراضي الدولة العثمانية وأقاليمها، مقابل أن تدفع للدولة العثمانية رسمًا جمركيًا قدره خمسة بالمائة من قيمة بضائعها إذا عبرت أو تواجدت على أرض الدولة العثمانية، وأن يخضع جميع الفرنسيين الموجودين في الأراضي العثمانية - أثناء ممارسة نشاطهم - لجميع قوانين الدولة العثمانية، ويلتزموا بها مثل المواطن العادي[١] وكانت الدولتان الفارسية والهندية قويتين في حدودهما، تمتلكان موارد كثيرة ولهما جيوش منظمة.

بقي العالم الإسلامي محتفظًا بمركزه طوال هذه الفترة؛ لأن روحه كانت هي الإسلام روحا ومبادئ تنظم حياته، العدل هدفه، ورضا الله غايته، إلا أن هذه الروح قد خفت، وأصبح العالم الإسلامي جسمًا بدون روح، الحكم قائم على القوة والاغتصاب، وغايته إسعاد طبقة معينة دون مصالح الأمة، تفشى الظلم، وانعدم العدل، وجف الضرع، ونضب المعين، وتحول الإسلام إلى مجرد عقائد فردية، وتقوض أساس الحياة الاجتماعية. حدث هذا في الوقت الذي أخذت فيه أوروبا تجني آثار النهضة التي كانت قبسًا من نهضة البلاد الإسلامية إبان عصورها. وكانت بريطانيا أسبق الدول الأوروبية انتفاعًا بنتائج تلك الثورة حتى صارت أغني الدول الأوروبية وأقواها ولذلك تمكنت من سبق جميع الدول الاستعمارية في الاستعمار. فبدأت بالذهاب إلى الهند[٢]، وكانت تحت الإمبراطورية المغولية الإسلامية التي كانت في ضعف وتفكك، واستطاعت التغلب على فرنسا، وتمكنت من القضاء على نفوذها، وهزمت الأسطول الأسباني وطردته إلى الفلبين، وأنشأت شركة الهند الشرقية، وكونت لها فرقًا عسكرية، بحجة حماية مصالحها، وكانت تأخذ أذنًا من

---

(١) دراسات في التاريخ الإسلامي ص ٥٦٠ مرجع سابق. وانظر: تاريخ الدولة العلية/ محمد فريد ص ٩٠ ط دار الجيل ١٩٧٧م. وانظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية/ ج٢/ ٧١٤ - ٧١٦ .

(٢) دخل الإسلام الهند في أثناء حكم الملك «داهر» الذي كان يحكم إقليم السند بعد أن انتزعه من القبائل الأوروبية التي كانت تحكمه، وكان يعتنق البرهمية . ودخل الإسلام هذه البلاد عن طريق العلاقات التجارية التي وجدت بين الهند والعرب، حيث ذكر ذلك «بن خردا ذابه» في المسالك والممالك ص ٦١» وقد لقي الإسلام قبولًا في تلك البلاد؛ نظرًا لأن شعوبها المنبوذين كانوا يضيقون بنظام الطبقات البرهمية، وفرحوا بما حققه الإسلام من مساواة وقد فتحت هذه البلاد في عهد الوليد ابن عبدالملك بأمر الحجاج بن يوسف وقيادة الجيش لمحمد بن القاسم الثقفي (فتوح البلدان/ البلاذري ص ٤٢٠).

الملك بإدارة بعض المناطق باسمه، وتتعهد بالإبقاء على النظم القائمة، ولكنها أخذت في عزل القادة المسلمين وتولي الهندوس أو الإنجليز بموجب الامتيازات التي حصلت عليها من الإمبراطور «المغولي شاه علم» التي عزلته فيما بعد واستولت عليها عام (١٨٥٨)[(١)]، وأصبح من القواعد الأساسية للسياسة البريطانية: أن تعمل دائمًا على المحافظة على الطرق الموصلة إلى الهند بعد أن قضت إنجلترا على فرنسا في الهند واحتلت مكانها، اتجهت الأنظار إلى الشرق الأوسط أو البلاد الإسلامية التابعة للدولة العثمانية، تلك الدولة التي كانت قد وصلت إلى نهاية الضعف في الوقت الذي أخذت فيه الدول الأوروبية تمتلك أسباب القوة حتى أن الدولة العثمانية صارت تدعى في المحافل الدولية بالرجل المريض.

فبدأت فرنسا بحملتها على مصر عام (١٢١٣هـ - ١٢١٦/ ١٧٩٨ - ١٨٠١)، وكانت حملة صليبية هدفت في المقام الأول إلى الاستيلاء على أهم مركز من مراكز العالم الإسلامي ومحاولة تنصيره، وليس كما عرفنا ونحن في المرحلة الإعدادية من التعليم أنها بداية الانفتاح للشعب المصري على العالم وإخراجه من الظلمات إلى النور، وما زالت كتب التاريخ في مراحل التعليم تتحدث عن فضل الحملة وفوائدها على مصر[(٢)].

إن الحملة ما جاءت إلا للقضاء على هوية الشعب المصري الإسلامي، فإذا كانت كتب التاريخ ذكرت أن من أهداف الحملة، قطع طريق إنجلترا إلى الهند، فما علاقة هذا التنافس بينهما بأفعال الحملة في مصر ومحاولتها تنحية الشريعة الإسلامية، وإحلال القوانين الوضعية محلها؟! فالهدف الأصلي هدف استعماري كما يقول د. أحمد شلبي: وإن استعمار فرنسا لمصر كان مشروعًا فرنسيًا من أيام الحروب الصليبية، فقد فكر لويس الرابع عشر سنة (١٦٧٢) في غزو مصر، ولكنه عدل عن هذه الفكرة إبقاء على علاقاته بالدولة العثمانية، وفي عهد لويس السادس عشر كتب سفير فرنسا بالأستانه سنة (١٨٧١) بحث حكومته على فتح مصر، وكان مما جاء في رسالته

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية/ أحمد شلبي ج٨/ ٣١٩، ٣٢١ بتصرف، ط مكتبة النهضة المصرية .

وانظر أوروبا في مواجهة الإسلام/ عبدالعظيم المطعني ص ٥٠، ط مكتبة دهب.

(٢) انظر: تاريخ مصر والعرب الحديث/ وزارة التربية والتعليم ص ٣٤، ٣٥ط ٩٣/ ١٩٩٤م.

قوله: «إن جيش مصر ضئيل، والجنود لم يقفوا في ميدان حرب منظمة، وليس لديهم مدفع[١] واحد» فالتفكير في غزو مصر قديم.

وإذا كانت الحملة هدفها قطع الطريق على إنجلترا فما العلاقة بين هذا الهدف والبعثة العلمية التي جاءت مع الحملة للتنقيب عن آثار الفراعنة؟!

إن الحملة الفرنسية حملت معها أهدافًا محددة ضد الإسلام وتقاليده، فعندما دخل نابليون الإسكندرية واحتلها، أرسل منشورًا إلى المصريين جاء فيه: بسم الله الرحمن «الرحيم» لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه.

من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية والسر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته، يعرف أهالي مصر جميعًا أن من زمان مديد الصناجق[٢]، الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، والله رب العالمين قد حكم على انقضاء دولتهم. أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت لكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين. وإنني أكثر من المماليك أعبد الله وأحترم نبيه والقرآن العظيم. أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجريجية[٣] وأعيان البلد، قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم نزلوا ردمًا وخربوا كرسي البابا الذي يحث النصارى على محاربة الإسلام.. إلخ ما قال[٤].

يكفي هذه المهاترات والاستخفاف بعقول الناس وعقائدهم، لقد كانت البعثة العلمية تهدف إلى إظهار القوميات والعصبيات القديمة لذبذبة العقائد في قلوب الناس. يقول أحد المستشرقين في كتاب الشرق الأدنى: «إننا في كل بلد إسلامي

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج٥/ ٣١٣، مرجع سابق.

(٢) الصناجق: المماليك.

(٣) الجريجيه: هم اليونانيون المقيمون بمصر.

(٤) انظر نص الرسالة في: تاريخ الجبرتي المسمى عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج٣/ ٥، ٦، ط الأنوار المحمدية. بدون.

دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، لسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات»[١].

هذه الشواهد تدل على صليبية الحملة، وأنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب، وإذا أضفنا إلى ذلك بغايا الحملة اللواتي تحدث عنهن الجبرتي، أولئك الساقطات اللواتي جاء بهن «نابليون» يسرن في شوارع القاهرة حاسرات متخلعات، يثرن الفتن وينشرن الفاحشة ويغرين بعض النساء المسلمات بتقليدهن[٢]، وقد أشار الجبرتي إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه.

وتذكر موسوعة المصطلحات الصهيونية: أن «نابليون» وجه نداءً غداة احتلاله لمصر ليهود العالم كي يعودوا لوطن آبائهم ليستوطنوه[٣].

ومن هذه الأدلة تتضح لنا المؤامرة الصليبية التي جاء بها نابليون إلى مصر بالتعاون مع اليهود، ولهذه الأسباب قاومها المصريون بوصفهم مسلمين يقاتلون الكفار الذين يحتلون أرضهم. وليس أدل على ذلك من أن علماء الدين كانوا هم قادتها، وأن غضب نابليون انصب على الأزهر بوصفه عنصر المقاومة للغزو الصليبي، كما يدل على ذلك أن الذي قتل كليبر لم يكن مصريًا وإنما كان مسلمًا دفعه إسلامه إلى قتل قائد الحملة الصليبية الموجهة إلى أرض إسلامية.

بعد هذا البيان نعود إلى سياق الصراع السياسي والعسكري بين الشرق والغرب، بعد هذه الحملة الصليبية بدأ تاريخ طويل من التنافس الاستعماري بين الدولتين إنجلترا وفرنسا على حساب ممتلكات الدولة العثمانية.

فإذا كانت فرنسا قد خرجت من مصر تجر أذيال الهزيمة، إلا أنها نجحت في استقطاب محمد علي إلى صفها، وجعلت منه أداة لتنفيذ أغراضها الاستعمارية أو

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر/ محمد قطب ص ٢٠٢، ط مؤسسة المدينة، جدة.

(٢) انظر: تاريخ الجبرتي ج٣/ ٢٠ وغيرها كثير.

(٣) موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص ٢٤٣ «مادة الصهاينة المسيحيون» ط مؤسسة الأهرام ١٩٧٩م.

التمهيد لها لتكون وريثته بعد موته، فقد كان نفوذها هو السائد في مصر، وكان رجالها هم مستشاريه: وعملت على أن يكون لها التأثير القوي في الحياة المصرية وفي الشرق، فأذن لها بأن ترسل بعثاتها إلى مصر وسوريا[١].

وفي هذه الأثناء كانت العلاقات وطيدة بين الدولة العثمانية وفرنسا؛ ذلك لأن «نابليون» بعد رجوعه إلى فرنسا أرسل الجنرال «سبستياني» إلى إستانبول لتجديد العلاقات مع الدولة العثمانية، وقد سعى هذا الجنرال في عزل أميري الأفلاق والبغدان المؤيدين لروسيا، فتفاقمت الأزمة بين العثمانيين والروس نتيجة لذلك، فنقمت إنجلترا على الدولة العثمانية لهذه السياسة، واتفقت هي وروسيا على الكيد للدولة العثمانية، وساءت العلاقات بين الدولتين حتى انتهت بإعلان الحرب بينهما، ودخل الأسطول الإنجليزي ميناء الدردنيل واعتزمت إنجلترا أن تضرب تركيا في مصر فتنال بذلك غرضين؛ وهما إذلال تركيا من جهة، وتحقيق أطماعها في مصر من

---

(١) الشرق الأوسط في العصر الحديث ص ٣٥، ٣٦، مرجع سابق، محمد علي الذي تولى حكم مصر بعد خروج الحملة الفرنسية، من أصل ألباني أرنؤودي. كان أبوه إبراهيم أغا خفير طرق في قوله: «وهي ثغر على شاطئ إقليم الروملي شمال بلاد اليونان». نشأ محمد علي في هذا الجو الفقير، وقد جاء إلى مصر بعد عام من دخول الحملة الفرنسية إلى مصر، ضمن جيش أرسلته الدولة العثمانية تحت قيادة إبراهيم أغا لإخراج الفرنسيين من مصر، وصل محمد علي جنديًا في فرقة الأرنؤود مع هذا الجيش إلى أبي قير، ولم يكد «نابليون» يواجه هذا الجيش حتى ولى مدبرًا، وأسرع من بقي على قيد الحياة يلوذون بالسفن الراسية في مياه الخليج، وكان من بينهم محمد علي الذي أشرف على الغَرَق لولا أن انتشله أحد رجال البحرية الإنجليزية التي جاءت لإخراج الفرنسيين من مصر عام (١٧٩٨م). ولكنه عاد مرة أخرى عام (١٨٠١) مع فرقة أرسلتها الدولة العثمانية بعد خروج الحملة لحفظ النظام، ولكن البلاد عاشت في فوضى تصارعت القوى المختلفة فيما بينها، وكان «محمد علي» قد تدرج في المناصب العسكرية حتى أصبح قائدًا لفرقة الأرنؤود بعد اغتيال قائدها طاهر باشا الذي كان قد وصل إلى مرتبة الزعامة في البلاد (مصر)، وكان الشعب المصري قد قام بثورة دستورية لوضع حد لهذه الفوضى، وقرروا خلع الباشا التركي حتى غادر البلاد، واتخذ محمد علي هذه الفرص وتقدم زعماء الثورة في مسوح الرهبان، وعقد معهم حلفا على أن يكون هو المنفذ لسياستهم والمطيع لأوامرهم، وأن يحكم بالعدل. وكان الزعماء في هذه الظروف في حاجة إلى قوة حربية لتحدي إرادة الدولة العثمانية، فأتمت البيعة لمحمد علي وظن أن عهدًا جديدًا قد أشرف في حياة مصر تكون دعاماته: الحرية والعدل، ولكنه استأثر بالسلطة، وفعل في مصر الأفاعيل.

وإن كان قد قام ببعض الإصلاحات التي لا تنكر، ولكن الفضل فيها لله اولاً، ثم ولشعب مصر الذي له ميزة حسنة الاستعداد لقبول أسباب التقدم. السابق ص ٨٣ - ٨٦.

جهة أخرى، فأرسلت حملة «فريزر» إلى مصر عام (١٢٢١هـ الموافق ١٨٠٧م)[١].

ارتدت هذه الحملة لمقاومة الأهالي لها في رشيد، فأخرت هذه المقاومة الاستعمار البريطاني حوالي ربع قرن. وبعدها حدثت ظروف دولية في أوروبا بسبب شدة التنافس الاستعماري بين القوميات المختلفة، فانشغلت أوروبا بمشاكلها الداخلية[٢]، وعقد السلطان العثماني خلالها صلحًا مع بريطانيا عرف باسم معاهدة الدردنيل، وعقدت معاهدة «بوخارست» الأولى عام (١٢٢٣هـ - ١٨٠٩م) والثانية عام (١٢٢٧هـ - ١٨١٣م)[٣].

وقد استهدفت الدول الكبرى من هذه المعاهدات: تأمين جانب الدولة العثمانية حتى لا تقع بين نارين: «نابليون» وغارته من ناحية الغرب، والدولة العثمانية من ناحية الشرق، واتجه السلطان «محمود الثاني» الخليفة العثماني إلى إصلاح الجيش العثماني بمساعدة ألمانيا، وأجرى العديد من الإصلاحات الداخلية في التعليم والاقتصاد والسياسة على الطراز الغربي، وكان الهدف من هذه الإصلاحات: توطيد السلطة العثمانية وتعميقها في أوروبا، وخاصة في اليونان، ولكنها أحبطت بسبب ثورة اليونانيين على الدولة العثمانية، وكانت هذه الثورة بتخطيط من روسيا لضرب الدولة العثمانية، والسبب الرئيسي في قيام هذه الثورة هو: انتشار الأفكار الثورية في أوروبا ضد الدولة العثمانية بعد حرب نابليون، وتعلم الشباب اليوناني في أوروبا تلك الأفكار، فبدؤوا في تأليف الجمعيات: السرية لتنظيم الثورة، وبث تعاليمها، واستمالة الرأي العام الأوروبى لها، من هذه الجمعيات جمعية (هيتري) ومعناه الأخوة، واتخذوا مراكز هذه الجمعيات في روسيا والنمسا، وانضم إليها الشباب ورجال الدين، وساعدهم كثير من أمراء أوروبا بالمال والنفوذ. واتصلت هذه الجمعية بقيصر روسيا، وأعدوا برنامجا مؤداه استقلال إمارات البلقان[٤] وطرد الأتراك من

---

(١) عصر محمد علي/ عبدالرحمن الرافعي ص ٥٣، ط دار المعارف ١٤٠٢هـ وانظر تاريخ الدولة العثمانية ص ١٢٤ .

(٢) انظر: العلاقات في العصور الحديثة/ سمير أبو العنيين/ ٨٩ - ٩٠ ط القاهرة ١٩٨٩م هذه الظروف هي حرب نابليون في أوروبا واحتلاله معظمها .

(٣) انظر: العثمانيون والروس/ ٩٣ .

(٤) اليونان - مقدونيا - البوسنة - الهرسك - بلغاريا - صربيا - الجبل الأسود .

أوروبا وأحياء الدولة البزنطية القديمة[١]، وكان «الإسكندر الأكبر» إمبراطور الروس يحاول تنفيذ مخططه في ضرب الدولة العثمانية، وتطبيق وصية «بطرس الأكبر» واحتلال القسطنطينية[٢].

واشتعلت الثورة في عام (١٨٢١) أوقع المسيحيون بالمسلمين مذبحة رهيبة، واحتل الثوار مقر العثمانية في «المورة»، وأول من نادى بها القس «جرمانوس» أسقف «باتراس»، ومثلوا بالمسلمين أفظع تمثيل ولم يقل عدد المسلمين واليهود الذين ذبحهم الثوار عن ثمانين ألف شخص، تركت جثثهم في العراء، مما أدى إلى انتشار أوبئة فتكت باليونانيين، وأزيعت أغنية شعبية بين الثوار جاء فيها: يجب ألا يبقى عثماني واحد في بلاد المورة. وترجمها الثوار بذبح آلاف المسلمين مما يوحي بأن الثورة كانت ذات طابع ديني، وامتدت الثورة إلى أراضي البلقان»[٣].

ولما اتسع نطاق الثورة استعان السلطان العثماني بـ «محمد علي» عَلَى أن يعطيه جزيرة المورة، ولما تقدمت الجيوش المصرية والتركية وفتحت أثينا، أفزعت هذه الانتصارات الغرب؛ فتحركت إنجلترا وروسيا، وطالبوا باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية، فرفض السلطان العثماني ذلك، فدخلت إنجلترا وفرنسا وروسيا في الحرب ضد الدولة العثمانية، وذلك في معاهدة عقدت بينهما سميت معاهدة «الندرة» في ٦ يوليو - ١٨٢٧م وقاموا بحصار الأسطولين المصري والتركي في معركة نافارين، ودمروا السفن العثمانية في ساعات معدودة في ٢٥ أكتوبر عام (١٨٢٧) وعلى إثر هذه المعركة قطعت العلاقات بين الباب العالي والدول الاستعمارية[٤].

وبعد الحرب أصدر السلطان العثماني منشورًا عامًّا بين فيه نيات الدول الأوروبية تجاه المسلمين وخاصة روسيا، وأوضح أن الباعث لذلك العدوان هو الدين وليس السياسة، وحض المسلمين على القتال دفاعًا عن الدين؛ فاغتاظ الروس لذلك،

---

(١) عصر محمد علي ص ١٨٩، ١٩٠، والدولة العثمانية ج٢ / ٨٢٧ .

(٢) الدولة العثمانية ص ١٣٣ .

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢/ ٨٣٩ .

(٤) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي/ د. أحمد شلبي ج٥/ ٤٠٥، ٤٠٦، عصر محمد علي ص ٢١٢ - ٢١٤، وتاريخ الدولة العلية ص ٢٠٩ .

وأعلنوا الحرب على الدولة العثمانية في (١١ شوال عام ١٢٤٣هـ الموافق لعام ١٨٢٩م)، واشتركت فيها فرنسا، وانتهت بعقد معاهدة أدرنه في ١٤ سبتمبر (١٨٢٩)، وفيها اعترفت تركيا باستقلال اليونان استقلالاً تامًّا [١]، وكانت هذه وبالاً على المسلمين؛ حيث إنها فتحت باب الحروب الأهلية.

وفي أعقاب حرب اليونان دب النزاع بين «محمد علي» والسلطان العثماني بسبب مطامع «محمد علي» وأنانيته وطلبه تعويضًا من السلطان العثماني مقابل حرب اليونان وخسارة الجيش المصري فيها، فرفض السلطان مطالبه، فنشبت الحرب المعروفة بحرب الشام والتي استمرت عشر سنوات من عام (١٨٣١ إلى عام ١٨٤٠) ولما حقق الجيش المصري انتصارات حاسمة على الجيش التركي حتى وصل الجيش المصري ضواحي بورصة مما أقلق دول أوروبا، فعرضت مساعدة الدولة العثمانية وتدخلت روسيا لتدافع عن الدولة العثمانية، فهال هذا التدخل فرنسا وإنجلترا؛ فتوسطتا لدى محمد علي لإنهاء الحرب خوفًا من لقاء روسيا، فعقدوا صلح كوتاهية عام (١٢٤٩هـ - ١٨٣٣م) الذي قضى بضم سوريا وولاية أدرنة إلى «محمد علي» وتثبيته على «كريت والحجاز» بالإضافة إلى مصر على أن يجلوا عن الأناضول.

ونشبت الحرب مرة أخرى بسبب إخضاع «محمد علي» للسوريين قسريًّا، وهاجم الجيش التركي محمد علي، ولكن جيش محمد علي قضى عليه في معركة «نصيبين» في ١١ ربيع ثان عام (١٢٥٥هـ- ١٨٣٩) وتدخلت الدول الاستعمارية مرة أخرى، واتفقت في معاهدة عام (١٨٤٠م) على أن يرد «محمد علي» لتركيا كريت والأماكن المقدسة وأدرنة والشام، وتبقى مصر ولاية وراثية له ولأسرته، وأن تكون له عكا وجزء من الشام طول حياته. وإذا لم يقبل هذه الشروط خلال عشرة أيام فقد ولاية الشام. «. . . ورفض «محمد علي» في بادئ الأمر بإيعاز من فرنسا التي وعدته بالمساندة، ولكنها تخلت عنه متحاشية الصدام مع إنجلترا التي تقدمت بجيوشها واحتلت مواقع من الشام وهددت الإسكندرية، فأكره «محمد علي» عَلَى الاستجابة وانسحب من الشام» [٢].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ص ١٣٤، ١٣٥، والدولة العلية ص ٢٢٠ .

(٢) انظر: في ذلك د .أحمد شلبي ج٥/٤٠٧، ٤٠٨، والشرق الأوسط في العصر الحديث ص ٩٦، ٩٨، وعصر محمد علي ص ٢٢٠-٢٣٥ .

وهكذا كانت أطماع «محمد علي» سببًا في كارثة على الدولة العثمانية التي كانت تحافظ على الإسلام والمسلمين إلى حد ما، فقد فتحت باب المسألة الشرقية وأطماع الدول الاستعمارية الصليبية لاحتواء العالم الإسلامي، ودحر المسلمين في بلادهم. فالدولة العثمانية قد أضعفتها الحروب المتعاقبة التي أنهكتها ماليًا، وأخلّت باقتصادها، فقد اضطرت إلى إصدار سندات مالية ذات فوائد لتتمكن من أعادة بناء البحرية بعد حرب اليونان، ولكنها دمرت في حرب الشام، الأمر الذي أدى إلى تراكم الدين مما كان من شأنه أن أدى إلى إعلان إفلاسها، وهذا كان من أكبر العوامل التي فتحت باب التدخل الأجنبي على مصراعيه.

فقد سبقت فرنسا لاحتلال الجزائر عام (١٢٤٦هـ الموافق ١٨٣٠م) وفي عام (١٨٤١م) أتم الفرنسيون الاستيلاء على الجزائر، واستخدموا الأساليب الوحشية للإرهاب، فأبادوا قبائل عن بكرة أبيها، وقطعوا آذان الأسرى، وسبوا النساء المسلمات، وعاملوهم كالحيوانات، وفرضوا اللغة الفرنسية لغة رسمية للبلاد[١].

وجاهدت إنجلترا- التي وقفت إلى جانب السلطان العثماني في حرب الشام- للحصول على امتيازات داخل الدولة العثمانية، فكان مقدمة ما حصلت عليه: أنها عقدت معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية عام (١٢٥٤هـ - ١٨٣٨م)، فقد منح التجار الإنجليز بموجبها الحق في دخول أي جزء من أملاك الدولة العثمانية وحق الاتصال المباشر بالمنتجين الوطنيين لشراء المنتجات الزراعية والصناعية، أو البيع لهم[٢].

وقد عملت الدولة الأوروبية وخاصة إنجلترا بعد توقيع معاهدة لندن (١٨٤٠م) على زعزعة الأمن وإثارة الفتن بين الأقليات المسيحية والمسلمين لتتخذها زريعة للتدخل العسكري في احتلال أملاك الدولة العثمانية التي كانت محافظة على ربط رعاياها بالدين الإسلامي، وعملت على بث الروح الإسلامية فيهم، يشهد لذلك ما ذكره الجبرتي الذي كان شاهد عيان على الأحداث التي جرت إبان الحملة الفرنسية على مصر حينما وصل الأسطول البريطاني إلى ميناء الإسكندرية أنزل الجند قاربًا صغيرًا من إحدى السفن، واتجه

---

(١) انظر حاضر العالم الإسلامي/ لو ثروب الأمريكي ج١/ ١٦٦-١٧٢ باختصار .

(٢) الشرق الأوسط في العصر الحديث ص ١٠٥، ١٠٦ .

عشرة من بحارتهم نحو الشاطئ وقابلوا أعيان البلدة، وأخبروهم بأنهم يبحثون عن الأسطول الفرنسي. وقالوا للأهلين: «إنكم تستطيعون طردهم، إننا باقون هنا لندافع عن مينائكم، ولا نريد منكم شيئًا سوى الزاد والماء، ولكن وجهاء القوم ردوا عليهم بقولهم: إن هذه البلاد هي بلاد السلطان العثماني، هيا غادروها، إنكم لستم بأصحاب حقوق فيها ولا للفرنسيين ولا غيرهم»[١].

وهذا الكلام قد جرى في عام (١٢١٣هـ) وإن دل على شيء، فإنما يدل على روح التحدي التي كانت كامنة في نفوس المسلمين في ذلك الحين؛ إذ إنهم ردوا على الإنجليز بصفتهم مسلمين من رعايا الدولة العثمانية التي كانت لا تزال تدافع عنهم، وتحافظ على كيان الأمة الإسلامية، على الرغم مما أصابها من ضعف وانحطاط. وكان الدين هو الرابط بين شعوب الدولة على اختلاف جنسياتها، وكانوا يعلمون ذلك أطفالهم ورعاياهم كما خاضت جيوشهم المعارك تحت شعار إما غاز أو شهيد. ومع أنهم كانوا أتراكًا إلا أنهم لم ينتسبوا للتركبة، بل كانت لغات الدولة عربية وفارسية، وكانوا يعاملون رعاياهم حسب ديانتهم وطوائفهم دون الالتفات إلى اللغة والجنس، وكان العلماء والأدباء لا يهتمون إلا بالدين وحده، فكانت الدولة العثمانية ذات عاطفة إسلامية في أغلب الأحيان على الرغم من بعض القصور في تصرفات بعض السلاطين، واستمر ذلك في عصر التنظيمات التي قام بها السلطان العثماني محمود الثاني، فقامت محاولات لضرب الدولة العثمانية من الخلف، تمثلت في إشعال الفتن والحروب، بالاعتماد على التعصب النصراني، والاستفادة من النصارى الذين يقيمون في أرض الدولة العثمانية، فكانت حرب اليونان بسبب هذا التعصب المسيحي الذي روجته روسيا وإنجلترا، حتى نجحوا في فصل اليونان عن الدول كما سبق بيانه.

وبعد حرب اليونان تدخلت الدول النصرانية في شؤون الدولة تحت شعار: إنصاف النصارى «فقامت إنجلترا بنفس العمل في لبنان[٢] لإثارة المشكلات

(١) تاريخ الجبرتي ج٣/ ٣ .

(٢) كانت لبلاد الشام علاقات بأوروبا إبان الحكم الإسلامي اختلفت بها أوضاعها اختلافًا جذريًا عن الأوضاع في مصر، وقد أسهمت هذه الأوضاع في قيام اتصال مستمر بين بشوات الشام وأوروبا طوال الحكم العثماني من عام (١٥١٦) إلى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) فالشام بلاد تجارية؛

والمصاعب أمام الحكومة العثمانية» ففي عام (١٢٥٦) قامت بتسليح الدروز ودفعتهم للثورة ضد بشير الثالث الذي عينته الدولة العثمانية، فاقتحموا القرى المارونية الذين تدعمهم فرنسا فتصدى لهم الموارنة، واستولى الدروز في النهاية على جنوب لبنان، وقامت الدولة العثمانية، فاعتقلت بشيرًا الثالث وعينت عمر باشا خلفًا له. فقام بالتشديد على الدروز، فاستاءت الدول الأوروبية من الحكم العثماني، المباشر على لبنان، ثم أجرى استفتاء فتبين أن الموارنة يرغبون في حكم نصراني شهابي، بينما صوت الدروز إلى جانب الحكم العثماني، وقاموا بتمرد جديد عام (١٢٦٠هـ) بسبب المناطق المختلطة بين الطائفتين، واستمر عدم الاستقرار في الشام بسبب تمرد النصارى واتساع نفوذهم[١].

بعد وفاة السلطان محمود الثاني تولى السلطان عبد الحميد، وقام باستدعاء رشيد باشا سفير الدولة العثمانية في لندن، وعينه وزيرًا للخارجية. وما أن تولى منصبه حتى حمل الدعوة إلى حكم برلماني دستوري مدعيًا عزمه على رفع الدول العثمانية إلى

ولـــــذلـــــك=

= امتازت مدنها بوجود جاليات أوروبية متعددة الجنسيات قام أفرادها بدور الوسطاء في عمليات التصدير والاستيراد، وتعايشوا مع سكان البلاد؛ ولذلك امتازت أيضًا بتنوع بشري وديني ولغوي، فكان فيها عناصر سامية، وجاليات قديمة من اليهود والسريان والأكراد والأرمن والروم والكاثوليك والارثوذكسي، وكانت تفد إلى الأماكن المقدسة في فلسطين أعداد وفيرة من اليهود والمسيحيين، ومنهم من توطن في جنوب لبنان، وقد اتبع العثمانيون المذهب الحنفي، وتبعهم أغلب سكان الشام من المسلمين، وفي الوقت نفسه وجدت الشيعة وكان منهم الدروز الذين يعتقدون في ألوهية الحاكم بأمر الله، وهذا أساس عقيدتهم، وينكرون أصول الإسلام والنصرانية واليهودية، وينكرون أحكام الشريعة، وكانوا يسكنون جبل لبنان، وتكاثروا فيه حتى صاروا حكامًا، وكان هناك النصيرية والإسماعيلية، وعلى هذا النحو كانت بلاد الشام مسرحًا تزاحمت عليه طوائف كثيرة من أصحاب الملل والمذاهب والنحل؛ ولذلك كانت مجالًا واسعًا لعمليات التبشير على مدى التاريخ مما جعلها غير مستقرة بسبب الاحتكاك بين المبشرين وأصحاب المذاهب المختلفة، ووصلت البعثات البروتستانتينية إلى بر الشام، وأنشأوا أول مركز لهم عام (١٨٢٠) في بيروت وارتاب العثمانيون في أمرهم، ونظروا إليه نظرة ريبة، ورأوا منهم بوادر تسلل استعماري غربي، كما رأى فيهم الأرثوذكس والكاثوليك خطرًا لكيانهم الديني، واعتمدت هذه الطوائف في وجودها على دعم الدول الغربية الكبرى إنجلترا وأمريكا.

انظر: الدول العثمانية دول إسلامية ٢/ ٧٣٦-٧٥٠.

(١) انظر تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٩، الشرق الأوسط في العصر الحديث ص ١٠٥، ١٠٦،

مصاف الدولة المتقدمة عن طريق سن دستور ينص على حقوق المواطنين، وحصل على تأييد السلطان العثماني، ومن ثم أعد وثيقة دستور بكتمان كلي وفي ١٦ شعبان ١٢٥٥هـ الموافق ١٨٣٩م دعا الوجهاء والسفراء الأجانب وممثلي التجار إلى قصر الزهور (الكلخانة)، وقرأ عليهم خط الكلخانة الذي سمي بالتنظيمات الخيرية، ونصه: «إن سبب رقي الدولة في الماضي كان هو العمل بمبادئ الشريعة الإسلامية، وكان سبب عزتها وقوتها، وإن سبب تأخرها منذ مائة وخمسين من الأعوام كان هو إهمال تلك المبادئ». ثم أعلن المرسوم أن الدولة تكفل الحرية وحماية الأرواح والعرض والمال، ونص في النهاية على أن جميع رعايا الدولة من المسلمين وسائر الملل الأخرى تتمتع بهذه الحقوق بدون استثناء وبغض النظر عن المعتقدات الدينية[١]. وكان هذا المرسوم بمثابة بدء العلمانية في الدولة العثمانية؛ لأن الإصلاحات التي تضمنها المرسوم السلطة القضائية حيث أصدر قانون جنائي جديد يعتمد على القانون الفرنسي، ثم نشر قانون تجاري في عام ١٢٦٧هـ الموافق ١٨٥٠م يقدم على النظام الربوي العالمي.

ولكن الدولة الأوروبية طمعت في المزيد من الامتيازات للرعايا الأجانب. وكان موضوع الرعايا هو السبب في حرب القرم (نسبة إلى جزيرة في البحر الأسود) (١٨٥٣-١٨٥٥) الذي اختلقته الدول الغربية للتوصل إلى أهداف سياسية. كان سبب الحرب: النزاع بين المسيحيين الكاثوليك الذين كانت تؤيد قضيتهم فرنسا- وبين المسيحيين والأرثوذكس الذين كانت تدافع عن دعواهم روسيا، وكان النزاع يدور حول امتلاك مفاتيح البقاع المقدسة، وحق حماية الأماكن في فلسطين وخاصة القدس وامتد النزاع حتى شمل حق حماية المسيحيين بصفة عامة في الدولة العثمانية[٢].

«وقد اعتمدت روسيا على ما نالت من اعتراف الدولة العثمانية في نصوص معاهدة قيثارجه التي عقدت سنة (١٧٧٤) بأن لها حق حماية المسيحيين في البلقان،

وموسوعة التاريخ الإسلامي ج٥/ ٦٤٩ .

(١) الشرق الأوسط ص ١٠٨، والدولة العثمانية المفترى عليها ج٢/ ٧٥٠، وتاريخ الدولة العثمانية/ ١٥٠، ١٥١، ٢٥٤ .

وكذا بمقتضى معاهدة (هنر سكله سي) التي أبرمت في عام (١٨٣٣) حيث نصت على حقها في حماية المسيحيين عامة»[١].

بينما استندت فرنسا إلى الامتيازات التي منحها السلطان «سليمان القانونى» لملكها «فرانسوا الأول ١٥٣٦»، والتي كانت جددت بامتيازات أخرى عام ١٧٤٠ تؤيد لها وحدها الحق في حماية المسيحيين من رعايا الدولة[٢].

هذا هو السبب الظاهر في الحرب، ولكن روسيا كانت تريد أن تجد أي ذريعة لفتح باب المسألة الشرقية لتتدخل في شؤون الدولة العثمانية، وتجد مجالاً للمساومات، لتصل إلى أغراضها على أن تعزل ولايات البلقان عن الدولة العثمانية، «ودخلت إنجلترا هذه المعركة إلى جانب فرنسا؛ لأنها تريد أن تمنع روسيا من الوصول إلى البحر المتوسط حتى لا تهدد طريقها إلى مستعمراتها في الهند، وإنجلترا تريد إبقاء الدولة العثمانية على ضعفها لكي تظل حاجزًا يقف في وجه روسيا وزحفها إلى الشرق»[٣].

وانتهت الحرب بهزيمة روسيا عام ١٢٥٧هـ- ١٨٥٦م وعقد صلح في معاهدة باريس ١٨٥٦ التي منعت السفن الأجنبية من المرور بالمضايق (البسفور- الدردنيل) وأن يكون البحر الأسود على الحياد، وفي هذه المعاهدة اعترفت جميع الدول الأوروبية بالدولة العثمانية عضوًا في الجماعة الدولية، ولها حقوق والتزام جميع الدول بعدم التدخل في شؤونها، وألزمت الدول الدولة العثمانية بتحسين أحوال المسيحيين في الدولة، وإلزام السلطان بإصدار منشور بذلك[٤].

وقد أصدر السلطان «عبد المجيد» مرسومًا كان أشد تمكينًا للرعايا الأجانب من سابقه الذي صدر عام (١٨٣٩)، وكان صدوره في فبراير (١٨٥٦- ١٢٧٢هـ)، وقد

---

(١) الشرق الأوسط ص ١٠٩ .

(٢) انظر: العثمانيون والروس ص ٨٢، ١٠٥، والدولة العثمانية ج١/ ١٩٧ .

(٣) انظر: دراسات في التاريخ الإسلامي ص ٥٥٨، ٥٥٩، مرجع سابق .

(٤) تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٩، الدولة العلية ص ٢٦١ .

(٥) انظر في ذلك: العلاقات الدولية في العصر الحديث ص ٣٦، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج١/ ٢٢٨ .

كان بمثابة إعلان دستور خاص للرعايا غير المسلمين من الأوروبيين وغيرهم حيث جعلهم في مركز كأنهم في دولة داخل الدولة، وقد عرف باسم الخط الهيماني «فقد قرأ السلطان تفاصيل البيان، فأكد الإبقاء على خط «الكلخانة» السابقة بالإضافة إلى تمكينه الدول من التدخل بينما حرمها الخط السابق، -وركز على المساواة الدينية وفصلت، للنصارى حقوق، منها: أن المسائل المدنية يكون العهد في إدارتها إلى مجلس مختلط بين المدنيين ورجال الدين النصراني ينتخبه الشعب بنفسه، ومنها: عدم إكراه المسلم الذي يعتنق النصرانية على الرجوع إلى الإسلام، بل يسمح له بالردة عن الإسلام واعتناق النصرانية. وسنَّتْ (عام ١٢٨٥هـ) قوانين حول الجنسية العثمانية والطوائف الدينية وحصلت الدول نتيجة التنظيمات المالية - على امتيازات في البنوك والسكك الحديدية وابتياع الأراضي»[١].

إن هذه المعاهدة كانت المسمار الأول في نعش الدولة العثمانية؛ إذ إنها بدخولها عضوًا في جماعة الدول الأوروبية، تلك الجماعة هي التي تضع القواعد القانونية الدولية التي تقرها المؤتمرات التي تدعو إليها الدول الكبرى، وبهذه المؤتمرات كانت تفرض وجهة نظرها على الدول الأخرى.

وفي هذه المعاهدة أقرت بقبول الدولة العثمانية عضوًا فيها، وبها تمكنت الدول من إحكام السيطرة على الدولة العثمانية- كما يفعلون بنا اليوم تحت شعار: الشرعية الدولية- فدخولها عضوًا في الجماعة الدولية يبيح للدول أن تفرض عليها ما تراه باسم القانون الدولي، الأمر الذي ما كان يمكن أن تفرضه عليها قبل أن تصبح عضوًا في جماعة الدول. فنتيجة لتلك التنازلات الجديدة في المرسوم السابق قويت شوكة الأوروبيين في إشعال الفتن، «فحدثت المذبحة المارونية الدرزية عام ١٢٧٦هـ-١٨٦٩م بفعل القنصل الفرنسي، وذلك لتحقيق حلمها باحتلال سوريا ولبنان، ولكن تدخل السلطان العثماني وقضى على الفتنه. واتفقت الدول الكبرى بعد مداولات جرت في الأستانة على أن تتخلى الدولة العثمانية عن إدارة جبل لبنان، وتكون للبنان حكومة مستقلة استقلالاً ذاتيًا، يكون حاكمها من غير لبنان ومسيحيًا في الوقت

(١) انظر: الشرق الأوسط ص ١١٧، وتاريخ الدولة العثمانية ص١٦١ .

نفسه، ويعين باتفاق الدول ولا يعزل إلا برضاها، وصدر بهذا النظام قانون في عام (١٨٦٤م) وظل ساريًا حتى قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤»[١].

فهذا النظام الجديد ما هو إلا استعمار مقنع وجدت فيه فرنسا بغيتها؛ إذ تدخلت في شؤون لبنان، فأنشأت المدارس والشركات، وصبغت لبنان بالصبغة الفرنسية تمهيدًا لاحتلاله، واستطاعت الدول الأوروبية استغلال باب الامتيازات لتحقيق أغراضها، فاعتبرتها حقوقًا لها في أن تفعل ما تشاء، وهذه الامتيازات متعتهم بحصانة أعفتهم من التبعية للسلطة العثمانية؛ فأصبحوا يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية، كما كانت هذه الامتيازات عقبة كؤودًا أمام الدولة العثمانية، فقد حالت دون قيامها بتنفيذ مشروعات إصلاحية، وظلت هذه الامتيازات بمثابة قوانين مذلة للدولة العثمانية حتى سقوطها بعد الحرب العالمية الأولى.

ولقد عملت إنجلترا على الاستفادة من الامتيازات التي منحتها لهم الدولة العثمانية، وكانت فرنسا قد رسخت أقدامها في مصر منذ حكم محمد علي الذي حقق لها ما أرادت من حملتها، الأمر الذي عجزت عن تحقيقه هي بنفسها «أثناء حملتها» على مصر.

حقيقة إن «محمد علي» قد شق الترع والمصارف، ونهض بالزراعة والصناعة، وحقق لمصر مكانة لا ينكرها أحد. ولكن الأمر الخفي الذي لم يذكره التاريخ - الذي كتب بأيدٍ غربية أو موالية لها - هو أن «محمد علي» قد صنعته فرنسا لكي يكون أداتها في هدم الدولة العثمانية، وبالتالي القضاء على الخلافة والإسلام العدو اللدود للغرب.

فقد قام محمد علي بتنظيم الجيش المصري تنظيمًا عصريًا بمساعدة فرنسا، وقام بتدريبه «سليمان باشا» الفرنساوي، وقد استخدم محمد علي هذا الجيش في محاربة دولة الخلافة، وكاد يتغلب عليها لولا تدخل إنجلترا خوفًا من أن تستأثر فرنسا بصداقة السلطان وبنفوذها في مصر، ولتخدم الهدف العام للصليب، فقد أوقفته عن الاعتداء على الخليفة العثماني، وفي نفس الوقت فرضت على الدولة العثمانية استقلاله عن الخليفة والاستئثار بحكم مصر (كما حدث في حروب الشام واتفاقية لندن) ولكنها - أي: إنجلترا وفرنسا وروسيا حطمته كما مر في موقعة «نافارين»؛ لأنه

---

(١) السابقين: الشرق الأوسط ص١٢٧، وتاريخ الدولة العلية ص ١٦١ .

هاجم دولة صليبية هي اليونان، ومن هنا يتضح أنها كبرته وسلحته لمحاربة الإسلام وضرب الخلافة الإسلامية.

وبعد موت «محمد علي» عام (١٢٦٥-١٨٤٩م) ظلت مصر تتأرجح في علاقاتها بالغرب تارة إلى إنجلترا فتقدم لها المساعدات التي تخدم مصالحها إلى الهند، ففي عهد عباس الأول (١٨٤٨-١٨٥٤م) - (١٢٦٤-١٢٦٨هـ) أنشئ طريق القاهرة- السويس ومد خط السكة الحديد من الإسكندرية إلى كفر الزيات. وقد قامت إنجلترا بهذه الأعمال لتسهل مواصلاتها إلى الهند.

وتارة أخرى في عهد سعيد وإسماعيل عام (١٨٥٤-١٨٧٩م) - (١٢٦٨ - ١٢٩٣هـ) تبعًا لهوى الخديوي فقد زج سعيد بالشعب المصري لمساعدة فرنسا في حربها ضد المكسيك لصداقة شخصية بينه وبين نابليون الثالث، وأغرق مصر في الديون، وأهلك الرجال، وبدد الأموال في حفر قناة السويس، وأضاع أرباح مصر بسبب الديون[١].

وجاء إسماعيل فعرض أرباح مصر للبيع بسبب إسرافه وارتباكاته المالية، فسارعت إنجلترا لشرائها بواسطة رئيس وزرائها اليهودي «دذرائيل» وأخذت تعد العدة لغزو مصر[٢].

وفي عام (١٨٧٦م) أعلن الخديوي إسماعيل إفلاس الحكومة، وكانت الديون قد بلغت مائة مليون من الجنيهات، فتدخلت الدول الأجنبية للإشراف على مالية البلاد، فأنشأت صندوق الدين. ثم كانت المراقبة الثنائية من إنجلترا وفرنسا وذلك في عام ١٨٧٦. ولم يكتف إنجلترا والفرنسيون بهذا التدخل، بل ألفت وزارة برئاسة «نوبار باشا» وهو أرمني الجنسية- كان وزير المالية فيها إنجليزيًا، ووزير الأشغال فرنسيًا، فقامت الوزارة بإنقاص عدد الجيش إلى - ر١١ ألفًا[٣].

---

(١) عصر إسماعيل/ عبدالرحمن الرافعي ج١/ ٤٣، موسوعة التاريخ الإسلامي /د. أحمد شلبي ج٥/ ٤٠٨.

(٢) عصر إسماعيل ج١/ ١٠٥، ١٠٦، ج٢/ ٥٨.

(٣) السابق ج٢/ ٨٢-٨٧.

فكان هذا العمل بدء التذمر في صفوف الجيش، وأسقطت الوزارة، وطلبت الدول الأجنبية من السلطان العثماني عزل «إسماعيل»، فعزل عام (١٨٧٩م) وتم تعيين «توفيق» الذي رمى بنفسه في أحضان الغرب، وهذا مما أثار الشعب، وكان سببًا في قيام الثورة العرابية للوقوف في وجه استبداد الأسرة الحاكمة. وفي هذه الأثناء حدث شجار بين رجل ملطي ورجل مصري، وتطور إلى خلاف بين المصريين والأجانب، وفي هذا الوقت كانت «الثورة العرابية» قد نجحت في الحد من تسلط وزارة رياض باشا؛ فأسقطتها وألفت وزارة جديدة، وتم وضع دستور وتشكيل مجلس نيابي، وافتتح في (٢ ديسمبر ١٨٨١) ولكن الدول الأوروبية تدخلت في ١١ يوليو (١٨٨٢) فضربت الإسكندرية بحجة حماية الأجانب وحماية الخديوي واحتلت مصر[1]. وبعد الاحتلال بدأت إنجلترا بتخريب مصر[2] وتغيير نظام الحكم والإمارة فيها بما يتمشى مع السياسة الاستعمارية لتثبيت أقدامها في مصر، وخدعت الباب العالي بوعود معسولة بالانسحاب، إلى أن كان (١٩٠٤) حيث عقدت معاهدة سرية مع فرنسا تتضمن إطلاق يدها في سوريا ولبنان على أن تطلق فرنسا يد إنجلترا في مصر[3]. وعقدت معاهدة سرية مع روسيا عام (١٩٠٧م) حيث وافقت لها على بعض مناطق النفوذ، وفي شعبان عام (١٢٩٣هـ- ١٨٧٦م) كان السلطان «عبد الحميد» قد تولى السلطة بعد عزل السلطان، «مراد الخامس» وكانت الدولة العثمانية وسط جحيم من نيران الثورات في بلاد البلقان، هذا إلى جانب الزحف الاستعماري الأوروبي الذي بلغ أعنف مراحله في تلك الآونة على أملاك الدولة العثمانية.

فبالنسبة لبلاد البلقان قامت روسيا بإشعال الفتن الطائفية بين رعايا الدولة العثمانية في: بلغاريا، والبوسنة، والهرسك، عن طريق «اجناتيف» سفيرها في استانبول، حيث خطط لثورة يقوم بها المسيحيون الأرثوذكس، فهم متحدون مع الروس في الجنس والعقيدة والمذهب، فأنشأت جمعية سرية قامت بإثارة الاضطرابات في بلاد البوسنة والهرسك، وشكلت لها فروع في بلاد البلغار. ومولت روسيا أنصارها بالمال والسلاح، وطلب

---

(١) الشرق الأوسط في العصر الحديث ص ١٦١، ١٦٢، وموسوعة التاريخ الإسلامي ج٥/ ٤٧٢، ٤٧٣، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ج٢/ ٥١، ٥٢ .

(٢) سوف أتكلم عنه في الفصل الثالث من هذا الباب .

(٣) أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ج٢/ ٥٣، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢/ ١٠٦٢ .

البلغاريون- بعد اجتماع سري مع روسيا والنمسا ورومانيا- بالاستقلال عن الدولة العثمانية وأعلنوا العصيان[١]. وبدؤوا في مارس (١٢٩٢هـ- ١٨٧٦م) تنفيذ قرارات الاجتماع السري بعمل مذابح للمسلمين في كثير من القرى، وسفكوا دماء المسلمين العزل من السلاح، واتسع نطاق الثورة، وكان المقصود منها إفناء المسلمين بدافع التعصب الصليبي، ولكن الباب العالي أرسل قواته فأخمدت الثورة[٢].

ولما لم تتحقق أهداف الروس من هذه الثورة أشاعوا أن المسلمين ارتكبوا فظائع ضد المسيحيين، وكتب جلادستون في الصحف وأشاع الأمر في أوروبا فتحركت القوى الغربية فأوعزوا إلى أميري الجبل الأسود والصرب كي يعلنا الحرب ضد الدولة العثمانية، فبدأت الحرب البلغارية من عام (١٢٩٣هـ- ١٢٩٥هـ) الموافق (١٨٧٦-١٨٧٨م)، وتقدم المسلمون العثمانيون تقدمًا كبيرًا، وطلب سفراء الدول من الباب العالي وقف الحرب وإقرار الصلح، فرفض وأبلغهم شرطه لوقف الحرب وهو خضوع أمير الصرب للسلطة العثمانية، وشروطًا أخرى فرفضت الدول واستمر القتال ووصل المسلمون إلى «بلجراد» عاصمة الصرب، عندئذ طلبت روسيا وقف القتال بعد اتفاق مع باقي الدول، وأرسلوا برقية إلى الباب العالي بهذا الطلب وإن لم يقبل في مسافة ثمان وأربعين ساعة ينسحب هو وجميع موظفي السفارة من الآستانة، فقبلها السلطان منعًا للعراقيل السياسية[٣].

وتقدمت الدول بعد اجتماع سري فيما بينها بقرار تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين، وحرمان الدولة من حقوقها في الولايتين، وعند عقد المؤتمر أعلنت الدول قرارها هذا، فرفض الباب العالي وصمم على الدفاع عن الدولة وعدم الانصياع لطلبات الدول المسيحية، فقامت روسيا بإعلان الحرب على الدولة العثمانية بالتواطؤ مع الدول الأوروبية الأخرى، «ودخل الروس الحرب إلى جانب الصرب، وكانت الكفة في جانب روسيا، وتدهورت أحوال الجيش العثماني، ولم يكن أمامه إلا الصلح لعدم قدرته على الاستمرار في القتال، لأنه حارب على جبهات كثيرة»، ووصلت روسيا إلى ضواحي «استانبول»، وفرضت شروطها الجائرة في هذا الصلح

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢/ ٨٤٣-٨٤٥ . بتصرف واختصار .

(٢) العثمانيون والروس ص ١٢٢، ١٢٣ بتصرف .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

الذي عقد في مدينة أدرنه وجرى الاتفاق على استقلال بلغاريا إداريًا، ورومانيا والجبل الأسود سياسيًا وإلزام العثمانيين بدفع غرامة حربية للروس[١].

وعندما علمت الدول الأوروبية بذلك خافت من احتلال الروس للأستانة، وتدخلت إنجلترا بقواتها إلى مضيق الدردنيل، ومنعت روسيا من التقدم نحو العاصمة، وبدأت مفاوضات الصلح في قرية سان ستيفانوس عام ١٢٩٥هـ-١٨٧٨م، وفي هذه المعاهدة خسرت الدولة العثمانية بلغاريا ورومانيا وصربيا والجبل الأسود واستيلاء روسيا على أقاليم أردهان قارص وباطوم، وامتدت بذلك الحدود الروسية إلى قرب شمال العراق والشام[٢]، وقد أضعفت هذه الحرب الدولة العثمانية وكلفتها نفقات كثيرة وهذا ما أغرى الدول الأوروبية المسيحية بتقسيم ممتلكاتها والتآمر عليها.

وفي هذه الأثناء ظهرت إمبراطوريات وقوميات جديدة في أوروبا دخلت ميدان التنافس الاستعماري لتشارك إنجلترا وفرنسا وروسيا مناطق النفوذ والاستعمار، بحثًا عن المواد الأولية لتنمية صناعاتها واقتصادها فدخلت أسبانيا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال وبلجيكا وهولندا، وأصبح الزحف على تملك المستعمرات ظاهرة بارزة في القرن التاسع عشر وخاصة في الثمانينيات والتسعينيات منه وذلك بسبب «ظهور قاعدة في السياسة الدولية هي نظرية البيولوجية السياسية التي كان من مبادئها: أن للدول الكبرى، الحق في التهام الدول الصغرى، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تموت أو تفنى أمام الدول الكبرى وصحبت هذه النظرية نظرية استعمارية أخرى أطلق عليها «الأرض التي لا صاحب لها» ومن مبادئها: إباحة استعمار الأقاليم التي تسكنها شعوب متخلفة أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة وغير مسيحيين وخارج القارة الأوروبية، وتصبح هذه المناطق ممتلكات شرعية لأول دولة تستطيع بقواتها أو بعض أفراد منها رفع علمها عليها»[٣].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ص ١٧٢، ١٧٣، والعثمانيون والروس ص ١٣٧.

(٢) الدولة العثمانية ص ١٠٩٢-١٠٩٥.

(٣) العلاقات الدولية في العصور الحديثة ص ١١٦، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢/ ١٠٢٩، وانظر أيضًا: صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي/ صلاح الدين حافظ ص٦٠.

ولشيوع هذه النظريات تسابقت الدول الاستعمارية لاستعمار الدول الإسلامية، فكان احتلال إنجلترا لمصر، واحتلال فرنسا لتونس، وحدث صراع بين روسيا وبريطانيا في فارس حول تحديد مناطق النفوذ، ولهذه الصراعات وغيرها عقد مؤتمر برلين عام (١٨٨٤-١٨٨٥) حيث أولى اهتماماته باستعمار إفريقيا طبقًا للنظريتين السابق ذكرهما، وبعد هذا المؤتمر تسابقت الدول الاستعمارية فتقاسمت قارة إفريقيا[(١)] [(٢)]، وقد لقي الاستعمار مقاومة إسلامية عنيفة تمثلت في جهاد إمبراطورية الفولاني بقيادة أبناء الشيخ «عثمان بن فودي»[(٣)] ضد الاحتلال البريطاني، وكان الصراع أيضًا بين المسلمين والفرنسيين

---

(١) صراع إفريقيا مع الاستعمار مر بمرحلتين:
المرحلة الأولى: امتدت نحو أربعة قرون؛ من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، فبدأت مع حركة الكشف عن القارة بالاستعمار البرتغالي الذي لم يستطع التوغل داخل الأرض الأفريقية، فاقتصر الاستعمار على استعمار السكان عن طريق استرقاقهم وبيعهم في أسواق أوروبا، وهذا ما يعرف بالاستعمار الديموجرافي:
المرحلة الثانية: هي مرحلة الاستعمار الأوربي . انظر: إفريقيا الإسلامية- عنايات الطحاوي ط المجلس الأعلى ١٩٧٠م. وقد انتشر الإسلام في إفريقيا بفضل الهجرات العربية، وخصوصًا قبائل بني هلال وبني سليم وكذلك قبائل البربر . ولما قامت دولة المرابطين كونت جبهة إسلامية من غرب إفريقيا، وانتشر دعاتها في قلب القارة حتى كونوا إمبراطورية إسلامية وصلت إلى غرب السودان وبعدها أخذ الإسلام في الانتشار في إفريقيا .

(٢) المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا/ عبدالله عبدالرازق إبراهيم ص ٢٤، عالم المعرفة(١٣٩)، وصراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي/ صلاح الدين حافظ/ ٦٢ط عالم المعرفة، الكويت(٤٩).

(٣) ولد الشيخ عثمان بن فودي في مكان يدعى «مارتا» في أرض جالمي بامارة جوبير عام (١٧٥٤)، حفظ القرآن وسلك طريق القادريين حيث كانت هذه الطريقة أكثر انتشارًا في غرب إفريقيا . وقد وهب حياته لخدمة الدين الإسلامي وزاد عدد أتباعه، الأمر الذي أقلق حاكم الإمارة المسيحي الوثني، فأصدر مرسومًا يقضي بعدم السماح لأي شخص باعتناق الدين الإسلامي إلا من ورثه عن أجداده وتحريم الخمار، ولبس العمامة، وعدم السماح لأي أحد بالوعظ إلا الشيخ عثمان، وكان هذا المرسوم بداية المرحلة من جهاد المسلمين . ومات هذا الحاكم وخلفه ابنه «يونفا» وتمادى في إذلال المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عثمان، حيث طلب منه ترك الجماعة والعيش في المنفى، ورفض الشيخ وتحرك وهو وجماعته إلى مكان بعيد يسمى «جودو» . وهنا أصدر الحاكم أمرًا بالقبض على الشيخ، وطلب من حكام الإمارات قتل المسلمين وغزو القرى الإسلامية، وهنا أعلن الشيخ الجهاد وبدأ تأسيس إمبراطوريته التي امتدت من مدينة «سوكوتوا» عاصمة لها، وأخذ الشيخ أتباعه وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين، وأعلن الشيخ الجهاد، وأصدر وثيقة سميت وثيقة أهل السودان التي صارت إعلانًا للجهاد ضد حكام إمبراطوري الوثنية على الفور، وأرسل الحاكم إلى أمراء ولاياته لمحاربة قبيلة الفولاني، وتزعم حاكم جويد الحرب ضد الشيخ عثمان، واستمرت الحرب بينهما إلى عام ١٨٠٨ حتى انتهت بانتصارات الشيخ وجماعته، وتشكيل وحدة سياسية كبرى أطلق عليها اسم إمبراطورية الفولاني، واستمرت حتى قضى عليها الاستعمار البريطاني عام ١٩٠٣م. انظر: المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا ص٤٣، ٤٦ بتصرف واختصار .

في السنغال بقيادة الحاج عمر بن سعيد[١]، والشيخ «محمد الأمين» ضد الفرنسيين في سابجاميا، وجهاد «موري توري» ضد الفرنسيين في غينيا، والشيخ رابح له فضل ضد البريطانيين والألمان والإيطاليين، واستمرت المقاومة عشر سنوات من عام (١٨٩٠ إلى ١٩٠٠)، والجهاد في الصومال والأحباش والبريطانيين والإيطاليين بقيادة السيد محمد عبدالله حسن[٢] واستمرت مقاومته واحدًا وعشرين عامًا.

---

(١) ولد الحاج «عمر بن سعيد» في قرية «حلوار» على الحدود السنغالية الموريتانية عام (١٧٩٥م)، وهو الابن الرابع للشيخ سعيد الذي ينتمي إلى التوردوب الذين قاوموا الوثنية في هذه المنطقة . درس الحاج عمر اللغة العربية وعلومًا تحت إشراف والده . وخرج لتلقي العلم تحت إشراف العلماء في «فوناتورو» وعلى مشايخ الطرق الصوفية، وخاصة الطريقة «التيجانية» التي أسسها في القاهرة الشيخ أحمد التيجاني (١٧٣٧-١٨١٥م) وفي عام (١٨١٤م) اتجه إلى مدينة «ساتينا» وبدأ يعلم النشء الصغير القرآن والسنة حتى بلغ من العمر ثلاثين عامًا، وبعد رحلة إلى البيت الحرام وتعلم مبادئ الطريقة التيجانية على يد الشيخ «عبدالكريم الثقيل» رجع إلى مدينة حمدلله عاصمة ماتينا الجديدة، وتوطدت علاقته بالناس وعهد إليه حاكم المدينة بنشر الإسلام وتعليمه لأبناء المدينة، وقد عاش فترة في موكوتوا عاصمة إمبراطورية الفولاني .

وبعد رحلات عدة استطاع الشيخ كسب الأعوان من المناطق التي رحل إليها حتى بلغت قواته ١١٢ ألف رجل، وقام بجهاد الوثنية في السودان الغربي، وازداد أتباعه حتى سيطر على أعالي السنغال، وقام بمقاطعة المرور الفرنسي في حوض نهر السنغال، وقام بمصادرة مصانع الفرنسيين على طول النهر، ويعلن عن غضبه لأفعال المسيحيين وذلك في رسالة قدمها للحاكم الفرنسي وكان ذلك عام (١٨٥٤) واستمرت إلى عام (١٢٨٠هـ الموافق ١٨٦٤م) ومات وعمره ٧٠ عامًا، وخلفه ابنه أحمد والذي استمر جهاده حتى عام (١٨٩٥) حيث سقطت إمبراطورية الفوكولور وانتهت الدولة التيجانية .

(٢) كان أحد أتباع الطريقة الصالحية بإحدى الطرق الصوفية المنتشرة في الصومال، وقد ولد في ١٧ إبريل عام (١٨٦٤م) شمال الصومال وتعلم في إقليم الأوجادين الصومالي، وشب على التقوى والورع بعد أن تعلم القرآن والسنة حتى أعطي لقب شيخ، واختلط بالعلماء، وهذا ما ساعده على صقل علمه ومواهبه . وفي عام ١٨٨٥ حج إلى بيت الله الحرام وتعرف من هناك على أحوال المسلمين وعداء الشعوب الأوروبية لهم فكانت هذه الرحلة بسبب إعداده لقصة كفاحه . وفي أثناء عودته عن طريق يدعون وكان في يده مظلة أراد أحد الإنجليز أن يأخذها منه، وذهب بعيدًا عنه، ولكن الإنجليزي تبعه وصمم على أخذها منه فضربه بيده فسقط الرجل في البحر، وتجمع الإنجليز وكلهم دهشة من هذا الرجل الذي تجرأ على ضرب أحد الأوروبيين، ولولا تدخل الشرطة العثمانية في عدن لدخل السجن . وقد أدرك السيد أن التفاهم مع الأجانب أمر صعب، وأن التعامل معهم أشد صعوبة، واتجه إلى بربرة على باخرة حيث لقي معاملة قاسية من رجال الجمارك الذين طلبوا منه رسومًا على أمتعته، فكان جوابه: ومن الذي أعطاكم تصريحًا بالدخول في بلادنا، واستقر في بربرة وظل يعلم الأهالي أصول العبادة والدين، وأقام مسجدًا ليكون مقرًا له . وذات يوم رأى مجموعة من الأطفال في طريقهم إلى مدارس البعثة الكاثولوكية في «بربرة»، وكانت هذه المدرسة تعلم مبادئ المسيحية، وتغير أسماءهم إلى المسيحية، وعلى الفور قام بإرسال شكوى إلى المعتمد البريطاني وحذر قومه من المسلمين، فبدأ جهاده ضد الوثنية، وبدأ جهاده من عام (١٨٩١) ضد البريطانيين واستمر حتى (١٩٢٠) إذاق فيها البريطانيين الأمرين .

وقد ترك الاستعمار في إفريقيا آثارًا اجتماعية واقتصادية وإنسانية سيئة، سوف أتكلم عنها في حينها إن شاء الله [١]، وفي عام (١٣٠٤هـ- ١٨٨٧م) قامت إيطاليا بعقد اتفاقية في الجزيرة الخضراء مع انجلترا، والنمسا، والمجر بشأن الوضع الراهن في البحر المتوسط، ووعدت إيطاليا بمساندة بريطانيا في مصر مقابل إطلاق الأخيرة يدها في ليبيا. كما عقدت اتفاقيات أخرى بهذا الصدد مع أسبانيا وفرنسا حول الساحل الأفريقي الشمالي[٢].

وفي عام (١٣٢٨هـ- ١٩١١م) قررت إيطاليا إعلان الحرب، وأعلنت ضم ليبيا بعد صراع طويل بين الفاشية الإيطالية والمسلمين في ليبيا، حتى قال عبد الرحمن عزام عن الوحشية التي اتبعها الإيطاليون: «إن الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الإسبانيون بالمسلمين هناك وما لهم وما للأندلس وللأمور جرت في القرون الوسطى، فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم في هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس»[٣].

وقد قال أحد الإنجليز الذي كان مرافقًا للجيش الإيطالي عند الاحتلال وشاهد الفظائع بنفسه: «أبيت البقاء مع جيش لا هم له إلا ارتكاب جرائم القتل، وإن ما رأيته من المذابح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق؛ جعلني أكتب للجنرال «كانيغا» كتابًا شديد اللهجة قلت له إني أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشًا بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة»[٤].

لقد قاومت الجماعات السنوسيه الاستعمار الإيطالي منذ وطئت أقدامة ليبيا،

---

(١) انظر بالتفصيل: جهاد المسلمين ضد الاستعمار الأوربي في إفريقيا/ المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا. وانتشار الإسلام في إفريقيا ومناهضة الغرب له/ د. محمد عبدالله النقيره. ط دار المريخ الرياضي. إفريقيا الإسلامية/ عنايات/ ط١٠

(٢) أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ج٢/ ١٢٣.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ج٢/ ٦٥، مرجع سابق وتفاصيل الجرائم الوحشية لإيطاليا في ليبيا من ص١١٨ إلى ص١٢٨.

(٤) السابق ج٢/ ٢٧.

وكانت المقاومة بقيادة الشهيد عمر المختار حتى عام (١٩٣١م)[١].

ومن هذا العرض السابق - لأحوال الصراع بين الشرق والغرب إلى بداية القرن العشرين - نجد أن أملاك دولة الخلافة العثمانية قد أكلت معظمها الدول الاستعمارية، إما بالاحتلال الفعلي وإما بالمعاهدات التي حدت من تدخل الدولة العثمانية، وكان هذا القرن بداية لازدياد حدة الصراع بين الشرق والغرب، حيث عمل الغرب بكل الوسائل لمحو الإسلام وإحلال الحضارة الغربية. وكان سبيله إلى ذلك القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية. وقد قطعت تلك الدول شوطًا كبيرًا في سبيل ذلك منذ عهد السلطان عبد الحميد كما ذكرنا حيث بدأت حركة تغريب الدولة العثمانية وذلك بإصدار فرمان التنظيمات السابق ذكره، وهو يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي وذلك في عام (١٨٥٤، ١٨٥٦) وبهذين الفرمانين بدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة وتستلهم الفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات.

وكان اليهود قد دخلوا أراضي الدولة العثمانية في عهد «السلطان القانوني»، وانتشروا في كافة الأقطار العثمانية، وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية للاستفادة من الامتيازات المعطاة للأجانب، وبدؤوا يعملون في الخفاء، وفكرت الدول الاستعمارية في الاستفادة من وضع اليهود في الدولة العثمانية لتحقيق هدفهم وهو تمزيق الدولة العثمانية، فاجتمعت في «ريفالد» على ساحل بحر البلطيق، وضم هذا

---

(١) في ظل السيادة العثمانية على ليبيا ظهرت الحركة السنوسية، وهي حركة دينية إصلاحية، وهي جزء من الإصلاح الديني الذي ظهر على يد الوهابيين، اتخذت طريقين في التربية الدينية: التربية الروحية، ثم التربية المادية على اتفاق أساليب القتال وفنون الحرب، وانتشرت هذه الحركة منذ عام (١٨٤٣)، وبدأت جهودها لنشر الإسلام في أواسط إفريقيا. وبلغت قوة نفوذها في عهد السيد المهدي (١٨٥٩-١٩٠١)، وقد ولد عمر المختار في هذا الجو عام (١٨٦٢) في منطقة «البطنان» من عائلة «فرحان» التي تنتمي إلى قبيلة الحنفة، نشأ في بيئة البادية فأحاطه مناخها الاجتماعي البيئي بكل ما يحمله من كبرياء وحب للفروسية والأنفة من الخضوع للمستعمر، وبدأ حياته تلميذًا في «زاوية جنزور»، بدأ فيه تعلم القرآن والحديث، وعلوم الدين وبعد موت والده توجه إلى مدينة الجغبوب حيث تعلم في معهدها الديني عام ١٨٩٠ عين شيخًا على زاوية القصور، ولقدرته على القيادة منحه المهدي لقب السيد، وقال فيه: «لو كان عندنا عشرة مثل عمر «لاكتفينا بهم» وأرسله إلى جنوب ليبيا، وكان النفوذ الفرنسي متاخمًا لحدودها الجنوبية، فعمل على مكافحة الاستعمار الفرنسي، فانضم إلى المجاهدين في منطقة واداي، واستمر جهاد الحركة السنوسية حتى عام (١٩٠٢) حتى كان الغزو الإيطالي لليبيا، فكان عمر المختار أول من لبى نداء الجهاد واستمر فيه حتى وفاته عام (١٩٣١م) رضي الله عنه، انضر: مجلة الأمة، عدد ٦٦ ص ٥٢، ٥٣ .

الاجتماع «إدوارد السابع» ملك بريطانيا، «ونيقولا الثاني» ملك روسيا، وكايزر ويلهلم إمبراطور ألمانيا، فرانسوا جوزيف إمبراطور النمسا والمجر، وفيكتور عمانوئيل ملك إيطاليا، ولم يمض وقت طويل حتى عقد مؤتمر الصهيونية العالمية في مدينة بازل بسويسرا عام ١٣١٤هـ- ١٨٩٧م وتوصل المؤتمرون إلى قرار بشأن تأمين وطن قومي ليهود العالم، وأصر «هرتزل» على أن تكون فلسطين، وأعطى هرتزل الصلاحيات للسعي من أجل غاياتهم[(١)].

وفي عام (١٣١٩هـ- ١٨٩٨م) كان الإمبراطور الألماني في زيارة لمدينة «إستانبول» فاستغل «تيودور هرتزل» هذه الفرصة واتجه إلى «إستانبول»، وبعد توسط «فون بولوف» رئيس وزراء ألمانيا من الذهاب إلى قصر يلدز ومقابلة السلطان عبدالحميد[(٢)]. وتقدم «هرتزل» بالرشوة إلى السلطان حيث قدم له خمسة ملايين ليرة ذهبية مقابل السماح بالهجرة إلى فلسطين. وكان السلطان عبدالحميد على علم بما تم في مؤتمر سويسرا فأمر بطرده من القصر، وأصدر فرمانًا على الفور في (١٣٢١هـ- ١٩٠٠م) حدد فيه إقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر[(٣)].

وفي عام (١٣٢٣- ١٩٠٢م) توجه وفد ثلاثي يهودي برئاسة «قره صو» حاملاً عرضًا مغريًا وهو سداد ديون الدولة العثمانية لإخراجها من حالتها الاقتصادية المتردية، وقدموا هذا العرض للصدر الأعظم وكان يرد السلطان على لسان الصدر الأعظم بعد نفي مقابلتهم: «انصحوا الدكتور «هرتزل» بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع، لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست بملكي، بل ملك شعبي، لقد قاتل في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت إمبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آنذاك بأن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزق أولاً في جثتنا، وإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة»[(٤)].

---

(١) أسرار الانقلاب العثماني/ مصطفى طوران ص٥، ٦ .

(٢) سياسة الاستعمار الصهيونية تجاه فلسطين/ حسن صبري الخولي ج١/ ٩٧ بتصرف، ط دار المعارف .

(٣) انظر: الدولة العثمانية ج٢/ ٩٧٧، السابق ص٨٣ .

(٤) انظر: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ج١/ ١٠٠١، وانظر: الماسونية وكذلك، نفس النص في الماسونية عقدة المولد وعار النهاية/ محمود ثابت الشاذلي/ ج١ ٢٣٤، مكتبة مكة ١٩٨٦م.

وأصدر السلطان قرارات أخرى بشأن اليهود ودخولهم فلسطين. ومن هذه المواقف الإسلامية - النابعة - من رجل يحمل أمانة الأمة الإسلامية وأراضيها ومسؤوليته نحوها، أيقن اليهود أنه لا يمكن تحقيق حلمهم في فلسطين إلا بالقضاء على السلطان عبدالحميد أو خلعه على الأقل؛ لأنه عقبة في سبيل ذلك.

ومن هنا تكاتفت الجهود اليهودية تساعدها القوى الاستعمارية المعنية بالقضاء على الخلافة الإسلامية لتحقيق أطماعها الاستعمارية، واستخدم اليهود في خططهم لهدم الخلافة ما يلي:

١- يهود الدونمة (المرتدون)، وهم الذين تظاهروا بالإسلام بعد وصولهم من أسبانيا وتجمعهم في «سلانيك»، ومنهم من تظاهر باعتناق الإسلام بعد معركة المسيح الدجال «سبتاي سيغي» الذي ادعى أنه المسيح المنتظر لتخليص اليهود وتسليمهم زمام الحكم في العالم بعد إعادتهم إلى أرض المعاد، وحين ألقي القبض على ذلك الدجال تظاهر باعتناق الإسلام لينجو من القتل، وتبعه كثير من أتباعه اليهود متظاهرين باعتناق الإسلام وحملوا أسماء إسلامية، ووصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة، مما سهل عليهم التخريب والتمهيد للقضاء على الخلافة، ومن أشهر يهود الدونمة مصطفى كمال، ومدحت باشا الذي أصبح صدرًا أعظم (رئيس وزراء)، وتنقل في حكم ولايات عثمانية. ثم دبر مؤامرة خلع السلطان عبدالعزيز واغتياله بعد ستة أيام من خلعه وهو ابن حاخام يهودي مجري اشتهر بالمكر والدهاء والخداع، وقد وصل إلى أعلى مناصب في الدولة ليكون أقوى يهودي يتمكن من بذر بذور الفتن متظاهرًا بالإسلام مبطنًا اليهودية[١].

٢- قام «عمانويل» قره صو بتسخير الماسونية- بعد أن أصبح نائبًا عن ولاية سلانيك وهو من يهود الدونمة- في الدعاية ضد السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية، مصورًا الخلافة بأبشع تصوير، ودعاية اليهود ماهرة في قلب الحقائق وإبراز المساوئ وطمس المحاسن، ونجحت تلك الدعاية في العالم بأسره حيث بات من الأمور المسلم بها، أن المسلمين الأتراك متوحشون قساة مستبدون، حيث أبرزت

(١) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام/ عبدالله التل ص ٧٥، ٧٦، ط المكتب الإسلامي.

الدعاية قسوة المسلمين الأتراك حرب البلغار، وطمست وحشية اليونان والبلغار والفرنسيين والإنجليز والروس[١].

٣- استخدم اليهود الجمعيات السرية التي جندت قواها لخدمة اليهود، حيث استطاع اليهود بمساعدتها في تكوين جمعية «تركيا الفتاة»، الذي كان «مدحت باشا» أول مؤسسيها وتفرع عنها حزب «الاتحاد والترقي» حيث حمل هذا الحزب شعار الحرية والإخاء والمساواة الذي نقله عن فرنسا. وأقام هذا الحزب تنظيماته على غرار «جمعية الكاربوناري» الإيطالية التي شكلها «الماسون» في أوائل القرن التاسع عشر، وهي منظمة إجرامية قامت على أهدافها حزب الاتحاد والترقي، كما أنشأ اليهود جمعية البكتاشية التي كان ظاهرها الصوفية وفي حقيقتها فرق باطنية مرتبطة بالماسونية والمناصرة. ويشهد الكاتب اليهودي «آورام غالانتي» على دور اليهود في تأييد «الاتحاد والترقي» بقوله: «إن الجماعات اليهودية خارج نطاق نفوذ عبدالحميد أيدت جمعية الاتحاد والترقي، وكان هذا التأييد مفيدًا أثناء ما كانت الجمعية تعد العدة للانقضاض على عبدالحميد، وأن الجمعية الإسرائيلية بمصر أكدت أن من أهم واجباتها: إدخال المطبوعات التي تهاجم عبدالحميد إلى داخل حدود الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال، وهي المطبوعات التي كان يحررها أعضاء تركيا الفتاة».

ويوضح هذا الكاتب الدور الذي قام به قادة الاتحاد والترقي وعن صلتهم الدنسة بالجمعيات السرية «أن أحمد رضا رئيس الجناح المدني في الاتحاد والترقي ورئيس شعبة الجمعية في باريس اتصل أثناء وجوده في مصر عام (١٩٠٧) بالجمعية الإسرائيلية، وكانت نتيجة هذا الاتصال أن صوتت هذه الجمعية إلى جانب «أحمد رضا» أثناء انعقاد مؤتمر الاتحاد والترقي في باريس، وأدى هذا التصويت إلى فوز «أحمد رضا» برئاسة جمعية الاتحاد والترقي في ديسمبر عام ١٩٠٧»[٢].

٤- الدعوة إلى القومية التي أسهمت في تحقيق مآرب اليهود، وقد استخدم

---

(١) انظر: الماسونية/ جواد رفعت أتلخان ص ٨٢، ٨٣، ترجمة نور الدين الواعظ، هدية مجلة الأزهر، والدولة العثمانية ج٢/ ١٠٠٤ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد/ د . محمد حرب عبدالحميد ص ١٢، ط دار الأنصار ١٩٧٨م، وانظر: الماسونية/ محمود ثابت الشاذلي/ ٢٣٩، ٢٤٠، وانظر الدولة العثمانية/ الشناوي/ ج٢/ ١٠٠٥ .

اليهود في ذلك بعض مفكري العرب، وأكثرهم من النصارى الذين دعوا إلى القومية العربية بأساليب شتى منها تحرير العرب وفصلهم عن الخلافة، مقلدين النزعات القومية التي اجتاحت أوروبا في القرن التاسع عشر. وقد زرعت هذه الدعوة الفرقة والتمزق بين أجناس الدولة الإسلامية، وأخذ كل جنس يطالب بإحياء قوميته ويتوق إلى الاستقلال[١]. وبهذه الوسائل هيأ اليهود الطريق لعزل السلطان عبدالحميد والقضاء على الخلافة فلم يبق غير التنفيذ.

وبعد الحرب الروسية اجتمعت الدول العربية في «الاستانة» للضغط على السلطان لإجراء الإصلاحات في الدولة، وكان هدفها من ذلك هو: إعلان الدستور الذي حاول «مدحت باشا» إعلانه في عهد السلطان «عبدالعزيز» والسلطان «مراد» ولكنه في عهد السلطان «عبد الحميد» عين صدرًا أعظم، فقام بتشكيل لجنة وضعت الدستور وقد استوحاه من القانون البلجيكي، وأصبح هذا الدستور قانون الدولة بعد أن كان الإسلام هو دستورها. وقد نص الدستور على إقامة مجلسين عرفا باسم المبعوثان (النواب- الشيوخ) وقد لمس السلطان عبد الحميد ألاعيب إنجلترا واتصالها برجال الدولة فأقال «مدحت باشا» ونفاه بعد ثبوت اتصاله بالإنجليز، وقد عمل على إنجاح ٤٨ نائبًا، نصرانيًا من مجموع ١١٧ نائبًا. وقام السلطان بفض المجلس وإلغائه[٢].

وكانت الدعايات الصهيونية قد عملت عملها وانتشرت العصابات السرية، وقام دعاة الدستور من الاتحادين بحركات لمقاومة الباب العالي، فأرسل إليهم شمس باشا لمقاومة العصابات، ولكنه قتل بأيدي عصابة «نيازي بك»، وسيطروا بعدها على البريد، وأرسل «نيازي بك» برقية إلى السلطان عبدالحميد يهدده فيها بالزحف على «الأستانه» إذا لم يعلن الدستور، وأمام هذا الضغط اضطر السلطان إلى إعلان الدستور والحريات التي طالب بها أعضاء الاتحاد والترقي[٣]، وجاءت الأنباء إلى السلطان بالخيانة من بعض الضباط فأصدر أحكامًا عليهم بالإعدام.

---

(١) انظر: الأفعى اليهودية ص ٨٢ .

(٢) تاريخ الدولة العلية ص ٤٠٨، ٤٠٩، وتاريخ الدولة العثمانية ص ١٩٤ .

(٣) تاريخ الدولة العلية ص ٤١٠ .

وفي هذا الوقت أعلن الاتحاديون العفو العام عن السجناء في «سلانيك»، وعمت البلاد حالة من عدم الاستقرار والفتن، وقامت بعض حاميات الجيش «وإستانبول» بإعلان العصيان، وحرضوا طلبة العلم من الصوفية بالعمل على استصدار قانون ألزمهم بالخدمة العسكرية. وقام القادة الاتحاديون بإلقاء إرادة سلطانية (وكانت فريضة على السلطان) على الضابط والجند في ثكنتي «طاش قشله»، وبيك أوغلى- جاء فيها- أن السلطان وبإفتاء من شيخ الإسلام يطلب من الجنود لبس القبعة، ثم نزع طربوشه عن رأسه ولبس القبعة. ولم يعلن أن هذا الباشا كان مزيفًا- وكان يعني لبس القبعة بالنسبة لشخص مسلم يعني الكفر والارتداد عن الدين. وبعد ذلك بثت الاتحاديون ضباطًا مزيفين قاموا بإلقاء الخطبة وادعوا غيرتهم على الدين والشريعة، وأثاروا الناس على السلطان، وتوجهوا إلى «أياصوفيا» وحاصروا مجلس «المبعوثان» يطالبون بالشريعة، وأطلقوا النيران، وسقط عدد من القتلى، ثم توجهوا إلى الباب العالي وقاموا بقتل المقدم «علي متولي» بحجة أنه يريد قتل السلطان، وبعدها علم السلطان الخطة الملعوبة ضده فقال لهم: إن ما قرئ عليكم في ثكنة طاش قشله لم يصدر عني[١].

وقد أمر السلطان بعدم مقاومة جيش الحركة حقنًا للدماء، وانصرف الناس، وتقدم الجيش العثماني المرابط في «سلانيك» الذي يضم عددًا من ضباط الاتحاديين بإمرة محمود شوكت حتى وصل إستانبول، وحدثت اشتباكات بينهم وبين قائد الجيش السلطاني «إسماعيل حقي»، وكان التراشق بالمدفعية شديدًا، فأمر «إسماعيل حقي» برفع الأعلام البيضاء، وتوقفت الاشتباكات وظهر «أنور باشا» وبيده مسدس وبرفقته «ساندا نيسكي» ذو اللحية الصفراء قائد الثورة المكدونية وبعض زعماء عصابات البلغار، وقتلوا كل من وجدوه على الباب، وذبحوا الجنود ذبح الخراف، وقاموا بنهب الأموال على مرأى ومسمع من عصابات الروم والبلغار أمام عيني السلطان عبد الحميد، وبعدها أعلنت الأحكام العرفية.

واجتمع أعضاء مجلس الحركة بأعضاء الحركة الذي شكله مجلس المبعوثان، وقرروا خلع السلطان عبدالحميد، واستدعي رئيس الوزراء توفيق باشا إلى المجلس لإبلاغ القرار للخليفة، ولكنه رفض؛ فشكل الاتحاديون وفدًا كان مؤلفًا من الفريق

---

(١) أسرار الانقلاب العثماني ص ٥١، ٥٢ بتصرف واختصار .

البحري «عارف حكمت»، «وآرام أفندي الأرميني» وعما نويل قره صو اليهودي، وأسعد طوبطاني دخل الوفد على السلطان فقرأ الفتوى الفريق «عارف حكمت» أمامه، وقال له أسعد طوبطاني: لقد عزلتكم الأمة. ولكن السلطان غضب، وقال: تقصد أن الأمة خلصتني، لا بأس، ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي إلى مقام الخلافة؟[(١)]

وتم تعيين أخيه «محمد رشاد» عام (١٣٢٨-١٩٠٩) لقد شوه وكتاب التاريخ «السلطان عبدالحميد»، ووصفوه بالرجل المستبد، ولكن الحقيقة أن الذين كتبوا ذلك عملاء الاستعمار ليبرروا كارثتهم التي لن ينساها التاريخ. فالسلطان - رضي الله عنه - خدم الأمة الإسلامية مدة ثلاثين عامًا، وعلى الرغم من ضعف الدولة العثمانية وتكالب الأعداء عليها من جميع الجهات - استطاع أن يقوم بخدمات جليلة للبلاد الإسلامية، فاقت ما قام به أقرانه من السلاطين؛ فقد حافظ على أملاك الدولة طيلة حكمه، وفي مجال التعليم توسع في نشر التعليم المدني بشتى مراحله ونوعياته، وكان ذا صبغة دينية، كما اهتم بإيجاد توازن بين التعليم العسكري والتعليم المدني، حيث كان اهتمام الدولة قاصرا على المدارس العسكرية، كما أنشأ جامعة «استانبول» ودار العلوم السياسية وكافة فروع الجامعات العلمية ودور المعلمين ومدارس اللغات، كما أسس المستشفيات ودار العجزة من ماله الخاص، وأنشأ مركز البريد والغرف الزراعية والتجارية. ومد خطوط السكك الحديدية بين دمشق والمدينة المنورة بطول (١٣٢٧)كم. وكانت سياسته مع رعيته غاية في الود والمحبة، ويعامل الكل باحترام، فكان - رضي الله عنه - مسلمًا متدينًا شديد التمسك بالإسلام غيورًا عليه، وفي عهده رضي الله عنه - كانت اللغة العربية هي لغة الدين والعلم في الدولة، وقد حاط نفسه بالعلماء ووضعهم في المكانة اللائقة بهم[(٢)]. بعد خلعه أرسل برسالة إلى الشيخ «محمود أبي الشامات» جاء فيها:

«أعرض لسيادتكم - على سبيل التاريخ - أنني ما تركت الخلافة الإسلامية إلا للضغط عليَّ من قبل الجمعية العليا لجماعة «جون تورك»، وقد عرضوا عليَّ مبلغًا

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية/ على حسون ص ٢٠٢ - ٢٠٤ بتصرف، وانظر أيضًا السابق ص ٥٩ - ٦١ .

(٢) انظر: الدولة العثمانية ج٣/ ١١٥٣-١١٧٣ بتصرف واختصار، وانظر د. على حسون ص ٢٠٦، ٢٠٧ .

قيمته مائة وخمسون مليون ليرة إنجليزية لأبيعهم أرضًا في فلسطين يسكنها اليهود فلم أقبل، وإني خدمت الخلافة الإسلامية مدة تفوق الثلاثين سنة، لم أسود خلالها صحيفة للمسلمين ولا صحيفة آبائي وأجدادي من الخلفاء العثمانيين؛ لذلك لا أقبل مطلقا فيما اتفقوا حالاً على خلعي ونفيي إلى «سلانيك»، فقبلت ذلك وحمدت الله على أني ما خططت قلمًا ولا حرفًا يسوء للدولة العثمانية، وحصل ما حصل، والحمد لله على ذلك وفهمكم كفاية»[١].

تولى السلطان «محمد رشاد» زمام الخلافة إثر انقلاب «تركيا الفتاة» وإقصاء السلطان عبدالحميد، بدأ الاتحاديون بالاتجاه بالبلاد نحو الغرب، ويحكمون البلاد حكمًا مطلقًا وافتعال ما من شأنه توسيع الشقة بين الأتراك والعرب. وبعد قيام حزب «تركيا الفتاة» قامت الدول الاستعمارية بعقد مؤتمر في لندن عام (١٩٠٧م) للمحافظة على أماكن نفوذها وتأمين مستعمراتها التي امتدت في قارة آسيا وإفريقيا. «وقام «هنري كامبل باترمان» رئيس وزراء بريطانيا بدعوة الدول الاستعمارية للبحث عن وسائل من شأنها أن تحول دون سقوط الاستعمار الأوروبي وانهياره أو تؤخر مصيره».

واجتمعت لجنة من كبار الأساتذة في شتى المجالات من تلك الدول، وبعد دراسات توصل المؤتمرون إلى أن منطقة البحر المتوسط هي مصدر الخطر الذي يهدد الإمبراطوريات الاستعمارية باعتبار البحر المتوسط همزة الوصل بين الشرق والغرب، وفي حوضه نشأت الملك والشرائع حيث العالم العربي الممتد بين الرباط وأطنه، كما تضم برزخ السويس حلقة الوصل بين آسيا وإفريقيا وقناة السويس، وشريان الحياة لأوروبا. وهذه المنطقة تضم شعبًا واحدًا تتوافر له وحدة التاريخ والآمال وجميع مقومات التجمع والترابط والاتحاد كما تتوافر له أسباب القوة نتيجة لثرواته الطبيعية والعددية.

وبعد هذه الدراسة طرح المؤتمرون على أنفسهم التساؤلات التالية، وهي: كيف يمكن أن يكون وضع هذه المنطقة العربية إذا توحدت أمال شعوبها وأهدافها، وإذا اتخذت هذه القوة كلها اتجاها واحدًا؟ وماذا تكون النتيجة حين تدخل الوسائل الفنية

---

(١) المخططات التلمودية في غزو الفكر الإسلامي ص أنور الجندي ١٠١، ١٠٢، ط دار الاعتصام/ ١٩٧٧م.

الحديثة إلى هذه المنطقة؟ وماذا يحدث لو انتشر التعليم وعمت الثقافة أوساط هذا الشعب، وتحررت هذه المنطقة، واستغلت ثرواتها الطبيعية لصالحهم؟

أجاب التقرير: أنه عند ذلك ستحل الضربة القاضية بالإمبراطوريات الاستعمارية، وعندها ستتبخر أحلام الاستعمار ويضمحل وينهار.

ثم انتقل التقرير إلى بحث الوسائل لدرء هذا الخطر المحتمل على الاستعمار. فطرح المجتمعون توصية لدرء هذا الخطر، وذلك بالعمل على فصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي، «واقترح لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا وإفريقيا ويربطهما معًا بالبحر المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة»(١).

ومن هذا التقرير يرى الباحث أنه قد رسخ في ذهن خبراء أوروبا مجتمعين فكرة سلخ فلسطين عن الوطن العربي لاستمرار الاستعمار في المنطقة العربية وفي العالم، وعلى أساس هذا التقرير سارت السياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط.

وبعد المؤتمر اتجهت السياسة الدولية لدول الاستعمار من المسألة الشرقية إلى المسألة العربية والشرق الأوسط، وهكذا توحدت أهداف الاستعمار والصهيونية بعد أن ساعدت الصهيونية الاستعمار في القضاء على السلطان عبدالحميد، وتحققت أغراض الدول الاستعمارية تجاه المسألة الشرقية، وبقي على الأخيرة تحقيق أغراض الصهيونية، وعلى هذا الأساس سارت السياسة الدولية لتحقيق حلم اليهود.

وقد هيأ حزب «تركيا الفتاة» الطريق لذلك، «فقد أقام أعضاء «الاتحاد والترقي» حكمهم في الدولة العثمانية على أساس قومي علماني، فقد بذلوا كل جهدهم لإحياء العصبية القومية، وبرزت فكرة التركية والاعتزاز بالأصل التركي، وعملوا على صبغ الدولة كلها بالصبغة التركية، كما عملوا على محو العصبيات والأجناس الأخرى بسلطان الإرادة والإكراه، وكان إحياء التركية وظهور العصبية الذميمة لها أحد

---

(١) انظر النص الكامل لهذا المخطط في سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، ج١/١١٢-١١٦، وانظر مجلة: الوعي الإسلامي عدد (١٣٠) سنة ١٩٧٦م. وثيقة رقم: (٣).

العوامل القوية التي أدت إلى التعجيل بظهور قوميات أخرى تدعو إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية، فكانت الأمة العربية منذ ظهور هذه السياسة تعمل لاستقلالها»(١).

وكان الحلفاء وفي مقدمتهم إنجلترا يسعون لضم أنصار لهم، فوجدوا في هذا الشقاق فرصتهم السانحة، وكان «الشريف حسين» في مكة على خلاف مع الحكومة التركية «فاتصل الإنجليز بالأمير «عبدالله ابن الشريف الحسين» عن طريق اللورد «كنشن»، ثم كان الاتصال مع الشريف «حسين» عن طريق السير «مكماهون» في مصر وقد تبودلت الرسائل بينهما، وتضمنت رسائل الشريف «حسين» مطالب العرب، وهي تتلخص في استقلالهم ووحدتهم، وذلك بإنشاء دولة عربية متحدة تشمل جزيرة العرب والشام بما فيه فلسطين والعراق، وينادى به ملكًا عليها، وكان رد إنجلترا الموافقة، وقدمت تعهدات لا قيمة لها، وكان ذلك عام ١٩١٤م»(٢).

وقد قامت الحرب العالمية الأولى بسبب اشتداد حدة التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية من أجل التنافس على المستعمرات(٣). وقامت هذه الحرب بين ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا، وانضمت إليها تركيا والحلفاء إنجلترا وفرنسا وروسيا، وانضمت إليها إيطاليا واليابان، ودخلت البلاد العربية إلى جانب الحلفاء أملاً في تحقيق الاستقلال، وكانت هذه الحرب وبالاً على البشرية؛ إذ راح ضحيتها حوالي ١٥ مليونًا من البشر ما بين قتيل وجريح ومشوه. واستمرت الحرب أربع سنوات (١٩١٤-١٩١٨) تكبدت البلاد العربية فيها الخسائر في الأموال والأرواح لمساعدة إنجلترا أملاً في الحصول على الاستقلال، وظلوا حتى نهاية الحرب يواجهون الأتراك حتى أجلوهم عن الشام، حتى انتهت الحرب بانتصار الحلفاء وهزيمة دول المحور وتركيا(٤).

وكانت المفاجأة المتوقعة من إنجلترا وفرنسا وروسيا للعرب في أثناء الحرب أن عقدت تلك الدول اتفاقًا فيما بينها لتوزيع مناطق الدولة العثمانية والولايات العربية

---

(١) الشرق الأوسط في العصر الحديث ص ١٨٧، وانظر مجلة ص الأمة القطرية العدد ٤ ص ٩٠ .

(٢) انظر السابق ص ١٩٩ والآخر نفسه .

(٣) العلاقات الدولية في العصور الحديثة ص ١٣٥ .

(٤) انظر تفاصيل الحرب في: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ج٢/ ١٦٣ إلى ١٩٣، وانظر موقف الدول العربية في: موسوعة التاريخ الإسلامي ج٥/ ٩٤١ .

لهذه الدول الثلاث تمهيدًا لاحتلالها بعد الحرب، فقد عقد اتفاقية «سان بطرسبرج» من أبريل إلى أكتوبر عام (١٩١٦) ووزعت الدول ممتلكات الدولة العثمانية على النحو التالي: «العراق وفلسطين وسواحل الجزيرة العربية الشرقية والجنوبية إلى جانب مصر لبريطانيا، وسوريا ولبنان من نصيب فرنسا، وبالنسبة لروسيا خصص لها الآستانة وساحل ومضيق «البسفور» وشطر كبير من شرق الأناضول والولايات المجاورة للحدود الروسية»[(١)]. وبعد هذه المعاهدة اجتمع «سايكس وبيكو» وزيرا خارجية كل من إنجلترا وفرنسا لوضع اتفاق تفصيلي حول منطقة نفوذ كل منهما، وكانت هذه الاتفاقية عام (١٣٣٥هـ - ١٩١٦م)[(٢)].

وهكذا تمت المؤامرة الصليبية على البلاد العربية وأملاك الدولة العثمانية، وأصبحت كلها مناطق احتلال لتجري بعد ذلك عمليات التغريب وإحلال الحضارة الغربية[(٣)] محل الحضارة الإسلامية التي حكمت تلك البلاد ثلاثة عشر قرنًا من الزمان. وكان أخطر ما في هذا الاتفاق: هو التآمر مع اليهود، إمعانًا في النفاق والخبث والخداع ونقض العهود التي قطعتها إنجلترا على نفسها مع «الشريف حسين» الذي أعلن موافقته على موالاة إنجلترا حيث كان يعتقد أن الإنجليز قوم شرفاء في أقوالهم وأفعالهم في السراء والضراء.

والحقيقة أن أطماع الرجل وأهواءه دفعته للتعاون حتى ولو مع الشياطين للوصول إلى هدفه الذي كان يحلم به، فكانت أحلامه نكبة على الإسلام والأمة العربية إلى هذا اليوم الذي نعيشه. ولقد صدق الله العظيم حين قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[(٤)]، ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾[(٥)]. ولكن يتناسون هذا البأس إذا كانت المسألة تتعلق بالإسلام والمسلمين.

وهذا ما حدث فقد تآمرت إنجلترا مع اليهود على الإسلام والمسلمين من أجل المحافظة على نفوذها وضمان طول عمر مستعمراتها وتنفيذ توصيات مؤتمر بانرمان

(١) انظر الدولة العثمانية ج/١/ ٢٣٤، ٢٣٥، والعثمانيون والروس ١٧٦ .

(٢) انظر: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ج١/ ١٧٨ .

(٣) سوف نتحدث عن ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب .

(٤) سورة المائدة: اللية ٨٢ .

(٥) سورة الحشر: الآية ١٤ .

السابق ذكره ومكافأة «وايزمان»[(١)]، فأعطت لليهود وعدًا بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وذلك في خطاب أرسله «آرثر جيمس» بلفور» وزير خارجية بريطانيا إلى «لورد ولتر روتشيلد» في ٢ نوفمبر ١٩١٧م الموافق ١٣٣٦هـ[(٢)]. ولما علم بذلك «الشريف حسين»، طلب توضيحًا من الحكومة البريطانية، أرسلت له رئيس مكتبها في القاهرة «دافيد جورج هوغارت» ليؤكد له أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحًا به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. ويخدع «الشريف حسين» مرة أخرى، ويكتب في «جريدة القبلة» رسالة إلى أهل فلسطين يوصيهم بالقيام بواجب الضيافة والتسامح، ويحضهم على الترحيب باليهود وعلى التعاون معهم في سبيل الصالح المشترك[(٣)].

وهكذا أنهى الاتحاديون والشريف حسين القضية الإسلامية من الوجود إلى غير رجعة، وأصبح المسلمون بعدها حزمة أرقام يمكن جمعها بحسب ما تقضيه السياسة الدولية.

وقد وضعت الوثائق السابقة وما تم فيها من مؤامرات أثناء الحرب وقت كان الجيش العربي يقاتل العثمانيين إلى جانب الجيش الإنجليزي بقيادة «اللنبي» الذي دخل القدس وقال قولته المشهورة: «اليوم انتهت الحروب الصليبية». حقًّا إنها انتهت لأن التركة قد وزعت بعد انتهاء الحرب.

وقد أثارت هذه المؤامرات الشعوب العربية؛ فقامت الثورات في مختلف البلدان العربية تطالب بالاستقلال تطبيقًا لوعود الحلفاء فقامت ثورة ١٩١٩م في مصر، وتألفت الجمعيات السرية في الشام والعراق مثل: «العربية الفتاة»، «والعهد والإصلاح»، وأعلنت إنجلترا تأييدها لتلك الحركات، ولكن كلها وعود وأماني لم تتحقق. ومضى الاستعمار في تنفيذ ما اتفق عليه «سايكس بيكو» عام (١٩١٩) وتم احتلال سوريا ولبنان من جانب فرنسا بعد تسريح فيصل «ابن الشريف حسين» لجيشه، وكانت المقاومة الوطنية بقيادة يوسف العظمة لمواجهة الجيش الفرنسي، ولم

---

(١) القصة كاملة في المخططات التلموذية فى غزو الفكر الإسلامى ص ٢٠٥، ١٠٦ .

(٢) الشرق الأوسط في العصر الحديث ص ٢٠١ .

(٣) مجلة الأمة القطرية (٤) ص ٩١ من مفكرة القرن العشرين .

تكن المقاومة على استعداد للقتال، وتقابلوا مع الجيش الفرنسي في «ميسلون ١٩٢٠» ففتك بهم الجيش الفرنسي فتكًا ذريعًا ثم احتل الفرنسيون دمشق وأمر فيصل بالرحيل عن البلاد فلم يملك إلا الرحيل(١).

وهكذا وجدت الأمة العربية - بعد الحرب - أنها قسمت إلى منطقتين:

- منطقة احتلال فرنسي، وتشمل سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب العربي.

- ومنطقة احتلال إنجليزي، وتشمل العراق والأردن وفلسطين ومصر. أما ليبيا فكانت تحت الاستعمار الإيطالي. وهكذا صارت الشعوب العربية الإسلامية مستعبدة، فقدت في ظل الاحتلال كل كرامة إنسانية، وعمل الاستعمار خلالها على تغيير البنيان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بما يتوافق مع حضارته العنصرية المادية الكافرة، واستمر هذا الصراع إلى اليوم؛ وإن كان الاستعمار قد رحل إلى بلاده، فإنه يتحكم فينا من خلال طريقين:

الأول: عن طريق المنظمات الدولية التي صنعها بيده: منظمة الأمم المتحدة، أداة الاستعمار التي يدير الصراع عن طريقها كما كان يديره عن طريق عصبة الأمم، والاثنتان من صنع الاستعمار والصهيونية لتحقيق أغراضها.

فبعض الأمم التي أنشئت عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٨م) لم يكن إنشاؤها عفويًا وإنما كان واردًا في تخطيط اليهود منذ أوائل هذا القرن، فقد أورد اليهودي ليتمان روزنتال في كتابه «عندما يتحدث الأنبياء» أن اليهودي «ماكس موردو» قال في المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد سنة (١٩٠٣): «سوف يدعى قريبًا إلى مؤتمر عالمي. ودعوني أقول لكم هذه الكلمات كما لو كنت أريكم دعائم السلم الذي يقودنا إلى العلا. هرتزل، المؤتمر الصهيوني والحرب العالمية المقبلة، مؤتمر الصلح، حيث تخلق بمساعدة بريطانيا فلسطين اليهودية الحرة»، وفي محاضر مؤتمر المحافل الماسونية العالمية المنعقد في ٢٨، ٢٩، ١٩١٧/٦/٣٠ أي: قبل أن يفكر أحد في تأسيس عصبة

---

(١) انظر: الشرق الأوسط ص ٢١٠-٢١٦ .

الأمم من غير اليهود، «إنه لمهم جدًا أن تبنى مدينة المستقبل السعيدة، ومن أجل تلك المهمة الماسونية دعيتم اليوم، لقد حولنا هذه الحرب إلى نزاع رهيب بين الديمقراطيات المنظمة والقوى العسكرية الجبارة. لقد تحطمت في هذا الإعصار القوى القديمة - القياصرة - ولسوف تجرف رياح الحرية بقية الحكومات، فلا مندوحة إذن من خلق سلطة عالمية عليا، وإن الماسونية صانعة السلام تطرح على بساط البحث موضوع هذه الهيئة الجديدة عصبة الأمم»(١).

ويقول الزعيم الصهيوني ناحوم «سوكولوف» أمام مؤتمر «كارلسباد» الصهيوني المنعقد في ٢٧/ ١٩٢٢ معترفًا بالدور اليهودي الماسوني من وراء إنشاء هذه العصبة، فيقول: «إن عصبة الأمم هي فكرة اليهودية. لقد خلقناها بعد كفاح دام خمسة وعشرين عامًا». فهذه أقوال اليهود أنفسهم عن عصبة الأمم قبل وبعد تأسيسها(٢).

وفي عام (١٩٢٠) اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى في «سان ريمو»، وأقروا مشروع صك الانتداب البريطاني على فلسطين، وقد نجح اليهود في وضع صيغة صك الانتداب بأنفسهم، وقد تضمن النقاط التالية «أن توضع فلسطين في ظروف إدارية وسياسية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي، وأن تشجع حكومة الانتداب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإسكان اليهود في الأراضي الفلسطينية، وأن تعتمد الحكومة تشكيل وكالة يهودية ترعى شؤون اليهود في فلسطين وفي إنحاء العالم وتشرف على بناء الوطن القومي اليهودي»(٣).

صدر قرار عصبة الأمم في عام (١٩٢٢) بتعيين بريطانيا حارسًا على فلسطين(٤).
وإذا كانت عصبة الأمم يهودية، فإن الأمم المتحدة يهودية أيضًا، خطط لها اليهود، وليس أدل على ذلك: من أن المنظمة بعد تأسيسها بعامين أصدرت قرارًا في ٢٩

---

(١) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ٢١٣، ٢١٤، ط المكتب الإسلامي ١٩٧٩م.

(٢) الماسونية ص ٣٥٥ .

(٣) سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ج١/ ٤٣٤، ٤٣٥ باختصار . وانظر: خطر اليهودية العالمية ص٢٤٠ .

(٤) الماسونية ص ٣٥٥ .

نوفمبر عام (١٩٤٧م» يقضي بتقسيم فلسطين، ووضع القدس تحت وصاية دولية[١].

ويقول «سليمان ناجي» صاحب كتاب «التحركات اليهودية عبر التاريخ»: «إن أكثر ممثلي الدول في هذه الجمعية عند إنشائها كانوا من الصهاينة أو الماسونيين الضالعين معهم؛ ولذا كانت منذ البداية كأنها المجلس الصهيوني الأعلى المكلف بحماية المصالح اليهودية»[٢].

ولذلك نجد أن رؤساء الأقسام في الأمم المتحدة و٦٠٪ من موظفيها يهود، ففي مكتب السكرتارية وهو أهم شعبة فيها كل رؤساء الأقسام من اليهود.

- الدكتور راجح أس بلوك. رئيس قسم التسليح يهودي.
- أنتوني كولاك. رئيس قسم الأمور الاقتصادية يهودي.
- الدكتور شيكوريل. رئيس حقوق الإنسان يهودي.
- مرسيدس بركمن رئيس شؤون العاملين يهودي.
- دافيد وتسراوب رئيس الميزانية يهودي.

وباقي الشّعب أغلب موظفيها من اليهود[٣].

وبعد هذا البيان ثبت يهودية التنظيم الدولي واستعماريته، وما هو إلا وسيلة استعمارية جديدة في ثوب جديد، تقود دفة الصراع الحضاري لصالح الاستعمار والصهيونية، ضد إسلام المسلمين تصدر القرارات حينما يريد الاستعمار، ويقوم مجلس الأمن أقصد مجلس المستعمرين الدولي بتنفيذ القرارات التي من شأنها السيطرة على مقدرات الشعوب باسم السلام والشرعية الدولية.

أما الطريق الثاني للاستعمار هو: أسلوب الولايات المتحدة وريثة الاستعمار الإنجليزي والفرنسي في المنطقة، العربية وهدف الاستعمار واحد لم يتغير، ولكن أمريكا غيرت الأسلوب والتكنيك، «ومارست بمهارة ما يسمى بلعبة الأمم تحقيقًا

---

(١) السابق ص ٣٦١ .

(٢) الماسونية في المنطقة ص ٦١ نقلًا عن: النفوذ اليهودي في المؤسسات الدولية/ فؤاد بن سيد عبدالرحمن الرفاعي/ ١٠١، ط الكويت .

(٣) أسرار الماسونية ص ٤٦ .

لأهدافها، وكان أهم أساليبها، الانقلابات العسكرية التي تصنع عن طريقها البطل أو الزعيم الذي تتعلق به آمال الأمة، فيمتص بذلك ما يمور في باطنها وما كان يمكن أن يؤدي إلى ثورة في غير صالحها، وينحرف بهذه القوة بالشعوب عن أهدافها التي تتحقق فيها مصالح الغرب»[١].

وبهذه الخطة استبدل الاستعمار بالرجل الأجنبي رجلاً محليًا يتكلم بلسانه ويبطش بيده ويمشي على طريقته وأهدافه. ومن أمثلة ذلك ما حدث في تركيا عام (١٣٢٦هـ - ١٩٢٨م) على أيدي «الاتحاد والترقي» وفي كل بلد من بلدان العالم العربي والإسلامي فالقيادات تؤمن بفكر الغرب وحضارته، وتعمل على نشره، وتقوم على حراسته، وهذا هو الأسلوب الجديد للاستعمار في صراعه الحضاري مع الإسلام، حيث وفر هذا الأسلوب على الاستعمار الدماء والأموال التي كانت تبذل في محاولات الاستعمار. كذلك منعت إثارة المشاعر الدينية التي كانت تتحرك حين يرى الشعب الجيوش الأجنبية قادمة، واستطاع هذا الأسلوب أن يقضي على كل معارضة.

والاستعمار يفضل الذي يقوم بالدور أن يكون عسكريًا؛ لأنه أسرع في تلبية الأوامر وأكثر شغفًا بالسلطة. وأغلب القيادات العسكرية أعدت أعدادًا خاصًا يجعلها علمانية وغربية، ويمنع في الوقت نفسه من تقدم عناصر دينية، فالذي يقود دفة الصراع ضد الإسلام اليوم رجل من بني جلدتنا يتكلم بلساننا، وقد صدق الرسول ﷺ حين سأله أبو حذيفة قال: قلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم. وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: **«قوم يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر»**. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم؛ من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: **هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»**. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك. قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **«فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت**

---

(١) أساليب الغزو الفكري/ على جريشه، محمد الزيبق ص ٤٨ط الاعتصام، مرجع سابق .

على ذلك»[١].

ولقد تولت القيادات الجديدة زمام الأمور في الأمة لتنفيذ السياسة الغربية في البلاد الإسلامية، وذلك عن طريق استيراد النظم الاستعمارية وتطبيقها في مجالات الحياة المختلفة؛ لإبعاد الإسلام عن مجال التوجيه، وتولوا هم الإشراف على عمليات التغريب وفرض العلمانية وإحلالها محل الدين، وهذا ما سنراه على صفحات الفصلين القادمين.



(١) الحديث أخرجه البخاري (ك) الفتن (ب) كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ج ٨٠٨٤، فتح ج١٣/ ٣٥ .

الفصل الثاني
الصراع الاقتصادي

لقد كان الهدف الأول من الصراع بين الشرق والغرب هدفًا اقتصاديًا بالدرجة الأولى، ثم تلاه الأهداف الأخرى السياسية والدينية وغيرها؛ ذلك لأن الدافع الأول الذي ولد الأطماع الأوروبية في البلاد الشرقية هو دافع يتعلق بالبيئة الأوروبية؛ لأن «معظم شعوب أوروبا أثناء العصور الوسطى لا تعرف كيف تغذي قطعان حيواناتها في فصل الشتاء حيث يشتد البرد وتغطي الثلوج مراعيها.

ولذلك كانت تضطر لأن تذبح قسمًا كبيرًا من هذه الحيوانات في فصل الخريف، وتقوم بتمليحها وتجفيف لحومها، وكانت هذه اللحوم هي غذاءها في فصل الشتاء، وكانت تتناولها على مضض في كل يوم وفي كل وجبة من وجبات طعامها فيه، والسعيد من أبنائها من كان يحصل على بعض أنواع التوابل ويضيفها إليها ليجعل مذاقها مقبولاً، والتوابل تنمو في بعض جهات المنطقة الحارة وعلى الأخص في جزر الهند الشرقية والهولندية، وكان التجار المسلمون يسيطرون على تجارتها وغيرها من السلع الشرقية، وينقلونها إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط، ويبيعونها للتجار من جنوة والبندقية. وكان هؤلاء ينقلونها ويبيعونها إلى شعوب وسط أوروبا وغربها، واستمرت هذه الحال كذلك حتى قام الإسبانيون والبرتغاليون في شبه جزيرة أيبريا يحررون بلادهم من المسلمين. وعندما بدا لهم تفوقهم عليهم أخذوا يعملون على مناهضة مصالحهم القائمة في جهات أخرى من العالم وعلى الأخص المصالح التجارية»[١].

وبدافع من هذا الطمع انطلق الاستعمار الأوروبي إلى استعمار البلاد الإسلامية،

---

(١) الأطماع الاستعمارية في الشرق الأوسط/ إبراهيم شريف ص٢٤، ٢٥، سلسلة كتب تصدرها منظمة الشباب- الكتاب الثاني .

فكانت الكشوف الجغرافية الأسبانية والبرتغالية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي[١]، ثم كانت القوى الأوروبية التي نشطت في هذا المجال الاستعماري، واشتدت المنافسة بينهما في إحراز السبق على استعمار تلك المناطق الإسلامية (في آسيا وإفريقيا) وكان التنازع بين بريطانيا وهولندا وفرنسا، وبعد ذلك ظهرت روسيا وأمريكا في منتصف القرن التاسع عشر.

وحين توجهت أنظار الأوروبيين لتلك البلاد الغنية بالموارد الطبيعية، كانت الطرق المؤدية إليها طرقًا ثلاثة- بعد احتكار البرتغاليين للساحل الجنوبي لإفريقيا وآسيا إلى الهند الشرقية، والأسبانيون بسواحل المحيط الأطلسي غربًا إلى جزر «البهاما» وغيرها التي أطلق عليها فيما بعد جزر الهند الغربية- هذه الطرق هي: الطريق الجنوبي وهو مزدوج، إذ يتضمن طريقًا مائيًا في البحر الأحمر كما يتضمن طريقًا آخر بريًا يمتد خلال المرتفعات الغربية بالجزيرة العربية بين مدن وموانى ساحل «حضرموت» من جهة، وبين «غزة» والموانى الأخرى على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط. والطريق الثاني في الخليج العربي وخلال العراق وسوريا إلى موانى الساحل الشرقي للبحر المتوسط يصعد أحد طرفيه وادي الفرات إلى بيروت، والطرف الثاني من وادي دجلة إلى «انطاكيه» والإسكندرية مارًا بحلب. والطريق الثالث طريق شمالي يبدأ من شمال الصين إلى هضاب وسط آسيا وسهولها الغربية، وله ثلاثة فروع: الفرع الشمالي منها يستمر خلال الممر الواقع بين بحر «قزوين» وبين الطرف الجنوبي لجبال «الأورال» إلى شرق أوروبا ووسطها. وأما الفرعان الآخران، فيعبران معًا بحر «قزوين» إلى «باكو»، ومنها يسلك أحدهما الممر الواقع بين جبال «القوقاز» وبين مرتفعات هضبة «أرمينيا» إلى بوقي «وباطوم» على الساحل الجنوبي للبحر الأسود. أما الفرع الثالث فإنه يصعد من «باكو» في وادي نهر «آرس» مجتازًا هضبة «أرمينيا» إلى «أرضوم»، ومنها ينزل في وادي الفرات خلال شرقي هضبة «الأناضول» ثم خلال ممر في جبال «طورس» إلى «سيراس»، ومنها خلال وسط هضبة «الأناضول» إلى «إستانبول» ومنطقة بالمضايق. (انظر خريطة رقم (١) للتوضيح).

(١) انظر تفاصيل عن أهداف حركة الكشوف الجغرافية في الفصل السابق.

وكان الطريقان - الأول والثاني - من هذه الطرق - وكذلك الفرعان الأخيران من الطريق الثالث في يد الدولة العثمانية التي كانت في أوج عظمتها واتساعها، والقسم الشرقي من الطريق الثالث والفرع الأول له كانت تسيطر عليهما قبائل تابعة للدولة العثمانية والمغول، بسبب هذه الظروف البشرية التي حالت دون وصول القوى الأوروبية إلى مصادر هذه التجارة إلى جانب فشلها في الوصول إليها عن طريق المحيط المتجمد الشمالي.

كل هذه الظروف اضطرت القوى الأوروبية إلى الاتجاه إلى الدولة العثمانية لعقد معاهدات تجارية معها.

فكانت فرنسا أسبق الدول الأوروبية إلى هذه المعاهدات فعقدت معاهدة (٩٤٢) هجرية الموافقة لعام (١٥٣٦ ميلادية). «كما عهدت انجلترا معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية في عهد السلطان «مراد الثالث» عام (٩٨٩هـ الموافق عام ١٥٨٣م) وعلى أساس هذه الاتفاقية أسست انجلترا شركة الليفانت، ومارست إنجلترا من خلالها اختصاصات تجارية واسعة داخل أراضي الدولة العثمانية[١]، وفي عام (١٦٧٥م الموافق ١٠٨١هـ) عقدت معاهدة تجارية أخرى بين الدولتين عرفت باسم «المعاهدة النهائية» للامتيازات بين الإمبراطورية العثمانية وإنجلترا حيث جددت فيها الامتيازات التي سبق منحها.

ولم يحدث بعد هذه المعاهدة شيء يذكر بين الدولتين حتى عام (١٨٠٩) حين نجحت إنجلترا في استمالة الدولة العثمانية إليها بعد فترة حروب وجفاء بينهما. واستطاعت أن تعقد معاهدة الدرنيل التي نصت على سريان المعاهدات والاتفاقيات التي سبق عقدها بين الدولتين فيما يختص بنظام الامتيازات الأجنبية التجارية في البحر الأسود[٢]، وفي أثناء الامتيازات - التي منحتها الدولة العثمانية لإنجلترا وفرنسا استطاعت كلتا الدولتين أن تضعا أقدامها في الهند، وتأسسا شركات تجارية

---

(١) الأطماع الاستعمارية في الشرق الأوسط ص ٢٨، وانظر تفاصيل المعاهدة في: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج١ /٨، ٧ مرجع سابق.

(٢) انظر الدولة العثمانية دولة إسلامية ج١/ ٢١٧، ج٢/ ٧١٩.

لنقل البضائع إلى أوروبا، وقد وقعت صدامات بين كلتا الدولتين انتهت بانتصار إنجلترا وطرد فرنسا من الهند. واتجهت سياسة إنجلترا إلى المحافظة على أملاكها في الهند وكذلك اتجهت سياسة فرنسا لقطع طريق إنجلترا إلى الهند، وكانت الدولة العثمانية هي الطريق لتحقيق سياسة كل منهما وأطماعه، وخاصة بعد قيام الثورة الصناعية عام (١٧٦٩م) فقامت فرنسا بحملتها على مصر عام (١٧٩٨)[١] وقام «نابليون» بعدة خطط[٢] لطرد الإنجليز من الهند عن طريق بلاد الشرق الأوسط، ولكنها باءت بالفشل، إلا أنه - بهذه الخطط - وضح أمام الإنجليز أهمية منطقة الشرق الأوسط، وجعلهم يدركون أن الدولة العثمانية - التي تمتد بين «الإدرياتيك والكربات» وبين خليج فارس والمحيط الهندي في آسيا - تقف في وجه المواصلات بين الشرق والغرب لما تحتويه أرضها من الطرق الرئيسية منذ أقدم العصور، كما تتضمن كثيرًا من المراكز الإستراتيجية على هذه الطرق وعند منافذها نحو الشرق ونحو الغرب «القسطنطينية» وأزمير، والإسكندرونه، وبيروت، وحيفا، والإسكندرية، وبغداد، وعدن، وغيرها، وكل هذه المقومات جعلت لها قيمة إستراتيجية وأهمية اقتصادية- أدركتها إنجلترا وغيرها من الدول الاستعمارية، فأصبحت هذه البلاد موضع جشع الدول الاستعمارية وأطماعها»[٣].

وقد زادت أطماع هذه القوى الأوروبية فيها عندما عرف أن أراضيها تحتوي على مصادر كبيرة لبعض المواد الأساسية اللازمة للصناعة، كما أنها ميدان لاستغلال رؤوس الأموال الأجنبية، «فقد كان الاعتقاد قائمًا في ذهن الدول الاستعمارية بأن إقامة مشاريع الري في سهول العراق وفي سهول «كيلكية» ستمكن من تغذية المصانع الأوروبية بما تحتاج إليه من المواد الغذائية؛ ولذا يقول كاتب ألماني: إذا تحققت الجهود

(١) انظر الفصل السابق للوقوف على هذه الأهداف والتفاصيل .

(٢) بعد حملته على مصر قام بالاتصال بقيصر روسيا، واتفق معه على أن يرسل كل منهما جيشًا لطرد الإنجليز من الهند، ولكن الاتفاق لم يتم بسبب موت قيصر روسيا، ثم اتصل بشاه فارس وعقد معه معاهدة فنكشتين، ووافق الشاه على ضم جيشه إلى نابليون عند قدومه لغزو الهند، ولكنه فشل أيضًا، وعقد اتفاقًا آخر مع روسيا في معاهدة «تلست»، وتضمنت وضع خطة لغزو الهند، ولكنها فشلت .

(٣) انظر: الأطماع الاستعمارية ص ٦٢، ٦٣ باختصار شديد .

المتعلقة بمشاريع الري وخط سكة حديد بغداد، فإن البلاد التركية تستطيع أن تصدر من الحبوب بقدر ما تصدره روسيا»[١].

ولهذه الأهمية الكبرى - لتلك المناطق العربية والإسلامية والتي عرفها العالم منذ القدم سعت الدول الاستعمارية منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى عقد معاهدات تجارية مع تلك الدول لنقل البضائع والحبوب، وتحولت هذه المعاهدات إلى استعمار كما فعلت هولندا وفرنسا وإنجلترا في الهند الإسلامية من عام (١٦٠٠) حيث احتكروا التجارة في تلك البلاد لنقل البضائع إلى أوروبا، بل أجبروا الأهالي على زراعة ما تحتاج إليه من نباتات، وتحول التاجر إلى مشرف على الإنتاج، واستخدم الجيوش لتنفيذ مخططاته، وذلك إبان ضعف الإسلام في الهند[٢].

وكانت العلاقة الاقتصادية بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية مقتصرة على استيرادها السلع الشرقية من الأقمشة والتوابل وغيرها مقابل دفع ثمنها للدولة الإسلامية من الذهب؛ لأن البلاد الغربية لم يكن لديها سلع أو منتجات تتبادلها مع الدول الإسلامية حتى قل مخزون الذهب لانعدام أي منتجات تصلح لتعديل الميزان التجاري الدائم العجز وانعدام مناجم الذهب التي يمكن أن تغذي خزانة الدول الأوروبية بالذهب الذي يأخذه الشرق مقابل السلع[٣]. وكانت لاستفادة الدول الأوروبية من حركات الإصلاح الديني والتحرر الفكري أثره في قيام الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. تلك الثورة التي غيرت الأوضاع العالمية، فدفعت الدول الأوروبية الرأسمالية إلى تغيير سياستها الاستعمارية، «فبدأت في تطويع وتكييف المناطق المسيطرة، عليها لكي تتمشى مع حاجاتها المتغيرة الجديدة لتطوير الرأسمالية الصناعية فلم، تعد حاجة الدول قاصرة على السكر والدخان والبن والتوابل، بل اتسعت هذه الحاجة لتشمل المواد الخام التي تلزم

---

(١) السابق ص ٦٤ .

(٢) الاستعمار والاستغلال والتخلف/ د. جلال يحيى ص ٢٨٣-٢٩٧، ط الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥م، وموسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية ج٨ .

(٣) التاريخ النقدي للتخلف/ رمزي زكي/ ١٧ عالم المعرفة ص ١١٨ ج١ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت .

للصناعة والمواد الغذائية التي يحتاج إليها سكان المدن الصناعية»[١].

ونتيجة للتحول الصناعي تنافست الدول الأوروبية على استعمار الدول العربية والإسلامية لتغطية حاجاتها من المواد الأولية اللازمة لتشغيل مصانعها.

وبسبب شدة التنافس الاستعماري والتنازع بين الدول على مناطق التطور عقد مؤتمر برلين عام (١٨٨٤-١٨٨٥) لتوزيع مناطق النفوذ بين الدول الاستعمارية، «حيث تم تقسيم العالم جغرافيًا إلى مناطق نفوذ تخضع لسيطرة الدول الأوروبية، وفي مدة ربع قرن غمر الاستعمار كل القارة الإفريقية، وأصبحت ثلث مساحتها لفرنسا وثلث آخر يخضع لإنجلترا، والثلث الباقي موزع بين بلجيكا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال إلى جانب المستعمرات في آسيا، وهكذا استطاعت سبع دول أن تتحكم في مصير ٦٧% من إجمالي سكان العالم، وتسيطر على ٨٥% من إجمالي مساحة الكرة الأرضية[٢].

لقد كان التحكم الاستعماري مباشرًا على ٩٠% من إجمالي قارة إفريقيا، و٥٧% من إجمالي قارة آسيا، وكانت دولة استعمارية واحدة هي إنجلترا تتحكم فيما مجموعه ثلاثة وثلاثون مليون متر مربع عن مساحة الكرة الأرضية؛ أي: مائة ضعف إجمالي مساحة بريطانيا نفسها، كما كانت تسيطر على ٣٥٣ مليون نسمة من سكان العالم؛ أي: أن كل مواطن بريطاني كان يستعمر ويستعبد تسعة أشخاص من سكان المستعمرات التابعة لبريطانيا في إفريقيا وآسيا والهند[٣].

ولقد اعتمدت الدول الأوروبية الاستعمارية[٤] في تحقيق أهدافها الاقتصادية من الاستعمار على تفوقها التكنولوجي، واستفادت أشد الاستفادة من تقنيات الأسلحة الجديدة لغزو الدول الإسلامية والعربية في آسيا وإفريقيا، وكانت تستعمل البطش

(١) السابق ص٥٢ .

(٢) الإمبريالية من عصر الاستعمار إلى اليوم/ هاري ماجدوف ص ٤٤، ط بيروت ١٩٨١م.

(٣) انظر: التاريخ النقدي ص ٥٤ مرجع سابق، والاستعمار كظاهرة عالمية د. حربة مجاهد ص ١٠، ط عالم الكتب القاهرة ١٩٨٥م .

(٤) إلى جانب بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا واليابان .

العسكري لإخضاع الشعوب، كما لم تكن تتورع عن إبادة السكان إبادة جماعية، وفرض العمل الإجباري، وتحطيم الصناعات المحلية، واستعمال طرق التعذيب النفسية والعنصرية لتحطيم مقاومة الشعوب لتتمكن من استغلالها ونهب ثروتها.

وقد صدق «سارتر» أحد أفراد هذه الحضارة المادية العنصرية حينما عبر عن هذه السياسة فقال: «إنكم تعلمون حق العلم أننا مستغلون، وأننا سلبنا القارات الجديدة ذهبها ومعادنها وبترولها. وجئنا بذلك كله إلى بلادنا، وقد حصلنا من ذلك على نتائج رائعة: قصور وكاتدرائيات وعواصم صناعية، ثم حين كانت الأزمة تهددنا كانت وظيفة أسواق المستعمرات أن نزيلها، وأن نحول مجراها، وأتخمت أوروبا بالثروات، ومنحت صفة الإنسانية لجميع سكانها على السواء، فالإنسان في بلادنا شريك في الجريمة؛ لأننا جميعا أفدنا من استغلال المستعمرات»[1].

لقد نفذ الغرب سياسة الاستغلال بالقوة في فترة السيطرة الاستعمارية المباشرة، والتبعية الجديدة عن طريق المؤسسات الاقتصادية الدولية والنظام الرأسمالي العالمي.

الصراع الاقتصادي في فترة الهيمنة الاستعمارية المباشرة:

بعد قيام الثورة الصناعية في أوروبا تعددت مصادر الطاقة من البخار ثم الكهرباء، وظهرت الآلة، وانتشرت الرأسمالية، وازدهرت البرجوازية، وزادت الثروة، وأجبرت ظروف العمل كثيرًا من الأوروبيين أن يتحولوا إلى «بروليتاريا»، وهددتهم الأزمات الاقتصادية بالبطالة؛ كل هذه الأوضاع دفعت أوروبا إلى البحث عن أسواق جديدة لتصريف المنتجات من ناحية، والبحث عن المصادر الأولية اللازمة للصناعة من ناحية أخرى.

فهذه الأسباب هي التي دفعت حركة الاستعمار الغربي لاستعمار الدول الإسلامية في إفريقيا وآسيا وشبه القارة الهندية.

ففي الهند بدأت احتلالها عن طريق شركة الهند الشرقية التي أنشئت للتجارة مع أهل البلاد الأصليين، واستمرت قرنيين من الزمان حتى استطاعت بريطانيا احتلالها

---

(١) مجلة الأمة القطرية عدد (٦٨) ص ٨ شعبان ١٤٠٦هـ.

عام (١٨٥٨)، وحولت أسس الحكم من الإسلام إلى الوثنية بمساعدة «السيخ» بعد ثورة السلطان المسلم «بهادور» حفيد «تيمورلنك» وتسلم مقاليد الحكم فيها وزير بريطانيا.

بدأ الاستعمار البريطاني في نهب ثروات الهند، وذلك عن طريق القضاء على الصناعة المحلية، «فقد كانت الهند تصدر القطن إلى «مانشستر» أثناء الحرب الأهلية الأمريكية وبعد الثورة الأمريكية تضاعفت تجارة الهند الخارجية، في مدة عشرين سنة، وكانت الهند تصدر كذلك القمح والشاي، وتضاعفت تجارتها خمس مرات في مدة خمسين سنة، وصناعة الغزل والنسيج في الهند التي كانت تنافس إنجلترا لم تجد المواد الخام الكافية لكي تستمر في المنافسة بسبب السياسة الاستعمارية، . وزاد شعب الهند من ١٣٠ إلى ٣٠٠ مليون في مدة قرن واحد من الحكم البريطاني.

وأصبحت المشكلة هي: إيجاد الطعام الكافي لتلك الأفواه المتزايدة في الهند رغم انتشار الطرق والقنوات ومشروعات الري واختفاء الأمراض، إلا أنها كانت فريسة استعمار أناني ليس له هدف إلا السيطرة والربح واستعباد السكان الأصليين وإهمال مستوى معيشتهم. ورغم ذلك اعتزت إنجلترا بمجدها ومجد ملكتها، وواصل جنودها وموظفوها رحلات اللعب ولعب البولو، في الوقت الذي كان فيه الفقراء والشحاذون يأكلون النار، وينامون على المسامير لكي يحصلوا على بعض قطع النقود من السادة المستعمرين[(١)].

وعلى الجانب الآخر في إفريقيا اتجه الأوروبيون إلى انتزاع كل ما تصوروا أنه يشكل أرباحًا بل إنهم وضعوا أيديهم عن عمد على مساحات شاسعة ليس بغرض الاستقلال الفوري ولكن تحسبًا للمستقبل[(٢)]، وفي مصر حاول محمد علي اللحاق بأوروبا، فأجرى سلسة من الإصلاحات الاقتصادية، «فقامت مصر بزراعة القطن وتصنيعه، وأقامت صناعة الزجاج والورق وسلعًا صناعية أخرى[(٣)]، ولكن الاستعمار

(١) الاستعمار والاستغلال والتخلف ص ٤٢١، ٤٢٢، مرجع سابق .

(٢) أوروبا والتخلف في إفريقيا/ والتر دورني ص ١٩٨، ترجمة أحمد القصير، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- عالم المعرفة (١٣٢) .

(٣) انظر: عصر محمد علي/ أفضل أعمال العمران والحالة الاقتصادية ص ٤٨٧-٥١٠، مرجع سابق .

أغرق الأسواق المصرية بالسلع الأوروبية، وأحاط الصناعة الوليدة بالحماية الجمركية؛ لأن الصناعيين البريطانيين والفرنسيين لم يكونوا يريدون أن تكون مصر منتجة للنسيج، بل منتجة للقطن الخام للتصدير ومستوردة للمنتجات الأوروبية، كما أراد رجال المال الأوروبيون أن تكون مصر ميدانًا للاستثمار وفي النصف الثاني للقرن التاسع عشر حولوا خديوي مصر إلى شحاذ دولي حين رهن مصر بأكملها لرجال المال الاحتكاريين الدوليين، وأخيرًا فإن رجال الدولة في أوروبا أرادوا أن تكون الأراضي المصرية قاعدة لاستغلال الهند والجزيرة العربية، وبالتالي تم حفر قناة السويس بسواعد مصرية، بينما كان يملكها الفرنسيون والبريطانيون الذين فرضوا سيطرتهم فيما بعد على مصر والسودان»[١].

بل إن الأدهى والأمر من ذلك: هو أن المستعمر الأوروبي طبق عنصرية حيث طبق عنصريته البغيضة في النظرة الدنيا إلى غيره من الجنس البشري حين استغل العامل الأفريقي بشكل أكثر وحشية من استغلال نظيره الأوروبي، فقد أفضت النظرية العنصرية القائلة أن الإنسان الأسود أقل منزلة من الأبيض إلى نتيجة أنه يستحق أجرًا أقل، حيث كان العامل الإفريقي يحصل على شلن واحد في اليوم مقابل العمل في المنجم، بينما كان العامل الأوروبي يحصل على ما يحصل عليه العامل الإفريقي في اليوم الواحد في الساعة الواحدة، أو قد يصل إلى ما يحصل عليه العامل الأفريقي في أسبوع مع أنهم يعملون في مستعمرة واحدة، ومبرر الاستعمار ذلك: أن مستويات المعيشة ونفقاتها أكثر ارتفاعًا من البلدان الرأسمالية[٢]، ولا شك في وضوح الحقيقة وضوح الشمس في كبد السماء من أن المستوى الأعلى للأوروبي قد توفر عن طريق النهب والاستغلال المستمر؛ لأن تخفيض أجر العامل الأفريقي وزيادة أجر الأوروبي وحصول الأخير على أكبر قدر من المنافع والإيرادات وخاصة الثروات التي تكون من تجارة الذهب والماس والمنجنيز واليورانيوم وغيرها، فمثلاً جمع الملك ليوبرولد الثاني منذ بدء الاستعمار الكونغو عام (١٨٨٧ حتى عام ١٩٠٦) حوالي ٢٠ مليون دولار من المطاط والعاج.

---

(١) أوروبا والتخلف في إفريقيا ص ٢٠١، ٢٠٢ وانظر عصر إسماعيل ج٢/٢٨٨، ٢٨٩ .

(٢) السابق ص ٢١٧ .

وبدأت مرحلة استغلال المعادن عام (١٩٠٨) بعد نقل السيطرة السياسية إلى الحكومة البلجيكية، ويقدر البلجيكيون أن حجم رأس المال الأجنبي المتدفق إلى الكونغو بين عامي (١٨٨٧، ١٩٥٣) قد بلغ ٥٧٠٠ مليون جنيه والأموال التي تدفقت إلى الخارج في الفترة نفسها قد بلغت ٤٣٠٠ مليون جنيه باستثناء الأرباح التي احتفظ بها داخل الكنغو، هذا في مجال التعدين فقط، مع العلم أن اتحاد التعدين في «كاتنجا» كان يحقق أرباحًا تبلغ ٢٢ مليون جنيه في العام الواحد[١].

وفي المجال الزراعي عملت القوى الاستعمارية على نزع الأراضي من السكان الأصليين بالقوة وتمليكها لرعايا الاستعمار في شمال إفريقيا وشرقها وجنوبها، وامتد أرباحها على الأجور المنخفضة، وعلى أوضاع العمل المفروضة على العمال الزراعيين الأفارقة؛ فمثلاً في الجزائر: عملت السياسة الاستعمارية الفرنسية على توطين الفرنسيين في الأراضي الزراعية بانتزاعها من الجزائريين مما اضطرهم إلى الهجرة إلى الجبال الصحراوية والأراضي الداخلية. ويجب أن ندرك عمق وخطورة هذه السياسة عندما نعلم أن معظم السكان يعملون بالزراعة، وأن العمل بها مصدر رزقهم الأساسي. ولذلك أدت عملية نزع ملكية الأراضي منهم إلى خلخلة عنيفة في البناء الاقتصادي والسكاني للبلاد امتدت آثارها لفترة زمنية طويلة. لقد بلغت جملة الأراضي التي تم انتزاعها من المواطنين وإعطاؤها للمستوطنين خلال الفترة ما بين ١٨٤٠ وعام ١٩٥٠، ٢,٧٠٣,٠٠٠ هكتار.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأراضي التي انتزعت هي الأراضي الخصبة، أدركنا مدى التأثير على الاحتياجات التي يحتاجها السكان من المواد الأساسية الغذائية مما أدى إلى انتشار الفقر والبطالة بين الجزائريين[٢]، ونفس الشيء ببقية دول المغرب العرب: ي ليبيا، تونس، المغرب وغيرها[٣].

ولم يكتف الاستعمار بهذا التشويه الاقتصادي والحياتي للبلاد المستعمرة؛ بل إنه

(١) السابق ص ٢٢١ .

(٢) الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي/ عبدالملك خلف التميمي ص ٢٢ ط المجلس الوطني للثقافة الكويت / ١٩٨٣م.

(٣) السابق ص ٥٣-٦٨ .

فرض السياسة الزراعية التي تحقق الأرباح الرأسمالية، ولخدمة المصالح الصناعية للدولة المستعمرة. لقد اشتركت الدولة الاستعمارية بشكل مباشر إلى جانب الشركات الخاصة، في الاستغلال الاقتصادي لإفريقيا وإفقارها، وقد عملت الهيئات المرادفة للمكتب الاستعماري بكل بلد مستعمر بالتعاون مع حكام البلد في إفريقيا على تنفيذ عدد من الوظائف تتمثل في حماية المصالح القومية في مواجهة الرأسمالية الآخرين، وضمان أفضل شروط ممكنة يمكن أن تستغل للشركات الخاصة الأفارقة في ظلها[١]، ولذلك عملت الدول الاستعمارية لتوسيع نطاق الرأسمالية، ونهب القارة الإفريقية وقد أفضى هذا إلى أن تفرض الحكومات الاستعمارية الضرائب لتوفير الأرصدة المالية اللازمة لإدارة المستعمرات، ومن هذه الضرائب ضمن الأوروبيون أن يدفع الأفارقة نفقات الحكام ورجال الشرطة الذين يقومون على تنفيذ سياسة الاستعمار، ويؤدون دور كلاب الحراسة للرأسماليين.

وقد استخدم الاستعمار تلك القوات في إجبار الشعوب المستعمرة على زراعة المحاصيل النقدية التي توفر المواد الخام اللازمة لتشغيل المصانع الأوروبية، بصرف النظر عن المحاصيل الغذائية التي تقوم عليها حياة الشعوب في البلاد المستعمرة.

ويذكر «فرانيس مورلابيه» عن هذه السياسة الاقتصادية للاستعمار تحت عنوان «لماذا لا تستطيع الأمم إطعام نفسها» يقول: كان الاستعمار ينظر إلى الزراعة في البلدان المستعمرة باعتبارها بدائية ومتخلفة، وهذه النظرة كانت تبرر للاستعمار تدميرها، فبالنسبة لمستعمري إفريقيا وآسيا أصبحت الزراعة مجرد وسيلة لاستخلاص الثروة مثل الذهب لصالح القوة الاستعمارية، ولم تعد الزراعة مصدر غذاء للسكان المحليين ولا حتى قوام حياتهم.

وقد قال الاقتصادي «جون ستبوان ميل» البريطاني: إن المستعمرات لا يجب النظر على أنها حضارات أو دول على الإطلاق، بل على أنها مؤسسات زراعية هدفها الوحيد هو إمداد المجتمع الأكبر الذي تنتمي إليه.

فقبل الاستعمار الأوروبي مارس الإفريقيون زراعات متنوعة، تضمنت إدخال

(١) أوروبا والتخلف في إفريقيا ص ٢٣٨ .

نباتات غذائية جديدة، ولكن الاستعمار اختزل هذا الإنتاج المتنوع إلى المحاصيل النقدية واستبعاد الأغذية الرئيسية، وخلال العملية حصد ثمار المجاعة، فأخبرت غانا الإستوائية- التي اشتهرت ذات حين «باليام» (أحد أنواع البطاطا) وغيره من المواد الغذائية على التركيز على الكاكاو فقط. وحولت ليبيريا إلى مجرد مزرعة تابعة لشركة الإطارات والمطاط «فاير ستون»، وتم التخلي عن كل إنتاج الغذاء في «داهومي»، وجنوب غرب نيجريا من أجل زيت التجميل. وأخذت «تنزانيا» على التكيز على زراعة السيزال (نبات تصنع منه ألياف الحبال) وأوغنده على القطن[1].

وبهذه السياسة الاستعمارية - الزراعية في ظل الاستعمار نجد شعوبا زراعية ولكنها لا تجد غذاءها بسبب سياسة النهب والسرقة.

ويقول العقيد «جروبان» وهو من مستوطني «كينيا» البيض عن أحد أبناء «الليكويون»: «لقد سرقنا أرضه، وينبغي علينا الآن أن نسرق أوصاله» إنه العمل الإجباري والنتيجة الطبيعية لاحتلالنا البلاد [2]. وخلاصة القول في الصراع الاقتصادي بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في الفترة الاستعمارية: (الهيمنة المباشرة هو أن الاستعمار يعني تكثيف أشد الاستغلال والنهب والتجويع، وكانت النتيجة لهذا الصراع أن الدول الاستعمارية حققت ثراءًا وغنًا متخمًا على حساب الشعوب المستعمرة التي ازدادت فقرًا وبؤسًا)، فأغنياء العالم يشكلون خمسة وعشرين بالمائة من إجمالي سكانه ولا يملكون سوى عشرين بالمائة فقط من خيرات أرضه؛ ولذلك فإن ثمانية من كل عشرة من سكان الأرض لا يتمتعون بما حدث من تقدم مادي ورفاهية اجتماعية في عالم اليوم[3].

ولقد بلغ هذا الصراع أشده نهبًا وقهرًا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، فقد أجبرت الدول المستعمرة على توفير نفقات الحرب للدول الاستعمارية، وقد اعترف بهذه الحقيقة وزير صناعة السياسة الاستعمارية «آرثر كريتشي»: «إن بريطانيا كانت

---

(١) صناعة الجوع: ترجمة أحمد حسان ص ١٢٣، ١٢٥ .

(٢) أوروبا والتخلف في إفريقيا ص ٢٤٠ .

(٣) العالم المعاصر والصراعات الدولية ص ١٣٦ .

تعيش في أوائل الخمسينيات من هذا القرن على إيرادات المستعمرات من الدولارات»[١].

ويقول «مستر جودينج» وزير المستعمرات البلجيكية: على الحكومة البريطانية في انتزاع الجزية من مستعمراتها وبوجه خاص خلال الحرب العالمية الأخيرة وما بعدها، فبعد اجتياح ألمانيا لبلجيكا تشكلت حكومة بالمنفى في لندن، وكانت الكونغو قادرة أثناء الحرب على تحويل كافة نفقات الحكومة البلجيكية في لندن بما في ذلك الخدمة الدبلوماسية، علاوة على نفقات قواتنا المسلحة في أوروبا وإفريقيا بمبلغ ٤٠ مليون جنيه، وبفضل موارد الكونغو لم تقترض الحكومة في لندن شلنا أو دولارًا، كما أن احتياطي الذهب البلجيكي لم يمس[٢].

ولم تكتف الدول الاستعمارية بهذا الاستغلال والنهب، بل ألقت على عاتق الدول المستعمرة إعادة تعمير اقتصاد أوروبا التي دمرته الحرب العالمية الثانية. ويذكر مسؤول فرنسي والذي أعد الخطة لتعمير فرنسا بعد الحرب قوله: «سوف تقوم مراكش بدور فعال في انتعاش فرنسا من جديد عن طريق تزويدها بالمنجنيز وخام الرصاص والحاصلات الزراعية»[٣].

ولكن هذا الوضع المتردي من حالة البؤس والاضطهاد والاستغلال في المستعمرات، ونمو شراسة النهب - والقهر - خلال سنوات الحرب وبعدها- قد ولد الرغبة الشعبية التي تحدت السيطرة الاستعمارية وحققت الاستقلال - بعد تضحيات كبيرة - عجلت بانهيار الإمبراطوريات الاستعمارية، بل إن حالة الانهيار كانت سريعة بحيث أنها أذهلت القوى الاستعمارية التي لم تتوقع مثل هذا الانهيار الكبير السريع. ويقول د. حورية مجاهد: «هذه الظاهرة جذبت اهتمام الساسة الغربيين في محاولة لتفسيرها وتحليل انعكاساتها، وقد كان أحد أهم الانعكاسات لتصفية الاستعمار هو: حصول معظم المستعمرات على استقلالها. فبرزت إلى الوجود فجأة تسع وثمانون

(١) أوروبا والتخلف في إفريقيا ص ٢٥٠ .

(٢) أوروبا والتخلف في إفريقيا ص ٢٥٠ .

(٣) السابق ص ٢٨٨ .

دولة جديدة في الفترة من ١٩٤٥- ١٩٦٥، وانضمت جميعها إلى الأمم المتحدة»[١].

ومنذ حصول الدول المستعمرة على استقلالها، وقيام الدولة الوطنية ودخولها ضمن التنظيم الدولي بدأت مرحلة جديدة منذ الفترة من (١٩٤٥- ١٩٦٥) حيث بدأ الصراع الحضاري بين الشرق والغرب في نوع من الاستعمار الجديد، الاستعمار الاقتصادي الذي أشرفت عليه المنظمات الدولية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة رائدة الاستعمار الجديد، الذي استطاع الاستعمار عن طريقها أن تغير ثوبه التقليدي ليتلاءم مع روح العصر، ولكنه كان امتدادًا للاستعمار، التقليدي. لقد اختلفت الأساليب والأدوات، وتغير شكل الاستعمار دون أن يطرأ أي تغير جذري على أهداف وغايات ومضمون الاستعمار الأمر الوحيد الذي تغير هو أن الدول الاستعمارية ابتكرت طرائق وأساليب جديدة ومموهة لإعادة إخضاع الشرق الإسلامي وربطه بالنظام الرأسمالي العالمي، وأضفت عليه صورة الشرعية الدولية زورًا وبهتانًا.

والذي تغير أيضًا: هو أن الدول المستعمرة تدخل في براثن الاستعمار برغبة منها تحت نوع من التقليد الأعمى للدول الغربية، وتجد نفسها تدور في فلكها وفي شراكها دون أن تدري.

وكما أن الاستعمار اضطر إلى استبدال أساليبه الاستعمارية بأساليب استغلالية مفهومة وغير مباشرة، فإن الدول الاستعمارية الرئيسية أيضًا استبدلت فيما بينها الأدوار والمواقع[٢]، ففي حين كانت بريطانيا هي الدولة الاستعمارية العظمى التي كانت تقود الدول الاستعمارية الأخرى في المرحلة الأولى من الصراع، أصبحت الولايات المتحدة لها الدور المميز في نظام الاستعمار الجديد[٣]، وهذا الاستعمار الجديد يقوم أساسًا على التسلط الاقتصادي والثقافي والتقني، وذلك خلافًا للاستعمار المباشر التقليدي الذي كان قائمًا على أساس التسلط السياسي والعسكري المباشر، يرتبط الاستعمار الجديد بالنظام الاقتصادي العالمي الراهن الذي يهيمن عليه الغرب

---

(١) الاستعمار كظاهرة عالمية ص ١٩١، مرجع سابق .

(٢) راجع الأسباب في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الباب .

(٣) العالم المعاصر ص ١٨٠ بتصرف . مرجع سابق .

هيمنة مالية وتجارية مطلقة، هذا النظام الاقتصادي العالمي هو أساس الاستعمار المادي الجديد، وتتفرع منه الأنظمة النقدية والتجارية والسياسية العالمية[1].

ولبيان هذا النظام العالمي الجديد وكيفية تحكمه في مقدرات البلاد الإسلامية نقول:

لقد رحل الاستعمار العسكري عن البلاد الإسلامية العربية منها والأسيوية والإفريقية تاركًا وراءه مخلفات في جميع ميادين الحياة، يستطيع الباحث أن يطلق عليه تخلفًا عامًّا ورثته أنظمة الحكم الوطنية: فقر، جوع، مرض «وكانت أموال هذه الدول تسيطر عليها البنوك الأجنبية، الأمر الذي مكن تلك البنوك من وضع العقبات في طريق نمو رأس المال الوطني، وسحب جزء كبير منها إلى خارج البلاد. وفي البلاد التي كانت تابعة للمستعمر البريطاني، فإن أموالها قد احتفظت بها بريطانيا في بنك انجلترا»[2].

وفي الفترة من عام (١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٨) لم تتعرض البلاد الإسلامية لمشكلات النظام الجديد؛ لأن عمليات التعمير والبناء التي انشغلت بها الدول الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية وما تمخضت عنه من نمو اقتصادي، قد جرت معها زيادة في الطلب لكثير من المنتجات التي تخصصت فيها هذه البلاد (المواد الخام الزراعية ومواد الطاقة والمعادن)، فزاد ذلك من اقتصاد البلاد الحديثة العهد باستقلال. وكانت هذه الأموال فرصة استخدمت فيها هذه الدول أرصدتها النقدية في صورة واردات كما حدث في مصر والهند والعراق، حيث استردت أرصدتها المستحقة على بريطانيا وكانت قد خسرت شطرًا كبيرًا[3].

في تلك الفترة استخدمت الولايات المتحدة نفوذها الاقتصادي ومديونيتها للدول الاستعمارية أن تفرض عليها نظامًا نقديًا تمخض عن إنشاء منظمة دولية عرفت باسم صندوق النقد الدولي عام (١٩٤٦) وهو «وكالة متخصصة تستهدف تحقيق التعاون الدولي في المسائل النقدية، ويعمل على تحقيق الثبات في أسعار الصرف والمحافظة على

(١) السابق ص ١٨١ بتصرف.

(٢) الاستعمار والاستغلال والتخلف ص ٥٣٠ بتصرف واختصار.

(٣) التاريخ النقدي للتخلف ص ١٧٦، مرجع سابق.

أوضاع منتظمة له بين الدول الأعضاء، وتجنب تخفيض أسعار تصرف من أجل المنافسة فقط، وتحقيقًا لهذا الهدف يضع الصندوق موارده تحت تصرف الأعضاء بضمانات مناسبة، لكي يصححوا الخلل في موازين المدفوعات، يبيع لهم العملات الأجنبية بعملاتهم الوطنية بقيود معينة، ويسدي لهم المشورة حول أنسب الوسائل لعلاج المشاكل النقدية[١].

ولكن الصندوق تورط في المؤامرة على تجويع الدول الإسلامية، وتورط في الكثير من الجرائم الاقتصادية كما سنرى بعد قليل؛ لأنه كان في تلك الفترة من (١٩٤٥- ١٩٥٨) مشغولاً بصفة رئيسية في دعم دول أوروبا الغربية وخطط التوسع الأمريكي في العالم حيث حصلت هذه الدول على ٦٠% من قروضه في تلك الفترة ولم تحصل الدول حديثة الاستقلال إلا على ٣٠% منها[٢]، وقد تمكنت الدول الأوروبية في تلك الفترة من إعادة بناء قدراتها التنموية التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، وبدأت عملية التصنيع والاختراعات الحديثة والتقنية «في حين راحت الدول الإسلامية والعربية في كل من آسيا وإفريقيا تسعى لتحقيق برامج التنمية والتصنيع لمواجهة مشكلات البطالة والفقر وسوء أحوال المعيشة، وقد أدرك قادة التحرير الوطني أن الخروج من هذا التخلف لا يتحقق إلا بالاستغلال الاقتصادي وتعبئة الموارد المحلية الممكن لصالح بناء التنمية وكل ذلك لا بد من أن يصطدم مع أشكال السيطرة الاقتصادية الأجنبية، ومع علاقات الهيمنة والتبادل مع السوق الرأسمالية العالمية، وكل هذه الأمور لا بد أن يرافقها اتجاهات عميقة معادية للاستعمار»[٣].

هذا الاستعمار الذي لم ينس يومًا أخلاقياته القائمة على التعصب العنصري والانتهازية الصليبية، فالفكر الاقتصادي الغربي - منذ نشأته - لم يعرف دينًا يلزمه بقيود أخلاقية، وإنما أخلاقه: الغاية تبرر الوسيلة، فالجوانب الأخلاقية معطلة كما مر ذلك[٤].

---

(١) المنظمات الدولية جعفر عبدالسلام ص ٤٧١، ٤٨٠، ط دار النهضة العربية .

(٢) التاريخ النقدي للتخلف ص ١٧٨ .

(٣) انظر السابق ص ١٩٣ .

(٤) انظر: الفصل الثالث من الباب الأول .

وخير شاهد على ذلك مقولة الاقتصادي البريطاني «ألفريد مارشال»: «إن الدوافع الدينية أشد عمقًا من الدوافع الاقتصادية، ولكن نادرًا ما يمتد عملها إلى جانب كبير من الحياة»[١].

وحينما أحس الغرب بهذا التفكير الناشئ من قادة الدول الإسلامية بالاستقلال الاقتصادي لمشاركته الثروة، اتجه مفكرو الغرب إلى تبني أخلاقيات قارب النجاة التي نشرها العالم «هاردن» وهي تنم عن عنصرية بغيضة تعكس أخلاقيات الحضارة الغربية الرديئة. يقول: إن الأرض تشكل قارب نجاة ليس فيه من الطعام ما يكفي الجميع، أليس من العدل المنطقي أن يذهب الطعام إلى الذين يتمتعون بأكبر فرصة للنجاة، ولو خاطرنا بركاب فإحضار ركاب جدد، فماذا يحدث إذا قسمت المساحة في القارب؟ ويجيب هاردن على ذلك: «يغطس القارب ويغرق الجميع، فالعدالة المطلقة تعني الكارثة المطلقة. إن الأخلاق الدينية مضى عهدها، والواجب تعلم أخلاق جديدة هي أخلاق العقل المجرد الذي يعلمنا كيف ندع الناس يموتون من أجل بقاء الجنس البشري»[٢].

فعلى هذا الأساس كانت سياسة الغرب في زمن الاحتلال العسكري المباشر، ولا نزال إلى الآن في عصر الشرعية الدولية والأعراف والقوانين الدولية.

فما أن انتهت أوروبا من إصلاح ما دمرته الحرب حتى بدأت حركات التحرر الوطني تسعى لتحقيق الاستقلال الاقتصادي، فبدأت مقاومتها ومحاربة توجهاتها من أجل أن تبقى تلك الدول في إطار سيطرة النظام الرأسمالي العالمي ولتكون موردًا رخيصًا للمواد الخام، وموارد الطاقة وكأسواق للصادرات، ومجال لاستثمار رؤوس الأموال الفائضة.

وبدأت الولايات المتحدة قيادة هذا التحدي - وذلك عن طريق: «المصارف الرأسمالية وشركاتها المتعددة الجنسيات التي تشرف على إدارة النظام الاقتصادي العالمي، واستغلت مشكلات الصرف والسيولة والمدفوعات الخارجية التي بدأت تعاني منها البلدان الإسلامية في تلك المرحلة لكي تفرض عليها نوعًا من الهيمنة الاقتصادية

---

(١) مجلة الأمة القطرية عدد ٦١ ص١٢، المحرم ١٤٠٦هـ.

(٢) مجلة الأمة القطرية عدد ٦١ ص١٢، المحرم ١٤٠٦هـ.

والقهر المالي، فالقروض الخارجية والمعونات والهبات لن تعطى إلا لتلك البلاد التي يدل سلوك أنظمتها على نيات طيبة تجاه مستعمريها القدامى وتجاه النظام الرأسمالي العالمي، وبشرط أن تكون توجهات تنميتها من النوع الذي يعتمد على المشروع الفردي وآليات السوق. بل إن بعضًا من هذه القروض والمنح والهبات سوف يكون قاصرًا فقط على البلاد التي سترتبط مع الولايات المتحدة وغيرها من الدول الرأسمالية باتفاقيات عسكرية للدفاع المشترك. كما أن صندوق النقد الدولي استغل طلبات هذه الدول العربية للموارد الأجنبية كمدخل للضغط عليها باتجاه تحرير تجارتها ومدفوعاتها»[١].

هذه الشروط هي التي على أساسها تمنح الدول الرأسمالية القروض والمساعدات والمنح، وهي تهدف من ذلك إلى استمرار عمليات النهب والهيمنة على البلاد الإسلامية، ففي الفترة من عام (١٩٥٩ إلى عام ١٩٦٥) حدث انتعاش اقتصادي للدول الغربية بعد إصلاح ما دمرته الحرب، وبدأت عملية إنتاج الصناعات الاختراعية أو التخليقية التي تغنيها عن طلب المواد الخام الأولية التي تنتجها الدول الإسلامية، فقد ركزت الدول الغربية على إنتاج الصناعات الاستهلاكية المعمرة والتجهيزات الإنتاجية فضلاً عن المعدات الحربية. وهذه المنتجات من السلع - التي يقل فيها الاعتماد على المواد الخام الأولية التي تعتبر المورد الوحيد للدول المستقلة للحصول على النقد الأجنبي الذي يعينها على إقامة المشروعات الصناعية.

ومن جراء ذلك انخفض الطلب العالمي على المواد الخام التي تخصصت فيها الدول العربية في إفريقيا وآسيا، بل إن الدول الغربية عمدت إلى فرض نوع من الحماية الجمركية وغير الجمركية على دخول منتجات البلاد الإسلامية منها إلى أسواقها الداخلية[٢]، والخطورة في هذا الأمر أن منتجات المواد الأولية تمثل ٩٠% من إجمالي صادرات الدول العربية والإفريقية مقابل ٤٠% للبلاد الغربية الرأسمالية هذا هو عام (١٩٦٠)، ومن هنا تعرضت حصيلة الصادرات من النقد الأجنبي للركود والتدهور.

---

(١) التاريخ النقدي للتخلف ص ١٩٤، ١٩٥، والعالم المعاصر ص ١٨١ .

(٢) انظر: فخ القروض الخارجية، صندوق النقد الدولي والعالم الثالث/ شريل باير ص ٢٥-٣٠ باختصار، ترجمة بيار عقل، ط دار الطليعة- بيروت ١٩٧٧م.

كما انعكس أيضًا في هبوط نصيب البلاد المتخلفة من إجمالي التجارة العالمية، فقد هبط نصيبها من ٢٥,٣% عام (١٩٥٥) إلى ١٩,٥% عام (١٩٦٥،) وترتب على ذلك إضعاف أكثر موارد النقد الأجنبي لتلك الدول.

وتتضح خطورة هذا الوضع أكثر إذا علمنا أن منافسة السلع الغربية الصناعية أضعفت قيمة المواد الخام من نفس السلعة، فمثلاً في عام (١٩٥٩) صدرت الدول الإفريقية ٥٦٠ ألف طن من الكاكاو تعادل ٤٠٩ مليون دولار ولكنها في عام (١٩٦٣) زادت صادراتها من نفس المحصول بنسبة ٤٠% ومع ذلك حصلت على ٣٧١ مليون دولار أي بنسبة انخفاض ١٠% عما كانت عليه في عام (١٩٥٩) وذلك بسبب ارتفاع نسبة إنتاج الدول الغربية من الكاكاو الصناعي[(١)].

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن الشطر الأعظم من التجارة الخارجية للدول الغربية يتم بينها، وغالبية تجارة البلاد المتخلفة تصدير، استيراد لا تتم بينها، وإنما مع البلاد الرأسمالية الصناعية، وهذا بالطبع أدى إلى وقوع البلاد في أغلال التبعية للمراكز الرأسمالية الصناعية، وهذا بالطبع أدى إلى وقوع البلاد في أغلال الاحتكار التجاري لمنتجات وموارد هذه البلاد حيث تتأثر صادراتها تبعًا لحالة الدولة الاقتصادية بهذه المراكز[(٢)].

وهذا الوضع أدى إلى تفاقم العجز في ميزان المدفوعات. بمعنى، أن تلك الدول أصبحت مجبرة على أن تصدر كميات أكبر من صادراتها لكي تحصل على نفس الكمية من وارداتها. وقد عبر مندوب كولومبيا عن مدى هذه الخسارة التي تتحملها البلاد المتخلفة من جراء هذا الوضع الاحتكاري للدول الرأسمالية- حينما ذكر في المؤتمر الذي عقده صندوق النقد الدولي عام (١٩٦٢): «كان من الضروري علينا عام (١٩٥٤) أن نصدر (١٩) زكيبة من البن لكي نحصل على سيارة واحدة، أما اليوم أي في عام (١٩٦٢) فقد أصبح استيراد نفس هذه السيارة يقتضي منا تصدير (٣٢) زكيبة من البن»، ولا يخفي ما يؤدي إليه هذا التدهور من القوة الشرائية للصادرات

---

(١) التخلف والتنمية في العالم الثالث/ ج .م . البرقيني ص ٩٦ ترجمة: زهير الحكيم، ط دار الحقيقة . بيروت . بدون تاريخ.

(٢) التاريخ النقدي للتخلف ص ٢٠٠ .

من إضعاف للطاقة الذاتية لهذه البلاد على الاستيراد[١].

وأمام هذا الوضع المتدهور لم يكن أمام البلاد المتخلفة لمواجهة هذا العجز إلا السحب من «صندوق النقد الدولي» أو القروض الخارجية والاستثمارات الأجنبية، واتجاه الدول الإسلامية إلى هذه الخيارات يعني التنازل عن سيادتها، وذلك لما يلي:

أولا: بالنسبة لصندوق النقد الدولي، فإن دوره كان هزيلًا في تغطية احتياجات هذه البلاد من السيولة، ويرجع ذلك إلى ضآلة حجم حصص هذه البلاد في رأس مال الصندوق؛ لأن إمكانات السحب مقيدة من حيث كميتها بمقدار ما أسهمت به من أموال في رأس مال الصندوق. وقد استطاعت الدول الرأسمالية أن توجه سياسة الصندوق لخدمة مصالحها، وذلك عن طريق زيادة حصتها التي عن طريقها تزيد من قوتها التصويتية، مما يعزز هيمنتها المباشرة قراراته، فمثلًا القوة التصويتية لبريطانيا ٦/٦ وهي ضعف القوة التصوتية لجميع دول قارة إفريقيا والتي لا تزيد عن ٣٥% أما الولايات المتحدة، فإنها تتمتع بـ ٢٠% من إجمالي القوة التصويتية في الصندوق الذي يضم ١٥٠ دولة من دول العالم. وهذا يعني أنه يمكن إقرار أي قرار داخل الصندوق والبنك الدولي دون موافقة الأمم المتحدة؛ ولهذا فإن الدول الرأسمالية لها السيطرة الفعلية على إدارة الصندوق بما يخدم مصالحها[٢]، فإذا طلبت الدول الفقيرة - ومنها بالطبع الدول الإسلامية قرضًا لمواجهة ما يقابلها من مصاعب فإن البنك والصندوق الدوليين يفرضان عليها مجموعة من التوصيات والالتزامات التي يشتمل على خفض قيمة العملة الوطنية، وتقليل الإنفاق العام وفرض قوانين جديدة على الاستهلاك، ورفع أسعار الفائدة والتدخل في توجيهات التنمية، والسياسات الاقتصادية والاجتماعية للدولة، والتخلي عن مشاريع النظام العام، وتشجيع القطاع الخاص، وتقديم الحوافز للاستثمار الأجنبي[٣].

وهذه الشروط تعني القبول بالإدارة الأجنبية للاقتصاد الوطني وهذا هو بالفعل ما

---

(١) السابق ص ٢٠١ .

(٢) انظر: العالم المعاصر والصراعات الدولية ص ١٩٠، ١٩١، والسابق ص ٢٠٤ .

(٣) منح القروض الخارجية، صندوق النقد والعالم الثالث ص ١١٧ ومرجع سابق .

تضطر إليه الدول الفقيرة عندما تلجأ إلى الصندوق كثيرًا ما تفضل الدول عدم التعامل معه وأي محاول لدولة نحو بناء تنمية اقتصادية مستقلة من قيادتها والاعتماد على مواردها المحلية، ومثل هذا البلد لا يتلقى مساعدة، بل المحاربة والحصار يصلان إلى حد الضرب العسكري وهو ما حدث في مصر عند بناء السد العالي ورفضها الشروط الدولية لمساعدتها. وقدمت مصر على تأميم القناة عام (١٩٥٦) لتحقيق مورد للسيولة النقدية، كان العدوان الثلاثي على مصر ومحاولة ضربها؛ لأن هذا يعني الاستقلال عن الاقتصاد العالمي وعدم التبعية له، ومن شأنه أن يهدد مصالح البلاد الرأسمالية وتوسعها على الصعيد العالمي، ولكن أمام الضغط الرأسمالي العالمي اضطرت الدولة الفقيرة إلى الاقتراض بتلك الشروط التي تجبرها على الانصياع إلى عمليات التكيف مع متطلبات النظام الاقتصادي العالمي[١] وقد بلغ حجم الديون عام (١٩٥٥) عشرة آلاف مليون دولار ثم صعد إلى سبعة عشر ألف مليون دولار عام (١٩٧٠)، ثم تضاعف إلى مائة وأربعين ألف مليون دولار عام (١٩٧٥)، ثم تضاعف إلى خمس مائة وثمانين ألف مليون دولار عام (١٩٨٥) ووصل إلى ألف ومائة ألف مليون دولار عام (١٩٨٨)[٢].

وقد أدى تزايد إجمالي الديون إلى تزايد الفوائد المستحقة على هذه الديون، وتضاعفت أعباء خدمة الديون الخارجية بعيدة وقصيرة المدى، «ففي عام (١٩٦٥) كانت الفوائد المستحقة على الديون لا تتجاوز ثلاثة آلاف مليون دولار، وأصبحت فجأة خمسين ألف مليون دولار عام (١٩٧٥)، وقفزت قفزة هائلة لتصبح مائة وعشرين ألف دولار عام (١٩٨٧)، لذلك فإن الدول المتخلفة تدفع في كل شهر من شهور سنة (١٩٨٨) أكثر من عشرة آلاف مليون دولار كفوائد فقط على ديونها دون أن يؤدي ذلك إلى أي تخفيض حقيقي في إجمالي هذه الديون التي في تزايد مستمر»[٣].

وأمام هذا الوضع المتردي من تزايد الديون المستحقة على الدول العربية وغيرها في إفريقيا وآسيا، لم تعد الدول قادرة على سداد الديون أو حتى خدماتها، بل إن

(١) أزمة الديون العالمية والإمبريالية الجديدة/ مجلة السياسة الدولية رقم (٨٦) ص ٦٣ أكتوبر ١٩٨٦م.

(٢) انظر في ذلك: فخ القروض الخارجية ص ١٤٥، مرجع سابق، وانظر: التاريخ النقدي للتخلف ص ٣١١ .

(٣) العالم المعاصر ص ١٨٧، ١٨٨ .

بعض الدول تستدين لمجرد دفع ديون سابقة، وبالتالي وقعت في فخ الديون، ودولاً أخرى أعلنت إفلاسها وعدم قدرتها على خدمة الديون.

وهنا تدخل المصارف الاحتكارية والشركات والمؤسسات الرأسمالية لتتحكم في مصادر الدخل، وتسير سياسة الدولة ومقدراتها لخدمة سياسة الدولة، وعلى رأس هذه المؤسسات صندوق النقد الدولي بشروطه السابقة، «ولا يقتصر تدخل صندوق النقد على فرض هيمنته على مقدرات الدولة، وإنما ينبغي على البلد المدين أن يجري برنامج تقشف لخفض العجز الداخلي والخارجي، وجعل سعر الصرف واقعيًا، وهذا ما يسميه الصندوق: تصحيح المسار الاقتصادي، إلى جانب ذلك ينبغي على البلد المدين القيام بإصلاحات هيكلية ترمي إلى الحد من تدخل الدولة في الاقتصاد واستبعاد كل أنواع الدعم»[1].

وهذه السياسة الاحتكارية تنفذ في مصر، فالدعم يتم به سد الفجوة فيما بين السعر العالمي والسعر الاجتماعي الذي يقدر عليه الناس في مصر، وكذلك الخدمات التعليمية والصحية وغيرها التي يؤديها النظام العام، ولكن بعثة صندوق النقد تعتبر هذه الخدمات من قبيل الترف ويوصون بالإقلاع عنها وإلا لم يكن هناك قروض، وللظروف الاقتصادية المتردية ترضخ الحكومة لهذه الضغوط. ومن هنا عملت الحكومة على تعويم قيمة الجنيه المصري، فتضاءل حجمه أمام نظائره من العملات، وهي تعمل على جعل الأسعار عالمية، بمعنى مثلاً: أن يكون سعر كيلو السكر في مصر بنفس سعره في أمريكا بصرف النظر عن الفرق في دخل الفرد في مصر وأمريكا.

ومن هنا تخلق الأزمات الاجتماعية وسخط الجماهير، على سياسات الدول، وبسبب هذه السياسة كانت انتفاضة ١٨/١٩ يناير (١٩٧٧) في مصر، وأحداث العنف الجماهيري في تونس بسبب غلاء الخبز وغير ذلك مما حدث من انتفاضات في الدول العربية بسبب هذه السياسة... وهنا تظهر الدول الغربية - وعلى الأخص الولايات المتحدة - بمظهر المحسن والمنفق الذي يخاف على الشعب الفقير وتقدم المعونات والمساعدات المالية التي تحقق أهدافًا سياسية واقتصادية واستعمارية.

---

(١) مجلة الشاهد، عدد (٦٤) ص ٥٣ ديسمبر ١٩٩٠، والتاريخ النقدي للتخلف ص ٣١٩، ٣٢٠ .

ويقول «هاري ماجدوف» «إن المساعدات والمعونات التي تقدمها الولايات المتحدة للدول الفقيرة تحقق أهدافًا خمسة هي:

أولها: الترويج للسياسات العسكرية ولسياسة الولايات المتحدة على الصعيد العالمي.

ثانيها: زيادة فرص الاستثمار للشركات الأجنبية الأمريكية، وإملاء سياسة الباب المفتوح من أجل مصادر المواد الخام الأولية.

ثالثها: ربط النمو الاقتصادي في البلاد المتلقية للمعونات بالنظام الرأسمالي.

رابعها: تحقيق مكاسب اقتصادية للشركات الأمريكية.

خامسها: زيادة اعتمادات الدول المتلقية للمعونات على أسواق وسلع الولايات المتحدة والدول الرأسمالية»[(١)].

وهذه المعونات وسيلة أخرى من وسائل فرض التبعية على الدول المتخلفة للدول الاستعمارية، حيث إن المعونات والمساعدات لا توجه إلا للأنظمة التي تسير في ركاب الإمبريالية، فعملية العطاء والمنح خاضعة لخدمة السياسة الأمريكية، كما أن على المتلقي للمعونة أن يقبل شرطًا واحدًا وهو الموافقة على أن يشترى بشروط تجارية السلع الزراعية الأمريكية[(٢)].

وعن طريق هذه المعونات تسيطر الدول الرأسمالية على مقدرات الدولة الفقيرة حيث تقوم الدول الاستعمارية بفرض سياسة زراعية تتمشى مع مصالحها وبحيث يتم التحكم في كميات المزروعات ونوعيتها بهدف إيجاد ندرة في بعض المحاصيل واستخدام محاصيل أخرى وسيلة ضغط سياسية.

وهذا يؤدي إلى زيادة تبعية الدول المستوردة للدول المصدرة، ثم تتحكم فى الكميات المعروضة في الأسواق بغية الإبقاء على الأسعار مرتفعة أو زيادتها، وهذا يتضمن تخزين كميات من المنتجات الزراعية ومشتقاتها حتى تتلف، أو ترسل إلى الدول الفقيرة على شكل مساعدات مجانية ولكن بفاتورة حساب سياسية، تتضمن ربط

---

(١) الإمبريالية من عصر الاستعمار إلى اليوم ص ١٦٢ مرجع سابق، والتاريخ النقدي للتخلف ص ٢١٢ .

(٢) صناعة الجوع/ فرانسوا مورلابيه ص٤٥٢ .

آلية الإنتاج في مزارع الدول الفقيرة بحاجة ورغبة السوق الغربية، بغض النظر عن أية احتياجات غذائية للدول الفقيرة[١].

فعلى هذا الأساس اللاأخلاقي تستعمل الدول الاستعمارية الغذاء كسلاح لفرض سياستها العنصرية ونشر مبادئ حضارتها العدوانية.

ففي مصر مثلاً تسير السياسة الزراعية طبقًا لما ترسمه السياسة الاستعمارية التي تعمل ليل نهار لتحطيم مقدرات الشعب المصري المسلم عن طريق تجويعه ليظل دائمًا في احتياج دائم للقمة العيش.

فالمساحات واسعة تكفي لإنتاج ما يكفينا من القمح، ولكن السياسة الزراعية الاستعمارية تفرض زراعة المحاصيل النقدية التصديرية كالفواكه والفراولة والكتان لتشغيل المصانع الأوروبية، والشعب تخنقه الأزمات وتعتصره، ويبحثون عن الخبز فلا يجدونه...

وهكذا يعمل أقزام الاستعمار والمستغلون على أن تظل بلادنا مصدرًا للمواد الخام، وفي نفس الوقت سوقًا مستهلكة لهذه المواد بعد تصنيعها هناك، بالطبع تكون الأثمان باهظة؛ لذا فإن «من الواجب على الواحد منا حينما تمتد يده لتلتقط إحدى المعلبات المرتبة بعناية فوق الأرفف في أسواقنا الغذائية، وقبل أن ينبهر بغلافها الزاهي البراق وباسم الشركة العالمية الشهيرة التي أنتجتها، ينبغي قبل هذا كله أن يتذكر المآسي والمظالم الكامنة وراء هذا الزخرف الخادع، والبريق الزائف، يتذكر طلقات البنادق، أصوات السياط التي أصابت أولئك الذين كدوا وتعبوا وعرقوا، ثم ضاعت جهودهم سدى، هؤلاء الذين أنتجوا المادة الخام التي تحملها تلك العلبة بغلافها الزاهي البراق. مزينة بخاتم الشركة العالمية الشهيرة. هؤلاء الذين لم يهنؤوا بما أنتجوه ولم يذق أطفالهم الجياع طعم المحصول الوفير الذي أخذ قسرًا وإكراهًا ليعود بأعلى الأسعار حيث لا يستطيع شراءها» ولكنها الحقيقة المرة بكل الأسف يعلنها واحد منهم هو «والتردوني» كيف أن الإفريقيين كانوا يجبرون على زراعة المحاصيل النقدية فيقول: «كانت المحاصيل النقدية تزرع عادة تحت تهديد البنادق والسياط، والضرائب هي

---

(١) مجلة الأمة عدد (٦) ص ١٤، وانظر: صناعة الجوع ص ٦٤، ٦٥ بزيادات وتفاصيل.

الوسيلة الاستعمارية المفضلة لإجبار الإفريقيين على زراعة محاصيل التصدير»[1].

ولم يكن الصراع الاقتصادي مقتصرًا على المجال الزراعي والغذاء فقط، بل «كان الصراع على النفط أحد وأهم منطلقات الصراع الاقتصادي بين الشرق والغرب وخاصة بعد حرب (١٩٧٣)؛ ذلك لأن النفط هو محور الإنتاج الصناعي حيث لم يعد مصدرًا من مصادر الطاقة فحسب، بل أصبح أيضًا مصدرًا لاستخراج ما لا يقل عن أحد عشر ألف سلعة صناعية مختلفة في العالم، كما يشكل ثمن إجمالي التجارة في العالم»[2].

ولذلك فإنه يحول إلى سلعة استراتيجية تؤثر فيها العوامل السياسية بشكل أكبر وأوسع من العوامل الاقتصادية، فكمية الإنتاج النفطي وكذلك أسعاره هي قرارات سياسية من الدرجة الأولى، وليس لها علاقة بميكانيكية قوانين السوق الكلاسيكية المعروفة[3].

والدول الغربية الصناعية تعتمد اعتمادًا كليًا على النفط في صناعاتها حيث تستهلك ٨٥% من إجمالي الإنتاج النفطي العالمي. تستهلك الولايات المتحدة ١٨ مليون برميل يوميًا[4]، وقد كان النفط إلى وقت قريب ملكًا خاصًا من ممتلكات الشركات النفطية الغربية التي تعرف باسم الشقيقات السبع[5]، وهذه الشركات تحتكر النفط إنتاجًا وتكريرًا وتسويقًا، إلى أن استطاعت الدول العربية المصدرة للنفط من اتخاذ قرار جماعي سنة (١٩٧٣) بفرض سيادتها الوطنية عليه، وهذا القرار لم يضعف كثيرًا من موقفها المميز التي ظلت رغم ذلك تجني الأرباح، فواصلت نموها حتى أصبحت أضخم كتلة اقتصادية في العالم حيث بلغت مبيعات اثنتي عشرة شركة نفطية حوالي ٤٠٠ألف مليون دولار في حين بلغ صافي أرباحها ١٨ ألف مليون دولار»[6].

---

(١) أوروبا والتخلف في إفريقيا/ ٦٧ مرجع سابق .

(٢) العالم المعاصر ص ١٩٥ .

(٣) النفط والعلاقات الدولية/ محمد الرميحي ص ٢٣٦، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .

(٤) العالم المعاصر ص ١٩٨ .

(٥) هذه الشركات هي إكسون، موبيل، تكساكو، شيفرون، أموكو، شل، فليس .

(٦) السابق ص ١٩٩، ٢٠٠ .

وتعتبر شركة «إكسون» أضخم الشركات المتعددة الجنسيات في العالم، لقد بلغت مبيعاتها سنة (١٩٨٦) حوالي ٧٨ ألف مليون دولار، وبلغ إجمالي رصيدها المالي ثلاثين ألف مليون دولار، في حين بلغ صافي أرباحها في السنة نفسها خمسة آلاف مليون دولار، وتتضح ضخامة هذه الشركة عند مقارنة مبيعاتها السنوية بالإيرادات من حيث الإيرادات السنوية للمملكة العربية السعودية التي هي أكبر دولة نفطية في العالم.

إن إجمالي مبيعات «اكسون» يعادل أربعة أضعاف إجمالي الناتج القومي لدولة الإمارات العربية التي هي ثاني أكبر دولة نفطية في الخليج العربي[١] وقد كونت هذه الشركات هذه الثروة عن طريق نهبها واستغلالها للنفط وتحكمها اللامنطقي في تحديد الإنتاج والأسعار بما يتناسب مع مصالحها ومصالح الدول الرأسمالية دون الأخذ في الاعتبار المصالح الوطنية للدول المصدرة للنفط، وبسبب هذه الاحتكار- أعلنت الدول المصدرة للنفط عن قيام منظمة الدول المصدرة للنفط الأوبك عام (١٩٦٠) واستطاعت أن تحقق نجاحا أحدث تحولات في مجمل العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية والإسلامية والغرب حيث رفعت أسعار النفط بنسبة ٤٠% عام (١٩٧٣) فقد كان سعر البرميل من النفط يتجاوز ثلاثة دولارات، وبقرار الأوبك ارتفع سعر البرميل إلى ٥,٨ دولار في بداية (١٩٧٣)، وبعد شهرين ارتفع إلى ١١,٦٥ دولار، ثم توالى الارتفاع حتى ٣٦ دولار (١٩٨١)[٢].

ولقد أحدث هذا النجاح للأوبك ضجة في العالم الغربي الذي تعود على السيطرة والنهب والاستغلال، وقد أحس أن البساط يسحب من تحت قدمه فلم يستسلم، فقام الرئيس «كارتر» وأعلن «أن الأوبك والأزمة النفطية ستقهر الغرب حتمًا إذا لم يتخذ الغرب التدابير اللازمة على الفور»[٣].

ولذلك قامت الدول الرأسمالية بتأسيس الوكالة الدولية للطاقة، وكان الهدف أولاً من تأسيسها هو العمل على تحطيم «الأوبك» وإعادة سيطرة الدول «الغربية» على

---

(١) السابق ص ٢٠٠ .

(٢) انظر: النفط والعلاقات الدولية/ ٢٣ .

(٣) السابق ص ٢٣٦ .

النفط وأسواقه. ولقد وضعت برنامجًا بهدف التقليل من الاعتماد على النفط كمصدر للطاقة، وقد انخفض بالفعل من ٤٦% سنة (١٩٧٥) إلى ٣١% سنة (١٩٨٣).

وثانيًا: العمل على بناء مخزون لاستخدامه في الظروف غير العادية وعند الضرورة.

ثالثًا: تكثيف عمليات التنقيب عن النفط خارج مناطق «الأوبك» حتى استطاعت بريطانيا أن تصبح ثاني أكبر دولة منتجة للنفط في العالم، ونتج عن ذلك إغراق الأسواق بالنفط الخام، وازداد العرض على الطلب، وحدث انهيار في كل أسعار النفط، فقد هبط من ٣٤ دولار (١٩٨٢) إلى أقل من عشرة دولارات (١٩٨٦)، وظل يتأرجح بين ١٤-١٨ سنة (١٩٨٨)[١] إلى ١٢ دولار- يوم كتابة هذه الصفحات، ولم تكتف الدول الغربية بذلك بل شجعت موجة عداء بغيض ضد الأوبك والدول الإسلامية منها خاصة، وتسببت في إشعال حروب واضطرابات بين دول «الأوبك»، فقامت بإشعال الحرب بين العراق وإيران، وكان آخرها حرب الخليج التي أحكم الغرب حبكها ليتمكن من بناء قواعد على منافذ النفط العربية في تحد سافر لمشاعر المسلمين الذين نقضوا عهد الله وعهد رسوله، فسلط عليهم عدوهم، فأخذ ما في أيديهم كما قال رسول الله ﷺ.

ولقد ترتب على هذا الصراع انتشار المذاهب والنظم الاقتصادية الرأسمالية والاشتراكية في البلاد الإسلامية، تلك النظم التي تقوم على ما حرم الله سبحانه وتعالى وحذر من العمل به، مما كان له الأثر في إحداث التخلف والحرمان وانتشار الجوع في بلاد المسلمين، يتضح ذلك من التقرير الصادر عن «منظمة الصحة العالمية» الذي يبين الفجوة التي نجمت عن هذا الصراع[٢] يذكر التقرير: أن الدول الاستعمارية تتفوق تفوقًا مطلقًا في كافة مجالات الحياة، فهي تتصدر تطور العالم وتحدد شكل ومستقبل البشرية جمعاء. فهذه الدول تحتل ٣٣% من مساحة الأرض يسكنها ٢٥% من سكان العالم، ولكنهم يملكون ٨٠% من ثروات العالم، أما

---

(١) السابق ص ٢٤٠، والعالم المعاصر ص ٢٠٤ .

(٢) انظر وثيقة رقم ٤ من ملاحق البحث .

جدول رقم (٢) الفجوة بين الشمال والجنوب .

الدول المستعمرة التي تعرف بدول الجنوب، فإنهم يسكنون ٧٧% من مساحة الأرض ويشكلون ٧٥% من سكانه، ولكنهم لا يملكون سوى ٢٠% فقط من ثروات الأرض. مما ترتب عليه: أن ثمانية من أصل كل عشرة من سكان الأرض، لا يشاركون حقيقة ولا يتمتعون مطلقًا بما حدث من تقدم مادي ومن رفاهية اجتماعية وحياتيه، ويتضمن ذلك أيضًا وجود ألف مليون نسمة من بينهم ثلاثمائة مليون طفل يعيشون في حالة نقص تغذية ومجاعة مزمنة، وقد تحولت حياتهم إلى بؤس يومي قاتل، وهم يعيشون فقط لأنهم غير قادرين على الموت طوعًا، وأن ثمانمائة مليون فرد من هؤلاء فقراء بكل معايير الفقر التي تشمل انعدام المأوى والرعاية الصحية، والخدمات الأولية الضرورية والتعليم، هذا على الرغم من أن الدول التي كانت مستعمرة في إفريقيا وآسيا تنتج وتصدر ٤٠% من المعادن، و٣٥% من النفط، و٩٣% من القصدير، و٦٥% من الخشب، و٤٢% من إنتاج القطن إلا أن هذه الدول تخسر سنويًا عشرة آلاف مليون دولار في تجارتها مع الدول الاستعمارية؛ بسبب تحكم الأخيرة في شروط النظام التجاري الدولي الراهن الذي شيدته منذ عهد الاستعمار وظل قائمًا رغم انحسار الاستعمار في تحكم المنظمات العالمية التي تعمل ضمن نطاق الأمم المتحدة وقد نتج عن هذه السياسة الاستعمارية وآثار الجوع: تفشي الأمراض المزمنة التي قضت على حياة الملايين ولا زالت تهددهم في ظل النظام الدولي الراهن.

ولا شك أن هذه الحالة الاقتصادية قد استغلها الاستعمار أسوأ استغلال في فرض حضارته على تلك الشعوب الجائعة والمريضة من شعوب المسلمين، ففي دول جنوب إفريقيا كان شعار المبشرين (ارفع عنك الإسلام، نرفع عنك الجوع والعطش) «وكان ذلك أيام الجفاف. ولم يقف الاستعمار عند هذا الحد، بل استعمل أساليب أخرى لفرض فلسفته وحضارته في المجال الاجتماعي، وهذا ما سيكون الحديث عنه أن شاء الله في الفصل الثالث.



الفصل الثالث
الصراع الاجتماعي

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مرحلة ما قبل إلغاء الخلافة الإسلامية.

المبحث الثاني: مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية.

المبحث الثالث: مرحلة ما بعد إلغاء الخلافة الإسلامية.



الفصل الثالث
الصراع الاجتماعي بين الشرق والغرب

تمهيد:

إن الوجود الاستعماري في بلاد الشرق - وخاصة البلاد الإسلامية - لم يكن وجودًا عفويًا، استهدف أغراضًا سياسية واقتصادية فقط، إنما استهدف غرس مبادئ الحضارة التي يؤمن بها في المجتمعات التي احتلها، ليضمن لنفسه البقاء والهيمنة، لتغريب العالم الإسلامي وتأهيله لقبول هذه الحضارة. وقد كان هذا هو الهدف الأول للاستعمار الغربي منذ القدم، فقد كتب «كارلوس الثامن» رئيس «فرسان رودس» بكاشفة بما نواه من نشر الكاثوليكية وتحرير المسيحيين مما هم فيه من الخنوع للأمية الجامدة واسترداد الأراضي المقدسة المغصوبة. فأجابه رئيس الفرسان متمنيًا هذه المرة استئصال شأفة الأمة الملعونة أمة محمد[1].

ولايزال هو الهدف المراد للاستعمار في العصر الحديث، وهذا ما أكده «جونسون» الرئيس الأمريكي حين قال: يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب الإسلامية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع محتدمًا بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي، إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي في فلسفته ونظامه وعقيدته، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة في الدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام»[2].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٢٨، مرجع سابق .

(٢) قادة الغرب يقولون/ جلال العالم ص ٢٨ط دار المختار الإسلامي .

فالهدف واحد بين الاستعمار قديمًا وحديثًا أعلن عنه القرآن الكريم في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾(٢).

ولم يستطع الاستعمار القضاء على المسلمين على طول التاريخ، بل إن أعداءه في كل لقاء تولى الأدبار منقلبة على أعقابها مدحورة، وهذه النتائج دفعت قادة الغرب في كل عصر للتساؤل عن سر قوة المسلمين عقب كل معركة انهزموا فيها أمامهم، كيف ينتصر هؤلاء وهم قلة في العدد والعدة؟ كان أول من طرح هذا السؤال «هرقل» قيصر الروم. جمع قواده وراح يسألهم: من هؤلاء الذين تقاتلون، أليسوا بشرًا مثلكم؟ فرد عليه قائد جيوشه وقال له: إنهم بشر ولكنهم ليسوا كالبشر، إنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار، إنهم يصلون، ويصومون، ولا يشربون الخمر، ولا يزنون، ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده، وما منهم من أحد إلا ويتمنى أن يموت قبل أخيه. فقال هرقل: والله إن كانوا كما تقولون ليمكنوا من موضع قدمي هاتين(٣).

وكان المسلمون كما قال قائد الجيوش الرومانية، وتواصل السؤال عن سر قوة المسلمين بعد كل لقاء بينهم وبين أعدائهم، فكانت الإجابة واحدة هى أن السر في قوة المسلمين هو تمسكهم بدينهم وعقيدتهم حتى قال المؤرخ النصراني «فشر»: إن الدين قد أمد حركة العرب بقوة ذاتية أكسبتها الحياة والدوام، ولولا هذه القوة التي نشأت عن الرابطة الدينية الجامعة، لافتقر العرب إلى التكتل الذي لا تحدث الانتصارات بدونه. ولولا ما سرى بين العرب من روحية متسامية عن مجرد الشهوة للحرب والغنيمة، لما استطاعوا أن يظفروا برضى الشاميين والمصريين والفرس والبربر عن حكمهم، ثم إنه لا شك أن قسطًا غير قليل من نجاح العرب في فتوحهم وحروبهم إنما يرجع إلى ظهور دين جديد في قلب بلادهم أشبع ما في نفوسهم، وأن العرب كانوا لهذا الدين جنودًا مبشرين ومنذرين(٤).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠ .

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٧ .

(٣) تاريخ الأمة الغربية/ عبدالفتاح شحاتة ج١/ ١٢٧ .

(٤) تاريخ أوروبا الوسطي/ هـ . أ .ل . فشر ج١/ ٦٣، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، ط دار المعارف، ط/ الخامسة ١٩٦٩م.

وهكذا كان الجواب واحدًا عن سر قوة المسلمين في مختلف العصور؛ ولذلك أصبح الإسلام هو الخطر الذي يهدد الوجود الأجنبي في كل مكان، ومن أجل ذلك اجتمعت كلمة الأعداء على أن توجه الحرب إلى الإسلام نفسه كدين وعقيدة ومنهج وعادات وتقاليد، لتخريبها في نفوس المسلمين، ليسهل احتلال المسلمين فكريًا وعقائديًا ولتغير هويتهم الاجتماعية التي تربطهم وتجعلهم أمة واحدة. ولقد سلك الاستعمار.

في هذا الصراع سبلاً شتى لتقريب المجتمع الإسلامي، هذه السبل هي موضوع هذا الفصل... ويمكن دراسة الأساليب والوسائل التي مارسها الاستعمار في هذا الصراع من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مرحلة ما قبل إلغاء الخلافة الإسلامية.

المبحث الثاني: مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية.

المبحث الثالث: مرحلة ما بعد إلغاء الخلافة الإسلامية.



المبحث الأول
مرحلة ما قبل إلغاء الخلافة الإسلامية

ويشتمل على تمهيد ومطلبين:

المطلب الأول: التبشير.

المطلب الثاني: الاستشراق.

تمهيـــــــد:

لقد مهد الاستعمار المجتمع الإسلامي لقبول الحضارة الغربية، وذلك باستخدام جيوش أخرى غير الجيوش العسكرية؛ ذلك لأن الجيوش العسكرية لا تستطيع أن تحول إنسانًا واحدًا عن فكره ومعتقده بالقوة، ومن أجل ذلك استبدل الزي العسكري بمسوح الرهبان، واستبدل المدفع والصاروخ بالقلم والكتاب، وجاءت كتائب المبشرين والمستشرقين وكل من يملك أداة التوجيه إلى العالم الإسلامي لتصفية الإسلام وتفريغه من محتواه العقدي والجهادي، وتشويهه في نفوس متبعيه، وكانت هذه الخطة الخبيثة بتوجيه من لويس التاسع ملك فرنسا الذي أشار في وثيقته التي كتبها أثناء سجنه في مدينة المنصورة بقوله:

لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب والقوة، وذلك لأن في دينهم عاملاً حاسمًا هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم رخيصًا في سبيل حماية العرض والأرض، وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين، فمن المستحيل السيطرة عليهم؛ لأنهم قادرون دومًا - انطلاقًا من عقيدتهم - إلى المقاومة ودحر الغزو الذي يقتحم بلادهم، وأنه لا بد من إيجاد سبيل من شأنه أن يزيف هذا المفهوم عند المسلمين، حتى يصبح مفهومًا أدبيًا أو وجدانيًا، وإيجاد ما يبرره على نحو ما، بحيث تسقط خطورته، واندفاعاته، وأن ذلك لا يتم إلا بتركيز واسع على الفكر الإسلامي وتحويله عن منطلقاته وأهدافه حتى يستسلم المسلمون أمام لقاء القوى الغربية وترويض أنفسهم على

تقبلها على نحو ما من أنحاء الاحتواء أو الصداقة أو التعاون[١].

وقد سار الاستعمار الأوروبي في طريق تنفيذ وصية لويس، فأعدوا المبشرين والمستشرقين لتحقيق هذا الأمر حتى اليوم. يؤكد هذه الحقيقة المستشرق «هانوتوا» بقوله: «لقد تركزت أهداف الحروب الصليبية قديمًا في استرداد بيت المقدس من المسلمين البرابرة ولا يزال مما يزعج الغرب المسيحي بقاء لواء الإسلام منتشرًا على مهد الإنسانية؛ ولذلك يجب أن نعمل على نقل المسلمين إلى الحضارة الأوروبية بقصد رفع الخطر الكامن في الوحدة الإسلامية، وأفضل طريق لتثبيت ولاية المستعمر الأوروبي على البلاد الإسلامية هو تشويه الدين الإسلامي في نفوس معتقديه، بإبراز الخلافات المذهبية والتناقضات الشعوبية والقومية والجغرافية مع شرح مبادئ الإسلام شرحًا يشوهها، وينحرف بها عن قيمها الأصلية، وتمجيد القيم الغربية، والنظام السياسي والسلوك الفردي للشعوب الأوروبية»[٢].

ومن أجل ذلك مهد الاستعمار لهذا الهدف بأسلوبين من أساليب الغزو الفكري، هما: التبشير والاستشراق، والحديث عن كل أسلوب من هذين الأسلوبين في مطلب خاص به مبينا تعريفه وأهدافه ووسائله وتاريخه في العصر الحديث، وكيف ساعد كل منهما على تحقيق التغريب في العالم الإسلامي.

أتحدث في المطلب الأول عن التبشير وفي المطلب الثاني عن الاستشراق.



(١) الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس/ محمد علي الفتيت ج١ / ١٥، ط الدار القومية .

(٢) الله أو الدمار/ سعد جمعه ص ٦٦ ط . دار الاعتصام .

المطلب الأول
التبشير

كلمة التبشير في اللغة العربية تعني الخبر الذي يفيد السرور(١). واستعمل مجازيًا بمعنى السخرية والتهكم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢).

وقد استعمل المنصرون هذا الاسم «التبشير» اصطلاحًا على دعوة الناس للدخول في النصرانية اعتمادًا على ما ورد في إنجيل «متى» من الحث على دعوة الناس، وتعميدهم باسم الأب والابن وروح القدس. من ذلك ما ورد في إنجيل «متى» «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به»(٣). وما ورد في إنجيل «مرقص» «اذهبوا إلى العالم أجمع، وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها»(٤).

ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام وحوارييه هي التبشير الحقيقي للمسيحية، شأنها في ذلك شأن الدعوات السماوية الصحيحة، إلا أنه بمرور الزمن بدل النصارى في الدين، وانحرفوا بالتبشير عن معناه الحقيقي، وكونوا لهم عقيدة أخرى، هي عقيدة التثليث. وعلى هذا فالتبشير الديني هنا ليس على حقيقته؛ إذ إنه في أصله يدل على الحق والخير والبر، وبعد الانحراف لا معنى له إلا الضلال والانحراف؛ لأنه صار دعوة إلى النصرانية الكنيسية، لا النصرانية العيسوية(٥).

ومن هنا أصبح التبشير يطلق على ما تقوم به الكنائس من الدعوة المسيحية، سواء أكانت تلك الدعوة تتناول من كانوا على غير دين، أم بالتعريف بالمسيحية في

---

(١) انظر: مختار الصحاح ص ٥٣، والمعجم الوسيط ج١ / ٥٨ .

(٢) سورة لقمان: الآية ٧ .

(٣) الصحاح ص ٢٨ فقرة ١٩، ٢٠ .

(٤) الصحاح ص ١٦ فقرة/ ١٥ .

(٥) الفرق بين النصرانيتين: أن التي جاء بها المسيح عليه السلام لا تتعارض مع الإسلام؛ لأن المسيح عليه السلام بشر بالرسول ﷺ؛ أما الأخرى، فهي وضعية وثنية، وضعها رجال انتسبوا زورًا وبهتانًا إلى النصرانية في مجامعهم، ومؤتمراتهم واعتبروها مقدسة .

محاولة لجذب أتباع الشرائع الأخرى، وخاصة الإسلام.

وقد يطلق عليه التنصير، والفرق بينهما في المعنى اللغوي فقط؛ أما المدلول الاصطلاحي، فيكاد يكون واحدًا، وينفرد التنصير بأنه يتخذ الوسائل المشروعة وغير المشروعة في دفع الناس إلى الدخول في النصرانية.

وفي العصر الحديث استغل المخالفون لعيسى عليه السلام فكرة التبشير أسوأ استغلال؛ حيث اتخذوه سلاحًا يخرجون به المسلم من إسلامه حتى ولو لم يدخل في النصرانية، وهو بهذا أصبح ضمن الأخطار التي استخدمها الاستعمار لتغريب العالم الإسلامي.

أهداف التبشير:

اختلف أهداف التبشير باختلاف مراحله، إلا أنه يمكن إجمال أهداف التبشير فيما يلي:

أولاً: القضاء على الأديان وخاصة الإسلام:

تستهدف الحرب التي يشنها التبشير على دين الإسلام ذاته، وترمي إلى إضعاف العقيدة في نفوس المسلمين، وهذه السياسة هي استمرار للصراع التاريخي بين الشرق والغرب. يقول القس زويمر لأعوانه من المبشرين: «أيها لأبطال الذين كتب لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام. إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريم. إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون - أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية[1]. ويقول «مسيوا شاتليه»: «إن نزاع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائمًا للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية»[2]. فالهدف الأول للتبشير هو: القضاء على الإسلام والمسلمين.

---

(١) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر/ أحمد عبدالوهاب ص ١٦١، ط مكتبة وهبة.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي/ تعريب مساعد اليافي، محب الدين الخطيب ص ٩ط بيروت، بدون تاريخ.

ثانيًا: القضاء على وحدة العالم الإسلامي:

لقد كانت الوحدة الإسلامية في ظل العقيدة الإسلامية هي العقبة الكؤود أمام الاستعمار في سبيل احتلال بلاد المسلمين منذ اللقاءات العسكرية بينهم وبين المسلمين. وقد أدرك ذلك الغرب النصراني، فعمل على تقويض بنيان هذه الوحدة، فحارب الجامعة الإسلامية، وشجع قيام الجامعة العربية والدعوة إلى القوميات الطائفية، ولذلك يحذر «لورانس بروان» من هذه الوحدة قائلاً: «إذا اتحد المسلمون في ظل إمبراطورية عربية، أمكن لهم أن يصبحوا لعنة على العالم؛ أما إذا أبقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير». ويذكر «القس سمون» هذا الهدف بطريقة أوضح: «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية. ولذلك كان التبشير عاملاً مهمًا في كسر شوكة هذه الحركة، وتحول بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين»[١].

ومن أجل ذلك قام المبشرون ببث الفتن الطائفية داخل المجتمعات الإسلامية حتى أن المبشر «زويمر قداندس» بين أبناء الأزهر في زي طلبة العلم، ثم راح يوزع منشورات الفتنة الطائفية بين المسلمين الأقباط، وكذلك قام المبشر «هنري لامنس» بأعمال مماثلة في الشام[٢].

ثالثًا: معاونة الاستعمار الغربي والتجسس على العالم الإسلامي:

لقد تدنى رجال الكنيسة إلى أغراضهم الخبيثة في مسوح الرهبان وحمل الإنجيل لحساب الاستعمار، هذا ما أثبتته الوثائق باعتراف المبشرين أنفسهم والمستعمرين الذين أرسلوهم، يقول المبشر الأمريكي «جاك مندلسون»: «لقد تمت محاولات نشيطة لاستعمال المبشرين لا لمصلحة المسيحية، وإنما لخدمة الاستعمار. وقال نابليون: إن في نيتي إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية. وهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عونًا كبيرًا في آسيا وإفريقيا، وسأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار. إن ملابسهم

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية/ مصطفى خالدي، وعمر فروخ ص ٣٧ . ط بيروت .

(٢) الجذور التاريخية لإرساليات التبشير/ خالد نعيم ص ٢٠١، ٢٠٢، ط دار المختار/ ١٩٨٦م.

تحميهم وتحمي أية نوايا اقتصادية أو سياسية». ولقد أثبتت الوقائع ما تضمنته الوثائق من التعاون بين المبشرين والاستعمار. يقول الزعيم «أحمد عرابي» الذي كان ضابطًا في الجيش المصري في حملته إلى الحبشة في «عهد الخديوي» إسماعيل: كان أحد القسس الفرنسيين المبشرين في بلاد الأحباش يتردد كل يوم على رئيس أركان الحرب الجنرال «لورنج» متطلعًا أحوال الجيش المصري حتى علم بمقداره، واتفق معه على الحركة الحربية التي تؤدي إلى هلاك الفرق المصرية عند الصدمة الأولى.

وعن طريق هذا القسيس: المبشر تصل المعلومات العسكرية إلى الملك «يوحنا» ملك الحبشة[١] والأولى من ذلك أن الدولة العثمانية كلما أرادت أن تحد من نشاط المبشرين أو إغلاق مدارسهم كانت قناصل الدول الأجنبية يدافعون عنهم، ويضغطون على الحكومة العثمانية، وكذلك في مصر حينما وقف الخديوي إسماعيل موقفًا شديدًا من المبشرين اتهموه بالاستبداد[٢].

رابعًا: تحقيق مكاسب تجارية ومادية:

ومما يدل على استعمارية التبشير: اتجاه القائمين عليه على تحقيق أهداف أخرى غير الدعوة إلى المسيحية. منها: استخدام التبشير كأسلوب للتجارة يدر على القائمين به أرباحًا طائلة. لذلك فإن شركة «الهند الشرقية الهولندية» قامت بتأسيس مدرسة اللاهوت، وربت فيها اثني عشر قسيسًا للخدمة في أندونيسيا وسيلان، وكان كل مبشر من هؤلاء يتقاضى عمولة نقدية عن كل شخص يدخله في النصرانية، وفي الهند اشتغلت البعثة السويسرية التبشيرية بالأعمال التجارية، وفي إفريقيا كانت الإرساليات التبشيرية تأخذ الأطفال لا من أجل التعليم، وإنما للعمل في مزارع الإرساليات[٣].

هذه هي الأهداف الرئيسية للتبشير، وقد أوجزت بيانها بما يتناسب مع طبيعة المبحث، والحديث الآن عن وسائل التبشير:

---

(١) ظلام من الغرب/ محمد الغزلي ص ١٠٩، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.

(٢) التبشير والاستعمار ص ١١٧، ١١٨ مرجع سابق، والغارة على العالم الإسلامي ص ٢٧، ٤٢ .

(٣) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ص ١٤٣ .

وسائل التبشير:

استخدم المبشرون كل الوسائل التي توصلهم إلى أهدافهم بدءًا من القوة العسكرية إلى اللين والتسامح. ويمكن تلخيص هذه الوسائل فيما يلي:

الطب الوسيلة الأولى:

استخدم المبشرون الطب كوسيلة للضغط على المريض صاحب الألم، حيث يقوم المبشر بمساومة المريض على دينه وعقيدته مقابل تطبيبه. يقول أحد المبشرين: «حيث تجد بشرًا تجد ألمًا». وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير. وقد اعتبر الأمريكيون الطب مشروعًا مسيحيًا، وعلى هذا قال الطبيب «بول هاريسون»: «إن المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفى، ولو لغت منافع ذلك المستشفى منطقة «عمان» بأسرها، فلقد وجدنا في بلاد العرب لنحمل رجالها ونساءها نصارى»[1].

ووسائل التبشير في المستشفى تبدأ بتوافد المرضى على العيادة. ويقوم كاتب وهو واعظ إنجيلي بتحرير بطاقة للمريض، كما تقوم الممرضة بمعرفة شخصية المريض وظروفه الخاصة وحالته الاجتماعية والمالية، وتصل هذه المعلومات إلى مكتب قسيس المستشفى، ثم يأتي واعظ من قبل قسيس يقص قصة على جمهور المرضى. أما الذين يدخلون المستشفى، فإنهم يتلقون درسًا دينيًا كل يوم، ثم توزع على المرضى النشرات لقراءتها، ومن يرون فيه أنه قد تأثر، يعقدون له زيارات خاصة، ويغدقون عليه من الأموال والهبات ما يجعله ينسى دينه وعقيدته[2]. وفي نصيحة إحدى المبشرات «ايراهاريس» لطبيب ذاهب إلى مهمة تبشيرية: «يجب أن تنتهز الفرصة لتصل إلى آذان المسلمين. إياك أن تضيع التطبيب في المستشفيات، فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق لعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير. فلا تسمع منه»[3].

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٥٩، مرجع سابق.

(٢) التبشير والاستشراق/ إبراهيم خليل أحمد/ ٣٩، ط القاهرة ١٩٧٥م.

(٣) التبشير والاستعمار ص ٦٢، ٦٣.

وهكذا حول المبشرون الطب إلى وسيلة خسيسة لفتنة الضعفاء والمحتاجين عن دينهم، حتى إنهم كانوا في الحبشة لا يعالجون المريض قبل أن يركع على الأرض ويطلب من المسيح أن يشفيه.

الوسيلة الثانية: استخدام الخدمات الاجتماعية:

استغل المبشرون فقر المسلمين في مجاهل إفريقيا، وخيروهم بين الإسلام وبين المساعدات التي يقدمونها، مثل: الملاجئ ومراكز الرعاية الاجتماعية للفقراء والمحتاجين، واستخدموها لفرض النصرانية عليهم. يقول المبشر «رايد»: إننا نحاول أن ننقل المسلم من محمد إلى المسيح، ونحن لا نحب المسلم لذاته، ولا لأنه أخٌ لنا في الإنسانية، ولولا أننا نريد أن ننقله إلى صفوف النصارى لما ساعدناه[١].

ولقد كان شعار المبشرين أيام الجفاف في إفريقيا: «ارفع عنك الإسلام نرفع عنك الجوع والعطش» وكانت البعثات التنصيرية في «السنغال» توقع عقودًا مع الأسر الفقيرة، تقدم البعثات بموجبها إلى هذه الأسر مساعدات عينية في كل شهر على أن يكون لها الحق في اختيار أحد أطفال الأسرة دون الخامسة من عمره ثم يربى تربية مسيحية، ويرسل إلى «فرنسا» لاستكمال تعليمه، ثم يستخدم بعد ذلك في أعمال التبشير، أو يستخدم في تحقيق مصالح الغرب النصراني، وكان «سنجور» رئيس جمهورية السنغال أحد هؤلاء[٢]. وهكذا استغل المبشرون الفقر لإجبار الشعوب على اعتناق النصرانية.

الوسيلة الثالثة: استخدام المكتبات والصحافة والنوادي والمدارس:

استغل المبشرون جميع أوجه النشاط الإنساني لخدمة التبشير، فمن هذه الأوجه إنشاء المكتبات لبيع الكتب الدينية والثقافية الموجهة وبأرخص الأسعار، بغرض استجلاب الناس ومحادثتهم أثناء البيع، وتوجهوا بالكتب إلى طلبة الأزهر والمرأة المسلمة[٣]، كما أنشؤوا عددًا من الصحف اليومية والأسبوعية، منها صحيفة «بشائر الإسلام، والشرق والغرب في مصر، والنشرة الأسبوعية في بيروت، كما حاولوا

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٣ .

(٢) السابق في المقدمة ص ٢، ٣ .

(٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٣ .

استخدام الصحافة الوطنية في العالم الإسلامي لنشر آرائهم[١]. كما أنشؤوا عددًا من الأبنية الرياضية، والجمعيات الشبابية لاجتذاب الشباب ومحاولة الاحتكاك، به منها «جمعية الشبان المسيحيين، وجمعية الشبات المسيحيات، وأنشؤوا لهما فروعًا في كل أنحاء العالم الإسلامي. يقول المبشر «أريسون»: إن عوامل التعليم المسيحي في مصر تزيد قوتها بمؤسستي جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشبات المسيحيات، وهما مؤسستان غير طائفيتين، بمعنى أنهما تقبلان أعضاء من جميع الملل والمذاهب، وأن لها بين الجمعيتين مراكز نشطة خصوصًا في القاهرة والإسكندرية، وهي تقدم للمسلمين في مناسبات مختلفة الألعاب الرياضية، كما تقوم هذه الجمعيات بتنظيم لقاءات فكرية ومحاضرات عامة الهدف منها هدف تبشيري لبلبلة الفكر عند الشباب[٢].

ومن أبرز أنواع الأندية: بيوت الشباب، وهذه في الحقيقية منازل ينزلها من تضيق في وجوههم سبل العيش من الشبان أو ممن لا بيوت لهم. وقد أصبحت هذه المنازل جزءًا من البرنامج التبشيري، وقد أخذ المبشرون يؤوون إلى هذه المنازل الصبيان والبنات والذين لا بيوت لهم، وكان هؤلاء يعلمون فيها أو يدربون على الأساليب المسيحية[٣].

كما لم يتوان المبشرون عن استخدام القوة إذا كانت هي السبيل لنشر المسيحية، ولم يتورعوا عن سلوك أي طريق من أجلها، فقد قام الشيوعيون الفرنسيون عام (١٩٣٠) بجمع عدد كبير من العلويين في «جنينة رسلان بسوريا»، وحملوهم على الإقرار بالمذهب الكاثوليكي بالقوة المسلحة[٤]. وفي العراق اعتمد المبشرون على الأساليب الدموية الخسيسة، وإن جماعة كبيرة من الذين أكرهوا على تبديل دينهم خرجوا من الكنيسة التي عمدوا فيها إلى المساجد ليعودوا إلى إيمانهم[٥].

هذه هي أهم الأساليب التي يستخدمها التبشير للوصول إلى تحقيق أهدافه للنيل

---

(١) عمر فروخ ص ٢١٣ .

(٢) السابق ص ٢٠١ .

(٣) السابق ص ٢٠٩ .

(٤) السابق ص ١٢٢ .

(٥) التبشير والاستشراق ص ٢٤٦، مرجع سابق .

من الإسلام والمسلمين.

والآن ننظر في التاريخ لنرى كيف كان انتشار التبشير وأعماله لتحقيق أهداف عدة - تتمثل في احتواء المسلمين في فلك الحضارة الغربية - بعد ظهور الإسلام وانتشاره، وما حدث بين المسلمين والنصارى من مواجهات طويلة[١] اهتمت الكنيسة بتوجيه جهودها إلى التبشير بالمسيحية في العالم الإسلامي، وقام الباباوات بالتبشير في بلاد المسلمين في مختلف العصور بمختلف الوسائل، وكانت إرساليات المبشرين هي مقدمات الاستعمار وطوالعه الممهدة له.

وفي نهاية القرن السابع الهجري قامت الدولة العثمانية واتسع نطاقها، وأقامت الخلافة الإسلامية التي ضمت في ذلك الوقت خمسة وثلاثين مليون مسلم، وشغلت مساحة ضخمة امتدت عبر ثلاث قارات، واحتلت مكانة متميزة لتزعمها العالم الإسلامي، وهددت العالم المسيحي؛ ولذلك أصبحت هي الهدف المباشر للقوى المسيحية الغربية وغيرها التي ركزت جهودها بتوجيه إرسالياتها التنصرية إلى ولايات دولة الخلافة. ولقد انطلقت هذه الإرساليات من مختلف دول أوروبا المسيحية وأمريكا وروسيا، بعد أن اتخذت من جزيرة «مالطة» قاعدة للهجوم على المشرق الإسلامي، فبدأت ببلاد الشام، ومنها وصلت إلى مصر.

وكان دخول هذه الإرساليات إلى أراضي الدولة العثمانية - عن طريق الامتيازات التي حصلت عليها الدول الغربية من السلطان العثماني بداية من عهد السلطان سليمان القانوني عام (١٥٣٥م) وبمقتضى هذه الامتيازات؛ أصبح للدولة صاحبة الامتياز الحق في تعيين قنصل للنظر في مصالح رعاياها والحكم فيما بينهم بقانون بلدهم[٢].

وقد أساء الأجانب استعمال هذه الامتيازات؛ حيث ساعدوا الإرساليات التنصيرية - التي كانت أداة في يد الحكومات الأوروبية تعتمد عليها في بسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على البلاد التي تتطلع إلى امتلاكها، وكان النشاط التنصيري من أقوى الركائز الاستطلاعية للدول الاستعمارية.

---

(١) راجع التمهيد لهذا الباب.

(٢) راجع الاتفاقيات في الفصل الأول والثاني من هذا الباب.

وكانت بلاد الشام الخلية التي انتشر منها النشاط التبشيري في الولايات العثمانية، حيث كان المنصرون ينتمون إلى جنسيات متعددة ذات مذاهب شتى مختلفة الطوائف، كانت مذاهبهم - الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس - وطوائفهم تحمل أسماء متعددة، مثل: اليسوعيين العازريين، والكرمليين، وكان لأفراد هذه الإرساليات نشاط ديني مكثف تستر وراء أنشطة مختلفة تعليمية وثقافية تمثل في إنشاء المدارس والمعاهد والكليات الأجنبية في أصقاع شتى من أنحاء بلاد الشام، كما تمثل في إنشاء جمعيات أدبية وعلمية ذات صيغة مسيحية، وأنشأ المنصرون - على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم - مدارس في كليات كثيرة ومتنوعة؛ المدارس للتعليم والكليات لإعداد الخريجين للتدريس في المدارس، وقد بلغ عدد المدارس البروتستانتيه - الأمريكية في عام (١٨٦٠) ثلاثين مدرسة، كانت تضم زهاء ألف تلميذ، وكان التنافس في إنشاء المدارس والمراكز التنصيرية شديدًا بين أصحاب المذاهب المختلفة، مما أدى إلى نشاط الإرساليات في بلاد الشام بوجه خاص لم تشهد مثله باقي الولايات العثمانية من حيث الكم والكيف[١].

وكان أول اتصال رسمي بين إرساليات التنصير والحكومة المصرية في عهد محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٨) عندما زار «الأب اثين» الرئيس العام للعازريين في سوريا ومصر على رأس بعثة تبشيرية عام ١٨٤٠ فعرض عليه «محمد علي» إنشاء بعض المدارس في محاولة لتطوير التعليم، فاستجاب على الفور لهذا الطلب لتحقيق رغبات الإرسالية الفرنسية، وقام هذا المنصر بالتوسع في إقامة المدارس الكاثوليكية الفرنسية كمدخل للعمل التنصيري في مصر[٢]، فأنشأت الإرسالية الفرنسية أول ثلاث مدارس كاثوليكية هي مدرسة الرحمة بالإسكندرية، مدرسة سيدة الراعي الصالح بشبرا، ومدرسة للعازريين[٣].

---

(١) راجع: الدولة العثمانية/ ج١/ ٩٨ - ١٠٠، وأيضًا التبشير في البلاد العربية ص ١٣ - ٥٦ بتصرف واختصار.

(٢) نهضة مصر/ أنور عبدالملك ص ١٦٤، الهيئة العامة للكتاب، بدون تاريخ.

(٣) تاريخ التعليم في مصر/ أحمد عزب عبدالكريم ص ٦٧١، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٨م، وتاريخ التعليم الأجنبي في مصر/ جرجس سلامة ص ٥٠، ط القاهرة ١٩٦٣م.

وانتشرت الإرساليات بعد ذلك انتشارًا واسعًا حتى أشرف المبشرون على السياسة التعليمية في عهد سعيد[١]، حتى وصفه أحد المنصرين بأنه القديس الحارس للإرساليات[٢]، واستخدمهم كمستشارين له في أدق الأمور، حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها في سير العملية التعليمية في مصر، حتى قال «جرجس سلامة» إن المسيحيين الأجانب يدينون لسعيد باندماجهم الكامل في جسد الأمة المصرية[٣].

وكان لهذه السلطة - التي أولاها حكام الولايات العثمانية - للمنصرين آثارها المباشرة على الفكر في البلاد الإسلامية؛ ذلك لأن السياسة التعليمية الحديثة التي انتهجها «محمد علي» - قد أدت بالمصريين إلى الاتجاه نحو الحضارة الغربية، يقتبسون منها نظم السياسة الاقتصادية والإدارية، وسواء كان هذا الاتجاه في شتى النواحي صوابًا أو خطأ، فهو حقيقة في تاريخ مصر في أوائل القرن الماضي، ولم تكن حركة الاقتباس من الحضارة الغربية قاصرة على مصر، بل كانت موجودة بنسب متفاوتة في غيرها من بلاد الشرق: في تركيا وتونس، ولم تقف عند حد، واشتد ذلك التأثر بدخول الأموال الأجنبية، ثم الاستدانة والأخذ بنظام الحكم البرلماني، ثم تنتهي هذه المراحل إلى درجات متباينة من السيطرة الأجنبية على شؤون الحكم والمال، وتطورت هذه الحركة إلى الأخذ عن أساليب الغرب في كل شيء للاستعانة بها على النهوض بالبلاد ومكافحة السيطرة الأجنبية، والتعليم مظهر مهم لحركة الاقتباس عن الحضارة الغربية، بل هو أهم مظاهرها[٤].

وقد اتخذ التبشير من التعليم أكبر أهدافه وأعظمها في تشكيل أجيال المسلمين والعرب على النحو الذي يضمن له استسلامه لنفوذه وتقبله، واعتناقهم لمفاهيمه وقيمه، وإذا كان التبشير بوصفه أداة الاستعمار الأولى والكبرى، فقد عمل في ميادين الثقافة واللغة والتأليف والصحافة والمحاضرات العامة. وقد اشتدت حركة التبشير في فترة الاحتلال للبلاد العربية، حيث وجدت الإرساليات كل الحماية من السلطات المحلية، وليس أدل على ذلك من أنه حين قام أحد المنصرين الإنجليز -

---

(١) نهضة مصر ص ١٦٣، مرجع سابق .

(٢) الجذور التاريخية للإرساليات ص ٤٥، ٤٦ .

(٣) تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ص ٤٥، مرجع سابق .

(٤) تاريخ التعليم في مصر ص ٦٥٨، ٦٥٩، مرجع سابق .

وكان يدعى «ثورنتون» في عام ١٨٨٢ بعدة رحلات إلى مدن الصعيد، وكان في كل مديرية ينزل بها يقوم بزيارة مديريها والمطران القبطي بها، ويتولى أعيانه إرسال الدعوات إلى كبار الأعيان من المسلمين، بل إنه كان يدخل كل غرفة بديوان المديرية ومراكز البوليس والمحاكم ويدعو الموظفين بنفسه لسماع محاضراته عن التبشير بالمسيحية. والغريب أن مديرى المديريات وشيوخ المسلمين والقساوسة والأقباط والضباط والموظفين كانوا يحضرون هذه اللقاءات ويسمعون إليه، ليس حبًا في معرفة رسالته التبشيرية، وإنما خوفًا من بطش السلطات البريطانية بهم وبذويهم[١]، بل قام الاستعمار البريطاني بمساعدة المنصرين بإزالة العوائق التي تعترض عملهم، من ذلك ما قام به اللورد «كتشنر» الذي كان قائد الجيش من أمره وزير الأوقاف المصري بإلغاء المستشفي الذي شيدته الوزارة في حي مصر القديمة بجوار مستشفى «هرمل التبشيري»؛ لأنه يصرف كثيرًا من الفقراء عنهم فيحرمون من التنصير[٢].

واتسع نطاق المدارس بعد الاحتلال بناء على تقرير الوزير البريطاني «ديفرن» الذي زار مصر بعد الاحتلال بعام، ووضع مخطط العمل الاستعماري في مصر في كل مجالات الحياة وميادينها وفيما يتعلق بدور الاحتلال في التعليم قال: إن الأمل في نجاح تهذيب العامة في مصر نجاح عظيم ما زال ضعيفًا ما دام الصبيان لا يتعلمون العامية بدلًا من تعلم لغة القرآن كما يفعلون الآن[٣].

ولتوصيات هذا التقرير زادت مدارس الإرساليات الإنجليزية إلى مائة واثنتين وخمسين مدرسة بعضها ضمت ألفين ومائتين وسبعة وأربعين طالبا، وهكذا لم ينته القرن التاسع عشر إلا وقد عظم شأن التبشير، واستفحل تحت ظل الاحتلال، ودخل في طور جديد، حيث اتحدت القوى الاستعمارية فيما بينها لتنظيم جهودها التبشيرية لاحتواء العالم الإسلامي، حيث عقدت عدة مؤتمرات من عام (١٩٠٠ وحتى عام ١٩٣٥) حيث غيروا فيها وسائلهم؛ لأن النتائج لم تكن مرضية، واقترحوا في مؤتمر أدنبرة عام (١٩١٠) على حد تعبير زويمر: يجب علينا قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين

(١) الجذور التاريخية لإرساليات النشر ص ١٣٨ . مرجع سابق .

(٢) الإسلام في وجه التغريب ص ٢٩، مرجع سابق .

(٣) الإدارة المصرية تحت السيطرة البريطانية ص ١٧، مرجع سابق .

أن نهدم الإسلام في نفوسهم حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم أو في نفوس من يتربون على أيديهم»[١].

ومن ذلك الحين اتحد التبشير والاستشراق لتشويه الإسلام، الاستشراق يصنع الشبهة والتبشير يدعو إليها بوسائله الخاصة بعد سيطرة المبشرين على وزارات التعليم في العالم العربي، فقد كان دنلوب في مصر، ولافيجري في المغرب، «وزويمر» في بلاد الخليج العربي، وقد وضعت مناهج الدراسة في مدارس الإرساليات ومدارس التعليم الحكومي على أساس تحقيق الهدف من هذه المدارس. وقامت المناهج على تحقيق هدف واحد هو إخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم، وخاصة في أمرين: القضاء على الرابطة الإسلامية التي تجمعهم، وأن يكون الإسلام عبادة ولاهوتًا وليس دين مجتمع ومنهجًا صالحًا للتطبيق. وقد وضعت الخطة مسارًا لتحقيق ذلك تتمثل فيما يلى: عند عرض الأديان على الطلاب يعرض الإسلام عرض عداء وخصومة والدس على الإسلام وتاريخه، وأنه ليست هناك وحدة بين أقطار الإسلام؛ لأن لكل منها جذوره الإقليمية، وإيهام الطلاب أن البلاد الإسلامية كانت محتلة بالرومان والفرس، ويعتبر العرب والأتراك قوى احتلال[٢].

فقد قام المبشرون بترويج كتابات خصوم الملل لمحاربة الإسلام، من ذلك ما كتبه «أوجست كونت، ونيتشه» وغيرهما ممن حاربوا الفكر المسيحي، ونقل المبشرون هذه الآراء لواجهة الإسلام، من هذه القضايا: محاولة التفريق بين المسلمين بتقسيمهم إلى عرب وغير عرب، والادعاء بأن الذين نبغوا في تاريخ الإسلام لم يكونوا عربًا، كما أثاروا الشبهات حول الحديث النبوي ومصدره والدعوة إلى الاكتفاء بالقرآن، وهي دعوة خطيرة تهدف إلى الفصل بين النص والتطبيق، وإلى التشكيك في السنة النبوية التي هي جزء من القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣]. والادعاء بأن منطق القرآن هو منطق أرسطو.

---

(١) انظر الجذور التاريخية ص١٨٥، والإسلام في وجه التغريب ص ٧١ .

(٢) انظر: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ٩٤، ١٠٣، والإسلام في وجه التغريب ص ١٧٨ - ١٨٠ بتصرف واختصار .

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤ .

كما عمد المبشرون إلى الدعوة بأن الجهاد كان مرحلة واحدة «عام» وانتهت، وقاموا بتفسير آيات الجهاد تفسيرًا يخرجها عن معناها، وأرادوا خداع البسطاء من المسلمين حين ربطوا بين واقع المسلمين الآن وبين الإسلام ويقارنون بين واقع الأوروبيين وبين المسيحية، وإن الإسلام السبب في تأخر المسلمين، والمسيحية السبب في تقدم الأوروبيين، وأخيرًا وصفوا الشريعة الإسلامية بأنها مستمدة من القانون الروماني اليوناني(١)، كما تعرضوا للغة العربية، ووجهوا إليها حملة ضخمة، الهدف منها القضاء على القرآن الكريم مصدر الإسلام، فكانت الدعوة إلى العامية والتي بدأها «ولهام سبيا»، «وكارل فولرس» «وويلم ويلكوكس» وهؤلاء في مصر وبدأوا من عام (١٨٨٠ حتى عام ١٩٢٦)، وفي المغرب قاد هذه الدعوة «لواء كولان» ومن بعده «ماسنيون»(٢)، وكان الهدف من هذه الدعوة هو خدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثقافية وتمزيق اللسان العربي.

يقول «زويمر مشيرًا» إلى خطورة اللغة العربية: «إن اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم»(٣) وهذا القول إشارة منه إلى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القرآن. ولقد تزعم هذه الحركة من المصريين أذناب الاستعمار «أحمد لطفي السيد» الملقب بأستاذ الجيل، وبدأها عام (١٨٩٩) في مجلة الموسوعات، حيث ادعى أن اللغة العربية أصبح تعلمها أبعد منالًا من تعلم اللغة الأجنبية، ودعا إلى تسكين حروف الهجاء، وفك الإدغام، وإهمال الشكل، وسخر من هذه الضوابط كلها(٤). وأخبث ما في دعوته هذه للقضاء على ضوابط اللغة العربية قوله: إن اللغة ملك للأمة، وللكتاب الحرية في الزيادة عليها بأساليب جديدة بألفاظ جديدة، وإنه لا حرج على الكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ لما شاء من المعاني(٥).

ولم يقف التغلغل الفكري للاستعمار إلى هذا، وإنما سخر أناسًا من الذين

---

(١) انظر: الإسلام في وجه التغريب ص ١٨٠ - ١٩٠ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين ج٢ / ٣٥٩، ط مؤسسة الرسالة .

(٣) انظر نتائج مؤتمر ادبزج في الغارة على العالم الإسلامي ص ٤٨، مرجع سابق .

(٤) جيل العمالقة وقمم الشوامخ د. أنور الجندي/ ٤١ .

(٥) السابق/ ٤٢ .

يسمون أنفسهم مسلمين للمناداة بالكتابة بالأحرف اللاتينية، كما فعل الكماليون في تركيا حيث حرموا تدريس اللغة العربية في غير المعاهد الدينية، وقد «حمل عبدالعزيز فهمي» لواء الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية في مصر[١]. ومن أحدث المؤسسات التنصيرية في مصر جامعة مانجور أو الجامعة الفرنسية للتنمية الإفريقية، وقد تأسست بقرار جمهوري عام (١٩٨٩) وهي لا تخضع في مناهجها وإدارتها لإشراف وزارة التربية والمجلس الأعلى للجامعات، وما هي إلا وسيلة من وسائل تنفيذ وصية لويس التاسع بعد حملته على مصر وأسره في المنصورة، وليس أدل على ذلك من اختيار المؤسسين لها يوم ٥ يونيه (١٩٨٩)؛ لأن ٥ يونيه من عام (١٢٤٩هـ) هو اليوم الذي كان فيه الغزو الفرنسي لمصر؛ أي: الحملة السابقة بقيادة لويس حيث استولى على دمياط يوم ٥ يونيه، فليست من قبيل المصادفة أن يكون هذا التاريخ وهو تاريخ إنشاء الجامعة، وأن يحضر رئيس فرنسا بنفسه خصيصًا من أجل ذلك، إنما هو الغزو والاحتلال من طريق آخر[٢].

وكذلك الجامعة الأمريكية وغيرها من المؤسسات مثل مركز البحوث الأمريكي، وهو يحظى بعضوية عدد من الأساتذة المصريين ومزدوجي الجنسية، وقد قام هذا المركز بدراسات وبحوث حول تحرير المرأة، ومصر البيزنطية إبان الغزو العربي لفلسطين وسوريا وغيرها من البحوث[٣].

وما هذه المؤسسات إلا امتداد للحرب الصليبية، وليس أدل على ذلك من قول «القس اليسوعي»: مييز إن الحرب الصليبية الهادئة التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر لا تزال مستمرة إلى أيامنا هذه، وكان من أكبر أعمالهم مدرسة الأزبكية للبنات عام (١٨٦١) ثم كلية رمسيس للبنات عام (١٩٠٩)، ثم الجامعة الأمريكية عام (١٩١٩). ومن هنا انطلق النشاط التبشيري الذي ضج منه الأقباط قبل المسلمين في كافة أنحاء مصر[٤].

وهكذا يعمل التبشير تحت حراسة القيادات العلمانية التي سخرها الاستعمار لرعايته وتطبيع أهدافه.

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية ج٢/ ٣٦٢، وجيل العمالقة ص ٤٢، والإسلام في وجه التغريب ص ٢١٤.

(٢) جريدة الشعب في ٦/ ٣/ ١٩٩٠م.

(٣) التطوير/ علي أحمد لبن ص ٥١٠، ط دار الوفاء.

(٤) السابق/ ٥١.

المطلب الثاني
الاستشـــــــــراق

الاستشراق: أحد أساليب الاستعمار الغربي لاحتواء العالم الإسلامي، وهو مصطلح يقصد به العلم بما يتعلق بالشرق[١]، وكلمة مستشرق تطلق ويراد بها: كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق في لغاته وآدابه وحضارته وديانته[٢].

وهو في مجمله العام: حركة علمية لدراسة العلوم والآداب والحضارة والثقافة الإسلامية بهدف معرفة عقلية المسلمين وأفكارهم واتجاههم وأسباب تفوقهم وقوتهم لضرب هذه القوة من جهة، والاستفادة من علوم المسلمين من جهة ثانية، والتمهيد للاستعمار النصراني لدول العالم الإسلامي وإخضاعها لنفوذه وسلطانه من جهة ثالثة.

أما نشأة الاستشراق، فإنه لا يوجد دليل قاطع على البداية الحقيقية والمنظمة للاستشراق، ولكنه كحركة منظمة لها أهداف محددة ومنهج معين نشأ في العصر الحديث وبالتحديد في القرن الثامن عشر، وهو الوقت الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي للاستيلاء على مقوماته وممتلكاته.

وللاستشراق أهداف كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- الأهداف الدينية:

إن الناظر في تاريخ الاستشراق وفي بدايته يجد أن الاستشراق نشأ بجهود بعض الرهبان الذين تثقفوا في الأندلس ونهلوا من علوم الإسلام ومعارفه في تلك البلاد، وقد استمرت هذه الجهود برعاية الكنيسة التي سخرتهم لخدمة أهدافها الحقيقية، وهي تشويه الإسلام وتوجيه المطاعن إلى النبي ﷺ، والذي دفعهم إلى ذلك هو المد السريع للإسلام الذي زحف على المعاقل المسيحية وطرق أبوابها، وقد استهدفت الكنيسة من هذه الشبهات تحقيق غايتين:

---

(١) راجع المبحث من الباب الأول .

(٢) الاستشراق د. محمود حمدى زقزوق ص ١٨ كتاب الأمة رقم (٥) .

الأولى: أن يثبت رجال الكنيسة لجمهور المسيحيين أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قتلة وسفاكو دماء؛ وذلك لصرف أنظار الغربيين عن الإسلام، والحيلولة دون انتشار الإسلام.

والغاية الثانية: هي انتزاع مقومات الدين الإسلامي، والتشكيك فيه كوسيلة لفرض الثقافة الغربية على المجتمعات الإسلامية.

٢- الأهداف الاستعمارية:

بعد فشل أعداء الإسلام في حروبهم الصليبية للقضاء على المسلمين والإسلام عن طريق القوة العسكرية بدؤوا بتبني الاستشراق وتمويله، واعتبار أن المستشرقين طلائعه الذين يتعرفون على الأفكار الإسلامية والقيام بالدعايات، وإثارة المنازعات، وإشعال الخلافات، والتجسس على البلاد، والتعرف على أحوالها وكتابة التقارير عنها؛ ولذلك كان كثير من المستشرقين سياسيين، ينفذون رغبات الاستعمار الغربي مثل «لويس ماسنيون»، «هانوتو»، سانت «هلير» وغيرهم[١]، كما كان من المستشرقين يهود يعملون على خدمة المخططات اليهودية في العالم الإسلامي لهدم الإسلام، والتمكين لهم في فلسطين عن طريق تشويه التاريخ العام لتأكيد حق اليهود في فلسطين[٢].

الأهداف الاقتصادية:

وتتمثل الأهداف الاقتصادية في رغبة المستعمرين في غزو البلاد الإسلامية اقتصاديًا بهدف الاستيلاء على ثرواتها الطبيعية ومؤسساتها الاقتصادية، وإماتة الصناعة المحلية حتى تكون البلاد الإسلامية ميدان استهلاك لما تنتجه الأيدي الغربية؛ فكان أن شجعوا الدراسات الاستشراقية حتى تكشف لهم عن طبيعة العقلية العربية وكيفية التعامل معها. وقد جاء في مذكرة رفعها جمع من العلماء إلى المسؤولين في جامعة «كمبردج» والتي طلبوا فيها إنشاء كرسي الدراسات العربية ما يلي:

«يضع المرء نصب عينه خدمة مصالح الملك والدولة، وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وتوسيع حدود الكنيسة، ونشر الدين المسيحي بين

---

(١) مقدمات العلوم والمناهج (الفكر الإسلامي) أنور الجندي ص ٢٠٠، دار الأنصار.

(٢) الفكر الاسلامي الحديث/ ٣٥ محمد البهي.

أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة»[(١)]، إلى جانب الأهداف العلمية التي كانت مقصد نفر قليل من المستشرقين أمثال «كارليل، توماس أرنولد، ليوبولد فايس». ولقد استخدم المستشرقون وسائل متعددة توصلهم إلى تحقيق أهدافهم، فقد سلكوا طرقًا عديدة في الوصول إلى أغراضهم منها: التدريس الجامعي، وجمع المخطوطات العربية، والتحقيق والنشر والترجمة بالإضافة إلى الاشتراك في المجتمعات اللغوية والمجامع العلمية في العالم الإسلامي، وهم يعملون وفق مخطط مدروس للحط من قيمة الفكر الإسلامي[(٢)].

ولقد اتجهت الحركة الاستشراقية اتجاهًا معاديًا للإسلام بعد ظهور الدولة العثمانية وتهديدها لمركز الغرب، وانحسار المسيحية بسقوط القسطنطينية باعتراف «غوستاف لوبون» حيث يقول: «لا جرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم في عهد «شارل مارتل» وفي الحروب الصليبية وبعد استيلاء العثمانيين على «الأستانة»، يذلوننا بحضارتهم السامية السامقة، ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا والنقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون حتى أصبحت جزءًا من نظامنا»[(٣)].

وقد كان لهذا الحقد أثره في نفوس الغربيين الذين ضاقوا ذرعًا بالإسلام والمسلمين، والذي أدى إلى تعصب فكري وديني وقومي. يقول «محمد كرد علي»: «وبدهي بعد هذه الطوائل والأحقاد التي طالت لياليها السود خصوصًا بعد أن هزت الدولة العثمانية في العصور الأخيرة أعصاب أوروبا زمنًا أن يقول الخصم في خصمه ما قد يحط من قدره ويصغر من أمره، ولا يفوتنا أن الجهل كان فاشيًا في الغرب، وأن الدين كان مسيطرًا على كل عالم وباحث، وأصبحت آراء المؤرخين تختلف في الجوهر والعرض في الحادثة الواحدة؛ لأن من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التعصب القومي»[(٤)]، وبهذه الروح التعصبية أقبل المستشرقون على دراسة الإسلام انطلاقًا من نزعتين رئيسيتين.

---

(١) مجلة الجهاد عدد (٩٨) السنة العاشرة أبريل ١٩٩١ ص ٩٦ تصدر عن ليبيا .

(٢) انظر: التبشير والاستشراق ص ٦٢، الاستشراق/ ص ٥٩مرجع سابق.

(٣) حضارة العرب ص ٣٣٥، مرجع سابق .

(٤) الإسلام والحضارة العربية ج١/ ٣، مرجع سابق .

الأولى: الروح الصليبية في دراسة الإسلام مستترين بثياب البحث العلمي، وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة.

الثانية: تمكين الاستعمار الغربي في البلاد العربية، وتمهيد نفوس أهل البلاد لقبول النفوذ الأوروبي والرضا بولايته(١).

وتتجلى مظاهر ذلك في إضعاف القيم الإسلامية أولاً، ثم تمجيد القيم الغربية المسيحية، ولأجل إضعاف القيم الإسلامية قام المستشرقون بنشر بحوثهم حول الإسلام والقرآن والسنة والشريعة والتاريخ الإسلامي، وذهب المستشرقون في فهمهم للإسلام فهمًا ماديًا خالصًا، فهم ينكرون الوحي والنبوة، وينكرون المصدر الرباني للقرآن، كما كانت شخصية الرسول ﷺ محور مخططاتهم المسمومة، كما تعرضوا لأزواجه ﷺ وهي تفاسير كلها متجردة من النصيب الديني، ولأجل تمجيد القيم الغربية في نفوس المسلمين قام المستشرقون بإبراز التفوق الغربي في مجالات الحياة العامة، متخذين ذلك للتدليل على رجاحة التوجيه الغربي، وعلى سمو مقاييس الحياة والحضارة الغربية، وعلى أصالة القيم المسيحية، وقوة صلتها بتحرير الإنسان في الجهل والفقر، وأيضًا قوة صلتها بانطلاق الإنسان في الحياة من غير خوف أو وجل، وأن الحضارة الغربية الصناعية هي عنوان هذه القيم، وتخلف المسلمين في مجال هذه الحضارة دليل على تخلف الإسلام في قيمه ومبادئه(٢).

ولقد كان المجتمع الإسلامي - في تلك الفترة التي هجم فيها الاستعمار الغربي بترويج هذه الآراء - في حالة ضعف وتأخر تقني إلى أنه كان محافظًا على قيمه الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية، وقد ظهر ذلك في مقاومتهم للحملة الفرنسية والحملة الإنجليزية من منطلق إيماني، واعتبار تلك الحملات حملات صليبية كافرة كما سبق بيان ذلك(٣).

وقد كان للتقدم الغربي في مجال العلم والتكنولوجيا أثره في تطلع الدول الغربية

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٤٣، مرجع سابق.

(٢) انظر: الإسلام في وجه التغريب ص ٣٢٥، والفكر الإسلامي الحديث ص ٥٣.

(٣) راجع الفصل الأول من هذا الباب.

إلى بسط نفوذها على البلاد العربية، وكانت الدولة العثمانية في عهود انحطاطها قد أهملت الجوانب العلمية في دور التعليم حيث كان التعليم مقتصرًا على تدريس العلوم الشرعية من الفقه والتفسير والحديث... إلخ هذه العلوم[١]، وهذا بالطبع أدى إلى انعدام تعلم العلوم التقنية والاجتماعية، وأمام إحساس المسلمين بالخطر اتجهوا إلى الأخذ بالأساليب الغربية في تنظيم الجيوش وتسليحها، ورأوا أن الهدف الحربي لا بد أن تصاحبه نهضة علمية، وقد رأوا أن الغرب قد سبقهم في ذلك[٢].

عند ذلك تطلع المسلمون إلى نقل العلوم التقنية الغربية لتحقيق الهدف الحربي، واتخذ هذا النقل طريقين:

الأول: إرسال البعثات إلى البلاد الأوروبية.

والثاني: استقدام أساتذة وخبراء غربيين للتدريس في المعاهد العلمية في الدول الإسلامية. فكانت هذه فرصة الغرب التي أحسن استغلالها لإذلال الشرق الإسلامي أو فرض الحضارة الغربية على مجتمعاته.

وقد قام المستشرقون بالدور الطليعي للاستعمار، واتخذ هذا الدور طريقين:

الأول: هو تغيير مفاهيم المبعوثين إلى بلاد الغرب.

الثاني: نشر القيم والمفاهيم من خلال عملهم في المعاهد العلمية والجامعات في البلاد الإسلامية.

ولقد قام المستشرقون بدق أوتادهم في مصر وتبعته بلدان العالم الإسلامي وخاصة تركيا موطن الخلافة الإسلامية. «فقد جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، وقد صحبت معها عددًا كبيرًا من العلماء المتخصصين في سائر فروع المعرفة، وقام نابليون بإنشاء المجمع العلمي المصري، وأنشأ مطبعة عربية ومكتبة ومتحفًا ومسرحًا، وفتحت أبوابها للمصريين واستمرت البعثة تعمل في مصر بعد رحيل الحملة»[٣].

---

(١) انظر: تاريخ التعليم ص ٨، ٩ .

(٢) هذه العلوم كان الغرب قد سرقها من الأندلس، وهي علوم عربية نقلها الغرب إلى لغته . راجع المبحث الثالث من الفصل الثاني .

(٣) المستشرقون/ نجيب العقيقي ج١/ ١٣٦ - ١٣٧، ط دار المعارف، وانظر: تطور الأدب الحديث/ أحمد هيكل/ ٢٥، ط دار المعارف ١٩٨٧م.

ولا يشك عاقل في أن هذه الوسائل من أهم طرق الاتصال الفكري بين الشعوب، فقد استخدمها الفرنسيون في بث الفكر الغربي في المجتمع المصري؛ مما كان له الأثر الكبير في أفكار المجتمع المصري، وفي تركيا أنشأ السلطان «سليم الثالث» مدارس للحربية والبحرية، واستقدم بعض المهندسين من السويد وفرنسا وإنجلترا للاستعانة بهم في إنشاء الصناعات الحربية وتدريب فرق الجيش على النظم والأسلحة الجديدة[١].

وقام «محمد علي» بإصلاحات جديدة الهدف منها: النهوض بمصر في مجالات الحياة المختلفة من تعليم وطب وهندسة وبحرية، فدفعته هذه الإصلاحات إلى استقدام مهندسين وأطباء وفنيين غربيين للقيام بهذه الإصلاحات، كما قام بإرسال البعثات إلى مختلف الدول الأوروبية ليتعلم أفرادها مختلف الصناعات والفنون في جامعات أوروبا[٢].

وكان للاستشراق دوره الرئيسي في نقل الفكر والثقافة الغربية مع هؤلاء المستقدمين الذين أشرفوا على تنظيم برامج التعليم في عهد «محمد علي»، ففي عام (١٢٥١هـ الموافق ١٨٣٦) صدر «أمر محمد علي» بتأليف مجلس عام للنظر في تنظيم المدارس، وكان أعضاء المجلس العام أغلبهم من الفرنسيين وهم: «كلوت بك»، «كياني بك»، «وأرتين بك»، «واسطفان أفندي»، «حكاكيان أفندي»، ولامير، «هامون»، ومعهم من المصريين مختار بك، «رفاعة الطهطاوي»، «محمد أفندي بيومي». وكان اجتماع هذه اللجنة لتنظيم المدارس ووضع برامج التعليم فيها[٣] وكل هؤلاء من المستشرقين الفرنسيين ترجم لهم «نجيب العقيقي» في كتابه «المستشرقون»[٤]. وكان للاستشراق أثره في المبعوثين إلى أوروبا لتعلم العلوم للنهوض بالدولة التي أراد «محمد علي» إنشاءها، فقد اتصل المبعوثون بالمستشرقين الأجانب وخاصة في فرنسا حيث جرت بينهم صلات صداقة، فقد اتصل «رفاعة الطهطاوي» بالمستشرقين «سلفستر دي» ساسي، «وكوسان دي برسفال»، «وجوزيف رينو»، «وجول سلادان»[٥]. وقام هؤلاء المبعوثون بترجمة

---

(١) الدولة العثمانية ج١ / ٥٢٦، مرجع سابق.

(٢) انظر: عصر محمد علي ص ٢٩٢، مرجع سابق، والمستشرقون والتاريخ الإسلامي ص ٩٤ .

(٣) تاريخ التعليم في مصر ص ٩٣ - ٩٤، مرجع سابق .

(٤) ج١/ ١٥٨ - ٢٠٠ .

(٥) تخليص الإبريز في تلخيص باريس/ الفصل الرابع من المرحلة الرابعة، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣م.

الكتب الأوروبية في مختلف الميادين العلمية ونشروها في المجتمعات الإسلامية، وعن طريق هذه الكتب انتشرت آراء «فولتير، وجان جاك روسو» عن طريق هؤلاء، كما وجدت مؤلفاتهم في مكتبة إحدى المدارس المصرية في عام ١٨١٦[١].

وقد تعاون هؤلاء المبعوثون - بعد عودتهم إلى مصر - مع البعثة الفرنسية من أتباع «سان سيمون» الذين استقدمهم «محمد علي» لتنظيم مرافق الدولة في النواحي الهندسية والطبية والتعليمية، وكانت فلسفتهم تعتمد على أن تنظيم المجتمع الحديث يكون على أساس علمي حر، يحل فيه العقل محل الدين عقيدة وتوجيهًا وسلوكًا، أي على أساس علماني، وهذا الفكر من آثار الثورة الفرنسية[٢]، فبسبب هذا الاحتكاك بين الشرق والغرب استغل الغرب ضعف الشرق وحاجته إلى علومه، فعرض عليه فكره ومفاهيمه لزعزعة قيمه ومبادئه التي حكمت الغرب حينًا من الزمان، فانتشرت آراء ومفاهيم جديدة في المجتمع الإسلامى عن الوطن والوطنية والحرية والديمقراطية بمفاهيمها الغربية، وانتشرت هذه الآراء في مصر عن طريق «رفاعة الطهطاوي»، ومؤلفاته التي ألفها أو الكتب التي ترجمها بإشراف أستاذه «جومار» المستشرق الفرنسي وعضو المجمع العلمي الفرنسي[٣]، وفي تركيا كان الاحتكاك بين الشرق والغرب يسير بنفس المنوال الذي سار عليه في مصر، فقد قام «السلطان محمود الثاني» بالتنظيمات العسكرية.

وكانت البعثات من والي تركيا من الغرب وكان من آثارها: انتشار الأفكار الغربية[٤]، وتأثر أعضاء بعثتها بتلك الأفكار من أمثال «ضياء كوك الب»، «ونامق كمال، ومصطفى كمال أتاتورك» وبقية أعضاء حزب «تركيا الفتاة» «وجمعية الاتحاد والترقي»[٥]، واتسعت حركة الاستشراق في تركيا في عهد «السلطان عبدالعزيز» الذي أصدر التنظيمات الخيرية، وخلاصتها: تغريب التعليم والقضاء، وإنشاء محاكم

(١) انظر: عصر محمد علي ص ٤٣٣، والمستشرقون ج١/ ١٦٩، والإسلام والحضارة الغربية ص ١٨ .

(٢) أوروبا في مواجهة الإسلام/ عبدالعظيم المطعني ص ٢٩٨، ط مكتبة وهبه .

(٣) تاريخ التعليم ص ٤٣٥ .

(٤) تاريخ الدولة العثمانية/ علي حسون ص ١٣٦ باختصار وتصرف .

(٥) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٤٤ وما بعدها .

مختلطة، وألغى القانون الجنائي الإسلامي، واستبدل بآخر فرنسي، ونظمت شؤون التجنيد تنظيمات غربية[١].

ودخل المستشرقون عاصمة الخلافة الإسلامية بوصفهم خبراء ومستشارين في الشؤون المختلفة حيث عملوا على نشر مؤلفاتهم وأفكارهم في البلاد التي دخلوها وخاصة في عهد الاحتلال، حيث فرض أفكار المستشرقين ومؤلفاتهم في مراحل التعليم في البلاد العربية وعن طريق الصحافة والمؤتمرات، وقد ركز المستشرقون في عملهم على إثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله وكتابه وحول تاريخ الإسلام، وإعلاء شأن الجوانب الضعيفة والمضطربة كالتصوف والفرق المعارضة للإسلام وشعر الهجاء، والغزل الجنسي، وشخصيات الزنادقة والشعوبيين أمثال أبي نواس وابن الراوندي، والحلاج وابن عربي[٢].

ومن آراء المستشرقين حول القرآن ما قاله «ريتشارد» بل في كتاب ألفه عن القرآن إن النبي ﷺ قد اعتمد في كتابه القرآن على الكتاب المقدس وخاصة العهد في قسم القصص، وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة، حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة وعن طريقها حصل على قدر غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل[٣]، إلى غير ذلك من الآراء حول كل مصدر من مصادر الإسلام لو تعقبتها في هذا المجال لخرج بنا الحديث عن نطاق البحث، ولكن يرجع في هذه الآراء إلى كتاب «الإسلام في وجه التغريب»، «الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم»، «فلسفة الاستشراق» وغيرها من كتب الغزو الفكري.

ولكن الأهم من ذلك: هو أن نتعرض إلى ما كتبه المستشرقون من كتب دونوا فيها آراءهم ليسمموا بها الفكر الإسلامي، من هذه الكتب «دائرة المعارف الإسلامية» التي تم إصدارها فيما بين عامي (١٩١٣، ١٩٣٨)، وقد ألفها عدد من المستشرقين

---

(١) انظر: تباشير النهضة في العالم الإسلامي ص ١١٦ وتاريخ الدولة العثمانية ص ١٥١، ١٦٠ .

(٢) الإسلام في وجه التغريب ص ٢٩٢ .

(٣) الاستشراق ص٨٤ .

وصدرت في طبعتها الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية، وتولت لجنة من خريجي الجامعات المصرية بنقلها إلى العربية[١].

ومع أن لهذه الدائرة قيمة علمية كبرى إلا أنها أوردت أخطاء في حق الإسلام، من هذه الأخطاء: أن المؤلفين أدخلوا كثيرًا من البدع على الدين الإسلامي، وذكروها باستفاضة مثيرة حتى ليظن الباحث أنها من أصول الإسلام، وقد أمعن مؤلفو الدائرة في شرحها وتسجيلها على أنها حقائق مقررة، في حين تسطر هذه البدع على أنها من المعارف الإسلامية، والجمع بين الأساطير والبدع وحقائق الشريعة قصد معتمد من مؤلفيها لأن أكثرهم قسس مبشرون يهمهم أن ينالوا من الإسلام لا أن ينصفوه[٢].

ومن كتابات المستشرقين قاموس «المنجد في اللغة والأدب»، فقد جاء فيه عند ذكره لمادة محمد ﷺ يقول: «محمد نبي الإسلام من بني هاشم تزوج من خديجة، ورزق منها فاطمة، دعا الأعراب إلى الإسلام، وانتصر على المكيين في بدر، ولكنهم غلبوه في أحد فحاربهم في حنين، ودخل مكة ظافرًا». كما أدخل مؤلفه في هذا القاموس كثيرًا من المصطلحات غير العربية والإسلامية وأغلبها كنسية ولاهوتية، وفرضها على اللغة العربية، وذلك مثل عبارة: «حبر» هو اصطلاح كهنوتي، وكلمة «قدس» و«قداس» مما يورده الكهان النصارى[٣].

وقد تولى المستشرقون جوانب كثيرة من الدين الإسلامي بالدراسة، وهذه الدراسة لا تخلو من أحد ثلاثة أمور: إما محاولة فهم الإسلام على أنه دين لاهوتي خالص كالمسيحية؛ بينما الإسلام دين ومنهج حياة، وإما أنهم تأثروا بوجهة نظر السياسة الاستعمارية فخضعوا لها، وإما أن أدواتهم البيانية والفكرية قصرت عن فهم طبيعة الإسلام والفكر الإسلامي الجامع فيفرقون بين الألوهية والنبوة، وأغلبهم ينسبون القرآن إلى النبي ﷺ وقد أحدثت هاتان الحركتان التبشير والاستشراق نوعاً من البلبلة الفكرية في وقت كان التخلف فاشيًا والجمود مسيطرًا على يد أتباع تربوا على موائد

---

(١) فلسفة الاستشراق ص ٥٦٧ .

(٢) سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية د. أنور الجندي ص ١٨ دار التراث الإسلامي .

(٣) السابق ص ٢٢ .

الغرب، وسخروا أقلامهم وكتبهم في ترويج أفكار الاستعمار في المجتمع الإسلامي. بل ظهرت الدعوات إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية في الكثير من الدول الإسلامية وخاصة في الشام ومصر، وقام بهذه الدعوة عدد من أصحاب الثقافة الأوروبية الذين تلقوا ثقافتهم في أوروبا أو في المدارس الأوروبية ومدارس الإرساليات الدينية، فأما الشاميون فقد كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي، وكانت صحيفة «الأهرام» تمثل الاتجاه الأول، و«المقتطف» تمثل الاتجاه الثاني، وكانت هذه الصحف وغيرها دائبة على تعريف المذاهب الغربية في سائر ضروب الثقافة، ولا تكاد تشير إلى شيء من قيم الشرق وتراثه الفكري، وكانت تترجم لعظماء الجال من الغربيين، ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال الإسلام، وكانت تعمل على إضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنشر من آراء تشكك في العقيدة، وبما تدعو إليه من نزعات عالمية لا يراد بها إلا تقريب الفوارق بين المصريين وبين أعدائهم لكي يسكنوا إليهم ويألفوهم[١].

ومن أمثال ذلك مقال نشرته مجلة «المقتطف» تحت عنوان «الناس أخوة» جاء فيه: وامتزاج الأمم من أقوى الوسائل الطبيعية لترقيتها، وإضعاف خلق الأثرة والتباغض، وتقوية خلق الإيثار والتواد، فعلى الذين يهتمون بإصلاح نسل الإنسان وترقيته جسدًا وعقلاً أن يسعوا في إقناع أبناء نوعهم أنهم وسائر الناس من طينة واحدة، ولا يمتاز بعضهم على بعض إلا بالفضائل المكتسبة، وإذا كانت الشرائع قد فرقت بينهم فيما مضى، فعلى زعمائها أن يزيلوا أسباب التفريق الآن، وعلى رسل الخير - دعاة الشرائع أن يجعلوا غرضهم الأول من التعليم بأن الله صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض». ثم يقول: «فإباحة التزاوج بين الأمم المختلفة والترغيب فيه خير واسطه تربط الشعوب، وإذا سلمت من التباغض الديني المذهبي، وكان العفاف عنوانها ربطت أمم العالم أجمع، وأصلحت ما عجزت عن إصلاحة الشرائع والسنن. ولكن اختلاف الملل جعل هذا الاختلاف مصلحة من مصالح المتفعين به، يبقى فاصلاً بين الأمم وسدًا منيعًا يمنع تصالحها[٢].

(١) الإسلام في وجه التغريب ص ٤٠٧ .

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر/ ٢٥٧، ٢٥٨، مرجع سابق.

فهذا المقال يدعو صراحة إلى التحلل من الشرائع بزعم أن هذا هو السبيل لإحلال السلام في العالم، وهو مبدأ من مبادئ الماسونية الأساسية التي تهدف إلى إلغاء العصبيات الدينية والوطنية، حتى لا يبقى في العالم إلا العصبية اليهودية دينًا وقومية. والإسلام هو الهدف الأول لهذه الدعوة؛ لأنه العقبة أمام انتشار الحضارة الغربية، وأمثال هذه المقالات تستهدف ترويض المسلمين لقبول الاحتلال الأجنبي وما يفرض من حضارة، وقد قام المنادون بالحضارة الغربية، وبإبراز دعوات: أخرى ما هي إلا أثر من آثار الاستشراق والتبشير، اللذين يعملان لخدمة الحضارة الغربية من هذه الدعوات المطالبة بالحرية الشخصية والحياة النيابية كما عرفتها الأمم الغربية، كما قام أناس ممن تعلموا في الغرب وتأثروا بنظم الدعوة إلى فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية، وقام الكُتّاب الذين تأثروا بالأفكار الغربية بالكتابة عن هذه الحريات وتسفيه نظام الخلافة المتمثل في الدولة العثمانية، ومن هؤلاء المتأثرين بالحضارة الغربية «قاسم أمين، وطه حسين، وسلامة موسى» وغيرهم الكثير، وسوف نتعرض لهؤلاء وكتاباتهم كل في حينه من هذا الفصل.

ولقد وقف المخلصون من أبناء الأمة الإسلامية من أمثال «الكواكبي، عبدالله النديم، محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، والمنفلوطى» لهؤلاء المنادين بالحضارة الغربية، والرد على مؤلفاتهم الضالة على صفحات الجرائد والمجلات يظهر ذلك في مجلات «المنار»، و«الأستاذ»، و«الوقائع»، ومؤلفات «الرافعي» في «المعركة بين القديم والجديد»، والمنفلوطي في «النظرات والعبرات»، ولكن قبضة الاستعمار كادت من جديد حيث وقفت بالمرصاد لكل من يقف في وجه المخططات الاستعمارية إما بالنفي له من البلاد، أو مصادرة الصحف والمجلات، أو بغرض الإقامة الجبرية مع حظر الكتابة والتأليف، وفي المقابل فتحت المجال أمام دعاة التجديد وأذناب الاستعمار، حتى كانت المرحلة الثانية من الصراع الاجتماعي، وهي مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية، والحديث عنها في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.



المبحث الثاني
مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الاول: نشر القوميات.

المطلب الثانى: فصل الدين عن الدولة.



المبحث الثاني
مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية

تأتي المرحلة الثانية من الصراع الحضاري لتغيير المجتمع الإسلامي وتهيئته لقبول الحضارة الغربية، وتمثلت هذه المرحلة في إلغاء الخلافة الإسلامية، وتمثلت الخطة الاستعمارية للوصول إلى ذلك عن طريق فكرتين:

الأولى: نشر القوميات بين الأمة الإسلامية.

والثانية: فصل الدين عن الدولة والقضاء على الخلافة. وسوف نتحدث عن ذلك من خلال مطلبين.

المطلب الأول
نشـــــر القوميـــــات

لقد جاء الإسلام والعالم في حالة تمزق لا تربطه إلا العصبيات القومية، والنزعات القبلية، وكانت كل قومية من هذه القوميات تنقسم إلى نزعات عرقية، وجنسية، فقد كانت هناك القومية العربية والفارسية، وغيرها، وكانت القومية العربية مثلاً تنقسم إلى نزعات قبلية عرقية، مثل: الأوس والخزرج في المدينة، وكانت الفرعونية في مصر، والبرابرة في المغرب، والفينيقية في سوريا ولبنان وغيرها.

وما أن ظهر الإسلام حتى نادى في الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[2].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣ .

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٥٢ .

وهكذا دعا الإسلام الناس إلى نبذ هذه العصبيات والروابط الجاهلية، والاتحاد أمة واحدة شعارها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ميزانها التقوى، ولا تعرف فضلاً لإنسان على إنسان إلا بدرجة استمساكه بعروة الإيمان. لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا أسود على أبيض، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى.

وقد نفذ الرسول ﷺ الخطوات العملية لتحقيق الوحدة بين المسلمين حين آخى بين المسلمين في المدينة، حتى صار العربي أخًا للفارسي والرومي، والسيد أخًا للمولى، حتى قال ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**». وفي مناسبة أخرى «**صهيب منى وأنا منه**». وكان عمر بن الخطاب يقول عن بلال الحبشي الأسود: «بلال سيدنا ومولى سيدنا». بل إن عمر - رضي الله عنه- قال عن أحد الموالي وهو سالم مولى أبي حذيفة: لو كان سالم حيًا لوليته[(١)]. وبذلك نسي كل واحد من أفراد المسلمين عصبيته وقوميته، وأصبحت العصبية والقومية لله ورسوله؛ لأن الإسلام رسالة عالمية، لا يفرق بين شعب وشعب، ولا جنس وآخر، ومن هنا صهر الأمم في واحدة، جمعها معسكر الإيمان بالله ورسوله، واستطاعت هذه الأمة أن تحطم الوثنيات والعصبيات وتحررها لله عز وجل، كما صنعت حضارة عظيمة لم تعرف اسمًا غير الإسلام، وهذه الوحدة العقدية كانت العامل الأول في القضاء على الاستعمار على مر السنين والأعوام، وهذا ما دفع أعداء الإسلام لدراسة هذا الخطر، واتخاذ الوسائل الكفيلة لإزالته، وكان «لويس التاسع» قد وضع الأساس في وصيته أن التغلب على المسلمين بالسلاح وحده أمر غير ممكن، وأن على «أوروبا» إذا أرادت التغلب على المسلمين أن تحاربهم من داخل نفوسهم، وأن تقتلع العقيدة الإسلامية من قلوبهم. وقد وعى الصليبيون الجدد نصيحة الصليبي القديم في حملتهم ضد العالم العربي في العصر الحديث؛ فجاءوا ليس بالسلاح وحده كما كان في المرة الأولى، وإنما بما هو أخطر منه وأشد، فقد جاؤوا بالغزو الفكري. يقول شاتيليه: إن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة من نفوس منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع

---

(١) راجع المبحث الثالث من الفصل الثاني في الباب الأول .

اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية، ويحتكك الإسلام بصحف أوروبا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها(١).

وقد كانت دعاوى القومية والوطنية التي صدرها الغرب إلى العالم الإسلامي من بين وسائل الغزو الفكري التي قصد من ورائها اقتلاع العقيدة الإسلامية من نفوس المسلمين. ولقد استهدف الاستعمار من نشر القومية والوطنية في العالم الإسلامي أمورًا عدة:

الأول: هو تحويل حركات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار إلى حركات وطنية؛ ذلك لأن الحركة الوطنية تختلف عن الجهاد الإسلامي في أنها لا تنظر إلى العدو على أنه صليبي مستعمر، ولكن على أنه مستعمر فقط. والفرق واضح في درجة العداء وطريق المجاهدة بين أن يكون العدو منظورًا إليه على حقيقته، وبين أن يكون مغلفًا برداء الاستعمار، فالجهاد الوطني ينتهي في حدود الوطن؛ أما الجهاد الإسلامي، فهو في سبيل الفكرة والحفاظ على الوطن الإسلامي الكبير الذي لا تحده أرض.

والهدف الثاني - من نشر القومية الوطنية - تحويل حركات الجهاد الإسلامي إلى حركات سياسية متناحرة، كما يحدث في الحركات الحزبية التي تدين بالولاء لفكرة من الأفكار السياسية العالمية، وتعمل على ترويجه داخل الوطن الإسلامي ولو اقتضى ذلك القوة.

والهدف الثالث: تسهيل عملية التغريب، وفرض الفكر الغربي في العالم الإسلامي. وقد قال أحد أعوان الاستعمار متأثرًا بهذه العملية: إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر، وليس السبيل أن نحا ربهم، بل السبيل أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم.

والقومية والوطنية وما حول هذه الألفاظ من معانٍ هي مصطلحات غريبة على المجتمع الإسلامي، فهي غريبة النشأة، فقد برزت في المجتمعات الأوروبية في القرن

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٨، ٩ .

التاسع عشر(١)؛ ولذلك فهي تعني مفهومًا يغاير المفهوم الإسلامي لها. فالوطنية كما نشأت في البيئة الغربية معناها: أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لهذا الوطن والتعصب له، أيًا كانت أصولهم التي ينتمون إليها، وأجناسهم التي انحدروا منها. ومعنى: ذلك أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس. والقومية معناها: أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينبغي أن يكون ولاؤهم واحدًا وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم، فالولاء فيها للأصل الواحد والجنس وللغة الواحدة، وكلا المعنيين لا يتفقان مع الإسلام، بل هما على الند منه، وهما اللذان أرادهما الاستعمار حين نشر هذه القوميات والعصبيات التي مزقت وحدة العالم الإسلامي.

أما من ناحية أنها تخالف المفهوم الإسلامي للقومية الوطنية، فلأن الإسلام له نظرته الخاصة الشاملة للكون والحياة، فالإسلام قد فرض على كل مسلم فريضة؛ هي أن يعمل كل إنسان مسلم لخير بلده، وأن يتفانى في خدمته، وأن يقدم أكثر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها، أن يقدم في ذلك الاقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا، حتى إنه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر إلا لضرورة إيثارا للأقربين بالمعروف، فكل مسلم مطالب بأن يسد الثغرة التي هو عليها، وأن يخدم الوطن الذي نشأ فيه. ومن هنا كان المسلم أعمق وطنية وأعظم نفعًا لمواطنيه، ويتمنى لهم كل عزة ومجد وكل تقدم ورقي. والرسول ﷺ لم يمنعه حبه للمدينة من أن يحن إلى مكة، وأن يقول: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة (٢)». وأن يقول لأصيل وقد أخذ يصف مكة: «يا أصيل دع القلوب تقر»(٣).

وهذا الإخلاص للوطنية جعل بلالا يهتف من قرارة نفسه:

ألا لَيتَ شِعْري هَلْ أَبِيتَنَّ ليلةً بوادٍ ... وحولي إذخر وجليلُ

وهَلْ أَرِدَن يومًا مياه مجنةٍ ... وهل يبدوَنَّ لي شامةٌ وطفيلُ(٤)

---

(١) راجع المبحث الأول من الفصل الثالث في الباب الأول.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (ك) الدعوات (ب) الدعاء برفع الوجع والوباء ١١/ ١٨٣ ج٦٣٧٢.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة/ الحافظ ابن حجر ١/ ٦٨ ط دار المعرفة.

(٤) تهذيب سيرة ابن هشام/ عبدالسلام هارون ص ١٤١.

فالإسلام لا يجد على المسلم شيئًا أن يخلص لبلده، أو أن يفنى في سبيل قومه، وهذه وطنية الإسلام؛ وأما القومية العربية، فالإسلام الحنيف نشأ عربيًا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، كتابه بلسان عربي، وتوحدت الأمم باسم القرآن على اللسان العربي يوم كان المسلمون مسلمين وقد قال ﷺ: «**إذا ذل العرب ذل الإسلام**»[١].

والعروبة أو القومية العربية يدين لها المسلم كما يعرفها الرسول ﷺ فيما رواه أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «**يا أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان. فمن تكلم بالعربية، فهو عربي**»[٢].

فالشعوب الممتدة من خليج فارس شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا فضلًا عما وراءها شرقًا من البلاد التي دخلها الإسلام- أصبحت عربية بالإسلام. فلا فرق بين العروبة والإسلام؛ ولأن الإسلام هو الذي أعطى للعرب لغتهم، ووحدهم عليها وعلى القيم التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله؛ فالتقت قلوبهم وعقولهم على ذلك، فالإسلام لا يعترف بالحدود الجغرافية، ولا بالفوارق الجنسية الدموية، ويعتبر المسلمين جميعًا أمة واحدة، ويعتبر الوطن الإسلامي وطنًا واحدًا مهما تباعدت أقطاره، يعبر الشاعر المسلم عن هذه القومية بقوله:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطنًا ... الشام فيه ووادي النيل سِيَّانِ

وكُلَّما ذُكِرَ اسمُ اللهِ في بلدٍ ... عددتُ أرجاءَهُ من لُبِّ أوطاني

وعلى أساس هذا المفهوم الإسلامي لا يمكن الفصل بين الإسلام والعروبة أو الإسلام والقومية العربية. وكان المسلمون يعتزون بالإسلام الذي جمعهم وغيرهم من الشعوب غير العربية، يظهر هذا الجمع بين الإسلام والعروبة في جواب «مصطفى كامل» للأمير «لاى بارنج» حين لقيه في لندن عام ١٨٩٥ وسأل عن جنسيته. قال له: مصري عثماني. «والجواب بين الاتصال الوثيق بين العروبة والوطنية والإسلام».

---

(١) الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١٠/ ٥٣، وأبو يعلى في المسند ج٣/ ٤٠٢ برقم: ١٨٨١ . وذكره السيوطي في الجامع الصغير ج١/ ٤٣ رقم: ٦١٧ وقد ضعف علماء الحديث بعض رواته محمد بن الخطاب البصري، ولكن وثقه ابن حبان، ورمز له السيوطي بالصحة .

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ج٧/ ٢٠٣ بإسناد ضعيف .

ولكن الاستعمار حين جاء إلى الشرق الإسلامي ورأى الوحدة الإسلامية قد جمعت شعوبًا مختلفة الجنسيات، وصهرتها في بوتقة الإسلام في ظل الخلافة الإسلامية تحت قيادة الدولة العثمانية؛ جاء بالدعوة إلى القومية العربية، ويعني بها الرابطة الجامعة لشمل العرب. واتخذت الدعوة في أول أمرها شكلًا ثقافيًا، يعني بعث التراث العربي وإنشاء صحافة عربية، والدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية وجعلها لغة التعليم والقضاء والدواوين في البلاد العربية بدلًا من التركية التي كانت مستعملة في هذه المجالات. وكانت هذه الدعوة على أيدي مسيحي لبنان، مثل: «بطرس البستاني»، ونصيف اليازجي، «وأحمد فارس الشدياق» وغيرهم، وأغلبهم ممن اتصلوا بالإرساليات الإنجيلية الأمريكية وغيرها التي أتت إلى بيروت لنشر المسيحية، وأكثرهم في الوقت نفسه ينتمون إلى الماسونية.

وقد كتب «إبراهيم اليازجي» وأبوه نصيف اليازجي «اللذان تعلما في مدارس التبشير في بيروت» قصيدتين في استنهاض همم العرب، ودعوتهم إلى إحياء أمجاد آبائهم ورفض الاستبداد[١]. وهو يريد بذلك استبداد الدولة العثمانية، وهم يريدون بذلك التركيز على التعصب القومي والتفريق بين العروبة والإسلام.

ورغم بروز هذه الدعوات ووجود بعض الكتاب الذين كتبوا عن الوطنية، إلا أنهم جميعًا كانوا يعنون بها الأمة الإسلامية ومفاخر المسلمين دون التعصب للترك أو للعرب، فمثلًا الكاتب والشاعر التركي «نامق كمال» يهدف في مقالاته وأشعاره إلى استثارة الروح الوطنية العثمانية الإسلامية ولا يفرق بين التاريخ الإسلامي والعثماني[٢]. ثم تطور الأمر بعد ذلك بظهور ادعاءات ببطلان شرعية الخلفاء العثمانيين كخلفاء للمسلمين، وأن الخلافة من حق العرب وحدهم، وقام المبشرون بتعضيد هذه الدعوة بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، وقاموا بتأليف الجمعيات بمساعدة اليهود الذين أرادوا من وراء ذلك محو الدولة العثمانية التي وقفت في وجه أطماعهم في فلسطين[٣].

وقام السلطان عبد الحميد بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية لتوحيد شعوب الدولة الإسلامية تجاه أوروبا، وللوقوف في وجه القوميات الجديدة على المسلمين، ولكن الدعاية

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٢ .

(٣) راجع البحث الثاني من الفصل الأول في هذا الباب .

الصهيونية كانت أقوى في تأسيس الجمعيات التي تبنت الدعوات القومية، وكان من أهم مراكزها «مركز بيروت» الذي اختبر للعمل على المدى الطويل، فأعطى ثماره في ضرب الدولة من الخلف أثناء الحرب العالمية الأولى، ومركز «استانبول» الذي تمخض عنه جمعية الاتحادة «الترقي»، أو «تركيا الفتاة» التي كان لها الدور الرئيسي في إسقاط حكم السلطان «عبدالحميد»، وأوجدت الفرقة بين الشعبين الإسلاميين العربي والتركي[١].

فبعد انسحاب الجيش المصري الذي أرسله «محمد علي» إلى الشام عام (١٨٤٢) بدأ العمل لإنشاء مركز بيروت، وتشكلت جمعيات تحت رعاية الإرساليات الأمريكية بواسطة عملاء مسيحيين، واستهدفت هذه الجمعيات نشر العلوم والأفكار الغربية. كذلك أسس اليسوعيون «الجمعية الشرقية» وكان أعضاؤها جميعهم من النصارى. ولما كانت هذه الجمعيات لا تحقق أهدافها من ضرب الإسلام، قام أولو الأمر فيها بتشكيل هذه الجمعيات تحت اسم الجمعية العلمية العربية، من أجل أن يكون مؤسسوها من العرب. وقد انضم إليها مائة وخمسون عضوًا، منهم المسلمون والنصارى والدروز باعتبارهم عربًا، وكان من أهم مبادئ الجمعية: فصل الدين عن الدولة، واعتبار الجنس العربي هو الأساسي. وقامت بالدعاية إلى أن الدولة العثمانية اغتصبت الخلافة من العرب، وأنها فرطت في أمر الدين الإسلامي[٢].

ولقد كان لهذه الجمعيات الدور الكبير في الدعوة إلى قيام الثورات في لبنان بين الطوائف المختلفة، والتي قضت الدول الأجنبية بعد الضغط على الدولة العثمانية بتقسيم لبنان على طوائف دينية.

وبعد قيام الاتحاديين بالانقلاب العثماني وعزل السلطان «عبد الحميد» وفوزهم في الانتخابات قام اليهودي آرمينومس فيمباري مع اليهودي الفرنسي «ليون كوهين» بتأليف الكتب التي تنادي بالطورانيين، وانتشرت مؤلفاتها بسرعة فائقة في كل بقعة من بقاع الترك. وهذه الدعوة تهدف إلى تذكير الترك بوثنيتهم ومعبودهم الأول قبل مجيء الإسلام إليهم، حيث اتخذ الاتحاديون الذنب الأغير شعارًا لهم ليذكر الترك ويعيدهم إلى تاريخهم القديم، ولمحو الإسلام من تاريخهم، وقد تزعم «ضياء كوك ألب، وأحمد

---

(١) الدولة العثمانية/ ١٤٣ .

(٢) انظر: التبشير والاستعمار ص ١٧٦، ١٧٧، والإسلام والحضارة الغربية ص ٢٠٨، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٣ .

أغا، ويوسف أقشورا» وغيرهم، حيث يزعم هؤلاء أن الترك من أقدم الأمم وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحدًا، ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية، ويقولون: إنهم ترك أولًا، ومسلمون ثانيًا. وشعارهم: عدم التدين، وإهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية، حتى قالوا: نحن أتراك وكعبتنا طوران، وهم يتغنون بمدائح «جنكيز»، ويعجبون بفتوحات المغول، وينظمون الأناشيد في وصف الوقائع الجنكيزية[1].

وهكذا انتشرت المرحلة الأولى من الفكرة القومية - التي أراد الاستعمار نشرها في البلاد العربية والإسلامية - لتوسيع هوة الخلاف، والتفريق بين الدولة العثمانية وولاياتها، حتى كانت الحرب العالمية الأولى التي استغلها الاستعمار لبث فكرة قيام دولة عربية موحدة بزعامة زعيم عربي، وقد لاقت هذه الدعوة مجالًا في نفوس الطامعين في الزعامة من العرب، وكان «الشريف حسين» من أكثر الزعماء طموحًا إلى هذه الزعامة، وكان المنادون بذلك جماعة من الشاميين لجؤوا إلى فرنسا قبل سقوط «السلطان عبدالحميد»، وأسسوا «الجمعية الوطنية العربية» في باريس، وأصدروا كتابا أسموه «يقظة الأمة العربية». ثم وجهوا منشورًا إلى الدول العظمى، بينوا فيه أغراضهم وغايتهم، وهي تتلخص في إمبراطورية عربية يرأسها زعيم عربي ذو حكومة دستورية حرة، بينما تكون الحجاز مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكًا وخليفة لجميع المسلمين، وبذلك تنحل حسب زعمهم العقدة الكبرى في الإسلام؛ وهي التفريق بين السلطتين المدنية والدينية[2].

وقام «الشريف حسين» بمحالفة الإنجليز وربط مصيره بهم، وكانت المراسلات بينه وبين مكماهون ولورانس، واستطاع الإنجليز خداع «الشريف حسين» وابنه «فيصل» بالخلافة العربية على شرط دخولهم الحرب إلى جانب الحلفاء[3] ضد دولة الخلافة التي دخلت الحرب مع ألمانيا والنمسا، وكانت النتيجة خيانة الإنجليز لكل وعودهم التي بذلوها للعرب، وقسمت البلاد العربية تحت السيطرة الأجنبية[4].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ج١/ ١٥٨، ١٥٩، والاتجاهات الوطنية ج٢ ص ١٠٠ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج٢/ ١٠٠، ١٠١ .

(٣) راجع المبحث الثاني من الفصل الأول في هذا الباب .

(٤) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٢٢ .

بعد الاحتلال اتجه الاستعمار إلى تعميق القومية في نفوس المسلمين حتى لا تعود فكرة أي تجمع عربي واحد، وذلك بتشجيع النزعات الإقليمية الانفصالية داخل البلاد العربية نفسها، فبعد أن كانت ثورة الحجاز والشام والعراق يطلق عليها اسم «الثورة العربية» قبل الحرب، أصبحت كل واحدة من هذه البلاد تستقل بنفسها في جهادها، وحل محل الوطنية العربية وطنيات جديدة، جزأت الوطن العربي حتى جعلت الشام أربع دول، وأخذ الاستعمار يمهد لقيام دولة خامسة جديدة من اليهود، ولقد عمل الاستعمار، على تزييف التاريخ الإسلامي لكل بلد ليحول بينه وبين معرفة تاريخ كفاحه القريب في سبيل القضية الإسلامية العربية. وقد أعانت الدول الاستعمارية على تدعيم قداسة الأوطان الجديدة في نفوس الناس بأسلوب علمي، وذلك بمساعدة كل دولة محتلة على أحياء التاريخ القديم وتنشيط الحفر للبحث عن آثار الحضارات السابقة على الإسلام لتشتيت قلوب المسلمين التي ألفها الإسلام وجمعها على لغة واحدة، فاستيقظت العصبية القديمة الجاهلية الكافرة، وراح كل بلد من بلدان العالم الإسلامي يفاخر البلاد الأخرى بمجده المديم.

وتولى جيل العمالقة الذي تربى في أحضان الغرب من المسلمين أو كما يسمون أنفسهم، الدعاية للوطن بالمعنى الغربي الذي أراده الاستعمار ولا أريد هنا أن أتعرض لأسماء، وإنما أذكر اتجاهات وكيف خدعونا بالألفاظ. فقد رسم ذلك الجيل منهجًا للحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية يقوم على القومية والتبعية للعرب تحت عبارات خادعة مثل مصر للمصريين، وكلمة ساطع الحصري الذي عرف بفيلسوف القومية العربية أول من جعل العنصرية والعرف والدم بديلاً لمفهوم الإسلام حتى اشتهر عنه (عرب نعم، إسلام لا، أنا لايك) وهي كلمة تعني أن صاحبها علماني أولا ديني[(١)]. وقد قدم «ركفلر» الكبير اليهودي عشرة ملايين دولار أمريكي لإنشاء متحف الآثار الفرعونية في مصر، يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن، واشترط أن يوضع المتحف والمعهد تحت إشراف لجنة مكونة من ثمانية أعضاء وليس فيها إلا عضوان مصريان، واشترط أن تظل هذه اللجنة هي المشرفة المسؤولة عن إدارة المتحف ثلاثًا وثلاثين سنة حتى يضمن تخريج جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيًا وسياسيًا[(٢)].

---

(١) جيل العمالقة الشوامخ في ميزان الإسلام ص ٣٧، ١٥٢، ١٥٣ .

(٢) الاتجاهات الوطنية ج٢/ ١٣٩ .

والهدف المبتغى من وراء هذه الثغرات: هو سلخ الأمة من عروبتها ثم من إسلامها فإذا إذا سلخت الأمة من عروبتها ودينها؛ أمن اليهود كل معارضة لاستقرارهم في فلسطين؛ لأن معارضة الدولة العربية لأحلام اليهود في فلسطين يستند إلى الإسلام والعروبة؛ فإذا انسلخ العرب من إسلامهم وعروبتهم ولبسوا ثوب النعرات القديمة؛ مات الحافز الذي يدفعهم إلى مجاهدة اليهود ومعارضة دولتهم في فلسطين، وعلى حد تعبير أحد المستشرقين عن هذه النعرات: يكفينا تذبذب ولاء المسلم بين إسلامه وتلك الحضارات.

وكانت الحصيلة النهائية لنشر القوميات التي قضت على أي ذكر للإسلام في المحافل والمنظمات الدولية، كان إنشاء الجامعة العربية بدعوة من «أيدن» وزير المستعمرات الذي وضع ميثاقها، وقد خلا من أي ذكر للإسلام أو الدعوة الإسلامية، وأصبح الاتجاه في العالم العربي الإسلامي إعلاء شأن الوثنيات القديمة، ففي مصر مثلًا يسمع الإنسان الإذاعة المسموعة والمرئية تجعل شغلها الشاغل الكلام عن الآلهة الفرعونية وإظهارها على أنها مقدسة محترمة، واتخاذها شعارًا لأي عمل قومي، «فحورس، وخوفو» تدنس الاسماع ليل نهار، كأنهم يدعون الناس إلى عبادتها من دون الله عز وجل. إن الإسلام لا يمنع المسلم من العناية بتاريخ بلده القديم، بل أمره أن يسير في الأرض لينظر في آثار من سبق، وكيف كانت عاقبته أمرهم. قال تعالى آمرًا المؤمنين بالنظر والاعتبار في التاريخ السابق: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1] وغيرها كثير تأمر بالاعتبار وأخذ العلوم النافعة من التاريخ القديم بما فيه من خير وعز، كذلك لاعتبار أولئك الأقوام الذين اتخذوا أندادًا من دون الله مع أنهم كانوا أصحاب حضارة وعلم، فما أغنت عنهم حضارتهم ولا علمهم من دون الله من شيء، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

أما أن يراد من هذا التاريخ: أن يرجع إليه الناس ويؤمنوا بما فيه من وثنية بعد أن هداهم الله إلى الإسلام، فهذا ما حرمه الإسلام؛ لأن هذا يدخل الإنسان في دائرة الكفر والعياذ بالله.

---

(١) سورة الروم: الآية ٩ .

فالدعوات القومية إلى اختلاف أنواعها أراد الاستعمار من ورائها تقطيع شمل الأمة الإسلامية، والقضاء على الخلافة الإسلامية، وكان سبيله على ذلك فصل الدين عن الدولة، والحديث عنه إن شاء الله في المطلب الثاني.

المطلب الثاني
فصل الدين عن الدولة

من المعروف أن هذه الفكرة فكرة غربية، نشأت في عصر النهضة الأوروبية بعد جهاد طويل بين العلماء ورجال الكنيسة[١]، والذي انتهى بانتصار العلماء والحد من سلطة الكنيسة وحصرها في نطاق الدين. وبذلك تحقق فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية، واقتصر دور البابا على طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز، وأصبحت شؤون الدولة ونظام المجتمع في يد رجال السياسة؛ فلما كان الاحتكاك بين الشرق والغرب، اطلع المبعثون على تاريخ النهضة الأوروبية، وقرؤوا في كتبها أن تلك الثورة على الدين والكنيسة حررت الفكر الذي اندفع إلى البحث والكشف حتى وضع أوروبا في مكان القوة والسلطان والنفوذ في كل ميادين الحياة النظرية والتقنية وخيل إلى الذين اطلعوا على الثقافة الغربية من الشرقيين أن الشعوب الإسلامية تعيش حالة تشبه حالة أوروبا في العصور الوسطى، وساعد على تعميق هذا الخيال في نفوسهم الحملات الفكرية التي لقنها المبشرون عن تفوق الحضارة الغربية بعد تحررها من سلطان الدين الذي كان سببًا في تخلفهم وجهلهم.

وصادف هذه الحملات أن الذين يتكلمون باسم الإسلام كانوا جزءًا من العالم الإسلامي الذي مني بأسباب التخلف والجهل، إلى جانب تورط بعض العلماء في محاربة بعض العلوم النافعة بزعم أنها تخالف روح الدين، وهذا الموقف من العلماء أثر من آثار الجمود الفكري الذي أصاب بعض العلماء في تلك الفترة لتعصبهم للقديم في كل شيء، ومحاربتهم لكل من ينادي بتدريس العلوم الأخرى إلى جانب علوم الدين، مع أنها كانت تدرس في الأزهر قبل نهاية القرن الثاني عشر الهجري (١١٩٢هـ)[٢].

---

(١) راجع: تمهيد الفصل الثالث من الباب الأول.

(٢) يدل على الشهادات التي كانت تمنح للعلماء والتي كان يطلق عليها سندًا، ومنها سند الشيخ أحمد =

وكان هذا الوضع من التخلف والانحطاط الفكري سائدًا في تركيا، وليس أدل على ذلك من موقف العلماء من أعمال الإصلاح التي قام بها السلاطين العثمانيون لإصلاح نظام الإدارة والحكم، ونشر العلوم الحديثة، وتنظيم الجيوش على النمط الحديث، واستيراد الآلات العسكرية من أوروبا حيث جعلوا تنظيم الجيوش على الطريق الغربية في حكم اللادينية، وجعلوا لبس الزي الحديث للجندي في حكم التشبه بالنصارى، وخالفوا حتى في استعمال البنادق ذات الحراب؛ لأن أسلحة الكفار عندهم إثم عظيم، وقاموا بشن حملة على السلاطين الذين يفعلون ذلك لتغيير نفوس الجماهير منهم، بحجة أنهم يسيؤون إلى الإسلام ويروجون أساليب الكفار[1].

وصادفت هذه المواقف المتعنتة أطماعًا أوربية في دولة الخلافة الإسلامية، فاستغلت هذا الوضع لصالحها وذلك عن طريق الطلاب الذين يتعلمون في المدارس الأجنبية التي أقامتها الإرساليات التبشيرية وما تبثه برامج التعليم من سموم على الإسلام والمسلمين، وأنشأتهم نشأة غربية تقوم على رفض الإسلام والنقمة على علماء المسلمين، والولاء للأجانب ونظمهم، وقد ساعد على ذلك الامتيازات الأجنبية التي فتحت البلاد الإسلامية أمام إرساليات التبشير والاستشراق؛ وكانت النتيجة الحتمية لهذا كله: أن قامت تلك الفئة بمطالبة الولاة بالإصلاحات والتنظيمات، ومطالبة الولاة بإصدار لوائح خاصة تعطى حقوقًا وقوانين خاصة للأقليات غير الإسلامية، وأمام ضغط الامتيازات كان الولاة يضطرون لتنفيذها؛ فقد كانت التنظيمات الخيرية في عهد «السلطان عبد المجيد» التي كانت بمثابة أول دستور لحكم برلماني وإحلال النظم الوضعية في بعض السلطات وخاصة السلطة القضائية محل الشريعة، ولم يبق تحت حكم الشريعة الإسلامية سوى قانون الأحوال الشخصية[2]، وهذا الخط الذي عرف باسم «الكلخانة» قد وضعه «رشيد باشا» الذي كان يعمل سفيرًا للدولة العثمانية في لندن ولكنه استدعي ليشغل منصب وزير الخارجية ليقوم بهذا العمل الذي يتناسب مع تربيته الفكرية الغربية.

= عبد المنعم الدمنهوري أنه كان يهتم بعلوم الطب والتشريح وأسباب الأمراض، الفلك وغيرها من العلوم الرياضية إلى جانب علوم الدين . انظر: أضواء على حاضر العالم الإسلامي/ محمد عبدالحكيم عثمان ص ١٤، ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر/ ١٩٨٧م.

(١) نحن والحضارة الغربية ص ١١١، ١١٢ بتصرف واختصار .

(٢) الدولة العثمانية ص ١٥١ .

وكان التخطيط الغربي في التمهيد لإلغاء الخلافة يتخذ خطًا واحدًا في تركيا ومصر، ففي مصر قام «الخديوي إسماعيل» بإنشاء المحاكم القنصلية التي كان من سلطتها الحكم فيما يرتكب رعاياها من جرائم على المواطنين، وكذلك سلطة الفصل في القضايا التي يرفعها رعاياها على الأهالي أو على الحكومة المصرية. وكان كل قضاء قنصلي يحكم طبقًا لقانون بلاده، فكان يوجد بمصر سبع عشرة محكمة قنصلية تمثل سبع عشرة دولة كانت تتمتع بالامتيازات الأجنبية، وبهذا تعرضت المعاملات في البلاد لقوانين مختلفة ومتباينة؛ بل أكثر من ذلك: كان لا يجوز الاستئناف في هذه الأحكام إلا أمام محاكم الاستئناف في البلاد الأجنبية التابع لها القاضي القنصلي(١).

وتقدم «إسماعيل» خطوة أخرى لعزل الإسلام عن الحياة، فأنشأ المحاكم المختلطة لإصلاح.. فساد المحاكم القنصلية، وتحويلها إلى محاكم تابعة للدولة المصرية، وكان أغلب قضاة المحاكم المختلطة من الأجانب ويحكمون بالقانون الفرنسي المدني والجنائي والذي ترجمه رفاعة الطهطاوي(٢).

وكان إنشاء هذه المحاكم تنفيذًا لمشروع وضعه «نوبار» باشا الأرمني، وقد خطط نوبار هذا المشروع لإحلال القانون الفرنسي محل الشريعة الإسلامية حيث لم يقتصر دور المحاكم المختلطة على القضاء، وإنما أعطى الدول المتمتعة بالامتيازات حقًا آخر هو أن التشريع الذي يسري على الأجانب لا يكون نافذًا إلا إذا صدقت عليه الجمعية العمومية لقضاة المحاكم المختلطة، وبذلك شاركت المحاكم المختلطة في سلطة التشريع بالنسبة للأجانب(٣).

وتم تعميم القانون الفرنسي في المحاكم بعد الاحتلال الإنجليزي الذي ألغى المحاكم الشرعية وأنشأ المحاكم الأهلية، وقصر القضاء الشرعي على الأحوال الشخصية فقط، أما بقية المعاملات - على اختلاف أنواعها - فقد أحالوها إلى القانون الفرنسي ليتحاكم إليها أهل البلاد في سائر معاملاتهم(٤)، وفي تلك الفترة تولى «السلطان عبدالحميد الثاني» سلطة الخلافة الإسلامية، وكان على علم

---

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام/ عبدالستار فتح الله سعيد ص ٦٤، ط دار الوفاء ١٩٨٨م.

(٢) جذور العلمانية/ سيد أحمد فرج ص ٣٥، ط دار الوفاء، ط الثالثة ١٩٨٧م.

(٣) الغزو الفكري ص ٦٦ .

(٤) السابق ص ١١٠ .

بمخططات الدول الاستعمارية تجاه الإسلام والمسلمين وخاصة اليهود وأطماعهم في فلسطين، فعمل على تقوية الوازع الديني لتوحيد ولايات دولة الخلافة تحت شعار الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، إلى جانب موقفه الإسلامي الواضح من اليهود في قضية فلسطين. لهذه المواقف واجه سيلًا من الدعاية اليهودية التي صورت الحكم في عاصمة الخلافة أبشع تصوير، ودعاية اليهود ماهرة في قلب الحقائق، وإبراز المساوئ، وطمس المحاسن.

وفي الجانب الآخر مجدت الدعاية اليهودية حاملي لواء الإصلاح ودعاة الحرية من أمثال «مدحت باشا» وبقية أعضاء جمعية الاتحاد والترقي[1]، وتوالت كتابات الذين تربوا في أحضان الغرب وحملوا فكره بالدعوة إلى فصل الدين عن الحياة، والمناداة بالحرية والدستور، وتقيد السلطان بالنظام النيابي. وكان الكتاب من ذوي الأقلام المسمومة يقصدون بكتاباتهم «السلطان عبدالحميد»، فقد كتب «عبد القادر حمزة» مقالًا عام (١٩٠٤) تحت عنوان «خطر علينا وعلى الدين»، دعا فيه بصراحة إلى قصر دور الدين على المسجد، وعدم إقحامه في أمور الحياة؛ لأن ذلك ينفر الناس من الدين[2]، وكذلك كتاب «أم القرى» لعبد الرحمن الكواكبي حيث عالج فيه أسباب ضعف الأمم وتخلفها، ودعا في آخره إلى فصل الخلافة عن السلطنة مقترحًا جعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك[3]، وكانت هذه الحملة على الخلافة والدين نتيجة للدعاية الاستعمارية ضد السلطان لموقفه من اليهود والدول الاستعمارية، ونتيجة لموقف السلطان من قضية فلسطين قامت الدول الاستعمارية ببث الفتن بين الطوائف الدينية في بلاد البلقان، وأشعلت الحرب المعروفة باسم الحرب البلقانية التي أنهكت قوى الدولة العثمانية، ولم توقف الحرب إلا بعد موافقة السلطان «عبد الحميد» على الدستور، وإنشاء مجلس نيابي، وكانت الدول الاستعمارية قد جعلت «مدحت باشا» وهو من أعضاء جمعية الاتحاد الترقي في مكان الصدارة في الدولة ليفسح لهم المجال لتنفيذ مخططاتهم.

فقام بعقد مؤتمر لسفراء الدول الكبرى بغية القيام بالإصطلاحات، وشكل لجنة

---

(١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ص ٧٧ .

(٢) الاتجاهات الوطنية ج١/ ٢٧٨، ٢٧٩، مرجع سابق .

(٣) السابق ج١ / ٢٨٠ .

مؤلفة من ستة عشر موظفًا مدنيًا وعشرة من العلماء لوضع مشروع الدستور الذي استوحاه من الدستور البلجيكي استبدله بالدستور الإسلامي، وتم الاعتراف بالحرية الشخصية، واعتبار الإسلام دين الدولة الرسمي بعد أن كان دستور الدولة، كما نص الدستور على إنشاء مجلسين هما المبعوثان (النواب والأعيان) يتمتع أعضاؤهما بالحصانة فلا يخضعون لقوانين الدولة. كما نص الدستور على تشكيل محكمة عليا(١).

وقد رفض «السلطان عبد الحميد» ذلك الدستور لمعارضته الإسلام، ودعم الدول الكبرى له ومحاولاتهم وضعه موضع التنفيذ، وقد لمس دور الإنجليز فيه ومحاولاتهم الاتصال برجال الدولة من أعضاء الاتحاد والترقي. فقام بعزل «مدحت باشا» بعد تيقنه من اتصالاته بالإنجليز وخاصة برئيس وزراء بريطانيا «دزرانيلى اليهودي». وعلى أثر هذا الموقف قامت الجمعيات الماسونية بالترتيب لخلع السلطان المستبد (في نظرهم) ونفذت ذلك عن طريق حزب تركيا الفتاة والجمعية السرية «الاتحاد والترقي» بزعامة مصطفى «كمال أتاتورك»، وعن طريق بعض الحوادث المقصودة(٢).

وقام الاتحاديون بعد ذلك بإعلان الحريات الفردية، وإعلان الدستور بما يوافق الهدف الذي يعملون له وهو عزل تركيا عن بقية الدول العربية بإثارة القوميات والعصبيات.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى دخلها الاتحاديون إلى جانب ألمانيا والنمسا والمجر وانتهت بهزيمتهم واحتلال الحلفاء للمضايق التركية وخضوعها لمراقبة دولية، وسلخت الولايات العربية عن الدولة العثمانية، ووزعت أقاليم تركية بين اليونان وفرنسا وإيطاليا، ونص على ذلك في معاهدة سيفر عام (١٩٢٠)(٣).

وكان «مصطفى كمال» قد كسب شهرة واسعة بسبب حروبه التي خاضها ضد الحلفاء أثناء الحرب في فلسطين وحلب، وقد حدث اتصال بين «مصطفى كمال، أتاتورك، وتشارلز هارنجتون» القائد العام لقوات الحلفاء في «إستنابول» وأعطى «مصطفى كمال» صلاحيات واسعة للتعاون معه لإلغاء الخلافة(٤).

---

(١) السابق ج١/ ٢٨٠ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية ص ١٩٤، الأفعى اليهودية ص ٨٣، وراجع الفصل الأول من هذا الباب .

(٣) الدولة العثمانية ج٣/ ٥٣٨ .

(٤) الرجل الصنم ص ١٤٥ .

وبدأ «أتاتورك» في تنفيذ المهمة، وقد واتته الفرصة حين أرسلته الحكومة التركية إلى الأناضول لإقرار النظام والقضاء على حركة الجهاد التي أعلنها أتراك الأناضول، وفي نفس الوقت قام اليونانيون بمساعدة الحلفاء باحتلال «أزمير» وانتهكوا الأعراض والحرمات وذلك عام (١٩٢٠)[١]، واستطاع أتاتورك بدهائه من استخدام الإسلام كوسيلة لاستجلاب عطف الشعب التركي، وخاض معارك التحرير بتعبئة النفوس بروح الدين بعد تعيينه رئيسًا للجمعية الوطنية ولجنتها التنفيذية بدون علم السلطان وحيد، واستطاع تنفيذ الدور المطلوب بدهاء كبير فكان يقتحم الصفوف وفي يده «المصحف» يناشد المقاتلين في حماس شديد ويقول: أيها الأتراك هل تعلمون ما هذا الكتاب الذي بيدي؟ فيجيبوبه: إنه المصحف الشريف. فيقول لهم: إنكم إذا لم تخرجوا معي للحرب ضد اليونان فلن يكون لهذا الكتاب بقاء في هذه الأرض[٢].

وقبل الحلفاء انتصارات أتاتورك، واستطاعت تسخيره فيما تريد من إلغاء الخلافة الإسلامية والقضاء على الدولة العثمانية، وانتهاب مخلفاتها من شعوب وأقطار وكنوز، وبمساعدة الحلفاء استطاع «أتاتورك» تحرير الأراضي التركية من اليونانيين وإعادة الأمن إلى تركيا، ولمكانته هذه تولى مناصب كثيرة حتى استطاع أن يكون الرجل الأوحد في تركيا، وقام بنقل العاصمة إلى «أنقرة». وفي عام (١٩٢٢) افتتح مؤتمر الصلح في مدينة لوزان للبحث في تعديل معاهدة «سيفر»، وقد أرسل «مصطفى كمال» زميله «عصمت أيونو»، وانفض المؤتمر دون أن يسفر عن نتيجة، وبعد محادثات ومفاوضات طويلة دخل خلالها (حاييم ناحون) حاخام اليهود الأكبر في تركيا، وهو من رجال الصهيونية، وقد سافر لأمريكا لهذا الغرض، وأخيرًا جاء جواب الإنجليز الذي يقول: إننا نخشى أن تعودوا فتصبحوا مركزًا لتجميع المسلمين ونواة لوحدتهم، فأعلن لهم «مصطفى كمال» أتاتورك عن استعداده لقبول الشروط التي تطمئن دول الغرب، وقام الإنجليز بإملاء شروطهم عليه والتي عرفت باسم شروط «كرزون» الأربعة، وهي:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيًا من تركيا.

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٥٩ .

(٢) مجلة الأمة (١٤) ص ٩٢ .

٢- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

٣- أن تتعهد بالقضاء على كل حركة يمكن أن تقوم لإحياء الخلافة.

٤- أن تستبدل تركيا القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية.

وأن تضع لنفسها دستورًا مدنيًّا بدلاً من الدستور العثماني المستمد من قواعد الإسلام[1]، وبدأ أتاتورك في تنفيذ شروط «كرزون» الأربعة، ووطن نفسه أن يسير بالدولة التي أنشأها في طريق الحضارة الأوروبية، وهي كما يقول «كارل بروكلمان»: طريق تقتضي السائر فيها ألا يقف ليلقي أية نظرة إلى الماضي الإسلامي، لأن مثل هذا النظر خليق بأن يعوق صاحبه عن بلوغ الغاية[2]، وفي الثالث من (آذار) مارس ١٩٢٤ ألغيت الخلافة الإسلامية وأخرج الخليفة من البلاد، وفي أبريل من نفس العام أعلنت صيغة جديدة للدستور التركي، وانسحبت جيوش الحلفاء من تركيا، ومع ذلك لقي ذلك الانسحاب معارضة من جانب النواب الإنجليز. ولكن «كرزون» رد على احتجاجاتهم بقوله: لقد قضينا على تركيا الإسلامية التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم؛ لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين: الإسلام والخلافة. وتم إعلان الجمهورية وتعيين أتاتورك رئيسًا لها، وتم تحويل تركيا إلى دولة أوربية علمانية؛ قضت الحكومة على كل ما هو ديني، وحولت المساجد إلى متاحف، واستبدلت بالأحرف العربية اللاتينية، وحول الأذان من اللغة العربية إلى التركية، وزيف التاريخ الإسلامي لتركيا، وهذه الإجراءات لم تتم بسلام، بل قاومها الشعب التركي وقدم الكثير من التضحيات والشهداء، وفعل أتاتورك بالأتراك مثلما فعل الصليبيون بالمسلمين في القدس والتتار في بغداد.

ولقد كان للماسونية الدور الأكبر في هذا التحول العلماني؛ حيث علقت دائرة المعارف الماسونية على هذا العمل الإجرامي بقولها: إن الانقلاب التركي الذي قام به الأخ العظيم «مصطفى كمال أتاتورك» أفاد الأمة، فقد أبطل السلطة، وألغى الخلافة، وأبطل المحاكم الشرعية، وألغى دين الدولة، وألغى وزارة الأوقاف، أليس هذا

(١) المخططات ا لاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١٢٧، ١٢٨ .

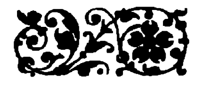
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية/ تعريب: نبيه أمين فارس ص ٦٩٥، ط دار العلم للملايين ١٩٧٩م.

الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة؟ فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقًا ولاحقًا[(١)]؟

وبعد هذا الانقلاب قام دعاة التغريب في البلاد الإسلامية بالدعوة إلى ما أسموه توحيد التشريع في مصر، حيث قام «محمود عزمي» صاحب جريدة «السفور»، وطالب بتطبيق القانون الوضعي على جميع المصريين مهما تكن شرائعهم ومعتقداتهم، بمعنى أن يكون للمصريين كلهم أحكام زواج وطلاق واحدة، وبمعنى أنه إذا رغبت المسلمة أن تتزوج من قبطي فلا يكون هناك مانع[(٢)].

وفي نهاية المطاف استبعدت الشريعة الإسلامية من القوانين، كما ألغي النص على أن دين الدولة هو الإسلام في دستور مصر عام (١٩٥٨)، ثم في ميثاق العمل الوطني سنة (١٩٦٢)[(٣)].

وتم فصل الدين عن الدولة واستبعاده من كل مجالات الحياة في أكثر الدول العربية والتي فيها بقايا تطبيق الشريعة، تحيط بها المؤامرات من كل جانب وبإبعاد الإسلام - عن كل مجالات الحياة - هيأ الاستعمار بلدان العالم الإسلامي إلى مرحلة أخرى من الصراع وهي فرض العلمانية، والحديث عن ذلك في المبحث الثالث إن شاء الله.



---

(١) الأفعى اليهودية ص ٩٦ .

(٢) من التبعية إلى الأصالة/ أنور الجندي ص ٣٦ .

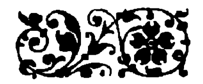
(٣) أساليب الغزو الفكري ص ١٤ .

المبحث الثالث
مرحلة ما بعد إلغاء الخلافة الإسلامية

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: فرض العلمانية.

المطلب الثاني: تغريب الأسرة المسلمة.



الصراع الاجتماعي في مرحلة ما بعد إلغاء الخلافة الإسلامية

لقد أصبح العالم الإسلامي - بعد القضاء على الخلافة - مقطع الأوصال - ممزق الشمل بسبب الحملات المتنوعة من تبشير واستشراق وغيرها. هذه المواجهات إن لم تنجح في تحقيق أهدافها من تحويل المسلمين عن دينهم، فإنها أفلحت في إثارة الشكوك والوهن في عقائد المسلمين وأفكارهم. ولكن الاستعمار وأذنابه خشي من صحوة الإسلام التي تتم بسرعة، فاتخذ من الوسائل ما يضمن استمرار التبعية، وضرب الحصار على المجتمع فكريًا وسياسيًا واجتماعيًا. وقد بينت في الفصل الأول ما اتخذه الاستعمار من سبل لضمان التوجه السياسي لمصالحه، وكذلك التوجه الاقتصادي في الفصل الثاني، والآن نتحدث عن الجانب الاجتماعي وهي كثيرة، ولكن أهمها فرض العلمانية في التعليم والأدب والقانون والإعلام وهذا مطلب. والثاني تغريب الأسرة المسلمة.

المطلب الأول
فرض العلمانيـــة

العلمانية أحد أساليب التغير الاجتماعي التي استعملها الاستعمار لتغريب المجتمع الإسلامي، وإبعاد الأمة عن دينها. والعلمانية مصطلح غربي النشأة يراد به: إبعاد الدين عن التدخل في تنظيم شؤون الحياة، وإحلال الأنظمة البشرية لتنظيم شؤون الحياة المختلفة بعيدًا عن الدين[١].

---

(١) انظر: العلمانية - بحث من إعداد عباس زكي، مقدم إلى مؤتمر الإسلام وتحديات الحاضر والمستقبل، كلية آداب الزقازيق - غير منشور - وراجع: ظروف نشأة العلمانية في الفصل الثالث من الباب الأول.

وقد دخلت العلمانية إلى الشرق الإسلامي عن طريق الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب على أيدي من تربوا على نظام الغرب وحضارته من فئات مختلفة بدعوى العلم والحرية الفكرية. وقد ساعدهم الاستعمار الغربي في ترويج هذه الدعوى بحجة أنها السر في تقدم أوروبا، وأنها الأسلوب الوحيد لتحرير العلم من الدين. وأن الإسلام قد أثبت فشله في الحياة. وكل هذه الحجج بعيدة عن المنطلق السليم إذا علم أصحاب هذه الدعاوى منزلة العلم في الإسلام ومكانة العلماء، وكيف كان المسلمون يوم أن جمعوا بين الدين والدنيا(١).

وقد حرص الاستعمار على نشر العلمانية - بأكثر من سبيل - في مجالات التعليم والإعلام والقانون؛ وقد حرصت القيادات الوطنية على زيادة نشر العلمانية، وسوف أتكلم الآن عن مجالات ووسائل نشر العلمانية:

أولاً: في التعليم:

إن من أهداف التعليم في الإسلام: تنشئة الإنسان الصالح الذي يعبد الله حق عبادته، ويعمر الأرض وفق شريعته، ويسخرها لخدمة عقيدته، تحقيقًا للمعنى الشامل للعبادة التي يريدها الله سبحانه وتعالى والتي لا تقتصر على الشعائر التعبدية، بل تشمل نشاط الإنسان كله - من اعتقاد - وفكر وتصور وعمل سواء أكان العمل في عمارة الأرض أو نظر في السماء لكشف سنن الله في الكون. وعلى هذا المعنى الشامل للعبادة يجب أن يحقق التعليم أمرين:

الأول: تعريف الإنسان بخالقه، ليعبده حق عبادته، ويؤدي شعائره، ويطبق شريعته ويلتزم بمنهجه في كل أمور حياته.

الثاني: تعريفه بسنن الله في الكون ليعبده، بعمارة الأرض والمشي في مناكبها وتسخير ما خلق الله فيها لخدمة العقيدة والتمكين لدينه في الأرض امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢)، وعلى هذا الفهم الصحيح تلتقي علوم الشريعة مع علوم الطب والهندسة وغيرها في أنها كلها علوم إسلامية ما دامت

(١) راجع: الفصل الثالث من الباب الأول في الرد على العلمانية.

(٢) سورة هود: الآية ٦١.

متفقة مع التصور الإسلامي لمنهج التعليم حيث لا قيود على العلم النظري أو التجريبي إلا أن يستخدم في إفساد العقيدة والأخلاق، كما لا يجوز أن يكون أداة للإضرار بالغير[١].

هذا هو الفهم الإسلامي الصحيح لعملية التعليم التي تنبثق من عقيدة الإسلام وغايتها في الحياة.

وقد كان التعليم في البلاد العربية - قبل الاحتلال الأجنبي - تعليمًا إسلاميًا، يهدف إلى بناء الأمة الإسلامية ولخدمة رسالتها في الحياة، ولهذا حرص الاستعمار الأجنبي على السيطرة على التعليم لإخراجه من محتواه الذي يحفز على المقاومة، مبررًا ذلك بوصفه بالجمود والتخلف؛ لأنه مصدر القوة التي قاومت الاستعمار، هذه القوة تمثلت في خريجي الأزهر، والزيتونة، والقرويين» حيث كانت منابر العلم في العالم الإسلامي ومصدر القلق للاستعمار. ولذلك أول ما فكر في هذه المنابر العلمية فكر في تحويلها عن غايتها، أو خلق تيار التعليم المدني النابع من مناهجه وأساليبه ليعزل التعليم الإسلامي ويقصيه عن مجال الحياة.

ففي العام التالي للاحتلال البريطاني لمصر جاء «اللورد دوفرين» لدراسة الوضع في مصر ليضع تقريرًا للإدارة البريطانية لتسير عليه في حكم مصر، وقد قال في تقريره: «إن طريق التعليم في الجامع الأزهر جافة، وأقترح إقامة التعليم على أساس العامية»، وقال: «إن التقدم ضعيف طالما أن العامة تتعلم اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن»، ثم أشار في نهاية تقريره إلى التوسع في إنشاء المدارس لمزاحمة التعليم الديني[٢].

وبعد هذا التقرير قام «اللورد كرومر» المعتمد البريطاني في مصر - بالتعاون مع إرساليات التبشير - بفتح مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية ولا تعلم الدين إلا تعليمًا هامشيًا، هو في ذاته جزء من خطة إخراج المسلمين من الإسلام. فقد قال هذا الرجل: «إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هو تثبيت معالم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هي أساس

---

(١) انظر: الباب الثالث (الفصل الثاني) مبحث: التعليم ودوره في بناء الشخصية المسلمة.

(٢) الإدارة المصرية تحت السيطرة البريطانية ص ١٧.

العلاقات بين الناس، وأن يرعى من مصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك»[١].

وعين «كرومر» القسيس دنلوب مستشارًا لوزارة المعارف، وكان في يده السلطة الفعلية الكاملة في الوزارة، وقد قام بوضع مناهج الدراسة في التعليم المدني على النحو التالي:

١- جعل اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس لسائر العلوم، وبذلك ضيق على اللغة العربية لمحاولة القضاء عليها.

٢- جعل مادة الدين ثانوية، ليس لها من الأهمية ما لمادة الرسم.

٣- قام بتجريد كتب المطالعة واللغة العربية من كل ماله مساس بالدين الإسلامي، حتى إنه ألغى كتاب «علي مبارك، وعبدالله فكرى» (طرق الهجاء)، وكانت حجته في ذلك: أن الكتاب تحدث عن الفضائل الإسلامية، وأورد قواعد الإسلام وأركانه مصحوبة بالحكم والآيات القرآنية والأحاديث التي تحث على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين، وكان هذا الكتاب مقررًا على الطلاب منذ (١٨٩٤) ولكنه ألغاه بحجة أنه غير وافٍ بحاجة التعليم، كما ألغى الباب الوارد في المنهج تحت عنوان: العقائد والعبادات الإسلامية.

٤- وفي مجال دراسة التاريخ وضع منهجًا غربيًا يقوم على العناية بالتاريخ الغربي والتوسع في دراسته. مع إهمال التاريخ الإسلامي ودراسته باقتضاب وإيجاز مخلٍ، فقد توسع المنهج في دراسة تاريخ نابليون وويلسون وغيرهم من قادة الغرب النصراني وقواد ثوراته، في حين لا يدرس التاريخ الإسلامي ولا حياة الرسول وأصحابه إلا صفحات مقتضبة مشوهة، فقد توسعوا في المسائل الخلافية التي جرت بين الصحابة مع اهتمامهم بالحركات الانفصالية عن الإسلام، كحركة القرامطة، وحركة ابن طولون والإخشديين، وفي الوقت ذاته لم يتحدثوا عن الأعمال العظيمة في تاريخ المسلمين، إلى جانب إهمال تأثير العقيدة الإسلامية على التاريخ الإسلامي[٢]. والهدف

(١) واقعنا المعاصر ص ٢١٦ .

(٢) مقدمات العلوم والمناهج ج١ / ٢٦٢ .

المقصود من هذا المنهج هو القضاء على الذاتية الإسلامية، وفرض الحضارة الغربية لتنشئة أجيال مفصولة روحيًا وذهنيًا عن تاريخها وماضيها، وهذا المنهج الموضوع في دراسة التاريخ مطابق تمامًا للخطة اليهودية كما وردت في بروتوكولات حكماء صهيون بنصها سنقوم بدراسة مشكلات المستقبل بدلاً من الكلاسكيات، وبدراسة التاريخ القديم الذي يشتمل على مثل سيئة أكثر من اشتماله على مثل حسنة، وسنطمس في ذاكرة الإنسان العصور الماضية التي تكون شؤمًا علينا، ولا نترك إلى الحقائق التي ستظهر أخطاء الحكومات في ألوان قاتمة فاضحة[١]. وقامت الحكومات الأجنبية بحصار التعليم الديني ماديًا معنويًا، فيتم تضييق الموارد المادية على التعليم الديني، وإغداقها على التعليم اللاديني. وأما الحصار المعنوي، فهو ما لجأ إليه من تنفير وسخرية بطالب العلم الديني وبأستاذه وبالتفرقة بين أستاذ الدين والمواد الأخرى في كل شيء تفرقة مقصودة مرسومة للتنفير من الدين وتشجيع الإقبال على غير الدين[٢].

ولقد كان لهذه السياسة الاستعمارية أثرها المباشر في إقبال أولياء الأمور على تعليم أبنائهم في المدارس اللادينية، ولم يعد يذهب إلى الأزهر إلاّ الطلبة الفقراء الذين لا يستطيعون دفع مصروفات المدارس الحديثة، مما كان له الأثر في زعزعة الدين في نفوس خريجي هذه المدارس وازدرائهم له. يقول المبشر تكلى: «يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأن كثيرًا من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية». وذلك لأن «التعليم الغربي يحمل روحًا مستغلة تتجلى في عقيدة مؤلفة وعقلية وضعية؛ فإذا ما طبق في بلاد مسلمة أو مجتمع مسلم يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي، ثم يندرج إلى تقرير العقيدة والردة الفكرية والدينية؛ ذلك لأن الإسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تمامًا لا يمكن أن يتفقا»[٣].

---

(١) البروتوكول السادس عشر/ خليفة التونسي/ ١٨٣، ١٨٤ بيروت .

(٢) أساليب الغزو الفكري/ ٦٤ . وانظر: واقعنا المعاصر/ ٢١٨، ٢١٩ .

(٣) الإسلام على مفترق الطرق/ محمد أسد/ ٣٦ .

وهذا الاستنتاج أكده «زويمر» زعيم المبشرين في مؤتمر عقد على جبل الزيتون في القدس عام (١٩٣٥) حين قال: «لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية. وإنكم أعددتم نشئًا في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها. وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده له الاستعمار المسيحي، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يعرف همه في دنياه إلا في الشهوات؛ فإذا تعلم فللشهوات؛ وإذا جمع المال فللشهوة؛ وإن تبوأ أسمى المراكز، وفي سبيل الشهوات يجود بكل شيء»[١].

ولقد تولى مهام التدريس في تلك المدارس نخبة من المدرسين الذين تربوا على الفكر الغربي الاستشراقي في جامعات أوروبا من أمثال رفاعة الطهطاوي الذي انبهر بحضارة الغرب في فرنسا وعاد ليصرح بأن الرقص الغربي الذي تتلاصق فيه الأجساد وتختلط الأنفس وتتلاقي النظرات لون من العيافة والشلبنة[٢].

ومن بعده طه حسين الذي كان ندًا للأزهر بعد فشله في التعليم الأزهري، وقد علل ذلك بقوله: إن الأزهر «لم يعد يشبع ما في نفسي من الأغراض الأدبية؛ فتركته، والتحقت بالجامعة المصرية»[٣]. فلما أرسلته الجامعة في بعثة إلى باريس للحصول على الدكتوراة، وقد استجاب استجابة كاملة للمستشرقين حتى قال عنه «ماسينيون»: إننا حين نقرأ لطه حسين نقول: «هذه بضاعتنا ردت إلينا»، وقد تتلمذ على أيدي «نيلينو وجويدي، ودور كايم، وكازانوفا»، وهؤلاء كانت لهم صلة بدوائر الاستعمار، وعملوا على صياغة فكر «طه حسين»، وقد اعترف نفسه بتأثره بهم حيث يقول: تأثري بالمستشرقين شديد جدًا حتى قال إنه لم يفهم القرآن في الأزهر، وقد فهمه في فرنسا على كازانوفا الذي تأثر به في مفهومه للقرآن وتفسيره[٤].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي/ ٣٥ .

(٢) رفاعة الطهطاوي ص محمد عمارة ص ١٤٥، ط دار المستقبل العربي .

(٣) طه حسين الجريمة والإدانة/ جابر رزق ص ٤٣ ط دار الاعتصام .

(٤) السابق ص ٤٦ وما بعدها .

وقد ظهر هذا التأثر في كتبه التي ألفها حيث دعا فيها صراحة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها وقطع ما يربطها بقديمها وإسلامها حيث يقول: «إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر، فإنما يتأثر بالبحر المتوسط؛ وإن تبادل المنافع على اختلافها، فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط». ثم يطعن في حكم العرب المسلمين لمصر فيقول: «والتاريخ يحدثنا بأن رضا المصريين عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السخط ولم يخلص من المقاومة والثورة، وأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون». ثم يتساءل: «هل استطاع الإسلام خلال حكمه الطويل أن يخرج مصر من عقليتها الأولى؟ وهل جعلها شرقية؟». ويجيب طه حسين بـ (لا)، ويدلل على إمكانية ذلك بالمسيحية التي لم تخرج العقل الأوروبى عن كونه الأوروبي، ويريد «طه حسين» أن يصل إلى عدم وجود فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوروبي، ويطلب من المصريين محو شعور التميز عن أوروبا من أنفسهم، ويدعوهم إلى أن السبيل للرقي ليس له إلا طريق واحد بين؛ وهو أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب[١]؛ لأن مصلحتنا تقضي ذلك.

وقد دعا «طه حسين» في كتابه هذا إلى إقامة الوطنية وشؤون الحكم على أساس مدني لا دخل فيه للدين، فيقول: «إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية، ولا قوامًا لتكوين الدول» وأدعى». أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية، وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية زاعمًا أنهم قد فطنوا إلى أصل من أصول الحياة الحديثة، وهو أن السياسة شيء والدين شيء آخر. ثم يصرح بما هو نتيجة لذلك، فيدعو إلى أن تكون الحكومة في مصر لا دينية[٢]، هذا إلى جانب ما قاله عن النبي ﷺ وسيرته والصحب الكرام في كتابه على «هامش السيرة».

---

(١) انظر في كتابه مستقبل الثقافة في مصر/ من الفقرة ٩ - ٤١ ط دار المعارف .

(٢) السابق فقرة ١٣/ ٦٩ .

نعود فنقول: إن التعليم في مصر كان ينظم على أيدي هؤلاء حتى كان طه حسين يومًا من الأيام وزيرًا للتعليم، ولم يسلم الأزهر من محاولات إغلاقه، ولكن أمام المواقف المخلصة لعلماء هذه الأمة لم يستطع الاستعمار سوى إضعافه بمؤامرة التطوير عام (١٩٦١) فقد ذكرت رسالة دكتوراه، بكلية التربية في جامعة الأزهر: أن قانون التطوير رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ قد واكبه ضعف في التحويل وفساد في التخطيط أدى إلى أضرار ومشكلات بالغة عصفت برسالة الأزهر، وحالت دون تحقيق أهداف التطوير. فقال: «إن ضعف الإنفاق على الطالب الأزهري ترتب عليه انصراف الطلاب عن التعليم الأزهري، وضعف إنتاج تعليمه ونقص الأبنية، وقصور الأدوات والأجهزة، ونقص الوسائل التعليمية، وكان الواجب زيادة تكلفة الطالب الأزهري بصفة خاصة؛ لأن إعداده يتطلب أن يدرس المواد الشرعية والعربية والثقافية»[١].

كما أشار الباحث الى «أن قانون التطوير لم يواكبه تخطيط لإنشاء معاهد أزهرية جديدة، وأن الأمر متروك للجهود الذاتية إلا القليل النادر»[٢]. ولا أريد الاسترسال في الأعداد والأرقام الضئيلة المرصودة، فالحال يدل على المقال، وهو أبلغ في الاستدلال حتى حقق الاستعمار ما أراد من التعليم، وقد عبر عن ذلك أحد المبشرين وهو «جيب» حيث قال: «لقد فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئًا فشيئًا حتى انحصرت في طقوس محددة، وقد تم معظم هذا التطوير تدريجيًا عن غير وعي وانتباه، وقد مضى هذا التطوير الآن إلى مدًى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، ولكن نجاح هذا التطوير يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الإسلامي، وعلى الشباب منهم خاصة، كل ذلك كان نتيجة النشاط التعليمي والثقافي العلماني»[٣].

وقد قامت القيادات العلمانية في العالم الإسلامي - والتي نصبها الاستعمار بعد رحيله - بنفس الدور الذي قام به الاستعمار باسم خدعة جديدة اسمها التطوير،

---

(١) مشكلات تمويل تعليم ما قبل الجامعي بالأزهر/ فتحي محمد العراقي/ ١٥٢ كلية التربية جامعة الأزهر.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٣) غزو في الصميم ص ٢٨، مرجع سابق.

حيث روجعت المناهج، وحذف منها ما يتعلق بالإسلام، كما حذفت الآيات والأحاديث التي تحث على الجهاد والحكم بما أنزل الله وغيرها تحت مؤثرات خارجية متعددة أذكر أولاً: دور القيادات العلمانية ثم المؤثرات بعد ذلك.

أولًا: أشير هنا إلى ثلاث وثائق تثبت التآمر الأجنبي على التاريخ الإسلامي:

الوثيقة الأولى: من عهد رئيس مصري سابق، تقول الوثيقة: «إن تدريس مادة التاريخ الإسلامي في المدارس القديمة يربط السياسة بالدين في لا شعور كثير من التلاميذ منذ الصغر؛ ولهذا اتخذت اللجنة عشرة قرارات، منها تغير مناهج التاريخ الإسلامي والدين في المدارس، للنشء حالته وربطها بالمعتقدات الاشتراكية كأوضاع اجتماعية واقتصادية وليست سياسية، مع إبراز مفاسد الخلافة وخاصة زمن العثمانيين وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة وإقصائها عن السياسة، وذلك بهدف محو فكرة ارتباط السياسة بالدين الإسلامي»[(١)].

وكذلك في الوثيقة الثانية والثالثة من الاهتمام بالاستمرار والإسراع في سياسية تطوير الأزهر إلى جامعة كلاسيكية، حق يتوقف سيل الخريجين من محترفي الدين، وحتى يمكن تطوير سلوك وأفكار الأئمة والمدرسين ورجال الدين، وإعادة النظر في التكوين الفكري المرتبط بالنظرية الإسلامية القديمة، وتسليط الدعاية والإعلام على مجددي الدين مثل طه حسين وخلافه[(٢)].

وأما المؤثرات الخارجية فتتمثل في المنظمات الدولية، ثم القروض والمعونات الأمريكية، وأخيرًا اتفاقية السلام وجنايتها على التعليم.

أولاً: المنظمات الدولية:

من هذه المنظمات منظمة «اليونسكو»، «ومنظمة الإسلام والغرب».

١- **منظمة اليونسكو**[(٣)]، وهي منظمة قامت على التحيز ضد الإسلام؛ فقد

---

(١) انظر دعاة لا قضاة/ علي جريشه ص ١٤٨، ١٤٩ باختصار، ط الكويت ١٩٧٩م.

(٢) السابق ص ١٦٩، وانظر نص الوثائق الثلاث في ملاحق البحث . وانظر جريدة الأسرة العربية عدد (١٠٠) ص ٨/ ١٩٩٣م.

(٣) اسمها الحقيقي منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية، ويونسكو مجموع الحروف الأولى للكلمات التي يتألف منها اسم المنظمة باللغة الإنجليزية تأسست عام (١٩٤٦) وتهدف المنظمة كما =

أصدرت المنظمة موسوعة علمية باسم «تاريخ الجنس البشري وتقدمه العلمي والثقافي»، وفي القيم الثاني منه في الصفحات ٤٤٠ - ٥٤٦ في الفصل الخاص بالإسلام نشرت أكاذيب عن الإسلام والنبي والخلفاء الراشدين، حيث جاء فيه أن الإسلام قد احتفظ في ركن الكعبة بالوثن المهم لأهل مكة وهو الحجر الأسود، والقول ببشرية القرآن والادعاء بأن الإسلام خليط من أفكار وثنية ونظريات مسيحية ويهودية[١].

وأخطرها ما تقوم به «اليونسكو» في مجال التعليم دورها في إفساد التعليم في البلاد العربية والقضاء على طابعه الإسلامي؛ وذلك بفرض النظريات المادية، مثل: نظرية دارون في التطور، وتقليص الآيات القرآنية في مناهج التعليم، وفرض مفهوم جغرافي لحساب إسرائيل، وذلك لمحو فلسطين من الخريطة العربية، وحذف تاريخ صلاح الدين وحطين وعين جالوت من تاريخ الإسلام[٢].

٢- **وأما منظمة الإسلام والغرب**، فقد تخصصت في الدس على المناهج الدراسية ومقرراتها في العالم الإسلامي، وبخاصة مادة التاريخ الإسلامي، واستطاعت المنظمة - عن طريق أعضائها من المسلمين الذين تولوا توجيه التعليم في مختلف بلدان العالم الإسلامي - من إلغاء مادة التاريخ الإسلامي من التعليم الابتدائي الذي أحل محله التاريخ الفرعوني وغير ذلك من اختزال وتشويه الحس الإسلامي من مادة التاريخ وغيرها[٣].

ثانيًا: القروض والمعونات المشروطة وجنايتها على التعليم:

القروض الأمريكية التي يعلن عنها لاستجلاب العطف الجماهيري على الوجود

= يقول ميثاقها إلى صيانة السلم والأمن الدوليين عن طريق توثيق التعاون بين الدول في المجالات التربوية والعلمية والثقافية على النحو التالي:

١- تسهيل حرية تداول الأفكار عن طريق الكلمة المسموعة والصورة، وتمكين الشعوب جميعها من أن تضطلع على ما ينشره كل شعب منها .

٢- الارتفاع بمستوى التعليم عن طريق تبادل رجال التربية .

٣- صون وحماية التراث العالمي من الكتب والأعمال الفنية وغيرها من الآثار . وهي تقوم بهذا العمل دون التحيز لجنس دون آخر . (انظر رسالتنا للماجستير) موقف الدعوة الإسلامية من التضامن الدولي ص ٢٨٣ .

(١) مفتريات اليونسكو على الإسلام/ محمد عبدالله السمان ص ١٥، ط الاعتصام .

(٢) مجلة الاعتصام عدد رجب (١٤١٠) ص ٣٢ .

(٣) التطوير بين الحقيقة والتضليل/ على أحمد، جمال عبدالهادي/ ٢٩ الوفاء ١٩٩١ انظر الملاحق .

الأمريكي، يشترط فيها أولاً نفعًا لأمريكا ولو أدى ذلك إلى الإضرار بالمصالح القومية للبلد المقترض تمشيًا مع مذهبهم البرجماتي القائم على المنفعة، ففي مجال التعليم: قدمت الولايات المتحدة معونة لوزارة التربية والتعليم خرائط كتب فيها اسم إسرائيل مكان اسم فلسطين بهدف خدمة مخطط الأعداء في اغتصاب ديار الإسلام ولتجهيل الطلاب بالقضية الفلسطينية.

وفي مجال التعليم الأساسي قدمت أمريكا قروضًا ومعونات لإنشاء مئات المدارس بشرط تعميم الاختلاط فيها في مقابل ما تقدمه من معونات أخرى لبرامج التدريب المهني. وبعد أن تمت المؤامرة، وشاع الاختلاط، توقفت المعونة الأمريكية، وعادت الدراسة المهنية نظرية[١]. وفي مرحلة التعليم الثانوي قدمت الولايات المتحدة قرضًا لإنشاء مدارس ثانوية تسمى التجريبية الشاملة (٦ مدارس في مصر)، وجهزتها بالمعونة التربوية المشروطة بأن تكون المدارس مختلطة، والهدف المعلن لهذه المدارس هو: تخريج طلاب حاصلين على الشهادة الثانوية العامة مؤهلين تأهيلًا مهنيًا، والوضع بعد الإنشاء أغلقت المعامل، والأجهزة مغلق عليها منذ سبع سنوات بدون تشغيل أو صيانة، كما أن المدارس محرومة من أداء الشعائر، ولم تقدم التجربة سوى زرع الاختلاط بين الذكور والإناث في سن المراهقة[٢].

ولا يخفى على العاقل الآثار المدمرة للاختلاط على الفرد والمجتمع والأخطار القومية التي تعرض الأمن القومي في الدولة للخطر، وأخيرًا اتفاقية السلام مع اليهود وجنايتها على التعليم المصري تتمثل في نصوص الاتفاقية التي توصل إليها اليهود مع الحكومة المصرية عام (١٩٧٨) وهي تهدف إلى إعادة صياغة العقل المصري ليتقبل ما يسمى بأرض الميعاد، حيث تدور نصوص هذه الاتفاقية حول عدة محاور، منها: ضرورة فتح الحدود أمام إسرائيل وتبادل المعلومات والثقافة والعلوم معها، ثم مراجعة البرامج الدراسية في كلا الجانبين مراجعة شاملة، وفحص ما يدرس في مصر عن إسرائيل وما يدرس في إسرائيل عن مصر والعرب، وتحديد ما يجب حذفه من برامج التعليم الحالية، وإضافة المواد الجديدة المرغوب في دراستها إلى جانب ضرورة إزالة المفاهيم السلبية تجاه إسرائيل إلى الإسلام. وقد صرح «إسحاق نافون» رئيس إسرائيل

(١) المؤامرة على التعليم والمعلم/ نقابة المعلمين ص ١٣، دار الوفاء.

(٢) السابق ص ١٤.

السابق في خطابه بجامعة «بن جوريون» أمام الرئيس السادات في ٢٧/ ٥/ ١٩٦٧ بأن تبادل الثقافة والمعرفة لا يقل أهمية عن الترتيبات العسكرية السياسية، كما صرح في خطابه أمام قيادات الحزب الوطني بمصر في ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٠ بأن أي صياغة أدبية تخالف التطورات الإسرائيلية تعد مساسًا بالسلام.

وفي جامعة «تل أبيب» عقدت ندوة يوم ١٩/ ٢/ ١٩٨٠ حول دعم علاقة السلام بين مصر وإسرائيل، آثار اليهود فيها ما ورد في القرآن الكريم من اتهامات ضد اليهود والتاريخ الإسلامي، وقد طلب رئيس وزراء إسرائيل من «السادات» تغيير ذلك، وقد أمر الرئيس بإعادة النظر في المناهج الدراسية[١].

وتحت ضغوط هذه المؤثرات طور التعليم، وحلت العلمانية محل الدين، إلا أقل من القليل كما بينت الوثائق ذلك[٢]. وقد سبق الحديث عن العلمانية في القانون في مطلب فصل الدين عن الدولة بما يكفي. ومن ثم فلا مجال للحديث عنه حتى لا نقع في التكرار.

ثانيًا: العلمانية في الفكر والأدب:

وأما في مجال الفكر والآداب، فقد عمل الاستعمار على قطع الصلة بين الأجيال الحديثة وتراثها الفكري والأدبي المستمد من الإسلام، وقام بهذا العمل دعاة التغريب والتبعية في العالم الإسلامي، وبدؤوا أولًا بالدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، وقد قام «أتاتورك» بهذا العمل في تركيا، ونحا نحوه «عبدالعزيز فهمي» باشا في مصر وأتباعه من أمثال «طه حسين» بالدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية[٣]. وحمل لطفي السيد لواء الدعوة إلى العامية بعد فشل دعوة «عبدالعزيز فهمي» بهدف الفصل بين المسلمين وبين بيان القرآن ومن ثم يصبح القرآن وبيانه من تراث المتاحف حيث تجري اللغة العربية في مجال العاميات فلا يلتقيان أبدًا، ثم أتبعها الاستعمار الإنجليزي بفرض اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في دراسة جميع المواد في المدارس الابتدائية والثانوية والعالِمية[٤].

---

(١) التطوير بين الحقيقة والتضليل ص ٤٥، ٤٦ .

(٢) انظر: الوثيقة رقم (٦) لبيان حجم التاريخ والدين في المناهج الدراسية .

(٣) جيل العمالقة ص ٤٢ .

(٤) من التبعية إلى الأصالة ص ١٢٧ .

وقد عمت هذه الدعوة العالم الإسلامي على أيدي المستشرقين، والهدف منها هو: قتل اللغة العربية حتى تصير العامية لغة الفكر والأدب. كما قتلت اللغات الفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات اللاتينية التي تفرعت منها في صورة لغات عامية في مبدأ الأمر، ثم تحولت إلى لغات حية وقتلت اللغة الأم، ولكن هذه المحاولات فشلت في عالمنا الإسلامي بسبب وجود القرآن الكريم الذي حفظ قواعدها وأصولها.

ولما لم يستطع أعداء الإسلام النيل من اللغة العربية للوصول إلى ما أرادوا من فرض الفكر الغربي، عملوا على تشويه صورتها وصورة مدرسيها، والحديث عن جمودها وعجزها عن الوفاء بما يراد منها في مجال الفكر والآداب والعلم والفن. وكان منهج «دنلوب» ونظامه في السخرية من اللغة العربية عن طريق تخفيض مرتب مدرسيها وإظهارهم في صورة مزرية أمام الطلاب[1]. وكان الهدف من هذه السياسة توهين اللغة العربية بين الأجيال الحديثة، ولقد اتبع الاستعمار وسيلة أخرى لفرض العلمانية في الفكر الإسلامي، وذلك عن طريق بث فكرة التطوير، ومعنى هذه الفكرة وضع الدين والنبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث، وإخضاعها لقواعد علم النفس التي تقوم على الحواس[2]. ويمعني أوضح إدخالها المعمل لأجراء منهج البحث العلمي عليها، وذلك لإبطالها بدعوى التطوير العلمي وإحلال المذاهب والفلسفات الغربية مكانها، بدعوى أن هذا حديث وذلك قديم بصرف النظر عن أي أسباب أخرى.

ولما كان الإسلام قديمًا قد مضى عليه أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان[3]، فالتطور يقتضي نبذه والأخذ بما جد بعده، والذي جد بعده هو الحضارة الغربية؛ لذلك لزم الأخذ بتلك الحضارة ونبذ الإسلام؛ ولهذا كان تصوير المذاهب والنظريات العلمانية مثل نظرية «دارون ومذهب ماركس، وفلسفة هيجل» وغيرها من النظريات والمذاهب الوضعية التي تروج فكرة فك الارتباط بين الدين والوحي، ولقد نقلت

---

(١) واقعنا المعاصر/ ٢١٩ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية/ ١٣٤ .

(٣) أثناء كتابة هذه السطور.

هذه المذاهب والأفكار إلى المجتمع الإسلامي سبب الحاد «كوبي نيكس» أنه لم ير الله عز وجل في تليسكوبه، وقول «جاجارين» رائد الفضاء الروسي صعدت إلى السماء لأبحث عن الله، فلم أجده. وأمثالها من تلك الأقوال التي تهدف لنشر المذاهب المادية.

ومن نتيجة ذلك: بروز الدعاوي العلمانية بأن الإسلام كان صالحًا للبيئة البدوية التي نشأ فيها، لكنه لا يصلح للبيئة المتحضرة اليوم. وأن الإسلام نظام غير ديمقراطي، ليس فيه تقرير حقوق الإنسان، وليس له نظام للحكم، وأنه رجعي؛ لأنه يحرم الربا. وكان من بين الطرق المستخدمة لفرض العلمانية في الفكر: تشويه التاريخ الإسلامي وكتابته على أيدي المستشرقين بطريقة تظهر المسلمين في صورة المجتمعات المادية التي انتشرت فيها الموسيقى والغناء - أدوات الترف العصرية. ومن الأمثلة على ذلك: ما جاء في كتاب «الحضارة الإسلامية» المقرر على التعليم الثانوي العام الأزهري من ادعاء المؤلف بأن العصر العباسي تجلت فيه ظاهرة تعليم الجواري الغناء، وأن ذلك انتشر انتشارًا عظيمًا، وأن سعر الجارية كان يرتفع كلما زاد إلمامها بالشعر والأدب ونبوغها في الغناء، في حين أن الشرع يرى أن هذا ليس من مظاهر الحضارة؛ لأن مقياس الحضارة في الإسلام هو العفة والورع، وليس المجون والشعر والغناء والتبرج كما ذكر المؤلف. وبلغ تشويه التاريخ مداه حين قال المؤلف: وكان الجواري يغنين من وراء ستار؛ وإذا أقيم حفل خاص وأرادوا إكرام ضيف، غنت المغنيات في هذا الفصل أمام ستار[(١)]. واسترسل المؤلف في تشويه العصر العباسي بهذه الصورة في حين أنه كان عصر جهاد وثراء للمعرفة والعلوم؛ أما أواخره، فيقول عنه ابن القيم في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع: لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد، سلط الله عليهم القراطمة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات[(٢)].

وقد كلف المستشرقون أتباعهم من دعاة التغريب بإخفاء حقائق التاريخ الإسلامي، وذلك بإبراز جوانب الانحراف والاختلاف، وإخفاء الجوانب البيضاء مما يعطي إيحاء خبيثًا بأن الإسلام لم يعش إلا فترة قصيرة من الوقت، وأنه ليس فيه من المقومات ما يعطيه استمرارية الوجود، وليس فيه ما يستحق الحرص عليه، بل ينبغي نبذه والانسلاخ منه.

---

(١) الحضارة الإسلامية للصف الأول الثانوي. وزارة التربية والتعليم ص ٢٠- ٢٦ باختصار.

(٢) إغاثة اللهفان ج٢/ ٢٦٥، مرجع سابق.

كذلك استخدام الاستعمار العلمانية في مجال الأدب لصرف المسلمين عن دينهم، فالأدب بمختلف أشكاله وفروعه عامل قوي في توجيه المجتمع وتلوين الحياة. والآداب الغربية تقوم على مفاهيم التحررية والإباحية وغيرها من المفاهيم التي تسقط الدين من حسابها ولا تعترف بإله. وقد تولى الاستعمار نشر هذه المبادئ الليبرالية عن طريق دعاة التحرر تحت ستار الأدب العالمي أو الأدب الحر، وعمل الاستعمار على تكبيرهم والدعاية لهم، ونشر أفكارهم على أوسع نطاق، وصار هؤلاء قادة الفكر وعمداء الأدب، وقام هؤلاء بترجمة كتب الأدب والقصص الغربي المتحرر من أمثال «شكسبير وبايرون» وغيرهما، وأصبح هؤلاء هم البديل للمتنبي «وامرئ القيس»[١].

ولا يخفى على كل عاقل الضوابط التي وضعتها اللجنة المشرفة على منح جائزة نوبل العالمية ما قاله الروائي العالمي «نجيب محفوظ» إن هذه الجائزة ككل جائزة تقوم على أساسين:

الأول: عمل يشترط فيه درجة من التفوق.

الثاني: تحقيق مضمون معين لا يخلو من خط سياسي بالمعنى العام.

ومن شروط استحقاق نوبل - والكلام له أيضًا - أنها تمنح لمن يعمل لخير الإنسانية، وخير الإنسانية معناه عند لجنة «نوبل» الحرية، واحترام الفرد، وحقوق الإنسان[٢]، وكلها بالمعنى الغربي القائم على العنصرية والتعصب الغربي. وقد استوفي «نجيب محفوظ» شروط الاستحقاق التي أهلته لكي يمنح الجائزة، فقد أقر «نجيب محفوظ» على نفسه بدوره في مشروع إرضاء الصهيونية قال «جزان»: عابه بعض الناس على قبوله الجائزة التي كان قد أعلن أنه سيرفضها إذا جاءته في أعقاب هزيمة (١٩٦٧) في جمع ضم دكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة وبعض المثقفين وأصحاب الرأي لتبادل الأفكار، وكان الرأى الذي أعلنته وقتها ضرورة العودة إلى الديمقراطية تمهيدًا للتفاوض مع إسرائيل. ثم ناديت بالسلام مع إسرائيل في جلسة بجريدة الأهرام أواخر عام (١٩٧٠) في بداية حكم السادات[٣].

---

(١) انظر: أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والغرب د. سيد أحمد فرج/المقدمة، ط دار الوفاء/ ١٩٩٠م.

(٢) السابق ص ٥٩ .

(٣) السابق ص ٦٣ .

وقبل أن أترك «نجيب محفوظ» الروائي العالمي أذكر أمثلة من أدبه العالمي الذي ينم عن حقيقته التي لا يعرفها إلا القليل، من ذلك: نظرته إلى الدين الإسلامي التي لا تختلف عن نظرته إلى الفاشية والنازية وكافة النظم الدكتاتورية؛ ثم يفضل الشيوعية، عليه بزعمه؛ لأنه لا يرى فيها نظامًا موغلاً في الدكتاتورية وظلم العباد، ويتضح هذا مما كتبه في «رواية السكرية» قوله: «لا شك في احتقاري للفاشية والنازية، وكافة النظم الدكتاتورية، أما الشيوعية، فخليقة بأن تخلق عالمًا خاليًا من مآسي الخلافات العنصرية والدينية، ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذي تتحدث عنه منذ أكثر من ألف عام ولكنه دين، والشيوعية علم؛ أما الدين فأسطورة»[1]. ولأنه يرى أن الدين أسطورة والأسطورة تقوم على الخرافة، فهو يسخر من الشباب المسلم الذين يدعون للعودة إلى الدين من خلال جماعة «الإخوان المسلمين»، فهو يتساءل ساخرًا في الحوار التالي:

ما الإخوان المسلمون؟ لقد كرهتهم منذ البداية، جمعية دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علمًا وعملاً، وفهم الإسلام كما خلقه الله دينًا ودنيا، شريعة ونظامًا وحكمًا، أهذا كلام يقال في القرن العشرين، احترنا ياهوه بين الديمقراطية والفاشية والشيوعية، هذا خازوق جديد لكنه (خازوق) رباني[2].

يكفي هذا الاستدلال الذي يبين شخصية الرجل، وكيف جعله الاستعمار أديبًا عالميًا أحبه الملايين وقرؤوا كتبه واعتنقوا فكره، وهذا الانحطاط في فهم الإسلام ليس نتيجة جهل الرجل بالإسلام ولكن السبب هو الثورة على القديم، واعتناق لما أسماه بالرسالة الجديدة التي حملها من قبله عميد الأدب العربي «طه حسين».

ومن هذا الطريق وعن طريق العملاء تسلل العلمانية في الفكر والأدب لهدم الدين والأخلاق في نفوس المسلمين، وهذا هو السر في تشجيع القيادات العلمانية التي تعمل في تصور الثقافة، مسابقات الشعر والقصص، ومن العجب العجاب أنني ذهبت إلى قصر ثقافة المنصورة وكان معي كارت استعارة وأردت استعارة بعض

(١) رواية السكرية/ نجيب محفوظ ص ١٥٤٢، ط مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧م.

(٢) السابق ص ١٣٩ .

الكتب حسب اللوائح، كانت الكتب تتعلق بموضوع البحث، فاعتذر القائم على أمر الاستعارة بأن نظام القصر لا يسمح بخروج كتب خارج القصر إلا كتب الأدب والقصص الروائية، وهذه وظيفة قصور الثقافة - ترويج القصص الغرامية التي تصرف الشباب المسلم عن دينه.



العلمانية في الصحافة والإعلام

العلمانية في الإعلام أعم وأشمل من التعليم؛ ذلك لأن الإعلام يخاطب الملايين ببرامجه المسموعة، والمقروءة، والمنظورة. وأصبحت وسائل الإعلام مصدرًا من مصادر بث الثقافة، تفوق في ذلك التعليم وأجهزته، «فالمطابع بما تخرجه من كتب وصحف ونشرات، والإذاعة بما توجهه من كلمات وألحان في مختلف الصور والألوان، والسينما بما تجسمه لوحاتها من حكايات وما تعرضه من فنون وشؤون، ودور اللهو والتمثيل أقدر على التوجيه والتأثير، فإن كانت طيبة؛ كانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ وإن كانت خبيثة كانت كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ولأهمية هذه الوسائل في التأثير عمد الاستعمار إلى استخدامها لفرض الفكر المادي في بلاد المسلمين في ظل هذا الصراع، فالكتاب في بداية الاحتكاك بين الشرق والغرب بدأ مترجمًا عن الغرب عن طريق المبعوثين إلى تلك البلاد وذلك لفراغ الجو الإسلامي من الفكر المواكب لخط الحياة وتطورها، وكان المفروض في هذا الوقت أن يبدأ الأمر بترجمته الكتب العلمية التي تسد حاجة الشعوب الإسلامية في ميادين العلم والتكنولوجيا، لكي تستطيع بناء قوتها العسكرية للنهوض من تخلفها وكبوتها ولكن الأمور قدر لها أن تسير في الجانب الآخر، فقد ترجمت المئات من القصص والمسرحيات والكتب التي تحمل الفكر الغربي العلماني المناوئ للدين والجاحد له، مع عناية خاصة بنشر أفكار «دارون وهيجل، ودور كايم»، وسواء تم هذا الأمر بعلم المترجمين أو باستغفالهم المهم أن الاستعمار أتقن الوسيلة لتحطيم التقاليد الإسلامية التي تمنع الاختلاطُ وتنفر من الفاحشة والانحلال الخلقي، فقد كانت هذه التقاليد عقبة كؤودًا في سبيل الإفساد الخلقي الذي يهدف الغرب إلى إحداثه في المجتمع الإسلامي، ولو رجعنا قليلاً إلى صفحات هذا البحث لوجدنا أن نابليون- أثناء حملته على مصر - قد جاء ببعض النساء الفرنسيات لإشاعة السفور في المجتمع المصري وإشاعة الفاحشة، ومن هنا نعلم الهدف الاستعماري من ترجمة القصص

الغرامية والمسرحيات التي تعرض جوًّا مختلفًا تمامًا عن الجو الإسلامي، فالقصص والمسرحيات روتينية لا تتعدى الحديث عن علاقات غير مشروعة بين رجل وامرأة وبين فتاة، تصفي القصة أو المسرحية على هذه العلاقة الصفة الشرعية، فحين يقرأ الشاب أو الشابة قصة بهذا الشكل يتأبي على قيم المجتمع الإسلامي التي تحول بينه وبين الاستمتاع على النحو الذي قرأه في تلك القصة أو هذا الكتاب، إلى جانب الاتجاهات المادية التي يهدف إليها المؤلف، ولقد اعترف اليهود بهذه الحقيقة، فقالوا: إن نجاح «داورن، وماركس، ونيتشه» قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحًا لنا على التأكيد»[١].

والصحافة في هذا المجال أعظم شأنًا وأخطر تأثيرًا؛ لأنها تشمل المثقفين وغيرهم من العامة. وقد انتشرت الصحافة التبشيرية في مصر انتشارًا كبيرًا من لبنانية ومسيحية مارونية، وذلك بهدف نشر الأفكار والحركات المناوئة للإسلام والدولة العثمانية، وكانت صحف «الهلال، والأهرام، والمقطم»، تدار بأيدي مسيحية، وكلها تعمل لهدف الصهيونية والاستعمار في نشر المبادئ الغربية، ولقد لعبت هذه الصحف دورًا كبيرًا أثناء الاحتلال في التشويش والتشكيك في القيم الإسلامية، وإغراء القراء بالحضارة الأوروبية ومفاتنها، وأنها ولا شيء بعدها، وسكتت عن الجوانب الخفية التي يمارسها الاستعمار ضد البلاد الإسلامية وما جره عليها من فساد خلقي وظلم اجتماعي بما نقله إليها من أنظمته الوضعية[٢].

ويدأت الصحافة تهاجم الإسلام مهاجمة صريحة بعد إلغاء الخلافة والدعوات التي تنادي بعودتها إلى اليوم، ويذكر المودودي طريق ذلك فيقول: «ألا ترى أنك إذا قمت في بلد من بلاد 'المسلمين أنفسهم تنادي بإحياء نظام الإسلام وتطبيق قواعده ومبادئه تعرضت لضروب من الشبهات والاعتراضات تثار حول هذا النظام المطلوب تطبيقه في العصر الحاضر، هل يمكن أن يكون نظام قد مر عليه أربعة عشر قرنًا من الزمان ملائمًا لمجتمع اليوم وصالحًا ليطبق في دولة متحضرة عصرية أو تعمل على أن يكون

(١) الخطر اليهودي/ التونسي ص ١٢٣، ١٢٤ .

(٢) انظر كلًا من: الاتجاهات الوطنية ج٢/ ٣٥، وواقعنا المعاصر ص ٢٤٢ بتصرف واختصار .

كذلك؟! هل من اللائق بزمن العلم والحضارة والتقدم أن تقام فيه الحدود الهمجية - كما يزعمون- الجلد والرجم وقطع الأيدي»[١].

ولقد كانت قضية تحرير المرأة من أكبر الموضوعات التي خاضتها الصحافة لصالح الاستعمار الصليبي الغربي، وذلك عن طريق بث الفكر الوافد بطريقة الحوار، فبدأت الصحافة بالكتابة تحت عنوان كيف تسعدين زوجك؟ وهل يكره الإسلام أن تتزين المرأة لزوجها؟ نحن نقدم النصيحة مصورة؛ لأننا في زمن الصحافة التى توضح كل شيء بالرسم. ثم تخطو خطوة أخرى تحت عنوان: كيف تجذبين انتباه الرجل؟ ثم تتولى الصحيفة عرض الأزياء؛ هذا فستان يكشف كذا وآخر لكذا وكذا حتى تكشف مفاتن الجسم كله بجميع أجزائه[٢].

ثم كانت الطامة الكبرى في وسائل الإعلام الحديث التي تسيطر عليها الفئات التي نصبها الاستعمار في البلاد الإسلامية والعربية، ويتحكم في توجيهها السيطرة الصهيونية، فوزارة الثقافة والإرشاد القومي والإعلام ما هي إلا متنفس استعماري بأيد تسمى بالإسلام، فالسياسة التي تجري عليها هي إشباع الشهوات لا الإرشاد، وهي في كثير مما تهز به أجواء الأرض من كلمات أو أصوات تفسد ولا تصلح، وتغوي ولا تهدي، وتحتاج للمرشد مع أن مهمتها الإرشاد، فقصصها المسلسلة مثار للفزع الذي يعلق النفوس، ويسقم الناشئين، ويجنح بطبائعهم إلى الانحراف بما يدور حول سياقها من جرائم تظهر عتاة الأشقياء في مظهر الأبطال، وبما تعرضه من نماذج لنفوس فظة مريضة، وبما توحي إلى أبنائنا من سلوك منحط سافل يتحدى خلقنا الإسلامي بما تزوره وتذيعه من مبتكرات الوهم الذي يسمى علم النفس، وبما تقدمه لهم من نماذج لأساليب الكتابة والخطاب في أحاديث الغرام ووسائله وتأوهات المغرمين والمغرمات، وتماوت المتهالكين والمتهالكات من الممثلين والممثلات وبما تحدثه من تفكك هدام في كيان الأسر. حين تنزل ضيفًا ثقيلاً على كل بيت، وتفرض نفسها سلطة ثانية إلى جانب سلطة الوالدين، بل تفرض نفسها رقيبًا عليهما إذ

(١) نظرية الإسلام وهديه ص ١٣٥ وما بعدها .

(٢) مجلة روزاليوسف/ ١٩٧٨، وغير ذلك من المجلات التي تخصص ركنًا للأسرة والمرأة، وجريدة الأهرام .

تصحح تصرفاتهما، وتمحو منها ما تشاء وتثبت ما تشاء، وتصورهم أمام أبنائهم وكأنهم ينتمون إلى جيل رجعي لا بد أن يعدل عن آرائه الجامدة أو يتحطم أمام سبل التطور الجارف. وذلك في الوقت الذي تغذي فيه سخط الأبناء وتمردهم المتزايد الذي ينمو يومًا بعد يوم(١).

هذا على الصعيد الاجتماعي. أما على الصعيد الاقتصادي فإن أجهزة، الإعلام مسخرة لخدمة الاقتصاد العالمي وتعمل على دمجه، يقول الدكتور عبدالخالق عبدالله: إن الاستعمار الجديد لا يقتصر على أشكال الهيمنة التقليدية، ولا يقتصر على الهيمنة الثقافية والإعلامية والأيدلوجية والفكرية وهو بلا شك أسوأ أشكال الاستعمار.

وتكمن خطورة هذا الاستعمار في أنه يقوم بدور ارتكازي في عقلنه الهيمنة الاقتصادية لضمان ديمومة استغلال ثروات واقتصاديات الدول العربية والإسلامية، وهو لذلك يوظف إمكاناته التقنية الضخمة ووسائل الإعلام وقنوات الاتصال المختلفة؛ لكي يخضع ثقافات الدول المستعمرة لتوجهاته العلمانية وقناعاته الأيدلوجية، كما يقوم بتقصير تجربته الحياتية لتكون نموذجًا جديرًا بالاقتباس والمحاكاة، ولذلك يوظف الإعلام والثقافة وحتى العلم لخدمة أهداف هيمنته على العالم المعاصر(٢).

وقد استطاع الاستعمار إخضاع الدول الإسلامية والعربية ثقافيًا وفكريًا وعاطفيًا لتقبل نموذج حياته وحضارته عن طريق الشرائع الحاكمة التي تحتضن الأيدلوجية الاستعمارية، وتتبنى المشروع الحضاري الرأسمالي، وتروج للقيم والمفاهيم والتصورات العلمانية الحديثة في وسائل الإعلام المختلفة. فلم يعد غريبًا أن ترى صورًا عارية على غلاف مجلة في بلد إسلامي أو في إعلان مشهد من مشاهد السينما للإعلام من فيلم يسخر بقيمة من قيم الإسلام، أو يحط من قيمة شهر من الشهور العربية، أو مسلسل يومي يشكك عامة الناس في الإيمان بالغيب الذي يتميز به المسلم عن غيره من العلمانيين، فالمجتمع المسلم - في ظل وسائل الإعلام الحالية - يواجه موجة عاتية من التهوين بدين الإسلام والتشويش على تعاليمه وتوجيهاته،

---

(١) حصوننا مهددة من الداخل/ محمد محمد حسين ص ٤٥، ٤٦، ط السابقة ١٩٨٢م.

(٢) العالم المعاصر ص ٢٠٦ مرجع سابق .

وتستخف بأهله وبقيمه، وإذا بدت متحدثة عن الإسلام، فهي تتحدث عن إسلام تصنعه ليرضى أعداء الإسلام والخونة والعملاء المحسوبين على الإسلام.

وهكذا استطاع الاستعمار - عن طريق عملائه - صبغ الحياة الإسلامية بالصبغة الغربية التي تقوم على الفكر العلماني الذي يفصل بين الدين وعلاقته بالحياة، وقد أتى الاستعمار عن طريق الغزو الفكري على جوانب الحياة المختلفة، وقد تحدثت عن التعليم والفكر والآداب والصحافة والإعلام، ولم يبق سوى الحديث عن مؤامرة الاستعمار على الأسرة المسلمة، ولذا فهي موضوع البحث في المطلب الثاني إن شاء الله

المطلب الثاني
تغــريب الأســـرة المسلمة

بعد إبعاد الإسلام عن مجال الأنظمة السياسية والاقتصادية والتعليمية، لم يبق للمسلمين من تشريعات دينهم إلا قوانين الأسرة ونظم الزواج والعلاقة، وكانت هذه النظم هي البقية الباقية من تشريعاتهم في ظل هذا الصراع الحضاري، ولم يسمح أعداء الإسلام حتى بهذه البقية الباقية وحاولوا انتزاعها من المجتمع الإسلامي، وذلك بفرض النظم الغربية وتقاليد المرأة الغربية في المجتمع الإسلامي، وقبل الحديث عن خطة الغرب في تغريب الأسرة نعطي لمحة إجمالية عن نظام الأسرة في الإسلام.

لقد أقام الإسلام النظام الأسري على مبادئ وأسس تلائم طبيعة الإنسان وفطرته، وتلبي غرائزه، وتحفظ توازنه، ليؤدي رسالته التي خلقه الله من أجلها على أكمل وجه. دعا الإسلام إلى الزواج، لأنه الطريق الوحيد لإقامة المجتمع الفاضل فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[1] كما نهى الرسول ﷺ عن الرغبة عن الزواج مع القدرة عليه، وشبه من يفعل ذلك باليهود والنصارى، ويسر سبيل الزواج، وأزال العوائق من طريقه بنهيه عن التغالي في المهور، وحدد الطرق الشرعية للتعارف وحدد قواعد الاختيار وكلها تتمثل في الخلق والدين، وحدد

(١) سورة النور: الآية ٣٢ .

الإسلام مواطن النظر بين كل من الرجل والمرأة سواء كانت زوجة أوبنتًا أو ذات رحم بما يضمن حفظ الغرائز لتؤدي دورها في الطريق المشروع لتستمر الحياة. قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾(١) وخاطب المؤمنات كذلك، كما حدد الإسلام مواطن العورة ومواضع الكشف والستر من الرجل والمرأة بما يحفظ للرجل رجولته وللمرأة أنوثتها ليستمر التجاذب الفطري، وحرم الاختلاط والتبرج بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾(٢) وقوله تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾(٣).

كما بين الحقوق والواجبات بين كل من الرجل والمرأة بما يحفظ كيان الأسرة فسوي بينهما في الحقوق الإنسانية وما يتبعها من حفظ خصائص الإنسانية المشتركة، فكلف الرجل والمرأة بالإيمان والأخلاق وما يترتب عليهما من ثواب وعقاب، كما أعطى للمرأة ما للرجل من حقوق كل ما فيه في المرأة كالرجل أمام القانون والحقوق المدنية من تملك وتصرف وتعليم وثقافة.

وفرق بينهما في الحقوق والواجبات بما يتناسب والتكوين النفسي، وما يحفظ خصائص كل منهما الفطرية، فأمر الرجل بالإنفاق على المرأة وأعطاه حق القوامة على المرأة، ووضع الحلول الطبيعية التي تحفظ حق كل من الرجل والمرأة عند حدوث المشكلات التي هي من طبيعة الحياة، فأباح الطلاق كطريق نهائي إذا حالت السبل دون حل المشكلات، وكذلك أباح التعدد لمصلحة الفرد ومصلحة المجتمع على السواء، وجعلت حقًّا للرجل بشرط العدل، ولا معنى لما يقال من أن ذلك إضرار بالمرأة ويؤدي إلى تشرد الأولاد؛ لأن الإسلام بنظامه العام جعل لكل طرف حقه وألزمه القيام به تعبدًا لله عز وجل ومراقبة له، وما يحدث في المجتمعات ليس عيبًا في التعدد، وإنما العيب في المعددين الذين قصروا في حق الإسلام وقد أحاط الإسلام المرأة بموارد الرزق الكثيرة بما يغنيها من الخروج والتبذل إلا لضرورة.

---

(١) سورة النور: الآية ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٥ .

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٩ .

هذا هو الوضع الرباني الذي وضعت فيه المرأة المسلمة - عماد الأسرة المسلمة - تلك اللبنة الأولى في بناء المجتمع المسلم، والتي بصلاحها يكون صلاح المجتمع وبفسادها يكون فساد المجتمع. فكيف حدث التحول وكيف كانت المؤامرة التي أراد بها الغرب القضاء على البقية الباقية من معالم المجتمع المسلم؟ وهذا هو موضوع الحديث الآن.

لقد سبق الحديث على أن الاستعمار الغربي في هجمته على الشرق الإسلامي قد صادف ركودًا وتأخرًا وجموداً تشعب في نواحي الحياة المختلفة وكان سببه الأول: تفريط المسلمين في أمر دينهم، في الوقت نفسه كان الاستعمار في صحوة حضارية ورقي شامل جاء به إلى الشرق؛ ولذلك كان هو الضعيف، وتبعًا لذلك كانت لديه قابلية التأثر، فتشرب أوضاع الحضارة الوافدة خاصة ما يتعلق بالجانب الاجتماعي، ومن هنا بدأت دورة التقليد والمحاكاة للغرب في كثير من أحوالهم وعاداتهم الفاسدة والانكباب على أشكال حياتهم وأساليبها المظهر به، وقد دخل هذا كله على مشاعر الناس وأذواقهم وأخلاقهم مدخلاً خادعًا باسم: التجديد والتنوير والتقدمية حينًا، والتهذيب والإصلاح ومسايرة العصر حينًا آخر.

من الحقائق الثابتة: أنه لم تكن أفعال الغرب شرًا كلها، ففيها الحسن والقبيح، ولكن قانون الاجتماع البشري وطبائع الأشياء تقضي بأن التقليد لا يكون إلا في قشور الأشياء وهو ما قاله ابن خلدون وسجله بقوله: «إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وتخلقه وسائر أحواله وعوائده، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغالب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء خطر كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم «الجلالقة» فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء»[(١)].

وما قاله ابن خلدون - رحمه الله - هو ما حدث في الشرق الإسلامي بعد فترة الاحتلال وخاصة في مصر، فقد تأثرت الطبقة المثقفة بالغرب في عاداته وتقاليده ونظمه وتولوا نقلها إلى بلادهم، ولقد كان أفحش ما نقلوا إلينا عادات الغرب

(١) المقدمة/ ابن خلدون ص ١١٦، ١١٧، ط الحلبي.

وأخلاقياته التي تتنافر مع قيم ديننا «الحنيف وخاصة في المجال الأسري وما أسموه: بتحرير المرأة، هذه القضية التي كانت مؤامرة على البيت المسلم لتدميره من الأساس.

لقد بدأت قضية المرأة المسلمة والدعوة إلى تثقيفها وتعليمها بعد فترة الجمود التي أصابت المجتمع الإسلامي في عصر انحطاطه على يد رفاعة الطهطاوي عام (١٨٧٢) وفي فترة «الخديوي إسماعيل» الذي أنشأ أول مدرسة لتعليم البنات عام (١٨٧٣)[(١)] وقد أصدر كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» دعا فيه إلى إصلاح حال المرأة وتحسين أحوالها بفرضية أشبه ما تكون بالفروض الدينية الملزمة، فليست المرأة مخلوقًا شاذًا غريبًا عن الرجل، بل على العكس من ذلك؛ لأن المرأة من أجمل صنع الله، قرينة الرجل في الخلق، والمعينة في تدبير أمره، والمحافظة لأطفالها، والساهرة على تدبير أمورهم[(٢)].

وهذا الكلام لا يخرج عما سبق أن أوضحناه من الأمر بإكرام المرأة وإعطائها حقوقها كما أراد الله عز وجل، وما أراده «رفاعة الطهطاوي» في هذا الأمر أنه يتمني لمجتمعه كله - ذكورًا وإناثًا - أن ينهضوا ليسايروا التقدم العالمي على ألا ينسلخوا من جذورهم، ويرى أن التعليم يزيدهن أدبًا وعقلاً، ويجعلهن بالمعارف أهلاً، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم، ويعظم مقامهن[(٣)]، وكان «رفاعة الطهطاوي» يضع خطًا فاصلاً في دعوته هذه يميز بين المرأة المسلمة والمرأة الأوروبية مما يدفع عنه ما يقال من تورطه في هذا الأمر، فيقول: «فالمسلمة ملتزمة بالفروض الدينية والتقاليد الأخلاقية»، ثم يقول: «ومن محاسن الإسلام: أن الله سبحانه وتعالى قد أودع في قلب الرجل الغيرة على نسائه، حتى جعل الله سبحانه وتعالى في بدن المرأة عورة بالنسبة للآخرين: فلا يحل له كشفه عليه، ولا يحل له نظرها أيضًا؛ لذلك كانت نساء الإسلام مصونات في بيوتهن، سيدات على، ومن العادة العامة لسائر المسلمين: أنه لا يليق أن يسأل الإنسان صاحبه عن حال زوجته، وإن كان هذا يعد في بلاد الأفرنج من اللطافة والظرافة لفقدهم الغيرة»[(٤)].

---

(١) عصر إسماعيل ص ١٥، ٢١٠، مرجع سابق .

(٢) المرشد الأمين رفاعة الطهطاوي ص ٣٧، ط الحلبي ١٢٨٩هـ .

(٣) السابق ص ٦٦ فصل: في تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم .

(٤) المؤامرة على المرأة المسلمة/ السيد أحمد فرج ص ٤١ دار الوفاء ١٩٨٦ .

هذا حال الدعوة إلى تحرير المرأة وتعليم على لسان رفاعة كما تنطق بها كتبه، وهي لا تخالف ما جاء في القرآن والسنة، وإنما كان مناط دعوته تغيير وجهة النظر السائدة عن المرأة في زمانه الذي أصابه الجمود الفكري، وبعد «رفاعة الطهطاوي» انتشرت المدارس التبشيرية انتشارًا رهيبًا وتوسع نطاق التبشير، واستغل المبشرون المدارس التي أنشئت لتعليم البنات أسوأ استغلال. تقول المبشرة «آن مليجان» وهي تتحدث عن الجامعة الأمريكية في صفوف كلية البنات بالقاهرة: بنات آباؤهن بشوات وبكوات وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر من هذه المدرسة(١)، وإلى جانب ذلك ما أعلنه «الخديوي إسماعيل»، أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية، وعد ملوك أوروبا أن أيدوه في ذلك أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية، ويفصل السياسة عن الدين، ويطلق الحرية للنساء بحيث يسرن في إثر المرأة الغربية، وينقل إلى مصر معالم المدنية الأوروبية (٢). إلى جانب هذا ما كان في خطة المبشرين من التركيز على المرأة المسلمة بقول أحدهم في مؤتمراتهم: «وبما أن الأثر الذي تحدثه الأم في أطفالها ذكورًا وإناثًا - بالغ، وبما أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الإسلامية(٣).

ولكن الاستعمار يريد أن يكون التغيير بأيدي أحد المسلمين كما ذكر ذلك «زويمر» من أن تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها، ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة؛ إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء(٤)، وتنفيذًا لهذه الخطة - وتحت حراسة الاحتلال - اشتد تيار التفرنج والتغريب وتربى عليه أجيال وطلائع أخذ الغرب يساندها ويشد أزرها ويمكن لها في قلب الأمة، وفتح لها طريق الشهرة

---

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص ١٤٤ مرجع سابق .

(٢) قاسم أمين، ماهر حسن فوزي ص ٦٥ط مسلسله أي إسلام العرب .

(٣) حقيقة التبشي ص ١٨٨ مرجع سابق .

(٤) الغارة على العالم الإسلامي ص ٨٠ .

لتصبح النموذج الذي يجب أن يحتذى، ففي عام (١٨٩٤) ظهر كتاب لمحام مصري موال للإنجليز يدعى «مرقص فهمي» تحت عنوان «المرأة في الشرق» صور فيها خطة الاستعمار في المطالبة بتحقيق أربعة أغراض:

أولها: القضاء على الحجاب.

ثانيًا: إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة.

ثالثًا: تقيد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي.

رابعًا: منع الزواج بأكثر من واحدة[1].

وقد سهر على تنفيذ هذه الأغراض عدد من الشخصيات التي تأثرت بالاستعمار الغربي وحضارته الغربية، والذين قادوا حركة التنوير من حزب الأمة، من هذه الشخصيات الأميرة «نازلي فاضل» وأعضاء ناديها من أمثال: سعد زغلول» والشيخ «محمد عبده، ومحمد بيرم، وقاسم أمين»، والدليل على أن هذا النادي كان يرعى هذه الحركة: ما ذكره «أحمد لطفي السيد» من أن «قاسم أمين» قرأ كتابًا ألفه «الدوق داركور» هجا فيه المصريين ونال من دينهم وسفه أحلامهم وخص النساء بأكبر قسط منه إذ رماهن بالجهل، وضعف مكانتهن في المجتمع[2]، فقام «قاسم أمين» بالرد على هذا الكتاب حيث رفع فيه شأن الحجاب، وعده دليلاً على كمال المرأة، وندد بالداعيات إلى السفور واشتراك المرأة في الأعمال العامة، ولما ظهر هذا الكتاب، ساء ما فيه إخوانه في صالون الأميرة حيث إنهم رأوا في هذا الكلام تجريحًا للأميرة، واتفقوا على أن يتولى أحدهم الرد على ما جاء في الكتاب وعرض فصوله وخاصة ما جاء عن المرأة، وبدأ «فارس نمر» في الكتابة لنقد هذا الكتاب، ولكن النقد لم يرق في نظر قضاة محكمة الاستئناف، ورأوا فيه مساسًا بهم لأن قاسم أفندي كان أحدهم، ورأوا أن أفضل وسيلة يبذلونها لكي يكف فارس نمر عن الكتابة أن مؤلفه يرجو الأميرة لكي تطلب إلى مؤلفه ذلك. وتحدث الشيخ محمد عبده إلى الأميرة في ذلك. يقول فارس نمر: فالتفتت إلي الأميرة وقالت إنها لا تجد بأسًا في أن أكف عن

(١) جيل العمالقة ١٣٥ مرجع سابق.

(٢) قصة حياتي/ أحمد لطفي السيد ص ٧٦ مرجع سابق.

الكتابة. وكانت هي لم تقرأ الكتاب ولم تعرف أنه يشمل الطعن فيما يدعو إليه، فقال محمد المويلحى (أحد أعضاء صالون) للأميرة: إنني مندهش من طلب الأميرة؛ لأن الكتاب يتعرض لها. فلما اطلعت على الكتاب وما جاء به ثارت ثورة شديدة ووجهت القول بعنف إلى الشيخ عبده». لأنه توسط في هذا الموضوع... ومرت الأيام واتفق محمد عبده، وسعد زغلول وغيرهما على أن يتقدم «قاسم أمين» بالاعتذار إلى الأميرة، فقبلت اعتذاره، ثم أخذ يتردد على صالونها... وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة الذي أقام دينا وانتقدها بعد أن كان أكثر الناس دعوة إلى الحجاب[١].

وقد صدر الكتاب الأول في «تحرير المرأة» لقاسم أمين عام (١٨٩٩) بإيعاز من «الأميرة نازلي»، وقد دعا فيه إلى نبذ كل القيم الإسلامية في مجال الأسرة، ورفض الحجاب والنقاب، ودعا إلى العري والاختلاط. ثم أتبع هذا الكتاب بآخر سماه «المرأة الجديدة» الذي سَخِرَ فيه من أحكام الإسلام، واعتبرها استعبادًا، وسخر من أحاديث النبي ﷺ كما دعا إلى تقييد الطلاق والتعدد[٢]. ففي كتاب «تحرير المرأة» يزعم «قاسم أمين» أن أحكام الشريعة مهما كان مصدرها خاضعة للتبديل والتغيير حسب الظروف المكانية والزمانية والاجتماعية، بل يرى أن الإسلام ليس فيه نص يلزم المرأة بالحجاب، بل إنه عادة أخذها المسلمون عن طريق اختلاطهم بالأمم[٣]. ثم يذكر في كتابه الآخر بعد دعوته الصريحة إلى احتضان حضارة الغرب وحضارته، وخطر الاعتماد على الماضي الإسلامي، وأنه سبب التخلف. هذا هو الدواء الذي يلزم أن نتبنى علاجه ليس دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها[٤].

ولقد أحدث هذان الكتابان ضجة كبيرة، حيث وقف الحزب الوطني القديم بزعامة «مصطفى كامل» ضد هذه الحركة وهاجمها، ودعا إلى الالتزام بالقيم الأخلاقية الإسلامية. ولكن صدى الدعوة تطور تطورًا سريعًا؛ لأن الاستعمار قد هيأ الجو

---

(١) جيل العمالقة ص ١٣٨، المؤامرة على المرأة المسلمة ص ٧٥، ٧٦، مرجع سابق.

(٢) انظر عرض الكتابين في الاتجاهات الوطنية ج١/ ٢٧٥.

(٣) انظر عرض الكتابين في الاتجاهات الوطنية ج١/ ٢٧٥.

(٤) المرأة الجديدة/ قاسم أمين ص ٥٩، ١٦٩، ١٨٥، ١٨٦ نقلًا عن الاتجاهات الوطنية ج١/ ٢٢١.

لانتشارها، فقد عزل الطابع الإسلامي عن الحياة وحصرها في أضيق نطاق، وأبعدها عن كل مجالات التأثير والتوجيه، فقد أدى نظام التوظيف منذ عهد إسماعيل، وفي عهد الاحتلال الإنجليزي خاصة في اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميدان الإصلاح، وتخلفهم عن ركب الحضارة، وانحصار وظائفهم في المساجد، وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية الذين ينشؤون مشاريعهم العمرانية والاجتماعية على نمط ما تعلموه[(١)].

وفي هذه الأثناء قامت الحرب العالمية الأولى، وكانت فرصة سانحة لإخفاء صوت الإسلام وتشريد دعاته، فاعتقل الإنجليز رجال الحزب الوطني، وأوعزوا إلى بعض أتباعهم بإصدار مجلة السفور التي أخذت على عاتقها الدعوة ضد الحجاب والآداب الإسلامية، وانتقلت الحركة النسائية إلى مرحلة جديدة هي المشاركة العلمية في كل ميادين الحياة، وقد تكفل «سعد زغلول» بتنفيذ ذلك كله، وتبنى القضية فريق من النسوة على رأسهن «هدى شعراوي» ابنة محمد باشا سلطان وزوجة علي شعراوي وفريق من الرجال المدافعين عن حقوق المرأة، وأصبح الحق الأول التي تطالب به المرأة هو السفور. وصارت القضية التي يدور حولها الجدل هي السفور والحجاب[(٢)].

وقد ساعد على تطور هذه الحركة قيام الحركة النسوية في أوروبا، وكانت تلك الحركة تنادي بحق ظلمت فيه المرأة، هذا الحق هو مطالبتها بالمساواة مع الرجل في الأجر فقد كانت المرأة تعمل مع الرجل في نفس المصنع، ونفس ساعات العمل، بينما تتقاضى نصف ما يتقاضاه الرجل من الأجر، فكانت قضية المرأة الأوروبية قضية رفع ظلم واقع عليها. أما المرأة المصرية وفي العالم الإسلامي، فلم تكن لها قضية خاصة، إنما كانت القضية الحقيقية هي انحراف عن الدين، تبعه انحراف وتخلف في جميع مجالات الحياة. وما حدث للمرأة المسلمة من عدم إعطائها حقها، وعدم وضعها في الموضع اللائق بها ما هو إلا صورة من صور التخلف الذي أصاب الحياة الإنسانية، فالقضية قضية أمة إسلامية يتآمر عليها الاستعمار لسحقها من الوجود،

---

(١) المرأة الجديدة/ قاسم أمين ص ٥٩، ١٦٩، ١٨٥، ١٨٦ نقلًا عن الاتجاهات الوطنية ج١/ ٢٢١ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ٢٥٤ .

واتخذ الحجاب ستارًا للقضاء على البقية الباقية من تعاليم ديننا الحنيف، كما خطط الأعداء وأتباعهم ممن تسموا باسم الإسلام وتربوا على دين الأعداء، وقد رتبوا للقضية أحسن ترتيب عندما اشتعلت ثورة (١٩١٩) بسبب اعتقال «سعد زغلول» وأعوانه ونفوا إلى جزيرة مالطة قامت النساء برياسة هدى شعراوي وصفية زغلول بمظاهرة احتجاج على تعسف سلطات الاحتلال، ووسط هذه المظاهرات قامت مظاهرة النسوة بالتجمع أمام ثكنات قصر النيل، وهتفن بالاحتلال، ودون مقدمات ظاهرة خلعن الحجاب، وألقين به في الأرض، وأشعلن فيه النار، وتحررت المرأة وسمي هذا المكان الذي كان يسمى ميدان الإسماعيلية بميدان التحرير تخليدًا لهذه الذكرى[١].

وهذه الأحداث ساعدت على تشكيل اللجان النسائية بعد اجتماع للسيدات في الكنيسة المرقصية يوم ٨ يناير (١٩٢٠)، وشكلت لجنة الوفد للسيدات، ودخل موضوع تحرير المرأة مرحلة جديدة منظمة حيث كانت هذه اللجنة تنعقد بشكل منظم للنظر في مجريات الأحداث التي تمر بها البلاد[٢]. وبجهود «هدى شعراوي» في تلك الجمعية بزرت المرأة المسلمة إلى مجال العالمية ففي عام (١٩٢٣) أرسل الاتحاد الدولي النسائي برقية إلى «هدي شعراوى» «سيزا نبراوي» يدعوهما إلى حضور مؤتمر النساء الدولي المنعقد في روما. فذهبتا إلى هناك حيث اتفق أعداء الإسلام معهما على خطوط جديدة للمؤامرة على الأسرة المسلمة[٣].

وظهر التحول واضحًا في نشاط المرأة المصرية التي تغير حالها من ميلها إلى التبرج ونزوعها إلى التحرر والانطلاق، وتجرأت على التقاليد، وتمردت على سلطة الأب والزوج، وتطور زيها، وتقلص الثوب فوق جسدها، وتجاوزت المرأة حدودها، ولم تعد المرأة تطالب بحقوقها وهي تضطرب خجلًا، ولكنها استطاعت أن تعقد المؤتمرات المحلية والعالمية، وتناقش مسائل المرأة الخاصة من الزواج والعمل والتعليم العالي، وحق الانتخاب[٤].

---

(١) السابق ص ٢٥٨ .

(٢) الاتجاهات الوطنية ج٢/ ٢٥٠، المؤامرة على المرأة المسلمة ص ١٠٢ . مرجع سابق .

(٣) الحركات النسائية وصلتها بالاستعمارص ١٥ .

(٤) انظرحصوننا مهدده من الداخل/ محمد محمد حسين ص ٢٥٢/ والمؤامرة على المرأه المسلمة سيد أحمد فرج ص ١٠٢ .

وهذا التطور في قضية السفور والتبذل قد أصاب المحافظين بالخوف، حتى كتب الشيخ «عبدالعزيز البشري» مقالاً في جريدة الأخبار (١٩٢٣) بعنوان «حقوق المرأة في الإسلام» حاول فيه أن يبين أن الإسلام قد ضمن للمرأة كل حقوقها، وأن مؤتمر «روما» لن يمنحها أكثر مما منحت. فردت عليه هدى شعراوي فقالت: إنهن لم يذهبن لمؤتمر روما ليطالبن بالمطالب القديمة المتمثلة في طلب إلغاء تعدد الزوجات، أو تعديل نظام الخطبة. . . ولكنهن أردن أن يظهرن المرأة المصرية بحقيقتها أمام المرأة الغربية التي تجهل عنها كل شيء، وأن يبين أن المرأة المصرية الحديثة تكاد تساوي أختها الغربية في مدنيتها، وأن المرأة المصرية في أشد الحاجة إلى الاشتراك مع المرأة الغربية لتقتبس من أخلاقها وعاداتها ومدنيتها وكل ما يتفق مع النهضة العامة[١].

ولقد أحدثت هذه التطورات أزمة في المجتمع الإسلامي لا يدرون ما يأخذون وما يدعون من سبل البدع الذي يتدفق في غير توقف، وكان تيار الحياة يكتسح المعارضين أنفسهم؛ إذ يصبحون - وقد أحاط بهم ما يكرهون - يحاربون في أشخاص بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم، حتى بدا التناقص واضحًا بين ما يقولون وبين ما يجري في بيوتهم، ولعبت الصحف لعبتها في هذه المعركة بما تنشر من صور للأزياء وللجمعيات النسائية، وما تروي من أخبارهن، ومن تطورات إلغاء الخلافة والانقلاب الاجتماعي العلماني فيها، وكانت هذه الأفكار تسير في خط واحد في البلاد الإسلامية وخاصة الجزائر على يد «أحمد من بيلا» الذي دعا المرأة الجزائرية إلى خلع الحجاب بحجة عجيبة حين قال:

إن المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب في الماضي؛ لأن فرنسا هي التي كانت تدعوها إلى ذلك. أما اليوم فإني أطالب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر[٢]. واستمرت الحركات النسائية في التقدم حتى استطاعت إنشاء الاتحاد النسائي العربي، ومنه كانت المطالبة بتعقيد الطلاق وتعدد الزوجات[٣].

وظلت هدى شعراوي تقود حركة المرأة حتى الأربعينيات، وكانت تتطالع إلى

---

(١) المؤامرة على المرأة المسلمة/ سيد أحمد فرج ص ١٠٣ مرجع سابق .

(٢) واقعنا المعاصر ص ٢٦٠ .

(٣) الحركات النسائية/ محمد عطية خميس ص ٨٣ .

جعل المرأة رجلاً في صورة أنثى- إن صح التعبير- تشارك الرجل في كل شيء بصرف النظر عن أن الشيء يوافق أو لا يوافق طبيعتها وتكوينها الجسمي. وقد تحقق للمرأة ما أرادت «هدى شعراوي» في زمن لم تشهده «هدى شعراوي» بعد ظهور حزب بنت النيل الذي أسسته «درية شفيق» التي ساعدها «الطفي السيد» على الحصول على الدكتوراة برسالة هاجمت فيها موقف الإسلام من المرأة، وكان هذا الحزب على صلة وثيقة بالدوائر الصهيونية والنصرانية، فقد هللت له صحفهم، ونوهت بجهوده، وأعانوه بالأموال حتى أنشأ صحيفة بنت النيل التي أخذت على عاتقها الدعوة إلى تحرير المرأة، ومهاجمة الإسلام. كما أنشأ صحيفة «المرأة الجديدة» باللغة الفرنسية، وأصدر مجلة «البلبل» للأطفال. وبعد أشهر قليلة من تكوين الحزب سافرت رئيسته إلى إنجلترا. . . ورحبت بها الصحف البريطانية، ونشرت عنها الأحاديث التي تصورها بصورة الداعية إلى تحرير المرأة المصرية من الأغلال التي تثقل كاهلها، وتعوقها عن التقدم، أغلال الحجاب، والطلاق وتعدد الزوجات [١].

وفي أحد الأحاديث التي أجرتها الصحف البريطانية مع «درية شفيق» تقول الصحيفة: إن الأهداف المباشرة لحزب بنت النيل هي كما أوضحتها الدكتورة درية شفيق منح المرأة حق الاقتراع، وحق دخول البرلمان. والمطمع الثاني الذي تهدف إليه الدكتورة هو إلغاء تعدد الزوجات، وإدخال قوانين الطلاق الأوروبية في مصر.

هي تقول في تهكم بالإسلام: إن الطلاق في مصر - بوصفه الحالي - أمر يسير جدًا، فللزوج المسلم الحق في أن يطلق زوجته بمجرد قوله: أنت طالق[٢]. والمطالب السياسية التي يسعى إليها الحزب يهدف من ورائها تحقيق الانقلاب المطلق في حياة الأسرة المسلمة، تحقيقًا للأهداف الاستعمارية من تدمير كيان الأسرة مفصلة هذا الحزب والاتحاد النسائي العربي بالاستعمار صلة وثيقة تتضح فيما يلي:

بعد انعقاد أول اجتماع للاتحاد أرسلت زوجة الرئيس «روزفلت» إلى المؤتمر برقية بتاريخ ١٧ ديسمبر (١٩٤٤) تقول فيها: «يسرني أن تتاح لي إرسال تحيتي إلى

---

(١) السابق ص ٨٦، ٨٧ .

(٢) الاتجاهات الوطنية ج٢/ ٢٧٠ نقلًا عن جريدة المقطم .

مندوبات الاتحادات النسائية في مختلف بلاد الشرق العربي. وإني لواثقة من أن النساء العربيات سيقمن بدورهن إلى جانب شقيقاتهن في باقي بلدان العالم أملاً في نشر التفاهم والسلم العالمي في المستقبل»[١].

ولا يخفى على المسلمين الدور الخطير الذي لعبته امرأة «روزفلت» في تكوين الوطن القومي لليهود في فلسطين، وهذا يبين نوع السلام الذي تنشده وتدعو له. كما أن حزب بنت النيل له صلة وثيقة بالاستعمار إلى جانب ما سبق من ترحيب الدوائر البريطانية برئاسة الحزب ما نشرته «روزاليوسف» في عددها الصادر سنة (١٩٥١) حيث قالت: «استقالت عضوة في إحدى الهيئات النسائية، وأرسلت استقالة مسببة إلى رئيسة الهيئة تتهمها فيها بأخذ إعانات مالية من إحدى السفارات الأجنبية، وقد قبلت الرئيسة الاستقالة دون عرض الخطاب على مجلس الإدارة، ولم يمض وقت قليل حتى أكدت جريدة الجمهور المصري بعددها الرابع والعشرين حيث قالت: تشترك كل من السفارة البريطانية والأمريكية بمبلغ ألف جنيه سنويًا في بعض المجلات التي يصدرها حزب بنت النيل»[٢].

إلى هذا الحد كان التوغل الغربي في تدمير الأسرة المسلمة، ومحاولة تغريبها على الطريقة الغربية حتى قامت الثورة في ٢٣ يوليو (١٩٥٢) واختفت رئيسة حزب بنت النيل من الوجود، حتى فاجأ الرئيس جمال عبد الناصر الناس في عام (١٩٥٧) بقرار معلن فيه منح المرأة لأول مرة قوتها السياسية[٣]. ثم تبعها الميثاق الوطني لينجي على أن المرأة لا بد أن تتساوى بالرجل، ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التي تعوق حركتها الحرة، حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية في صنع الحياة[٤].

ولم يقف عبدالناصر عند هذا الحد، بل نادى بوجوب عمل المرأة، مدعيًا أن ذلك يمكنها أن تحافظ على نفسها من الانحراف، بل أكثر من ذلك أنه أبدى عزمه

---

(١) الحركات النسائية ص ٨٨ .

(٢) السابق ص ٨٩ .

(٣) المؤامرة على المرأة المسلمة ص ١١٦ .

(٤) انظر الباب السابع من الميثاق الوطني .

على تعيين المرأة في كل الأعمال ابتداء من الأعمال اليدوية حتى الوزارة[١]. وبزرت في طلائع الحركة النسائية طبقة من المثقفات الجامعيات، مثل: للدكتوره «حكمت أبو زيد» التي برزت في المجتمع عام (١٩٦٢) وعينت وزيرة للشؤون الاجتماعية، وعقد أخطر مؤتمر نسائي في القاهرة في الفترة من ٢٣ - ٢٧ نوفمبر عام (١٩٦٣) برئاسة وزيرة الشؤون الاجتماعية، والخطورة تبدو هنا في أن هذا المؤتمر انعقد بدعوة حكومية، وليس كسابقه الذي انعقد بدعوة من الحركات النسائية. والأمر الثاني أنه انعقد لمناقشة مشاكل ناجحة عن حقوق نالتها كمشاكل العمل، ومشاكل الأسرة الناتجة عن عمل المرأة.

وتذكر الدكتورة «إجلال خليفة» الموضوعات التي عرضتها وزيرة الشؤون الاجتماعية لمناقشتها في هذا المؤتمر، منها زيادة الإنتاج القومي كمًّا وكَيْفًا؛ لأن المرأة التي تقف بإنتاجها البشري عند حد الإنجاب تكون قد ارتكتب جريمة في حق الأمومة والمجتمع. والأمر الثاني يتعلق بالعلاقات بين المرأة العاملة وزملائها في العمل وصاحب العمل. والثالث يتعلق بدور المرأة العاملة نحو غير العاملات قيادة وتعليمًا. والأخير يتعلق بتنظيم الأسرة والمرأة العاملة[٢].

وهذه الموضوعات التي طرحت للبحث تهدف إلى قطع كل صلة للمرأة ببيتها؛ ذلك لأن الفكر الاشتراكي - الذي ساد تلك الفترة - يرفض النظر إلى المرأة من خلال مفاهيم رومانسية للأمومة: الشرف وتربية الأجيال ومن خلال قيم قبلية - على حد قولهم- حول الشرف والعرض واطاعة الزوج، والسهر على راحته. إنهم يريدون مساواة المرأة بالرجل في نطاق الإنتاج، ونطاق العمل السياسي، وهي نظرة مادية بحيث تتفق مع أصول الفكر الاشتراكي الذي ساد في تلك الفترة، فهم يريدون أن تتحقق للمرأة الاستقلالية الكاملة في كل شيء، وبعبارة أدق: يريدون تغيير النظام الأبوي في الأسرة.

وقد نجمت مشاكل اجتماعية كثيرة نتيجة لهذه الأفكار الغربية ما عبرت عنه

---

(١) السابق باب الإنتاج والمجتمع .

(٢) النسائية/ د . أجلال خليفة ص ٢٠٠، الطبعة العربية الحديثة ١٩٧٣م.

الدكتورة «بنت الشاطئ» بقولها: أن المرأة دفعت ضريبة فادحة ثمنًا للتطور، ويكفي أن أشير إلى الخطأ الأكبر الذي شوه نهضتنا، وأعني به- قول بنت الشاطئ- انحراف المرأة الجديدة عن طريقها الطبيعي، وترفعها عن التفرغ لما تسميه: خدمة البيوت وتربية الأولاد، بحيث نرى أن البيوت أصبحت مقفرة الحركة منهن... أما الأبناء فتركوا للخدم.. وقد نشأ هذا الانحراف الضال نتيجة أن نادت مناديات بحذف نون النسوة في اللغة، كأنما الأنوثة نقص مذلة وعار... وإهدار الاعتراف بالأمومة كعمل من الأعمال الأصلية حتى سمعن من يسأل: كيف تعيش أمة برئة معطلة؟ يقصد بالرئة المعطلة هؤلاء الباقيات في بيوتهن يرعين الأولاد.. وزعموا أن المرأة تستطيع أن تجمع بين عملها في البيت ووظيفتها في الخارج(١).

وفي عام (١٩٦٧) قامت السيدة «أمينة السعيد» في مؤتمر الفقه الإسلامي بعرض مطالب المرأة وهي كسابقتها من ضرورة تقييد التعدد وتحريم الزواج الثاني، وتحريم الطلاق إلاّ أمام القاضي وتعديل نظام الميراث في شأن البنت وحيدة أبويها وحقها في أخذ التركة كلها دون تدخل الأعصاب، وزعمت هذه المرأة أن هذه التعديلات المطلوبة ضرورة حضارية(٢).

وبعد وفاة عبد الناصر وتولى السادات، نشطت الحركة النسائية من جديد، خاصة وقد رأستها زوجة رئيس الجمهورية، فقد استطاعت الحركة النسائية عن طريق حرم رئيس الجمهورية من إصدار قانون الأحوال الشخصية، وقد نفذ بالرغم مما فيه من مخالفات صريحة لنصوص القرآن والسنة.. وبالرغم من ردود كثير من المخلصين من العلماء إلا أن هذه المعارضات لم تجد شيئًا. وهكذا وصل أعداء الإسلام إلى أهدافهم التي دأبوا عليها طوال مائة سنة، حتى أصبحت المرأة في العالم الإسلامي اليوم غريبة في كل شيء، وأصبحت التقاليد الإسلامية ينظر إليها على أنها من تقاليد الزمن الغابر، وكانت النتيجة ما نرى ونسمع من جرائم الزنا والاغتصاب، وهذا كله من جراء ترك الحجاب، والسماح بالاختلاط، وتحريم التعدد، وتقييد الطلاق، وهكذا

---

(١) جيل العمالقة ص ١٤٠ .

(٢) مجلة الدعوة/ عدد ٢٦ عام ١٩٧٩ ص ٣٩ .

أريد للمجتمع المسلم أن يكون في ظل هذا الصراع الحضاري الذي بلغ أشده. ويكفي أن يذكر هنا توصيات مؤتمر الجريمة الذي انعقد في جنيف عام (١٩٧٨) من أن حركة تحرير المرأة تعني مزيدًا من النساء المجرمات وما أصاب المجتمع الإسلامي سببه واحد هو التعدي على حدود الله عز وجل وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[1] لقد ظلمت المرأة المسلمة نفسها ومجتمعها يوم أن قامت تدعو إلى التحرر.. بعد أن كرمها الإسلام وحافظ عليها.. فالتحرر الذي يريدونه اليوم ليس إلا تحررًا من الفضيلة والعفاف.

وبعد هذا الصراع المرير بين الإسلام والحضارة الغربية استطاع الاستعمار الغربي أن يوهن القيم الإسلامية بعض الشيء في نفوس المسلمين، وأن يعزل الإسلام عن توجيه الحياة في البلاد التي تؤمن به، وذلك عن طريق أذنابه والتابعين له من رؤساء ومرؤوسين، وكانت النتيجة هي: الحصار والتبعية للنظام الاستعماري الذي يوجهنا لما يخدم سياسته وحضارته، وأصبح المسلمون في ذيل الأمم مكانًا وحضارة. الإسلام تهدده أطماع الغرب من الأمام، وتخاذل المسلمين وتفككهم يهدده من الوراء، والإرهاب يحاصره عن شمال، والعلمانية تضرب فيه من اليمين. والأمة الإسلامية في حالة من اليأس. فما المصير والمخرج من هذا الصراع. هذا هو موضوع الحديث في الباب الثالث إن شاء الله.



(١) سورة الطلاق: الآية ١ .

الباب الثالث
منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الصراع الحضاري

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: إعادة البناء العقدي للأمة الإسلامية.

الفصل الثاني: توجيه المؤسسات التربوية في الأمة لبناء الشخصية المسلمة.

الفصل الثالث: الاستفادة من نعم الله في الكون.

الباب الثالث
منهج الدعوة الإسلامية فى مواجهة الصراع الحضارى

تمهيد

بعد تلك الدراسة السابقة للحضارتين الإسلامية والغربية والصراع بينهما، تبين أن الحضارة الغربية استطاعت السيطرة على مشارق بلاد المسلمين ومغاربها، فحكمت الأشخاص والأفكار، واستولت بقيمها المادية على الحياة، فخلقت ألف واقع جديد، وألف عرف مستحدث، وحولت الأفكار في الأمة الإسلامية، وقضت على هويتها، وأفقدتها ذاتيتها. وفي أجواء التقدم العلمي المذهل - الذي كشف عن كثير من الأسرار، وبلغ من القوة ما هيأ لتلك الحضارة أنها ملكت الأرض ومن عليها - في أجواء هذا التقدم ينظر المشاهد لحال المسلمين وواقعهم وقد تكالبت عليهم أمم الأرض، تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال بأيد من بني جلدتنا تربوا في أحضانهم، ويفكرون بعقيدتهم التي تبدي العداوة والبغضاء للمسلمين، . وما تخفي صدورهم أكبر- عندما يرى المشاهد هذا الوضع يحكم بالمقدمات على النتائج، ويخرج بنتيجة مظلمة، ونظرة قاتمة عن مستقبل المسلمين، فحالهم بئيس، وواقعهم أليم، والحضارة المسيطرة باضت وفرخت ومكنت من تحديها للأمة الإسلامية.

وأمام هذا التحدي تعددت المواقف الإسلامية حول طريق الخلاص والسبيل لعودة الأمة لمكانتها الريادية للعالم كما كانت!! ومن خلال البحث يمكن بلورة هذه المواقف في ثلاثة رئيسية:

الموقف الأول: وهو موقف سلبي، وهو الرفض التام للحضارة الغربية وما جاءت به رفضًا باتًا، لا يقتبس منها شيئ، ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوروبيين فيها التفوق والاختصاص، ولا ينتفع بتجاربهم في مجالات العلوم الطبيعية.

الموقف الثاني: موقف الاستسلام والخضوع الكامل للحضارة الغربية بحذافيرها- عقيدة ومنهجًا وفلسفة ونظمًا- لأنها في نظر أصحاب هذا الرأي السبيل لنهضة الأمة، ولحوقها بركب التقدم، وحيازة مكانتها بين الأمم.

والموقف الثالث: فكان موقفًا وسطًا، فهو الأخذ من الحضارة الغربية بما يلائم الإنسان المسلم وتقدمه رفاهيته ورفض ما يتعارض مع دينه وعقيدته وأخلاقه.

والموقف الثالث هو أقرب المواقف إلى الإسلام، حيث إن الإسلام لا يمنع من الاستعانة بالمشركين وعلومهم وأشكال نظمهم وما برعوا فيه من العلوم الطبيعية كالطب ونحوه من أمور التقنية إذا انعدم من يتقنها من المسلمين، وعلى أن تكون هذه الاستعانة مؤقتة حتى يتعلمها المسلمون؛ أما الاستعانة بهم فيما يتعلق بالعقائد والنظم والأخلاق والمبادئ، فإن هذه الاستعانة محرمة؛ لأن فيها الخروج عن الدين لترك ما أنزل الله والتحاكم إلى غيره، والرسول ﷺ استعان بعبدالله بن أريقط وهو يهودي، وقد عنّون البخاري فى صحيحه: «**باب استئجار المشركين عند الضرورة**» أو إذا لم يوجد أهل الإسلام، وأورد ابن حجر قول ابن بطال «بأن عامة الفقهاء يجيزون ذلك عند الضرورة»[(١)].

وقد استعان الصحابة رضوان الله عليهم بغير المسلمين في تدوين الدواوين، وظلوا يعملون فيها بلغتهم حتى أتقنها المسلمون واستغنوا عنهم في عهد عبدالملك بن مروان[(٢)].

وقد سئل ابن تيمية - رضي الله عنه - عن حكم الأخذ عن الكفار والاستعانة بهم، فقال: فإن ذكر ما لا يتعلق بالدين مثل مسائل الطب والحساب، وما غايته الانتفاع بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا، فهذا جائز. كما يجوز السكن في دارهم ولبس ثيابهم وسلاحهم، كما تجوز معاملتهم على الأرض كما عامل النبي ﷺ يهود خيبر[(٣)].

وأما الموقف الأول والثاني، فهما يتعارضان مع الإسلام تعارضًا صريحًا، فالأول يؤدي إلى حرج للأمة، ويعطل فطرتها التي حث الإسلام على تشغيلها في التفكر

---

(١) انظر: فتح الباري ج٤/ ٤٤٢ . مرجع سابق .

(٢) انظر: المقدمة/ عبدالرحمن بن خلدون ص ٢٤٤، مرجع سابق .

(٣) الفتاوى ج/ ٤/ ١١٤، ١١٥، وللاستزادة انظر تفاصيل هذه القضية بكافة جوانبها في رسالتنا للماجستير وموضوعها (موقف الدعوة الإسلامية من التضامن الدولي) .

للوصول إلى غاية الله من خلق الكون والحياة، وقد قال ﷺ: **«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»**[١].

والموقف الثاني يدعو إلى ترك ما أنزل الله والتحاكم إلى غيره.

وإذا كان الباحث قد رجح الموقف الثالث إلا أن المأخذ الذي يؤخذ على أصحابه أنهم بنوا موقفهم هذا دون تعميق القيم الإسلامية الأصيلة التي تحمي المسلم من فقد ذاتيته وسط حلبة الأفكار والمذاهب التي أفرزها الصراع، فالعصر الذي بدأ فيه الانفتاح على الحضارة الغربية كان عصرًا يمتاز بالجمود والتخلف الفكري والتمسك بعادات وتقاليد بعيدة عن الإسلام، أكثر من التمسك بالنصوص والرجوع إلى الصواب الذي قرره الإسلام. ولم تكن هناك عقيدة راسخة، ولا فقه عميق، ولا رصيد من القيم يعين المسلم على التمييز بين ما هو حق وما هو باطل. هذا الوضع سهل عملية الغزو الحضاري لأمة الإسلام، وقد أتى هذا الغزو على الأخضر واليابس. حتى غدت أمة الإسلام تستعطف أحط أمم الأرض من أجل لقمة العيش. وفي ظل هذا الوضع القائم أصاب البعض حالة من اليأس من عدم إمكانية بعث الأمة الإسلامية واسترداد دورها القيادي في العالم من جديد.

ولكن المسلم الحصيف يزن الأمور بميزان آخر، وهو ميزان الله الذي بين في كتابه الكريم الحقائق النهائية للصراع بين الحق والباطل. هذه الحقائق التي حسمت مسألة الصراع لصالح أهل الحق حينما تتحقق فيهم أسباب هذا الحسم، وأن ما يعتري أمة الإسلام في هذه المرحلة غفلة ستزول عندما تراجع الأمة حسابها مع الله. فقد جاء القرآن الكريم بتعاليم وآيات وبشريات هي بمثابة النواميس الكونية التي لا تتخلف أو تتبدل، عرفها المسلم، وآمن بها، ولمس حقائقها في الماضي، وهي قائمة جاهزة للتحقيق إذا ما أخذ بها المسلم وعاش لها، من هذه البشريات نصوص قرآنية وأحاديث نبوية توحى بمستقبل الإسلام مع الصراع الحضارى وقيادته له مره اخرى من هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٣ .

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[٣].

فهذه الآيات جميعها تؤكد أن الغلبة والانتصار والعلو للإسلام، وسيادة دعوته، وهيمنته على قوى الطغيان مهما استفحل أمرها واستشرى.

وقد تحقق وعد الله عز وجل للمؤمنين، فقد ساد الإسلام بعد أن كان مطاردًا، ودانت له الأمم بعدما كانت تحاربه. وهذه الآيات تحققت في عهد النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، ولاتزال قابلة لأن تتحقق في دنيا اليوم إذا تحققت أسبابها في أمة الإسلام، وما حدث من تحقق هذه الآيات إنما هو جولة من جولات الصراع الحضاري بين الحق والباطل، وهذه الجولات مستمرة ما بقي الليل والنهار، ووعد الله باق ما بقيت الحياة.

يؤكد ذلك ما رواه أبو سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**»، فقلت يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٤] أن ذلك تامًا. قال: «**إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم**»[٥].

فالحديث واضح الدلالة على تكرار اللقاء والصراع بين الحق والباطل، وأن الغلبة للإسلام وأهله.

---

(١) سورة الصف: الآية ٨ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٩ .

(٣) سورة النور: الآية ٥٥ .

(٤) سورة التوبه: الآية ٣٣ .

(٥) الحديث أخرجه مسلم في (ك) الفتن (٢٩٠٧) شرح النووي ج ٨/ ٣٣ .

وقد وردت أحاديث أخرى توضح علو الإسلام وانتصاره، وأن المستقبل للإسلام وتعاليمه مما لا يدع مجالا لَلشك، من ذلك ما رواه ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: **« إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»**(١)، ويؤيد ذلك أيضًا ما رواه تميم بن أوس الداري قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام أو ذلًا يذل به الكفر»**(٢).

ووردت آثار عن النبي ﷺ تبشر بالفتح والنصر للإسلام والمسلمين تحقق بعضه والبعض الآخر ينتظر التحقيق، من ذلك ما جاء في تاريخ الدعوة عن النبي ﷺ في غزوة الخندق ساعة أن كان سيدنا سلمان الفارسي يحفر في الخندق واجهته كدية اشتدت عليه، فأخذ النبي ﷺ المعول من سلمان الفارسي وقال: **«باسم الله»**، وضرب ضربة فكسر ثلثها، وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله، وقال: **«أعطيت مفاتيح اليمن، إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة كأنها أنياب الكلاب»**. ثم ضرب الثانية فقطع ثلثًا آخر فخرج نور من قبل الروم، فكبر رسول الله ﷺ، وقال: **«أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها»**. ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر، برق منها برقة فكبَّر وقال: **«أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكاني هذا»** وجعل رسول الله يصف مدائن كسرى لسلمان فيقول سلمان: صدقت يا رسول الله، هذه صفتها، أشهد أنك رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ: **«هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان»**(٣).

ودلالة هذا الموقف: أن رسول الله ﷺ في لحظة الضيق والكرب يؤكد للمسلمين رؤية آفاق الفتح الإسلامي من بعده ويصفها لسلمان ويصدقه. وقد تحقق ذلك بعد موته ﷺ.

---

(١) الحديث رواه مسلم في (ك) الفتن (٢٨٨٩) شرح النووي ج ٨/ ١٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ج ٤/ ١٠٣، وأيضًا عن المقداد بن الأسود ٦/ ٤ .

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ج ٣/ ٤١٧ (ب) ما ظهر في حفر الخندق من دلائل النبوة .

ومما ينتظر تحقيقه - إن شاء الله تعالى - ما رواه أبو قبيل قال: كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص، وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبدالله بصندوق له حِلَق قال: فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله نكتب؛ إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً؟ القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مدينة هرقل تفتح أولا**»[1]. يعني القسطنطينية - وقد تحقق الفتح الأول - وهو القسطنطينية - على يد محمد الفاتح وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار الرسول ﷺ وسيتحقق الفتح الثاني لا بد إن شاء الله.

ومن هذه الشواهد التي تبشر بمستقبل الإسلام يرى الباحث أن سبيل الخروج من هذه الكبوة الحضارية أمر واقع لا محالة؛ لأن عنصري الحضارة الإسلامية الأساسية وهما القرآن، والسنة، باقيان والأمة الإسلامية بهذين العنصرين لا يعتريها ما اعترى الحضارات من الاندثار والموت وما يظهر من انحلال في الإسلام، كما يقول محمد أسد: «ليس في الحقيقة إلا موتًا وخلاء يحلان في قلوبنا وتقصير من البشر في تطبيق المنهج الإسلامي. أما المنهج الإسلامي فلا يزال غضًا طريًا قادرًا على العطاء إذا ما أصلحنا موقفنا منه»[2].

ولهذا، فإن السبيل إلى الخروج من هذا التخلف والتأخر الحضاري يتمثل في نظر الباحث في الفصول الثلاثة التالية:

الفصل الأول: إعادة البناء العقدي للأمة الإسلامية.

الفصل الثاني: توجيه المؤسسات التربوية في الأمة لبناء الشخصية المسلمة.

الفصل الثالث: الاستفادة من نعم الله في الكون.



(١) أخرجه أحمد في المسند ج ٢/١٧٦ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ١١١ .

الفصل الأول
إعادة البناء العقدي للأمة الإسلامية

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البناء الروحي. للأمة

المبحث الثاني: جمع الأمة على الرسالة الجامعة.

المبحث الثالث: تعميق معاني الولاء والنصرة.



الفصل الثالث
إعادة البناء العقدى للأمه الإسلامية

تمهيـــــد:

في الباب الثاني من هذا البحث تبين كيف أن الاستعمار عمل على إضعاف معنويات الأمة وتحطيمها حتى يتمكن من السيطرة الكاملة، وقد حقق الاستعمار نجاحًا نسبيًا في ذلك حيث لم يبق للفرد المسلم من الإسلام سوى اسمه، وطغت رسوم الإسلام وأشكاله على الأمة، حتى إن الفرد- لمزاحمة الحضارة المادية له في الحياة- يتمسك بفرع الإسلام ويترك أصله.

ولذلك فإن إعادة البناء العقدي الصحيح للأمة هو الخطوة الأولى في طريق بعث الأمة من سباتها. ومعنى إعادة البناء العقدي: تأصيل العقيدة الإسلامية، وإزالة ما علق من تصورات خاطئة حتى تتضح الرسالة الكبرى للمسلم في هذه الحياة وهو يصنع الحضارة الإسلامية.

وسوف يكون الحديث عن البناء العقدي للأمة من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البناء الروحي للافمدة.

المبحث الثاني: جمع الأمة على الرسالة الجامعة.

المبحث الثالث: تعميق معاني الولاء والنصرة.



المبحث الأول
البنـــاء الروحي للأمـــة

تمهيـــــد:

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: العقيدة الإسلامية وأثارها.

المطلب الثاني: تحقيق معنى الهجرة.



المبحث الأول
البناء الروحي للأمه

تمهيـــــد:

من كل الضعف الذي لحق بكيان الأمة نتيجة العوامل الداخلية والخارجية، فإن قدرتها على وصل حاضرها بماضيها المجيد أمر ميسور؛ لأن لديها من رصيدها الإسلامي ما يمكنها من إعادة بناء نفسها مرة أخرى، ولن يتم لها ذلك إلا بالتربية الروحية، والتوبة إلى الله عز وجل؛ لتحريك الدوافع والبواعث في أرجاء الأمة نحو المقاصد والغايات والأهداف الإسلامية التي هي الأساس الأول في طريق الإعداد الحضاري الذي يجب على الأمة أن تقوم به في الوقت الحاضر.

ولا شك أن محور البناء الروحي - الذي يجب تكوينه وبناؤه ورعايته - هو الإنسان، فإذا تم بناء الإنسان ونميت قدراته ومواهبه؛ تفجرت طاقاته واستيقظت روحه وتدفق عطاؤه، وأصبح بإمكاناته - الروحية والمادية - مستعدًا للتلقي والإبداع وصنع الحضارة، والروحانيات الفعالة في النفس المسلمة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بعمق الإيمان ومقدار الإخلاص للعقيدة الإسلامية والاستمساك بقيمها ومبادئها؛ ذلك لأن العقيدة الصحيحة هي الأساس الأول والأهم لكل بناء في الأمة الإسلامية.

وسوف يكون الحديث عن البناء الروحي للأمة من خلال مطلبين:

الأول: العقيدة الإسلامية وآثارها.

الثاني: تحقيق معنى الهجرة.



المطلب الأول
العقيدة الإسلامية[١] وآثارها

للعقيدة الإسلامية الصحيحة آثار جليلة ومنافع روحية عظيمة في نفس المؤمن بها؛ لأنها عقيدة الحق التي إن تمكنت من قلب صاحبها تحول سكونه حركة ونشاطًا وحيوية وتغير مظاهر حياته إلى النحو الذي يلائمها ويتسق معها، فهي تحدث انقلابًا كبيرًا في الأفكار والتصورات والموازين، وكلما ازداد إيمان الإنسان؛ ازداد قلبه نقاءً، وخلقه نظافة، وسلوكه استقامة، وتحرر من سلطان المادة وشهواتها، وخضع سلوكه وفكره وحواسه لله رب العالمين، فينسجم مع الكون والحياة، ويعتدل ميزانه في النظر إلى الأشياء من حوله، فيأنس بالوجود كله.

وللعقيدة الإسلامية بعناصرها آثار كبيرة في عملية بناء الفرد والأمة وإعدادهما لإعادة أمجاد الحضارة الإسلامية، وأهم هذه الآثار هي:

١- توحيد المشاعر والتصورات والأفكار:

طبيعة الأمة الإسلامية تختلف عن سائر أمم الأرض، فهي ليست مجرد اجتماع مجموعة من الأفراد في مكان وزمان، ولكنها أمة متفاعلة الأفراد؛ لأن العقيدة الإسلامية هي التي توجه تفكيرها نحو غاية واحدة، فلها طريقة واحدة في التفكير، ونظرة واحدة إلى الخير والشر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]. فالآية الكريمة تبين أن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة طبيعة الوحدة، وطبيعة التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر، فهم وحدة واحدة، وفكر واحد؛ لأنه ينبع من مصدر واحد وهو أمر الله

---

(١) لقد سبق تعريف العقيدة الإسلامية وبيان عناصرها في الفصل الثاني من الباب الأول.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧١.

ورسوله، فليس لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إلا إذا قضى الله ورسوله، وبذلك يتوحد نهجهم وهدفهم وطريقتهم، ومن ثم يتوحد فكرهم ومشاعرهم[١].

ووحدة الفكر تمكن الأمة من حمل رسالتها والاضطلاع بدورها، كما تمكنها من أن تحمي نفسها من التفرق والشقاق، والعقيدة الإسلامية ببساطتها ووضوحها متناسبة مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وقد عرضها القرآن بأسلوب واضح يفهمه العالم والأمي، وإن اختلفت طريقة الإقناع باختلاف طاقات الناس ومداركهم، ومن ثم جاء التكليف بالعقيدة واحدًا للجميع، الأمر الذي يوحد الفكر والمشاعر والتصور والغاية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[٢].

وقد أمر الله الأمة الإسلامية ألا تتلقى توجيهًا إلا من طريق واحد هو طريق الوحي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٣]. فقد تضمنت هذتان الآيتان الكريمتان ثلاث توجيهات؛ الأول: هو تقوى الله، والثاني: النهي عن طاعة الكافرين، الثالث: تعيين الجهة التي تتلقى منها الأمة التوجيهات، وقد جاء المصدر في قوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بهذه الإضافة ليوحى بأن الاتباع هنا متعين[٤].

وقد حذر الله الأمة من أن تستبدل بطريق الوحي غيره؛ لأن عاقبة ذلك الكفر والردة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[٥]. كما أن النبي ﷺ لم يسمح لأحد من أصحابه بالتلقي في شأن العقيدة والمنهج من غير طريق الوحي. فعن جابر رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة. فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التوراة. فسكت النبي ﷺ، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير. فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل؟ أما ترى ما

(١) في ظلال القرآن ج٣/ ١٦٧٥، مرجع سابق .

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٢ .

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ١، ٢ .

(٤) في ظلال القرآن ج٥/ ٢٨٢٣، مرجع سابق .

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٠ .

بوجه رسول الله؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله ورسوله، رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسول الله ﷺ نبيًا ورسولًا. فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان موسى حيًا وأدرك نبوتي لاتبعني»**(١).

وعلى هذا، فلا مجال للمسلم في أخذ التصورات ومناهج الحياة وتلقي أمور العقيدة من غير كتاب الله وسنة رسوله، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه»**(٢).

وبذلك تأخذ الأمة من معين واحد مستقيم محفوظ، فتتحد في مبادئها الأساسية، وينتظم منهجها الفكري في نسق واحد.

المقصود من وحدة الأفكار والتصورات والمشاعر كأثر من آثار العقيدة: أن المبادئ الأساسية للأمة تصبح واضحة معلومة لا اختلاف عليها، ويستوي في إدراكها كل فرد من أفراد الأمة، فيكون فهمها لمعنى العبادة واحدًا وطريق الوصول إليه واحدًا، وهذه الوحدة الفكرية هي أساس الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية للأمة الإسلامية، كما أن الوحدة الفكرية تحمي الأمة من الانهزام النفسي الذي يؤدي إلى التخلف الحضاري، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾(٣).

٢-المحبة والترابط والإخاء:

الروابط والأواصر التي تقوم على أساس مادى تفني بفناء أسبابها، وتنتهي متى استنفد كل منتفع غرضه، ولكن العلاقات التي تربط أصحاب العقيدة علاقات روحية تقوى وتزداد بتعمق العقيدة وتمكنها من القلوب، والأخوة التي تنبثق من هذه العلاقة هي أخوة أساسها الاعتصام بحبل الله المتين. قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾(٤)، وهذا الترابط الروحي المنبثق من العقيدة يفوق كل

(١) الحديث أخرجه الدارمي في المقدمة ج١/١٢٦ ح(٤٣٥)، والإمام أحمد ج٣/٣٨٧ .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ج٣/٨٩٩، وقال ابن عبدالبر: «هذا حديث محفوظ مشهور عن النبي ﷺ، وعن أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد» . تجريد التمهيد ص٢٥١ .

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٥ .

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٣ .

الجوانب المادية ويتجاوزها؛ لأنه رباط رباني أساسه الحب في الله، والله سبحانه وتعالى بين مدى الترابط الواجب حصوله بين المؤمنين في المجتمع الإسلامي الذي تؤلف العقيدة بين قلوب أبنائه وتشد بعضهم إلى بعض. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾(١)، ولهذا اعتبرت محبة المؤمنين جزءًا لا يتجزأ من حقيقة الإيمان، فقد قال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»**(٢). والحب المقصود هو الحب في الله ولله كما قال ﷺ: **«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»**(٣).

ولهذه المحبة أثرها الكبير في بناء المجتمع الإسلامي وترابطه، من ذلك ما نجده من أن النبي ﷺ علق دخول الجنة على تحقيق هذه المحبة، فقال في الحديث الشريف: **«والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**(٤).

والأحاديث النبوية كثيرة في بيان أهمية المحبة، وأنها سبب للاستظلال بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، وسبب لنيل الدرجات الرفيعة التي يغبط النبيون والشهداء أصحابها عليها، وسبب لغفران الذنوب وغير ذلك من بركات الحب في الله، وللإنسان أن يتخيل نتيجة إشاعة هذا الأمر في المجتمع من سلامته وصيانته والرقي به في مدارج العز والسعادة حيث يتزاور الأفراد، ويتهادون، ويتواصلون، ويتواسون، ويتفقد بعضهم بعضًا إلى غير ذلك مما يترتب على هذا الشعور النفسي من سلوكيات عملية من التعاون والترابط والإخاء والمحبة، وهي الصورة المثلى التي وصف بها النبي ﷺ المجتمع المسلم في قوله: **« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»** وشبك أصابعه(٥)، وعلى أساسها تنهض الأمة وتنشئ الحضارة.

---

(١) سورة الصف: الآية ١٤ .

(٢) أخرجه البخاري (ك) الإيمان (ب) من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ج١/١٦ (ح) ١٣ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامه ج٨/ ١٥٩ ح(٧٦١٣) وقال عنه الترمذي: منكر حسن ج٧/ ٢٢٤ ح(٢٦٤٢) .

(٤) أخرجه مسلم (ك) الإيمان (ب) لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (ح) ٥٤ شرح النووي ج٢/ ١٣٥ .

(٥) أخرجه البخاري (ك) الصلاة (ب) تشبيك الأصابع في المسجد ونحوه (ح) ٤٨١ فتح ج١/ ٦٥ .

٣- التعاون والتضامن:

إن المجتمع المترابط المتحاب برابطة العقيدة يدفعه هذا الحب إلى التعاون والعمل لصالح هذا المجتمع، ولقد فرض الله سبحانه وتعالى التعاون على الخيرين المؤمنين باعتباره مظهرًا واضحًا من مظاهر الإيمان، وربط هذا التعاون على أساس البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[١]. كما نفى الخيرية عن كل اجتماع لا يكون فعل الصالحات هدفه وغايته، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢]. وهذا التعاون قوة إيجابية محركة تدفع بالمجتمع إلى الأمام، وتحول ضعفه إلى قوة، وهزيمته إلى نصر، ويأسه إلى أمل، وتحفظه من كل محاولات النيل منه.

وتشريعات الإسلام في كل مجال - سواء في العبادات أو في المعاملات - تعمل على توطيد معنى التعاون بين أفراد المجتمع حتى يكون هو الذخيرة التي يلجأ إليها المجتمع في الأزمات، وعند حلول البلاء، فيستعين المرء بإخوانه على قضاء حاجاته، ويسعى جاهدًا في قضاء حاجاتهم في تضامن يدفع الفرد إلى تقديم حاجة المجتمع على حاجة نفسه، وتقديم ذلك على كثير من نوافل العبادات والطاعات. يقول الرسول ﷺ: **«من مشى في حاجة أخيه؛ كان خيرًا له من اعتكافه عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله تعالى، جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق، كل خندق أبعد مما بين الخافقين»**. وقال ﷺ: **«... والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**[٣]، بل إن الرسول ﷺ يدعو المسلم إلى ألا يحتقر خيرًا يمكنه أن ينفع به مجتمع المسلمين ولو أن يزيل الأذى من طريقهم. قال ﷺ: **«بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له فغفر له»**[٤].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢ .

(٢) سورة النساء: الآية ١١٤ .

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج٨/ ١٩٢، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده جيد».

(٤) أخرجه مسلم في (ك) الذكر والدعاء ج٤/ ٢٠٧٤ (ح) (٢٦٩٩) .

وسأل أبو برزة رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، علمني شيئًا أنتفع به. قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين». وغير ذلك كثير من ألوان التعاون والتضامن على البر والتقوى والعمل لمصلحة الأمة للنهوض بها. ولا شك أن مجتمعًا بهذه الروح العالية، وبهذه المشاعر السامية لن يكون له مكان إلا فوق السحاب، تنعدم فيه حظوظ النفس من حقد وأنانية. ولقد اجتهدت أمم الأرض في نشر التعاون والتضامن وبثها بين أفرادها ووضع اللوائح والنظم لذلك، وهيأت ما يمكنها من وسائل النجاح، فلم تؤت أكلها؛ لأن بواعث التعاون بين المسلمين بواعث روحية والأخرى بواعث مادية وشتان ما بين هذا وذاك!!

وبواعث التعاون والتضامن المستمدة من العقيدة من شأنها أن تقيم حياة المجتمع المسلم على الشعور بالتبعية، وتقيم أعمالهم على أساس متين من خشية الله في السر والعلانية، وتصلح علاقاتهم بعضهم مع بعض، وتطبعها بطابع التزام الشريعة والتقيد بها والوقوف عند حدودها، وهذه الأمور كلها تنشئ في المجتمع المسلم قوة إيمانية تصلح حياتهم الاجتماعية، وتقيمها على أسس قوية تكون قاعدة انطلاق لبناء الحضارة الإسلامية.

٤- العزة:

إن العقيدة الصحيحة متى استقرت في القلب، فإنها تثمر تحرير النفس من الذل والهوان وسيطرة الغيرة إلى أعلى منازل الأنفة وعزة النفس؛ وذلك لأن مقتضى الإيمان بأن الله هو الضار النافع، المحيي المميت، الخافض الرافع، يأبى على المؤمن الخضوع للاستبداد أيًا كان نوعه، ولا يلين للظلم ولا يرضى بالضيم، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾[١].

إن معرفة الله عز وجل حق المعرفة، والإيمان به حق الإيمان يلقي في نفس المؤمن أن الخلق جميعًا لا يملكون لأنفسهم شيئًا، بل لا يملكون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئًا أراده الله مهما يكن حقيرًا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٨ .

ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[١].

والإنسان المؤمن - صاحب العقيدة - يعلم أن العمر بيد الله عز وجل لا ينقص بالإقدام، ولا يزيد بالإحجام، وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، والموت لا يقدمه على أوانه قول الحق، ولا يؤخره الجبن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾[٣].

والعقيدة الإسلامية تخلص المؤمن بها من خوف فوات الرزق، وتحرره من سيطرة رذائل البخل والحرص والطمع والشره، وتدفعه إلى التحلي بالعفة والبذل والسخاء؛ لأنه يوقن بأن الرزق بيد الله، لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كره الكاره، ولا يقف عند حد. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤] والعقيدة الإسلامية ترفع قوى الإنسان الروحية والمعنوية؛ إذ تربطه بالله سبحانه وتعالى مصدر الخير والكمال، فيسمو عن الماديات، ويرى لذته في النزاهة والشرف، وتحقيق القيم الصالحة، واضعًا الله نصب عينيه، يراقبه ويحفظه، فيقطع مراحل العمر في أمن ويسر لا تثنيه رهبة، ولا تنحرف به رغبة عن هدفه الأصيل، هذه هي العزة التي لا تكون إلا للمؤمنين بالله. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]. فهي تحمي المؤمن من التأثر بالشائعات والحروب النفسية التي يعلنها أعداء الله. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٦]. فلو صارت الأمة على هذا المستوى من الاعتزاز بدين الله عز وجل والعزة به سبحانه وتعالى لأصبحت في مكان الريادة لأمم الأرض جميعًا.

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٣ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٥ .

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٤ .

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٢ .

(٥) سورة المنافقون: الآية ٨ .

(٦) سورة يونس: الآية ٦٥ .

فالعقيدة الإسلامية وما لها من آثار في نفس المؤمن هي الأساس الأول في بناء الفرد والمجتمع والأمة، وهي أساس الانطلاق الحضاري لقيادة العالم.

المطلب الثاني
تحقيق معنى الهجرة

إن التخلف الحضاري الذي أصاب الأمة عقاب من الله عز وجل بسبب المعاصي الخلقية والفكرية والسياسية التي ارتكبتها الأمة في حق الله عز وجل، وذلك باستبدالها قيمًا غربية ما أنزل الله بها من سلطان بالقيم الإسلامية في الفكر والحياة، فكان عقاب الله عز وجل الذي حل بالأمة الإسلامية طبقًا لنواميس الله عز وجل، كما أخبر بذلك الحديث الشريف وهو قول النبي ﷺ: «. . .**وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله؛ إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم وجعل بأسهم بينهم شديدًا**»[(١)].

وكانت النتيجة هي فقدان الأمة الإسلامية ذاتيتها بين الأمم، وتعرضها للغزو الفكري والمادي بسبب كفرانها نعم الله عز وجل، ابتداءً من نعمة العقل ونعمة الشرع، وانتهاءً بنعم الله في الكون. وكما يقول الدكتور عمارة نجيب: «كفرانهم لنعم الله ابتداء من نعمة العقل التي راحوا يبدلونها على مستوى الأفراد والجماعات على نظم وأفكار وضعية وشرائع يضعونها من عند أنفسهم تخالف شرع الله وتناقضه. وقد يستوردونها جاهزة من الغرب، فيبددون جهدهم العقلي في محاولة الإقناع بها ومحاولات تطبيقها، في الوقت الذي يصرفون فيه العقول عن التفكير والإنتاج والتجديد والتجويد إلى التفكير في احتراف الرقص والغناء والموسيقى والرسم ولعب الكرة وغير ذلك مما يسمى فنًا زورًا وبهتانًا ويعارض شرع الله ودينه؛ فإذا أدركنا أن شرع الله من أعظم النعم التي أنعم الله بها على هذه الأمة، وبها يضمن المجتمع المسلم تحقيق الخير والشرف وقيادة الدنيا؛ إذا أدركنا هذا وأمعنا النظر فيما يجري لتبديد هذه

---

(١) أخرجه الطبراني مطولاً في الكبير عن ابن عباس، والسيوطي في الجامع الصغير ج١/ ٢٤٠ رقم: ٣٩٤٥، ورمز له بالصحة .

النعم والطعن في قيمتها وتشويه نتائجها، علمنا إلى أي مدًى ذهب المسلمون في كفران نعم الله وتضييعها»[١].

فبسبب هذه المخالفات الشرعية استحقت الأمة ما حل بها من الضياع والتخلف، ولا سبيل إلى المحافظة على البناء الروحي وتحقيق مكاسبه إلا بتحقيق معنى الهجرة إلى الله عز وجل والتحرر من كافة الأغلال الثقافية والاجتماعية المادية الغربية التي حالت دون تحقيق نموذج صحيح للحياة الإسلامية؛ ولذلك سأبين معنى الهجرة وأنواعها والهجرة المطلوبة لتحقيق النهوض الحضاري لاستعادة الدور الريادي للأمة الإسلامية.

الهجرة معناها: الانتقال[٢]، وهي نوعان:

انتقال حسي، وانتقال نفسي. والانتقال الحسي معناه: الانتقال من مجتمعات الكفر والشرك إلى مجتمع الإيمان أما الانتقال النفسي، فهو يعني الانتقال من ثقافة مجتمعات غير المؤمنين بنظمها وعقائدها وأخلاقها وتطبيقاتها المختلفة إلى ثقافة الإيمان، بمظاهره وتطبيقاته ومؤسساته، وإلى هذا النوع من الهجرة كانت التوجيهات الإلهية في القرآن الكريم منها قول الله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٥]. فهذه الآيات توجه إلى هجر الشرك وموجبات العذاب من رجس الأخلاق والعادات[٦].

وإلى هذين النوعين أشار النبي ﷺ، فقد سأله أعرابي فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن الهجرة. إليك أينما كنت أو لقوم خاصة أم إلى أرض معلومة؟ أم إذا مت انقطعت؟ فسكت عنه يسيرًا ثم قال: «أين السائل»؟ فقال: ها هو ذا يا رسول الله قال: الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتقيم الصلاة، وتؤتي

(١) فقه الدعوة والإعلام ص ١٣٢، ط دار المعارف بالرياض ١٩٨٧م.

(٢) المعجم الوسيط ص ١٠١٢ .

(٣) سورة المدثر: الآية ٥ .

(٤) سورة المزمل: الآية ١٠ .

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٢٦ .

(٦) انظر: مفاتيح الغيب ج١٥/ ٨٢٩، وتفسير القرطبي ج١٠/ ٧١٠٤ .

الزكاة. ثم أنت مهاجر وإن مت بالحضر»[١].

وفي موقف آخر قال ﷺ: **«المهاجر من هجر السوء فاجتنبه»**[٢]. وقال ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتى تطلع الشمس من مغربها»**[٣]. وقد سأله رجل فقال: يا رسول الله، أي الهجرة أفضل؟ قال: «أن تهجر ما كره ربك، وهما هجرتان: هجرة البادي، وهجرة الحاضر، فهي أشدها وأعظمها بلية»[٤].

وقال الرازي رضي الله عنه: «اعلم أن الهجرة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان، وأخرى تحصل بالانتقال من أعمال الكفر إلى أعمال المسلمين. وقال المحققون: الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مأموراته وفعل منهياته. ولما كان كل هذه الأمور معتبرًا لا جرم، ذكر الله تعالى لفظًا عامًّا يتناول الكل، فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[٥]، فإنه سبحانه وتعالى لم يقل: حتى يهاجروا عن الكفر، بل قال: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، وذلك يدخل فيه مهاجرة دار الكفر وشعاره، ثم لم يقتصر على ذكر الهجرة، بل قيده بكونه في سبيل الله، فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، ومن شعار الكفر إلى شعار الإسلام لغرض من أغراض الدنيا، إنما المعتبر وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى»[٦]

فهذه الشواهد تشير بوضوح إلى أن الهجرة بقسميها لم تنقطع، وأنها قائمة إلى يوم القيامة لتحقيق نموذج الحياة الإسلامية المتميز، وللتخلص دومًا من آثار الغزو الفكري. ومعنى ذلك: أن الهجرة بمفهومها المعنوي تقابل التزكية وتطهير النفس مما علق بها من الشوائب التي تحول دون خلوصها لله عز وجل. هذا الأمر- تغيير ما بالنفوس- شدد عليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة كبداية للتحرر من التبعية التي

---

(١) أخرجه النسائي بمعناه في (ك) البيعة (ب) شأن الهجرة ج٧/ ١٤٣، ١٤٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في (ك) الفتن (ب) حرمة دم المؤمن ج٢/ ١٢٩٨ رقم (٣٩٣٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في (ك) الجهاد (ب) في الهجرة ج٣/ ٣ ح(٢٤٧٩)، والدارمي في (ك) السير (ب) الهجرة ج٢/ ٢٣١٢ .

(٤) النسائي في (ك) البيعة (ب) هجرة البادي ج٧/ ١٤٤، وأحمد في المسند ج٢/ ١٦٠، ١٩١، ١٩٣ .

(٥) سورة النساء: الآية ٨٩ .

(٦) مفاتيح الغيب ج٥/ ٣٦٩ .

نتج عنها التخلف الذي حال بالأمة دون مواكبة التقدم الحضاري، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(١)].

بل إن القرآن الكريم شرط على من يريد الدخول في الإسلام أن يهجر ما كان عليه من أمر الكفر، ثم يؤمن بالله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[(٢)]. فالطاغوت- كما يقول سيد قطب: «صيغة من صيغ الطغيان، تفيد كل من يطغى على الوعي، ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور، وكل وضع أو أدب أو نظام لا يستمد من الله، فمن يكفر بهذا كله في كل صوره من صورة ويؤمن بالله وحده ويستمد منه، فقد نجا»[(٣)].

فغاية التغيير هو هجر الأفكار والثقافات والقيم الخاطئة التي يرفضها الإسلام إلى ثقافة الإسلام وقيمه وتقاليده القائمة على توحيد الله؛ وذلك لأن الرسول ﷺ نبه في كثير من أحاديثه إلى أن العودة إلى ثقافة الجاهلية وقيمها هو مظهر من مظاهر الردة وكبيرة من الكبائر المخلدة في النار، فعن عبدالله قال: «آكل الربا وموكله وكاتبه إذا علموا بذلك، والواشمة والمستوشمة، ولاوي الصدقة، والمرتد أعرابيًا بعد الهجرة، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة»[(٤)].

وقد ذكر الطبري رحمه الله في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[(٥)]. قال: عن محمد بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه قال: إنا لفي مسجد الكوفة وعلي رضي الله عنه يخطب الناس على المنبر، فقال: يا أيها الناس، إن الكبائر سبع! فأصاح الناس فأعادها ثلاث مرات، ثم قال: ألا تسألوني عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما هي؟ قال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١ .

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦ .

(٣) في ظلال القرآن ج١/ ٢٩٢ .

(٤) أخرجه النسائي في (ك) الزينة (ب) المستوشمات ج٨/ ١٤٧ .

(٥) سورة النساء: الآية ٢١ .

حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف والتعرب بعد الهجرة. فقلت لأبي: يا أبتي، التعرب بعد الهجرة كيف لحق ها هنا؟ فقال: يا بني، وما أعظم من أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفيء وجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع إعرابيًا كما كان[(١)].

والحكمة من اعتبار العودة إلى العصبية والرجوع إلى عادات الجاهلية ردة وكبيرة من الكبائر: هو أن هذه العودة تكون نكسة في نظام القيم الإسلامية، حيث ينتفي الولاء لله ويعود لعصبيات وقوميات كما هو الحال الآن في ظل الانحطاط الحضاري الراهن؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**هجرة البادي الطاعة**»[(٢)].

ومن هنا يتبين أهمية الهجرة كعنصر أساسي من عناصر بناء الأمة الإسلامية، وتتضح هذه الأهمية في تخليص أفراد المؤمنين- الذين هم الأساس في بناء الأمة- من الذل والهوان وعدم الأمن اللذين يؤثران تأثيرًا سلبيًا على أمنهم الديني والاجتماعي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين العاملين في آيات سورة النساء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[(٣)].

فهذه الآيات تحرض المسلم على الهجرة من الأماكن التي يستذل فيها وينتهك من قيمه ودينه، حتى لا يعيش في ذل وهوان؛ لأن الأرض أرض الله. «حتى يوفر لنفسه المنعة والقوة والعيش الكريم، هذه الأمور التي عند توافرها يحقق العزة لدينه، وله بذلك الأجر الكريم. أما حياة الذل والهوان مع القدرة على الهجرة، فإن فيها هلاكًا للإنسان في الدنيا والعذاب في الآخرة»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج٦/ ١٢٤ رقم (٦٣٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ج٢/ ١٩١ عن عبدالله بن عمر.

(٣) سورة النساء: الآيات ٩٧-١٠٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير ج١/ ٥٤٢، ٥٤٣.

وفي سبب نزول الآية ما يؤيد ذلك، فقد قال المفسرون في سبب نزولها: «إن ناسًا من المسلمين لم يهاجروا، فأخرجهم المشاركون معهم في بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا له، فنزلت الآية»[1].

ولقد كانت الهجرة عاملاً أساسيًا في قوة حركات الإصلاح التي نجحت في إخراج الأمة الإسلامية من كبوتها في فترات الهزيمة والضعف في أماكن كثيرة وفي أزمان مختلفة من العالم الإسلامي، مثل: حركة «صلاح الدين الأيوبي» بدأ رحمه الله بنفسه فغيرها، وهجر الخلافات المذهبية التي كانت سائدة في عصره، واستشعر المسؤولية أمام الله عز وجل، وبنى جيل التحرير الذي كان أداته في فتح بيت المقدس وقام العلماء والفقهاء والأمراء والقادة بمسؤولياتهم، وكان نصر الله وتحرير القدس. وكذلك فعل محمد في فتح القسطنطينية، فأمر جنوده بالصيام قبل الهجوم بيوم لتطهير نفوسهم وتزكيتها، وكانت التربية الإسلامية قبل ذلك وهجر المعاصي وليلة الصيام تعالت أصوات الجنود بآيات الجهاد. ومعنى هذا: أن الإسلام قدير في أي لحظة تتوفر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول على تحقيق النقلة الحضارية المرجوة لمكانة أمة الإسلام في هذا العالم.



(١) أسباب النزول/ النيسابوري/ ٣٩ .

المبحث الثاني
جمع الأمة على الرسالة الجامعة

تمهيـــــد

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الرسالة المنوطة بالأمة.

المطلب الثاني: الجهاد للمحافظة على الرسالة.



المبحث الثاني
جمع الأمة على الرسالة الجامعة

تمهيـــــد

لا ينهض العالم الإسلامي إلا بالعودة إلى حمل رسالته التي وكلها إليه الرسول ﷺ والإيمان بها والاستماتة في سبيلها، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها، ولا أفضل، ولا أيمن للبشر منها. ورسالة الأمة ليست مجرد هداية الناس إلى الخير الذي جاء به الإسلام، وحماية العقيدة الإسلامية وأصحابها، وإنما هي أكبر من ذلك وأشمل، فهي تتضمن كذلك حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعًا، وذلك من الشرائع والملل التي تعبث بعقول الناس وتسخرهم كالدواب والبقر، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت، أو شجرة مقدسة قطعت.

وهذه الرسالة المجيدة المنوطة بالأمة الإسلامية - تحتاج إلى جهاد حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فالرسالة بدون جهاد تفضي إلى مقت الله وغضبه؛ لأنها لا تتحقق بدونه. والجهاد بدون رسالة يؤدي إلى نصرة الأهواء والعصبيات وخدمة الشهوات. وسأتكلم عن هذين العنصرين في مطلبين:

المطلب الأول: الرسالة المنوطة بالأمة.

المطلب الثاني: الجهاد للمحافظة على الرسالة.



المطلب الأول
الرسالة المنوطة بالأمة

للرسالة أهمية رئيسية في نشأة الأمم وتكوينها وتحديد مصيرها. وتبدو هذه الأهمية في أمور ثلاثة:

الأمر الأول: أن مكانة الأمة بين الأمم - على المستوى العالمي والدولي - تتقرر بمقدار ما تقدمه من عطاء حضاري للآخرين. وهذا العطاء هو الرسالة التي تحملها الأمة بين الأمم، وتضع في خدمتها كافة إمكاناتها ومصادرها البشرية والمادية والمعنوية.

الأمر الثاني: أن العطاء الحضاري هو الضامن لبقاء الأمم واستمرارها، وذلك لأن الأمة التي تتوقف عن العطاء تبدأ في الأخذ، والأخذ الذي لا يقابله عطاء متبادل سبب من أسباب الذوبان وفناء الأمم، ولكنه فناء بطيء يتم على مراحل تستغرق كلُّ مرحلة منها جيلين أو ثلاثة، ففي المرحلة الأولى تأخذ الأمة الأشياء المادية، وفي الثانية تأخذ الأمة العادات المادية كأشكال اللباس والأثاث وغيرها، وفي المرحلة الثالثة تأخذ الأمة المظاهر الثقافية كاللغات ونظم الحكم والإدارة، وفي المرحلة الأخيرة تأخذ العقائد وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز، ويبدأ الذوبان الكامل.

والمتتبع لأحوال الصراع السابقة في الباب الثاني من هذا البحث، يجد أن الأمة الإسلامية عندما تخلت عن رسالتها ضعفت وضعفت الرسالة في توجيهاتها، فراحت تلتمس القوة، فبدأت بالنقل عن الحضارة الغربية في أشكالها المادية، وانتهت إلى الإيمان بعقائدها ونظمها، وأصبحت هي السائدة في نظم العالم الإسلامي، إلا أن الأمم التي تحترم رسالتها - أيًا كانت شرعية أو غير شرعية- تعي قوانين الذوبان وفقدان الهوية، وتحاول أن تتجنبه بالمحافظة على قيمها في الحياة وتصدرها الغير.

ولعل ما حدث من «إسحاق شامير» أثناء عقد مؤتمر «مدريد» للسلام في أسبانيا -

من تركه للمؤتمر والعودة إلى إسرائيل للصلاة وأداء الطقوس اليهودية- يبين أهمية الرسالة في المحافظة على التميز الحضاري ومسيرته، بصرف النظر عن أن هذه الأفعال صحيحة أو خاطئة بقدر ما هي محاولة للمحافظة على القيم والمبادئ الذي لم يغفله زعيم عربي يوم الجمعة والفرق واضح ولا يحتاج إلى تعليق.

الأمر الثالث - الذي يمثل أهمية الرسالة في حياة الأمة: أن الرسالة تمثل حاجة نفسية اجتماعية، فالأمة صاحبة الرسالة تحفظ نفسها وقيمها، وتجنب مجتمعاتها الانقسام والصراع على المصالح والعصبيات وغيرها. وغياب الرسالة يؤدي إلى بروز نقيضها، فإذا كانت الرسالة توحد اتجاه الأمة، يكون النقيض هو التفرق والانقسام وبروز الحزبيات وغيرها مما يفرق الأمة ويجعلها شيعًا متصارعة... هذا هو حال الأمة الإسلامية اليوم في غياب رسالتها.

ومن أجل ذلك يشير القرآن إلى عاقبة التخلي عن الرسالة، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[١]. ويقول ابن تيمية معلقًا على هذه الآية: «قد يكون العذاب من عنده، وقد يكون بأيدي العباد؛ فإذا ترك الناس الجهاد، فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله؛ جمع الله قلوبهم، وألف بينهم، وجعل بأسهم على عدوهم وعدو الله، وإذا لم ينفروا في سبيل الله، عذبهم بأن يلبسهم شيعًا، ويذيق بعضهم بأس بعض»[٢].

وفي موضع آخر يحذر الله عز وجل من نتائج التخلي عن حمل الرسالة وتكاليفها من الإنفاق والجهاد، فيقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٣].

وسبب نزول الآية يبين الأثر العميق للرسالة في المحافظة على وحدة الأمة ونجاتها. يذكر المفسرون: أنه حين كان المسلمون على أبواب القسطنطينية في عهد معاوية عام خمسين من الهجرة، حمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٩ .

(٢) فتاوى ابن تيمية/ التفسير مجلد ١٥/ ٤٤-٤٥، مرجع سابق .

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٥ .

فيه ثم خرج مقبلاً فصاح الناس: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة. فقام أبو أيوب قائلاً: أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآيات على غير التأويل، وإنما نزلت فينا نحن معشر الأنصار، إنا لما أعز الله تعالى دينه وكثر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض سرًّا من رسول: الله إن أموالنا قد ضاعت؛ فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله في كتابه يرد علينا ما هممنا به، فأنزل الآية، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد والرسالة[١]. ولهذه الأهمية الكبرى للرسالة - كعنصر من عناصر بناء الأمة الإسلامية - لا بد من بيان مضمونها وعناصرها حتى يكون المسلم على بينة من أمره.

ورسالة الأمة الإسلامية تتضمن الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالله واليوم الآخر، وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[٢].

وقد أكد ذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٣]. وقد قال أبو هريرة في هذه الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة». ويعلق ابن تيمية عليها بقوله: يبذل المسلمون أنفسهم وأموالهم في الجهاد لنفع الناس؛ فهم خير الأمم للخلق، والخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله[٤].

ويقول سيد قطب رحمه الله: «إن التعبير بكلمة ﴿أُخْرِجَتْ﴾ المبني لغير الفاعل تعبير يلفت النظر، وهو يكاد يشي باليد المطلقة المدبرة اللطيفة تخرج هذه الأمة إخراجًا، وتدفعها إلى الظهور دفعًا من ظلمات الغيب ومن وراء الستار السرمدي الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله. إنها كلمة تصور حركة خفيفة المسرى لطيفة الدبيب، حركة تخرج إلى مسرح الوجود أمة ذات دور خاص لها مقام خاص لها حساب

---

(١) أسباب النزول/ أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ص ٣٨، ٣٩، ط دار المعرفة .

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ٢٩٠، مرجع سابق .

(٣) سورة آل عمران: الآية١١٠ .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ج١/ ٣٩١، وفتاوى ابن تيمية ج١٠/٥٩ .

خاص. وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة، وتعرف أنها خير أمة أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض، ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية، إنما ينبغي دائمًا أن تعطي هذه الأمم مما لديها من الاعتقاد الصحيح والتصور للنظام والخلق والمعرفة والعلم، وهذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها وواجبها، لتكون في مركز القيادة، وهي بتصورها الاعتقادي وبنظامها الاجتماعي أهل له، فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي وبعمارتها للأرض قيامًا بحق الخلافة، أهلاً له كذلك[١].

أركان الرسالة المنوطة بالأمة الإسلامية:

لقد حددت الآية الكريمة أركان الرسالة التي كلف الله بها الأمة الإسلامية في ثلاثة أركان:

الركن الأول: الأمر بالمعروف:

الأصل في معنى المعروف، أنه اسم لكل خير[٢]، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع[٣]. وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن المعروف، فقال: **«لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق. وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم نحوه، فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه»**[٤].

والرسول ﷺ في بيانه هذا لم يتناول المعروف كله وإنما راعى المستوى العقلي

(١) في ظلال القرآن ج١/ ٤٤٧.

(٢) انظر: المصباح المنير، مادة «عرف».

(٣) لسان العرب/ جمال الدين بن منظور، مادة عرف.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٣/ ٤٨٣ بإسناد صحيح، وأبو داود في (ك) اللباس (٤٠٨٤) ج٤/ ٦٥، والحاكم في المستدرك ج٤/ ١٦٨.

للسائل وبيئته، ولكن المعروف الذي هو رسالة الأمة الإسلامية، فيشمل كل ما جاء به الإسلام من مبادئ تنظم العلاقات العامة بين الشعوب والأمم، وكل ما يخرج الإنسان من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان مما يحقق التوافق مع سنن الله وقوانينه في الخلق، ويعين الإنسان على الإنجاز الحضاري الذي يحقق العزة والمنعة، كل ذلك يندرج في قائمة المعروف كركن من أركان الرسالة الإسلامية.

الركن الثاني: النهي عن المنكر:

المنكر: هو اسم لكل أمر قبيح، وضابطه: هو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه[١]، وعلى هذا فهو كل فعل يتنافى مع التصور الإسلامي لكل فعل وقول وخلق من شأنه أن يؤذي المجتمعات والأمم معنويًا وماديًا، ويصادم سنن الله في الخلق وقوانينه في الوجود. وقد أمر الله الأمة الإسلامية منع المنكر مما ينتج عنه من ممارسة تدمير مقومات الإنسان وتبديد طاقات المجتمع وكيانه ويؤدي إلى نزول عقاب الله في الدنيا والآخرة، ولا شك أن تدمير مقومات الإنسان وطاقاته تعطيل للتقدم الحضاري والارتقاء بالبشرية، ولعل هذا هو السر في التحذير من عواقب المنكر في القرآن والسنة.

وقد أشار الإمام الغزالي رحمه الله إلى الأمور التي تنجم عن فعل المنكر وعدم الأمر بالمعروف بقوله: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي ابتعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد»[٢].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هما عمل إيجابي يحفظ الحياة البشرية ويصونها من الشر والفساد، ويجنب المجتمع آثار الممارسات الخاطئة، ويصبغه بالممارسات الكريمة التي تحقق استفادة أمم الأرض جميعًا، كما أنهما من فروض العين التي كلف الله بها الأمة المسلمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس، وأولاها قيادة

---

(١) انظر كلًا من المصباح المنير، ولسان العرب، مادة «نكر».

(٢) إحياء علوم الدين/ أبو حامد الغزالي ج٢/ ٣٠٦، ط المكتبة التجارية بدون تاريخ.

البشرية إلى الخير، وإن هي فعلت ذلك استحقت رعاية الله ودفاعه تعالى عنها ونصرهم على عدوهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[2].

الركن الثالث: الإيمان بالله:

ومحور هذا الركن الإيمان بالله وقدرته وهيمنته وأنه المالك المتصرف في الوجود كله، وهو سبحانه له الحاكمية والتشريع، يحدد المعروف والمنكر، ويضع الميزان الصحيح للقيم، حتى تكون المرجع الذي يرجع إليه الناس ويضبطون حركتهم الحضارية، على أساسه يقول سيد قطب رحمه الله: «فالإيمان هو الذي يضع التصور الصحيح لعلاقة الوجود بخالقه لمركز الإنسان في هذا الوجود، وعن هذا التصور تنبثق القواعد الأخلاقية وفي سبيل رضا الله واتقاء غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد، ومن سلطان الله في الضمائر وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد وبالإيمان يملك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أن يواجهوا طاغوت الشر، وطاغوت الشهوة، وهبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع، ويتحرر الفرد والمجتمع من طغيان الآلهة المدعاة، فتنطلق قدرات الإنسان العقلية والنفسية والجسدية في تسخير الكون دون عائق من رغبة أو رهبة في إطار من الخلق وسياج من القيم النبيلة»[3] تلك هي أركان الرسالة التي كلف الله بها الأمة الإسلامية لكي تحافظ على نموها وارتقائها حين تعيش لها وتعمل على نشرها في العالم لتخرج نفسها من كبوتها المعاصرة، ولتحمي عالم اليوم من الدمار الذي ينتظره في حضارة اليوم التي لا تعرف خلقًا ولا دينًا ولا سبيل للأمة إلا بالجهاد في سبيل الله لنشر هذه الرسالة، والجهاد هو موضوع البحث في المطلب التالي.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٨ .

(٢) سورة الحج: الآية ٤١ .

(٣) في ظلال القرآن ج١/ ٤٥٠ .

المطلب الثاني
الجهاد للمحافظة على الرسالة

الجهاد في اللغة بذل الجهد والوسع والطاقة(١)، وإما في الاصطلاح: فهو يعني استفراغ الطاقة لتحقيق الأهداف التي توجه إليها الرسالة الإسلامية في ميادين الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعسكرية وغيرها في أوقات السلم والحرب على السواء، وهذا المعنى الاصطلاحي هو الذي وجه إليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾(٢)، والمعنى كما قال الرازي رحمه الله: «استفرغوا وسعكم في إحياء دين الله وإقامة حقوقه بالحرب باليد وباللسان وجميع ما يمكن، وردوا أنفسكم عن الهوى والميل»(٣)، وقال الطبري رحمه الله: «أي أن الجهاد الذي اختاركم الله من أجله لا ضيق ولا عنت وإنما هو يتناسب مع الوسع والطاقة التي أودعها في خلقكم وتكوينكم»(٤)، وإلى المعنى الجامع أشار القرطبي رحمه الله بقوله: «هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه؛ أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته والظلمة في رد ظلمهم والكافرين في رد كفرهم»(٥).

ولقد رسم رسول الله ﷺ الإطار الشمولي للجهاد من خلال أمرين:

الأول: بيان أن الجهاد يكون في ميدان العمل الإيجابي الصالح النافع، وهو يشمل العمل بجميع مظاهره سواء أكان عملاً دينيًا صالحًا أم عملاً اجتماعيًا أم عملاً

(١) المعجم الوسيط، مادة «جهد»، ١٨٠ .

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨ .

(٣) مفاتيح الغيب ج١١/ ٣٣٣ .

(٤) جامع البيان ج١٧/ ٢٠٥ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ج٦/ ٤٦٣١، ط دار الغد ١٩٩١م.

كونيًا صالح، فقد روى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: **الصلاة على ميقاتها**. قلت: ثم أي؟ فقال: «**بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**». فسكت رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني»[١].

ويعطيه معنًى تربويًا وذلك بمجاهدة الإنسان نفسه في البعد عن المعاصي والتزام التقوى، فقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله**». قالوا: ثم من؟ قال: «**مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره**»[٢]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان؛ كان حقًا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها**»[٣]. قال ابن حجر: «والحديث فيه أنيس لمن حرم الجهاد، وأنه ليس محرومًا من الأجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة وإن قصر عن درجة المجاهدين»[٤] إلى غير ذلك من الأحاديث التي تعطي الجهاد معنى يدفع إلى العمل الصالح.

الأمر الثاني: التحذير مما يخالف الجهاد في ميدان العمل والتعوذ مما يعيق عن القيام به من العجز والكسل والمرض وغلبة الدين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتعوذ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء[٥]. فالرسول ﷺ يأمر المسلم أن يتعوذ من هذه الأمور؛ لأنها قد تكون سببًا في عرقلة مسيرة جهاده في الحياة، وتحول دون أداء الرسالة التي كلفه الله بها، ولذلك يروي أنس؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهم إني أعوذ

(١) الحديث أخرجه البخاري في (ك) الجهاد والسير، (ب) فضل الجهاد (٢٧٨٣) فتح ج٦/ ٤ .

(٢) أخرجه البخاري في (ك) الجهاد (ب) أفضل الناس مؤمن مجاهد (٢٧٨٦) فتح ج٦/ ٦ .

(٣) أخرجه البخاري في (ك) الجهاد (ب) درجات المجاهدين (٢٧٩٠) فتح ج٦/ ١١ .

(٤) أخرجه البخاري في (ك) الجهاد (ب) درجات المجاهدين (٢٧٩٠) فتح ج٦/ ١١ .

(٥) أخرجه مسلم في (ك) الذكر والدعاء، (ب) الدعوات والتعوذ (٢٧٠٧) شرح النووي ج١٧/ ٣٠ .

بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات»[١].

وكان الرسول ﷺ يحذر أصحابه من الأمور التي تخرج بالجهاد عن هدفه الإسلامي وهو الانتصار على النفس وتجردها لله عز وجل، فقد روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أوصى أصحابه فقال: «**انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا صغيرًا ولا امرأة ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**»[٢] وكذلك أوصى أبو بكر رضي الله عنه قادة الجيوش، فقد روى يحيى بن سعيد: أن أبا بكر رضي الله عنه بعث يزيد بن أبي سفيان أميرًا وقال له: إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا، ولا هرمًا، ولا تقطعنَّ شجرًا، مثمرًا، ولا نخلًا، ولا تحرقنها، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكلة، ولا تجبن ولا تضلل[٣].

وبهذا البيان الشامل يصبح الجهاد الإسلامي - تكنولوجيا الإسلام- إن صح التعبير- التي توفر العمل والإنتاج وقت السلم، والمنعة في أوقات العدوان بقصد توفير الرخاء الاقتصادي لتأهيل الأمة الإسلامية لحمل رسالة الإسلام إلى العالم، والجهاد الإسلامي بهذا المعنى يختلف عما تقوم به الدول الصناعية في العصر الحاضر؛ لأنه جهاد بدون رسالة، وهو السبب في الأزمة المعاصرة التي تعاني منها أمم العالم الآن؛ وذلك لأن المعنى الإسلامي للجهاد يهدف إلى تبليغ رسالة الله إلى العالم من أجل توفير الأمن الفكري والمادي والنفسي لبقاء النوع البشري ورقيه، أما الجهاد الذي تقوم به الدول الصناعية في ظل الحضارة الغربية ليس له رسالة يعمل لها حيث يقتصر على التمتع بالحياة وشهواتها بعيدًا عن الدين، مما أدى إلى ظهور المظالم السياسية والمفاسد الاجتماعية في العالم. ومن أجل الحيلولة دون وقوع هذه المفاسد، كان الأمر الإلهي للمؤمنين دائمًا ببذل النفس لمحاربة قيم الكفر ومؤسساته، وبذل المال لنشر قيم الرسالة الإسلامية وقد أشارت الآية الأخيرة في سورة الحج إلى هذا المعنى الكبير وبينت المقومات التي تعين على الوصول إلى هذا الهدف الكريم، قال تعالى:

---

(١) السابق، نفس الجزء والصفحة (ح) ٢٧٠٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، (ب) في دعاء المشركين (٢٦١٤) ج٣/ ٣٧ .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (ك) الجهاد (ب) النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو ج٢/ ٤٤٧ .

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وفي هذه الآية يجمع الله المنهاج الذي رسمه لهذه الأمة، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها، ويقرر مكانها الذي قرره لها، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل متى استقامت على النهج الذي أراده الله. إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود، ويثني الأمر العام بالعبادة، وهي تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها، ويختم بفعل الخير عامة في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة، يأمر الأمة بهذا رجاء أن تفلح؛ لأن هذه أسباب الفلاح، فإذا استعدت الأمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة؛ استطاعت أن تنهض بالتبعة الشاقة، وهو الجهاد في الله بجميع أنواعه، وبهذه العدة تملك الأمة الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض. والقرآن لا يغفل شأنها، بل يدعو إلى إعدادها ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذي لا ينفد، والذي لا يملكه إلا المؤمنون بالله، فيوجهون الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء»[2].

وميادين الجهاد في الإسلام كثيرة لا حصر لها، وهي تختلف باختلاف التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في الداخل والخارج، وانطلاقًا من التحديات التي تواجه الأمة في الداخل والخارج يمكن حصر هذه الميادين في ثلاثة مظاهر:

المظهر الأول: الجهاد التربوي:

وهو يستهدف تزكية الإنسان المسلم من الخضوع للغرائز والدوافع التي تجعله حبيس الشهوات والانفعالات، والارتقاء به إلى المنزلة التي تتحقق عندها إنسانيته ويخضع غرائزه ودوافعه لله عز وجل وفي تعامله في الكون والحياة، وهذا المظهر يشمل جهاد النفس والشيطان للقيام بالتبعات الملقاة على عاتق الإنسان تجاه دينه،

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٨ .

(٢) في ظلال القرآن ج٤/ ٢٤٤٥، ٢٤٤٦ .

كما يتضمن جهاد الظلمة والفسقة الذين يؤثرون على عطاء المجتمع المسلم بأفعالهم الخبيثة، وقد أشار الله تعالى إلى المنزلتين؛ فقال في المنزلة العليا التي يتحرر فيها الإنسان لخالقه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١] وإلى المنزلة الدنيا التي يخضع فيها لشهواته ودوافعه الخبيثة ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[٢]، وقد أعطى الرسول ﷺ مثالًا لهذا النوع بقوله: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[٣] ومن ذلك كل ما من شأنه الارتقاء بالإنسان نفسيًا ومعنويًا حتى يحقق التجرد بالله، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ بعد العودة من جهاد القتال قال: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[٤] وهذا المظهر ليس عملًا فرديًا، وإنما يقوم به العلماء والمربون والعاملون في مجال التربية والدعوة.

المظهر الثاني: الجهاد التنظيمي:

وغاية هذا الجهاد تنظيم طاقات الأمة وقدراتها المعنوية والمادية لتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية، والقرآن الكريم يوجه الأمة إلى هذا المظهر وذلك بالدعوة إلى الاستعداد له بالوسائل المادية لتحقيق العزة التي ترهب أعداء الله. فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٥]. والمراد بالقوة في الآية: ما يكون سببًا لحصولها وهو عام في كل ما يتقوى به على تبليغ الرسالة؛ لأن الاستعداد بما في الطوق، كما يقول سيد قطب رحمه الله: «فريضة تصاحب فريضة الجهاد، والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف ألوانها وأسبابها، وخص رباط الخيل؛ لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم القرآن»[٦].

والقرآن الكريم يبين أن أمة الإسلام حين تفقه هذا الجهاد التنظيمي وتتقنه وتصبر

---

(١) سورة التين: الآية ٤ .

(٢) سورة التين: الآية ٥ .

(٣) البخاري في الأدب (ب)، قول النبي ﷺ: إنما الكرم قلب المؤمن ج١٠/ ٥٨٢ .

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ج١٣/ ٤٩٣، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ج٣/ ٧ .

(٥) سورة الأنفال: الآية ٦٠ .

(٦) في ظلال القرآن ج٣/ ١٥٤٣ .

على تكاليفه النفسية والمادية، فإن ما تحتاجه من الأفراد المؤمنين في هذا الجهاد ستكون نسبة ١ إلى ١٠ مقارنة بما تحشده أمة الكافرين، والسبب في ذلك: هو انسجام المؤمنين مع نواميس الخلق، وجهل الكافرين بهذه النواميس، واصطدامهم بها مما يجعلها تعمل لصالح المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[1] أي: لا يفقهون نظم الحشد والإعداد النفسي والمادي وأساليب القتال، والاستفادة من استراتيجية الموقع والتوجيه المعنوي، وأهمية الهدف الذي يتم من أجله الجهاد[2].

والمظهر الثالث: الجهاد العسكري أو القتالي:

وغاية هذا الجهاد: إزالة العوائق التي تحول دون تبليغ الرسالة الإسلامية حين لا تنجح طرق الدعوة السلمية، والتي تبدأ بعرض الإسلام وفي حالة رفضه، إما الجزية أو الدخول في عهد مع المسلمين والغرض منه: رفع سلطان العباد، وترك الناس أحرارًا فيما يدينون. وقد نظم الإسلام هذا النوع من الجهاد بضوابط عقدية وأخلاقية تحكمه وتوجهه حتى لا يخرج عن غايات الرسالة وأهدافها، وهذه الضوابط على وجه الإجمال تتلخص فيما يلي:

أولًا: قصر عمليات الحرب على المقاتلين، وقد تقدم حديث يحيى بن سعيد في بيان هذا الأمر.

ثانيا: منع إتلاف الأموال والأنفس إلا إذا كانت لها صلة مباشرة في الحرب[3].

والضابط الثالث: وجوب احترام المبادئ الإنسانية والفضيلة؛ وبذلك حرم الغدر والمثلة وغير ذلك مما يتنافى مع القيم والمبادئ الإسلامية.

كما أن الإسلام فصل أساليب القتال بما يفي للوصول إلى أهداف الرسالة الإسلامية؛ ولذلك حدد الإسلام الوسائل المادية وحصرها في كل وسيلة تؤدي إلى كسر

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن ج٣/ ١٥٤٩ .

(٣) للتفصيل في هذا الموضوع والمقارنة؛ انظر: رسالة الماجستير للباحث: «موقف الدعوة الإسلامية من التضامن الدولي» ص٢٣٤ إلى ٢٦٠ .

شوكة الأعداء مع وجوب استعمال الوسائل الخفيفة إذا أمكن تحقيق المقصود بها؛ لأن الإسلام يرى أن استعمال الوسائل الثقيلة مع إمكان استعمال غيرها إفساد في غير محل الحاجة؛ بل إن الإسلام يأمر بوقف القتال فورًا إذا تحققت أسبابه؛ وذلك بإسلام أهل الحرب؛ أو دخولهم في عهد مع المسلمين ويصير القتال ممنوعًا بعد ذلك.

والإسلام يهدف من وراء هذا التنظيم المحافظة على ارتقاء النوع الإنساني وتقدمه والمحافظة على إنجازاته الحضارية لخير الإنسانية كلها. والأمثلة على ذلك كثيرة، من ذلك ما رواه المقداد بن عمرو الكندي، وكان ممن شهد بدرًا، قال: قلت لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذمني بشجرة فقال: أسلمت لله، أقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله. قلت: يا رسول الله، إنه قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها؟ فقال رسول الله: «**لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**»(١).

والمظهران الأول والثاني قائمان إلى أن تقوم الساعة، والثالث وهو الجهاد العسكري كذلك إلا أنه يصبح معمولاً به حين تشيع قيم الكفر وانتشار العدوان. وتبدو أهميته اليوم ونحن نرى الأفكار والمعتقدات التي تقوم عليها الحضارة الغربية لا تتخلى عن حب السيطرة والعدوان على الشعوب الإسلامية ونهب مقدراتها حتى تظل في تخلفها وتكون هي الأقوى في الصراع القائم، ومن هنا يبرز دور الجهاد لتحقيق الردع لهذه العقلية الغربية استجابة لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾(٢)، والجهاد هنا يكون إجراءً مؤقتًا لبتر العناصر المترفة لإعادة التوازن البشري كلما اضطربت قيم العدل والمساواة.

ولهذا لا يكون الجهاد إسلاميًا إلا إذا اقترن برسالة الإسلام، وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياًء: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال:

---

(١) البخاري في المغازي ج٧/ ٣٧٣ رقم (٤٠١٩)، مسلم في (ك) الإيمان (ب) تحريم قتل الكافر ج١/ ٩٥ (٩٥٥).

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٣.

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

ومن هنا، فإن رسالة الإسلام هي الخير الذي يقدمه المسلم للإنسانية في عالم يتخبط في ظل صراعات ليس وراءها من هدف إلا إذلال الإنسان لقيامها على العنصرية البغيضة، ولا طائل من وراء هذا كله إلا التدمير والتخريب للحضارة الإنسانية، ومن ذلك تتضح طبيعة التبعة الملقاة على الإنسان المسلم لانتشال البشرية من هذا الضياع، ولن يكون ذلك إلا بالعودة إلى فهم حقيقة وجوده ورسالته في الحياة والجهاد في سبيلها.



(١) أخرجه مسلم في (ك) الإمارة، (ب) من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ح(١٩٠٤) ج١٣/٤٩ شرح النووي.

المبحث الثالث
تعميق معانى الولاء والنصرة

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: النصـــــرة والتناصر.

المطلب الثاني: الولاية والولاء لله ورسوله.



المبحث الثالث
تعميق معاني النصرة والولاء

إن وحدة الهدف الذي تفرضه طبيعة العقيدة الإسلامية تفرض على الأمة الإسلامية الهجرة إلى الله عز وجل، وترك كل قيم تعارض قيم وأخلاق الإسلام، وذلك لحمل الرسالة الإسلامية وتبليغها إلى العالم، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بالتناصر والتعاضد بين المسلمين، وتحقيق الولاء للأمة ورسالتها. وذلك لتحقيق التفاعل بين العناصر الرئيسية المكونة للأمة الإسلامية.

والحديث عن هذين العنصرين في مطلبين.

المطلب الأول: النصرة والتناصر.

المطلب الثاني: الولاية والولاء لله ورسوله.

المطلب الأول
النصـــرة والتناصـــر

النصرة لدين الله والتناصر بين المسلمين من العناصر الأساسية المكونة للأمة الإسلامية، ولكي نقف على ما يتضمنه هذا العنصر الأساسي في بناء الأمة، لا بد من بيان معناه، والتوجيهات القرآنية والنبوية التي عالجت هذا العنصر، وتطبيقاته في تاريخ المجتمع الإسلامي.

١- معنى النصرة:

لقد ذكر مصطلح النصرة ومشتقاته في القرآن الكريم ليعني معاني كثيرة، من هذه المعاني: اتباع دين الله والجهاد في سبيله، وطاعة أوامره، واجتناب معاصيه. من ذلك

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[(١)]. وجاءت بمعنى التأييد والمساعدة على التفوق والغلبة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾[(٣)]. وجاءت بمعنى المؤازرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[(٤)]. وجاءت بمعنى الحماية في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[(٦)]. وجاءت بمعنى مساندة الحق وإشاعة العدل، مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[(٧)]. وجاءت بمعنى الثأر ودفع العدوان، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[(٨)]. وأخيرًا جاءت بمعنى منع الظلم ودفعه إذا وقع، وذلك في قول الرسول ﷺ: **«أمرنا بعيادة المريض، ونصرة المظلوم»**[(٩)]. وقوله ﷺ: **«من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره، أذله الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة»**[(١٠)]. والنصرة بهذه المعاني القرآنية والنبوية كانت من أهم العناصر التي كونت الأمة الإسلامية في نشأتها الأولى، وتجسدت واقعًا عمليًا في سلوك السلف الصالح رضوان الله عليهم؛ فقد كانت التزامًا قولًا وعملًا في سلوك الأنصار- رضي الله عنهم أجمعين- لنصرة النبي ﷺ ونصرة المهاجرين معه، وكانت أيضًا مجسدة في

---

(١) سورة محمد: الآية ٧ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٢ .

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٥ .

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٧ .

(٥) سورة هود: الآية ٣ .

(٦) سورة التوبة: الآية ٤٠ .

(٧) سورة الصافات: الآية ٢٥ .

(٨) سورة الشورى: الآية ٣٩ .

(٩) البخاري في (ك) النكاح (ب) حق إجابة الوليمة ج٩/١٤٩ ح٥١٧٥، والترمذي ج٥/١٠٨ ح(٢٨٠٩) .

(١٠) الإمام أحمد في المسند ج٣/٤٨٧ من حديث سهل بن حنيف .

التضحية الكاملة التي قدمها المهاجرون حيث أوقفوا الأنفس والأموال والأهل لنصرة دين الله عز وجل، فقد تجسدت النصرة من الفريقين باجتماع المجتمع الإسلامي في المدينة؛ ثم كان جهادهم في سبيل نصرة هذا الدين، والخروج به إلى العالم كله، والمواقف التي حققت ذلك أكثر من أن تحصى؛ ولو لم يتحقق هذا العنصر الإيماني من الجانبين، لما قامت للإسلام قائمة؛ ومن هنا تتضح أهمية عنصر النصرة في إعادة بناء الأمة الإسلامية لكي تحقق ريادتها ووصايتها على العالم من جديد.

ويتحقق عنصر النصرة في حياة الأمة من خلال المظاهر التالية:

المظهر الأول: نصرة أفكار الرسالة الإسلامية بمواجهة طغيان الأشخاص والماديات، وبيان ذلك فيما يلي:

إن أي مجتمع من المجتمعات يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية، هذه العناصر هي الأفكار، والأفراد، والأشياء. والأفكار في التكوين الاجتماعي تمثل عقيدة المجتمع أو نظامه، فحينما تكون نصرة الأفكار هي الهدف الذي يعمل له الأفراد وفي سبيله تسخر الأشياء؛ تكون الأمة في أعلى درجات القوة والصحة، وقد استطاعت الأمة الإسلامية تحقيق ذلك بعد موت النبي ﷺ حيث استطاع المؤمنون تكوين الخلافة الراشدة بعد وفاة الرسول ﷺ، وتحددت مواقع الأفراد ووظائفهم في دولة الخلافة الراشدة بمدى قدرة الفرد على فهم الرسالة الإسلامية وتطبيقها، ومدى الإخلاص لفهم الرسالة وتطبيقها كما أراد الله عز وجل.

وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على هذه المقاييس القرآنية في اختيار الأفراد لمهام الخلافة ووظائفهم فيها؛ تجردًا لله عز وجل ومناصرة للرسالة الإسلامية الملقاة على عاتقهم، ولقد بين القرآن الكريم هذه المقاييس (القدرة- الإخلاص) بالقوة والأمانة، وذلك عند قول الله عز وجل حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾(١).

ويضعف عنصر النصرة في الأمة حين تطغى نصرة الأشخاص والمذاهب أو العصبيات القبلية على مصلحة الرسالة والأمة، وهذا الطغيان يتمثل في امتلاك

(١) سورة القصص: الآية ٢٦ .

أصحاب العصبيات القومية للأفكار والأشياء، ثم توظيفها لدعم أشخاص العصبيات ونفوذهم، ومثل ذلك ما يحدث من تفسير النصوص تفسيرًا يوافق هوى الأشخاص ومصالحهم، بعيدًا عن مصالح الأمة، أو تولية مهام القيادة لأفراد ليسوا أهلاً لها، وهذا ما حذر أبو بكر رضي الله عنه منه يزيد بن أبي سفيان- رضي الله عنهما- وقد روى ذلك يزيد بنفسه فقال: قال أبو بكر - لما بعثني إلى الشام: يا يزيد، إن لك قرابة عسى أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكبر ما أخاف عليك، فإن رسول الله قال: «**من ولي من أمور المسلمين، شيئًا فأمر عليهم أحدًا محبة له بغير حق، فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا حتى يدخله جهنم. ومن أعطى أحدًا من مال محاباة، فعليه لعنة الله- أو قال: برئت منه ذمة الله- إن الله دعا الناس أن يؤمنوا فيكونوا حمى الله. فمن انتهك في حمى الله شيئًا بغير حق، فعليه لعنة الله- أو قال: برئت منه ذمة الله عز وجل**»(١).

ومن هذا الحديث النبوي استوحى ابن تيمية آراءه في هذا الشأن فقال: «فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو مرافقة في بلد أو مذهب أو جنس، أو لرشوة يأخذها من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب فيما نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(٢) ثم قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾(٣) فإن الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره في بعض الولايات، أو يعطيه ما لا يستحقه أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات، فيكون قد خان الله والرسول وخان أمانته»(٤).

وعندما تطغى نصرة الأشخاص على نصرة الدين ومبادئه تصبح الأشياء المادية من مال وزخارف الحياة هي الوسيلة التي يستخدمها الأشخاص للحصول على تأييدهم ونصرتهم، وسرعان ما تتحول النصرة للأشياء على الأفكار والأشخاص؛ الهدف

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج١/٦ .

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٧ .

(٣) سورة الانفال: الآية ٢٨ .

(٤) الفتاوى الكبرى/ كتاب الجهاد ج٢٨/٢٤٨-٢٤٩ .

الأول للتملق لدى أولي الأمر، فتعبد الشهوات والماديات من دون الله. والمحصلة النهائية لذلك: هو التكالب على التملق لامتلاك الأشياء وما ينتج عن ذلك من صراعات دموية بين الأفراد لنصرة من يملك الأشياء على حساب رسالة الأمة ومصالحها؛ فيظهر الملك الاستبدادي الذي يذل الأمة.

والرسول ﷺ يلخص هذا التحول في الأمة من المناصرة لأهداف الرسالة إلى مناصرة الأشخاص والأشياء، فيقول ﷺ: **«إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم كائن ملكًا عضوضًا، ثم كائن عتوًا وجبرية وفسادًا في الأرض، يستحلون الحرير والفروج، ويرزقون على ذلك وينصرون»**[(١)].

والمجتمعات التي تناصر الأفكار الصحيحة بالطبع تتفوق على الأخرى التي تناصر الأفكار الخاطئة. لقد كانت الأمة الإسلامية في صدر الإسلام متفوقة على سائر المجتمعات المعاصرة لها من الرومان وفارس وغيرها. والمجتمعات التي تناصر الأفكار الصحيحة وفيها بعض الخطأ تتفوق لا محالة على المجتمعات التي تناصر الأشخاص والماديات بعيدًا عن أي قيمة، وهذا هو الحال اليوم في تفوق المجتمعات الغربية على مجتمعنا الإسلامي؛ وذلك لأن عندهم شيئًا من القيم- وإن كانت خاطئة- يعملون لها. أما البلاد الإسلامية اليوم فقد تركت القيم وعاشت لتناصر الزعماء حتى حل البلاء وعمت الفتن.

والمظهر الثاني: نصرة العدل في مجابهة الطغيان:

العدل هو الأساس الذي يضمن للمجتمعات دوام الحياة وبقاءها، وهو تجسيد لأفكار الرسالة الإسلامية وقيمها. والظلم والتسلط يؤديان إلى غيبة الأفكار والقيم الإسلامية الصحيحة من المجتمع، وانتقالها إلى تحكم الأشخاص الذين يهيمنون على المجتمع ويديرون أفكاره وقيمه بما يضمن بقاء ملكهم وتسلطهم. وغياب العدل يلغي مبرر وجود الأمم ومنها الأمة الإسلامية؛ لذلك قال أبو الحسن الماوردي: «الملك مع العدل والكفر يدوم، ولكن الملك مع الإسلام والظلم لا يدوم، وجيوش الفتح الإسلامي حين خرجت إلى العالم إنما خرجت لرفع الظلم عن الشعوب. أما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند مطولاً من حديث النعمان بن بشير ج٤/ ٢٧٣ .

اعتناق الإسلام، فقد تركته لاختيار الشعوب المحررة لتتبين وحدها الرشد من الغي دون إكراه في الدين، ولتختار واحدًا من اثنين: إما الإسلام، وإما الجزية التي تسوي غير المسلم بالمسلم الذي يدفع الزكاة ويخدم في الجيش لحماية الجميع من الظلم»[١].

ولذلك أجمعت المصادر الإسلامية على إدانة الظلم؛ وتنفير المسلم منه في جميع مظاهره وأشكاله، فالقرآن الكريم سوى بين مصير المظلومين والذين يسكتون على الظلم وبين الظالمين الذين يمارسون الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٢]. وفي المقابل يعظم القرآن الذين يرفضون الظلم ويتناصرون لمقاومته قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٣].

وقد جعل الرسول ﷺ خضوع الأمة للظلم، وعدم تناصرها لمقاومته من العلامات الدالة على موتها وانتهاء مبررات وجودها، قال ﷺ: «**إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم: أنت الظالم، فقد تودع منها**»[٤]. ويقول أيضًا: «**إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى تكون العامة تستطيع تغير على الخاصة، فإذا لم تغر العامة على الخاصة عذب الله العامة والخاصة**»[٥].

وعلى هذا الأساس من مناصرة العدل ودفع الظلم صارت طاعة الحاكم مرهونة بمدى تقيده بالعدل واحترام الحريات. وقد كان عمر بن الخطاب في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار، فقال: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا، فقال ذلك مرتين أو ثلاثة. قال بشر بن سعد: لو فعلت ذلك لقومناك تقويم القداح- أي: السهم- فقال عمر: أنتم إذًا. (أي: أنتم إذًا الرجال المثلون

---

(١) الأحكام السلطانية/ ٧٣ .

(٢) سورة النساء: الآية ٩٧ .

(٣) سورة الشورى: الآيات ٣٩-٤١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٢/ ١٦٣ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٤/ ١٩٢ من حديث عدي بن عدي .

للأمة المسلمة الحقة). وقد كانت سياسة عمر رضي الله عنه والولاة من بعده من جنس هذا الموقف؛ لأنهم رضوان الله عليهم كانوا مربين لهذه الأمة، ويريدون لهذه الثقافة أن تنتشر في تاريخ الأمة.

المظهر الثالث: تناصر المؤسسات المختلفة في الأمة الإسلامية للحفاظ على إنسانية الإنسان:

لكي تتجسد أفكار النصرة في واقع اجتماعي حي يعيشه الناس لا بد أن يتركز عمل المؤسسات الإدارية والأمن في الأمة للمحافظة على الإنسان المسلم وحريته لتمكينه من حمل رسالة الإسلام في الداخل والخارج؛ ولذلك يؤكد القرآن الكريم على ذلك، فيأمر بعدم النيل من إنسانية الإنسان، أو التجسس عليه أو اضطهاده، أو نفيه أو غيبته أو امتهان كرامته، وتهديد من يرتكب مثل هذه الجرائم بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[(١)].

والرسول ﷺ يؤكد ذلك بنفس الحجم والكم، فهو يجعل التجسس على الناس سببًا في إفسادهم، قال ﷺ: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**»[(٢)].
وعن معاوية رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنك إن اتبعت عورات الناس؛ أفسدتهم أو كدت تفسدهم**»[(٣)].

كما يوجب الإسلام عدم القسوة في إنزال العقوبة على الإنسان في حالة مخالفاته، وأنزل القصاص به، فقد قال ﷺ: «**لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في**

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان ١١، ١٢.

(٢) أبو داود في (ك) الأدب (ب) ٣٧، وأحمد في المسند ج٦/ ٤ من حديث المقداد بن الأسود.

(٣) أبو داود في (ك) الأدب (ب) في النهي عن التجسس ج ٤٨٨٨، وأبو يعلى في المسند ج١٣/ ٣٨٢ ح(٧٣٨٩).

حد من حدود الله»[١]. وقال ﷺ: « **يكون في آخر الزمان شرطة يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله، فإياك أن تكون منهم**»[٢].

ولتشريع الإسلام في إقامة السجون المثل الأعلى في احترام الإسلام لإنسانية الإنسان والمحافظة على كرامته. يقول ابن تيمية رضي الله عنه: «الحبس الشرعي ليس السجن في مكان ضيق؛ وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، سواء كان في بيت أو مسجد أو بتوكيل نفس الخصم، أو وكيل الخصم عليه؛ ولذلك سماه الرسول ﷺ أسيرًا»[٣].

ولقد برزت آثار هذه التوجيهات التي عمقها الرسول ﷺ وأصحابه من بعده في المجتمع الإسلامي عن طريق التربية الإسلامية للمؤسسات والأفراد حتى كانت معينًا ونصيرًا للإنسان المسلم على تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث عماله شرط عليهم أن يعيشوا عيشة الناس، وأن يركبوا ما يركبه عامة الناس، وأن يلبسوا ما يلبسه عامة الناس ثم يشيعهم؛ فإذا أراد أن يرجع، قال: «إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعراضهم ولا على أموالهم، ولكني بعثتكم لتقيموا الصلاة، وتقسموا فيهم فيئهم، وتحكموا بالعدل، فإذا أشكل عليكم شيء، فارفعوه إليَّ، ألا فلا تضربوا العرب فتذلوهم، ولا تجمروها فتغتنوها، ولا تعتلوا عليها فتحرموها، جردوا القرآن»[٤].

ولكي تؤهل المؤسسات الإسلامية لتحقيق النصرة المطلوبة منها، لا بد أن تنقي مما فيها من نظم وأفكار غربية؛ هذه النظم والأفكار هي التي يؤسس عليها الهياكل الأمنية والإدارية في أمة الإسلام، وقد أدت بنا إلى هذا التراجع الحضاري بسبب انتشار الأنانية وطغيان ولاة الأمور فيها، فجعلت القوة فوق القانون، وتحولت حقوق

---

(١) البخاري في(ك) الحدود (ب) التعذير والأدب ج١٢/ ١٨٢ (٦٨٤٨)، ومسلم في الحدود ج٣/ ١٣٣٢ .

(٢) مسلم في (ك) الجنة وصفة نعيمها (ب) النار يدخلها الجبارون ج٤/ ٢١٩٣ رقم: ٥٢/ ٥٣ .

(٣) الفتاوى الكبرى ج٣٥/ ٣٩٨، مرجع سابق .

(٤) سبق تقديمه في الفصل الثاني من الباب الأول .

ومعنى تجمروها: تجمير الجيش وجمعه في الثغور، وحبسهم عن العودة إلى أهلهم . جردوا القرآن لا تفرقوا به شيئًا ليكون وحده منفردا .

الناس الفطرية التي منحهم الله إياها - إلى مكرمات يمن بها عليهم أصحاب السلطان الذين يحكمون في مصائر الناس وأرزاقهم ومعتقداتهم دون رقابة أو مسؤولية أمام الله عز وجل، وبانعدام عامل النصرة والمناصرة للحق وللرسالة استذل الإنسان المسلم، وأصبح لا يجد من يعينه على كلمة الحق أو أن يجد العيش الكريم، كما افتقد الأمن من الخوف، الأمر الذي عطل مواهبه وإدراكاته مما كان له الأثر في تخلف الأمة الإسلامية.

المطلب الثاني
الولاية والولاء لله ورسوله

الولاية أو الولاء هما البوتقة التي تتفاعل فيها العناصر المكونة للأمة الإسلامية، وهي الإيمان والهجرة، والرسالة، والجهاد، والنصرة، كما أن وجود الولاء في واقع الأمة وسريانه في جميع ممارساتها وعلاقاتها، شاهد على قوة العناصر السابقة في سلوك الأفراد والجماعات. ولقد أكد القرآن الكريم ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1]، فإذا كان الله عز وجل أشار إلى الولاية في آخر الآية بعد أن ذكر عناصر الأمة السابقة، فهذه الإشارة تبين أهمية هذا العنصر للعناصر السابقة في بناء الأمة الإسلامية؛ ولذلك سأبين معنى الولاية ودرجاتها كعنصر من عناصر تكوين الأمة الإسلامية:

معنى الولاية:

الولاية جاءت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ومعناها: القيام بأمور الآخرين كلها، والولي هو القائم بأمور غيره[2]. والولاء: هو الحب والتناصر والتحالف. والولاية والولاء معناهما واحد؛ وهو ولاء الفرد المسلم لكل ما جاء من عند الله، عز وجل من أفكار الرسالة الإسلامية، والحب والتعاون والتناصر والتحالف مع كل من يؤمن بهذه الرسالة. والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢ .

(٢) المعجم الوسيط، «مادة ولي» .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «**من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله وعادى في الله، فإنما ينال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا**»(١). وقال ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**»(٢).

ومن المعاني السابقة يتضح أن الولاية مصطلح اجتماعي يعني ولاء الفرد المسلم للأفكار التي جاءت بها الرسالة الإسلامية أكثر من ولائه لنفسه، والمسلم يجسد هذا الولاء من خلال الإسهام مع المسلمين الآخرين في تحويل أفكار الرسالة إلى تطبيقات عملية بين الأفراد الذين يشتركون في الإيمان بهذه الرسالة، وهي تعني أيضًا هيمنة روح الشعور بالمسؤولية في السلوك والعلاقات والحاجات، وقيام الأفراد والمؤسسات برعاية شؤون بعضها بعضًا في ميادين الحياة العامة الدينية والدنيوية، ومن هذه الولاية والرعاية اشتقت مصطلحات أولي الأمر، والولاء، وكل من يحسن هذه الولاية والرعاية ويلتزم فيها بأوامر الله وتوجيهاته. وبذلك يكون ولي الله هو: من يلتزم أوامر الله حق الالتزام في كل شؤون الحياة، وقد جسد جيل الصحابة رضوان الله عليهم رباط الولاء والولاية، فضحوا بأنفسهم وأموالهم لإخراج الناس إلى عدل الإسلام.

درجات الولاية الإيمانية:

لقد جاءت آيات القرآن الكريم والحديث النبوي لتبين درجات الولاية الإيمانية، وهي حسب تسلسلها الإيماني ما يلي:

الدرجة الأولى: ولاية الله للمؤمنين:

وإلى هذه الدرجة أشار القرآن في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى:

---

(١) أبو داود ك السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ج٤/ ٢١٩ ح٤٦٨١) .

(٢) «الطبراني في الكبير» والسيوطي في الصغير ج١/ ١٦٥ رقم (٢٧٧٨) وقال: رواه.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٧ .

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾(١) وغير هذه الآيات. ومعنى ولاية الله للمؤمنين: أنه سبحانه وتعالى يتولى شؤونهم وهدايتهم بإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، ويجنبهم مزالق الانحراف، وينصرهم على الأعداء وسائر أمورهم في الدنيا والآخرة، والمؤمنون يتولون القيام بدعوته ونشرها، والجهاد في سبيلها. وولاية الله هي الأصل الذي يتفرع عنه بقية درجات الولاية، فمن لم يحقق هذه الولاية بينه وبين الله، لا تنفعه مولاة سواه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾(٢). أي: ليس لهم من دون الله ولي يدفع عنهم العذاب والبلاء؛ لأنه سبحانه وتعالى يتولى تصريف شؤونهم. ومن مظاهر هذه الولاية: الاستجابة والانقياد لحكم الله عز وجل وشرعه واتباع أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣). ولقد أكد الله عز وجل في كثير من آيات القرآن مذكرًا المسلمين بتحقيق هذه الولاية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ﴾(٤).

فهذه الآيات الكريمة تبين أن الله عز وجل يريد قلوب المؤمنين خالصة له، وأن تكون العقيدة هي المسيطرة والحاكمة لقلب المؤمن، فلا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ورسوله، فالوشائج والمطامح واللذات كلها في كفة، وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله في الكفة الأخرى، والمسلم مطالب بمجاهدة هذا كله والتجرد لله عز وجل؛ لأن فيه الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) سورة المائدة: الآيتان ٥٥، ٥٦ .

(٢) سورة الرعد: الآية ١١ .

(٣) سورة النور: الآية ٥١ .

(٤) سورة التوبة: الآيتان ٢٣، ٢٤ .

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[١].

الدرجة الثانية: ولاية الرسل للمؤمنين:

وإلى ذلك أشار الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]. وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣]. فالرسل رضوان الله عليهم يتولون المؤمنين بالتربية والتوجيه، والمؤمنون يتولون الرسل بالاستجابة والاتباع والنصرة، وولاية النبي ﷺ على المؤمنين ولاية عامة تشمل رسم مناهج الحياة، وأمر المؤمنين فيها إلى الرسول ﷺ وليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحي من ربه، قال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**[٤]. وتشمل مشاعرهم فيكون شخصه ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، ولا يرغبون بأنفسهم عنه، ولا يكون في قلوبهم شخص مقدم على ذاته ﷺ قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»**[٥]. وقال ﷺ مبينًا ولايته العامة على المؤمنين: **«ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن ترك مالًا فليرثه عصبته من كانوا وإن ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه»**[٦]. والمعنى أنه ﷺ يؤدي عنه دينه إن مات وليس له مال يفي بدينه، والولاية للرسول ﷺ بعد موته تكون باتباع سنته ونشر دعوته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٧].

والدرجة الثالثة: ولاية المؤمنين للمؤمنين:

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٢٠، ٢١ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٨ .

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦ .

(٤) أخرجه البغوي في شرح السنة ج١/ ١٢٣، والخطيب في تاريخ بغداد ج٤/ ٣٦٩ .

(٥) البخاري في(ك) الإيمان (ب) حب الرسول من الإيمان ج١/ ٧٤ رقم (١٤)، ومسلم ج١/ ٦٧ رقم: (٦٩) .

(٦) البخاري في (ك) التفسير (ب) سورة الأحزاب ج٨/ ٣٧٦ رقم ٤٧٨١ ومسلم ج٣/ ١٢٣٧، ١٢٣٨ ح(١٤، ١٦).

(٧) سورة آل عمران: الآية ٣١ .

وأساس هذه الولاية العقيدة، فهي الأساس الذي يبنى عليه الولاء في الإسلام، ومن هذا الأساس: أن المسلم لا يوالي إلا المسلم حيث تجمع بينهما عقيدة التوحيد؛ فإذا اختلفت العقيدة، فلا موالاة ولا تناصر، ولقد بين الله ذلك بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾(١) فهم يتولون إيواء بعضهم بعضًا، ونصرة بعضهم بعضًا، ويأمن بعضهم بعضًا في ميادين الحياة المختلفة، ابتداءً من الأسرة وانتهاءً بجميع المصالح التي لا بد منها لإقامة الرسالة الإسلامية في شتى ميادين الحياة المختلفة. وهذا الولاء يتضمن نصرة المؤمن لأخيه المؤمن، وربط مصيره بمصير المسلمين. ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة فيما بينهم على تحقيق الولاء لله ورسوله علمًا وعملًا وحالًا، ثم والى بعضهم بعضًا على هذا الأساس الإيماني، وقدموا طاعاتهم لقياداتهم على هذا الأساس، لتغير حالهم، وأصبحوا أعزة على الكافرين، ولنا في السلف الصالح رضوان الله عليهم القدوة الحسنة، ومواقفهم في ذلك أكثر من أن تحصى، فهناك موقف أبي عبيدة بن الجراح من أبيه وموقف عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول من أبيه، وموقف مصعب بن عمير من أمه، وغيرها من المواقف الأخرى؛ تلك المواقف التي عظمها الله، وأنزل في شأنها قرآنًا يتلى لبيان أهمية تحقيق الولاية لله عز وجل ولرسوله والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾(٢).

ولقد بين القرآن الكريم الولاية الفاسدة، وهي ولاية غير المؤمنين من الكافرين والمنافقين، والذين لم يكن لهم مكان في ولاية المؤمنين، تكون ولايتهم في الطرف المقابل من الولاية الفاسدة القائمة على نصرة الباطل والدعوة إليه والالتفاف حوله، وهذه الولاية الفاسدة درجتان:

الدرجة الأولى: ولاية الشياطين للكافرين والمنافقين والعصاة:

ومعنى ولاية الشياطين للكافرين والمنافقين والعصاة أي يتولونهم بالإضلال والفساد والاصطدام مع أوامر الله عز وجل وسننه في الحياة، وقد أشار الله عز وجل

---

(١) سورة التوبة: ٧١ .

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢ .

إلى ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾(٢)، وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾(٣).

والشيطان المراد هنا هو الشيطان الإنساني الذي ينحرف عن منهج الله عز وجل، ويتبنى منهجًا مضادًا للمنهج الإسلامي في الفكر والسلوك، ويجعل منه فكرًا، ويكرس حياته وجهوده للدعوة إليه، وليس المراد هنا الشيطان الجني الذي لا يرى ولا يسمع من البشر العاديين؛ وذلك لأنه جاء في معنى قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾(٤) يذكر الإمام الطبري: «أن الشياطين المشار إليهم هم شياطين فارس من المجوس، وأن أولياءهم هم المتمردون من مشركي قريش، فقد أرسلت إلى أوليائها من قريش أن جاهدوا محمدًا وأصحابه حول أكل الميتة وكانوا يسمونها: قتل الله؛ فقالوا: ما قتل الله لا تأكلونه؟ وما قتلتم تأكلون: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾(٥)، وفي رواية أخرى قالوا: أما قتل الصقر والكلب فتأكلونه، وأما قتل الله فلا تأكلونه؟ فوقع في نفوس بعض المسلمين شيئ؛ فأنزل الله الآية ونزلت: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾»(٦).

وهذه الرواية تبين بوضوح أن ظاهرة شياطين الفكر من أعداء الإسلام يثيرون الشبهات حول الإسلام وظاهرة أوليائهم من العرب أو عملائهم- حسب لغة العصر- الذين يشيعون هذه الشبهات هما ظاهرة قديمة وحديثة، فالعرب كانوا ومازالوا يتلقون

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٧ .

(٢) سورة النحل: الآية ٦٣ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٧ .

(٤) سورة الانعام: الآية ١٢١ .

(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٢ .

(٦) التفسير ج٨/ ١٦، ١٧ .

القضايا الفكرية من شياطين الخارج في الماضي من فارس والروم واليوم من الغرب، وقد ركز النبي ﷺ في حديثه النبوي على التحذير من شياطين الإنس وذلك في قوله لأبي ذر: «**هل تعوذت من شياطين الإنس والجن؟**» قال: قلت: يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم شر من شياطين الجن»[١].

وعلى ذلك فإن الشياطين كثيرة، ولكل نوع من أنواع الفكر والثقافة والآداب شياطين يعملون على صرف الأمة الإسلامية عن أداء رسالتها، وهم يتمثلون في القيادات التي تدعو الجماهير إلى اقتفاء أعمالهم المحرمة التي تخالف ما أنزل الله عز وجل من فكر وثقافة ونظام، وقد أورد ذلك الإمام الطبري عند قول الله عز وجل في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[٢] نقل عن المفسرين قولهم عن مكر الليل والنهار؛ أي: مكركم أيها الرؤساء لنا بالليل والنهار أي تدبيركم وتخطيطكم حتى أزلتمونا عن عبادة الله والمنهج المستقيم»[٣].

الدرجة الثانية: ولاية المنافقين والكافرين والعصاة بعضهم لبعض:

وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٥] الكافرون على اختلاف أنواعهم يتعاونون لإقامة الكفر والهيمنة في الأرض لنشر الفتنة والفساد الكبير.

وتبدو أهمية عنصر الولاء في عالم اليوم حينما ترى هذا الضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية بسبب تغير عنصر الولاء فيها عن الإيمان إلى نظم وأوضاع طائفية أو حزبية بعيدًا عن منهج الله عز وجل، بينما ولاء الدول الغربية الحديثة يتحدد في داخل الدولة.

ومن هنا، فإن عناصر بناء الأمة الإسلامية السابقة - وهي: الإيمان بالله،

---

(١) النسائي في (ك) الاستعاذة، (ب) الاستعاذة من شر شياطين الإنس ج٨/ ٢٧٥، وأحمد في المسند ج٥/١٧٨ .

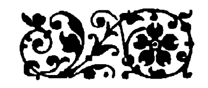
(٢) سورة سبأ: الآية ٣٣

(٣) جامع البيان ج٢٢/ ٩٧، ٩٨ .

(٤) سورة الجاثية: الآية ١٩ .

(٥) سورة الأنفال: الآية ٧٣ .

والهجرة إلى الله عز وجل والرسالة والجهاد والنصرة في سبيل الله - كل هذه العناصر تعطي أمة مسلمة ذات ولاء متبادل تستطيع مواجهة الطغيان، ولا يمكن أن يستمر هذا البناء، في نفس أمة إلا إذا أقيمت المؤسسات العلمية في الأمة لخدمة هذا البناء وهذا ما سأتحدث عنه في الفصل الثاني.



الفصل الثاني
توجيه المؤسسات التربوية في الأمة
لبناء الشخصية المسلمة

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البيت والمسجد ودورهما في بناء الشخصية المسلمة.

المبحث الثاني: التعليم ودوره في بناء الشخصية المسلمة.

المبحث الثالث: الإعلام ودوره في بناء الشخصية المسلمة.





الفصل الثاني
توجيه المؤسسات التربوية في الأمة لبناء الشخصية المسلمة

تمهيــــد:

إن التبعية والانهزام النفسي الذي منيت به الأمة الإسلامية - في ظل الصراع الحضاري مع الحضارة الغربية - فرض عليها تصورات ومفاهيم تلك الحضارة وتلقتها الأمة تلقي الملهوف الذي فقد كل شيء، وقدست الأمة الحضارة الوافدة والتقدم العلمي المادي الذي جاءت به، وظنوا أن سعادتهم وهناءهم بما أنتجت الحضارة الوافدة، وبهر بريق الحضارة المادية عقول الناس في الشرق الإسلامي، فأخذوا منها دون وعي أو تفرقة بين الصالح والطالح، وأقاموا مؤسساتهم ومراكزهم التربوية على نسق الحضارة الغربية، وفكرها المادي الذي يخلو من القيم الإنسانية، ونتج عن ذلك ذوبان الشخصية المسلمة وسط هذا السيل الفكري الموجه، وأصبحت الأمة تعاني من أزمات ومشكلات متراكمة من داخل نفوس أفرادها وفي واقعها الذي تعايشه، وما سبب ذلك إلا لقصور وفشل المناهج التربوية الغربية المتبعة في مؤسسات الأمة الإسلامية التربوية سواء في المدارس أو الجامعات أو أجهزة الإعلام، فهي مناهج عديمة الهدف والغاية، وقد أدى ذلك- فقدان الهدف - إلى تشتت السبل، وتمزيق شمل، الأمة وبالتالي إلى التخلف الحضاري للأمة.

ولقد صور أحد العلماء حال الأمة وضياع هدفها في ظل النظم التربوية الغربية بقوله: «ما مثلنا في ذلك إلا مثل قوم أرادوا سفرًا فاتفقوا على أنواع الأطعمة التي سيحملونها والسيارات التي ستنقلهم، وحين جاوزوا حدودهم اختلفوا على جهة السفر التي لم يحددوها هدفًا لهم، فقال كبارهم: دعونا نلهيهم بإلقاء الكرة فيما بينهم فسيلهون ويتعبون، فإذا استراحوا عدنا لهذا الأسلوب بشكل آخر»[1].

---

(١) معالم التربية ص ٥٣، مرجع سابق.

هذا هو الحال ولا خروج منه إلا بعودة التربية الإسلامية لتوجه المؤسسات التربوية في الأمة لبناء الشخصية المسلمة التي تقود عملية البناء الحضاري المنشود لهذه الأمة، وسوف أتحدث عن ذلك في المباحث التالية:



المبحث الأول
البيت والمسجد
ودورهما في بناء الشخصية المسلمة

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: البيت ودوره.

المطلب الثاني: المسجد ودوره.

المطلب الأول
البيت المسلم
ودوره في بناء الشخصية المسلمة

لا شك أن العناية بالفرد المسلم والاهتمام بتربيته - على الأصول الإسلامية الصحيحة، تلك الأصول التي تجعل كل فرد صورة واضحة للإسلام من حيث السلوك والمعاملة والأخلاق- من أهم عوامل بناء الشخصية المسلمة، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالبيت المسلم ورسالته في ذلك، حيث إنه المعمل الأول المؤثر في تكوين شخصية الإنسان المسلم.

وتتضح هذه العناية من التشريعات التي قررها الإسلام لإقامة البيت المسلم على دعائم إيمانية متينة، تبدأ هذه التشريعات بالأمر بحسن اختيار كل من الزوجين للآخر على أساس الدين والخلق، وخطاب النبي ﷺ لأولياء الأمور واضح، فقد قال ﷺ: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**» قالوا: يا رسول

الله، وإن كان فيه؟ قال: **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه» ثلاث مرات**:[١] وهو ﷺ في ذلك يضع اللبنة الصالحة لإخراج النبات الصالح.

كما كفلت الشريعة الإسلامية قيام الأسرة على رباط شرعي معلن باسم الله- تعالى- فقد قال ﷺ: **«أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف»**[٢]، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه اللفتة الاجتماعية؛ لما في ذلك من حفظ الأنساب، واطمئنان الأب إلى أبنائه، واطمئنان الأبناء إلى أبويهم «وذلك عنصر مهم من عناصر الاستقرار في نفس الطفل إن لم يدركه وهو صغير، فإنه يدركه في مرحلة من مراحل عمره لا محالة، ويدمر كيانه إن لم يستقر على يقين أو كان اليقين على غير ما يحبه ويرضاه»[٣].

وكفلت الشريعة الإسلامية قيام الزوج بكفالة الزوجة كحق لها مقابل قيامها بتكاليف إعداد البيت وتربية الأجيال، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾[٥]، وقال ﷺ: **«اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»**[٦]، وكفلت الشريعة الإسلامية وجود قيادة واحدة بالبيت مسؤولة عن شؤون الأسرة كلها فجعلت القوامة في يد الرجل وهي مسؤولية تدبير المعاش وتوفير الحماية والأمن للبيت وهي تبعات لا تستطيع المرأة أن تقوم بها لأنها تتوقف عن هذه التبعات بحكم

---

(١) أخرجه الترمذي (ك) النكاح، (ب) إذا جاءكم من ترضون دينه ج٢/ ٢٧٤ (ح) (١٠٩٠) والبيهقي (ك) النكاح ج٧/ ٨٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (ك) الصداق، (ب) ما يستحب من إظهار النكاح ج٧/ ٢٨٨ .

(٣) منهج التربية الإسلامية/ محمد قطب ج٢/ ٩٦ ط دار الشروق .

(٤) سورة الطلاق: الآية ٧ .

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٣٣ .

(٦) أخرجه مسلم ك الحج باب حج النبي ﷺ ج٢/ ٨٨٦ .

تكوينها الطبيعي، ولهذا خص الله سبحانه وتعالى الرجل بهذه المسؤولية [١] فقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [٢].

وتوالت التوجيهات الإلهية تدعو إلى توفير أكبر قدر ممكن من الاستقرار للبيت المسلم، لتكون تنشئة الأجيال في أفضل وضع لهم وفي أنسب الظروف ملاءمة لنموهم السوي على الفطرة السليمة، وكانت وسيلة الإسلام في ذلك هي استثارة الروابط المعنوية بين الزوجين، ودعوتهما إلى الإيمان بالله والتعبد بشريعته، واعتبار ما بين الزوجين من شرع الله يتقرب الزوجان إلى الله باحترامه والوفاء به لتحقيق السكن الذي هو مقصود الزواج قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٣]، ثم أوصى كلاً منهما بإحسان المعاملة من جانب والحرص على رباط الزوجية من الانهيار، فيأمر الرجال بحسن المعاشرة قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [٤].

وفي الجانب الآخر يبين للمرأة صورة الصلاح المطلوب منها لحفظ الرباط الأسري وأمنه قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [٥]

---

(١) القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت كما يقول دعاة الحضارة الغربية، وإنما هي تنظيم للأسرة وتوزيع الاختصاصات فيها لتوفير الطمأنينة والسكن والستر والإحصان للنفس الإنسانية بشطريها، ثانيًا: إمداد المجتمع الإنساني بعوامل الامتداد والترقي، وإذا كانت المؤسسات التجارية والصناعية وغيرها لا يوكل أمرها إلا لأكفأ المرشحين لها ممن تخصصوا في هذا الفرع علمًا، ودربوا عليه عمليًا؛ فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة ... إذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأنًا، فأولى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة التي تنتشئ أثمن عناصر الكون وهو العنصر الإنساني . وإذا كان كهنة الحضارة الغربية قد أوحوا إلى أذناب التبعية في الشرق لإثارة المرأة المسلمة على شرع الله فإن الواقع الاجتماعي اليوم يعترف بأن أهم أسباب تشرد الأجيال الحديثة من الشباب وانحرافاتهم هو غياب سيطرة، الأب سواء لطغيان شخصية المرأة عليه داخل الأسرة، أو عدم وجود المجال للرجل صاحب السلطان لتفكك الأسرة وهذا أدى بدوره إلى تفكك الشخصية الإسلامية وإلغاء مقوماتها .

(٢) سورة النساء: الآية ٣٤ .

(٣) سورة الروم: الآية ٢١ .

(٤) سورة النساء: الآية ١٩ .

(٥) سورة النساء: الآية ٣٤ .

وبين الله تعالى الصورة الحقيقية لعمق العلاقة التي تجمع الزوجين فتجعلهما كالإنسان الواحد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1] كما دعا إلى علاج كل بادرة للخلاف قبل أن تصل إلى القطيعة قال تعالى: ﴿وَالَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾[3].

والإسلام يهدف من وراء هذه التشريعات الاستقرار النفسي والعصبي والاجتماعي والاقتصادي، وتهيئة الجو الأسري الصالح لتنشئة الأجيال المقبلة في أفضل وأنسب وضع، فالتربية السليمة تؤتي ثمارها في الجو المستقر لإنشاء جيل على مبادئ الإسلام لحمل مشاعل الحضارة الإسلامية إلى العالم. إلى هذا الحد بلغ اهتمام الإسلام بالنشء المسلم قبل أن يكون شيئًا مذكورًا، بل إن الإسلام حذر من أن تكون ضوابط الهوى وتطلعات النفس هي المحركة للاختيار على حساب الدين، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

ومن البدهي أن يكون الأب والأم مسلمين ليتمكنا من تربية أطفالهما تربية إسلامية، فإذا كان الالتزام بالإسلام سبيلاً لنجاة الرجل والمرأة، فإن هذه النجاة تتوقف على تربية النشء على مبادئ الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4]. ووقاية النفس والأهل لا تتحقق إلا بالتربية الصحيحة على أساس من الشرع الإسلامي وقواعده. وقد عرض القرآن الكريم للأسلوب الواجب اتباعه للبلوغ بالأولاد والأهل طريق الرشاد المطلوب للفلاح في الدنيا والآخرة. وقد جاءت النصوص في القرآن والسنة تأمر أولياء الأمور بإعداد الطفل

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧ .

(٢) سورة النساء: الآيات ٣٤، ٣٥ .

(٣) سورة النساء: الآية ١٢٨ .

(٤) سورة التحريم: الآية ٦ .

بدنيًا وعقليًا وروحيًا حتى يكون عضوًا نافعًا لأهله ولأمته.

ولقد أفرد الإمام الغزالي- رضي الله عنه- جزءًا خاصًا للحقوق التربوية للطفل على أبويه وواجبهما نحو توجيه أبنائهم لتحسين أخلاقهم فقال رحمه الله: «اعلم أن الطريق في رياض الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش ومائل إلى كل ما يمال إليه به، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه عن قرناء السوء»[(١)].

وأوجب أن تكون التربية من أول مراحل الصبي ونشأته - وهي مرحلة الولادة والرضاعة - بألا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي؛ انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث[(٢)].

والمقصود بالإعداد البدني: تهيئة الطفل ليكون سليم الجسم، قوي البنية، قادرًا على مواجهة الصعاب التي تعترضه بعيدًا عن الأمراض والعلل التي تشل حركته، وتعطل نشأته، وقد وضع الإسلام الوسائل الكفيلة لجعل الفرد صحيح البدن، بعيدًا عن الأسقام والعلل، والتي يجب على المربي أن يأخذ بها في التربية. ومنها الحرص على النظافة في البدن والثوب والمكان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[(٣)]، وقال ﷺ: «**إن الله طيب يحب الطيبين، ونظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم**»[(٤)].

وقد أمر الرسول الله ﷺ بنظافة اليد والرأس والعين والثوب، قال ﷺ: «**إذا قام**

---

(١) ،(٢) إحياء علوم الدين/ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ج٣/ ٧٢ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢ .

(٤) أخرجه الترمذي (ك) الأدب (ب) ما جاء في النظافة ج٥/ ١١١ ح(٢٧٩٩) .

أحدكم من نومه فليغسل يده»[١]، وقال أيضًا: «**من كان له شعر فليكرمه»**[٢]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ إثمد يكتحل به عند منامه في كل عين ثلاثًا[٣]. إلى غير ذلك مما جاء عن النبي ﷺ من النصوص التي تحول دون انتشار الأمراض، وتؤدي إلى حفظ الصحة والبدن، وهي عامة في الصغير والكبير.

ومعنى إعداد الفرد عقليًا: أن يهيأ كي يكون سليم التفكير، قادرًا على النظر والتأمل، يستطيع أن يفهم البيئة التي تحيط به ويحسن الحكم على الأشياء، ويمكنه أن ينتفع بتجاربه وتجارب الآخرين، وقد وضع الإسلام الوسائل الكفيلة للوصول إلى ذلك، فأمر باحترام الطاقات البشرية كلها لأنها هبة الله، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٤].

ويرشدنا الإمام الغزالي إلى تدعيم هذه الناحية التربوية العقلية بقوله: «ينبغي حفظ الصبيان عن رداءة الأخلاق من كذب ونميمة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين، وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبًا جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه في التعليم دائمًا يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسًا، وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سنًا».

ومعنى إعداده روحيًا: أن يكون جياش العاطفة: ينبسط للخير ويفرح به ويحرص عليه، وينقبض عن الشر ويضيق به ويفر منه، والإسلام يوجه عناية خاصة لتربية الروح؛ لأنها في نظره مركز الكيان البشري والمهيمن الأكبر على حياة الإنسان،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (ك) الطهارة (ب) الرجل يستيقظ من منامه هل يدخل يده في الإناء ج١/ ٣٨ (ح) ٣٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود (ك) الترجل (ب) في إصلاح الشعر ج٤/ ٣٩٤ (ح) ٤١٦٣.

(٣) أخرجه الترمذي في (ك) الشمائل المحمدية (ب) ما جاء في كحل رسول الله ﷺ، ٤٠ ط ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.

(٤) سورة الملك: الآية ٢٣.

وقد كفل الإسلام الوسائل التي تمكن من الوصول لهذا الإعداد فقد قال ﷺ: «أحبوا الصبيان وارحموهم، فإذا وعدتموهم فوفوا لهم، فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم»(١) فهذا الحديث قد جمع بين الحب - وهو الرباط الروحي الذي يجمع الناس على الخير والرحمة، وهي واحة إنسانية تجمع الناس فتؤكد فيهم نوازع الخير والإنسانية، والوفاء بالوعد وهو ترجمة صادقة للعواطف النبيلة وكلها من سبيل التربية الروحية.

ولأجل أن تتم التربية الإسلامية على الوجه الصحيح لا بد من تحقيق منهج الإسلام وذلك بتخصص الأبوين كل في وظيفته، الأب لتوفير الوسائل والحاجات المادية الأساسية للحياة والتربية، والأم في حضانة واستغلال توجيه قدرات الأطفال وتوزيع الأدوار والمسؤوليات، والتخصص فيها - بالعلم والسلوك مع سلامة الحياة الزوجية من الصراع والتنافر- يحدد للطفل منهجه في الحياة، ويكون لديه روح الإخلاص للحياة الأسرية والصلات الاجتماعية، ويخدم القسمة الطبيعية التي تعين الرجولة، ويمنح الطفل الذكر خصائصها، وتعين الأنوثة وتمنح الطفل الأنثى خصائصها من خلال الاقتداء والتأسي بالأبوين، وتذوق طعم الأسرة السليمة(٢). فالإسلام يضع على عاتق الأسرة التربية الدينية المثلى للطفل في مختلف مراحل الحياة فالإسلام عندما أعطى للوالدين الوصاية على أبنائهم والإشراف على تربيتهم لم يكن يحاول من قريب أو بعيد أن يحطم نفس الولد داخل نفسه فيعيش ليفكر له أبواه وينظما له حياته ويرعيا شؤونه ويعملا من أجل مستقبله ليعيش عالة عليهما، بل كان ما يهدف إليه الإسلام هو مراقبة سلوك الولد حتى لا يسطو عليه الشر، أو تتذبذب شخصيته في الحياة. فالوصاية هي التعهد له والقيام على أمره من بعيد، ولقد صدق القائل: لاعب ولدك سبعًا، وأدبه سبعًا، وصاحبه سبعًا، ثم اجعل حبله على غاربه.

فالتربية على الأخلاق الفاضلة والشمائل الكريمة والشجاعة الأدبية تنشئ الطفل المسلم تنشئة سوية، وتجعله قادرًا على مواجهة ما يعترضه من مشكلات. ومن وسائل ذلك تشجيعهم على إبداء الرأي، وبث روح الرجولة فيهم، وإحضارهم مجالس الكبار، وتعليمهم آداب مجالسة الكبار، وضرورة توقير الأصغر للأكبر إلى غير ذلك من الوسائل المعينة على إيجاد هذا الخلق الكريم.

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣/ ٧٣ .

(٢) محاضرات في النظم الإسلامية د. عمارة نجيب ص ١١٥ .

وفي هذا الصدد أذكر موقفين لعمر بن الخطاب: الأول مع ابنه عبدالله، والثاني مع عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهم. أما الموقف الأول فيقول عبدالله بن عمر : قال رسول الله ﷺ: **«إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟»** فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبدالله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال: «هي النخلة».

قال عبدالله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: ألا تكون قلتها أحب إلي من يكون لي كذا وكذا[١].

فهذا عبدالله بن عمر يحضر مجالس الكبار، ويوقرهم فلا يتقدم عليهم بكلام، ثم يشجعه أبوه هذا التشجيع القوي.

أما الموقف الثاني، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر يومًا في طريق من طرق المدينة، وأطفال يلعبون، وفيهم عبدالله بن الزبير، وهو صبي يلعب، ففر الصبيان هيبة من عمر، ووقف عبدالله ساكتًا لم يهرب، فلما وصل إليه عمر، قال له: لِمَ لَمْ تفرَّ كما فر أصحابك؟ فقال: لست جبانًا فأفرَّ منك، وليس في الطريق ضيق فأوسعَ لك[٢]. فسر عمر بهذا الجواب السديد الجريء، وبهذه الشجاعة الأدبية الرائعة، والصبي إذا وجد من يشجعه على هذه الصفات الكريمة حتى يشب عليها، فإنها تلازمه طول حياته.

ولقد رسم القرآن الكريم صورة مثلى للتربية الحقة التي تجمع كل أركان التربية الإسلامية التي جعلها الله عز وجل من أوجب الواجبات المفروضة على الوالدين تجاه أبنائهم لتنشئتهم التنشئة الصالحة، ليكونوا لبنات البناء في المجتمع الإسلامي في سورة لقمان من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[٣].

فهذه الآيات تضمنت قواعد التربية الإسلامية الصحيحة، والأخذ بالأهم فالمهم في خطوات ومراحل متتابعة ومتكاملة لا انفصال بينها.

---

(١) أخرجه البخاري في (ك) العلم (ب) قول المحدث حدثنا/ فتح ج١/ ١٤٥ ح (٦١) .

(٢) أخبار الأذكياء، أبو الفرج بن الجوزي، ١٩٩ ط المكتبة السلفية بدون تاريخ.

(٣) سورة لقمان: الآية ١٣ - ١٩ .

فقد تناولت أولاً غرس العقيدة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾(١) ثم بعد ذلك يبين الرابطة بين الوالد والأولاد في أسلوب رقيق في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾(٢). وبعد ذلك تأتي الآيات لتقرير الإيمان بالآخرة وما فيها من حساب وعقاب، في نفس الوقت تثري في النفس مراقبة الله عز وجل اللطيف الخبير بخفايا العيوب، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾(٣).

وبعد ذلك كانت الإشارة إلى تطبيق العقيدة في سلوك علمي يتمثل في التوجه إلى الله بالصلاة، وإلى الناس بالدعوة، والصبر على تكاليفها ومتاعبها، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾(٤).

ثم تبين الآيات الجانب الأخلاقي التربوي الذي ينبغي على المسلم أن يتحلى به ويربي أولاده عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾(٥).

وهكذا يضع الإسلام العبء الأكبر على البيت في بناء الشخصية المسلمة وتقويم سلوكها حتى تستطيع القيام بواجبات الرسالة الإسلامية وتحقيق غاية وجوده في الكون.

ولا شك أن مسؤولية بناء الشخصية المسلمة لا يقتصر على البيت وحده، وإنما هو أمر تشترك فيه المؤسسات الاجتماعية والإعلامية ومنها التعليمية مع البيت في غرس هذه القيم والفضائل التي تعين على تحمل المسؤوليات والقيام بالواجب، ويأتي المسجد بعد البيت في بناء الشخصية المسلمة، والحديث عنه في المطلب التالي.

---

(١) سورة لقمان: اللية ١٣ .

(٢) سورة لقمان: الآية ١٤ .

(٣) سورة لقمان: الآية ١٦ .

(٤) سورة لقمان: الآية ١٧ .

(٥) سورة لقمان: الآيتان ١٨ - ١٩ .

المطلب الثاني
المسجد ودوره في بناء الشخصية المسلمة

يأتي دور المسجد بعد البيت في بناء الشخصية المسلمة ويستمر معه في نفس الوقت؛ وذلك لأن حاجة الأمة إلى المسجد نابعة من حاجتها إلى العقيدة والتمسك بالمثل والأخلاق والقيم، والالتزام بالشرع وأحكامه، واستقامتهم على العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى، وهذا كله لا يتم بعيدًا عن المسجد، كما أن حاجة الأمة إلى المسجد لا تقل أهمية عن حاجتها إلى الإسلام نفسه؛ ذلك لأن المجتمع إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد.

أهمية المسجد:

وللمسجد أهمية تربوية خاصة بين المسلمين؛ ذلك لأن شيوع الإخوة والمحبة بين المسلمين لا يمكن أن تتم إلا في المسجد؛ ذلك أن تلاقي المسلمين يوميًّا خمس مرات في المسجد يسقط من بينهم فوارق الجاه والمال والاعتبار.

وإن من نظام الإسلام وآدابه: أن تشيع روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين في مختلف شؤونهم وأحوالهم، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن تتم ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفًّا واحدًا بين يدي الله عز وجل، كما أن من نظام الإسلام وآدابه أن ينصهر شتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه. ولكن ما لم تقم في أنحاء المجتمع الإسلامي مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بها عن معرفة وعلم، فإن وحدتهم تؤول إلى شتات، فمن أجل تحقيق هذه المعاني في المجتمع الإسلامي كان أول عمل بادر إليه النبي ﷺ بناء المسجد بعد هجرته إلى المدينة.

وإذا كان من أهم واجبات البيت المسلم أن ينشئ أجيالاً صالحة لحمل الرسالة وتربيتهم التربية التي تمكنهم في المستقبل أن يكون كل منهم بيتًا إسلاميًّا يعرف أفراده

طريقهم إلى ربهم وكل ما يصلح دنياهم وآخرتهم، وقد جعل الإسلام ذلك فريضة لازمة على البيوت في أن تربي أبناءها تربية إسلامية، والأمة لا تستطيع أن تحقق ذلك بعيدًا عن المسجد، فالمسجد يشارك في ذلك مشاركة إيجابية عن طريق الدروس التي تؤكد ما تلقوه في البيوت من أمور التربية، وما تعجز عنه البيوت وخاصة في كبرهم، ولذلك كله، فإن الارتباط بين البيت والمسجد ارتباط وثيق لا يمكن أن يستغنى أحدهما عن الآخر لبناء الشخصية المسلمة السوية.

فالمسجد يصقل شخصية المسلم، ويرفع عنها ما قد يعلق بها من عيوب اجتماعية وتيارات فكرية وافدة تشوش على المسلم أمر دينه وعقائده، ومن أجل ذلك كانت حاجة الأمة فردًا وجماعة وحكامًا وقادة إلى المساجد شديدة؛ ولذلك فقد كان المسجد بمثابة الخلية الأولى لبناء الأسرة وتكوين الجماعات الصالحة لإقامة مجتمع إسلامي متكامل يصهر المسلمين جميعًا في وحدة فكرية واحدة من خلال الأعمال التعبدية والأنشطة العلمية والاجتماعية والجهاد به. ومن هنا يغدو المسجد للمسلمين جميعًا ضرورة دينية وسياسية واجتماعية وحضارية.

ومن أجل ذلك: نجد أن القرآن الكريم والسنة النبوية بينا الرسالة الشاملة والأهمية الكبرى للمسجد في حياة الأمة.

فالقرآن الكريم يذكر: أن المساجد مقر إعلان العبودية والإخلاص لله؛ كما أنها مرفوعة لأداء الشعائر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٢].

وهي معمورة بإيمان المؤمنين وعبادتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٩ .

(٢) سورة النور: الآيتان ٣٦-٣٧ .

(٣) سورة التوبة: الآية ١٨ .

وجاءت السنة النبوية، فبينت أن المساجد أحب بقاع الأرض إلى الله سبحانه وتعالى، وهي قلعة الإيمان، وحصن الفضيلة، ومعى المدرسة الأولى التي يتخرج منها المسلم فقد روى أبو واقد الليثي رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد، فأقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله، وذهب واحد. فأما أحدهما، فرأى فرجة فجلس؛ وأما الآخر، فجلس خلفهم. فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن الثلاثة. أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله وأما الآخر فاستحى الله منه. وأما الآخر، فأعرض فأعرض الله عنه»**[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»**[2]. وبينت السنة أن المسجد مكان اجتماع المسلمين يوميًا، ومركز مؤتمراتهم، ومحل تشاورهم وتناصحهم، والمنتدى الذي فيه يتعارفون ويتآلفون، ومنه خرجت جيوشهم، وإليها يرجع المسافر أول ما يرجع، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان لا يقدم من سفر إلا نهارًا في الضحى؛ فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه[3].

ويقول ابن تيمية عن المساجد: «وكانت مواضع الأئمة هي المساجد، فإن النبي ﷺ أسس مسجده المبارك على التقوى، ففيه الصلاة والقراءة والذكر والعلم، والسياسية، وفيه يجتمع المسلمون لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم»[4].

ولقد كان التعليم من أهم وظائف المسجد في عهد الرسول ﷺ وصحابته من بعده والتابعين، ولم يقتصر التعليم في المسجد على ما كان عليه في عهد الرسول وخلفائه، وإنما شكل كل المعارف الإنسانية.

ومن هذا التاريخ يتبين كيف كان المسجد من أهم الدعائم التي قام عليها تكوين

---

(١) أخرجه البخاري في (ك) الصلاة، (ب) الحلق والجلوس في المسجد/ فتح ج١/ ٥٦٢، ح(٤٧٤).

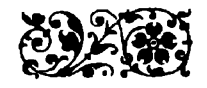
(٢) أخرجه مسلم في (ك) المساجد ومواضع الصلاة، (ب) فضل الجلوس في مصلاه بعد الصلاة، شرح النووي ج٥/ ١٧١ ح(٦٧١).

(٣) أخرجه مسلم في (ك) صلاة المسافرين، (ب) استحباب ركعتين في المسجد لمن قدم من سفر، شرح النووي ج٥/ ٢٢٧ ح(٧١٦).

(٤) الفتاوى ج٣٥/ ٣٩-٤٠.

الفرد وبناء المجتمع في جميع العصور، فتخرج منه العالم والسياسي والمجاهد والطبيب والمهندس والفقيه والمؤرخ والرياضي والكيمائي وغيرهم من مختلف علوم الدنيا وتخصصاتها مما سبق ذكره(١).

ولهذا الدور الأساسي للمسجد في بناء الشخصية الإسلامية الفذة التي صنعت الحضارة الإسلامية كانت مؤامرات أعداء الإسلام على المسجد لإقصائه عن رسالته والقيام بدوره، فحاربوه في كل شيء، بدءًا من بنائه، وانتهاءً بخطبائه وأئمته بمختلف وسائل الحرب الفكرية والمادية والمعنوية، ومازالت الحرب مستمرة؛ لأن الصراع قائم إلى أن تقوم الساعة، وكانت النتيجة هي غربة الإسلام ومبادئه، وضياع شخصية المسلم، وضعف التمسك بالدين، وانساق غالبية المسلمين للفكر الغربي المخالف لمبادئ الإسلام، ولا سبيل للنهوض بالأمة من هذه الكبوة الحضارية إلا بإعادة المسجد لدوره الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.



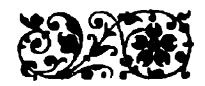
(١) انظر المبحث الثالث من الفصل الثاني في الباب الأول .

المبحث الثاني
التعليم ودوره في بناء الشخصية المسلمة

ويشتمل على تمهيد ومطلبتن:

المطلب الأول: النظرية التى يقوم عليها التعليم فى نظام الإسلام.

المطلب الثانى: منهج التعليم الإسلامى وأثره فى بناء الشخصية المسلمه.



المبحث الثاني
التعليم ودوره في بناء الشخصية المسلمة

تمهيـــــد:

لقد نشأ التعليم من أقطار العالم الإسلامي نشأة كان التعليم الديني فيها هو نقطة الارتكاز لباقي أنواع التعليم، حيث كانت له حلقات ومدارس اتخذت من المسجد منطلقًا ومقرًا، وكانت مناهج التعليم شاملة لمختلف العلوم الدينية والدنيوية حتى دقت نواقيس الحضارة الأوروبية بلاد العالم الإسلامي الذي كان في فترة رقود وتخلف وجمود، وجلبت معها العلم الأوروبى الذي أبهر المسلمين بما حققه، وأقبلت عليه غالبية ديار المسلمين، ومن هنا بدأ صراع بين أسلوب التعليم القديم، وبين الأساليب الحديثة، وأنشئت مدارس لهذا النوع الجديد من التعليم الحديث أو المدني كما يعرف، وتوسع الاستعمار في فترة الاحتلال المباشر في إنشاء المدارس المدنية، وعمل على تطويرها وتحديثها في حين بقيت معاهد التعليم الديني كما هي، وبذلك فقد ازدهارها.

وعملية الفصل في التعليم ما بين ديني ومدني عملية غربية نابعة من نظرتهم إلى العداء بين الدين والعلم، في حين أن الإسلام لم يعرف هذه التفرقة، وليس في تاريخه ما يدعو إلى الفصل بينهما؛ وذلك لأن التخصص الشرعي لا يمنع من الإلمام بالعلوم العلمية، كما أن التخصص العلمي لا يخلو من الدراسة الدينية، وكلا الفريقين محتاج إلى الآخر، وهو حاجة الدين للدنيا، وحاجة الدنيا للدين.

والاستعمار استغل فترة التخلف والركود العلمي التي مرت بها الأمة الإسلامية، وفصل بين الناحيتين، وسيطر على التعليم ونظمه في البلاد الإسلامية، وأقام تعليمًا علمانيًا قائمًا على الفصل بين العلم والدين، فتطبع التعليم بالطابع المادي للحضارة الغربية، وتولى شؤون التعليم بعد رحيل الاستعمار قيادات علمانية تخرجت من الجامعات الأوروبية، وكانت الحصيلة أن نشأت أجيال من المسلمين في أحضان هذه المدارس والجامعات منسلخة عن الإسلام جاهلة به، وتسخر منه وتعاديه دون أن

تعرف عنه وعن رجالاته الكثير ولا القليل، ومتعلقة برجال التاريخ الأوروبى من «أرسطو، وروسو، وسارتر، وماركس»، ومعظمة لقادة الفتوح السياسية الأوروبية من أمثال «بونابرت، وجورج، واشنطون»، وتعرف هذه الأجيال الكثير عنهم بقدر ما تجهل عن ماضي أمة الإسلام وحاضرهم وتراثها ورجال التاريخ الإسلامي.

وكانت الطامة الكبرى في هذه الأيام هي خروج أستاذ جامعي من هذه القيادات العلمانية، ويتولى رئاسة أحد معاقل الثقافة في مصر ليقول بأن القرآن الكريم تراث قديم ينبغي أن يجدد بأسلوب يوافق روح العصر. بل إن الإسلام نفسه في أذهان قادة التعليم العلماني عائق يحول دون التقدم الحضاري الذي وصل إليه الغرب. فكما أن الغرب لم يبلغ هدفه إلا بعد صراع عنيف مع الدين النصراني حتى تمكن من حصره داخل الكنيسة، وإبعاده عن التعليم والمجتمع والحكم، فإن الشرق لن يتمكن من النهضة إلا بحصر الإسلام داخل جدران المسجد، وبذلك ينفتح الطريق أمام التقدم والرقي، هذا هو فكر القيادات التي توجه التعليم ومناهجه في البلاد الإسلامية؛ ولذلك جاءت المناهج فارغة من أي محتوى علمي. وكانت النتيجة: أن خرجت أجيال لا تعرف شيئًا، وإنما كله تقليد ومحاكاة للحضارة الغربية حتى سلخت الأمة من دينها، وبفقدان الدين فقدت كل شيء.

فإذا أريد لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها الحضارية الراهنة، فلا بد من أن يكون التعليم نابعًا من عقيدتها وديانتها الإسلامية ومنهج الإسلام في التربية، وسوف أتحدث عن ذلك في مطلبين:

الأول: النظرية التي يقوم عليها التعليم في نظام الإسلام.

الثاني: منهج التعليم الإسلامى وأثره فى بناء الشخصية المسلمه.



المطلب الأول
النظرية التي يقوم عليها التعليم في نظام الإسلام

تقوم النظرية الإسلامية في التعليم على أساس التربية الإسلامية؛ ذلك لأن التربية عامة هي مدخل التعليم وأساسه، ومهمة التربية بالنسبة للتعليم هي صياغة الأفراد صياغة نفسية وخلقية وسلوكية وعقدية معينة، ليصبح هذا الفرد وعاء صالحًا وحافظًا للمادة العلمية التي يحولها فيما بعد إلى عمل منتج فعال مثمر، والفصل بين التربية والتعليم هو السبب في هذا الإنتاج العلمي الذي يستخدم في تدمير الأرض وكيان الإنسان. فما هي قيمة العلم أو العالم إذا كان يستمرئ الباطل ويزيف الحقائق، وكان العالم كاذبًا خئونًا يدعو إلى الرذيلة التي تأباها فطرة الإنسان.

فالفصل بين التربية يفقد التعليم أهدافه التربوية، ويتحول العلم إلى أداة هدامة تخرب البلاد والعباد، ولذلك فإن النظرية الإسلامية للتعليم في النظام الإسلامي تقوم على أساس التربية الإسلامية. فما هي هذه التربية وأسسها وأهدافها، ومنهجها وأساليبها ووسائلها؟

أولا: التربية الإسلامية:

تعرف التربية الإسلامية بأنها النظام التربوي القائم على الإسلام بمعناه الشامل. ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن المعرفة الإنسانية بدأت بتعليم من الله سبحانه وتعالى، حيث علم آدم الأسماء كلها، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1] ثم ورث آدم عليه السلام هذا العلم لأبنائه، ثم لبني البشر جيلًا بعد جيل، ضاع منه ما ضاع، وأضيف إليه ما أضيف من تجارب المجتمعات وخبراتهم من ممارسة الحياة. وتوالت على البشرية أزمان ودهور ما بين ازدهار وأُفول حتى أنعم الله على البشرية برسول الإسلام ﷺ ورسالته الشاملة للناس كافة، وبقي القرآن الكريم مصدرًا للهداية الربانية للناس كافة.

ومن ذلك يتضح أن الإيمان أصل سابق على الكفر، والعلم سابق على الجهل،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣١ .

وليس كما يقول علماء دراسة التاريخ الإنساني بأن الإنسان تطور من الكفر إلى الإيمان ومن الجهل إلى العلم؛ لأن الله أرسل الأنبياء لتعليم الناس وتربيتهم وهدايتهم إلى الله عز وجل فقد قال ﷺ: «إنما بعثت معلما»[١].

ولقد ثبت في التاريخ الإسلامي أن النبي ﷺ ركز على التربية الفردية والجماعية، وأمر بتعليم القراءة والكتابة، وجعل من مسجده في المدينة المنورة مركزًا من مراكز العلم والنور، وظل المسلمون على مدى التاريخ في عزة ومنعة بالعلم والتعليم لتطبيقهم المنهج القرآني في الدعوة، والاستفادة من العقل والكون بدءًا من قول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[٢] وانتهاء بحديث النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٣].

والإسلام بطبيعته يفرض على الأمة أن تكون مثقفة مدركة واعية؛ لأنه لا يتم فهم المسلم لدينه إلا بفهمه للقرآن الكريم والسنة المطهرة، ولا يمكن أن يتم ذلك بغير علم وفهم ودراسة وتمحيص، وبغير تعليم وتربية وتدريب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[٤].

قال القرطبي: قد أجمع العلماء على أن العلم منه ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع[٥]. وعلى ذلك فقد شغف المسلمون بتعلم العلم ونشره في كل مكان حلوا به، واعتبروه الوسيلة الرئيسية لنشر الدعوة، وأسسوا للتربية مراكز وقواعد ونظمًا ومناهج، وكتبوا في آداب العالم والمتعلم وأخلاق وكل منهما. وقد ساعد النظام التربوي الإسلامي هذا على ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها على مدى اثنى عشر قرنًا من الزمان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (ك) السنن في المقدمة (ب) فضل العلماء والحث على طلب العلم ج١/١٩٨٣ (ح) ٢٢٩ .

(٢) سورة العلق: الآيات ١ - ٥ .

(٣) أخرجه مسلم (ك) الوصية (ب) ما يلحق الإنسان من الثواب والعقاب ج٣/ ١٢٥٥ .

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٢ .

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ج٤/ ٣٢٢٠، ٣٢٢١ .

ثانيا: الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية:

١- تقوم التربية الإسلامية على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان والكون والحياة، ومعنى العقيدة، فهي تقوم على أساس الإيمان بالله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى الخالق لكل ما في الكون، وأنه سبحانه وتعالى مدبره ومصرفه وقائم على آثاره، كما تقوم على الالتزام بالعمل الصالح والتعاون عليه والتعرف على الحق والتواصي به، وبناء الإنسان بناء متكاملاً يقوم على تأديب النفس وتصفية الروح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسد حتى يصل إلى الكمال الإنساني المتسامي بصورة عامة في إطار من القيم والأخلاق التي ينشأ عليها ويعود على التعامل بها. فهي تتلخص في قول الله عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[١].

ولما كانت التربية نظامًا اجتماعيًا ينبع من عقيدة الأمة وفلسفتها في الحياة، ويقوم على إبراز تلك العقيدة والفلسفة إلى الوجود بغرسها في عقول ونفوس أبنائها، فإن فلسفة التربية الإسلامية هي فلسفة الإسلام القائمة على أساس أن هذا العالم المادي ليس كل شيء، وأن هذه الحياة ليست نهاية المطاف، فوراء هذا العالم المادي غيب لا نستطيع بحواسنا أن نشق حجبه، ومن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى سيبعث لها الإنسان بعد الموت، والإنسان لم يوجد نفسه بنفسه، كما لم توجده الجمادات؛ لأنه عاقل ولا عقل لها، بل أوجده وأوجد الكون كله بمن فيه وما فيه إله واحد لا شريك له الذي يرعى هذا الوجود[٢].

٢- كما تقوم فلسفة التربية الإسلامية على التوحد في ذات الإنسان بين جسده وروحه، وما يربطهما من قيم وأخلاق، وبين عقله وعاطفته وما يحكمهما من علة وحكمة، وبين عقيدته وإيمانه وما يصدقهما من عمله، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهي تراعي مكونات هذا الإنسان؛ فتربط بين الفرد والمجتمع من جهة، وبينه

---

(١) سورة العصر.

(٢) أزمة التعليم وحلولها الإسلامية/ زغلول راغب النجار ص ١٣١، ١٣٢، ط١/ ١٩٩٠م ومنهج التربية الإسلامية/ محمد قطب ج١/ ١٨ .

وبين الوجود كله من جهة أخرى، وبين الوجود وخالقه، فالتربية الإسلامية شاملة فلا تترك جزئية إلا ويكون لها إزاءها تصور وحكم(١).

٣- كما تقوم على الدعوة إلى التسامي باستمرار، وإلى ارتفاع الإنسان إلى المثل الأعلى، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا في أطر سلوكية أخلاقية محددة، ومن خلال محاسبة النفس وإحياء الضمير الديني في الإنسان. ويكفي في ذلك أن يراجع الإنسان في نصوص القرآن والسنة ما يؤكد على ضرورة محاسبة النفس قبل أن تحاسب، وعلى أن الله تعالى رقيب على كل شيء، قائم على كل نفس بما كسبت، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذه المحاسبة في الإسلام تسير بالإنسان دائمًا نحو الأفضل والأكمل(٢).

٤- وتقوم التربية الإسلامية على أساس أن مصادر المعرفة الإنسانية هي الوحي السماوي المنزل، والعلم الفردي أو الجماعي المكتسب، والتراث البشري الموروث في كل من هذين المجالين. وعلى هذا، فإن التربية لا بد أن تستمد منهجها ومحتواها من هذه المصادر الثلاثة، وإن الوسيلة إلى العلم السماوي: الرسل والأنبياء وما أرسلوا به من تشريعات سماوية جاءت لتعليم الإنسان العلم الذي لا يمكن له أن يكتسبه بنفسه.

وآخر الرسالات هي رسالة سيدنا محمد ﷺ، الذي جعله الله عز وجل خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل معجزته القرآن، وتعهد بحفظه، وبقي سليمًا من التحريف والتبديل والضياع، بينما حرفت الكتب السماوية السابقة. ومن هنا، فإن التربية الإسلامية تقوم على القرآن وهديه وتعاليم الرسول ﷺ وسنته(٣)؛ ولذلك فإن اهتمام السلف الصالح رضوان الله عليهم بتحفيظ أبنائهم القرآن في سن مبكرة، كان عملاً أساسيًا في تربيتهم. وقد قال ابن خلدون في ذلك: «اعلم أن تعلم الولدان للقرآن شعيرة من شعائر الدين، أخذ به أهل مكة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم؛ لما

(١) معالم في التربية ص ١١٩، مرجع سابق .

(٢) أزمة التعليم وحلولها الإسلامية/ ١٣٤، مرجع سابق .

(٣) التطوير/ علي أحمد لبن، وجمال الدين عبد الهادي ص ١٦٩ . مرجع سابق .

يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات»(١).

٥- إن العلوم الكونية أساس متين في منهج التربية الإسلامية؛ لأن تعرف الإنسان على الكون ضرورة من ضروريات وجوده؛ لأنه بذلك يتعرف على خصائص المادة والطاقة والأحياء ليصل إلى نواميس الله في الكون، والتعرف على الخير المادي ليستفيد منه لسد حاجاته وحاجات بني جنسه وليصل من وراء ذلك كله إلى تعميق إيمانه بالله، ولتحقيق معنى الخلافة التي خصه الله بها دون سائر خلقه. وعلى ذلك، فالتربية في الإسلام يقترن فيها العلم بالإيمان والمعرفة باليقين، وكلها من وسائل التعرف على الله عز وجل وعلى بديع خلقه، حتى يستطيع الإنسان أن يقوم بواجب الخلافة في الأرض ويحقق رسالته في الحياة (٢).

٦- كما تقوم التربية الإسلامية على أساس أن العلم النافع يصدقه العمل النافع، كما أن الإيمان الصادق مقرون بالعمل الصالح، وعلى ذلك، فإن التربية في الإسلام ممارسة فعلية تتجسد فيها كل القيم والأخلاق والحكمة التي تقوم عليها، وتتحقق فيها القدوة الحسنة في المربي، والاتباع الفطن في المتربي، ولذلك نجد النبي ﷺ يوصي عبدالله بن عمر رضي الله عنهما بقوله: **«دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا، لأن الذين استقاموا قد اقتنعوا عن عقل»**(٣).

والقرآن الكريم ينكر الأمر بالبر وعدم تطبيقه، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٤) وكان الرسول ﷺ يستعيذ من علم لا ينفع، قال ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع»**(٥). وقوله ﷺ: **«إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة**

---

(١) المقدمة ص ٤٤٧، مرجع سابق.

(٢) انظر: منهج التربية الإسلامية/ محمد قطب ص ٩٠- ٩٦ بتصرف واختصار.

(٣) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ج١/ ١٣٠ رقم: (١١٨٦).

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٤.

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٥/ ٣٤٥، وابن أبي شيبة في المصنف ج١٠/ ١٩٤.

عالمًا لا ينفعه الله بعلمه»(١).

هذه هي فلسفة أو أسس التربية الإسلامية التي على أساسها يقوم التعليم في النظام الإسلامي.

والتربية الإسلامية تستهدف بناء الإنسان الصالح، وتستهدف التربية الإسلامية بناءه إنسان لا يفرق بين البشر انطلاقًا من قول النبي ﷺ «كلكم لآدم، وآدم من تراب».

كذلك تهدف التربية الإسلامية إلى الصلاح الذي يشمل كل الجوانب المادية والمعنوية في الكون: من إيمان وعمل صالح، وعلم نافع، وخلق قويم، وانعكاس ذلك كله على الحياة والأفراد والمجتمعات أيًا كانوا، فهو إنسان يعرف ربه فيدين له بالطاعة والعبادة، ويعرف نفسه فيقدرها في حدود العبودية لله، ويعرف رسالته، فيعمل على إعمار الحياة في ظل حكم الله وشريعته وهداه، ويعرف مصيره بعد الحياة. موت ثم بعث ثم حساب عن كل ما قدمت يداه، وهذا الإنسان قد تحقق في ظل شريعة الإسلام تربيه وتعلمه كيف يسير في الحياة، فعلى أسس التربية الإسلامية وأهدافها يقوم المنهج الإسلامي في التعليم، وهو ما أتحدث عنه في المطلب الثاني.

المطلب الثاني
منهج التعليم الإسلامي
وأثره في بناء الشخصية المسلمة

إذا كان التعليم في النظام الإسلامي يقوم في أساسه على التربية الإسلامية، فإن السياسة التعليمية لا بد أن تتماشى جنبًا إلى جنب مع التربية الإسلامية لإبراز شخصية الأمة الإسلامية في المحيط الدولي.

فمن البديهي أن نمو أمة ما وارتقاءها يتوقف على عوامل كثيرة؛ فأول هذه العوامل استغلال الطاقات الكونية الظاهرة والباطنة استغلالاً تامًا، وثانيها: الاستفادة من الوقت استفادة تامة، وثالثها: وجود الإنسان المختص الماهر في اختصاصه،

(١) أخرجه ابن عبدالبر في (ب) ذكر استعاذة رسول الله ﷺ من علم لا ينفع ج١٠/١٦١، ط دار الفتح .

ورابعها: كفاية الاختصاصات لكل حاجات الأمة، وخامسها: حكم يؤمن الاستقرار. وعلى مقدار نمو هذه الجوانب تكاملاً يكون رقي مدنية ما، وبمقدار ضمور هذه الجوانب أو بعضها يكون ضمور مدنية ما.

وإذا كان فقهاء المسلمين قد اعتبروا أن كل علم تحتاجه الأمة الإسلامية فرض كفاية، إذا لم تقم به الأمة ببعض أفرادها أثمت جميعًا حتى قالوا: لو احتاج المسلمون إلى صناعة إبرة ولم يوجد بين المسلمين من يحسن صناعتها فكل المسلمين: آثمون، وقالوا: إن فرض الكفاية من العلم، فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، وقالوا: إن فرض الكفاية يتناول ما هو ديني كصلاة الجنازة، ودنيوي كالصنائع المحتاج إليها.

وعلى أساس هذه الأصول، لا بد أن تسير السياسة التعليمية في الأمة بأساسها التربوي لإيجاد متخصصين في كل جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، ومن هنا يمكن تصور منهجية[(١)] تعليمية إسلامية نابعة من الأسس والأصول السابقة، وهذا التصور بمثابة برنامج في تربية الإنسان لتحقيق الغاية المنشودة منه تجاه رسالته، وتجسيد أركان رسالته الإسلامية التي تقوم التربية الإسلامية على أساسها، لتكون واقعًا حيًا يتحرك بين الناس. كما يتصوره الباحث يتمثل فيما يلي:

أولا: الاهتمام بالتربية قبل المدرسة:

تتميز التربية الإسلامية بأنها في أساسها تربية إنسانية، تدرك قيمة الإنسان وتجعله من حيث هو محور العملية التربوية وهدفها وغايتها، ولما كان الإنسان لا يخضع في سلوكه لتكوينه الداخلي وصفاته الموروثة فقط، يخضع أيضًا إلى العوامل الخارجية في بيئته المحيطة به يؤثر فيها وتؤثر فيه فإن التربية الإسلامية لا تقصر اهتماماتها في إطار المعهد التعليمي فحسب، وإنما توجهها إلى الإنسان من لحظة ميلاده إلى نهاية عمره، بل اهتمت به قبل مجيئه إلى هذه الدنيا. وقد فصلت ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل.

---

(١) أردت استخدام لفظ منهجية؛ لأنه غير المنهاج، وإن كان أصلها اللغوي واحدًا هو الطريق المستقيم، فالمنهاج في التربية قد قصر على مجموع الموضوعات التي تختار في كل مادة من جهة النوع والكم، أما المنهجية فتشمل الطرق التي تتبع في تربية الإنسان أسسًا ومستوى وخططًا وأساليب ووسائل، فهي أشمل وأكمل من المنهاج .

ثانيا: الاهتمام بمراكز تحفيظ القرآن الكريم، والعمل على نشرها في مختلف المجتمعات الإسلامية مهما صغرت، ويمكن إلحاقها بالمسجد، كما يمكن التخطيط لها لتجمع بين ما يعرف اليوم بمرحلة رياض الأطفال (الحضانة) والمدرسة الابتدائية.

ولقد استطاعت هذه المراكز على اختلاف مسمياتها تخريج أجيال رائدة من المسلمين في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، جمعوا إلى حفظ القرآن ثقافة العصر وعلومه، فالقرآن يضفى على حافظه من فقه فى الدين، وتمكن في اللغة، وسعة في الإدراك، والسبب في تدني مستوى الخريجين في العالم الإسلامي اليوم - بصفه عامة في اللغة والثقافة والفكر والعقيدة والسلوك والقيم والقدرة على مواجهة تحديات العصر والصمود في وجهها - ليس إلا نتيجة من نتائج حرمانهم من الثقافة القرآنية في الصغر وتقليص مراكز تحفيظ القرآن الكريم، فإذا أريد لهذه الأمة حفظ الأجيال من الانصهار في فلك الحضارة الغربية، فلا بد أن تعود هذه المراكز، فلا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ثالثا: إعداد المعلمين ورجال التربية والدعوة وتقديرهم:

يشترط الإسلام في رجال التربية والمعلمين شروطًا كثيرة تشتمل على الصلاح والعلم والفن؛ وذلك لأن شخصية المعلم أو المربي أو الداعي لها أثر عظيم في عقول التلاميذ ونفوسهم؛ إذ يتأثرون بكل شيء يصدر عنه من حركات وإشارات وألفاظ، والطفل أسرع في ذلك من الشاب، لأنه يتصل بالمعلم أكثر من اتصاله بآبائه وأهله، وبالتالي يكون تأثير المعلم في نفوسهم أشد وأقوى من تأثير أهله؛ ولذلك اهتم الإسلام بتربية المعلمين اهتمامًا كبيرًا وذلك عن طريق إتقان العمل وإحسانه وبث المراقبة والخوف من الله سبحانه وتعالى، واعتبار أن العلم أمانة ومسؤولية يُسأل عنها العبد يوم القيامة.

وإذا كانت أركان الصلاح هي: الإخلاص، والتقوى، والحلم، والشعو بالمسؤولية، فإنها وحدها لا تصنع معلمًا، كذلك العلم وحده لا يصنع معلمًا ولكن لا بد من اجتماع الشروط الثلاثة لتكوين المربي الناجح، وهي تعني الفهم لأساليب

التربية وطرائقها وواجباتها ولنفسية المتعلمين واستعداداتهم وملكاتهم.

إعداد المعلم الديني:

وقد بين الغزالي رحمه الله آداب المعلم ووظائفه، فذكر أولى الوظائف والآداب: الاقتداء بصاحب الشرع ﷺ، والثانية: الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، فقد قال ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[1]، ومعنى الشفقة: أن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، والثالثة: ألا يدع من نصح المتعلم شيئا، والرابعة: أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بالطرق التربوية من التعريض والرحمة وغيرها، والخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم الأخرى، و أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخلط عليه عقله، فقد قال ﷺ فيما روته عائشة: «أنزلوا الناس منازلهم»[2][3]، وقد زاد ابن سحنون على آداب المعلم العدل بين المتعلمين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيما مؤدب ولي ثلاثة صبية مع هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم، حشر يوم القيامة مع الخائنين»**.

ولهذا، فإن الإسلام يأمر بالتدقيق في اختيار المعلمين وحسن إعدادهم، خاصة من يقومون بالتربية في مراحلها الأولى حيث تشكل شخصيات الصغار، فلا يكفي أن يكون المربي متمكنًا من مادته للعمل، بل يجب أن يكون إنسانًا مؤمنًا ورعًا صالحًا مدركًا لمسؤوليته.

رابعًا: الاهتمام بمعاهد التربية والعمل على نشرها.

أولى الإسلام عناية فائقة بالمدرسة والمعهد التعليمي عنايته بإعداد المعلم وإمكانات البناء والإدارة، ففي حسن اختيار المعلم صلاح العملية التربوية، كذلك الإدارة الحكيمة المدركة للمسؤولية والتوجيه وتوفير الإمكانيات اللازمة بغير إسراف ولا

---

(١) أخرجه أبو داود في (ك) الطهارة (ب) كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة ج١/ ٢ح٨ .

(٢) أخرجه أبو داود (ك) الأدب (ب) في تنزيل الناس منازلهم ج٤/ ٢٦٢ ح (٤٨٤٢).

(٣) انظر: الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية/ فاطمة محجوب ج١/ ٣٧٢، ٣٧٣، ط دار العربي ١٩٩٤م وإحياء علوم الدين ج١/ ٥٢، ٥٣ .

تقتير، فالمبنى يجب أن يكون بسيطًا وافيًا بالاحتياجات الضرورية؛ وذلك لأن التربية والتعليم حق كل مولود، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وكل ما يؤدي إلى الواجب فهو واجب، فمن الواجب أن تتاح الفرص لكل فرد في المجتمع.

خامسًا: عدم الفصل بين المعارف في المؤسسات التعليمية:

إن الحدود المصطنعة التي أوجدها الاستعمار بين التعليم الديني والتعليم المدني هي بدعة غريبة عن الإسلام قصد بها الفصل بين العلم والدين، وتعميق معنى العداء بينهما؛ للوصول إلى فصل الإسلام عن الحياة وإبعاده عن تنظيمها.

إن الإسلام لم يهمل أي جانب من جوانب المعرفة الإنسانية، فقول الرسول ﷺ: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك**»، هو دعوة حضارية بمعنى الكلمة أي دعوة إلى كل ما من شأنه تزيين الدنيا وإعمارها، وتزيين الدنيا وإعمارها لا يكون إلا بالعلوم المهنية والتجريبية.

إن ازدواجية التعليم في البلاد الإسلامية أدى إلى عزل العلوم الدنيوية عن العلوم الدينية، جعلها تدور في الإطار المادي للأشياء فقط مما أدى إلى رفض الإنسان المتدين لها وفقدان حماسهم للاهتمام بها. مما يدعو إلى الحاجة الملحة لأسلمة المعارف الإنسانية كلها وإعادتها مرة أخرى إلى الأسس التي أقامها الإسلام لهذه العلوم.

يقول الأستاذ أنور الجندي: «إن العلوم التجريبية هي نتاج الأنابيق والمعامل، ولكنها تلوثت في الغرب بالنظريات المادية المختلفة من ليبرالية، واشتراكية وغيرها من المفاهيم المسيحية، وعقائد الإلحاد والإباحية، كل هذا يستدعي ألا يأخذ المسلمون هذه العلوم على وضعها الغربي، وأن يعيدوا النظر فيها، فالحقائق العلمية والمعارف العامة في أساسها ملك للبشرية كلها، وكان للمسلمين دور في بناء جذورها وصناعة أصولها، أما الثقافات والعلوم الإنسانية فإنها لا تخضع لسيطرة الأيدلوجيات، ولا يقبلها المسلمون على صورتها الغربية، وما يدرس الآن في مدارسنا منها هو انحراف في حاجة إلى تصحيح[١]».

إن المسلمين حينما تربوا على الإسلام أدركوا قضية الاهتمام بالناحية العلمية

(١) العودة إلى المنابع ص ٢٢٣، ط دار الاعتصام، بدون تاريخ.

وهي قضية تعبدية بالدرجة الأولى، وليست مجرد الحصول على شيء من القوة أو الاستعلاء والتسلط في الدنيا، بل إن المسلم حين يتعرف على بديع صنع الله في هذا الكون فهو يتعرف على خالقه، والنهوض بأعباء الخلافة وتسخير الكون كما أراد الله له أن يكون هو خدمة البشرية. والجيل الأول من المسلمين لم يفرق بين العلم التجريبي وبين العلوم الشرعية، فكان المسلم فلكيًا ومفسرًا وطبيبًا فقيهًا. إن التخصص جعل الناس ينحصرون في دوائر ضيقة خلقت نظراتهم للحياة نظره جزئية غير متكاملة. إن النظرة المتكاملة هي التي يستطيع الإنسان من خلالها التعرف على قوانين الله في الكون والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض على أحسن وجه(١).

وقد توصل مؤتمر استكهولم إلى تأكيد النظرية الإسلامية من عدم الفصل بين المعارف وخاصة العلمية والدينية، قال المؤتمر في قراره: إن التقدم العلمي والتقني الحالي يهدد البشرية بمصير لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى «فحجم المخزون من الأسلحة النووية والكيميائية والجرثومية لدى الطرفين المتنازعين (أمريكا وروسيا) أكبر مما يحتاجه تدمير الحضارة المعاصرة عدة مرات»(٢).

سادسًا: جعل الإنسان هو الهدف الحقيقي من التعليم والتربية:

الإنسان بوصفه مستخلفًا من الله في الأرض، والكائن الحي العاقل المختار المكلف صاحب المواهب، والذي سخر الله تعالى له الكون، فهو المقصود في العملية التربوية لكونه المربي والمتربي، فكما يشترط في المربي كمال الدين وصلاحه، وإتقان فنه، وحسن القيام برسالته ولأمته، فيجب الاهتمام به اهتمامًا يعينه على أداء رسالته تجاه الله، وذلك بحسن إعداده بما يستحق من التقدير والاحترام، كما يجب إعداده ماديًا حتى يتفرغ لمهمته تفرغًا كاملًا، وقد ذكرت فيما سبق(٣) كيف كان السلف الصالح يوقفون الضياع والأموال للنفقة على طالب العلم، فقد قال ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»**(٤) وذلك حتى يتمكن الطالب من تفجير طاقاته لصنع الحضارة.

---

(١) السابق ص ٢٢٥ .

(٢) السابق ص ٢٢٥ .

(٣) انظر البحث الثالث من الفصل الثاني في الباب الأول .

(٤) أخرجه مسلم في ك القدر ب في الأمر بالقوة وترك العجز ج٤/ ٢٠٥٢ .

سابعًا: العمل على جعل التعليم عملية حرة غير مقيدة بمناهج محددة.

لقد كان من أبرز سمات التعليم في التاريخ الإسلامي - الذي أنتج الحضارة التي عمت العالم كله- هي عدم إلزام الإنسان (معلمًا أو متعلمًا) بمناهج محددة، وإنما اكتفي بتحديد الأطر العامة للفلسفة التعليمية المستمدة من عقيدة الإسلام وأهدافه العامة. ثم ترك العملية التعليمية علاقة مقدسة بين الطالب وشخصيته، تحكمها خشية الله والإيمان العميق بأنها رسالة تؤدى وقربى إلى الله عز وجل، ويكفي أنها نبعت من المسجد وارتبطت به.

إن المناهج التربوية التعليمية السائدة في العالم الإسلامي اليوم تقوم على مفاهيم جزئية، ولا تتوافق مع قدرات وملكات الطلاب، بل تقتل فيهم القدرات والملكات، وذلك بربط الشهادة والدرجة باجتياز تلك المناهج. إن النظام الإسلامي تعتمد فيه شهادة إمام المسجد والشيخ للطالب بأهليتهم للتدريس والإفتاء أو الإجازة على الشهادة الكرتونية التي يحصل عليها الطالب في ظل النظام التعليمي القائم، ولا يصلح لأن يؤم الناس في الصلاة بصرف النظر عما يرجى منه لأمته الإسلامية فهو موضوع السن، وفرض المنهج، وغيرها من القيود المصطنعة التي تبدد الطاقات وتقتل القدرات، وتفصل بين مختلف أنواع التعليم، كل هذه الحواجز تحول دون الوصول للغايات المرجوة من التربية والتعليم في نظام الإسلام، ولعل حالنا اليوم خير شاهد على ذلك.

إن السياسة التعليمية والتربوية في نظام الإسلام توسع مفهوم التعليم بحيث تتاح فرص التربية الفكرية والنظرية والتقنية والمهارات اليدوية والتوفيق بين التكوين العقلي والتطبيقي واليدوي حتى يمكن اكتشاف مواهبه وتوجيهها التوجيه الصحيح. إن هذا الانفتاح- إن صح التعبير- على مختلف مجالات المعرفة في سياسة الإسلام التعليمية كان على عهد السلف؛ لأن العلم كان يقصد لذاته للنهوض بالأمة لا للوظيفة ولا للمهنة ولا للكسب المادي المجرد عن القيم والأخلاق، ولا للتسابق على مراكز الصدارة في المجتمع امتثالاً لأمر الرسول ﷺ: **«لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، أو لتباروا به السفهاء، ولا لتحدثوا به في المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»**[1].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (ك) المقدمة (ب) الانتفاع بالعلم ج١/٩٦ ح (٢٥٩).

إن القيود والمناهج التي نظمت التعليم الحالي أدت إلى اندثار الحرف والصناعات التقليدية التي كانت في الماضي عماد الاقتصاد، وأدت إلى تكدس الخريجين وانتشار البطالة، وأصبحت المهن والحرف وكأنها جرم لا يقبل على اقترافه إلا من فشل في التعليم النظامي، أو الذي ساقته ظروفه إليها قسرًا وتغيرت في نظرة المجتمع إلى هذه الحرف، أو الربط بين الفكر وتطبيقه إلى درجة الاحتقار[(١)]، مع أن الرسول ﷺ قال: «نعم العبد المحترف»[(٢)]، بل إنه ﷺ جعل من أسباب دخول الجنة إعانة الأخرق؛ أي: تعليم الحرفة لمن لم يكن له حرفة، وأنبياء الله جميعًا كانوا من أصحاب المهن، وكان كل منهم يأكل من عمل يده. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأرى الرجل فيعجبني، فأسأل. هل له مهنة فإن قال: لا سقط من عيني[(٣)].

إن النظام التعليمي القائم على الاتجاه النظري حصر فكر الطالب بعد حصوله على الدرجة العلمية في تخصصاته، إلى المقاعد الوثيرة خلف المكاتب الفارهة، في ظل أبهة وهمية للوظيفة، دون فاعلية تذكر أو جهد ملموس، لماذا نجد رئيس جامعة في أمريكا مثلاً يقوم بإصلاح سيارته في ورشته، ودهان سور منزله بيده، وتنسيق حديقته بذاته، في حين يأنف موظف في مجتمع العرب والمسلمين من القيام بأبسط من ذلك من الأعمال اليدوية؟ إنه سؤال ساذج؛ لأن الإجابة عليه واضحة في الفروق والفجوات الحضارية بين المجتمع الأمريكي والمجتمع العربي[(٤)].

أو ليس قيام رئيس جامعة أمريكا بإصلاح سيارته بنفسه هو من صميم قول السيدة عائشة عن رسول الله ﷺ حين سئلت كيف كان الرسول ﷺ في أهله قالت: كان في مؤنة أهله، يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته[(٥)]. وهل هناك مهام أكبر وأعظم أهمية من مهام النبوة تحول بين الإنسان وبين كفاية نفسه حتى لا يكون

---

(١) دراسة في البناء الحضاري/ محمود سفر، ٦٨ كتاب الأمة رقم ٢١ .

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال ج٤/ ٤ ح (٩١٩٩)، وعزاه للبيهقي من حديث ابن عمر .

(٣) ذكرة المتقي الهندي في كنز العمال ج٤/ ١٢٣ رقم ٩٨٥٨ .

(٤) دارسة البناء الحضاري، ٧٠ .

(٥) ذكره العراقي على هامش الإحياء ج٢/ ٣٠٦، وقال: «أخرجه أحمد والبخاري، ورجاله رجال الصحيح، وزاد أحمد: ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته».

عالة على أمته؟ هذا لا يكون إلا في ظل النظام تربوي صالح يهيئ الفرد للقيام بمثل هذه المعاني الحضارية، وليس ذلك إلا في الإسلام ونظامه التعليمي.

ثامنًا: العمل على الفصل بين الجنسين في مراحل التعليم المختلفة:

النظام التعليمي في الإسلام ينبع من عقيدته وشريعته، ولذلك قام التعليم على الفصل بين الجنسين إكرامًا للمرأة، واعترافًا بحقوقها التي تقتضيها طبيعتها وصونًا لها، وهذا يدعو إلى إقامة مؤسسات تربوية، ومناهج خاصة بها تتناسب مع طبيعة وظيفتها في الحياة كمربية وكزوجة صالحة للمحافظة على البناء التربوي للأجيال المسلمة، وعلى حد تعبير الاستاذ سعيد حوى: «إن صناعة الرجال أكرم من كنس الطريق، وأكرم من صنع القنبلة الذرية، والإسلام يريد المرأة التي تحسن صناعة الرجال أولا وقبل كل شيء، ولن يوجد هذه المرأة إلا نظام أو منهاج صالح وهو لا يتوفر إلا في نظام الإسلام التربوي»[1].

تاسعًا: الاستفادة من مختلف التجارب البشرية في مجال التربية:

ومن أحدث الوسائل التقنية التي ثبتت صلاحيتها دون مغالاة أو إسراف، والرسول ﷺ قال في ذلك: «**الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها**»[2].

عاشرًا: العمل على محو الأمية في الأمة الإسلامية بصفة عامة:

أوجب الله تعالى على كل عالم أن يؤدي زكاة علمه؛ لأن نشر العلم ومحو الجهل من رسالة المسلم في الحياة، فعلى كل مسلم بذل علمه لكل محتاج. والأمية صنفان:

الأول: جهل بالقراءة والكتابة.

الثاني: جهل برسالة الإنسان في الحياة ومصيره، بعدها الأمية الدينية، وواجبه نحو دينه، «وهذه الأمية أخطر من أمية القراءة والكتابة؛ لأن الذي يقع فيها يفقد جزءًا من إنسانيته، وأخطر نسبة؛ لأن الغالبية العظمى من الناس واقعون فيها والغالبية العظمى يجهلون معالم الرسالة الإسلامية. ومن واجب السياسة التعليمية

---

(١) الإسلام/ سعيد حوى ج٣/ ١١٠، ط مكتبة وهبة ١٩٧٧م.

(٢) سبق تخريجه .

محاربة كلتا الأميتين بأسلوب علمي مخطط، فيمكن تكوين هيئات ومؤسسات تربوية تقوم بهذه المهمة ثم دعوة الأميين للتعليم، ودعوة المتعلمين إلى التطوع لمحو الأمية بنوعيها.

وهذا واجب إسلامي حض عليه النبي ﷺ، فقد روي عنه ﷺ أنه خطب ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا، ثم قال: **«ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون، ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة»**[(١)] وقوله ﷺ: **«من علم علمًا فله أجر ذلك ما عمل به عامل لا ينقص من أجر العامل شيء»**[(٢)]، فلو وعت الأمة مضمون هذه الأحاديث لما بقي في العالم الإسلامي جاهل واحد.

حادي عاشر: العمل على تغيير أسماء الشهادات في العالم الإسلامي وإعادتها إلى أصلها الإسلامي.

يذكر الدكتور زغلول النجار أن أسماء الشهادات العلمية في العالم الإسلامي كلها أسماء أجنبية، فقدت حقيقة دلالاتها مع الزمن، فكلمة «بكالوريوس» في الأصل لقب للأعزب، «والليسانس» في الأصل معناه الرخصة، «والماجستير» فالأصل لقب للسيد، «والدكتوراة» في الأصل لقب للفقيه، ونقول: أليست الإجازة العامة، وإجازة التخصص والإجازة العالية (إجازة الفقيه) وهي مراتب استخدمت من قبل في المعاهد الإسلامية، ويقول أيضًا: إنه في الوقت الذي تصر فيه مختلف الجامعات في العالمين العربي والإسلامي على استخدام اللفظين «ليسانس، بكالوريوس» للدرجة الجامعية الأولى، تخرج علينا جريدة بريطانيه وهي «التايمز» اللندنيه بمقال منشور في ملحقها التعليمي بتاريخ ٢/ ٥/ ١٩٧٥ عنوانه أهل اختراع الغرب الجامعة تؤكد فيه أن هذين اللفظين قد اقتبسا عن أسماء الإجازات العلمية في الجامعات الإسلامية التي سبقت مثيلاتها في أوروبا بعدة

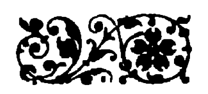
---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ك) العلم (ب) في تعليم من لا يعلم ج١/ ١٦٤، وقال: «رواه الطبراني في الكبير، وقال: لا بأس به»، وكنز العمال ج٩/ ٥٨ (ح) (٢٤٩٩٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٨/ ٣٠٩ (ح) ٢٣٨١، ٢٣٨٢ تحقيق أحمد شاكر وحمزه الزين ط، دار الحديث.

قرون، كما تؤكد على أن فكرة الجامعة كانت من نتاج الحضارة الإسلامية، وأن الجامعات الأوروبية قد أسست على غرارها، وحذت حذوها بدقة استدعت استخدام نفس العبارات التي كانت تستخدمها الجامعات الإسلامية في إصدار إجازاتها العلمية، وإن لفظة بكالوريوس ما هي إلا تحريف لفظي للجملة العربية (بحق الرواية) والتي كانت تستخدم في الإجازات العلمية الإسلامية. وكذلك لفظة ليسانس التي لا تعدو أن تكون ترجمة حرفية لكلمة إجازة فيذكر المقال أن أول شهادة منحت من جامعة أوروبية كانت ترجمة حرفية للتعبير العربي «إجازة التدريس» التي كانت تمنحها الجامعات الإسلامية، كما يذكر المقال: أن أول اسم أطلق على الجامعة في أوروبا كان التعبير اللاتيني steidum General وهي ترجمة حرفية للتعبير العربي من مجلس العلم، وأن الجامعات الأوروبية أخذت من الجامعات الإسلامية كذلك تميزها للأساتذة بزي معين[١].

وهذا الوضع يستدعي من المسلمين تطهير الكتابات الإسلامية مما خالطها من الألفاظ والتعبيرات الخاطئة انتصارًا للعلم والإيمان حتى يستطيعوا أن يقوموا بأداء رسالتهم إلى العالم.



(١) أزمة التعليم المعاصر ص ٢١٣ .

المبحث الثالث
الإعلام ودوره
في بناء الشخصية المسلمة

ويشتمل على تمهيد ومطلبين:

المطلب الأول: الإعلام الأسلامى ودوره التربوى.

المطلب الثانى: وظيفة الإعلام الإسلامى فى الساحة المحلية والعالمية.



المبحث الثالث
الإعلام ودوره
في بناء الشخصية المسلمة

تمهيـــــد:

للإعلام دور خطير في توجيه الرأي العام، وتشكيل المفاهيم، وصقل الوجدان، وإثارة العاطفة؛ وذلك لأنه أداة تجسيد تستغرق انتباه المشاهد وتستحوذ على انفعالاته.

وقد أدرك الاستعمار الغربي أهمية الإعلام ووسائله في الغزو الفكري والثقافي، فعمل عن طريقه على تبديل المبادئ الإسلامية وتزييفها، وخاصة أن وسائل الإعلام في معظم البلاد الإسلامية قد تأسست في ظل الاستعمار، وقد صنعها لإحداث التغيير الذي أراده، وبعد رحيله سلمها لقيادات تفكر بعقله وتؤمن بعقيدته، لكي يقوموا بنفس الدور الذي كان يقوم به في فترة الاحتلال المباشر، فليس غريبا أن يرى المسلم الإعلام في بلاد المسلمين قائمًا على مبادئ وقيم تخالف مبادئ وقيم الإسلام، فهو يقوم على التقليد واللهو واللعب بحجة إرضاء الجماهير التي فسدت من كثرة ما سمعت ورأت من الأفكار الخبيثة والصور الخليعة والمعتقدات الباطلة باسم الحرية والفكر وذلك لزعزعة الإسلام وقيمه.

ومن هنا تبدو أهمية الإعلام الإسلامي في بناء الشخصية المسلمة التي عقد عليها الأمل، لتأخذ بيد الأمة من كبوتها الحضارية الراهنة إلى بر التمكين للمسلمين في الأرض، وسوف أتحدث عن ذلك من خلال مطلبين:

الأول: الإعلام الإسلامي ودوره التربوي.

الثاني: وظيفة الإعلام الإسلامي في الساحة المحلية والعالمية.

المطلب الأول
الإعلام الإسلامي ودوره التربوي

الإعلام هو انعكاس لوجه المجتمع وفكره وعقيدته وتوجيهاته في الحياة، والإعلام عن الإسلام ورسالته في الحياة أصبح ضرورة إسلامية تفرضها طبيعة الدعوة الإسلامية، خاصة في هذا العصر الذي شوهت فيه تعاليم الإسلام، وطغت أفكار الجاهلية على عقول الناس وعقيدتهم، «فالأمة الإسلامية بحاجة إلى إعلام إسلامي يعيد بناء شخصية المسلم وعقيدته، والإعلام في الإسلام هو فن إيصال الحقيقة إلى الناس بالقول الصادق الذي يعتمد على الحق ويرفض الباطل، وهذا القول مبني على عفة الأسلوب، وشرف المقصد، ونظافة الوسيلة»[١].

والعلاقة بين الإسلام والإعلام علاقة وثيقة؛ لأن الإسلام رسالة الله إلى العالمين في كل زمان ومكان، أمر الله كل مسلم بتبليغها بعد الإيمان بها، وسبيل تبليغ الدعوة هو الإعلام عنها وبيانها للناس، وتاريخ الدعوة حافل بأفعال الرسول ﷺ وصحابته في الإعلام عن الدعوة الإسلامية بكل وسائل الإعلام المتاحة في زمانهم ومواقف الرسول ﷺ حتى بدء الدعوة خير شاهد على ذلك.

وقد كان كل مسلم يدرك فور إسلامه أنه مسؤول عن الدعوة، وعضو في كيانها مهما ضعف شأنه المادي، فهو طاقة معنوية هائلة في ميدان الدعوة، ففي الفترة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عامًا كان عدد المسلمين لا يتجاوز المائتين إلا بقليل، ومع هذا كان منهم دعاة في الحبشة والمدينة، فقد كان جعفر بن أبي طالب يقود حركة الإعلام عن الدعوة في الحبشة، ومصعب بن عمير في المدينة، وفي مكة كان مع رسول الله من يجهر بالقرآن في جوف الكعبة، ومن يبحث عن أنقل الناس للحديث ليذيع نبأ إسلامه على قريش كلها ولا يدخل بيته حتى تنتهي مهمة إعلان إسلامه. وكان ﷺ ينتقل بين القبائل ويعرض نفسه على كل قبيلة من القبائل التي تحضر إلى مكة من جميع الأقطار العربية، كما خرج إلى الطائف للإعلام عن

---

(١) مجلة الأمة عدد شوال، ١٤٠١هـ مقال: الإعلام أخطر وسائل العصر ص ٣٤ .

الدعوة وبعد الهجرة استطاع المسلمون أن يصلوا العالم بهم، حتى تدفق الناس إلى المدينة رغبة إلى التعرف على الإسلام ودعوته من رسول الإسلام ﷺ، حتى ذاع نبأ الإسلام في جميع الأمصار، وقد كان الإعلام عن الإسلام بطريق الاتصال الشخصي، وكان هذا دأب كل مسلم يشعر بمسؤوليته عن الدعوة سلوكًا وبلاغًا، والأمثلة على ذلك كثيرة من سيرة النبي ﷺ وصحابته، فقد كان كل مسلم أداة اتصال في كل مكان يوجد فيه، فلو أن المسلم المعاصر شعر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، فقام بواجب الدعوة بأي وسيلة من الوسائل المتاحة، وقامت وسائل الإعلام بنفس الدور، تعاون الداعية المسلم، وتؤيد ما يقول من الدعوة للإسلام والإعلام عنه؛ لكان شأن المسلمين غير هذا الشأن، ولتغيرت أحوالهم إلى غير هذا المجال التي هي عليه.

ومن هذا المنطلق يأتي الدور التربوي للإعلام الإسلامي في بناء الشخصية المسلمة وتأهيلها للدور الحضاري المنوط بها تعبدًا لله عز وجل، فالإعلامي المسلم - الذي تربى على العقيدة ومعاني النصرة والولاء والجهاد، وفهم مضمون الرسالة، وواجبه تجاهها يستطيع أن يؤدي دوره الإعلامي من منطلق إيمانه وحبه للدعوة وكذلك الجهاز الإعلامي في الدولة المسلمة كلاهما يستطيع أن يعكس مفاهيم الإسلام ومنهجه التربوي في المجتمع الإسلامي والعالمي.

فإذا كان رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١) فإن هذا الحديث يبين أن الفطرة التي شاء الله أن يطبع الناس عليها سهلة لينة يستطيع الإنسان تشكيلها على النحو الذي يريد، والارتقاء بالناس حيث أراد لهم الإسلام، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا باتباع أسس التربية الإسلامية في أجهزة الإعلام، وتتوافق برامج الإعلام مع أهداف التربية الإسلامية وهذا يستوجب العمل على عدة محاور:

---

(١) أخرجه البخاري في (ك) الجنائز، (ب) ما قيل في أولاد المشركين ج٣/ ٩٠ رقم (١٣٨٥)، ومسلم؛ في (ك) القدر، (ب) معنى كل مولود يولد على الفطرة ج٤/ ٢٠٤٧ رقم (٢٢)؛ أبو داود في (ك) السنة (ب) في ذراري المشركين ج٤/ ٢٢٩ رقم (٤٧١٤)؛ والترمذي في (ك) القدر، (ب) ما جاء في كل مولود يولد على الفطرة ج٤/ ٣٨٩ رقم (٢١٣٨).

الأول: تكثيف البرامج ذات الطابع التربوي الخالص:

العمل على تكييف البرامج التربوية يتبلور عبر إيجاد جهاز تربوي إسلامي لوضع الإستراتيجية الإعلامية التي تهدف إلى تقديم برامج هادفة فكرة ونصًا وإخراجًا وتنفيذًا، متوجهين بذلك إلى الإنسان في عقيدته وقيمه وتطلعاته، على أن تحيط بجوانب رحلته في الحياة والتي هدفها أن يكون سلوك الإنسان ترجمة لقيمه، وأن تكون واقعًا لما أمر به ربه، وأن تكون المحصلة النهائية لوجوده هي العمل الطيب له وللناس من حوله، من أجل صياغة الإنسان وبنائه في جوانبه الروحية والفكرية والخلقية والوجدانية[١].

فالإسلام قد أرسى قيمًا في القرآن والسنة وأمر بالتحلي بها، مثل: العمل الصالح، الأمانة، والصدق وسائر الأخلاق، فما الذي يمنع أن تصاغ هذه القيم في شكل إعلامي تستخدم فيه فنون الإخراج، ومهارات السيناريو، وتقمص الأدوار، فمثلًا قول الله تعالى عن العمل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢] والرسول ﷺ يقول: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»[٣] فيمكن لمثل هذه القيم أن تبسط أمام الناس موضوعًا لفيلم أو تمثيلية، أو برنامج منوع، فإن تحويل هذه القيم الإسلامية إلى مشاهد ومواقف تنبض بالحركة والحيوية، وتنطق بالصدق، فتشد وتوقظ الوجدان وتسمو بالروح وستكون النتيجة الطبيعية تأثرًا بعقبة انقياد واستجابة لدواعي الفطرة.

وهذه البرامج النابعة من الذاتية الإسلامية أفضل بكثير مما يروجه الإعلام المادي من أن طرد الهم أو امتصاص الغضب وتحمل الإساءة يتحقق باللجوء إلى سماع الموسيقى والرقص كما جاء ذلك في حديث تلفزيوني، مع أن النبي ﷺ قد وضع العلاج لذلك. يروى أن سليمان بن صرد رضي الله عنه يقول: كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، وأحدهما قد احمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من

---

(١) مجلة الأمة عدد شعبان، ١٤٠٥ مقال الدور التربوي لوسائل الإعلام ص ٢٦ .

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٥ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج٣/ ١٩١ .

الشيطان الرجيم، ذهب منه ما يجد»[١]، وعلى مثل هذه المواقف تقاس الأمور، وتعلن قيم الإسلام ومبادئه للناس بطريقة درامية تكون أوقع في النفس من الكلام.

والمحور الثاني:

الفراغ الذي يعاني منه أفراد الأمة في ظل النظم الوضعية التي أحدثت خللًا في الحياة، وإقبالهم على سماع ومشاهدة العبث الهازل الذي تعرضه وسائل الإعلام المادية- يأتي دور الإعلام الإسلامي في عرض برامج ترفيهية تشتمل على قيم إسلامية تحث على أن قيمة العمل مهما كانت قليلة يدعو إليها الإسلام، وهي كبيرة عند الله؛ وذلك لأن الأمة المحاصرة من الأعداء في حاجة إلى من يحشد عزمها، ويبني سواعدها، ويلهب إيمانها ويقوي أخلاقها.

والإسلام يتميز عن النظم الوضعية بأن الترفيه من وسائل التربية لتعميق معنى من المعاني الإسلامية فالترفيه ممارسات ترتبط بمثل عليا، قوامها الالتزام والقصد، وتتفاعل في إطار التوجيهات التي تولت العناية الإلهية بيانها في أكثر من آية وبأكثر من معنى[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٥].

وفي سيرة النبي ﷺ ما يؤيد الترويح والترفيه والاستمتاع في أرقى صوره، وكل ذلك بلا إفراط أو تفريط، ولتحقيق جملة من الأغراض أبرزها: التقوي على الطاعة وأداء الواجبات، والتسرية عن النفس، علاوة على وفاء بحق البدن، ففي حديث رسول الله ﷺ أنه كان في حكمة آل داود عليه السلام: **«حق على العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو**

---

(١) أخرجه البخاري في ك بدء الخلق (ب) صفة إبليس وجنوده ج٤/ ١٥١ .

(٢) مجلة الأمة عدد شعبان ١٤٠٥ هـ ص ٢٨ .

(٣) سورة يس: الآية ١٢ .

(٤) سورة ق: الآية ١٨

(٥) سورة الذاريات: الآية ٥٦ .

فيها بأصحابه الذين يجيزونه بعيوبه، ويحدثونه عن ذات نفسه، وساعة يخلو فيها بلذاته فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات، وقوله ﷺ لحنظلة: «**والذي نفسي بيده، إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم ولكن يا حنظله ساعة وساعة**»[١] وقالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أمامه[٢]. وقال علي بن أبي طالب: روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمي[٣].

إن المادة الإسلامية الترفيهية التي يصوغها الإعلامي المسلم تحقق هدفين في وقت واحد، الأول: ترفه عن الجمهور، والثاني إنها تؤثر عليه في اتجاه فلسفة مرسومة للمجتمع، ويطلق على هذا النوع من الترفيه «الترفيه الموجه» حيث تستغل رغبة الناس في قضاء وقت طيب لتقديم مبادئ أو اتجاهات مرغوبة داخلة في المادة الترفيهية[٤].

ومن هنا فإن الإعلام الإسلامي سيكون بعيدًا عن الانحراف في تيار الإعلام الوضعي؛ لأنه محكوم بضوابط وقيود تتمثل في وضوح الهدف التربوي لدى المخطط الإعلامي، كما تتمثل في الالتزام بالمسؤولية والإعلاء من قيمتها أثناء المعالجة والطرح، وأيضًا تتمثل في[٥] عدم المساس بالقيم والمفاهيم وعدم التضحية بالمضمون لأي سبب من الأسباب في سبيل الشكل، هذه التربية التي تعينه على حفظ ذاته الإسلامية في ظل التحدي الحضاري المعاصر، أما عن دور الإعلام الإسلامي فالحديث عنه في المطلب الثاني.

---

(١) أخرجه مسلم في (ك) التوبة (ب) فضل دوام الذكر ج٤/٢١٠٦ (١٢) والترمذي في صفة القيامة ج٤/ ٥٧٤ .

(٢) البخاري في (ك) الصلاة (ب) أصحاب الحراب في المسجد ج١/٦٥٣ (٤٥٤) .

(٣) أورده السيوطي في الجامع الصغير ج١/ ٢٧٤ (٤٤٨٤) وعزاه لأبي داود .

(٤) مجلة الأمة شعبان ١٤٠٥ هـ ص ٢٩ .

(٥) هذا هو الدور التربوي للإعلام الإسلامي الذي عن طريق هذه الملامح يصبح الإعلام أداة بناء وتربية لشخصيته .

المطلب الثاني
وظيفة الإعلام الإسلامي
في الساحة المحلية والعالمية

لقد ابتلي العالم الإسلامي في الوقت الحاضر بأمراض اجتماعية وأخلاقية واقتصادية وسياسية. كان للإعلام - الذي صنعه الاستعمار الغربي - دور كبير في وجودها وانتشارها وتفاقمهاالترفيه فما نراه اليوم من جهل المسلمين بدينهم، وانحلال الغالبية العظمى من الشباب والرجال، وتمسكهم بالنظم والمبادئ والأفكار غير الإسلاميةالترفيه وما حل بالمسلمين من جهل التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما نراه أيضًا من فرقة وانقسام وحرب ونزاع بين المسلمين، وما نراه أيضًا من سفور المرأة المسلمة وانسلاخها عن الزي والأخلاق والمبادئ الإسلامية، كل هذه الأمراض الاجتماعية وغيرها أوجده الإعلام المادي الذي تعده عقول غربية وتقدمه أيد مسلمة خضعت بالعقل والفكر للاستعمار.

ولذلك، فإن مسؤوليات الإعلام الإسلامي كثيرة، وواجباته تحتم عليه أن يتعدى مرحلة الوعظ والأحاديث الدينية التي مل الناس من تكرارها؛ لأن المجتمع الإسلامي المعاصر يحتاج إلى من يأخذ بيده وينقذه من الجاهلية التي يعيش فيها، ولن يتحقق ذلك إلا إذا قامت وسائل الإعلام الإسلامي بمخاطبة عقول الجماهير المسلمة، وتربيتها تربية إسلامية جيدة عن طريق الخبر والحديث، والترفية الإسلامي المباح والفيلم والمسلسل وغير ذلك من فنون الإعلام الصحفي والإذاعي والتليفزيوني، ومن هنا فإن وظيفة الإعلام الإسلامي على المستويين المحلي والعالمي تتلخص فيما يلي:

أولاً: ترقية اهتمامات الناس:

إن وسائل الإعلام المعاصرة - وخاصة في البلاد الإسلامية - تعمل جاهدة لتلبي رغبات الناس من الشهوات والغرائز، والسر في ذلك: هو التوجه الليبرالي

الذي يسيطر على وسائل الإعلام لتغريب المجتمع الإسلامي، والنتيجة التي ترتبت على هذا السبيل الإعلامي هي انحسار اهتمامات الناس لحاجات البطن والفرج حتى وقفت العقول عن العطاء والإنتاج.

والإسلام يهدف إلى ترقية العقول وجمعها على هدف تعمل له في الحياة، وصرف اهتمامات الناس إلى أمور أرقى من الشهوات والأمور المادية كالجهاد، ونشر الدعوة الإسلامية، والتخلق بأخلاق الإسلام، وقد اختار الإسلام الصعب من الأمور ليحقق بها الصعب من الآمال، في حين اختارت الاتجاهات الأخرى السهل من الأمور لتحقق أهدافا دنيوية سافلة أقصاها جمع الثروات والجاه (١).

وهذا الهدف يتحقق بعرض تاريخ السلف الصالح رضوان الله عليهم، وصفاتهم وأحوالهم في الحياة، وكيف كانوا رضوان الله عليهم متأدبين بآداب الإسلام لا يشغلهم عنها شاغل، وكيف كان الجهاد في سبيل الله أحب إليهم من المال والأولاد، والتاريخ الإسلامي حافل بالكثير من المشاهد العظيمة والمواقف الفريدة، تستطيع المؤسسات الإعلامية - بوسائلها المختلفة - إخراج المواقف في صور حية من شأنها أن تغير من عادات الناس وترقيتها.

وعلى مستوى القائم بالإعلام والاتصال الشخصي نجد أن خطيب الجمعة لو أحسن في اختيار الموضوعات على طول العام، وأجاب لنفسه عن عدة أسئلة: ما هي الخطب في موضوع المناسبات؟ وكيف يتناول الموضوعات العامة، وكيف يتعامل مع الأحداث المستحدثة؟ إن هذا التخطيط الذي يمكن لخطيب الجمعة أن يقوم به على طول العام، يقابله تخطيط وتناسق في الموضوعات والمفاهيم مع الوسائل الإعلامية الأخرى، فإن هذا يقدم سبيلًا من المعاني والأهداف والملامح لرسالة الإسلام وواجبات المسلم نحوها، والثواب الذي ينتظره عند الله عز وجل في الآخرة لقيامة بهذه التبعات، والعقاب إذا تهاون فيها.

إن التخطيط لا بد أن يكون سمة للإعلام الإسلامي، وطريقة تفكير العاملين في حقله، وهذا التخطيط لا بد أن يكون على عدة مستويات: مستوى الوسيلة - جريدة كانت أو مجلة أو كتابًا أو إذاعة أو مسجدًا، وعلى المستوى الجغرافي والمحلي والقومي والعالمي، ثم التخطيط على المستوى البشري في مجال إعداد الإعلاميين

(١) فقه الدعوة والإعلام ص ٩٩، مرجع سابق.

وتدريبهم، ثم التخطيط للقضايا على المدى القصير والمدى الطويل[١].

بهذا التخطيط والتنظيم يؤدي الإعلام الإسلامي وظيفه التربوية في تعليم الإسلام ورسالته وأخلاقه الفاضلة، وغير ذلك من القيم والمفاهيم التي تنتشل الناس من التفكير في الباطل، والإسلام يؤهل المسلم لدور قيادي في هذه الحياة، فلا بد أن تكون اهتماماته منصرفة للقيام بهذا الدور.

ونجد القرآن الكريم بين ذلك في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ﴾[٢]، فالله عز وجل ذكر اهتمامات النفوس الإنسانية وحبها للشهوات على اختلاف أنواعها، وبين أن هذه الشهوات يهتم بها ويجعلها شغله من لم ينظر إلى الآخرة، وجعل همه في الدنيا هو هذه الشهوات، ووقف اهتماماته في الدنيا عند حدودها. ولكنه سبحانه وتعالى يخاطب الأمة الإسلامية ويوجه اهتماماتها في الحياة إلى ما هو أرقى من ذلك، وهو الاهتمام لأمر هذا الدين وما في الآخرة من جنة عرضها السموات والأرض، والله لا ينكر على المسلم أن يأخذ من متاع الدنيا وشهواتها بل أمره بالتمتع بها: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾[٣]. فهي وسائل تعين على الغاية الكبرى، والاهتمام الكبير للمسلم في هذه الحياة هو العمل من أجل الجنة[٤].

ثانيا: الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية:

لكي يقوم الإعلام الإسلامي بواجبه الحقيقي، فلا بد له من جو إسلامي يعيش فيه، ولن يتحقق ذلك إلا في ظل تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية السمحة في كل

---

(١) مجلة الأمة شوال ١٤٠٥ هـ ص ٨٠.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٤، ١٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ج١/ ٣٨٢ بتصرف.

مجالات الحياة - الاقتصادية والاجتماعية والسياسية - وليس معنى ذلك عدم العمل إلا بعد تطبيقه الشريعة، بل إن تطبيق الشريعة مسؤولية يطالب بها الإعلام الإسلامي سواء قبل تطبيقها أو بعد تطبيقها؛ لأنه يدعو إليها الآن، ثم بعد وجود الجو الإسلامي الحقيقي يعمل الإعلام على تهذيب سلوك الجماهير بالقيم والمبادئ الأخلاقية الإسلامية لتقبل أحكام الشريعة.

ثالثا: إنهاء حرب التشويش ضد الإسلام:

يواجه الإعلام الإسلامي على الساحة الدولية والداخلية توجهات إعلامية متباينة معه عقيدة وفكرًا واتجاهًا، وتتمثل هذه المواجهة في الإعلام الاستعماري الصهيوني وهو العدو الأساسي للإعلام الإسلامي، وهو الأشد تأثيرًا ونفوذًا بحكم الميراث الثقافي للاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية في فترة الهيمنة الاستعمارية المباشرة، كما يواجه الإعلام والإسلامي الإعلام الاشتراكي والشيوعي، وهو يختلف كليًّا مع مبادئ الإسلام، كما يواجه الإعلام حركات التحريف والتشويه وبث الفرقة من داخل البلاد الإسلامية.

وهذا الإعلام المعادي للإسلام تحركه هيئات ضخمة، تملك من أساليب التقنية ووسائل البث الحديث ما يمكنها من التشويش والتشكيك في كل ما يقال عن الإسلام، وتصويره بصوره وثنية مادية، وقد قام بذلك المستشرقون والمبشرون، وذلك لخلق نوع من الانهزام النفسي والفكري عند الشعوب الإسلامية، ومن جهة أخرى الحيلولة بين أتباع هذه المذاهب الفكرية وبين الدخول في الإسلام، كما يقوم بنشر الآراء المادية في القضايا المثارة على الساحة الدولية.

وأمام هذا التحدي الإعلامي يتضاعف دور الإعلام الإسلامي لمواجهة هذا السيل الخطير من المعلومات التي تنشر عن الإسلام وبلاد الإسلام، ويتمثل هذا الدور في تقديم رؤية إسلامية في مختلف نظم الحياة العامة، انطلاقًا من واجب الأمة الإسلامية في نشر الدعوة الإسلامية وحملها إلى العالم.

فالأمة الإسلامية مطالبة بتبليغ الدعوة إلى العالم كله، انطلاقًا من قول الله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١] وهذه المهمة تحتم على الأمة الإسلامية أن تضع منهجًا إعلاميًا لتحقيق هذا الغرض. يقول الدكتور محمد فتحي عثمان:

«أعتقد أنه من المناسب في هذا أن نضع في ذهننا وفي تقديرنا أننا نخاطب المسلمين وغير المسلمين في العالم أجمع، فنحن نريد ألا نتحدث عن أنفسنا، ولكن لنثبت دائمًا للعالم أننا نحسن - يكوننا جزء من مليارات البشر الذين يعيشون في هذا العالم، وأن من حق الإسلام علينا، ومن حق اشتراكنا في هذا الكوكب - أن نتبادل وجهات النظر، وأن نقدم إليه خير ما لدينا وهو ديننا، ولا نقدم ذلك بأن نفرض عليه، أو نجبره على اعتناقه، وإنما نقدم إليه وجهة نظرنا في المشكلات المتباينة من متطور إسلامي، وأن نقدم إليهم الإسلام من منظور حياتي، لكي يتبينوا جليًا أن كل ما عندنا نعلنه، وأن ما عندنا فيه الخير للعالم أجمع، فيجب أن نقدم إسلامنا صورة إنسانية تخاطب الناس جميعًا، وتقنعهم، وتحاول أن تقنعهم بوجهة نظر الإسلام في المشكلات المختلفة، كما أنه يجب علينا أن نخرج من العموميات إلى الخصوصيات في تناول القضايا المتعددة حتى ولو كانت لا تمسنا مسًّا مباشرًا ما دامت هي هموم العالم. فمثلاً قضية كقضية المجاعات في العالم، على الإعلام الإسلامي تناولها وشرح أسبابها وطرق الخروج منها بما جاء في الشريعة الإسلامية، كذلك قضية التسلح النووي، وقضية تلوث البيئة، كل هذه القضايا تحتاج إلى حلول جذرية، وليس ذلك إلا في منهج الإسلام الذي يأمر بالاقتصاد في كل شيء والنظافة في الثوب والمكان والبدن، بهذا الأسلوب يكون خطاب الإعلام الإسلامي موجهًا إلى العالم كله»[٢].

وهذا الأمر يتطلب إنشاء مؤسسة إسلامية علمية تعمل على إعداد المادة العلمية الأصلية النابعة من الكتاب والسنة، وتقوم بإخراجها في صورة إعلامية أو فيلم يعكس الفكر الإسلامي في سلوك مسموع ومرئي.

وتقوم هذه المؤسسة بتعقب الدراسات الاستشراقية وما تصدر من دوريات تشوش على الفكر الإسلامي وتقدم الرد عليها وبيان وجه الخطأ والصواب حتى يصل الفكر

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠ .

(٢) فقه الدعوة ج٢/ ١١٤، سلسلة كتاب الأمة رقم (١٩) .

الإسلامي، للعالم في صورته الصحيحة، وتقوم هذه المؤسسة ببث برامجها الإعلامية عن طريق وكالة أنباء إسلامية، وهي قائمة بالفعل وتابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وهذا العمل ليس خيالاً بعيد المنال، وإنما يصبح حقيقة إذا وجدت النيات المخلصه صاحبة العزائم القوية التي لا تعيش إلا لقضية الإسلام ورسالته.



الفصل الثالث
الاستفادة من نعم الله في الكون

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مقومات التقدم العلمي فى العالم الإسلامى.

المبحث الثاني: منهج القرآن في الدعوة إلى استثمار نعم الله في الكون.

المبحث الثالث: التفاعل بين الطاقات البشرية والمقومات الكونية لصنع الحضارة الإسلامية.



الفصل الثالث
الاستفادة من نعم الله في الكون

التمهيد:

إن الله سبحانه وتعالى وهو يعد الأمة الإسلامية - بالشرف والمكانة بين الأمم- أمرها أن تخرج بتعاليمه إلى الكون والحياة لاستخراج ما فيها من نعم الله عز وجل لتحقيق العزة والمنعة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1].

ومن هذا المنطلق الإيماني قامت الأجيال المسلمة بعمارة الأرض، والقيام بواجبات الخلافة فيها، فجمعوا تراث الحضارات السابقة وترجموه ونقوه بمعيار الحق الإسلامي، وأضافوا إضافات عديدة في مختلف مجالاته، حتى حققوا أعظم حضارة إنسانية عمرت الحياة، وارتقت بالإنسان إلى آفاق عالية، حتى كانت عصور التخلف التي حلت بالمسلمين بسبب افتقادهم القيم الإسلامية التي تحافظ على الإنتاج الحضاري إلى جانب المكائد الدولية التي استهدفت الإسلام والمسلمين، ونتج عن هذا كله تخلف المسلمين في كل مجالات الحياة، أعقبه تحد حضاري هو من أقسى فترات التحدي التي واجهت الأمة على مدى تاريخها الطويل، هذا التحدي أفرز حضارة مدمرة أفسدت الأرض، وأهلكت الحرث والنسل بمخلفاتها، وأتعبت العقول ومختلف مراكز الحس في الإنسان.

وهذا لا يعني ترك التقدم العلمي والتقني، لأنه ضرورة من ضروريات الوجود الإنساني لترقية الحياة، ولكن البديل هو تطور علمي وتقني يصاحبه التزام أخلاقي يكون الضابط الرادع من استخدام معطيات العلوم التقنية[2] في أعمال الهدم والتخريب التي يعاني منها عالمنا المعاصر، والأخلاق لا بد لها من صيغة ربانية،

---

(١) سورة الملك: الآية ١٥ .

(٢) التقنية: اختصار لكلمة تكنولوجيا، وهي تعني: الجهد المنظم الرامي لاستخدام نتائج البحث العلمي في تطوير أساليب العمليات الإنتاجية، أو هي مجموع الوسائل التي يوظفها الإنسان لتسخير الطبيعة المحيطة به وتطويع ما فيها من موارد وطاقات .

والضابط الأخلاقي المطلوب لابد وأن ينطلق من تعاليم دينية صحيحة، والإسلام هو البديل المطلوب، والضابط لمشاكل التقدم العلمي والتقني، وهذا الأمر ليس بعيد المنال إذا توافرت أسبابه كما بينها الله عز وجل في كتابه الكريم حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولذلك فإن العودة عودة الأمة الإسلامية إلى مكان الريادة ممكن إذا تسلحنا بما سبق من عناصر التربية الإسلامية، ثم التعامل مع نعم الله في الكون كما أراد الله سبحانه وتعالى فالإمكانات والسبل متاحة فما علينا إلا أن نحقق في أنفسنا أسباب التقدم وهي لا تتعدى تحقيق منهج الله في الأنفس والآفاق، وسوف أتحدث عن ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مقومات التقدم العلمي في العالم الإسلامي.

المبحث الثاني: منهج القرآن في الدعوة إلى استثمار من نعم الكون في الكون.

المبحث الثالث: التفاعل بين الطاقات البشرية والمقومات الكونية لصنع الحضارة الإسلامية.



(١) سورة الرعد: الآية ١١ .

المبحث الأول
مقومات التقدم العلمي في العالم الإسلامي

الإنسان هو المقوم الأول لأي تقدم، ولما كان الإنسان مكونًا من مادة وروح، وجب أن يكون التقدم الإنساني شاملاً لهذين الجانبين في الإنسان، وقد سبق أن تحدثت عن مقومات التقدم الروحي في الفصلين السابقين من هذا الباب، والحديث الآن عن مقومات التقدم المادي:

إن الله سبحانه وتعالى قد حبا الأمة الإسلامية بمقومات طبيعية تحقق كفايتها وعزتها بين الأمم. فالعالم الإسلامي يمتد في نحو ١٤٥ طولية، فهو يقع بين خطي طول ١٥ غربًا إلى ١٣٠ شرقًا، وفي أكثر من ٦٠ دائرة عرضية بين ١٠ جنوبًا و٥٠ شمالاً، وهذا الامتداد في قارتين رئيسيتين هما إفريقيا وآسيا، ففي إفريقيا يشغل العالم الإسلامي النصف الشمالي من القارة ممتدًا من المحيط الأطلسي غربًا حتى البحر الأحمر شرقًا، وفي شمال الصحراء الكبرى وفي جنوبها.

أما في آسيا، فإن العالم الإسلامي يمتد امتدادًا شاسعًا بين البحر المتوسط والبحر الأحمر غربًا، والهند وغرب الصين شرقًا، وبين المحيط الهندي والبحر العربي جنوبًا، وسيبيريا شمالاً ليشمل كلاً من تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان بجانب الأقطار العربية الآسيوية، كذلك يمتد شرقًا ليشمل دولاً إسلامية كثيرة في جنوب شرق آسيا، ممثلة في أندونيسيا وبنجلاديش وأقليات إسلامية كبيرة العدد كما في ماليزيا وجنوب الفلبين(١).

وهذا الامتداد له آثاره الطيبة على العالم الإسلامي، إذ ترتب على هذه المساحات الكبيرة التنوع في المظاهر الطبيعية والبشرية السائدة في أقطار العالم الإسلامي، حيث حباها الله عز وجل بنصيب وافر من الثروات الطبيعية التي يمكن إيجازها فيما يلي:

---

(١) العالم الإسلامي المستقبل، ٥٣٤ إصدار مركز دراسات العالم الإسلامي .

١- المقومات البشرية:

يقدر عدد سكان العالم الإسلامي عام ١٩٨٩م بنحو ٨٩٣ مليون نسمة أي ما يعادل ١٧,٥% من سكان العالم، وترتفع هذه النسبة إلى نحو ٢٠% من جملة سكان العالم إذا ما أضفنا لهم السكان المسلمين الذين يعيشون في أقطار غير إسلامية ويشكلون غالبية في بعض أجزائها[١].

ويمثل هذا العدد قرابة ربع سكان العالم، ويضم ملايين العلماء والمهندسين والأطباء والفنين والأدباء والمفكرين، وسائر الحرفيين والمتخصصين في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية، على الرغم من انتشار الأمية في قطاع كبير ممن هو بين ظهرانيهم، ويمثل ذلك أكبر تجمع بشري على وجه الأرض تربطه عقيدة واحدة.

٢- المقومات الأرضية:

تبلغ مساحة الدول المكونة[٢] للعالم الإسلامي أكثر من أربعين مليون كم ٢، ويمثل ذلك أكثر من ربع مساحة اليابس التي تقدر بـ ١٤٨,٣٥٤,٠٠٠ مليون كم٢، ويزيد في قيمة تلك المساحة الشاسعة اتصالها مع بعضها ووسطها دول العالم، وتكاملها من ناحية المناخ والتضاريس، وطبيعة الأرض، وتقدر ثرواتها، وتنوع مصادر المياه فيها، وكثافة، سكانها، وعراقة حضارتها، وارتباطها برسالات السماء[٣].

وامتداد مساحة العالم الإسلامي شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا أدى إلى تعدد أنواع التربة لتنوع الظروف الطبيعية السائدة به، وأكثر الترب انتشارًا في العالم الإسلامي التربة الصحراوية

---

(١) انظر: السابق، ٥٥١، العالم الإسلامي/ محمد شاكر ص ٣٣، ط المكتب الإسلامي.

(٢) هذه الدول حسب الترتيب الهجائي لأسمائها كما يلي: أفغانستان، الأردن، البحرين، السودان، الإمارات العربية المتحدة، الجزائر، أندونيسيا، أريتريا، أوجادين، أوغندا، إيران، باكستان، بنجلاديش، بنيني (داهومي) بروناي، فولتا العليا، تركيا، تشاد، تنزانيا، توجو، تونس، الجابون، جامبيا، جزر القمر، جزر المالديف، جيبوتي، ساحل العاج، السعودية، السنغال، سيراليون، سوريا الصومال، عمان، غينيا، غينيابيساو، فلسطين، قطر، الكاميرون، الكويت، لبنان، ماليزيا، مالي، مصر، المغرب، موريتانيا، موزمبيق، النيجر، نيجيريا، اليمن الشمالي، اليمن الجنوبي، بالإضافة إلى ألبانيا التي فقدتها الأمة الإسلامية وغالبيتها الساحقة من المسلمين.

(٣) قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي في المعاصر/ زغلول راغب النجار ص ١٣٢ سلسلة، كتاب الأمة رقم (٢٠).

التي تتميز بغناها في عناصرها المعدنية، والأملاح، والتربة الفيضية، وتتميز بعمقها وغناها بالمواد العضوية والمعدنية، وتصلح لزراعة كثير من النباتات، والتربة السوداء وهي تربة خصبة تصلح لزراعة كثير من المحاصيل خاصة الحبوب، كما توجد ترب أخرى مثل التربة الحمراء وهى تصلح لزراعة الفواكه والحبوب، وتربة اللاتريت وترتفع فيها نسبة أكاسيد الحديد، والتربة البركانية وهي تصلح لزراعة الخضروات والفواكه[١].

٣- المقومات المائية والمواني التجارية:

تعتبر المياه عماد الحياة البشرية والعنصر الحاسم في الزراعة، وبقدر ما يمكن توفيره منها بشكل منتظم وفي ظروف طبيعية وبشرية مناسبة يمكن للإنسان أن يطور الزراعة أفقيًا ورأسيًا.

والموارد المائية في العالم الإسلامي تنقسم إلى مصدرين:

الأول: مصدر طبيعي ويتمثل في مياه الأمطار والأنهار والأودية والمياه الجوفية ومياه البحيرات العذبة،

الثاني: مصادر صناعية وتتمثل في تحلية ماء البحر والمياه المالحة.

وهذان المصدران متوفران في العالم الإسلامي حيث إنه يطل على مسطحات مائية عديدة يخترقها أهم خطوط المواصلات البحرية في العالم، وله مواني مهمة على كل من المحيط الأطلسي والهندي والهادي، وكل من البحر الأسود والبحر المتوسط، كما يتحكم في مداخل كل من المحيط الهندي والبحر الأحمر، بالإضافة إلى عدد من المسطحات والقنوات المائية المهمة التي تعتبر إسلامية بأكملها مثل: البحر الأحمر، والخليج العربي، وبحر عمان، والبحر العربي، وقناة السويس، إلى جانب الكثير من الأنهار المنتشرة داخل العالم الإسلامي التي ينتهي بعضها إلى البحار التي يطل عليها مثل نهر النيل والليطاني والعاصي إلى البحر المتوسط، وأم الربيع والسنغال وغامبيا إلى المحيط الأطلسي، ونهر النيجر إلى خليج غينيا، ودجلة والفرات عبر شط العرب إلى الخليج العربي، وينتهي البعض الآخر إلى بحيرات داخلية وأحواض مثل نهر الأردن إلى البحر الميت، ونهر شاري الذي ينتهي إلى بحيرة تشاد[٢].

---

(١) العالم الإسلامي والمستقبل ص ٥٤٩، ٥٥٠، مرجع سابق.

(٢) السابق ص ٥٤١، وجغرافية العالم الإسلامي/ محمود أبو العلا ص ٢١٠، ٢١٢ ط مكتبة الفلاح كويت ١٩٨٩ .

٤- المقومات الاقتصادية:

تشمل المقومات الاقتصادية: الموارد الزراعية والحيوانية، ومصادر الطاقة، والثروات المعدنية، والمنشآت الصناعية، يمكن بيانها فيما يلي:

١- الموارد الزراعية:

تبلغ مساحة الأرض الصالحة للزراعة في العالم الإسلامي نحوًا من ٣/٢٠٣ مليون هتكار، أو ما يعادل ١٤,٥ من مساحة الأراضي الزراعية في العالم، وتعادل نحو ٨,٥% من مساحة العالم الإسلامي التي تصل ٢,٥٣ مليار هكتار[١].

وهذه المساحات في مناطق مختلفة وتعطي محاصيل متكاملة. وتحتل الحبوب المرتبة الأولى في الأهمية بين المنتجات الزراعية المختلفة سواء من حيث مساحة الأراضي أو من حيث أهميتها في الإمداد الغذائي، فقد أنتج العالم الإسلامي عام ١٩٨٩م نحو ١٨٢,١ مليون طن أو ما يعادل ٩,٨% من إجمالي الإنتاج العالمي منها[٢]. وهذه نسبة ضئيلة لا تفي بحاجات سكان العالم الإسلامي مما يضطر إلى الاستيراد من الخارج وخاصة من الولايات المتحدة؛ مع أن هناك مساحات شاسعة من الأرض الصالحة لزراعة القمح وقد توسعت المملكة العربية السعودية في زراعة القمح توسعا ناجحا صدرت منه إلى كل من مصر والاتحاد السوفيتي، ونجاح المملكة في هذا دليل على إمكانية استزراع مساحات أكبر بكثير من المزروع حاليًا في دول العالم الإسلامي كافة لو وجدت القيادات المخلصة التي يهمها أمر الأمة وعزتها.

٢- الثروة الحيوانية:

يربى على أرض العالم الإسلامي ملايين الرؤوس من الماشية والأغنام والماعز، فالعالم الإسلامي يملك ١١% من أبقار العالم، ٢٥% من أغنام العالم (أي ربع القطيع العالمي، حوالي ثلث ماعز العالم، ونسبة ٦% من إنتاج العالم من الأسماك،

---

(١) جغرافية العالم الإسلامي ص ٢١٥، مرجع سابق .

(٢) العالم الإسلامي والمستقبل ص ٥٦٨، وانظر تفاصيل كل نوع من الحبوب، وقيمة الإنتاج في المراجع السابقة حتى ٥٦٩، ٥٧٩ العالم، والإسلامي ص ١٠٠، ١١٢ .

وهو ضئيل بالنسبة للسواحل الممتدة التي يطل عليها العالم الإسلامي[١].

٣- مصادر الطاقة:

يملك العالم الإسلامي ما يتراوح بين ٧٢٪، ٧٧٪ من احتياطي النفط العالمي، وأكثر من ٢٥٪ من احتياطي الغاز الطبيعي بالإضافة إلى ٣٪ من الإنتاج العالمي للفحم، وبالنسبة للموارد المشعة لم تقدر تقديرًا نهائيًا بعد، واليورانيوم أكثر من ٤٥٪ من الاحتياطي العالمي، وتوجد الطاقة الشمسية كمصدر مهم من مصادر الطاقة في مختلف دول العالم الإسلامي التي تتمتع بساعات طويلة من سطوع الشمس خلال أغلب أيام السنة، إضافة إلى مصادر الطاقة المائية والهوائية والهيدروجينية، وهي كلها من مصادر الطاقة التي ليست لها نواتج ملوثة للبيئة[٢].

٤- الثروة المعدنية:

على الرغم من أن معظم أراضي العالم الإسلامي لم يتم مسحها مسحًا شاملًا مفصلًا إلا أن الدراسات المحدودة التي أجريت حتى الآن أثبتت وجود العديد من الخامات الاقتصادية، منها خامات المعادن الفلزية مثل القصدير ٢٥٪ من احتياطي العالمي، الكروم ٢٣٪، المنجنيز ٩,٢٪، الرصاص والزنك ٦٪، والحديد ٥٪، والنحاس ٤٪، الألومونيوم، والذهب والفضة والنيكل وهي موجودة بنسب متفاوتة[٣]، كما توجد العديد من خامات المعادن غير الفلزية من أهمها الفوسفات ينتج العالم الإسلامي منه ٤٥٪ من الاحتياطي العالمي[٤].

٥- مقومات تعليمية وتدريبية:

تضم دول العالم الإسلامي اليوم أكثر من ٢٢٤ جامعة، ٣٣٥ معهدًا عاليًا من المعاهد المتخصصة بالإضافة إلى ما يفوق التسعمائة مركز من مراكز البحوث، وأكاديميات العلوم التقنية، وخمسة عشر مركزًا ومؤسسة للطاقة الذرية والنظائر المشعة[٥].

---

(١) العالم الإسلامي/ محمد شاكر ص ١٠١، ١٠٤، والسابق ص ٥٨١ .

(٢) السابق ص ١٢٥-١٢٧، وقضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي ص ١٣٥ .

(٣) العالم الإسلامي ص ١٢٩، ١٣٠ .

(٤) العالم الإسلامي والمستقبل ص ٦٩١، وقضية التخلف العلمي ص ١٣٦، والعالم الإسلامي ص ١٣١ .

(٥) قضية التخلف العلمي، ١٣٦ .

هذه الثروات المتعددة تشكل الدعائم المادية لنهضة علمية وتقنية كبيرة، لو أحسن العالم الإسلامي تجميعها واستخدامها في ظل وحدة إسلامية تهدف إلى النهوض بالأمة؛ لتمكن العالم الإسلامي من تغيير سياسة القوى العلمية في عالم اليوم، وليس هذا ببعيد، فالخير موجود، وكل آت قريب وذلك عندما تتجرد الأمة لله عز وجل، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(١)].



(١) سورة الرعد: الآية ١١ .

المبحث الثاني
منهج القرآن
في الدعوة إلى استثمار نعم الله في الكون

لقد خلق الله عز وجل الكون وما فيه من نعم، لكي يستفيد منها الإنسان، ويستخدمها في حياته حتى يحقق لنفسه ولأمته مستوى حضاريًا يطعمه من جوع ويآمنه من الخوف، لتحقيق العزة في كل جوانب الحياة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى النعم الكونية التي تعتبر مقومات التقدم العلمي في كثير من آيات القرآن، بدءًا من الثروة البشرية وانتهاء بنعم البحر والبر، وقد جاء ذكر هذه النعم مجتمعة في مطلع سورة النحل، فنجد أن الله عز وجل يعدد النعم على خلقه، فيقول مشيرًا إلى خلق الطبيعة من خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون، ويشير إلى الثروة البشرية قائلًا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[١] ويشير إلى الثروة الحيوانية قائلًا: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٢].

ويشير إلى وسائل النقل والمواصلات فيقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

ويشير إلى الثروة المائية فيقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[٤].

ويشير إلى الثروة الزراعية فيقول: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥].

يشير إلى الطاقة الشمسية والقمرية والليل والنهار: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة النحل: الآية ٤ .
(٢) سورة النحل: الآية ٥ .
(٣) سورة النحل: الآية ٦ – ٨ .
(٤) سورة النحل: الآية ١٠ .
(٥) سورة النحل: الآية ١١ .
(٦) سورة النحل: الآية ١٢ .

ويشير إلى الثروة السمكية والبحرية والتجارية قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

ويشير إلى الثروة المعدنية فيقول: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[3].

ويشير إلى الثروة العلمية والفلكية: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[4] إلى غير ذلك من نعم الله عز وجل التي لا تعد ولا تحصى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

وبعد أن ذكر الله عز وجل هذه النعم الكونية وجه العقول إلى النظر والبحث في الكون واستغلاله للاستفادة من نعم الله في الكون، ومن خلال الآيات القرآنية نجد أن المنهج الذي دعا إليه القرآن يتمثل فيما يلي:

١- الدعوة إلى استخدام العقل لتهيئة حياة بني الإنسان على الأرض وذلك بإصلاحها وتعميرها، فقد جاء القرآن ليخاطب العقول بالحجة والبرهان، فدعا إلى الإيمان بطريق التأمل والنظر والتفكير في آيات الله، والبحث والدراسة والاستنباط لاكتشاف الحقائق التي تهديهم إلى العمل الصالح الذي ينفعهم في دنياهم وأخراهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[8] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[9].

وقالت عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله، بما يتفاضل الناس في الدنيا؟

---

(١) سورة النحل: الآية ١٤ .
(٢) سورة النحل: الآية ١٣ .
(٣) سورة فاطر: الآية ٢٧ .
(٤) سورة النحل: الآية ١٦ .
(٥) سورة النحل: الآية ١٨ .
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٤٢ .
(٧) سورة العنكبوت: الآية ٤٣ .
(٨) سورة يوسف: الآية ٢ .
(٩) سورة الحج: الآية ٤٦ .

قال: «بالعقل». قلت: وفي الآخرة؟ قال: «بالعقل» قلت: أليس يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ: **وهل علموا إلا تقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون»**[١].

وقال ﷺ: «يا أيها الناس إن لكل شئ مطية، ومطية امرء: العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة افضلكم عقلاء.

٢- تقدر قيمة الأرض والدعوة إلى استعمارها بالطرق التي وجه الله إليها فالقرآن الكريم يوجه إلى أن الأرض من أعظم نعم الله[٢] ومن ثم فهي لكل بني الإنسان لاستعمارها والانتفاع بها، ولا يحق لفئة أو طبقة أو شعب أن يحتكرها قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٣] ومن هنا كان التوجيه القرآني إلى حسن الانتفاع بالأرض لتحقيق أسباب الاستقرار المادي، ولأجل ذلك وضع الله سبحانه في تكوين الأرض كل المقومات والصفات التي تسهم في الوصول إلى هذا الهدف وتحقيقه، فقد أحسن الله خلقتها وجملها، ووفر فيها أسباب الراحة والرخاء قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[٥].

وقد وجه النبي ﷺ الأمة إلى إزالة المعوقات التي تحول دون استثمار الأرض وزراعتها، وأهم هذه المقومات احتكارها ممن لا يزرعون ولا يعلمون؛ قال رسول الله ﷺ: **«من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجرها إياه»**[٦] وقال أيضًا: **«من كانت له أرض فليزرعها أو فليحرثها أخاه، وإلا فليدعها»**[٧].

---

(١) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ج٢/ ٦٢، ط بيروت.

(٢) ذكره العراقي على هامش الإحياء ١/ ٨٣.

(٣) سورة هود: الآية ٦١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٥) سورة الزخرف: الآية ١٠.

(٦) أخرجه مسلم في (ك) البيوع، (ب) كراء الأرض، شرح النووي ج١٠/ ١٩٧ (١٥٤٣).

(٧) السابق نفس الكتاب والباب والرقم ج١٠/ ١٩٩.

كما يلحق بالمعوقات التي تحول دون الانتفاع بالأرض والاستيلاء عليها ظلمًا وعدم تمكين الآخرين من الاستفادة منها. وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، قال ﷺ: **«من اقتطع أرضًا ظلمًا لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان»**[١]، وقوله ﷺ: **«من أخذ من الأرض شبرا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»**[٢].

ولقد فتح الإسلام باب البحث والتجريب على مصراعيه لاستغلال نعم الله في الكون، فجعل الانتفاع بمصادر الثروة حقًّا للأمة كلها، ولا يمنع أي إنسان من حق البحث فيها لاستغلالها، وحرم احتكارها من قبل أي طبقة أو فئة؛ قال ﷺ: «والناس شركاء في ثلاث: في الماء، والكلأ، والنار»[٣]، وقال ﷺ: **«من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق بها»**[٤] كما حرم الرسول ﷺ بيع الماء، وهي أن يحجب الزائد منه، فقال ﷺ يرويه جابر: نهى رسول الله ﷺ عن بيع ضراب الجمل وعن بيع الماء والأرض لتحرث[٥]. وقد قال الطبري رضي الله عنه في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[٦] قال: إشارة إلى أن المال للأمة مجتمعة، والباطل هو أن يحتكره البعض دون البعض الآخر، أو يستأثر بوافره دون الآخرين»[٧].

ولقد بلغ الإسلام مبلغًا كبيرًا في الدعوة إلى الاستفادة من نعم الله، في حين ربط بين الأمن المعيشي والأمن الديني، فالأمن المعيشي يقترن بالأمن الديني اقتران الوسيلة بالهدف، فإذا انهدمت الوسيلة وتعطلت فاعليتها؛ صعب تحقيق الهدف، وهذا الاقتران واضح في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام، فتوفر الأمن المعيشي والأمن الاجتماعي سبب في عبادة الله عز وجل وشكره قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً

---

(١) صحيح مسلم، (ك) الإيمان، (ب) وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فأجرة بالنار ج٢/١٦٣ (١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في (ك) المظالم (ب) من إثم من ظلم شيئا من الأرض فتح ج٥/١٠٢ (٢٤٥٤).

(٣) أبو دواد في (ك) البيوع، (ب) في منع الماء ج٣/٢٧٦ (٣٤٧٧)؛ وابن ماجه في (ك) الرهون، (ب) المسلمون وشركاء في ثلاث ج٢/٨٢٦.

(٤) البخاري في (ك) الحرث والمزارعه، (ب) من أحيا أرضًا مواتًا فتح ج٥/١٨، ح (٢٣٣٥).

(٥) مسلم، فى (ك) المزارعه، (ب) تحريم بيع فضل الماء الذي يكون بالغلاه، شرح النووي ج١٠/٢٨٨.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٨.

(٧) جامع البيان ج١٠/١١٧.

﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[(١)] وفي سورة قريش امتن الله عليهم بالأمن الاجتماعي والمعيشي وعليه أمرهم بعبادته، مما يبين أهمية الأمن المعيشي والاجتماعي لتحقيق عبادة الله عز وجل واستعمار الأرض، ولقد بين ذلك النبي ﷺ، فقد روى أبو واقد الليثي رضي الله عنه قال: كنا نأتي النبي ﷺ إذا نزل علينا، فيحدثنا، فقال لنا ذات يوم: «**أن الله عز وجل قال: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادي من ذهب لأحب أن يكون له ثان، ولو كان له واديان لأحب أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب**»[(٢)].

وتأتي الأحاديث الكثيرة لتأمر المسلمين بالخروج إلى الكون والطبيعة، وتدفعهم إلى بذل الجهد من أجل التنقيب عن السنن والنواميس التي في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السموات والأرض، بين مسألة الإيمان والإبداع، وبين التلقي عن الله والتوغل قدمًا في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات؛ لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلو الحضاري على المستوى المادي (المدني).

ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك، لأنه يقف موقفًا شموليًا مترابطًا، ويرفض التقطيع والتجزؤ في تعميم الموقف الحيوي أو الدعوة إليه، ولقد انعكس هذا التوحد بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت القرون الطويلة. وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين، وأنجزت وابتكرت وكشفت، ونفذت الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانبًا من الجوانب المرتبطة جميعًا في العالم وما كان لها أن تكون كذلك، وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن يمسه بوضوح من خلال آيات عديدة[(٣)] منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[(٤)].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧ .

(٢) البخاري (ك) الرقاق ما يتقى من فتنة المال فتح ج١١/٢٥٣ ح (٦٤٣٦) .

(٣) حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص ١٢٠، ١٢١ .

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾[١] وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[٢].

إن القرآن من خلال هذه الآيات وغيرها يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة على مستوى الكون والعالم، وأن يختار لنا موقعًا تجريبيًا يعتمد النظر والتمعن والفحص والاختبار من أجل الكشف والابتكار والإبداع، ومن أجل ألا نفقد توازننا الحضاري فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأساسي للوجود الإنساني على الأرض، وهو عبادة الله والتوجه إليه أخذًا وعطاء[٣].

إن كتاب الله يوجه نظرنا في الآيات السابقة إلى أشد الأمور مادية ثقلًا: الطعام، والنطفة الأولى، والأرض، والسماء، والجبال، وإلى دنيا النبات والحيوان. ويأمرنا أن نبحث عن سنن هذه العوالم لندرك المعجزة من خلقها ولنسخرها في ترفيه حياتنا، مع عدم نسيان الجوانب الروحية. «إن أي حديث عن الكون والطبيعة والعالم وتسخير السموات والأرض ومسائل الرزق والسعي والكسب، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشري، ولأداء مهمته كخليقة جاء لإعمار العالم، ونداءات التسلح، واعتماد القوة المادية إلى جانب القوة الروحية لصد العدوان، أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة وتنظيمات الحياة اليومية تأكيد واضح تمامًا للأهمية التي يوليها القرآن للطبيعة والوجود[٤].

وأخيرًا يربط الله سبحانه وتعالى المسلم بحقيقة مهمة وهو يسعى للتعامل مع السنن الكونية والطبيعة لاكتشاف أسرارها التي تهيئ له مكانًا سامقًا في الحياة، هذه الحقيقة هي أن النظر في الكون والانتفاع به ليس هدفًا في حد ذاته، وإنما الهدف الأكبر هو الوصول لمعرفة الله عز وجل وشواهد ربوبيته وبراهين توحيده في الطاعة والولاء والمحبة. والتمسك بهذه القيم الروحية التى لا غناء للإنسان عنها طالما أن

(١) سورة عبس: الآيات ٢٤-٣٠ .

(٢) سورة الطارق: الآيات ٥-٧ .

(٣) حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص ١٢٣ .

(٤) السابق ص ١٢٦ .

والولاء والمحبة. والتمسك بهذه القيم الروحية التى لا غناء للإنسان عنها طالما أن فيه قلبًا ينبض، وإلى هذه المعاني الروحية وهذا الهدف الكبير يوجه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾(٢).

وآيات القرآن الكريم تبين مظاهر المعرفة التي يريدها الله عز وجل من توجيهه الإنسان إلى النظر في الأرض والكون، فنجد توجيهات قرآنية تلفت النظر إلى علوم أصل الأنواع ونشأة المخلوقات. والطريقة التي أرشد إليها القرآن للوصول إلى ذلك هي السير في الأرض، ودراسة ما على سطحها من كائنات ومخلوقات(٣)، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

وكذلك نجد آيات توجه إلى دراسة علوم الاجتماع البشري الذي جرى على الأرض، وتدعو للتنقيب في آثار المجتمعات السابقة، واكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيارها، وسنن الله في الأقوام السابقة حين تركت ما أنزل الله عز وجل، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٥).

فهذه الآيات وأمثالها تلفت انتباه الأمة إلى أن كثيرًا من الأمم السابقة قد عمرت الأرض، وجعلت العلوم التي ساعدتها على التمكين في الأرض غاية بذاتها، وفرحت بها وتكبرت على خالقها وبطرت معيشتها، وانصرفت عن الغاية الكبرى وهي طاعة الله، وتجسيدها في الإصلاح في الأرض، فكان مصيرها أن نزل بها ما كانت تستهزئ بالآخرين منه من ضعف وتخلف وانهيار(٦)، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي

(١) سورة الجاثية: الآية ٣ .

(٢) سورة الذاريات: الآية ٢٠ .

(٣) في ظلال القرآن ج٥/ ٢٧٢٩ بتصرف، والله/ سعيد حوى ص ٤٤، ط مكتبة وهبة .

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٢٠ .

(٥) سورة الروم: الآية ٩ .

(٦) انظر في ظلال القرآن ج٥/ ٢٧٦٠ .

ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[١].

والمحصلة النهائية من دعوة القرآن للاستفادة من نعم الله في الكون وتسخيرها، والاستفادة منها في ترقية الحياة- هي تخريج نوع من البشر يظلون دائمًا في قراءة الآيات لله عز وجل في الآفاق والأنفس ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٢]، فالتفكير مرتبط بالإيمان وكلاهما لتحقيق العزة ونصرة دين الله عز وجل ونشره بين الناس وليس أدل على ذلك مما جاء في سورة الحديد قول الله عز وجل: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾[٣] ولقد أدرك الإمام الرازي رضي الله عنه وجه العلاقة بين ذكر الكتاب والميزان والحديد في هذه الآية، فقال: «الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله تعالى في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف، والميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف وهذا هو شأن الأمة، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا، لوجب أن يحملوا عليها بالسيف» وذكر رضي الله عنه قوله في منافع الميزان: أن يقوم الناس بالقسط، أما الحديد: ففيه البأس الشديد، فإن آلات الحروب متخذة منه، ومصالح العالم لا تتم إلا بالحديد»[٤].

فالارتباط والتداخل بين إرسال الرسل وإنزال الكتب وإقامة الموازين الدقيقة للنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي حمل في طياته البأس، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، كل هذا يبين

---

(١) سورة غافر: الآيتان ٨٢، ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠، ١٩١ .

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥ .

(٤) مفاتيح الغيب ج١٥/٤٠٦-٤٠٨ باختصار .

كيف أن العقيدة الإسلامية تشد الإنسان إلى أعماق الأرض وتدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها، وأن المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر ونشر الرسالة وإقامة العدل، وبغير ذلك لن يكون هناك نصر ولا تمكن بل الذل والهوان، وأخيرًا أذكر كلمة للأستاذ الدكتور عمارة نجيب قالها في محاضرة، وكان يدرس لي مادة (آيات كونية) في مرحلة الدراسات العليا لازلت أحفظها إلى اليوم وهي تعبر عن مضمون ما سبق: «إن نعم الله في الكون ما هي إلا عقل تحرر فطار في سماء الله ليخدم الإنسان على الأرض».



المبحث الثالث
التفاعل بين الطاقات البشرية والمقومات الكونية لصنع الحضارة الإسلامية

إن الجمع بين الطاقات البشرية والإمكانات الكونية والبيئية معًا في استكشاف وتسخير، والاستفادة بالنتائج هي حصيلة التقدم في أي مجتمع، وبمقدار تشجيع عملية الاستكشاف والتسخير والاستفادة من النتائج تكون نسبة التقدم، وبمقدار إهدار الطاقات البشرية والحيلولة بينها وبين استكشاف وتسخير الإمكانات الكونية والبيئية تكون نسبة التأخر، فإذا تصورنا أن مجموع الطاقات البشرية مع مجموع ما يملك أي شعب أو أمة من إمكانات كونية وبيئية يمثل ١٠٠%، وأن هذه النسبة يملكها أي شعب وأية أمة بما يجد لديه من عقول وطاقات شباب مهما قل عددهم، وما يتوفر لبيئة من سنن إلهية كونية كالطاقة والجاذبية وغيرها من قوانين وسنن إلهية يحملها الكون في أي مكان في العالم، فإن الخامات أيًا كان صنفها أو نوعها تتحول إلى أدوات ووسائل للتقدم والظهور المادي في الحياة البشرية[١].

وإذا كانت الأمة الإسلامية اليوم بددت طاقاتها على مستوى الفرد والجماعة في الصراع على نظم وأفكار وضعية جاءت كنتيجة للصراع الحضاري الطويل، وأصبحت في وضع لا تحسد عليه بين الأمم؛ لاعتمادها على منتجات الحضارة الغربية، وانبهارها بتلك الحضارة لدرجة الغشاوة، مما دفع إلى التقليد والمحاكاة حتى وجدت نفسها منقادة عن طواعية لسلطان تلك الحضارة.

والانبهار بالجديد ليس عيبًا، وإنما العيب هو أن يسيطر الانبهار على الفرد والأمة، ولا ترى إلا بمنظور تلك الحضارة وتتوقف العقول ولا تفكر إلا اعتمادًا على عقول تلك الحضارة فتفقد الأمة ذاتيتها، ويمحى تفكيرها، وتلهث الأنفاس خلف عالم الأشياء في الحضارة الغربية، ولا تهدأ حتى تنال بغيتها منه دون أن تسهم في

(١) فقه الدعوة والإعلام/ ١٣٤ مرجع سابق .

صنعه أو تشارك في إنتاجه، وهذا الوضع أحدث فجوة عميقة بين تراث الأمة وتاريخها المجيد يوم قادت العالم إلى النور، وبين ما تعيشه اليوم من واقع متخلف، في الوقت الذي تفتت فيه الذرة وتحقق الإبداع والابتكار العلمي.

إن النظر في تاريخ الأمة الإسلامية وأسباب ريادتها يعطينا مفتاح الخلاص من التبعية للوصول إلى البناء الحضاري. إن التقدم الذي حققته الأمة ما هو إلا محصلة تفاعل الأمة والمجتمع مع إمكانيات البيئة وجميع ما فيها من قيم ومبادئ وسنن وقوى وموارد مادية وبشرية، وأن رسوخ بنائهم الحضاري ما كان إلا تعبيرًا أصيلاً عن قيم الأمة، وتجسيدًا لكيانها العقدي والنفسي والفكري والسلوكي، وأن تلك الحضارة بقيت ما كانت الأمة متمسكة بوجود هذه القيم والمبادئ.

ولن تعود لهذه الأمة عزتها إلا بالتغير الذاتي، والإعداد الذاتي للأمة وبدونها لا يمكن أن يتحقق التقدم المنشود للأمة.

والتغير الذاتي بينه القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]، وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى يعطي الأمة المسلمة الإرادة في إحداث التغير الذي عن طريقه تستعيد دورها الحضاري الرائد وذلك متى تهيأت هذه الإرادة للعمل على طريق البناء العقدي والاستعداد الروحي والعقلي والجسدي والأخلاقي[3]، فالتغير الذاتي عملية شاملة تعطي الطاقات البشرية كافة عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية، وأي تجزئ في الرؤية أو الموقف يقتل المحاولة[4].

والإعداد الذاتي للأمة المسلمة لحماية الفرد المسلم من الحصار والتضييق والضياع في العالم، والقرآن الكريم يبين ذلك، فيقول: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١ .

(٢) سورة الأنفال: الآية ٥٣ .

(٣) راجع الفصل الأول من هذا الباب .

(٤) العقل المسلم والرؤية الحضارية ص ٤٤، مرجع سابق .

﴿يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾[١] ولا يمكن أن يتحقق هذا الإعداد المطلوب إن لم تستجش طاقات الإنسان المسلم كافة، ويعاد تشكيل عقله كما أراد له الإسلام أن يكون، ليتمكن من أداء دوره المطلوب في هذه المهمة الكبيرة وللوصول إلى شواطئ الأمن واليقين، والتحقيق بسياج القوة التي ترهب الأعداء وتمكن للأمة الإسلامية في الأرض[٢].

والإعداد الذاتي بعد تحقيق التغير الذاتي أمر ليس بعيد المنال في هذا العصر، وأمامنا الأمم التي بدأت من درجة الصفر وحققت إنجازًا حضاريًا لسواعد أبنائها نافست به أقوى أمم الأرض حضارة ومدنية، هذه الأمة هي أمة اليابان التي نهضت بعد أن دمرتها الحرب العالمية الثانية تدميرًا كاملاً، ولكنها استطاعت عن طريق الحفاظ على ذاتيتها واستيعاب أساليب الحضارة المعاصرة أن تصل إلى هذه الدرجة من الرقي والتحضر، والفرق بيننا وبينهم، كما يقول مالك ابن نبي: اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا منها موقف الزبون. إنها استوردت منها الأفكار العلمية بوجه خاص، ونحن استوردنا منها الأشياء بوجه خاص[٣].

لقد تبنت اليابان أكبر حركة للترجمة شملت جميع العلوم والمعارف، فكانت النتيجة انصهار الأفكار العلمية مع إمكانات الإنسان الياباني - بتقاليده وتراثه وقيمه - في بوتقة واحدة نقلت المجتمع الياباني إلى الصف الأول وبدون خسائر تذكر، واليابان دولة فقيرة في مواردها الطبيعية، ولكنها غنية بالإنسان الياباني الملتزم المشغول دائمًا بقضاياه الوطنية، لقد استطاع رجل ياباني اسمه (أوساهير) «أن يسهم إسهامًا عظيمًا في نهضة بلاده التي كانت حتى القرن التاسع عشر أمة حائرة تتلمس طريقها، حتى إنهم أرسلوا بعثة إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل يبحثون عن أسباب تقدم مصر عليهم. وكما يقول الدكتور حسين مؤنس: «وأتأمل اليوم في حالنا وحالهم، وأتلمس الإجابة في قصة هذا الرجل الياباني الذي يمثل ظاهرة العمل التي قفزت باليابان من دول العالم الثالث إلى دولة صناعية كبرى. يقص هذا الرجل (تاكيوا وساهيرا) قصته فيقول: وقد كان في هذا الوقت مبعوثًا من قبل الحكومة اليابانية

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠ .

(٢) العقل المسلم والرؤية الحضارية ص ٤٥، مرجع سابق .

(٣) دراسة في البناء الحضاري ص ٨٦، مرجع سابق .

للدراسة في جامعة «هامبورج بألمانيا»: ولو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني، الذي ذهبت لأدرس عليه في «جامعة هامبورج»، لما وصلت إلى شيء، وكانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم، كيف أصنع محركًا صغيرًا، كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى «موديل» هو أساس الصناعة كلها. وبدلاً من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب علمي أخذوا يعطونني كتبًا لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك أيًا كانت قوته - وكأنني أقف أمام لغز لا يحل.

وفي ذات يوم قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع كان ذلك أول الشهر، وكان معي راتبي. وجدت في المعرض محركًا قوة حصانين، ثمنه يعادل مرتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك، وذهبت إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة، وجعلت أنظر إليه كأنني أنظر إلى تاج من الجواهر، وقلت لنفسي: هذا هو سر تقدم وقوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركًا كهذا لغيرت اتجاه تاريخ اليابان، وطاف بذهني خاطر يقول: إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى: مغناطيس كحدوة حصان، وأسلاك عجلات، وتروس لو أنني استطعت أن أفكك قطع المحرك، وأعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركبوها بها، ثم شغلته واشتغل أكون قد خطوت خطوة نحو سر «موديل» الصناعة الأوروبية، وبحثت في كتبي حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقًا كثيرًا وأتيت بصندوق أدوات العمل، وبدأت أعمل، ورسمت منظر المحرك بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمي أجزاءه، ثم حصلت أفككه قطعًا، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورق بغاية الدقة، وشيئًا فشيئًا فككته كله، ثم أعدت تركيبه وشغلته فاشتغل، كاد قلبي يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل.

وحملت النبأ إلى رئيس البعثة، فقال: حسنًا ما فعلت، والآن لا بد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل وعليك أن تفككه، وتكتشف موضع الخطأ، وتصححه وتجعله يعمل، وكلفتني هذه العملية عشرة أيام، عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاث من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعت غيرها بيدي بالمطرقة والمبرد.. إنني بوذي على

مذهب «رن»، ومذهبي هذا يقدس العمل، فأنت تتعبدهإذ تعمل، وما تعمله بعد ذلك من شيء نافع يقربك من بوذا، بعد ذلك قال رئيس البعثة: عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم ترك محركًا، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك، التحقت بمصانع صهر الحديد والنحاس، والألومنيوم، بدلاً من أن أعد رسالة دكتوراه، كما أراد مني أساتذتي الألمان، تحولت إلى عامل ألبس بدلة زرقاء، وأقف صاغرًا إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أنني من أسرة «ساموراي»، ولكني كنت أخدم اليابان، وفي سبيل اليابان يهون كل شيء.

قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات كنت أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل، كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة، وعلم «الميكادو» بأمري، فأرسل لي من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب اشتريت بها مصنع محركات كاملة، وأدوات وآلات، وعندما أردت شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت فوضعت راتبي وكل ما ادخرته، وعندما وصلنا إلى «نجازاكي» قيل لي: إن الميكادو يريد أن يراني قلت لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً.

استغرق ذلك تسع سنوات، وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات صنعت في اليابان إلى القصر ووضعناها في قاعة خاصة، بنوها لنا قريبًا منه، وأدرناها، ودخل الميكادو، وانحنينا تحية وابتسم، وقال: هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية خالصة، هكذا ملكنا الموديل وهو سر قوة الغرب نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب ثم ذهبنا وصلينا في المعبد، وبعد ذلك نمت عشر ساعات كاملة لأول مرة في حياتي منذ خمس عشرة سنة»[١].

هذه قصة الرجل الذي أسهم في وصول اليابان إلى تلك المكانة التي هي عليها، أعظم ما في هذه القصة: الانتماء الكامل للوطن، تلك هي الروح التي كانت بداية لانطلاق اليابان.

---

(١) مجلة أكتوبر عدد رقم (٢٣٤) وبتاريخ ١٤ يونيه ١٩٨١م.

إن الإسلام قد وضع قواعد وأسبابًا للاستفادة من الطاقات والإمكانيات بنسبتها الكاملة، بل إنه يضاعفها ببعث روح الإخلاص لله في عمله وإتقانه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢]، وقد وصلت الدعوة إلى إخلاص العمل وإحسانه وما يترتب على ذلك في الدنيا والآخرة من حسن الجزاء إلى أكثر من مائة وخمسين موضعًا في القرآن الكريم، وقد جاء في السنة النبوية أحاديث كثيرة، منها حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»**[٣]، وقال ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»**[٤].

وقد ضمن الإسلام بنظامه - السياسي والاقتصادي والاجتماعي - كل الأسباب والوسائل التي تعين كل فرد على العمل، وتستحثه عليه حيث يزيل من سبيله كل ما يعوقه عن العمل، بل يزيل كل ما يتسبب في التقصير أو التهاون في أدائه، فقد قال عمر بن الخطاب: والله لو عثر بعير بشط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه يوم القيامة، ألا تعلموا أني مسؤول عن إصلاح الطريق[٥].

كذلك ضمن نظام الإسلام وسائل المحافظة على العقل والقوة البدنية وتنميتها بالعمل الصالح وأكل الطيبات والعلم والتقوى، والانتهاء عن السكر والزنا واللغو واللعب، وغير ذلك مما يبدد الطاقات.

والنتيجة لهذا التكامل في نظام الإسلام هي الحصول على نسبة مئوية من الطاقة البشرية تزيد حتمًا عن النسبة التي يملكها أي مجتمع يعيش في إطار نظام غير نظام

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥ .

(٢) سورة النحل: الآية ٩٧ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٣/ ١٩١، ط دار الفكر .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده ج٧/ ٣٤٩ (ح) (٤٣٨٦) ط . دار الثقافة العربية، والهيثمي في مجمع الزوائد (ك) البيوع (ب) نصح الأجير ج٤/ ٩٨ .

(٥) أخرجه البيهقي في (ك) شعب الإيمان/ (ب) طاعة أولي الأمر فصل نصيحه الولاة ج٦/ ٣١ .

الإسلام، وبهذه الزيادة يستطيع الإسلام أن ينتقل بأتباعه من أي درك يكونون فيه مهما كان منخفضًا أو متواضعًا إلى أعلى درجات التقدم والخيرية والشرف، بحيث يصبح أتباع الإسلام فعلاً وواقعًا خير أمة أخرجت للناس، فالأمر مرهون بالإسلام حين يصبح التزامًا نقديًا وسلوكيًا نظريًا وعلميًا إيمانًا ونظامًا، وكل قدر من تبديد الطاقة في أي نظام وضعي يقابله قدر من المحافظة على الطاقة وتنميتها في نظام الإسلام، وكل قدر من تبديد الإمكانيات يقابله قدر من المحافظة وشكر النعمة ومضاعفتها في الإسلام، وهذا ما يفسر سر ربط الرسول ﷺ بين الزنا والفقر بقوله ﷺ: «**الزنا يورث الفقر**»(١)؛ أي: شيوعه في الجماعة يبدد جهودها ويصرفها عن تحقيق ما يجب من إنتاج، وربطه ﷺ بين إقامة الحدود وتحقيق المنافع المادية في قوله ﷺ: «**إقامة حد في الأرض خير من أن يمطروا أربعين يومًا**»(٢) وذلك لأن إقامة الحدود يمنع من زيوع الفواحش التي تبدد الجهود(٣).

إن تحقيق التقدم والشرف والريادة وتجاوز الخطوات التي سبقتنا إليها الأمم مرهونة بالعودة إلى الإسلام ذاته، بنظامه الشامل للإدارة والسياسة والاقتصاد والتعليم والإعلام والتربية، وكل مسائل الاجتماع الإنساني. يقول الله عز وجل في سورة المؤمنون ليضع يد الأمة على بداية الطريق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾(٤).

فهذه الآيات ترسم شخصية المسلم في أفقها الأعلى، في صلتها بالله، واستشعارها لعظمته وخشوعها له، وانشغالها بالخير وإعراضها عن اللغو في كل

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ج٦/ ٤٣٢ من حديث ابن عمر.

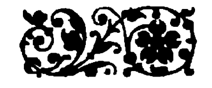
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (ك) الحدود (ب) إقامة الحدود ج٤/٨٤٨ ح (٢٥٣٧).

(٣) فقه الدعوة والإعلام ص ١٣٥، ١٣٦، مرجع سابق

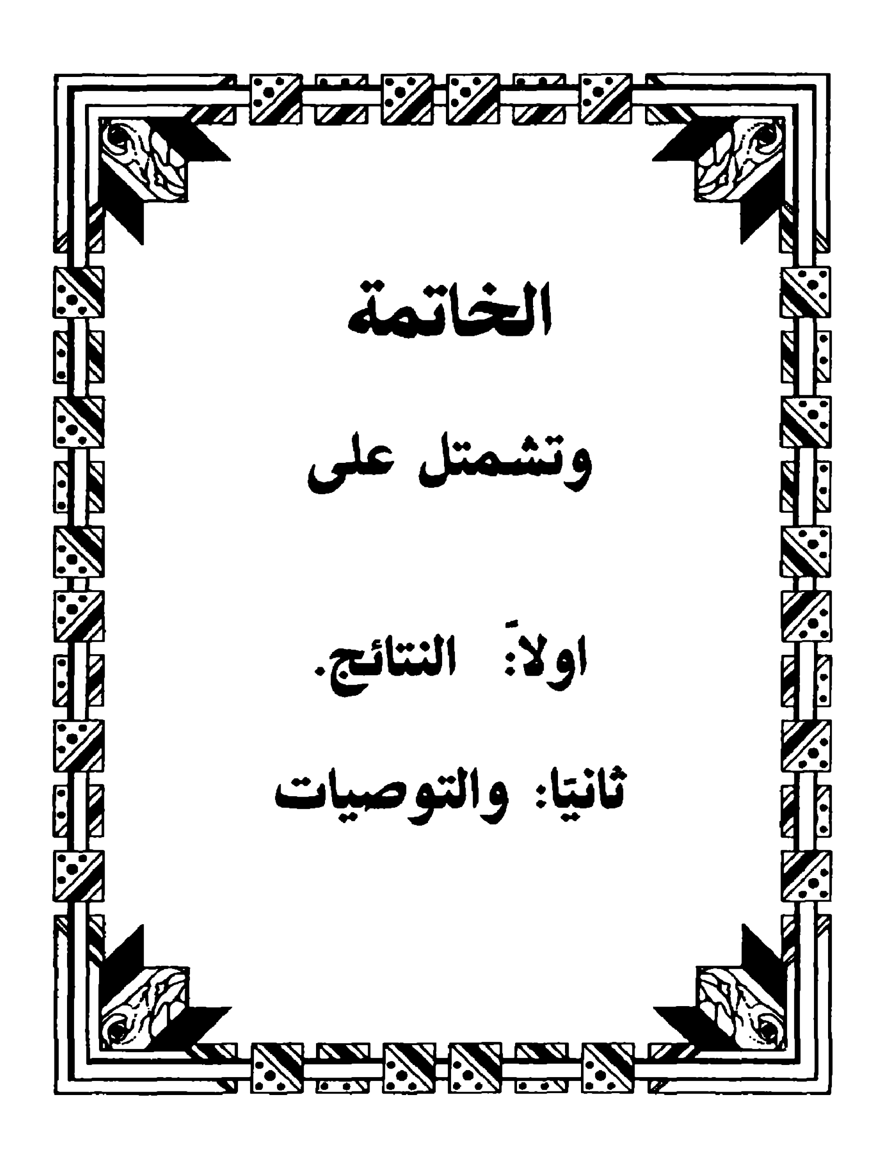
(٤) المؤمنون: الآيات ١ - ١٠.

شيء لغو بفعل، لغو القول، فللإنسان المسلم من تكاليف العقيدة ما يشغله هذا عن اللغو لصيانة حياته، وحياة الجماعة المسلمة ، من الفساد والانحراف، والثبات على المرتقي العالى الذي يتطلبه الإيمان من الإنسان المسلم، وهذا يتطلب منه الإعراض عن كل ضار وسلبي يضيع الوقت بلا فائدة كالربا، والاحتكار بمنطوق النص المباشر أو بمفهوم النص غير المباشر كالتدخين والغناء بقصد الإثارة الجنسية وغير ذلك[١].

فحين يطبق الإسلام بشموله فيحرم ما حرمه الله، ويبيح ما أباحه الله، ويربي الأفراد على خشية الله، وعلى حب البذل والعطاء في سبيله، وإتقان الأعمال ابتغاء مرضاته، ويحبب إلى المجتمع كل عمل نافع منتج، ويكره إليه كل عمل ضار مفسد، بتكريم وتقديم أصحاب الاتجاه الأول، ونذر واحتكار ومعاقبة أصحاب الاتجاه الثاني في ضوء تعاليم الإسلام.



(١) في ظلال القرآن ج٤/ ٢٤٥٤ باختصار وتصرف .



الخاتمة

وتشمتل على

أولاً: النتائج.

ثانيا: والتوصيات

الخاتمة

أولا: النتائج

بعد هذه الدراسة - حول الحضارة والصراع الحضاري بين الشرق والغرب وآثاره على الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، والتي أدعو الله عز وجل أن أكون قد وفقت في عرضها عرضًا جيدًا، وأن أكون قد أصبت الغرض المرجو من البحث من البحث - أسجل ما توصلت إليه من نتائج في النقاط التالية:

١- إن الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله في الكون خلقها الله عز وجل في الوجود حتى تتجدد الحياة البشرية وترتقي إلى الأحسن، وهو صراع شامل على مستوى الكون والطبيعة، على مستوى الإنسان والبشرية، وهو قائم في العلاقات بين البشر ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك لأن التكريم الذي منحه الله عز وجل للإنسان فردًا كان أو جماعة في حرية اختيار ما يريده من الإيمان أو الكفر دون جبر من الله عز وجل، أدى إلى عدم توحد البشرية في اتجاه واحد، وهذا هو السر في استمرار الصراع إلى أن تقوم الساعة قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١].

٢- إن مصادر القوة في الصراع بين الحق الباطل لا تكمن في القوة المادية والعددية، وإنما تكمن في مدى إخلاص أهل الحق لرسالتهم وقضيتهم، ومدى تحقق أسباب النصر فيهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة هود: الآيتان: ١١٨، ١١٩ .

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٥ .

٣- إن الحضارة نتيجة تفاعل الأنشطة الإنسانية لأية جماعة إنسانية في مكان وزمان ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة والكون والإنسان. وتقدم الإنسان وتحضره يتوقف على مدى صلاحية الأفكار والمفاهيم ومدى انسجامها مع الفطرة الإنسانية.

٤- إن الاستعمار الغربي استغل فترة عنفوانه وقوته وفرض إصلاحات سياسية وجغرافية على البلاد العربية والإسلامية مثل الشرق الأوسط ودول العالم الثالث، وذلك لخلق نوع من الانهزام النفسي لهذه الدول، والعمل على إبقائها في مصاف التخلف والتبعية، ومحو هويتها الإسلامية، والتمهيد لزرع الكيان الصهيوني في العالم الإسلامي، وقد كان.

٥- إن القرآن الكريم بين أن الحضارة بدأت منذ خلق آدم عليه السلام، وأن الدين ضرورة لقيامها واستمرارها وعدم انحرافها، وأن الحضارات ما كانت وبالاً على الإنسان والمجتمع البشري إلا من يوم تركت هدى الله عز وجل، وشرعت لنفسها نظمًا ومناهج ما أنزل الله بها من سلطان، فكان ذلك سببًا في سقوطها واندثارها.

٦- لقد توصل البحث إلى بيان المبادئ الأساسية للحضارة الإسلامية، وبيان ما فيها من قيم عليا تلائم الفطرة الإنسانية وتدفعها دفعًا إلى الكون والطبيعة واستخراج ما فيهما من نعم، وتسخير هذه النعم لخدمة النوع الإنساني وترقيته أيًا كان جنسه ولونه وعقيدته.

٧- إن الأصول الحضارية التي قامت عليها الحضارة الإسلامية تخالف أصول الحضارات القديمة ونظمها وأساليبها في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والأخلاق.

٨- اتضح من البحث عظم وعمق الدور الذي قام به المسلمون تجاه الحضارة الإنسانية وإطلاقها من أوهام الجهل والخرافة، كما بين البحث مقدار الجهود التي بذلها المسلمون في سبيل إحياء التراث القديم للأمم وتنقيته، وحجم التراث العلمي الذي اضطلع به المسلمون، ومقدار ما بذلوه من جهد في سبيل إنقاذ البشرية وتوجيهها إلى الطريق السليم لسعادة الإنسان في مختلف الأنشطة الإنسانية.

٩- كما توصل البحث إلى أن الحضارة الغربية قامت على أسس مادية بحتة ليس لها هدف سوى متعة الإنسان على حساب أخيه الإنسان، بعيدة عن كل قيمة عليا

وفيعة، غايتها الاستعلاء على الآخرين واستعبادهم وتحطيم مقدرات الشعوب الأخرى، حتى أصبحت فيلاً، يدوس الضعيف، ويهلك الحرث والنسل.

١٠- كما توصل البحث إلى أن الحضارة الغربية لا تعترف بخالق السموات والأرض، وأن هذا الكون يسير بطريقة آلية وليس له غاية ينتهي إليها، وأن الإنسان الغربي فقد إنسانيته بسبب انحراف هذه الأفكار والنظم عن وحي السماء.

١١- إن من آثار الأفكار والأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية: انتشار الفواحش والجرائم والأمراض التي تعاني منها البشرية والتي استعصى بعضها على العلاج، وهذا من نتاج تعدى البشر على تعاليم السماء التي تحافظ على مقومات الإنسان وقيمه العليا.

١٢- إن تحدي الغرب للإسلام والمسلمين بدأ مع ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، وتطور مع انتشار فتوحاته في شرق العالم وغربه، واتخذ هذا التحدي شكلاً منذ بداية الحروب الصليبية إلى يومنا هذا، وقد اتخذ الغرب التنظيم الدولي وسيلة لفرض الهيمنة غير المباشرة على بلاد المسلمين.

١٣- كشف هذا البحث عن المحاور التي دار عليها الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، كما بين أساليب ووسائل كل محور من هذه المحاور، والهدف الذي ابتغاه الاستعمار من تعدد محاور الصراع، وكيف استطاع استغلال بعض ضعاف النفوس من ذوي المصالح الخاصة للقضاء على الخلافة الإسلامية، وتمزيق شمل الوحدة الإسلامية التي جمعت المسلمين ثلاثة عشر قرنًا من الزمان.

١٤- إن الاستعمار حينما فشل في السيطرة على الأقطار الإسلامية عسكريًا، لجأ إلى أساليب أشد دهاءً ومكرًا آخرها: احتواء المسلمين داخل منظمة الأمم المتحدة للقضاء على كل مقدراتهم الاقتصادية، وذلك عن طريق بيوت المال العالمية التي يشرف عليها اليهود مثل «صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير»، حيث لا يقدم الصندوق والبنك قروضًا للدول الفقيرة وخاصة الإسلامية منها إلا بشروط تفقد هذه الدول ذاتيتها واستقلالها الاقتصادي، ولا يملك بسبب وضعها الاقتصادي إلا الخضوع المطلق للهيمنة الاستعمارية. أما الهيمنة السياسية فعن «طريق

الأمم المتحدة ومجلس الأمن»، والهيمنة الثقافية عن طريق اليونيسكو، واليونيسيف».

١٥- كشف البحث عن الأسلوب الجديد للصراع الحضاري بين الشرق والغرب وهو الغزو الفكري للأمة الإسلامية عن طريق بعض أفرادها من ذوي الأهواء والمطامع الشخصية المنبهرين بالحضارة الغربية. حيث رباهم الاستعمار على الفكر المادي الذي ينكر الشرائع وينتقضها. ومكنهم من مراكز الفكر والتوجيه في الدول الإسلامية.

١٦- كشف البحث أيضًا عن الآثار الخطيرة التي ظهرت في الأمة الإسلامية، وكيف كانت وبالاً على الأمة وأفرادها حيث بين البحث كيف أن الأسلوب الجديد للصراع نال من الأمة ومن قيمها وهويتها ما لم تنله الحروب والجيوش والأساطيل.

١٧- بين البحث الأهداف الخبيثة لعملية تطوير التعليم في البلاد الإسلامية، ودور القوى الغربية في الإشراف عليها، وهي تهدف إلى تغريب عقلية النشء المسلم وتفريغه من كل ما يربطه بالمثل العليا التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف.

١٨- إن القوى الاستعمارية التي تعمل في الخفاء تريد تدمير الأسرة المسلمة وعمل المرأة ومساواتها بالرجل، وقد بين البحث الأهداف الخبيثة من وراء هذه الدعاوي المغرضة، كما بين أن الله سبحانه وتعالى أعطى للمرأة من الحقوق ما يحفظ عليها كرامتها وعفتها، ويعينها على أداء وظيفتها التي خلقها الله عز وجل من أجلها.

١٩- الاستعمار الغربي استغل تقدمه العلمي والتقني في فرض أفكاره الملحدة وأخلاقياته المادية وذلك عن طريق المعونات والقروض، وكان شعاره في ذلك: «ارفع عنك الإسلام نرفع عنك الجوع والعطش».

٢٠- إن الأمة الإسلامية قد حباها الله عز وجل بمقومات بشرية وكونية تؤهلها لأن تسترد مكانتها السامية بين الأمم إذا أحسن استغلالها بتطبيق منهج الإسلام للاستفادة من طاقات الأفراد ومن نعم الله في الكون.

٢١- إن العالم ما جنى إلا القلق والخوف وعدم الأمن في ظل قيادة الحضارة الأوروبية له؛ لأنها قد تنكرت لرسالة السماء وما فيها من قيم سامية، وأصبحت لا تؤمن في الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادية، وفي الحياة السياسية إلا بالقوة

والغلبة، وفي الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية والقومية العنصرية، وثارت على الطبيعة الإنسانية والمبادئ الخلقية، ونسيت مقاصد الحياة.



ثانيــا:
التوصيــــات

على الرغم مما أصاب المسلمين من علل وضعف في هذه المرحلة التي نعيشها في ظل الصراع الحضاري، فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصمًا للعرب وحضارته، ومنافسة له في قيادة العالم، ولذلك فإن عملية تحقيق الوعي الحضاري للأمة الإسلامية وإخراجها من كبوتها الحضارية للنهوض برسالتها تجاه العالم، وإنقاذه من الهوة السحيقة التي قادته إليها الحضارة - الغربية المعاصرة- أمر ميسور وسهل، حين تعد الأمة عدتها وتسير في الطريق الصحيح الذي رسمه الله عز وجل لها، وهذ ا الطريق يمكن أن أتبين أهم معالمه في التوصيات التالية:

١- إن تغير حالة الأمة من الحالة التي هي عليها لا يمكن أن يتم دون أن تغير الأمة ما بأنفسها فردًا وجماعة، حكامًا ومحكومين - لأن هذه سنة الله عز وجل التي فطر عليها أمور الخلائق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. وتغيير ما بأنفسنا لا يتم إلا بالتوبة النصوح إلى الله عز وجل لنصحح مسار حياتنا، بعيدًا عن المؤثرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي ورثناها وورثتها الأمة سواء أكان هذا الميراث من التقاليد والعادات الاجتماعية التي ورثناها عن الآباء أم التي زرعها الاستعمار الغربي في أرضنا فآتت أكلها في النفس والمال والولد. عسى الله عز وجل أن يكفر عنا سيئاتنا ويأخذ بأيدينا إلى الصراط المستقيم الذي هو صراط الأنبياء والصديقين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢- الأمر الثاني وهو تحقيق معنى الإحسان في العبادة بمعناها العام الذي أراده الله عز وجل في كتابه الكريم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

وهذا يعني أن يهيئ كل فرد وجماعة في الأمة في نفسه ومجتمعه أسباب

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١ .

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦ .

الاستخلاف والتمكين، يسبق هذا توفر الشروط اللازمة لذلك من: الإحسان والإخلاص لله وحده، والتجرد له دون سواه، حتى تتفاعل هذه السنن كلها وتمضي بنا نحو الحضارة الإنسانية التي تتطلع إليها الأمة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

٣- لا بد من العودة إلى الذات الإسلامية للتعرف على ملامحها الأساسية كي يتسنى للأمة الإسلامية معرفة الإيجابيات والسلبيات حتى يتم معرفة جوانب القوة والضعف، وهذا يقتضي من الأمة فردًا وجماعة أن تكون لديها شجاعة للاعتراف بالأخطاء التي وقعت فيها والتي جاءت كنتيجة لضعفنا عن مواجهة الصراع، أو جاءت لأن الشيطان سول لنا أن التقدم والحضارة في اتباع قيم الغير والتشبه به، وهذا الوضع يدعو المسلم - أيًا كان وهو في سبيل البحث عن مخرج - أن يبدأ من نقطة أساسية، وهي: من هو؟ وماذا يريد؟ ولا شك أن الإجابة التي ينبغي أن تكون هي أننا مسلمون ولغتنا العربية، ولنا تاريخ معين ورسالة محددة، وعادات وتقاليد وقيم معينة حواها القرآن، وفسرتها السنة النبوية، ومن هنا فإنه يمكن القول بأن الأمة الإسلامية أمة متميزة في القيم والمبادئ والأهداف، فلا يمكن فرض ما لدى الآخرين عليها في كل ما يتعلق بالجوانب الحضارية والثقافية والاعتقادية، فتشكيل الذاتية الإسلامية لابد أن يكون في نظام متكامل شامل لكل جوانب الحياة العامة، وليس ذلك إلا في الإسلام، فهو السبيل للخروج من المأزق الحضاري الراهن، وهو سبيل عزتنا، فقد قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله. ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فالأخذ بمبادئ الإسلام ونظمه من شأنه أن يعيد للذات الإسلامية مقوماتها من جديد.

٤- العمل على إيجاد مؤسسات تشمل المدارس والمعاهد والجامعات ومؤسسات

---

(١) سورة النور: الآياتان ٥٥-٥٦ .

البحث العلمي لتقوم بتنقية مناهج التعليم والعلوم مما علق بها من عادات اجتماعية ونظريات غربية مادية، وذلك عن طريق مراجعة تربوية هدفها تمحيص التراث الإسلامي، وذلك من أجل التعرف على ما كان أصيلاً يتفق مع الإسلام من العادات الاجتماعية الموروثة عن الآباء، وما كان متنافرًا مع الكتاب والسنة من النظريات الغربية. وهذه التنقية من شأنها أن تضع الأمة على الصراط المستقيم الذي يتوافق مع قوانين التغيير القرآنية التي سبق ذكرها.

٥- توجيه مناهج التربية والتعليم في مراحله المختلفة إلى خطط وطرق تربوية الهدف منها تعليم الطالب مضامين العناصر المكونة للأمة فكرًا وعملاً، وتكون المحصلة النهائية لمناهج التربية والتعليم: تنمية الولاء للأمة الإسلامية، وحدها والقضاء على الولاءات العصبية التي تحول دون تنمية الولاء للأمة ورسالتها.

٦- ضرورة التكامل بين التعليم ومؤسساته في المدارس والجامعات وبين الإعلام ومؤسساته لتحقيق أهداف التربية الإسلامية.

٧- ادعو الجماعات الإسلامية العاملة التي تبغي الحق ومناصرته أن تحرر ولاءها لله عز وجل، وأن تتجاوز مواطن الاختلاف فيما بينها، وأن، تتجمع لتعمل صفًّا واحدًا هدفه تخريج أجيال تحمل رسالة الإسلام بوعي كامل بعيدًا عن ولاءات الجماعات والتعصب لها وتحقير الجماعات الأخرى. يجمعها جميعًا عناصر الأمة كما بينها في الباب الأخير وهي (الإيمان، والهجرة، والجهاد، والرسالة، والنصرة، والولاء) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[١].

(٨) لكي تستطيع الأمة تحقيق نهضتها الحضارية لا بد لها من الاعتماد على ذاتها والخروج من دائرة الزبون المستهلك لمنتجات الحضارة الغربية، والوقوف منها موقف التلميذ، فـ «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق الناس بها» وأول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[٢] فبدأ بالقراءة ولم يبدأ بالجهاد أو الصلاة أو الحج أو الزكاة؛ لأن كل عمل لا تسبقه قراءة راسخة محيطة بأهداف

(١) سورة الصف: الآية ٤ .

(٢) سورة العلق: الآية ١ .

العمل وميادينه وطرقه يكون عملاً فاشلاً، والمقصود بالقراءة: معرفة كل ما يتعلق بأحوال الأمم التي تسكن الأرض، ومعرفة ثقافتها ونشاطاتها وحضارتها للاستفادة والتعلم منها، لإيجاد البديل الأحسن كما فعل الغرب مع حضارتنا الإسلامية في عصور ازدهارها، وأمامنا تجربة أمة اليابان كما ذكرتها في ثنايا البحث.

٩- العمل على إحياء المفهوم الصحيح للبحث العلمي والتقني في الإسلام، وتعميق قيم البحث العلمي والتقني في نفوس المسلمين من الباحثين، ووضع الخطط اللازمة لتربية جماهير الأمة تربية علمية أصيلة، قوامها: الإيمان وهدفها: ترقية الإنسان وتطوير الحياة الإسلامية.

١٠- إبراز الدور الحضاري الذي قام به المسلمون في مختلف العصور والعلوم وتحقيق تراثهم العلمي والعمل على نشره وتعليمه، ودراسة الشخصيات البارزة من علماء المسلمين قدامى ومعاصرين لإعادة الثقة إلى نفوس مسلمي اليوم، ودفعهم إلى النهوض بمسؤولياتهم تجاه الأمة.

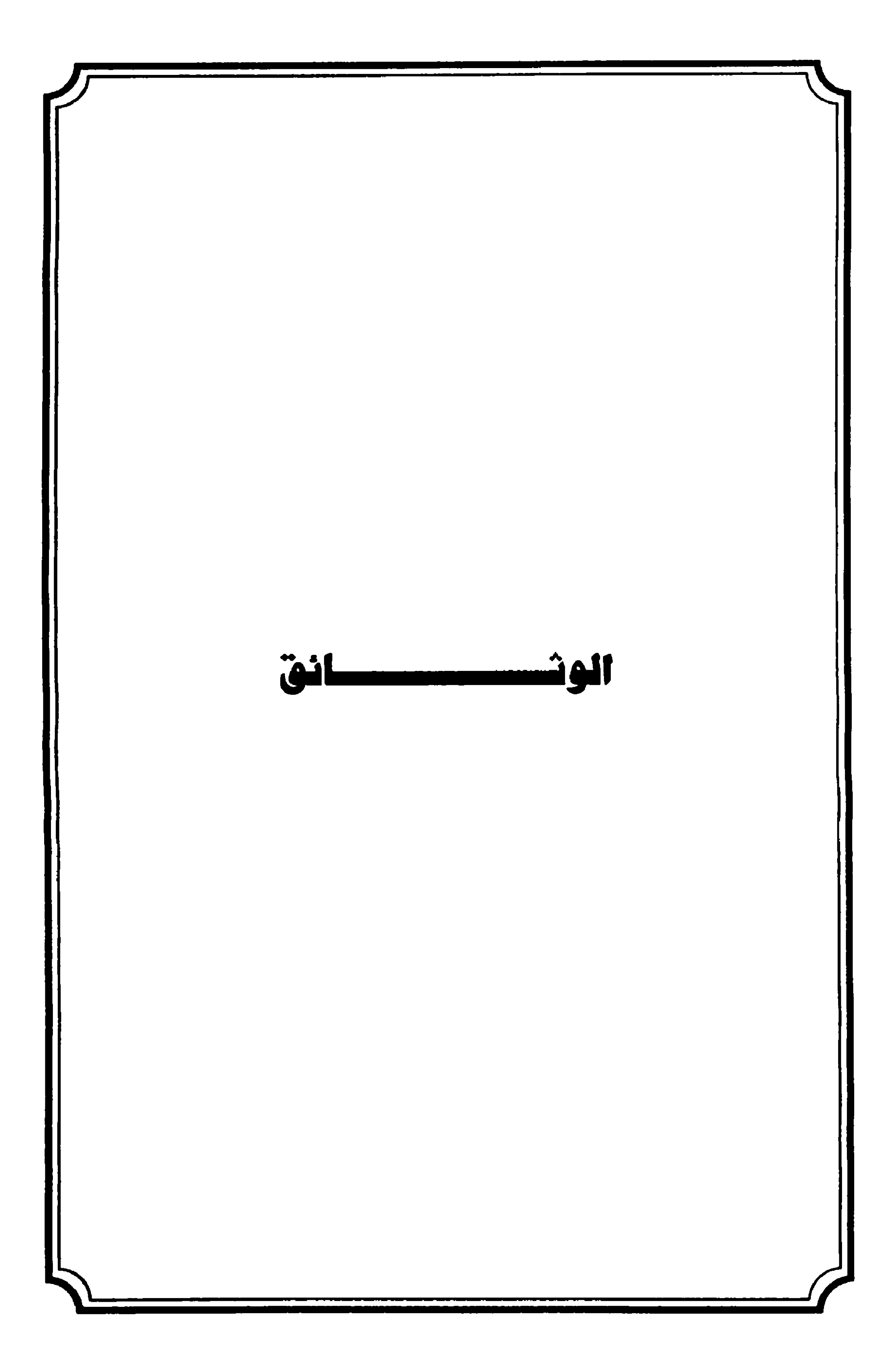
١١- دعوة الناس كافة إلى الإسلام وفي مقدمتهم العلماء والمفكرون وأصحاب الرأي في الكتل العالمية الكبرى وكذلك الدعوة إلى الالتزام الدقيق بالإسلام الصحيح على مستوى الأمة أفرادًا ومجتمعات - والعمل على تطبيق قيمه وأهدافه حتى يتقلص تأثير عمليات التغريب التي تعرضت لها الأمة الإسلامية طوال القرن الحالي بصفة خاصة، وحتى تتمكن القاعدة المسلمة من تحقيق حلمها بالحكومة الإسلامية إن شاء الله.

وأخيرًا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يقيض لتلك التوصيات الآذان الصاغية والعقول الواعية، والقلوب المؤمنة والسواعد العاملة حتى تتحقق صحوة المسلمين، وتتحقق بها نجاة العالم من الهاوية التي يتردى فيها اليوم وقيادته، لسعادة الدنيا والآخرة، وما ذلك على الله بعزيز، والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه تعالى، إنه سبحانه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله أولاً وأخيرًا



الوثـــــــــائق

وثيقة رقم (١)
تقرير عن خطة الغرب لتقليل نسل المسلمين وإبادتهم

الموضوع: بشأن الاجتماع السري
للبابا شنودة الثالث
بالمسؤولين المسيحيين
بالكنيسة المرقصية في ٢٥/ ٣/ ١٩٧٢

السيد/

تحية طيبة وبعد:

بناءً على تعليمات سيادتكم السرية الصادرة إلينا بشأن جمع وتحصيل أخبار الاجتماع الموسع الذي عقده المسيحيون بالإسكندرية برئاسة البابا شنودة الثالث بالكنيسة المرقصية بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٧٢م نقدم لسيادتكم هذا التقرير بأهم ما دار في هذا الاجتماع، وما قاله البابا شنودة الثالث بصوته.

بعد أداء الصلوات والترتيلات طلب البابا شنودة من عامة الحاضرين الانصراف فانصرفوا، ومكث رجال الدين وبعض أثرياء وأعيان المسيحيين بالإسكندرية، وقد استطاع المكلفون بالعمل وضع الأجهزة اللازمة في الأماكن الخفية الصالحة للتسجيل والالتقاط للصوت والإرسال، وقد تم ذلك أثناء الصلوات في مستهل الاجتماع.

بدأ البابا شنودة كلمته بأن بشرهم بأن كل شيء يسير على ما يرام، وحسب الخطة الموضوعة والتخطيط المرسوم لكل جانب من جوانب العمل على حدة في إطار الهدف الموحد، فتحدث عن عدة موضوعات تشمل عدة نشاطات كالآتي:

أولاً: عدد شعب الكنيسة:

صرح بأن مصادرهم في إدارة التعبئة والإحصاء أبلغتهم أن عدد المسيحيين في

مصر أصبح يقارب الثمانية ملايين نسمة، ويجب أن يعلم ذلك شعب الكنيسة، كما يجب عليهم أن ينشروا ذلك ويؤكدوه بين أفراد وفئات المسلمين؛ لأنه سيكون سندًا في المطالب التي سنطلبها من الحكومة، وسنذكرها لكم اليوم.

والتخطيط العام الذي تم الاتفاق عليه بالاجتماع الذي صدرت بشأنه التعليمات الخاصة بتنفيذ التخطيط، وضع على أساس بلوغ شعب الكنيسة إلى نصف الشعب المصري حتى يتساوى عدد شعب الكنيسة مع عدد المسلمين لأول مرة منذ ١٤ قرنًا من الزمان؛ أي: منذ الاستعمار العربي والغزو الإسلامي لبلادنا. على حد قوله، والمدة المحددة في التخطيط للوصول إلى هذه النسبة هي من ١٢ إلى ١٥ سنة من الآن.

ولذلك، فإن الكنيسة تحرم تحريمًا باتًّا وقاطعًا تحديد النسل، وتنظيمه، وتعتبر كل من يفعل ذلك خارجًا على تعليمات الكنيسة، ومطرودًا من رحمة الرب (باستثناء الحالات التي يقرر فيها خطر الحمل أو الولادة) على حياة المرأة، وقد اتخذت الكنيسة لتحقيق هذه الخطة بالنسبة لزيادة عدد المسيحيين:

١- تحريم تحديد النسل وتنظيمه بين شعب الكنيسة.

٢- تشجيع تحديد النسل وتنظيمه بين المسلمين، وخاصة وأن أكثر من ٦٥% من الأطباء، وبعض الخدمات الصحية من شعب الكنيسة.

٣- تشجيع الإكثار من النسل بين شعب الكنيسة بوضع الحوافز والمساعدات المعنوية والمادية للأسر الفقيرة من شعبنا المسيحي.

٤- التنبيه على العاملين بالخدمات الصحية على المستوى الحكومي وغير الحكومي بمضاعفة الخدمات الصحية بين شعبنا المسيحي، وبذل العناية والجهد الوافرين، وذلك من شأنه تقليل نسبة الوفيات بين شعبنا على أن يكون تصرفهم غير ذلك من الاطباء وبعض الخدمات الصحيحة من شعب الكنيسة.

٥- تشجيع الإكثار من النسل بين شعب الكنيسة بوضع الحوافز والمساعدات المعنوية والمادية للأسر الفقيرة، كما تحرم الكنيسة تحريمًا قاطعًا على أصحاب العمارات والمساكن المسيحية تأجير أي مسكن أو شقة أو عمل تجاري للمسلمين، وتعتبر من يفعل ذلك من الآن مطرودًا من رحمة الرب ورعاية الكنيسة.

كما يجب العمل بشتى الوسائل على إخراج السكان المسلمين من العمارات والبيوت المملوكة لشعب الكنيسة، وهذه السياسة الإسكانية إذا استطعنا تنفيذها بقدر الإمكان، فإن من شأنها تشجيع وتسهيل الزواج بين الشباب المسيحيين، وتضييقه بين شباب المسلمين، مما يكون له أثره الفعال في الوصول إلى هذا الهدف، حيث لا يخفى أن الغرض من هذه القرارات هو انخفاض معدل الزيادة بين المسلمين، وارتفاع هذا المعدل بين الشعب المسيحي.

ثانيًا: اقتصاد شعب الكنيسة:

قال: إن المال يأتينا كما نطلب، من ثلاثة مصادر: أمريكا، والحبشة، والفاتيكان، ولكن يجب أيضًا أن يكون الاعتماد الأول في تخطيطنا الاقتصادي على مالنا الخاص الذي نجمعه من الداخل، ويكون بالتعاون والزيادة من فعل الخير بين أفراد شعب الكنيسة.

كذلك يجب الاهتمام أكثر لشراء الأرض وتنظيم وتنفيذ نظام القروض والمساعدات لمن يقومون بذلك لمساعدتهم على البناء، وقد ثبت بالإحصائيات الرسمية أن أكثر من ٦٠٪ من عمارة مصر الداخلية بأيدي المسيحيين، ويجب العمل على زيادة هذه النسبة، وتخطيط اقتصاد للمستقبل يتركز على إفقار المسلمين، ونزع الثروة من أيديهم ما أمكن بالقدر الذي يعمل به هذا التخطيط على إثراء شعبنا، لذلك يلزم المداومة على تذكير شعب الكنسة، والتنبيه عليهم مشددًا من حين لآخر لمقاطعة المسلمين اقتصاديًا، والنهي عن التعامل المادي معهم نهائيًا نهيًا تامًا، إلا في الحالات المستحيلة، وذلك يعني مقاطعة المحامين من المسلمين، والمحاسبين، والمدرسين، والأطباء، والصيادلة، والعيادات والمستشفيات الخاصة التي يملكونها، والمحلات التجارية الكبيرة والصغيرة، وكذلك الجمعيات الإسلامية إن أمكن ذلك ما دام يمكن التعامل مع إخوانهم من شعب الكنيسة لسد حاجتهم.

كما يجب التنبيه والتذكير على مقاطعة صناع المسلمين، وحرفييهم تمامًا، والتعامل مع الصناع المسيحيين والحرفيين، ولو كلف ذلك الفرد المسيحي الانتقال والجهد

والمشقة. ثم قال: إن هذا الأمر مهم جدًّا وخطير بالنسبة للتخطيط المالي والتخطيط العام على المدى القريب والبعيد.

ثالثًا: الجانب التعليمي:

قال: إنه يجب - بالنسبة للتعليم العام المسيحي- الاهتمام بالسياسة التعليمية المتبعة حاليًا بالكنائس مع مضاعفة الجهد المبذول في ذلك، وخاصة أن بعض المساجد بدأت تقوم بمهام تعليمية، كالتي تقوم بها كنائسنا، وذلك سيجعل مضاعفة الجهد المبذول حاليًا أمرًا حتميًّا حتى تستمر النسبة التي نحصل عليها من مقاعد الجامعات وخاصة في الكليات العملية.

ثم قال: إني إذ أهنئ شعب الكنيسة وخاصة المدرسين منهم بهذا الجهد وهذه النتائج حيث قد وصلت نسبة بعض الوظائف المهمة الخطيرة مثل: الطب، والصيدلة والهندسة وغيرها إلى أكثر من ٦٥٪ في أيدي الشعب المسيحي، فإنني أدعو لهم المسيح والرب يسوع المخلص أن يمنحهم بركاته وتوفيقه، حتى يواصلوا الجهد لزيادة هذه النسبة في المستقبل القريب.

رابعًا: التبشير:

قال: إنه يجب مضاعفة الجهد والتبشير الحالية، على أن الخطة التبشيرية - التي قد وضعت - قد بنيت على أساس التركيز في التبشير بين الفئات والجماعات أكثر من التبشير بين الأفراد، وذلك على أساس أن الهدف الذي اتفق عليه من التبشير في المرحلة القادمة هو زحزحة أكبر عدد ممكن من المسلمين عن دينهم والتمسك به، على ألا يكون من الضروري دخولهم في المسيحية، ويكون المقصود من التركيز على بعض الحالات والأفراد لدخولهم المسيحية هو زعزعة الدين في نفوس المسلمين، وتشكيك الجموع الفقيرة منهم في كتابهم، وفي صدق محمد.

ولذلك يجب على جميع الوسائل وشتى السبل استغلال كل إمكانيات الكنيسة في التشكيك في القرآن، وإذا نجحنا في تنفيذ المطلوب من هذا المخطط التبشيري في المرحلة المستقبلية، فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات عن طريقنا، وحتى

هذه الحالة فهي إن لم تكن معنا، فلن تكون علينا، وعلى أن يراعى في تنفيذ المخطط التبشيري بالذات أن يتم بطريقة هادئة (لبقة- ذكية) حتى لا يكون ذلك سببًا في إثارة حفيظة المسلمين ويقظتهم، والخطأ الذي حدث في المحاولات التبشيرية الأخيرة التي نجح مبشرونا في هداية بعض المسلمين هو تسرب أنباء هذا النجاح إلى المسلمين مما يسبب صحوتهم، وقد ثبت من تاريخهم الطويل معنا أنه ليس بالأمر الهين، وهذه اليقظة من شأنها أن تفسد علينا مخططاتنا المدروسة، وتؤخر نتائجها ومسارها، وتضيع جهودنا هباء.

ولذلك فقد أصدرت التعليمات بهذا الخصوص وستنشر على جميع الكنائس؛ لكي يتصرف الجميع من شعبنا مع المسلمين بطريقة ودية لامتصاص غضبهم، وإقناعهم بكذب هذه الأنباء، كما تم التنبيه على رعاة الكنائس والآباء والقساوسة بمشاركة المسلمين احتفالاتهم الدينية، وتهنئتهم بأعيادهم، وإظهار المودة والمحبة لهم، وعلى شعب الكنيسة في المصالح والوزارات والمؤسسات وكل أماكن الاحتكاك، إظهار هذه الروح لمن يخالطونهم من المسلمين.

ثم قال بالحرف الواحد: إننا يجب أن ننتهز ما هم فيه من نكسة ومحنة؛ لأن ذلك في صالحنا، ولن نستطيع إحراز أية مكاسب أو أي تقدم نحو هدفنا إذا انتهت المشكلة مع إسرائيل، سواء بالسلم أو بالحرب.

ثم هاجم من أسماهم ضعفاء القلوب الذين يقدمون مصالحهم الخاصة على مجد شعب الكنيسة وتحقيق الهدف الذي يعمل له الشعب المسيحي منذ زمن بعيد من التاريخ. وقال: إنه لم يجد مانعًا من التقدم إلى الحكومة رسميًا بمطالب سترد فيما بعد حيث إنه إذا لم يكسب شعب الكنيسة في مصر في هذه المرحلة أية مكاسب على المستوى الرسمي، فربما لا يستطيعون إحراز أى تقدم بعد ذلك.

ثم قال بالحرف الواحد: وليعلم الجميع وخاصة ضعفاء القلوب أن القوى الكبرى في العالم تقف وراءنا، ولسنا نعمل وحدنا، ولا بد أن نحقق الهدف، ولكن العامل الأول والخطير في الوصول إلى ما نريد هو وحدة شعب الكنيسة وتماسكه وترابطه، ولكن إذا تبددت هذه الوحدة وهذا التماسك، فلن تكون هناك قوى على الأرض، ومهما عظم شأنها في إمكانها ومقدورها أن تساعدنا.

ثم قال: وسوف لا أنسى موقف هؤلاء الذين يريدون أن يفتقوا وحدة شعب الكنيسة، وعليهم أن يبادروا فورًا بالتوبة وطلب الغفران والصفح، وألا يعودوا لمناقشة ومخالفة تشريعنا وأوامرنا، والرب يغفر لهم. (يشير إلى خلاف وقع بين المسؤولين منهم حيث كان هذا البعض يريد التريث وتأجيل تقديم المطالب المزعومة إلى الحكومة).

ثم عدد البابا شنودة الثالث المطالب التي صرح بأنه سيتقدم بها رسميًا إلى الحكومة:

١- أن يصبح مركز البابا الرسمي في البروتوكول السياسي للدولة بعد رئيس الجمهورية وقبل رئيس الوزراء.

٢- أن تخصص لهم ٨ وزارات في الوزارة.

٣- أن يحدد لهم ربع القيادات العليا في الجيش والبوليس.

٤- أن يخصص لهم ربع القيادات المدنية كرؤساء مجالس المدن، ورؤساء مجالس المؤسسات والشركات، والمحافظين، ووكلاء الوزارات، والمديرين العموميين.

٥- أن يؤخذ رأي البابا عند شغل هذه النسبة في الوزارة والمراكز العسكرية والمدنية الرئيسية، وسيكون له حق ترشيح بعض العناصر والتعديل.

٦- أن يسمح لهم بإقامة إذاعة خاصة بهم من تمويلهم الخاص.

وأخيرًا، ختم حديثه بتبشير الحاضرين، وطلب منهم نقل هذه البشرى إلى شعب الكنيسة حيث إن أملهم الأكبر في عودة البلاد والأرض إلى أصحابها من أيدي الغزاة العرب (على حد تعبيره) قد بدأ وشيكًا وليس في ذلك أية غرابة (في زعمه)، وضرب لهم مثلاً بأسبانيا النصرانية التي ظلت في أيدي المستعمرين المسلمين قرابة سبعة قرون ثم عادت لأصحابها النصارى.

ثم قال بالنص: (وفي التاريخ المعاصر عادت أكثر من بلد إلى أهلها وبعد أن طردوا منها منذ قرون طويلة جدًا). ولعله يقصد من هذه الدول إسرائيل، وفي ختام الكلمة والاجتماع أنهى حديثه ببعض الأدعية الدينية للمسيح الرب الذي (يحميكم ويبارك خطواتكم). على حد قوله.

وإذ نقدم لسيادتكم ذلك، نضع الأشرطة التسجيلية لهذا الاجتماع رهن إشارتكم، ونرجو أن نكون قد وفينا بأوامر سيادتكم في انتظار تعليماتكم وأوامركم وشكرًا.

٢٨/ ٣/ ١٩٧٢م

المصدر:

١- معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير/ محمد سليمان الجبهان ص٣٥ .

٢- قذائف الحق/ محمد الغزالي ص٦٢ .

٣- النظم الإسلامية/ دكتور عمارة نجيب محمد ص١٤٦ .

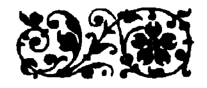


وثيقة رقم (٢)
الفجوة بين الغرب والشرق

مؤشرات مختارة	الغرب	الشرق
عدد السكان:	١,١١٦ مليون نسمة	٤,٢٧٤ مليون نسمة
نسبة سكان المدينة:	٧٣%	٣٤%
المساحة :	٥٤,٤٦١,٠٠٠ كم٢	٧٨,٣٢٩,٠٠٠ كم٢
عدد المزارعين والفلاحين:	٣٥ مليون مزارع	١٥٠٠ مليون مزارع
إجمالي الناتج القومي:	١,٥١٨,١٨٣,٠٠٠,٠٠٠ دولار	٢,٥٦٠,٧٩٦,٠٠٠,٠٠٠ دولار
النسبة المئوية من إجمالي الناتج القومي العالمي:	٧٨ %	٢٢%
النسبة المئوية من إجمالي الناتج الصناعي العالمي:	٩١ %	٩%
متوسط دخل الفرد السنوي:	٩٤١٧ دولار	٥٢٤ دولار
الإنفاق السنوي على التعليم:	٥٤٦,٧٤٣,٠٠٠,٠٠٠ دولار	٩٧,٧٥٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار
إجمالي الإنفاق العسكري:	٧٠٠ مليون دولار	١٥٠ مليون دولار
إجمالي الإنفاق السنوي على الصحة:	٥٥٠ مليون دولار	٣٨ مليون دولار
متوسط نصيب الفرد من الإنفاق الصحي السنوي:	٤٥٤ مليون دولار	١١ دولار
متوسط نصيب الفرد من الإنفاق التعليمي السنوي:	٤٩٠ دولار	٢٨ دولار
نصيب الفرد من السعر الحراري اليومي:	٣٣٩٥ سعرا حراريا	٢٤٩٢ سعرا حراريا
الحاصلون على ماء صالح للشرب من السكان:	٩٧%	٥١%
متوسط عمر الفرد:	٧٣ سنة	٥٩ سنة
معدل الوفيات من الرضع:	١٧ وفاة	٩٠ وفاة
عدد السكان لكل طبيب:	٣٨٠ نسمة	٢١٤٠ نسمة
نسبة المتعلمين:	٩٩%	٦٠%

هذه الإحصائيات تشمل المسلمين وغيرهم من الأقليات الأخرى.

المصدر: التقرير السادس عن صحة العالم- إصدار منظمة الصحة العالمية- عدد يونيو ١٩٨٠م، ومجلة صحة العالم ١٩٨٢م.



وثيقة رقم (٥) ملحق (ب)

نموذج من كتاب القراءة العربية للصف الثالث الابتدائي

وثيقة رقم (٥) ملحق (ب)

نموذج من كتاب القراءة العربية الصف الثالث الابتدائي

كلنا نحب الرائحة الطيبة ، وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نتطيب (١) حين نذهب إلى المسجد للصلاة ؛ لأن ذلك يجعل رائحة المسجد طيبة . ونحن نجد معظم المصلين يوم الجمعة يتطيبون بالروائح العطرة ، أسوة برسول الله ﷺ ، وكذلك نقدم العطور هدية لأصدقائنا وأقاربنا في المناسبات السعيدة . وفي فترات المرض ؛ لندخل السرور والبهجة على قلب المريض . فيتفاءل بالشفاء في سرعة .

فهل تعرف من أي شيء يصنع العطر ؟

نحن نحب رائحة العطور . ونحن نقدم العطور هدية لأصدقائنا وأقاربنا في المناسبات السعيدة . وفي فترات المرض : لندخل السرور والبهجة على قلب المريض .

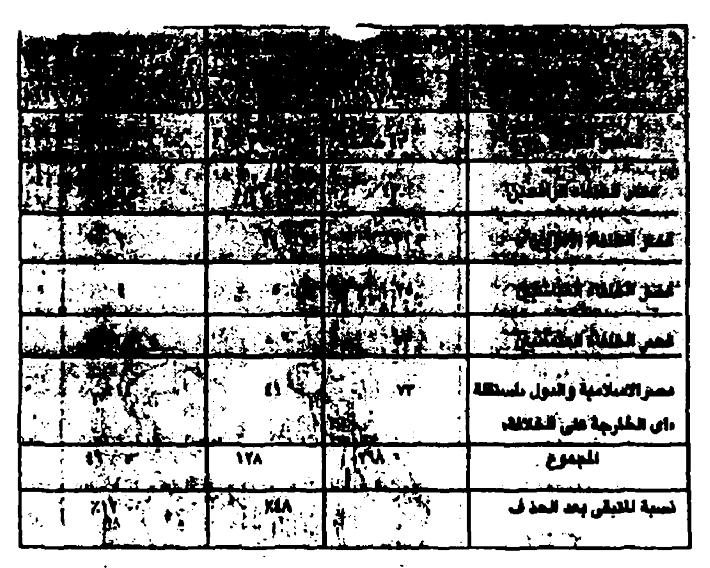
فهل تعرف من أي شيء يصنع العطر ؟

والموضوع بعنوان « العطور »
في طبعة عام ٨٩/ ٩٠ ص ٢٢
ذكر التطيب عند الذهاب إلى المسجد وأن ذلك يجعل رائحة المسجد طيبة
وذلك اقتداء برسول الله .

وقد حذف هذا الكلام من نفس الموضوع عام ٩٠/ ٩١ ص ١٢٧ ، ١٢٨

وثيقة رقم (٦) ملحق (أ)

التطوير في كتب التاريخ



[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
مصر الاسلامية والدول المستقلة والدول الخارجة على الخلافة	٧٣	٤١	[illegible]
المجموع	٢٩٨	١٢٨	[illegible]
نسبة الباقي بعد الحذف	[illegible]	٪٤٨	[illegible]

وثيقة رقم (٦) ملحق (١)
التطوير في كتب التاريخ

قام تطوير كتب التاريخ في المؤسسات التعليمية على أساس حذف التاريخ الإسلامي من التعليم الإبتدائي وأصبح يدرس بدلا منه تاريخ الفراعنة • كما ألغى التاريخ الاسلامي من التعليم الإعدادي وأصبح يدرس بدلا منه تاريخ الوثنيات القديمة بالوطن العربي وفي التعليم الثانوي حذف كثيرا من التاريخ الإسلامي وما بقى منه لا يتعدى سوى صفحات معدودة لدرجة ان شخصية عمر بن الخطاب صارت تدرس في سبعة أسطر فقط) وسيدنا عثمان في خمسة أسطر وما بقى منه محرف ومفرغ من مضمونه التربوي •

وهذه إحصائية بما تم كما ذكرتها جريدة الأسرة العربية في عددها الصادر في ٢٤ ذو القعدة ١٤١٣ هـ الموافق ١٦ مايو ١٩٩٣م •

وثيقة رقم (٦) ملحق (ج)

التطوير في كتب التاريخ

وثيقــة رقم (٦) ملحق (ج)

هذا النص من كتاب تاريخ مصـر والعالم القديم والمقرر على طلبه الصف الاول من التعليم الثانوى وقد شوه المؤلف نبى اللـــه سليمان نوصفه بالإسراف وان ذلك كان سببا فى انقســام المملكه العبرانية الى اسرائيل ويهوذا .

فى حين أن الله تعالى ذكر عن سيدنا سليمان عبادتـه وإنابته لله عز وجل فى صورة "ص" قال تعالى ,, ووهبنا لداود سليمان نعم العبـد إنه أواب . الآيـة رقم "٣٠" إلى أن قال وإن لـه عندنا لزلفى وحسن مآب الآية رقم "٤٠" من السورة ـ كذلك يدعى بأن أخناتون هو أول من نادى بالتوحيد وهذا غير صحيـح لانه من ذريـه آدم عليه السلام أبو البشـر وقد كان آدم هذا هو من دعى الناس إلى توحيد الله كما ادعى بأن اليهودية أول ديانة توحيدية بالمنطقـة . وهذا غير صحيح لأن الله سبحانه وتعالى أرسل لكل أمة رسولا ليدعوهم إلـى توحيد الله عز وجل ولم تخل أمة مـن الأمم فى عصر من العصور من رسول يدعوها الى التوحيد قال تعالى " وما أرسلنا مـن قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لااله إلاأنا فاعبدون " الانبياء " آيـه ٢٥

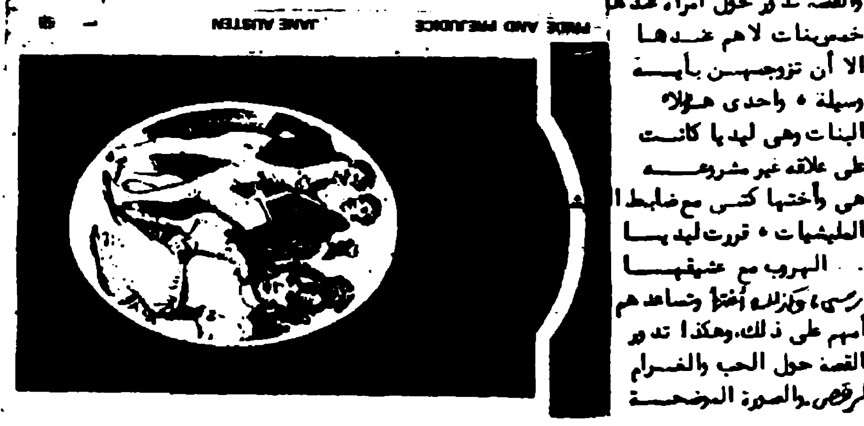
المملكـة العبـرانيه

الشريعة الموسوية

فكان هذا الملك ... نادى فى مصر

وثيقة رقم (٧) ملحق (ب)

التطوير في كتب اللغة الإنجليزية



وثيقة رقم (٧) ملحق رقم (ب)

كما

كما تقوم الروايات المقرره في مادة اللغة الانجليزية بنفس الدور، فهذا الغلاف هو لقصة بعنوان الكبرياء والتحامل المقرره على الصف الثالث الثانوى أدبـى. والقصة تدور حول امرأة عندها خمس بنات لاهم عندها الا أن تزوجهن بأية وسيلة. واحدى هؤلاء البنات وهي ليديا كانت على علاقه غير مشروعة هي وأختها كتى مع ضابط الميليشيات. قررت ليديا الهروب مع عشيقها دارسي، وكذلك أختها وساعدهم أمهم على ذلك، وهكذا تدور القصة حول الحب والغرام والرقص والصورة الموضحة لغلاف القصة تبين ما بداخلها. وترجمه هذا الغلاف كما يلي :-

تعال يا دارسي. أنا أكره أن أراك منطويا على نفسك. فانا أرى لك أن ترقص.
ولكن لن أرقص. لان اخواتك مشغولات بكل واحدة مشغوله بالرقص مع آخر. ولا توجد امرأة اخرى أستطيع ان أرقص معها. قال بنجلى أخ النسى أكون مثلك أنا لم أقابل بنات جميلات في حياتي كما رايتهن هنا.

- ولكنك أنت ترقص مع السيدة الوحيدة الجميلة حسنة الهندام. قال دارسي وهو ينظر الى السيدة بنت آه هي أجمل مخلوق رأيته في حياتي. ولكن هنات واحدة من إخواتها جالسة خلفك مباشرة جميلة جدا واقول إنها مناسبة جدا. إسمح لى أن أطلب من هذه السيدة الحسناء أن تقدمك لابنتها.

هكذا يتعلم الطلاب اخلاق الحضارة الغربية رقص، تحلل، ذهاب لمعاني الشرف وهذا ما يريده زويمرو دنلوب وغيرهم من أبناء جلدتنا ١١.

وثيقة رقم (٥)
ملحق (ج)
الموضوعات التي حذفت بكاملها
والموضوعات التي حلت محلها

الموضوعات التي حذفت من كتب القراءة تحوي نصوصًا قرآنية وأحاديث نبوية وموضوعات تربوية إسلامية، وكلها مما يحض الطلاب على فعل الخير وتبغضهم من فعل الشر. من هذه الموضوعات:

١- الصف الثاني الابتدائي- موضوع البطل الصغير، وهو يحث على الجهاد دفاعًا عن الإسلام، ومن عباراته قول قائد الجيش من إن جيشًا فيه مثل هذا الغلام لا يمكن أن يهزم، ولا بد أن ينتصر بإذن الله من (ص ٢٦٠ ط ١٩٨٩).

كذلك حذف موضوع الولد الشجاع (ص ١٢٨ط ١٩٨٩) وهو يحكى قصة ثبات وشجاعة عبدالله بن الزبير عندما فر أصحابه لما رأوا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكذلك موضوعات آداب الطريق، عظماء من الطفولة، والطفولة والمستقبل، نساء مبشرات بالجنة، على عرفات كتاب القراءة العربية للصف الخامس الابتدائي، ط عام ١٩٨٩/ ٩٠ استبدلوا بها موضوعات ليست لها قيمة تربوية هادفة، مثل: موضوع التاجر والعفريت ص ٢١٨، ط ١٩٩٠ للصف الخامس الابتدائي، وموضوعات نجيب محفوظ وجائزة نوبل ص١١٨ للصف الأول الإعدادي، وغير ذلك كثير.

وفي موضوعات «الأناشيد» تم حذف كل ما ينمي معاني الدين بالعقيدة، فقد حذف نشيد «الله ربي» من كتاب القراءة للصف الثاني الابتدائي ط ١٩٩٠ ص٧ .

وفي كتاب القراءة والنصوص للصف الأول الإعدادي ص١٤٧ قرأت قصيدة لنزار قباني بعنوان «عند الجدار» يصور فيها حالة غرام بين طفل وطفلة حيث يعبر الطفل عن مشاعره نحو الطفلة بعد أول لقاء فيقول:

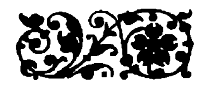
ليلتها عدت إلى فراشي   فطار مني واستحال نومي

واحـتـرقـت مـخـدتـي بـنـاري وأقـبـلـت عـلـى الـدمـوع أمـي

تـقـول يـا شـقـي كـيـف تـفـشـي زاويـة الـجـدار دون عـلـمـي

ومما يزيد الأمر سوءًا شرح المؤلف للأبيات حيث يقول: وفي المساء حين ينتهي اللقاء ويدخل الطفل في فراشه ويعتصر الألم لفراقها، وتسيل من عينيه دموع الحب البريء حارة غزيرة تكاد تحرق مخدته... وحين أبصرت أمه هذه الدموع أشفقت عليه، وتألمت لحاله، فقد أحس أن نيران الحب قد أدركته.

وغير ذلك كثير.



وثيقة رقم (٥)
ملحق (د)

تشويه الإسلام ومفاهيمه وتدريسها للطلاب:

أ- قصة «الشيخان» تأليف الدكتور طه حسين.

١- التشكيك في أحاديث الإمام البخاري وغيره من الثقات في موضوع استخلاف سيدنا أبي بكر رضي الله عنه. حيث قال بعد هذا كله في الطبعة الأصلية من الكتاب ص ٢٥ : «إني أشك كل الشك في هذا كله، وأكاد أقطع بأنه مما تكلفته الفرق السياسية، ومهما يكن من شيء، فقد قبض النبي ﷺ ولم يوص لأحد لا لأبي بكر ولا لغيره» ط دار المعارف.

وهذا الحديث الذي رفضه طه حسين رواه الإمام مسلم ٧/ ١١٠ والإمام أحمد ج ٦/ ١٤٤، والبخاري في كتاب الأحكام باب الاستخلاف ج ٩/ ١٠٠ .

والأحاديث التي جاءت فيها الوصية على استخلاف أبي بكر كثيرة في كتب السنة.

٢- الادعاء بأن القرآن والسنة لم ينظما صورة أمر الخلافة وذلك في ص٢٥ كما هو مذكور، وهذا افتراء على الله ورسوله، والصحيح أن الإمامة والخلافة نظام إسلامي منذ خلق الله آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] وقد قال القرطبي: هذه الآية دليل على وجوب تنصيب إمام وخليفة يسمع له ويطاع لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به الأحكام. الجامع لأحكام» القرآن جـ١/ ٢٤٦ .

وغيرها كثير مما وضح عنه النظام السياسي وغيره من النظم الإسلامية.

٣- التشكيك فيما دار في اجتماع السقيفة الذي نتج عنه استخلاف أبي بكر. وهو بهذا يضع

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠ .

في ذهن الدارسين في كل ما جاء عن النبي ﷺ وعن صحابته رضوان الله عليهم؛ أن: يشكك في صحه السنة النبوية الشريفة

٤- يدعي أن الشريعة لم تضع حدًّا لشارب الخمر، وإنما ابتكره- حسب زعمه- عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-، وهذا كذب يرده ما جاء في السنة النبوية في مسند الإمام أحمد وأبي داود وابن ماجه وغيرهم عن رسول الله ﷺ: «إذا شربوا الخمر فاجلدوهم، ثم إن شربوا فاجلدوهم، ثم إن شربوا فاجلدوهم، ثم إن شربوا فاقتلوهم» أبو داود جـ٢/ ٤٧٣، وابن ماجه ج٢/ ١٢١، وابن حبان رقم (١٥١٩) والحاكم ج٤/ ٣٧٢، وأحمد ج٤/ ٩٥، ٩٦، ١٠١

وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط الصحيحين صورة (سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٣/ ٣٤٧)، فحد الخمر ثابت شرعه الله سبحانه وتعالى لنبيه بالسنة القولية والفعلية، واستمر على عهد أبي بكر وعمر، فلم يشرع عمر رضي الله عنه حدًّا من حدود الله، ولم يبتكره كما يدعي طه حسين، ويريد المطورون أن يعلموه لأبنائنا الطلاب.



وثيقة رقم (٥) ملحق (هـ)
تشويه شخصية السيدة خديجة رضي الله عنها
– السفور من خلالها.

في قصة خديجة بنت خويلد المقررة على الصف الثاني الإعدادي ط عام ١٩٩٠ أساء فيها المؤلف لشخصية السيدة خديجة رضي الله عنها، وإظهار حياتها في مظهر مفرط في اللهو والمرح والاختلاط.

بينما لم تذكر المصادر التاريخية عن السيدة خديجة إلا كصاحبة مال تستأجر التجار ليتاجروا لها في مالها، أو كزوجة مسلمة تنفق مالها، لنصرة دين الله وتقف وراء الرسول ﷺ تعينه وتثبته.

ولم تشر القصة إلى ذلك من قريب أو بعيد وإنما دأب الكاتب على سرد أحداث القصة بما يوافق الأسس التي وضعت للتطوير،ر من ذلك هذه الصفحات والسطور من القصة المذكورة التي تدرس للطلاب.

وهذه نماذج من صفحات ٥٥، ٥٦، ٦٤، ٦٥، وغيرها كثير.

وثيقة رقم (٦) ملحق رقم (أ)
التطوير في كتب التاريخ

قام تطوير كتب التاريخ في المؤسسات التعليمية على أساس حذف التاريخ الإسلامي من التعليم الابتدائي، وأصبح يدرس بدلاً منه تاريخ الفراعنة. كما ألغي التاريخ الإسلامي من التعليم الإعدادي، وأصبح يدرس بدلاً منه تاريخ الوثنيات القديمة بالوطن العربي، وفي التعليم الثانوي حذف كثير من التاريخ الإسلامي، وما بقي منه لا يتعدى سوى صفحات معدودة لدرجة أن شخصية عمر بن الخطاب صارت تدرس في سبعة أسطر فقط، وسيدنا عثمان في خمسة أسطر وما يبقى منه محرف ومفرغ من مضمونه التربوي.

وهذه إحصائية بما تم كما ذكرتها جريدة الأسرة العربية في عددها الصادر في ٢٤ من ذو القعدة ١٤١٣هـ الموافق ١٦ مايو ١٩٩٣م.

تاريخ الدول الإسلامية	قبل التطوير ٨٥/ ١٩٨٦م	في عهد د. سرور ٨٨/ ١٩٨٩م	في عهد د. حسين كامل ٩١/ ١٩٩٢م
العصر النبوي.	٤٣ صفحة	٣٦	١٠
عصر الخلفاء الراشدين.	٤٣	٣٢	١٢
عصر الخلفاء الأمويين.	٣١	١٤	٦
عصر الخلفاء العباسيين.	٢٥	٥	٤
عصر الخلفاء العثمانيين.	٥٣	-	-
مصر الإسلامية والدول المستقلة «أي الخارجة على الخلافة».	٧٣	٤١	١٤
المجموع	٢٦٨	١٢٨	٤٦
نسبة المتبقي بعد الحذف.		٤٨٪	١٢٪

موضوعات التاريخ الإسلامية	قبل التطوير	في عهد د. سرور	في عهد د. حسين كامل
تاريخ الدول الإسلامية.	٢٦٧ صفحة	١٢٨	٤٦
الحضارة الإسلامية.	٥٦	٥٣	١٣١
حروب الصليبيين والتتار.	٣٣	٤٩	٧٠
مكافحة الاستعمار.	١٢٢	٦٧	٦٥
حالة العرب قبل الإسلام.	٣٧	١٣	١٠
الحضارة الفرعونية والحضارات القديمة.	١١٠	٣٦٠	٣٦٨



وثيقة رقم (٦)
ملحق (ب)

من كتاب «تاريخ مصر والعالم القديم» للصف الأول الثانوي ط ١٩٨٧ ص ١٥٥، ١٥٦ وهذا العرض للوصايا العشر لليهود على أنها نصوص حضارية.

فهل قتله الأنبياء هم المدافعون حقا عن الله؟ وقد أورد الكتاب هذه النصوص المحرفة في صفحتين في حين لم يورد في القرآن الكريم نص واحد.

وقد غضب رسول الله ﷺ لمجرد أن عمر أتي بنسجة من التوراة، فقال، يا رسول الله هذه نسجة من التوراة فسكت، فجعل عمر يقرأ، ورسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، أما ترى ما يوجه رسول الله ﷺ فنظرعمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: **أعوذ بالله من غضب الله ورسوله، رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا** فقال رسول الله ﷺ «**والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسي فإتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل ولو كان حيا وأدرك نبوتي لاتبعني**»: (أخرجه الدامي في المقدمة ج١/ ١٢٦(٤٣٥).

وقال ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فأنكم أما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، فإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني أخرجه الإمام أحمد ح ٣/ ٢٣٨ . وقال ابن حجر ورجاله موثقون.

وقد عنون به البخاري الباب برقم ٢٥ من كتاب الأعتصام وقال بن حجر واستعمله- البخاري- في الترجمة لورود ما يشهد بصحته من الحديث الصحيح» ح ١٣/ ٣٤٤ .

فكيف بعد هذا يؤتي بهذه النصوص المحرفة في مناهج التربية والتعليم!!



وثيقة رقم (٦) ملحق (ج) صورة

هذا النص من كتاب تاريخ مصر والعالم القديم والمقرر على طلبة الصف الأول من التعليم الثانوي وقد شوه المؤلف نبي الله سليمان، فوصفه بالإسراف، وأن ذلك كان سببًا في انقسام المملكة العبرانية إلى إسرائيل ويهوذا.

في حين أن الله تعالى ذكر عن سيدنا سليمان عبادته وإنابته لله عز وجل في سورة «ص» قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١) إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾(٢)، كذلك يدعي بأن «إخناتون» هو أول من نادى بالتوحيد، وهذا غير صحيح؛ لأنه من ذرية آدم عليه السلام أبي البشر.

وقد كان آدم مسلمًا موحدًا ، دعا الناس إلى توحيد الله. كما ادعى بأن اليهودية أول ديانة توحيدية بالمنطقة. وهذا غير صحيح؛ لأن الله سبحانه وتعالى أرسل لكل أمة رسولاً ليدعوهم إلى توحيد الله عز وجل، ولم تخل أمة من الأمم في عصر من العصور من رسول يدعوها إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٣).

---

(١) سورة ص: الآية ٣٠ .

(٢) سورة ص: الآية ٤٠ .

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥ .

وثيقة رقم (٧)
ملحق (أ)

كتب اللغة الإنجليزية التي ألفها أجانب وتدرس في مدارسنا تؤثر بشكل مباشر على أخلاق الطلاب ودينهم وسلوكهم، وهذا بدهي؛ لأن عادات الغرب وسلوكه تتناقض مع أخلاق أمتنا وعقائدها؛ ولذلك فإن هذه الكتب تغرس في فكر الطلاب مفاهيم غير سوية حول الاختلاط والإباحية والحب والغرام وغيرها من التقاليد الغربية، كما أنها تهدف إلى جعل الراقص والمغني ولاعب الكرة قدوة ومثلاً أعلى للطلاب.

وثيقة رقم (٧) ملحق رقم (ب) صورة

كما تقوم الروايات المقررة في مادة اللغة الإنجليزية بنفس الدور، فهذا الغلاف هو لقصة بعنوان (الكبرياء والتحامل) المقررة على الصف الثالث الثانوي أدبي. والقصة تدور حول امرأة عندها خمس بنات لا هم عندها إلا أن تزوجهن بأية وسيلة، وإحدى هؤلاء البنات وهي ليديا كانت على علاقة غير مشروعة هي وأختها «كتي» مع ضابط المليشيات، قررت «ليديا» الهروب مع عشيقها دارسي، وكذلك أختها وتساعدهما أمهما على ذلك. وهكذا تدور القصة حول الحب والغرام والرقص. والصورة الموضحة لغلاف القصة

تبين ما بداخلها. وترجمة هذا الغلاف كما يلي:

تعال يا «دارسي» أنا أكره أن أراك منطويًا على نفسك، فأنا أرى لك أن ترقص، ولكن لن أرقص؛ لأن أخواتك مشغولات كل واحدة مشغولة بالرقص مع آخر. ولا توجد امرأة أخرى أستطيع أن أرقص معها. قال «بنجلي» أخالني أكون مثلك، أنا لم أقابل بنات جميلات في حياتي كما رأيتهن هنا.

-ولكنك أنت ترقص مع السيدة الوحيدة الجميلة حسنة الهندام. قال «دارسي» وهو ينظر إلى السيدة بنت: آه هي أجمل مخلوق رأيته في حياتي، ولكن هناك واحدة من أخواتها جالسة خلفك مباشرة جميلة جدًّا وأقول: إنها مناسبة جدًّا. اسمح لي أن أطلب من هذه السيدة الحسناء أن تقدمك لابنتها.

هكذا يتعلم الطلاب أخلاق الحضارة الغربية: رقص، تحلل، ذهاب لمعاني الشرف، وهذا ما يرده «زويمر، ودنلوب» وغيرهما.



المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ - أبحاث في الاقتصاد الإسلامي، محمد فاروق النبهان، ط مؤسسة الرسالة، الأولى ١٩٨٦م .
٢ - أبحاث في المجتمع العربي، طعيمة الجرف، ط مكتبة القاهرة ١٩٦٥م .
٣ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م .
٤ - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، ط المكتبة التجارية بدون تاريخ.
٥ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقديسي، ط ليدن ١٩٧٠م .
٦ - الأحكام السلطانية، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ط السعادة ١٩٠٩م .
٧ - الأحكام السلطانية، أبو يعلى محمد بن الحسن الفداء الحنبلي، ط دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ/ ١٩٨٣م .
٨ - إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ط المكتبة التجارية .
٩ - أخبار الأذكياء، أبو الفرج بن الجوزي، ط مكتبة المتنبي ١٩٧٩م .
١٠ - الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، ط دار الكتب العلمية بدون تاريخ.
١١ - أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والغرب، سيد أحمد فرج، ط دار الوفاء ١٩٩٠م .
١٢ - الإدارة المصرية تحت السيطرة البريطانية، ط دار المعارف ١٩٨٦م .
١٣ - أزمة التعليم في العالم المعاصر وحلولها الإسلامية، زغلول راغب النجار، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٠م .
١٤ - أساليب الغزو الفكري، على جريشة، ط دار الاعتصام ١٩٨٦م .
١٥ - أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، ط مكتبة المعارف لبنان .
١٦ - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ط قطر كتاب الأمة (٤) .
١٧ - الاستعمار الأجنبي في الوطن العربي، عبدالملك خلف التميمي ١٩٨٣م- عالم المعرفة .
١٨ - الاستعمار كظاهرة عالمية، حورية مجاهد، عالم الكتب ١٩٨٥م .

١٩ - الاستعمار والاستغلال والتخلف، جلال يحيى، ط الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥م .
٢٠ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر، ط بيروت الرابعة ١٩٨٣م .
٢١ - أسرار الانقلاب العثماني، مصطفى طوران ترجمة كمال خوجة، ط المختار الإسلامي، سلسلة نحو وعي إسلامي رقم (٢) .
٢٢ - أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، سليمان الخطيب، ط الزهراء للإعلام الإسلامي الأولى ١٩٨٦م .
٢٣ - الإسلام، سعيد حوى، ط مكتبة وهبة ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م .
٢٤ - الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ترجمة عمر فروخ،/ ط دار العلم للملايين ١٩٧٧م .
٢٥ - الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، ط دار الشروق (١٧) .
٢٦ - الإسلام في وجه التغريب، أنور الجندي دار الاعتصام .
٢٧ - الإسلام وأثره في الحضارة، أبو الحسن الندوي، ط دار المنارة ط الأولى ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م .
٢٨ - الإسلام وأمريكا، محمد مورو، ط دار الروضة ١٩٩٢م .
٢٩ - الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، محمد يوسف موسى، ط مكتبة القومية- الثالثة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م .
٣٠ - الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ط دار التأليف ط الثالثة ١٩٦٨م .
٣١ - الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٢م .
٣٢ - الإسلام ومستقبل البشرية، عبدالله عزام، ط دار السلام ١٩٨٩م .
٣٣ - الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، ط دار الشروق ١٩٨٢م .
٣٤ - الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، دار المختار الإسلامي .
٣٥ - إشتراكية الإسلام، مصطفى السباعي، ط دمشق ١٩٥٩م .
٣٦ - الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ط دار المعرفة بيروت بدون .
٣٧ - أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان، ط دار عمر بن الخطاب .
٣٨ - أضواء على حاضر العالم الإسلامي، محمود عثمان، ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر ١٩٨٧م .
٣٩ - الأطماع الاستعمارية في الشرق الأوسط، د/ إبراهيم شريف، سلسلة كتب تصدرها منظمة الشباب، كتاب ٢٢ .
٤٠ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبو عبدالله محمد بابن أبي بكر المعروف بابن القيم، ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٦٨هـ- ١٩٦٨م .
٤١ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن القي،

تحقيق محمد حامد الفقي، ط المكتبة السلفية .
٤٢ - إفريقيا الإسلامية، عنايات الطماوي، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٨٩هـ- ١٩٧٠م .
٤٣ - الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، عبدالله التل، ط المكتب الإسلامي .
٤٤ - أفول شمس الحضارة الغربية، مصطفى فوزي غزال ط دار السلام .
٤٥ - أفيون الشعوب، عباس محمود العقاد، ط دار المعارف بيروت .
٤٦ - اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية- تحقيق محمد حامد الفقي، ط السنة المحمدية .
٤٧ - الإقطاع في العصور الوسطى، أحمد مصطفى زيادة، ط النهضة العربية ١٩٧٥م .
٤٨ - الله، عباس محمود العقاد، ط دار المعارف .
٤٩ - الله أو الدمار، سعد جمعة ط دار الاعتصام .
٥٠ - الإمبريالية من عصر الاستعمار إلى اليوم، هاري ملجدوف بيروت ١٩٨١م .
٥١ - أمريكا من الداخل، صلاح عبدالفتاح الخالدي، ط دار المنارة .
٥٢ - انتشار الإسلام في إفريقيا ومناهضة الغرب له، د. محمد عبدالله النقيرة ط دار المريخ- الرياض .
٥٣ - الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب دار الشروق .
٥٤ - الإنسان ذلك المجهول، الكسي كاريل ترجمة شفيق أسعد قريد ط مؤسسة المعارف بيروت .
٥٥ - الإنسان في العصر الحديث، جوليان هكسي، ترجمة رزق خطاب - بيروت .
٥٦ - الإنسان في القرآن، عباس العقاد ط دار نهضة مصر .
٥٧ - أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبدالفتاح عاشور، ط مكتبة الأنجلو ١٩٨٣م .
٥٨ - أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين، لجنة التأليف والترجمة .
٥٩ - أوروبا في مطلع العصور الحديثة، عبدالعزيز الشناوي، ط مكتبة الأنجلو ١٩٧٥م.
٦٠ - أوروبا في مواجهة الإسلام، عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة الأولى ١٩٨٥م .
٦١ - أوروبا والتخلف في إفريقيا، والتر دونى، ترجمة أحمد القصير عالم المعرفة (١٣٢) .
٦٢ - الإيمان: حقيقته وأركانه، محمد نعيم ياسين دار التوزيع والنشر الإسلامية .
٦٣ - بدائع الصنائع، علاء الدين أبو بكر مسعود الكاساني الحنفي ط دار الكتب العلمية بيروت .
٦٤ - البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي، ط دار الغد العربي ١٩٩٠م .
٦٥ - بروتوكولات حكماء صهيون، محمود خليفة التونسي ط دار الكتاب العربي .
٦٦ - بين الدين والعلم، جلال مظهر، ط البابي الحلبي .

٦٧ - تاريخ الإسلام العام، حسن إبراهيم حسن، ط مكتبة نهضة مصر ١٩٠٨م .
٦٨ - التاريخ الإسلامي، محمود شاكر ط المكتبة الإسلامية ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
٦٩ - تاريخ الأمة العربية، عبد الفتاح شحاتة/ مكتبة الكليات الأزهرية .
٧٠ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري .
٧١ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، هـ-أ- ل فشر، ترجمة مصطفى زيادة، ط دار المعارف ١٩٦٩م .
٧٢ - تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، ط بيروت .
٧٣ - تاريخ التعليم في مصر، أحمد عزت عبدالكريم- مكتبة النهضة المصرية ١٩٢٨م .
٧٤ - تاريخ الحضارة الأوروبية، كلود ديلمارس ترجمة كوليت حبيب، ط مكتبة الأنجلو.
٧٥ - تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت عالم المعرفة ١٦١ .
٧٦ - تاريخ الدولة العثمانية، على حسون، ط المكتب الإسلامي ط الثالثة ١٩٨٣م .
٧٧ - تاريخ الدولة العلية، محمد فريد، ط دار الجيل ١٩٧٧م .
٧٨ - تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ط بيروت ط السادسة عشرة ١٩٦٠م.
٧٩ - تاريخ العرب، فيليب متّى، ترجمة محمد، نافع مبروك ط دار المعارف ١٩٥٧م .
٨٠ - تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ط دار المعارف .
٨١ - تاريخ مصر والعرب الحديث، وزارة التربية والتعليم المصرية ٩٣/ ١٩٩٤م .
٨٢ - التاريخ النقدي للتخلف، رمزي زكي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت- عالم المعرفة (١١٨) .
٨٣ - التبشير والاستشراق، إبراهيم خليل أحمد، ط القاهرة ١٩٧٥م .
٨٤ - التبشير والاستعمار، عمر فروخ- مصطفى الخالدي، ط دار الكتاب اللبناني .
٨٥ - تجريد التمهيد .
٨٦ - التخلف والتنمية في العالم الثالث، ج.م البرتيني ترجمة زهير الحكيم، ط دار الحقيقة- بيروت .
٨٧ - تخليص الإبريز من تلخيص باريس، رفاعة الطهطاوي، ط الهيئة العامة للكتاب سلسلة المواجهة ١٩٩٣م .
٨٨ - الترغيب والترهيب، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، ط دار الخدمات الطباعية بدون تاريخ.
٨٩ - التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقادر عوده، ط- مؤسسة الرسالة ١٩٧٩م .
٩٠ - تطور الأدب الحديث، أحمد هيكل، ط دار المعارف ١٩٨٧م .
٩١ - التطور والثبات في حياة البشرية، محمد قطب، ط دار الشروق ١٩٩١م .
٩٢ - التطوير بين الحقيقة والتضليل، علي أحمد لبن، جمال عبدالهادي، ط دار الوفاء ١٩٩١م.

٩٣ - التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، ط الرابعة ١٩٨٣م .
٩٤ - تفسير القرآن الحكيم (المنار)، محمد رشيد رضا، ط بيروت الخامسة- ١٩٧٩م .
٩٥ - تفسير القرآن العظيم، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي، ط دار إحياء الكتب العربية .
٩٦ - التفسير الكبير، الفخر الرازي، ط دار الغد العربي .
٩٧ - تهافت العلمانية، عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٩٨ - تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن وهبة الشافعي، ط دار المسيرة ١٩٧٩م .
٩٩ - الثقافة الإسلامية، عبدالواحد الفار، ط جدة ١٩٨٠م .
١٠٠ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة- لبنان ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م .
١٠١ - الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي.
١٠٢ - جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، ط دار الشروق .
١٠٣ - الجذور التاريخية لإرساليات التبشير في مصر، خالد نعيم ط المختار الإسلامي ١٩٨٦م .
١٠٤ - جذور العلمانية، السيد أحمد فرج، ط دار الوفاء ١٩٨٧م .
١٠٥ - جمع الجوامع، الإمام جلال الدين السيوطي .
١٠٦ - جمهورية أفلاطون، ترجمة فؤاد زكريا، ط عالم المعرفة- الكويت .
١٠٧ - جيل العملاقة وقمم الشوامخ، في ميزان الإسلام- أنور الجندي، ط دار الاعتصام .
١٠٨ - حاضر العالم الإسلامي، لوتروب الأمريكي- ترجمة محيي الدين الخطيب.
١٠٩ - الحجاب، أبو الأعلى المودودي، ط دار الفكر بيروت .
١١٠ - الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان، ط دار الكتاب العربي .
١١١ - الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار، محمد عطية خميس، ط دار التراث العربي ١٩٨٢م .
١١٢ - حركة تحديد النسل، أبو الأعلى المودودي، ط الدار السعودية ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
١١٣ - الحركة الصليبية، سعيد عبدالفتاح عاشور ط مكتبة الأنجلو الثالثة ١٩٨٣م .
١١٤ - الحركة النسائية، إجلال خليفة، ط المطبعة العربية الحديثة ١٩٧٣م .
١١٥ - حرية الرأي في الميدان السياسي، أحمد جلال، حماد ط دار الوفاء ١٩٨٧م .

١١٦ - حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين، ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٢م .
١١٧ - الحضارة، أحمد حمدي، ط دار المعارف ١٩٨٩م .
١١٨ - الحضارة، حسين مؤنس، ط المجلس الوطني للثقافة عالم المعرفة رقم (١).
١١٩ - الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادئها، أبو الأعلى المودودي ط دار الخلافة .
١٢٠ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز- د. محمد عبدالهادي أبو ريدة ط الرابعة ١٩٦٩م .
١٢١ - الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة، د. عبدالغني عبود دار، ط الفكر العربي ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
١٢٢ - حضارة العرب، غوستاف لويون ترجمة عادل زعيتر، ط عيسى الحلبي، ١٩٥٦م.
١٢٣ - الحضارة الغربية والبديل الإسلامي، عبدالقادر طاش، ط المختار الإسلامي .
١٢٤ - حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبدالوهاب، ط مكتبة وهبة .
١٢٥ - حقيقة العلمانية بين الخرافة والتحريف، يحيى هاشم فرغلي، ط دار الصابوني ١٩٨٦م .
١٢٦ - حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ط المحاكم الشرعية بقطر سلسلة الأمة ٤ .
١٢٧ - حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي ط دار التراث العربي .
١٢٨ - الخراج، يحيى بن آدم القرشي ط دار المعرفة لبنان بدون تاريخ.
١٢٩ - الخراج، القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ط دار المعرفة لبنان بدون .
١٣٠ - الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، ط مكتبة وهبة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
١٣١ - دائرة المعارف، بطرس البستاني، ط بيروت بدون تاريخ.
١٣٢ - دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط دار المعرفة ١٩٧١م .
١٣٣ - دراسة في منهاج الإسلام السياسي، سعد أبو حبيب، ط مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٧٦م .
١٣٤ - دراسات في التاريخ الإسلامي، محمود محمد زيادة، ط دار التأليف ١٩٦٩م .
١٣٥ - دراسات في الحضارة الإسلامية، أحمد إبراهيم الشريف، ط دار الفكر ١٤٠٤هـ - ١٩٧٦م .
١٣٦ - دراسات في الفلسفة الحديثة، محمود حمدي زقزوق، ط دار الطباعة المحمدية.
١٣٧ - الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، محمد الغزالي، ط ذات السلاسل ١٤٠٠هـ - ١٩٨٧م .
١٣٨ - الدعوة إلي الإسلام، توماس أرنولد/ ترجمة حسن إبراهيم حسن، ط دار النهضة

المصرية ١٩٧٠م .
١٣٩ - الدعوة إلى الله تعالى، أبو المجد سيد نوفل ط مكتبة حسان ١٩٨٢م .
١٤٠ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، عبدالعزيز الشناوي، ط مكتبة الأنجلو ١٩٦٩م .
١٤١ - ديوان العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبدالرحمن بن خلدون المغربي، ط مصطفى البابي الحلبي بدون تاريخ.
١٤٢ - الدين، محمد عبدالله دراز، ط السعادة ١٩٦٩م .
١٤٣ - الدين والحضارة الإنسانية، محمد البهي، ط دار الهلال بدون تاريخ.
١٤٤ - الرجل الصنم، ضابط تركي سابق في الجيش التركي .
١٤٥ - الرحيق المختوم، صفى الرحمن المبار كفوري، ط دار الوفاء ١٤٠٠هـ .
١٤٦ - رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ط دار الفكر - بيروت .
١٤٧ - رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، محمد عمارة ط دار المستقبل العربي .
١٤٨ - روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالله طبارة ط دار العلم للملايين ط ١٩/ ١٩٧٩م.
١٤٩ - زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ط بيروت ١٩٨٠م .
١٥٠ - السكرية، نجيب محفوظ، ط مكتبة مصر ١٩٥٧م .
١٥١ - سموم الاستشراق والمستشرقون في العلوم الإسلامية، أنور الجندي، ط دار التراث الإسلامي .
١٥٢ - سنن ابن ماجه، عبدالله محمد بن يزيد المعروف بابن ماجه القزويني، ط دار إحياء الكتب العربية .
١٥٣ - سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة المعروف بالترمذي، ط دار الحديث .
١٥٤ - سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر المعروف بالدارقطني، ط دار الحديث بدون .
١٥٥ - السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط دار الوفاء ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .
١٥٦ - سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، حسن صبري الخولي، ط دار المعارف الأولى ٨-١٩ .
١٥٧ - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية،ابن تيمية، ط دار الأنصار ١٩٧٩م.
١٥٨ - السيرة النبوية، أبو محمد عبدالملك بن هشام، ط المؤسسة العربية الحديثة ١٩٦٤م .

١٥٩ - شجرة الحضارة، رالف لفتون، ترجمة أحمد فخري، ط مكتبة الأنجلو ١٩٦٩م.
١٦٠ - شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ط بيروت ١٩٧٩م .
١٦١ - شرح العقيدة الطحاوية، الإمام الطحاوي ط المكتب الإسلامي الرابعة ١٣٩١هـ .
١٦٢ - الشرق الأوسط في التاريخ الحديث، محمد ضياء الدين الريس، ط دار الأنصار ١٤٠٤هـ .
١٦٣ - الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس، محمد علي الغتيت، ط الدار القومية بدون تاريخ.
١٦٤ - شروط النهضة، مالك ابن نبي، ط دار الفكر - دمشق .
١٦٥ - شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه ط دار الآفاق الأولى ١٩٧٩م .
١٦٦ - صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الخافجي البخاري ط المكتبة السلفية .
١٦٧ - صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ط بيروت .
١٦٨ - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، أبو الحسن الندوي، ط دار القلم الكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
١٦٩ - الصربيون خنازير أوروبا يحاولون إبادة الوجود الإسلامي في البلقان، عبدالحي الفرماوي، ط دار الاعتصام ١٩٩٣م .
١٧٠ - الصفحات الأخيرة من حضارتنا، عبدالحليم عويس، ط المختار الإسلامي ١٩٧٥م.
١٧١ - صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط دار القرآن ١٩٨٠م .
١٧٢ - صور من حياة التابعين، عبدالرحمن رأفت الباشا، ط وزارة المعارف بالسعودية .
١٧٣ - صناعة الجوع، ترجمة أحمد حسان، ط عالم المعرفة الكويت .
١٧٤ - طائفة الدروز وتاريخها وعقائدها، محمد كامل حسين، ط دار المعارف ١٩٦٨م.
١٧٥ - الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع البصري، ط دار صادر بيروت .
١٧٦ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، ط المدني .
١٧٧ - طه حسين: الجريمة والإدانة، جابر رزق، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م .
١٧٨ - ظلام من الغرب، محمد الغزالي، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م .
١٧٩ - ظهر الإسلام، أحمد أمين، ط دار التراث العربي .
١٨٠ - العالم الإسلامي، أحمد شاكر، ط المكتب الإسلامي ١٩٨٩م .
١٨١ - العالم الإسلامي والمستقبل، مركز دراسات العالم الإسلامي .
١٨٢ - العالم المعاصر والصراعات الدولية، عبدالخالق عبدالله، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

١٨٣ - العالم والغرب، أرنولد تويني، ترجمة نجدة هاجر ط بيروت ١٩٦٠م .
١٨٤ - العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ط مؤسسة الرسالة ط ١٢ .
١٨٥ - العبودية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، ط المكتبة السلفية .
١٨٦ - العثمانيون والروس، علي حسون، ط المكتب الإسلامي ١٩٨٢م .
١٨٧ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبدالرحمن الجبرتي، ط دار الأنوار المحمدية.
١٨٨ - العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، ط دار الشروق ط ٩ ١٩٨٣م .
١٨٩ - العدالة العمرية، عبدالعزيز حافظ دنيا، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ك٢ س١٩ ١٩٨٨م .
١٩٠ - عصر إسماعيل، عبدالرحمن الرافعي، ط دار المعارف ١٩٨٢م .
١٩١ - عصر محمد علي، عبدالرحمن الرافعي، ط دار المعارف ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
١٩٢ - العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ط دار الكتاب العربي ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .
١٩٣ - العقل المسلم والرؤية الحضارية، عماد الدين خليل، ط دار الأنصار ١٩٨٣م .
١٩٤ - العلاقات الدولية في مطلع العصور الحديثة، سمير أبو العينين، ط القاهرة ١٩٨٩م .
١٩٥ - العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، أبو الفرج بن الجوزي، ط دار الفكر .
١٩٦ - العودة إلى المنابع، أنور الجندي، ط دار الاعتصام بدون تاريخ.
١٩٧ - الغارة على العالم الإسلامي، د. ستاليه ترجمة مساعد الياني- محب الدين الخطيب - بيروت .
١٩٨ - الغرب والعالم، ترجمة محمد المسيري، ط المجلس الوطني بالكويت عالم المعرفة ٩٠ .
١٩٩ - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، عبدالستار فتح الله سعيد، ط دار الوفاء ١٩٨٨م .
٢٠٠ - غزو في الصميم، عبدالرحمن حبنكه ط دار القلم - بيروت .
٢٠١ - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي ط مؤسسة الرسالة ط٢ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .
٢٠٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط دار الريان ١٩٨٠م .
٢٠٣ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ط دار الحديث بيروت .
٢٠٤ - فتوح البلدان، أبو الحسن البلاذري، ط بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
٢٠٥ - فخ الديون الخارجية وصندوق النقد والعالم الثالث، تشريل بير، ترجمة بدرية

عقل، ط دار الطليعة بيروت ١٩٧٧م .
٢٠٦ - فقه الدعوة والإعلام، عمارة نجيب، ط دار المعارف- الرياض (١٩٩٧) .
٢٠٧ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي ط مكتبة وهبة ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
٢٠٨ - الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، محمود عثمان، ط الدار الإسلامية ١٩٨٥م .
٢٠٩ - فلسفة الحضارة الإسلامية، عفت الشرقاوي، ط دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١م .
٢١٠ - الفلسفة المعاصرة في أوروبا، بوشنكي، ترجمة عزت قرني، ط المجلس الوطني بالكويت- عالم المعرفة (٦٥) .
٢١١ - الفهرست، أبو يعقوب محمد بن إسحاق الوراق المعروف بابن النديم .
٢١٢ - في ظلال القرآن، سيد قطب، ط دار الشروق، ط العاشرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
٢١٣ - قادة الغرب يقولون/ دمروا الإسلام.. أبيدوا أهله!! جلال العالم ط دار المختار الإسلامي .
٢١٤ - قادة المغرب العربي، محمود شيت خطاب، ط دار الفكر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
٢١٥ - قاسم أمين، ماهر حسن فهمي، سلسلة أعلام العرب ط الهيئة العامة بدون تاريخ.
٢١٦ - القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، ط دار المعرفة لبنان .
٢١٧ - قصة الحضارة، ول ديورانت ترجمة فؤاد أندراوس، ط جامعة الدول العربية .
٢١٨ - قصة حياتي، أحمد لطفي السيد، سلسلة المواجهة- الهيئة العامة للكتاب .
٢١٩ - قصة الفلسفة، ول ديورانت، ط مكتبة دار المعارف ط الرابعة .
٢٢٠ - قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار .
٢٢١ - قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، زغلول راغب النجار، ط قطر كتاب الأمة رقم ٢ .
٢٢٢ - القومية... معناها وتاريخها، هانس كوهن، ط مكتبة نهضة مصر .
٢٢٣ - القومية والغزو الفكري علي عبدالحليم، ط دار الفكر الثانية ١٩٨٢م .
٢٢٤ - القيم الحضارية في رسالة الإسلام، محمد فتحي، عثمان ط الدار السعودية ١٩٨٥م .
٢٢٥ - قيم حضارية في القرآن، محمد توفيق، سبيع ط دار المنار ١٩٨٤م .
٢٢٦ - الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن بن علي بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير ط دار صادر بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
٢٢٧ - الكنز المرصود في قواعد التلمود، روهلنج بدون تاريخ.

٢٢٨ - لسان العرب، جمال الدين بن منظور، ط دار المعارف ١٩٧٩م .
٢٢٩ - لعبة الأمم، مايلز كوبلاند ترجمة مروان خير، ط بيروت .
٢٣٠ - لماذا اغتيل الإمام الشهيد، عبدالمتعال الجبري، ط دار الاعتصام .
٢٣١ - مآثر العرب على الحضارة الأوروبية، سليمان مظهر، ط الدار القومية ١٩٦٠م .
٢٣٢ - المؤامرة على التاريخ الإسلامي، جمال الدين عبدالهادي ط دار الوفاء ١٩٩٠م .
٢٣٣ - المؤامرة على التعليم والمعلم، نقابة المعلمين- ط دار الوفاء بدون .
٢٣٤ - المؤامرة على المرأة المسلمة، سيد أحمد فرج، ط دار الوفاء ١٩٨٦م .
٢٣٥ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ط دار القلم الكويت.
٢٣٦ - الماسونية، جواد رفعت اتلخان ترجمة نور الدين الواعظ، ط مجلة الأزهر .
٢٣٧ - الماسونية عقدة المولد وعار النهاية، محمود ثابت الشاذلي، ط مكتبة مكة ١٩٨٦م .
٢٣٨ - الماسونية في المنطقة، أبو إسلام، ط دار الاعتصام ١٩٨٦ .
٢٣٩ - مؤشرات حول الحضارة الإسلامية، عماد الدين خليل، ط دار الأنصار .
٢٤٠ - المال والحكم في الإسلام، عبدالقادر عوده، ط دار المختار الإسلامي .
٢٤١ - ما يجب أن يعرفه المسلم عن النصرانية والتبشير، محمد سليمان الجيهان- ط الهيئة العامة للبحوث والنشر السعودية ١٩٧٩م .
٢٤٢ - المجتمع الإسلامي، علي عبدالواحد وافي، ط دار الأمل الكويت ١٩٨٥م .
٢٤٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط دار الكتاب العربي ١٩٨٩م .
٢٤٤ - مجموع الفتاوى الكبرى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ط دار التقوى ١٩٩١م .
٢٤٥ - محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ط دار الفكر بيروت ١٩٧٨م .
٢٤٦ - محاضرات في النظم الإسلامية، عمارة نجيب، ط الرياض بدون .
٢٤٧ - محنة الأقليات المسلمة في العالم، محمد عبدالله السمان، ط الأمانة العامة للدعوة ١٩٨٦م .
٢٤٨ - مختصر دراسة التاريخ، أرنولد توينبي، ط جامعة الدول العربية ١٩٧٩م .
٢٤٩ - المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، محمد محمود الصواف، ط دار الاعتصام ١٩٨٦م .
٢٥٠ - المخططات التلمودية في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي ط دار الاعتصام ١٩٧٧م .
٢٥١ - مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ط دار الشروق ١٩٨٩م .
٢٥٢ - مذكرات السلطان عبد المجيد، محمد حرب عبدالحميد، ط دار الأنصار ١٩٧٨م.
٢٥٣ - المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري، محسن عبدالحميد، ط قطر سلسلة كتاب

الأمة رقم .
٢٥٤ - المرشد الأمين للبنات والبنين، رفاعة الطهطاوي، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢م.
٢٥٥ - المستدرك على الصحيحين، الإمام الحافظ الحاكم النيسابوري، ط المكتبة السلفية ١٩٧٩م .
٢٥٦ - المستشرقون، نجيب العقيقي، ط دار المعارف ١٩٧٨م .
٢٥٧ - المستشرقون والتاريخ الإسلامي، علي حسن الخربوطلي، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٨٥م .
٢٥٨ - مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، ط دار المعارف ١٩٦٩م .
٢٥٩ - المستقبل لهذا الدين، سيد قطب، ط دار الشروق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
٢٦٠ - المسلمون في تاريخ الحضارة، ستانوركب ترجمة محمد فتحي عثمان، ط الدار السعودية ١٩٨٦م .
٢٦١ - المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، عبدالله عبدالرازق إبراهيم ط عالم المعرفة رقم ١٣٩ .
٢٦٢ - المسند، أحمد بن حنبل الشيباني ط دار صادر بيرون بدون تاريخ.
٢٦٣ - مسند الشهاب، القضاعي .
٢٦٤ - مسند الفاروق، الحافظ إسماعيل بن كثير تحقيق عبدالمعطي، أمين قلعجي، ط دار الوفاء ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .
٢٦٥ - مسند الفردوس، الإمام الديلمي، ط دار الكتب العلمية بيروت بدون .
٢٦٦ - المسيحية، أحمد شلبي ط مكتبة النهضة ط الثامنة ١٩٨٤م .
٢٦٧ - المسيحية الرابعة، رؤوف شلبي، ط مكتبة الأزهر بدون تاريخ.
٢٦٨ - المشكلة الأخلاقية، أنريه كرشن ترجمة عبدالحليم محمود دار المعارف ١٩٨٢م.
٢٦٩ - مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، البوصيري ط المكتبة الإسلامية مصر بدون.
٢٧٠ - مضغة النظم الإسلامية، مصطفى كمال وصفي ط وهبة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
٢٧١ - معالم الثقافة الإسلامية، عبدا لكريم عثمان، ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٢م .
٢٧٢ - معالم الحضارة الإسلامية، عبد الله ناصح علوان، ط دار السلام ١٩٨٤م .
٢٧٣ - معالم في التربية، عجيل جاسم النشمي، ط دار المنار الكويت ١٩٨٠م .
٢٧٤ - مع القرآن في عالمه الرحيب، عماد الدين خليل، ط دار العلم للملايين م١٩٨٦م.
٢٧٥ - معالم في الطريق، سيد قطب دار الشروق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٢٧٦ - معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير، محمد سليمان الجيهان، ط بيروت ١٩٧٩م .

٢٧٧ - المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ط بغداد ١٩٧٩م .
٢٧٨ - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالسلام هارون ط ١٩٦٩م .
٢٧٩ - المعجم الوسيط، ط مجمع اللغة العربية، ط الثانية بدون تاريخ.
٢٨٠ - المغازي، محمد بن عمر بن واقد المعروف بالواقدي، ط مؤسسة الأعلى بدون.
٢٨١ - المغني، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن قدامة، تحقيق محمد سالم محيسن، ط مكتبة الكليات الأزهرية بدون تاريخ.
٢٨٢ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي ط دار الغد العربي ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
٢٨٣ - مفتريات اليونيسكو على الإسلام، محمد عبدالله السمان، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
٢٨٤ - مقتبس الأثر ومجدد ما دثر المعروفة بدائرة معارف الأعلمي، حسين سليمان الأعلمي ط ١٩٦٦م .
٢٨٥ - مقدمات في فهم الحضارة، محمد على ضناري، ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٠م .
٢٨٦ - مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ط الرابعة دار الشروق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
٢٨٧ - من أساليب الدعوة في القرآن والسنة، أبو المجد سيد نوفل ط مكتبة حسان ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
٢٨٨ - من التبعية إلى الأصالة، أنور الجندي، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م .
٢٨٩ - من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ط دار الإرشاد ١٩٦٨م .
٢٩٠ - المنظمات الدولية، جعفر عبدالسلام، ط دار النهضة العربية ١٩٧٩م .
٢٩١ - منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط دار الشروق ١٩٧٨م .
٢٩٢ - المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، ط مكتبة المنار ١٩٨٩م .
٢٩٣ - موارد الظمآن، ابن حبان .
٢٩٤ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، ط النيل ١٩٢٥م .
٢٩٥ - الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى الغرناطي المعروف بابن إسحاق الشاطبي، دار المعرفة بدون تاريخ.
٢٩٦ - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، محمد عبدالله عناية، ط دار المعارف ١٩٧٩م.
٢٩٧ - الموسوعة النجية للعلوم الإسلامية، فاطمة محجوب، ط دار الغد العربي ١٩٩٤م.

٢٩٨ - موسوعة المصطلحات الصهيونية، ط مؤسسة الأهرام ١٩٧٥م .
٢٩٩ - موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي ط النهضة العربية ١٩٧٥م.
٣٠٠ - موقف الدعوة الإسلامية من التضامن الدولي، رسالة ماجستير للباحث- كلية أصول الدين بالمنصورة .
٣٠١ - نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، ط دار الفكر بدون .
٣٠٢ - نصب الراية لأحاديث الهداية، الإمام الزيلعي، ط الدار الكتب الإسلامية ١٩٧٣م.
٣٠٣ - النصرانية، محمد أبو زهرة، ط دار الفكر .
٣٠٤ - نظرية الإسلام وهديه، أبو الأعلى المودودي، ط دار السعودية ١٩٧٩م .
٣٠٥ - نظرية الدولة، مجدي ضهري، ط المكتبة العالمية المنصورة ١٩٩١م .
٣٠٦ - النظم السياسية، ثروت بدوي، ط دار النهضة العربية ١٩٧٢م .
٣٠٧ - النظم السياسية، جورج شفيق، ط المكتبة العالمية ١٩٩٠م .
٣٠٨ - النفط والعلاقات الدولية، د. محمد الرميحي، ط عالم المعرفة .
٣٠٩ - النفوذ اليهودي في المؤسسات الدولية، فؤاد سيد عبدالرحمن الرفاعي، ط الكويت ١٩٨٠م .
٣١٠ - نهضة مصر، أنور عبدالملك، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م .
٣١١ - هذا الدين، سيد قطب، جامعة القاهرة ١٩٨٥م .
٣١٢ - هموم داعية، محمد الغزالي، ط دار البيان العربي ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٣١٣ - واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة- جدة .
٣١٤ - الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، ط دار النفائس ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
٣١٥ - وجاء أبو بكر، خالد محمد خالد، ط دار المعارف ١٩٩٠م.



فهرس الموضوعات

الموضوع | رقم الصفحة

